الرافدين على الجلالين

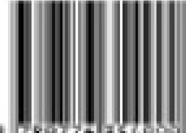
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٨٣٤٠م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨



الدار العالمية للنشر والتحقيق

العالمية للثقافة الدولية

 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء السادس عشر




بسم الله الرحمن الرحيم

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩).

{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْك} مِنْ رَبّك {وَاصْبِرْ} عَلَى الدَّعْوَة وَأَذَاهُمْ {حَتَّى يَحْكُم الله} فِيهِمْ بِأَمْرِهِ {وَهُوَ خَيْر الْحَاكِمِينَ} أَعْدَلهمْ وَقَدْ صَبَرَ حَتَّى حُكِمَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِالْقِتَالِ وَأَهْل الْكِتَاب بالجزية[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} [يونس: ١٠٩]، أي:"واتبع -أيها الرسول- وحي الله الذي يوحيه إليك فاعمل به".

قال البيضاوي: أي:"بالامتثال والتبليغ".

قال ابن كثير:"أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه".

قوله تعالى: {وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ} [يونس: ١٠٩]، أي:"واصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أذى من آذاك في تبليغ رسالته، حتى يقضي الله فيهم وفيك أمره".

قال ابن كثير: أي:"واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، {حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ}، أي: يفتح بينك وبينهم".

قال البيضاوي: أي:"واصبر على دعوتهم وتحمل أذيتهم. حتى يحكم الله بالنصرة أو بالأمر بالقتال".

قال القرطبي:"قيل: نسخ بآية القتال: وقيل: ليس منسوخا، ومعناه اصبر على الطاعة وعن المعصية. وقال ابن عباس: لما نزلت جمع النبي ﷺ الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم فقال: «إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض». وعن أنس بمثل ذلك، ثم قال أنس: فلم يصبروا فأمرهم بالصبر كما أمره الله تعالى، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان:

ألا أبلغ معاوية بن حرب أمير المؤمنين نثا كلامي

=

=

بأنـــا صـــابرون ومنظـــروكم إلـــى يـــوم التغـــابن والخـــصام"

قولـه تعـالى: {وَهُـوَ خَيْـرُ الْحَـاكِمِينَ} [يـونس: ١٠٩]، أي:"وهـو ﷻ خيـر الحاكمين؛ فإن حكمه مشتمل على العدل التام".

قال القرطبي:"ابتداء وخبر، لأنه ﷻ لا يحكم إلا بالحق".

قال ابن كثير:"أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته".

قال البيضاوي:"إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر".

عن أصبغ بن الفرج قال: "سمعت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قول الله: {وهو خير الحاكمين}، قال: هذا منسوخ حتى يحكم الله بجهادهم وأمره بالغلظة عليهم".

وقد امتثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعد ما نصره الله عليهم، بالحجة والبرهان، فلله الحمد، والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله، وعظمته، وكماله وسعة إحسانه.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها: قوله تعالى: "الر تلك آيات الكتاب الحكيم " وفى سورة لقمان "الم تلك آيات الكتاب الحكيم " وفى مطلع يوسف: "الر تلك آيات الكتاب المبين " فافتتحت تلك السور الثلاث بعد الحروف المقطعة فى مطالعها بالاشارة إلى الكتاب المذكر به والمنبه بآياه فقيل: "تلك آيات الكتاب " ثم وصفه فى السورتين بالحكيم وفى سورة يوسف بالمبين فيسأل عن ذلك؟

والجواب والله أعلم ان سورتى يونس ولقمان تردد فيهما من الآيات المعتبر بها المطلعة على عظيم حكمته تعالى واتقانه للأشياء ما لم يرد فى سورة يوسف كقوله

=

=

تعالى: "إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام " وخلق السماوات والأرض وما انطوت عليه من أعظم المعتبرات قال تعالى: "لخلق السماوت والأرض أكبر من خلق الناس " وقال تعالى: "إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين " وقد تبع الآية المذكورة من سورة يونس ما يجاريها فى التنبيه بما به الاعتبار كقوله تعالى: "هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب " إلى قوله: "لقوم يعلمون " ثم قال تعالى: "إن فى اختلاف اليل والنهر وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون إن الذين لا يرجون لقاءنا " لم يتخللها ما يخرج عن باب الاعتبار من حكم أو غيره ولا من القصص الا ما تضمن اعتبارا كالوارد من قصة نوح من قومه لقومه: "يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى..." الآية إلى قوله: "ثم اقضوا إلى ولا تنظرون "، والمراد من هذا الكلام تعجيزهم وقطعهم عما كانوا يرومون من الكفر به عليه السلام وإرادة إهلاكه وقد قطع عليه السلام بنصرة الله إياه عليهم وقطعهم دون ما يرومونه وإن تألبوا واجتمعوا وذكر عليه السلام شركاءهم وأن يكونوا معهم تهكما بهم وتوبيخا على اعتمادهم على مالا يعقل ولا يضر ولا ينفع وفى هذا كله أعظم معتبرة ثم ذكر تعالى نجاة نوح عليه السلام منهم فى الفلك هو ومن آمن معه وجعلهم خلائف وإغراق أعدائهم من المكذبين ولم يغن عنهم كيدهم.

ولم يرد هذا الضرب المقتضب من قصة نوح عليه السلام على هذه الصفة فى غير هذه السورة لما قدمنا ذكره ولم يكن ليناسب ما بنيت عيه السورة غير هذا الوارد.

ومن نحو هذا ما ورد فيها من قصة موسى عليه السلام ودعائه فى قوله: "ربنا اطمس على أموالهم "فكان ذلك حسب ما دعاه إلى ذكر إغراق فرعون وملئه وطمعه فى الإيمان حين أدركه الغرق فقال: "آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل " فلم ينفعه ذلك لفوات وقته فاقتصر أيضا على هذا القدر من قصة موسى عليه السلام لما

=

=

تقدم من مناسبة هذه السورة.

وأما سورة لقمان فورد فيها قوله تعالى: "خلق السماوات والأرض بغير عمد ترونها " إلى قوله: "هذا خلق الله " وبعد ذلك قوله تعالى: "ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات والأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة " وقوله: "إن الله غنده علم الساعة..." الآية وفى هذه السورة أيضا ما منح لقمان من الحكمة وما انطوت عليه قصته من حكمة وما صدر عنه فى وصيته ولم تخرج آى هذه السورة عن هذا فهذا وجه وصف الكتاب فى هاتين السورتين بالحكيم.

وأما سورة يوسف عليه السلام فلم تنطو على غير قصته وبسط التعريف بقضيته وبيان ما جرى له مع أبيه من فراقه وامتحانه بإلقائه فى الجب والبيع والتعرض له بالفتنة وتخلصه بسابق اصطفائه مما كيد به وابتلائه بالسجن وجمعه بأخيه واشتمال شملة بأبيه عليهما السلام واخوته ولم تخرج آية من آى هذه السورة عن هذا من بسط هذه القصة فلهذا اتبع الكتاب بالوصف بالمبين.

فقد وضح ورود كل من الموضعين على ما يجب ويناسب والله أعلم.

فإن قيل فما وجه ورود الميم فى سورة لقمان مكان الراء فى قوله تعالى: "الر"فى السورتين فقيل فى مطلع لقمان: "الم " مع موافقتها سورة يونس عليه السلام فيما تمهد ثم خالفتها فى هذه فقيل: "الم " فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

والجواب عن ذلك -والله أعلم- ان سورة لقمان تضمنت من التنبيه والتحريك والاعتبار إفصاحا وإيماء للمؤمن والكافر مالم تتضمن سورة يونس على طولها وان كانت آيها كلها آى اعتبار الا انها ليست كالوارد من ذلك فى سورة لقمان فمن التنبيه المتضمن تقريع من عبد غيره سبحانه قوله تعالى بعد ذكر خلق السماوات بغير عمد وارساء الأرض بالجبال وذكر ما بث فيها من الدواب وانزال الماء من السماء وذكر ما أنبت سبحانه به من كل زوج بهيج فقال تعالى: "هذا خلق الله

=

=

فأرونى ماذا خلق الذين من دونه " ولا نجد مثل هذا حيث تراد المبالغة فى توبيخ من عبد اله غيره.

ويجارى هذا فى هذا القصد الا أنه أرفق فى التعنيف قوله تعالى فى سورة يونس: "قل هل من شراكائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده..

"الآيات الا انها ليست كآية لقمان ولا ختمت بمثل ما ختمت به وقد تكرر هذا فى آيات وآية لقمان من أشدها وعيدا ولعظيم ما انطوت عليها اتبعها تعالى بتأنيس نبيه ﷺ بعد قصة لقمان بقوله: "ومن كفر فلا يحزنك كفره " وبإخباره انهم لو سئلوا من خلق السماوات والأرض لم يجدوا مصرفا غير الاعتراف فقال تعالى: "ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله " ليعلم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ذلك من حالهم جار عليهم بقدر الله وما سبق فى علمه وهو الحكيم فى أفعاله.

ومن التنبيه للمؤمنين ولغيرهم – ممن سبقت له السعادة – قوله مخاطبة لنبيه ﷺ والمؤمنين: "ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم عمه ظاهرة وباطنة " وقوله تعالى: "ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار...." الآية وقوله تعالى: "ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر..." الآية فورد هذا التنبيه بهمزة التقرير ولم الجازمة وهى الأداة المتكررة فى آى التنبيه فتكررت فى هذه السورة فى ثلاث آيات ولم تقع متكررة فى شئ مما أتى بعدها من السور إلى آخر القرآن ولا فى سورة مما قبلها مما يماثلها فى عدد كلمها ولا فيما هو على الضعف منها الا فى سورة فاطر وهى أطول من سورة لقمان فتناسب ذلك مع ما فى هذه السورة من التنبيه فى مطلعها بوقوع الميم مكان الراء الواردة فى مطلع سورة يونس.

وأما سورة يونس فمبنية على التعريف بربوبيته تعالى وقصره وقد ابتدأت ثالثة آيها بقوله تعالى: "إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام " ثم تكرر فيها اسمه الرب سبحانه فى بضعة عشر موضعا أولها هذا وآخرها قوله تعالى: "قل

=

=

يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم " ولم يرد من هذا فى سورة لقمان غير قوله تعالى: "يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده..." الآية ثم إنه تكرر فى سورة يونس من الكلم الواقع فيها الراء مائتا وعشرون كلمة أو نحوها وأقرب السور إليها مما يليها بعدها من غير المفتتحة بالحروف المقطعة من سورة النحل وهى أطول منها والوارد فيها مما تركب على الراء من كلمها مئتا كلمة مع زيادتها فى الطول عليها فلمجموع ما ذكرنا وردت فى الحروف المقطعة الراء مكان الميم الواردة فى لقمان وجاء كل على ما يجب ويناسب والله أعلم.

الآية الثانية من سورة يونس قوله تعالى: "ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم " وقال فى الأنبياء: "قال أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم " وقال فى سورة الفرقان: "ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم " فقدم فى سورة يونس ما أخر فى سورة الأنبياء والفرقان فيسأل عن ذلك؟

والجواب عنه -والله أعلم- ان الموجب لتأخير "ولا ينفعهم " فى سورة يونس ما وصل به من قولهم: "ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " فكأن قد قيل: ويعدبون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويزعمون أن ذلك ينفعهم لوم يكن ليناسب لو قيل: "ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " تناسب الوارد من متصل قوله: "ولا ينفعهم " بقوله: "ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " فلما كان الاتصال فيما ذكر أنسب وردت الآية بحسب ذلك.

أما آية الفرقان فإن قبلها ذكر دلائل وشواهد من مصنوعاته تعالى يهتدى المعتبر بالنظر فيها تخلصه من ورطات الشكوك ويستقيم له دينه وذلم أعظم النفع وأجله وقال تعالى: "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل " إلى قوله: "وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان بك قديرا " فلما تقدم التنبيه بهذه الآيات الواضحات الموقظات من سنات الغفلات والمحصلات أعظم النفع فى امتثال

=

=

الواجبات والنجاة من الضلالات ناسبها تقديم ما قدم فى الآية من قوله: "ويعبدون من دون الله ما لا يتفعهم ولا يضرهم " وصار الكلام بقوته مجاوبا لقوله: "أفمن يخلق كمن لا يخلق " وورد كل على ما يجب والله أعلم.

الآية الثالثة من سورة يونس: قوله تعالى: "قل من يرزقكم من السماء والأرض " وفى سورة سبأ: "قل من يرزقكم من السماوت والأرض " فأفرد لفظ السماء فى الأولى وجمع فى الثانية مع اتحاد المعنى والتساوى فى ألفاظ الآية غير ما ذكر فيسال عن ذلك؟

والجواب عنه ان الافراد الوارد فى آية يونس محصل للمعنى مع الإيجاز فورد هنا على ما يجب وأما الوارد فى سورة سبأ على الجمع فروعى فيه ما تقدم من قوله تعالى: "قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شركاء وماله من ظهير " والمراد بذلك نفى الشركاء له تعالى ثم عاد الكلام إلى ذلك أيضا فقال تعالى: "قل من يرزقكم من السماوات والأرض " على الجمع مناسبة إذ الآية قبل وهذه فى قضية واحدة وهى نفى الشركاء والأنداد فجاءت على ما يناسب التى قبلها.

فإن قيل: فلم ورد الجمع فى قوله فى الأولى: "لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات " وقد كان لفظ الافراد يحرز هذا المعنى مع أنه أوجز؟ فالجواب ان ما قصد من قطه توهمهم أن شركاءهم ينفعونهم أو يملكون شيئا وان قل والتصرف فى شئ مما قصد من هذا يقتضى تعميم النفع وتأكيد هذا الغرض بأعم ما يعبر به ذلك فناسب ذلك جمع السماوات ولم يكن الافراد ليناسب ثم نوسب بين هذه الآى التى بعدها فى الجمع ولم يكن فى آية يونس ما يستدعى ذلك فجاء كل على ما يجب ويناسب والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة يونس قوله تعالى: "كذلك حقت كلمة ربك على الذين

=

فسقوا أنهم لايؤمنون " وقال فى سورة المؤمن: "وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار "، للسائل أن يسأل هنا عن قوله فى الأولى "كذلك " بغير حرف عطف وفى الثانية "وكذلك " وعن قوله فى الأولى: "على الذين فسقوا " وفى الثانية: "على الذين كفروا " وعن قوله فى الأولى: "أنهم لايؤمنون " وقوله فى الثانية: "أنهم أصحاب النار "؟ فتلك ثلاث مسائل.

والجواب: أنه لما تقدم فى سورة يونس قوله تعالى: "قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار " إلى قوله: "فأنى تصرفون " فذكر سبحانه عباده بما لا يجدون محيصا عن إضافة ذلك كله وإسناده إليه سبحانه إذ الرزق كالخلق وقد كانوا يقرون بإسناد الخلق إليه سبحانه قال تعالى: "ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله " وأخبر هنا سبحانه باعترافهم بإسناد ما قرروا عليه إليه بقوله: "فسيقولون الله " قيل لهم: "أفلا تتقون " أى عجبا لكم كيف تجمعون بين الاقرار بهذا كله ثم لا تخافون من إليه ذلك كله وتتخذون وقاية من عذابه على مخالفتكم ثم قيل لهم: "فذلكم الله ربكم الحق " أى مالك ذلك كله والمنفرد بتدبيره هو ربكم الحق فكيف تنصرفون عنه ثم أخبر تعالى أن كلمته التى لا مبدل لها حقت على من انصرف عن الحق وتركه بعد بيانه بحسب ما قدر له فى الأزل ولم يقلع عن ذلك أنه لا يؤمن أبدا "إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية " ولما لم يتقدم قبل هذه الآيات فيما اتصل بها مقال من ذكر ممن حقت عليه كلمة العذاب أتى قوله: "كذلك حقت " فصورة الاستئناف غير معطوفة إذ لم يتقدم ما يعطف عليه وقيل "فسقوا " لأن بما تقدم مما قرروا عليه مع ما جعل لهم من الاسماع والابصار والافئدة مكنوا من النظر بما خلق لهم من الادوات ووضوح المنظور فيه فبمجموع هذا كله كانوا بمنزلة من تحصل الأجر وكأنه قج اتصف به وتمكنت حاله فيه ثم تركه وخرج عنه ونظير هذا قوله تعالى:

=

"أولئك ال ذين اشتروا الضلالة بالهدى " فلاءم هذا الحال وسمهم بالفسق فقيل: "على الذين فسقوا " فاستحقوا على فسقهم بقدر الله عليه أن منعوا التصديق وهو الإيمان فأضلهم الله على علم.
أما آية غافر فإنه تقدم قبلها قوله تعالى: "ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا " ثم أعقب بذكر قوم نوح والأحزاب وهم كل أمة منهم برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذهم الله وأهلكهم بما حق عليهم.
ثم قال تعالى: "وكذلك حقت كلمات ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار " وأهلها فكيف يصح منهم الإيمان وقد حقت عليهم الكلمة: "أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار " فلما تقدم فى هذه السورة ذكر من حقت عليه كلمة العذاب عطف عليه: "وكذلك حقت " ولم يتقدم ذلك فى يونس ولما تقدم قوله تعالى: "ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا " ولم يتقدم بسط دلالات مما به الاعتبار لم يكن هؤلاء بمنزلة المذكورين فى يونس وإن كانت الدلالات عنده فى حق الكل ولكن مراعاة النظم أمر ملتزم والافصاح بالذكر كما أفصح فى آية يونس لم يقع هنا فلما تكن هذه الآية كتلك فيما ذكر وسم هؤلاء بالكفر وقيل "على الذين كفروا " ولم يقل "فسقوا " إذ لم يتقدم هنا ما تقدم هناك ما يتقدم معه ذكر الفسق وأيضا فقد تقدم فى غافر قوله تعالى: "ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا " فناسبه "وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا " وإذا كانوا كافرين فهم أصحاب النار فأما الفاسق فإن كان فسقه يخرجه من الإيمان كان كافرا وان كان بالخروج إلى المعصية دون الكفر لم يكن كافرا إلا أن المراد بفسوق من ذكر فى سورة يونس إنما هو ترك الاعتبار الحامل على الإيمان إذا وفق المعتبر فالتارك لذلك خارج عن التصديق فكان كافرا فقد حصل الجواب عن السؤالات الثلاث ووضح مجئ كل على ما يناسب وإن الوارد فى سورة يونس لا

=

=

يناسبه ما تقدم قبل الآية فى سورة غافر ولا الوارد فى سورة غافر يناسب ما تقدم فى سورة يونس والله أعلم.

الآية الخامسة قوله تعالى: "ألا إن لله ما فى السماوات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون " وقال فيما بعد: "ألا إن لله من فى السماوات ومن فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء " ثم قال بعد: "قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السماوات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا " هنا ثلاث سؤالات يسأل عن سقوط "ما " من قوله فى الآية الأولى: "ألا إن لله ما فى السماوات والأرض "؟ ووجه ثبوتها فى الآية الثالثة فى قوله: "له ما فى السماوات وما فى الأرض "؟ وعن ورود "من " مكان "ما " فى الآية المتوسطة فى قوله: "ألا إن لله من فى السماوات ومن فى الأرض "؟

والجواب عن السؤال الأول: أنه تقدم قبل الآية قوله تعالى: "ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به " وهذه الآية مبنية عليها ومجموع الآيتين فى قوة أن لو قيل: "ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به " وليس ذلك لها بل كل ذلك لله سبحانه: "ألا إن لله ما فى السماوات والأرض " فلما كانت الآية مبنية على هذه التى قبلها - والمعنى بين ذلك - وقع الاكتفاء بوقوع ما فى الأولى واجتزئ بذا عن تكرارها فى الثانية وليس الموضع موضع تأكيد فتكرر لذلك.

وأما ثبوتها فى الآية الثالثة - وهو السؤال الثانى - فوجهه أن التأكيد مقصود فى هذه الآية لأن قبلها حكاية قول الكفار: "قالوا اتخذ الله ولدا " فنزه تعالى نفسه عن مقالهم فقال: "سبحانه هو الغنى له ما فى السماوات وما فى الأرض "وإذا ورد فى القرآن ذكر مقال هؤلاء المعتدين فى ضلالهم تبعه ذكر ملكه سبحانه لكل من فى السماوات والأرض كقوله تعالى: "وقالوا اتخذ الرحمان ولدا " ثم قال: "لقد جئتم شيئا إدا " ثم ذكر سبحانه عظيم مرتكبهم فى شنيع مقالهم فقال: "تكاد

=

=

السماوت يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمان ولدا " أى من أجل ادعائهم الولد لله سبحانه ثم قال: "وما ينبغى للرحمان أن يتخذ ولدا " وكيف والكل عبيده وملكه: "إن كل ما فى السماوت والأرض إلا آتى الرحمان عبدا " وهو الغنى عن العالمين فلما كان موضع تأكيد ناسبه الاتيان بما والتأكيد بها وإن كان المعنى حاصلا دونها.

والجواب عن السؤال الثالث: أن ورود "من " فى الآية المتوسطة مناسب لما قصد بها وبنيت عليه ألا ترى أن ما ثبت قبل هذه الآية من قوله تعالى: "ولا يحزنك قولهم " فأنسه تعالى وثبته كما قال فى موضع آخر: "قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " فتأمل عظيم هذا التأنيس وما تضمنه قوله: "فإنهم لا يكذبونك " من وضوح صدقه عليه السلام وتصديقه فلم يبق إلا الحسد وقصد إطفاء نور الله: "زيأبى الله إلا أن يتم نوره " فلما قال له تأنيسا وتكفلا لحفظه إياه: "ولا يحزنك قولهم " أتبع ذلك سبحانه بإعلامه إياه أن العزة له جل جلاله لا يشركه فى ذلك أحد ولا يعتز مخلوق إلا بإعزازه يعز من يشاء ويذل من يشاء وإلى ذلك أشار قوله "جميعا " ثم قال: "هو السميع العليم " أى لا يخفى عليه مقالهم فيك وما يسرونه من مكر أو مكيدة ثم أعلمه باحتواء ملكه سبحانه على ما أعلمه به فى قوله: "ألا إن لله من فى السماوات والأرض " فهو يعزك بإمداده إياك بمن شاء من مخلوقاته "ولله جنود السماوات والأرض " ولما كان تأييده عليه السلام فى الغالب عند لقاء أعدائه إنما يكون بالملائكة والمؤمنين لذلك ما ورد التعبير بمن وكررت تأكيدا فقيل: "ألا إن لله من فى السماوات ومن فى الأرض " وهو مؤسده وممده بمن شاء من عباده: "ولا يحزنك قولهم " وقد وضح أن كل آية من هذه الآيات لا يناسبها غير ما اتصلت به ولا يمكن على ما تبين وقوع واحدة منهما فى موضع الأخرى والله أعلم بما أراد.

=

=

الآية السادسة من سورة يونس: قوله تعالى: "ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون " وفيما بعد من هذه السورة: "وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون " وفى سورة الزمر: "وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون " وفى آخر السورة: "وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين " فورد فى الموضعين من سورة يونس "بالقسط " وفى الموضعين من سورة الزمر "بالحق " فللسائل أن يسأل عن الفرق؟

ووجه ذلك والله أعلم أن القسط يراد به العمل والتسوية فى الحكم فمظنة وروده حيث يراد موازنة الجزاء بالأعمال من غير زيادة كما قال تعالى فى جزاء الكافرين: "جزاء وفاقا " أى موازنا لأعمالهم موافقا لها: "ولا يظلم ربك أحدا " والحق الصدق فوروده حيث يراد تصديق وعيد أو إخبار متقدم وإن الله سبحانه وعد المؤمنين بزيادة الأجور والإحسان بما يفوت الغايات ويفوق الحصر ولم يجعل جزاءهم على أعمالهم الدينية وفاقا لأعمالهم فى مقادير الجزاء بل قال تعالى: "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب " وقال تعالى: "وسنزيد المحسنين " وقال تعالى: "فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله " ومنه جعل الحسنة بعشر أمثالها وهذا كثير فى الكتاب والسنة ولما كان الوارد فى آيتى الزمر منزلا على الحكم حقا بين النبيين والشهداء والملائكة قال تعالى: "وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم " وقال تعالى: "وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم " والضمير فى الأولى إما أن يكون للنبيين والشهداء ولا كونه فى أن هؤلاء ممن يضاعف أجورهم فجئ بقوله "بالحق " تصديقا لما وعدوا من الزيادة وليس موضع ورود القسط وإما أن

=

=

يكون للخلق كافة وفيهم المؤمن والكافر فورد قوله "بالحق " تصديقا لما ورد فى حق الفريقين من الزيادة فى أجر المؤمن والعدل فى حق الكافر فلا يظلم مثقال ذرة وإنما جزاؤه وفاق عمله ولا يصح هذا إن لو قيل: "وقضى بينهم بالقسط " وعلى هذا ما ورد فى الآية الأخيرة من فروق.

وأما آيتا يونس فقد تقدم الأولى منهما غير ما آيات فى تأنيس نبينا ﷺ وتعنيف كفار قريش ووعيدهم وتسليته عليه السلام فى إبراهيم ألا ترى ختام الآى قبلها بقوله: "وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم " أى فسأجرى تكذيبهم عيانا لا يجدون محيصا عنه ثم قال: "ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم " أى حضرهم فى القيامة وقد كذبوه فى الدنيا قضى بينهم وبينه فصدق زكذب معانده فنجا المصدق وهلك المكذب ولما لم يقصد هنا تفضيل أحوال المصدقين بل لحظ الطرفان من التصديق والتكذيب كان موضع التعبير بالقسط الذى هو العدل بين المصدق والمكذب وإنما بناء الآى على إرغام المكذبين ولا يناسب هذا إلا ذكر العدل بحسب ما بنيت عليه الآى قبله وأما قوله فى الآية بعد: "واشتروا الندامة لما رأوا العذاب " فمسرو ندامتهم هم المكذبون وهم المشاهدون العذاب والضمير فى قوله: "وقضى بينهم " عائد عليهم فليس موضع التعبير بقوله "بالحق " لما قد تبين فقد وضح ورود كل من هذه الآى على ما يناسب ويلائم ولا يناسب خلافه.

الآية السابعة قوله تعالى: "إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون وما تكون فى شأن " وقال تعالى فى سورة غافر: "إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون " فأظهر هنا ما أضمر فى الآية الأخرى فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب والله أعلم أن آية غافر لما تقدمها قوله تعالى: "لخلق السماوات

=

=

والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون " ومقصود هذه الآية تحريك الخلق للاعتبار ةالتذكير بما نصب سبحانه من الدلائل والآيات فاقتضى ذلك تكرار الظاهر كما فى آية التذكير والتنبيه ثم جئ بعد هذا بقوله: "إن الله لذو فضل على الناس " فنوسب بين هذا وبين ما تقدم لتجئ هذه الآى على منهاج واحد من التذكير فاقتضت الثانية تكرير الظاهر.

وأما آية يونس فإنما تقدمها تأنيس بقوله تعالى: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا..."الآية ثم رجع الكلام إلى تعنيف الكفار فى تحكيمهم فقال: "قل أرأيتم ما أنزل لكم من رزق..." الآية ثم قال: "وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة " ولم يتقدم تكرير يطلب بمناسبة فلذلك ورد الكلام على ما هو الأصل من الاتيان بالضمير ليحصل به ربط الكلام فجاء كل من الموضعين على ما يقتضيه ما قبله رعيا لتناسب الكلام.

الآية الثامنة من سورة يونس: قوله تعالى: "وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض زلا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين " وفى سورة سبأ: "عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين " وقال فيما بعد: "قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير " للسائل أن يسأل عن تقديم الأرض على السماء فى سورة يونس وعكس ذلك فى الموضعين من سورة سبأ؟

والجواب عن ذلك والله أعلم: أن آية يونس مقصود فيها من تأكيد الاستيفاء والاستغراق مالم يقصد فى الأخريين وإن كان العموم مراد فى الجميع إلا أن آية يونس قضت بزيادة التأكيد ولذلك تكررت فيها مع ما قبلها ما النافية المتلقى بها القسم فى قوله: "وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا

=

=

كنا ليكم شهودا " فقوى بذلك قصد تأكيد الاستغراق وتضمين الكلام معنى القسم فقال تعالى: "وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة " بزيادة من فى الفاعل وهى مقتضية معنى الاستغراق فى مثل هذا وبناؤها على ما المتلقى بها القسم بفهم ما قلناه من معنى القسم وتأكيد الاستغراق بل أقول إن "من " فى مثل هذا نص فى ذلك.

قال سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إذا قلت ما أتانى رجل فإنه يحتمل ثلاثة معان أحدها أن تريد أنه ما أتاك رجل واحد بل أتاك أكثر من واحد والثانى ما أتاك لاجل فى قوته ونفاذه بل أتاك الضعفاء والثالث أن تريد ما أتاك رجل واحد ولا أكثر من ذلك فإن قلت ما أتانى من رجل كان نفيا لذلك كله " هذا معنى كلامه والحاصل منه أن "من " فى سيلق النفى تعم وتستغرق.

ثم إنه قد تقدم قبل هذه الآية قوله تعالى: "وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه " فدخول "من " فى المفعول فى الموضعين من قوله: "وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل " فزيدت فى المفعول وهو اسم نكرة وارد فى سياق النفى وذلك محصل للاستغراق ثم حمل عليه قوله تعالى: "وما يعزب عن ربك مثقال ذرة..." الآية فناسب هذا تقديم ذكر الأرض على السماء لأن السماء مصعد الأمر ومحل العلو ومسكن الملائكة وهى مشاهدة لهم ومستقبل الداعين منها ينزل الأمر ورزق العباد وفيها الخزنة من الملائكة واليها يصعد بأرواح المؤمنين ويعرج الملائكة السياحون فى الأرض المسؤولون عن أفعال العباد فكان العلم بما فيها أجلى وأظهر وكان العلم بما فى الأرض أخفى وهذا بالنظر الينا وبحسب متعارف أحوالنا وإلا فعلم بارينا سبحانه بما فى الأرض وما فى السماء على حد سواء كما أن علمه بالسر والجهر مستو: "سواء منكم من أسر القول ومن جهر به " ولكنا إنما خوطبنا على أحوالنا

=

=

وبما نتعاهده ونتعارفه من المعانى والصفات ولذلك ورد فى القرآن التعجب والدعاء والترجى وغير ذلك فخوطب العباد بما يتعارفون ويألفون فيما بينهم.

فهذا بيان ما تقدم.

فلما كانت الأرض بالنسبة إلى اسمها فيما ذكرنا كان أمرها أخفى وكان أمر السماء أوضح وأقرب من حيث ذكرنا خوطب الخلق على ذلك فقدم ذكر ما هو عندنا كافة أخفى فقيل عند قصد المبالغة فى تأكيد الاستغراق والقسم على ذلك: "وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء " ونظير هذا الوارد هنا قوله تعالى: "ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء " وهذه الآية فى الذى تعطيه من إفهام القسم والاستغراق والابتداء بما هو عندنا أخفى كآية يونس من غير فرق وعلمه سبحانه بما خفى عندنا أو ظهر سواء تعالى ربنا عن شبه الخليقة.

فإن قيل فإن قوله سبحانه: "وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين " قد اجتمع فيه زيادة من الاستغراقية بعد ما النافية المشيرة إلى معنى القسم كما فى الآيتين وقد تقدم فيه ذكر السماء بخلاف ما فى الآيتين؟ قلت لما تقدم هذا قوله تعالى: "وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون " وقد تقدم فى سبأ إحراز التسوية من غير فرق فقدم ذكر السماء وإنما كانت تكون كالآيتين لو لم يتقدمها ما ذكر وإذ قد نبين وجه تقديم الأرض فى آية يونس فنقول ان الآيتين من سورة سبأ لما لم يتقدم فيهما ما تقدم فى آية يونس مما يحرز تأكيد العموم والاستغراق ولم يكن فيهما داع من المعنى لتقديم الأرض على السماء ثم ان ورود السماوات بلفظ الجمع يحرز فى الآيتين من سورة سبأ معنى العموم والاستغراقى إذ هو مراد فى كل هذه الآيات الواردة فى هذا الغرض فأعطاه وأحرزه فى آية يونس وآية إبراهيم ما نجر فى هاتين الآيتين من محرز معنى القسم والاستغراق وأعطاه وأحرزه فى

=

=
آيتى سبأ ما ورد فيهما من جمع السماوات وجاء كل على ما يجب ويناسب.
الآية التاسعة من سورة يونس قوله تعالى: "ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون " وفى سورة الجاثية: "ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم منالطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون " للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف الوارد فى هاتين السورتين وزيادة ما فى الوارد فى سورة الجاثية من الألفاظ مع اتحاد المعنى المفصود فى الموضعين من منحهم واختلافهم؟
والجواب عن ذلك والله أعلم: أن آية يونس تقدم قبلها دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه بقوله: "ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا..." الآية فأجاب سبحانه دعاء نبيه وطمس على أموال آل فرعون وملئه وأغرقه وآله ونجى بنى إسرائيل من الغرق وقطع دابر عدوهم وأورث بنى إسرائيل أرضهم وديارهم يتبوؤن منها حيث شاؤوا فقال سبحانه معرفا نبيه محمدا ﷺ: "ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق " أى مكناهم ومهدنا لهم أمرهم بإهلاك عدوهم وبما أورثناهم بعد ضعفهم من مشارق الأرض ومغاربها فبعد تمكن أمرهم واستحكام حالهم واستقرار أمر دينهم بما شاهدوه من الآيات وعظيم البراهين المعقبة لمن شاهدها اليقين اختلفوا جريا على ما سبق لهم ولغيرهم ممن أشار إليه قوله تعالى فى أول هذه السورة: "وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا " ويناسب هذا كله تناسبا لا توقف فى وضوحه ولم يتقدم فى السورة ما يستدعى من حالهم أكثر من هذا.
أما آية الجاثية فتقدم قبلها بسط الدلالة والبراهين من لدن قوله تعالى: "إن فى
=

=

السماوات والأرض لآيات للمؤمنين " إلى ما تبع هذا من التنبيه بخلقها وما بث سبحانه فيهما من أصناف المخلوقات واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وإنزال الرزق من السماء وإحياء الأرض بعد موتها بما ينزل من الرزق اليها وتصريف الرياح ثم ذكر سبحانه أن هذه الآيات إنما يعتبر بها ويهتدى بأنوارها من منحه الله تعالى العقل وهذاه إلى الاعتبار فقال: "آيات لقوم يعقلون " ولم يرد ذكر هذه الجملة للاعتبار بها فى موضع من كتاب الله تعالى أوعب منها فى هذه السورة وفى سورة البقرة وهى هناك أوعب لذكر الفلك وجريها فى منافع العباد وتسخير السحاب بين السماء والأرض وذكر تصريف الرياح وقد أعقب ذكر هذه الآيات فى الموضعين بقوله فى سورة البقرة: "ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا " الآية إشارة إلى كفار العرب وسوء مرتكبهم وتعاميهم عن الاعتبار والاستدلال مع وضوح الأمر إذ لا يقبل العقل تكون هذه المخلوقات العظام بأنفسها ولا أن بعضها أوجد بعضا لتساويها فيما قام من دلائل الحدوث فلابد من صانع مريد مختار قادر منزه عن شبه هذه الجملة والا لافتقر إلى موجد آخر وذلك يؤدى إلى التسلل وهو محال عقلا والإثنينية ممتنعة عقلا: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " فتعين توحيد الموجد الحق وانه ليس كمثله شئ ولما كان الاستدلال بهذه الجمل المفصلة أوضع شئ أتبعها سبحانه بقوله: "فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون " ولكونه أبسط ما ذكر به من خوطب بالقرآن ثم لم يجد ذلك فى حق من سبق له الشقاء منهم الا المنافرة والمخالفة أعقبت بذكر من ترادفت وتوالت عليه الآيات وكثرت فى حقه الشواهد ثم لم يعقبه ذلك الا الاختلاف والعدول عن سلوك المنهج الواضح وهم الممتحنون بالاختلاف من بنى إسرائيل فقال تعالى: "ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما

=

=

جاءهم العلم بغيا بينهم إن بركـ يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون " فاقتضى ذلك ما قدم من بسط الآيات وواضح ما خصه تعالى من واضح الدلالات فى صدر هذه السورة بسط ما منحه بنو إسرائيل وما بين لهم مما أشار إليه قوله تعالى: "وآتيناهم بينات من الأمر " بعد ما ذكر ما أوتوه من الكاب والحكم وتوالى النبوة فيهم وكثرة الرسل منهم وما بسط لهم من الرزق وإدرار النعم فعتوا واعتدوا وقتلوا الأنبياء بغير حق لينفذ فيهم ما قدر على فاعلى ذلك منهم من ضرب الذلة والمسكنة ومسخهم قردة وخنازير ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم فلا يأتلف شملهم ولا تجتمع جماعاتهم إلى يوم القيامة ليعلم المعتبرون بالآيات أنه لا يجرى على أحد الا سابق سعادة ان قدرت له الا ان الانقياد للاعتبار والاذعان لموجب الدلالات عنوان رجاء والمنافرة لذلك عنوان مشقة وهما شاهدا حال والشأن كله فى الخواتم والكتاب والسنة موضحان لهذا الإجمال.

ولما لم يكن تقدم آية سورة يونس من الدلالات مثل ما بسط فى سورة الجاثية من الاعتبار لما يناسبه الواقع فى الجاثية من الاطناب فنوسب الإيجاز بالايجاز والاطناب بالاطناب وجاء كل على ما يجب ويناسب مع اتحاد الممقصود فى السورتين.

الآية العاشرة من سورة يونس قوله تعالى: "وأمرت أن أكون من المؤمنين " وفى سورة النمل: "وأمرت أن أكون من المسلمين " للسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لافتراق الوصفين فى الآيتين.

والجواب أن الآية الأولى قد ورد قبلها قوله تعالى: "ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله " وبعد هذا: "وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " وبعد هذا

=

كذلك: "حقا علينا ننجلا المؤمنين " وبعد هذا الآية المذكورة من قوله: "وأمرت أن أكون من المؤمنين " وتناسب هذا كله بين.

ثم من المعلوم ان اسم الإيمان إنما يقع لغة على التصديق وعلى هذا يطلقه الأشعرية ومنه: "وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين " ثم قد يتسع فى إطلاقه فيوقع على التصديق والاستسلام ومنه: "وأمرت أن أكون من المؤمنين " والأصل فى اسم الإسلام وقوعه على الاستسلام والتزلم الأعمال الظاهرة ثم يتسع فيه فيطلق على مجموع التصديق والاعتقاد والاستسلام ومنه: "وأمرت أن أكون من المسلمين " وقد يختص كل من الاسمين بمسماه من غير اتساع ومنه قوله تعالى: "قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا " وفى حديث سؤال جبريل عليه السلام: "ما الاسلام؟ قال ان تشهد ان لا اله الا الله وأنى رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت إليه سبيلا قال صدقت فما الايمان؟ قال: أن تؤمن بالله...

"الحديث فوقع فيه التفصيل إجراء على أصل التسمية فإذا تقرر هذا فاعلم ان ما تقدم قبل آية يونس من تكرار اسم الإيمان لم يكن ليلائمه إطلاق اسم الإسلام لأن رتبة الإيمان فوق رتبة الإسلام ومقامه أعلى وهذا على إطلاق كل واحد من الاسمين على مسماه لغة وعلى رعى التفصيل فكأن يكون عكس الترقى إلى الأعلى أبدا فلا يمكن فى آية يونس الا ما وردت عليه.

أما آية النمل فإن قبلها قوله: "إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها الله وله كل شئ " وقوله: "وله كل شئ " يقتضى تسليم كل شئ له والتبرى من توهم شريك أو نظير فناسب هذا قوله: "وأمرت أن أكون من المسلمين " وجاء كل على ما يجب.

الآية الحادية عشرة

سورة هود(١)

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

=

قوله تعالى: "فمن اهتدى قإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما انا عليكم بوكيل " وفى سورة النمل: "فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنرين " فورد فى الأولى عقب قوله "ومن ضل " قوله "فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل " وفى الثانية عقب قوله "ومن ضل " قوله "فقل إنما أنا من المنذرين " فللسائل أن يسأل عن الفرق؟

والجواب أن آية يونس مرتبطة بقوله تعالى فيما قبلها: "ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " فلما تقدمها هذا ومعناه هو المعنى المراد فى قوله تعالى فى سورة الزمر: "وما أنت عليهم بوكيل " فقيل هنا على لسانه ﷺ: "وما انا عليكم بوكيل " وتناسب ذلك وارتبط ارتباطا لا يلائم الموضع خلافه والله أعلم.

وأما آية النمل فإنها راجعة إلى قوله تعالى فيما تقدمها: "فتوكل على الله إنك على الحق المبين إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون " فناسب هذا أتم مناسبة قوله تعالى: "ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين " ولم يكن قوله: "فقل إنما أنا من المنذرين " ليناسب المتقدم فى سورة يونس ولا قوله: "وما أنا عليكم بوكيل " ليلائم ما تقدم هنا والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (١/ ٢٣٧-٢٥٢).

(١) اختلف أهل التفسير في وقت نزول السورة على أقوال:

أحدها: أنها مكِّيّة كلها. روى ذلك ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وابن الزبير ، وبه

=

=

قال الحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، وعطاء ، وجابر بن زيد ، وقتادة. وعليه جمهور المفسرين.

قال الفيروزآبادي:"هذه السّورة مكِّيّة بالإجماع".

والثاني: أنها مكية إلا قوله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: ١١٤]؛ فإنها مدنية. وهذا القول منسوب إلى ابن عباس ، وقتادة ، وبه قال السمعاني ، والبغوي.

والثالث: أنها مكية ماعدا الآيات: (١٢، ١٧، ١١٤) ، فمدنية. قاله مقاتل ، وبه قال الزمخشري ، الفخر الرازي ، وابن عاشور.

* عدد آياتها مائة واثنتان وعشرون عند الشَّاميّين، وإِحدى وعشرون عند المكيّين والبصريّين، وثلاث وعشرون عند الكوفيّين. وكلماتها أَلف وتسعمائة وإِحدى عشرة كلمة. وحروفها سبعة آلاف وستمائة وخمس.

والآيات المختلف فيها سبع {بريـاء مِّمَّا تُشْرِكُونَ}، {فِيْ قَوْمِ لُوْطٍ}، {مِنْ سِجِّيْلٍ}؛ {مَنْضُوْدٌ}، {إِنَّا عَامِلُوْنَ}، {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ}، {مُخْتَلِفِيْنَ}.

مجموع فواصلها (ق ص د ت ل ن ظ م ط ب ر ز د) يجمعها قولك (قصدْت لنظم طبرْ زَد).

* تسمى «سورة هود»: سميت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة: «سورة هود»، ولا يعرف لها اسم غير ذلك.

ووجه تسميتها بسورة «هود»، لاشتمالها على قصّة هود عليه السلام وتفاصيلها ، إذ تكرر اسمه فيها خمس مرات ، ولأن ما حكي عنه فيها أطول مما حكي عنه في غيرها، ولأن عادا وصفوا فيها بأنهم قوم هود في قوله تعالى: {وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ} [هود: ٦٠].

=

=

وذكر ابن عاشور:"إنها أضيفت إلى السورة تمييزا لها عن باقي السور ذوات الافتتاح بـ «الر».

وقال السخاوي:"وإنما سميت به دون ذكر فيها من الانبياء لخفة اسمه" ، وهذا القول فيه نظر، وإنما الأقرب منه إلى الصواب هو لتكرار اسم هود-عَلَيْهِ السَّلَامُ- في السورة دون غيره من الأنبياء.

* المقصود الإِجماليّ من السّورة: بيان حقيقة القرآن، واطِّلاع الحقِّ سبحانه على سرائر الخلق وضمائرهم، وضمانُه تعالى لأَرزاق الحيوانات، والإِشارة إِلى تخليق العَرْش، وابتداءِ حاله، وتفاوت أَحوال الكفَّار، وأَقوالهم وتحدّى النَّبى ﷺ العرَب بالإِتيان بمثل القرآن، وذمّ طُلاَّب الدّنيا المُعْرِضِين عن العُقْبى، ولعن الظَّالمين، وطردهم، وقصّة أَهل الكفر والإِيمان، وتفصيل قصّة نوح، وذكر الطُّوفان، وحديث هود، وإِهلاك عاد، وقصّة صالح، وثمود، وبشارة الملائكة لإِبراهيم وسارة بإِسحاق، وحديث لوط، وإِهلاك قومه، وذكر شُعَيْب، ومناظرة قومه إِيَّاه، والإِشارة إِلى قصّة موسى وفرعون، وبيان أَن فرعون يكون مقدّم قومه إِلى جهنَّم، وذكر جميع [أَحوال] القيامة، وتفضيل الفريقين والطريقين، وأَمر الرّسول ﷺ بالاستقامة، والتَّجنُّب من أَهل الظُّلم والضَّلال، والمحافظة على الصّلوات الخمس، والطَّهارة، وذكر الرّحمة فى اختلاف الأُمّة، وبيان القصص، وأَنباءِ الرسل. لتثبيت قلب النبىّ ﷺ، والأَمر بالتَّوكُّل على الله فى كلِّ حال.

* المتشابهات: قوله: {فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فاعلموا} بحذف النَّون، والجمع، وفى القصص {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فاعلم} عدّت هذه الآية من المتشابه فى فصلين: أَحدهما حذف النّون من (فإِلَّم) فى هذه السّورة وإِثباتها فى غيرها. وهذا من فَصْل الخَطِّ. وذُكر فى موضعه. والثَّانى جمع الخطاب هاهنا، وتوحيده فى القصص؛ لأَنَّ ما فى هذه السّورة خطاب للكفَّار، والفعل لمن استطعتم، وما فى القصص خطاب

=

=

للنَّبى ﷺ، والفعل للكفاَّر.

قوله: {وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ} سبق.

قوله: {لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون}، وفى النَّحل: {هُمُ الخاسرون}؛ لأَنَّ هؤلاءِ صدُّوا عن سبيل الله، وصَدُّوا غيرهم، فضَلُّوا وأَضَلُّوا؛ فهم الأَخسرون يضاعف لهم العذابُ، وفى النَّحل صدُّوا، فهم الخاسرون. قال الإِمام: لأَنَّ ما قبلها فى هذه السّورة، (يبصرون، يفترون) لا يعتمدان على أَلف بينهما، وفى النحل (الكافرون والغافلون) فللموافقة بين الفواصل جاءَ فى هذه السّورة: الأَخسرون وفى النَّحل: الخاسرون.

قوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إلى قَوْمِهِ فَقَالَ} بالفاءِ وبعده: {فَقَالَ الملأ} بالفاءِ وهو القياس. وقد سبق.

قوله: {وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ} وبعده {وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً} وبعدهما {وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا}؛ لأَنَّ (عنده) وإِن كان ظرفًا فهو اسم فذكر فى الأُولى بالصّريح، والثانية والثالثة بالكناية؛ لتقدم ذكره. فلمّا كُنى عنه قدّم؛ لأَنَّ الكناية يتقدّم عليها الاسم الظَّاهر نحو ضرب زيد عمرًا فإِن كنيت عن عمرو قدّمته؛ نحو عمرو ضربه زيد. وكذلك زيد أَعطانى درهمًا من ماله، فإِن كنيت عن المال قلت: المالُ زيدٌ أَعطانى منه درهمًا. قال الإِمام: لمّا وقع {آتَانِي رَحْمَةً} فى جواب كلام فيه ثلاثة أَفعال كلّها متعدّ إِلى مفعولين ليس بينهما حائل بجارّ ومجرور وهو قوله: {مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مَثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ} و {نَظُنُّكُمْ كَاذِبِيْنَ} أُجرى الجوابُ مُجراه، فجُمع بين المفعولين من غير حائل. وأَمّا الثانى فقد وقع فى جواب كلام قد حِيل بينهما بجارٍّ ومجرور، وهو قوله: {قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا}؛ لأَنَّ خبر كان بمنزلة المفعول، لذلك حيل فى الجواب بين المفعولين بالجارّ والمجرور.

قوله: {لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله} فى قِصّة نُوح، وفى غيرها

=

=
{أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ} لأَنَّ فى قصّة نوح وقع بعدها (خزائن) ولفظ المال للخزائن أَليق.

قوله: {وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} وفى الأَنعام: {وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ}؛ لأَنَّ [ما] فى الأَنعام آخر الكلام [بدأَ] فيه بالخطاب، وخَتَم به، وليس [ما] فى هذه السّورة آخر الكلام، بل آخره {تزدري أَعْيُنُكُمْ} فبدأَ بالخطاب وخَتَم به فى السّورتين.

قوله: {وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا} وفى التَّوبة) {وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا} ذُكر هذا فى المتشابه، وليس منه؛ لأَنَّ قوله: {وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا} عَطْف على قوله: {وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي}، فهو مرفوع، وفى التَّوبة معطوف على {يُعَذِّبْكُمْ وَيَسْتَبْدِلْ} وهما مجزومان، فهو مجزوم.

قوله: {وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا} فى قصّة هود وشعيب بالواو، وفى قصّة صالح ولوط: (فلمّا) بالفاءِ؛ لأَنَّ العذاب فى قصّة هود وشعَيب تأَخَّر عن وقت الوعيد؛ فإِنَّ فى قصّة هود: {فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ} وفى قصّة شعيب {سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ} والتَّخويف قارنه التسويف، فجاءَ بالواو والمهلة، وفى قصّة صالح ولوط وقع العذاب عقِيب الوعيد؛ فإِنَّ قصّة صالح {تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ}، وفى قصّة لوط: {أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ} فجاءَ بالفاءِ للتَّعجيل والتَّعقيب.

قوله: {وَأُتْبِعُوا فِي هاذه الدنيا لَعْنَةً} وفى قصّة موسى: {فِي هاذه لَعْنَةً}؛ لأَنَّه لمّا ذكر فى الآية الأُولى الصّفة والموصوف اقتصر فى الثَّانية على الموصوف؛ للعلم به والاكتفاءِ بما فيه.

قوله {إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} وبعده {إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}؛ لموافقة الفواصل. ومثله {لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ}، وفى التَّوبة {لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} للرَّوِىّ فى السّورتين.

قوله: {وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [وفى إِبراهيم {إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا
=

=

تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ}]؛ لأَنَّ فى هذه السّورة جاءَ على الأَصل (وتدعونا) خطاب مفرد، وفى إبراهيم لمّا وقع بعده (تدعوننا) بنونين، لأَنه خطاب جمع، حذف النَّون استثقالًا للجمع بين النّونات، ولأَنَّ فى سورة إبراهيم اقترن بضمير قد غَيّر ما قبله بحذف الحركة، وهو الضَّمير المرفوع فى قوله: (كفرنا)، فغيّر ما قبله فى (إنَّا) بحذف النُّون، وفى هود اقترن ضمير لم يغيّر ما قبله، وهو الضمير المنصوب، والضَّمير المجرور فى قوله: {فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هاذا أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} فصحّ كما صحّ.

قوله: {وَأَخَذَ الذين ظَلَمُوا الصيحة} ثمّ قال {وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ} التذكير والتأْنيث حَسَنان، لكنَّ التذكير أَخفّ فى الأُولى. وفى الأُخْرى وافق ما بعدها وهو {كَمَا بَعِدَتْ ثَمُوْدُ} قال: الإمام: لمّا جاءَت فى قصّة شُعَيْب مرّةً الرّجْفة، ومرّة الظُّلَّة، ومرّة الصّيحة، ازداد التَّأْنيث حُسْنًا.

قوله: {فِيْ دِيَارِهِمْ} فى موضعين فى هذه السّورة فحسب، لأَنّه اتصل بالصّيحة، وكانت من السماءِ، فازدادت على الرّجْفة؛ لأَنَّها الزلزلة، وهى تختصّ بجزء من الأَرض فجُمعت مع الصّيحة، وأُفردت مع الرّجفة.

قوله: {إِنَّ ثَمُوْدًا} بالتنوين ذكر فى المتشابه. وثمود من الثَّمْد، وهو الماء القليل، جُعل اسم قبيلة، فهو منصرف من وجه، وممنوع من وجه، فصرفوه فى حالة النَّصب؛ لأَنَّه أَخف أَحوال الاسم، ومنعوه فى حالة الرّفع؛ لأَنَّه أَثقل أَحوال الاسم، وجاز الوجهان فى الجرّ؛ لأَنَّه واسطة بين الخِفَّة والثِّقَل.

قوله: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ} وفى القصص: {مُهْلِكَ القرى}؛ لأَنَّ الله سبحانه وتعالى نفى الظُّلم عن نفسه بأَبلغ لفظ يستعمل فى النفى؛ لأَنَّ هذه اللاَّم لام الجحود، ولا يظهر بعدها (أَنْ) ولا يقع بعدها المصدر، ويختصّ بكان، ولم يكن، ومعناه: ما فعلت فيما مضى، ولا أَفعل فى الحال، ولا أَفعل فى المستقبل،

=

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١).

{الر} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[٢]، هَذَا {كِتَاب أُحْكِمَتْ آيَاته} بِعَجِيبِ النَّظْم وَبَدِيع الْمَعَانِي {ثُمَّ فُصِّلَتْ} بُيِّنَتْ بِالْأَحْكَامِ وَالْقَصَص وَالْمَوَاعِظ {مِنْ لَدُنْ حَكِيم خَبِير} أَيّ الله[٣].

=

(وكان) الغايةَ فى النَّفى، وفى القصص لم يكن صريحُ ظلم، فاكتفى بذكر اسم الفاعل، وهو لأَحد الأَزمنة غير معيّن، ثمّ نفاه.

قوله: {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الليل وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ} استثنى فى هذه السّورة من الأَهل قوله: {إِلاَّ امرأَتك} ولم يستثن فى الحجْر اكتفاءً بما قبله، وهو قوله: {إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ امرأَته} فهذا الاستثناءُ الَّذى انفردتْ به سورة الحِجْر قام مقام الاستثناءِ من قوله: {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الليل} وزاد فى الحجر {وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ}؛ لأَنَّه إِذا ساقهم وكان من ورائهم علم بنجاتهم ولا يخفى عليه حالهم.بصائر ذوى التمييز (١/ ٢٤٦-٢٥٤).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

(٣) قوله تعالى: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} [هود: ١]، أي:"هذا الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ أُحكمت آياته من الخلل والباطل".

وسمي القرآن كتابًا:

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ: كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ).

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.

=

=

قال الطبري:"يعني: هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ، وهو القرآن".

- **قال القرطبي**: أحسن ما قيل في معنى (أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) قول قَتَادة؛ أي جعلت محكمة كلّها لا خَلَل فيها ولا باطل.

والإحكام منع القول من الفساد، أي نُظمت نظمًا مُحْكَمًا لا يلحقها تناقض ولا خَلَل.

فمن إحكامه: أن الآيات الواردة فيه غير متناقضة، والتناقض ضد الإحكام فإذا خلت آياته عن التناقض فقد حصل الإحكام.

وأيضًا: ألفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة والجزالة إلى حيث لا تقبل المعارضة، وهذا أيضًا مشعر بالقوة والإحكام.

- إشكال وجواب:

في هذه الآية وصف القرآن كله بأنهم محكم.

وجاء في آية ثانية وصفه بأنه متشابه: قال تعالى (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ).

وجاء في آية أخرى وصفه بأن منه محكم ومنه ما هو متشابه: قال تعالى (هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ).

والجواب:

فقوله (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ) الإحكام العام، فالقرآن كله محكم، أي: أنه متقن في ألفاظه، ومعانيه، وإعجازه، أخباره صدق، وأحكامه عدل، لا تعتريه وصمة ولا عيب.

وأما القرآن كله متشابه: أي أن آياته يشبه بعضها بعضًا في الحسن، والصدق، والحق، والإعجاز، والسلامة من جميع العيوب وأما وصغ القرآن بأن بعضه

=

=

محكم وبعضه متشابه في قوله تعالى (مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) فالمراد به الإحكام الخاص، والتشابه الخاص.

المحكم الواضح المعنى الظاهر الدلالة، والمتشابه: ما لا يتضح معناه، أو لا تظهر دلالته.

قوله تعالى: {ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: ١]، أي:"ثم بُيِّنت بالأمر والنهي وبيان الحلال والحرام من عند الله، الحكيم بتدبير الأمور، الخبير بما تؤول إليه عواقبها، فصل- سبحانه- هذه الآيات تفصيلا حكيما، بأن أنزلها نجوما، وجعلها سورا سورا، مشتملة على ما يسعد الناس في دنياهم وآخرتهم، من شئون العقائد، والعبادات، والمعاملات، والآداب، والأحكام".

قال الرازي: قوله تعالى (ثم فُصّلَتْ) فيه وجوه:

أحدها: أن هذا الكتاب فصل كما تفصل الدلائل بالفوائد الروحانية، وهي دلائل التوحيد والنبوة والأحكام والمواعظ والقصص.

والثاني: أنها جعلت فصولًا سورة سورة، وآية آية.

الثالث: (فُصّلَتْ) بمعنى أنها فرقت في التنزيل وما نزلت جملة واحدة، ونظيره قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ءايات مّفَصَّلاَتٍ) والمعنى مجيء هذه الآيات متفرقة متعاقبة.

الرابع: فصل ما يحتاج إليه العباد أي جعلت مبينة ملخصة.

الخامس: جعلت فصولًا حلالًا وحرامًا، وأمثالًا وترغيبًا، وترهيبًا ومواعظ، وأمرًا ونهيًا لكل معنى فيها فصل، قد أفرد به غير مختلط بغيره حتى تستكمل فوائد كل واحد منها، ويحصل الوقوف على كل باب واحد منها على الوجه الأكمل.

- قال ابن كثير: أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى.

=

=

عن محمد بن جعفر بن الزبير قوله: "{حكيم}، قال: حكيم في عذره وحجته إلى عباده".

عن أبي العالية قوله: "{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

عن قتادة، قوله: "{من لدن حكيم خبير}، يقول: من عند حكيم خبير".

قال الطبري: "قوله: {من لدن حكيم خبير}، فإن معناه: {حكيم} بتدبير الأشياء وتقديرها، {خبير} بما تؤول إليه عواقبُها".

وقيل:"{حكيم} بما أنزل، {خبير} بمن يتقبل".

قال ابن كثير: الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله.

- قال ابن القيم: وقد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة: أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل شيئًا عبثًا ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة، لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل.

- وقال السعدي: فالله لا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يشرع سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

(خَبِيرٍ) الخبير بعواقب الأمور.

أي: هذا الكتاب الذي أتقنت آياته إتقانا بديعا، وفصلت تفصيلا رصينا، ليس هو من عند أحد من الخلق، وإنما هو من عند الخالق الحكيم في كل أقواله وأفعاله، الخبير بظواهر الأمور وبواطنها.

- قال الشوكاني: وفي قوله مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ لف ونشر، لأن المعنى: أحكمها حكيم، وفصلها خبير، عالم بمواقع الأمور.

- والخبير اسم من أسماء الله تعالى.

=

=

ومعناه العليم ببواطن الأمور ، (المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها) ، المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور.

قال ابن عاشور: الخبير العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة ، والظاهرة والخفية.

قال الشيخ ابن عثيمين: وقرن تعالى هنا بين الحكيم والخبير (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) ليعلم الناس أن حكمة الله ﷻ عن خبرة وعلم ببواطن الأمور ، وعلى هذا فقد تكون خفية عن كثير من الناس ، لأنه لا يدرك الحكمة إلا من كان خبيرًا.

وفي قوله تعالى: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} [هود: ١]، وجوه من التفسير:

أحدها: أحكمت آياته بالأمر والنهي ثم فصلت بالثواب والعقاب، قاله الحسن.

الثاني: أحكمت آياته بالثواب والعقاب ثم فصلت بالأمر والنهي. وهذا مروي عن الحسن أيضا.

الثاني: أحكمت آياته من الباطل ثم فصلت بالحلال والحرام والطاعة والمعصية، وهذا قول قتادة.

الثالث: أحكمت آياته بأن جعلت آيات هذه السورة كلها محكمة ثم فصلت بأن فسرت، وهذا معنى قول مجاهد.

الرابع: أحكمت آياته للمعتبرين، وفصلت آياته للمتقين.

الخامس: أحكمت آياته في القلوب، وفصلت أحكامه على الأبدان.

والسادس: ما رواه أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال:"سمعت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قرأ: {الر كتاب أحكمت آياته}، قال: هي كلها محكمة يعني: سورة هود" ، "يعني: قوله: {فصلت}، قال: ثم ذكر محمدا ﷺ فحكم فيها بينه وبين من خالفه، وقرأ: مثل الفريقين الآية كلها ثم ذكر

=

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢).

{أَ} أَيْ بِأَنْ {لَا تَعْبُدُوا إِلَّا الله إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِير} بِالْعَذَابِ إنْ كَفَرْتُمْ {وَبَشِير} بِالثَّوَابِ إنْ آمَنْتُمْ[١].

=

قوم نوح فقال وعذبهم بعد طول نظره ثم هود وقرأ: نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا فكان هذا تفصيل ذلك وكان أوله محكما قال: وكان أبي يقول ذلك – يعني: زيد بن أسلم–".

قال الطبري: الصواب:"قولُ من قال: معناه: أحكم الله آياته من الدَّخَل والخَلَل والباطل، ثم فصَّلها بالأمر والنهي، وذلك أن «إحكام الشيء» إصلاحه وإتقانه، و «إحكام آيات القرآن»، إحكامها من خلل يكون فيها، أو باطل يقدر ذو زيغ أن يطعن فيها من قِبَله، وأما «تفصيل آياته» فإنه تمييز بعضها من بعض، بالبيان عما فيها من حلال وحرام، وأمرٍ ونهي".

(١) قوله تعالى: (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ) جملة تعليلية، أي: أنه– سبحانه– فعل ما فعل من إحكام الكتاب وتفصيله وتنزيله من لدن حكيم خبير، لكي تخلصوا له العبادة والطاعة، وتتركوا عبادة غيره لأن من أنزل هذا الكتاب المعجز، من حقه أن يفرد بالخضوع والاستعانة.

وفي قوله تعالى: {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ} [هود: ٢]، وجهان:

أحدهما: أن كتبت في الكتاب: {أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ}.

الثاني: أنه أمر رسوله أن يقول للناس: {أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ}.

– قال ابن كثير: أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له.

كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ).

=

=

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

- قال الشنقيطي: هذه الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها: هي أن يعبد الله جل وعلا وحده، ولا يشرك به في عبادته شيء، لأنه قوله جل وعلا (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله) الآية؛ صريح في أن آيات هذا الكتاب فصلت من عند الحكيم الخبير لأجل أن يعبد الله وحده.

فمعنى الآية: أن حاصل تفصيل القرآن هو أن يعبد الله تعالى وحدة ولا يشرك به شيء. ونظير هذا المعنى قوله تعالى في سورة الأنبياء (قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ) ومعلوم أن لفظه (إنما) من صيغ الحصر، فكأن جميع ما أوحي إليه منحصر في معنى (لا إله إلا الله) لأن معناها. خلع جميع المعبودات غير الله جل وعلا في جميع أنواع العبادات، وإفراده جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات، فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية.

والآيات الدالة على أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب لأجل أن يعبد الله وحده كثيرة جدًا.

كقوله (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت).

وقوله (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَا فاعبدون).

وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة، فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، لأن الإنسان إذا كان ذله متجردًا عن محبة الله يُبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبةً خالصة لا خوف معها، فإن المُحب الذي لا يُداخله خوف يحمله الدلال

=

وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣).

{وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبّكُمْ} مِنْ الشِّرْك {ثُمَّ تُوبُوا} ارْجِعُوا {إلَيْهِ} بِالطَّاعَةِ {يُمَتِّعكُمْ} فِي الدُّنْيَا {مَتَاعًا حَسَنًا} بِطِيبِ عَيْش وَسِعَة رِزْق {إلَى أَجَل مُسَمًّى} هُوَ الْمَوْت {وَيُؤْتِ} فِي الْآخِرَة {كُلّ ذِي فَضْل} فِي الْعَمَل {فَضْله} جَزَاءَهُ {وَإِنْ تَوَلَّوْا} فِيهِ حَذْف إحْدَى التَّاءَيْنِ أَيْ تُعْرِضُوا {فَإِنِّي أَخَاف عَلَيْكُمْ عَذَاب يَوْم كَبِير} هُوَ يوم القيامة.

إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) .

{إلَى الله مَرْجِعكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير} وَمِنْهُ الثَّوَاب وَالْعَذَاب[١].

=

على أن يسيء الأدب، ويرتكب أمورًا لا تنبغي، والله ﷻ لا يليق به شيء من ذلك (قاله الشنقيطي).

قال ابن كثير: أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تصبحكم، ألستم مصدقي؟ " فقالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

(١) قوله تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} [هود: ٣]، أي:"وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله ﷻ فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك".

وهذا معطوف على قوله (ألا تعبدوا) من عطف الأمر على النهي.

والاستغفار طلب المغفرة، والغفر الستر والتغطية، والمراد ستر الأمور وتغطيتها

=

=

بعفو الله تعالى.

(ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) أي: ارجعوا إليه تائبين من كل ذنب، بالندم، والإقلاع عن المعصية، والعزم على عدم العودة.

- وفائدة الترتيب (بثم) أن يكون قد يستغفر ثم يبقى متلبسًا بالذنوب.

- قال ابن القيم: الاستغفار نوعان:

مفرد ومقرون بالتوبة.

فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا). وكقول صالح لقومه (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).

والمقرون كقوله تعالى (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ). وقول هود لقومه (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)..

فالاستغفار المفرد كالتوبة بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره، فالاستغفار يتضمن التوبة والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، فها هنا ذنبان: ذنب قد مضى فالاستغفار منه، طلب وقاية شره وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله، والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

عن عبد الصمد بن يزيد، قال: "سمعت الفضل يقول: قول العبد: أستغفر الله قال: تفسيره: اقبلني".

=

=

وفي قوله تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} [هود: ٣]، ثلاثة وجوه:
أحدهما: استغفروه من سالف ذنوبكم ثم توبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم. قال بعض العلماء: "الإستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين".
الثاني: أنه قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب إليها، فالمغفرة أولٌ في الطلب وآخر في السبب.
الثالث: أن المعنى استغفروه من الصغائر وتوبوا إليه من الكبائر. أفاده الماوردي.
قوله تعالى: {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [هود: ٣]، أي:"يمتعْكم في دنياكم متاعًا حسنًا بالحياة الطيبة فيها، إلى أن يحين أجلكم".
هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم.
أي: في الدنيا، بأن يبدل خوفكم أمنا، وفقركم غنى، وشقاءكم سعادة.
فالْمُرَادَ بِالْمَتَاعِ الْحَسَنِ: سَعَةُ الرِّزْقِ، وَرَغَدُ الْعَيْشِ، وَالْعَافِيَةُ فِي الدُّنْيَا، ومثله الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).
- قال الشنقيطي: والدليل أن المراد به المتاع الدنيوي قوله تعالى بعد ذلك (وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) وقوله تعالى في نفس السورة في قصة هود مع قومه (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ).
ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) فإن النعيم الذي له أجل مسمى - أي محدود له أجل ينتهي عنده - هو نعيم الدنيا، أما نعيم الآخرة فلا منتهى له.
عن ابن مسعود، وابن عباس، ومرة الهمذاني:"{يمتعكم متاعا حسنا}، قال: يمتعكم في الدنيا".

=

=

قال البغوي: أي:"يعيشكم عيشا حسنا في خفض ودعة وأمن وسعة".
وقوله تعالى: {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا} [هود: ٣]، يعني في الدنيا كما تقدم، وفيه ثلاثة وجوه:
أحدها: أنه الحلال الكافي.
الثاني: أنه الذي لا كد فيه ولا طلب.
الثالث: أنه المقترن بالصحة والعافية.
عن قتادة:"{يمتعكم متاعا حسنا}، فأنتم في ذلك المتاع، فخذوه بطاعة الله ومعرفة حقه فإن الله منعم يحب الشاكرين، وأهل الشكر في مزيد من الله، وذلك قضاؤه الذي قضاه".
وفي قوله تعالى: {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [هود: ٣]، ثلاثة وجوه:
أحدها: إلى يوم القيامة، قاله سعيد بن جبير ، و عكرمة ، وعطية ، وعطاء الخراساني ، والسدي ، والربيع بن أنس.
وروي عن ابن عباس، قوله: "{أجل مسمى}، قال أجل الساعة".
وروي عن خالد بن مهران أنه قال: "أجل البعث".
الثاني: إلى يوم الموت، قاله ابن عباس ، واختاره البغوي.
وروي عن الحسن:"ما بين أن يخلق إلى أن يموت".
الثالث: إلى وقت لا يعلمه إلا الله تعالى، وهو مروي عن ابن عباس أيضا.
وروي عن قتادة:"أجل حياتك إلى أن تموت وأجل موتك إلى أن تبعث فأنت بين أجلين من الله".
قوله تعالى: {وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [هود: ٣]، أي:"ويُعطِ كل ذي فضل من علم وعمل جزاء فضله كاملا لا نقص فيه".
قال البغوي:"أي: ويؤت كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة".

=

=

قال الطبري:"يعني: يثيب كل من تفضَّل بفضل ماله أو قوته أو معروفه على غيره محتسبًا بذلك، مريدًا به وجه الله أجزلَ ثوابه وفضله في الآخرة".

وفي قوله تعالى: {وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [هود: ٣]، وجوه:

أحدها: يهديه إلى العمل الصالح، قاله ابن عباس.

نقل البغوي عن ابن عباس:"من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، ثم يدخل الجنة بعد".

الثاني: يجازيه عليه في الآخرة، على قول قتادة.

الثالث: يجازيه عليه في الدنيا، وهذا معنى قول مجاهد.

عن مجاهد:"{ويؤت كل ذي فضل فضله}: ما احتسب به من مال أو عمل بيده أو رجله أو كلامه، وما تطول به من أمره كله".

و عن ابن مسعود، في قوله: "{ويؤت كل ذي فضل فضله}، قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات. فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات. وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة، وبقيت له تسع حسنات. ثم يقول: هلك من غلب آحادُه أعشارَه!!".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَوَلَّوْا} [هود: ٣]، أي:"وإن تعرضوا عمَّا أدعوكم إليه".

وهذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة.

قال الطبري:"قول تعالى ذكره: وإن أعرضوا عما دعوتُهم إليه، من إخلاص العبادة لله، وترك عبادة الآلهة، وامتنعوا من الاستغفار لله والتوبة إليه، فأدبروا مُوَلِّين عن ذلك".

=

=

قال ابن عباس:"يعني: الكفار، عن النبي ﷺ وهذه في المؤمنين".

قوله تعالى: {فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} [هود: ٣]، أي:"فإني أخشى عليكم عذاب يوم شديد، وهو يوم القيامة".

وفي وصفه بالكبر، زيادة- أيضًا- في تهويله وشدته، حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويقلعوا عن غيهم وعنادهم.

قال الطبري: يقول:"(فإني)، أيها القوم، {أخاف عليكم عذاب يوم كبير}، شأنُه عظيمٍ هَوْلُه، وذلك يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون".

قال الماوردي:"فيه إضمار وتقدير: فقل لهم إني أخاف عليكم عذاب يوم كبير يعني يوم القيامة وصفه بذلك لكبر الأمور التي هي فيه".

عن ابن عباس، في قوله: "{عذاب}، يقول: نكال".

قوله تعالى: {إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ} [هود: ٤].

أي: إلى الله- تعالى- وحده رجوعكم مهما طالت حياتكم، ليحاسبكم على أعمالكم، ويجازيكم عليها بما تستحقونه من جزاء، وهو- سبحانه- على كل شيء قدير، لا يعجزه أمر، ولا يحول بينه وبين نفاذ إرادته حائل.

وما دام الأمر كذلك، فأخلصوا لله العبادة، واستغفروه ثم توبوا إليه لتظفروا بالسعادة العاجلة والآجلة.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {إلى الله}، أيها القوم، مآبكم ومصيركم، فاحذروا عقابه إن توليتم عما أدعوكم إليه من التوبة إليه من عبادتكم الآلهة والأصنام، فإنه مخلدكم نار جهنم إن هلكتم على شرككم قبل التوبة إليه".

عن أبي العالية قوله: "{إلى الله مرجعكم}، قال: يرجعون إليه بعد الحياة".

عن الضحاك قوله: "{إلى الله مرجعكم}، قال: البر والفاجر".

قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [هود: ٤]، أي:"وهو سبحانه قادر على

=

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥).

ونزل كما رواه البخاري عن بن عباس فيمن كان يستحيي أَنْ يَتَخَلَّى أَوْ يُجَامِع فَيُفْضِي إِلَى السَّمَاء وَقِيلَ فِي الْمُنَافِقِينَ {أَلَا إِنَّهُمْ يُثْنُونَ صُدُورهمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ} أَيْ الله {أَلَا حِين يَسْتَغْشُونَ ثِيَابهمْ} يَتَغَطَّوْنَ بِهَا {يَعْلَم} تَعَالَى {مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} فَلَا يُغْنِي اسْتِخْفَاؤُهُمْ {إِنَّهُ عَلِيم بِذَاتِ الصُّدُور} أَيْ بِمَا فِي الْقُلُوب[1].

=

بعثكم وحشركم وجزائكم، وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب".

قال الطبري:"يقول: وهو على إحيائكم بعد مماتكم، وعقابكم على إشراككم به الأوثان وغير ذلك مما أراد بكم وبغيركم قادر".

قال محمد بن إسحاق:"أي: إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير".

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء؛ فنزل ذلك فيهم.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٣٤٩ رقم ٤٦٨١، ٤٦٨٢).

وعن عبد الله بن شداد بن الهاد؛ قوله: {أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ}؛ قال: من رسول الله ﷺ، قال: كان المنافقون إذا مروا به ثنى أحدهم صدره ويطأطئ رأسه، فقال الله: {أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)}.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١١/ ١٢٥)، وسعيد بن منصور في "سننه" (٥/ ٣٣٧ رقم ١٠٧٨ - تكملة)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ١٩٩٩) من طريق شعبة وهشيم كلاهما عن حصين عن عبد الله به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

* قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ} [هود: ٥].

يَثْنُونَ من الثني بمعنى الطى والستر. يقال: ثنيت الثوب إذا طويته على ما فيه من الأشياء المستورة، وثنى الصدور: إمالتها وطأطأتها وحنيها بحيث تكون القامة غير مستقيمة. والاستخفاء: محاولة الاختفاء عن الأعين، ومنه قوله تعالى يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ، و (يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُم) أي: يتدثرون ويتغطون بها، مبالغة في الاستخفاء عن الأعين.

قال ابن رجب: وخرَّج البخاريُّ في "تفسيره" عن ابنِ عباس: في قولِهِ تعالى. (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ): إنها نزلت فَي قوم كانُوا يجامعونَ نساءَهم، ويتخلون، فيستحيونَ من اللهِ، فنزلتِ الآيةُ. وكانَ الصِّدِّيقُ يقولُ: استحيُوا من اللهِ، فإني أذهبُ إلى الغائط فأظلُّ متقنعًا بثوبي حياءً من ربي ﷻ. وكان أبو موسى إذا اغتسلَ في بيتٍ مظلم، لا يقيمُ صُلْبَه، حياءً من اللهِ ﷻ. قال بعضُ السلفِ: خَفِ اللهَ على قدرِ قدرتِهِ عليكَ، واسْتَحِ منه على قدر قُربه منك. وقد يتولدُ الحياءُ من اللهِ من مطالعةِ النِّعَم، فيستحيي العبدُ من اللهِ أنْ يستعينَ بنعمتِهِ على معاصِيه، فهذا كلُّه من أعْلى خصالِ الإيمانِ ا.هـ

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء؛ فنزل ذلك فيهم. أخرجه البخاري (٨/ ٣٤٩ رقم ٤٦٨١، ٤٦٨٢).

قال أبو رزين:"كان أحدهم يحنى ظهره، ويستغشي بثوبه".

=

=

قال ابن زيد: "هذا حين يناجي بعضهم بعضًا".

عن ابن عباس قوله: "{يثنون صدورهم}، يقول: يكنُّون".

وفي رواية أخرى عن ابن عباس: "يقول: يكتمون ما في قلوبهم".

وفي قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ} [هود: ٥]، أقوال:

أحدها: يثنون صدورهم على الكفر ليستخفوا من الله تعالى، قاله مجاهد.

الثاني: يثنونها على عداوة النبي ﷺ ليخفوها عنه، قاله الفراء والزجاج.

قال الطبري: "وقال آخرون: إنما هذا إخبارٌ من الله نبيَّه ﷺ عن المنافقين الذين كانوا يضمرون له العداوة والبغضاء، ويبدون له المحبة والمودة، أنهم معه وعلى دينه. يقول جل ثناؤه: ألا إنهم يطوون صدورهم على الكفر ليستخفوا من الله، ثم أخبر جل ثناؤه أنه لا يخفى عليه سرائرهم وعلانيتهم".

الثالث: يثنونها على ما أضمروه من حديث النفس ليخفوه عن الناس، قاله الحسن.

الرابع: أن المنافقين كانوا إذا مرّوا بالنبي ﷺ غطوا رؤوسهم وثنوا صدورهم ليستخفوا منه فلا يعرفهم، قاله عبد الله بن شداد.

الخامس: أنهم كانوا يفعلون ذلك لئلا يسمعوا كتاب الله. وهذا قول قتادة.

قال قتادة: "كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله، قال تعالى: {ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون}، وذلك أخفى ما يكون ابن آدم، إذا حنى صدره واستغشى بثوبه، وأضمر همَّه في نفسه، فإن الله لا يخفى ذلك عليه".

والسادس: أن رجلًا قال إذا أغلقت بابي وضربت ستري وتغشيت ثوبي وثنيت صدري فمن يعلم بي؟ فأعلمهم الله تعالى أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون.

وروي عن ابن أبي مليكة قال: "سمعت ابن عباس يقرأ «أَلا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ»، قال: كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط إلا وقد تغشوا بثيابهم، كراهة أن

=

=

يُفْضُوا بفروجهم إلى السماء".

وعن محمد بن عباد بن جعفر، قال: سمعت ابن عباس يقرؤها: «أَلا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ»، قال: سألته عنها فقال: كان ناس يستحيون أن يتخلَّوا فيُفْضُوا إلى السماء، وأن يصيبوا فيُفضُوا إلى السماء".

وروي عن الضحاك قوله: "{ألا انهم يثنون صدورهم} يقول: «تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ»".

وروي عن عكرمة: "أن ابن عباس قرأ «أَلا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ»، وقال ابن عباس: «تثنوني صدورهم»، الشكُّ في الله، وعمل السيئات، {يستغشون ثيابهم}، يستكبر، أو يستكنّ من الله، والله يراه، يعلم ما يسرُّون وما يعلنون".

قوله تعالى: {أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [هود: ٥].

أي: ألا يعلم هؤلاء الجاهلون أنهم حين يأوون إلى فراشهم، ويتدثرون بثيابهم، يعلم الله تعالى ما يسرونه في قلوبهم من أفكار، وما يعلنونه بأفواههم من أقوال، لأنه سبحانه محيط بما تضمره النفوس من خفايا، وما يدور بها من أسرار.

عن ابن عباس: "{ألا حين يستغشون ثيابهم}، يقول: يغطون رءوسهم".

عن قتادة: "{يستغشون ثيابهم}، قال: أخفى ما يكون الإنسان إذا أسرَّ في نفسه شيئًا وتغطَّى بثوبه، فذلك أخفى ما يكون، والله يطلع على ما في نفوسهم، والله يعلم ما يسرُّون وما يعلنون".

عن السدي:"أما {يستغشون ثيابهم}، فيلبسون ثيابهم استغثوا بها على رءوسهم".

قال الطبري:"يعني: يتغشَّون ثيابهم، يتغطونها ويلبسون، يقال منه: استغشى ثوبه وتغشّاه، قال الله: {وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ} [سورة نوح: ٧]، وقالت الخنساء:

أَرْعَى النُّجُومَ وَمَا كُلِّفْتُ رِعْيَتِهَا وَتَارَةً أَتَغَشَّى فَضْلَ أَطْمَارِي"

قال الصابوني:"وكأن الآية تقول: لا تظنوا أن تغطيتكم تحجبكم عن الله بل الله

=

=

يعلم سرائركم وظواهركم لا تخفى عليه خافية من أحوالكم".

وفي المراد بقوله تعالى: {حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ} [هود: ٥]، أربعة أقوال:

أحدها: الليل يقصدون فيه إخفاء أسرارهم فيما يثنون صدورهم عليه. والله تعالى لا يخفى عليه ما يسرونه في الليل ولا ما يخفونه في صدروهم، فكنى عن الليل باستغشاء ثيابهم لأنهم يتغطون بظلمته كما يتغطون إذا استغشوا ثيابهم.

الثاني: أن قومًا من الكفار كانوا لشدة بغضتهم لرسول الله ﷺ يستغشون ثيابهم يغطون بها وجوههم ويصمون بها آذنهم حتى لا يروا شخصه ولا يسمعوا كلامه، وهو معنى قول قتادة.

الثالث: أن قومًا من المنافقين كانوا يظهرون لرسول الله ﷺ بألسنتهم أنهم على طاعته ومحبته، وتشتمل قلوبهم على بغضه ومعصيته، فجعل ما تشتمل عليه قلوبهم كالمستغشي بثيابه.

الرابع: أن قومًا من المسلمين كانوا يتنسكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء، فبين الله تعالى أن المنسك ما اشتملت قلوبهم عليه من معتقد وما أظهروه من قول وعمل.

وفي قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ [هود: ٥]، ثلاثة وجوه:

أحدها: ما يسرون في قلوبهم وما يعلنون بأفواههم.

الثاني: ما يسرون من الإيمان وما يعلنون من العبادات.

الثالث: ما يسرون من عمل الليل وما يعلنون من عمل النهار، قاله ابن عباس.

وروي عن الحسن:" {يعلم ما يسرون وما يعلنون} ، قال: في ظلمة الليل وفي أجواف بيوتهم".

قوله تعالى: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [هود: ٥]، أي:"إنه عليم بكل ما تُكِنُّه صدورهم من النيات والضمائر والسرائر، وعليم بما فيها من الإرادات،

=

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦).

=

والوساوس، والأفكار التي لم ينطقوا بها سرًا ولا جهرًا، فكيف تخفى عليه حالكم، إذا أثنيتم صدوركم لتستخفوا منه".

والمعنى: أن الله تعالى يعلم ما في القلوب التي في الصدور وما فيها من المكنونات والخفيات، لأن القلوب عليها مدار التقوى والصلاح كما قال ﷺ (التقوى ههنا) وأشار ﷺ إلى صدره، وقال ﷺ : إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الله ذو علم بكل ما أخفته صدور خلقه، من إيمان وكفر، وحق وباطل، وخير وشر، وما تستجنُّه مما لم تُجنَّه بعد... فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم مضمرون في صُدُوركم الشكّ في شيء من توحيده أو أمره أو نهيه، أو فيما ألزمكم الإيمان به والتصديق، فتهلكوا باعتقادكم ذلك".

قال السعدي:"أي: بما فيها من الإرادات، والوساوس، والأفكار، التي لم ينطقوا بها، سرا ولا جهرا، فكيف تخفى عليه حالكم، إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منه".

عن محمد بن إسحاق:"والله عليم بذات الصدور، أي: لا يخفى عليه ما في صدورهم بما استخفوا به منكم".

وعن الحسن:"{إنه عليم بذات الصدور}،: يعلم تلك الساعة".

قال السعدي قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك- غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم.

{وَمَا مِنْ} زَائِدَة {دَابَّة فِي الْأَرْض} هِيَ مَا دَبَّ عَلَيْهَا {إلَّا عَلَى الله رِزْقهَا} تَكَفَّلَ بِهِ فَضْلًا مِنْهُ تَعَالَى {وَيَعْلَم مُسْتَقَرّهَا} مَسْكَنهَا فِي الدُّنْيَا أَوْ الصُّلْب {وَمُسْتَوْدَعهَا} بَعْد الْمَوْت أَوْ فِي الرَّحِم {كُلّ} مِمَّا ذُكِرَ {فِي كِتَاب مُبِين} بَيِّن هُوَ اللَّوْح الْمَحْفُوظ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا} [هود: ٦]، أي:"ما من شيء يدب على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفَّل الله برزقه تفضلًا منه تعالى وكرمًا، فهو سبحانه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها، وبريها".

والرزق: ما يسوقه الله لخلقه ليقيم به شؤون حياته.

قيل لأبي أسيد: من أين تأكل؟ فقال: سبحان الله والله أكبر إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد.

وقيل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: من عند الله؛ فقيل له: الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء؟ فقال: كأن ما له إلا السماء يا هذا الأرضُ له والسماءُ له؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض؛ وأنشد:

وكيف أخافُ الفقرَ واللَّهُ رازقي ... ورازق هذا الخلق في العُسْرِ واليُسْرِ

تَكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهِمْ ... وللضَّبِّ في البيداءِ والحُوتِ في البحرِ

عن ابن عباس، قوله: "{وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها}، يعني: كل دابة".

قال الضحاك:"يعني: كلّ دابة، والناسُ منهم".

عن مجاهد:"{وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها}، ما جاءها من رزق فمن الله، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعا، ولكن ما كان من رزق لها فمن الله".

قوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} [هود: ٦]، أي:"ويعلم مكان =

=

استقراره في حياته وبعد موته، ويعلم الموضع الذي يموت فيه، وقيل يعلم أين مُنتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها ولا منافاة بين القولين".

وفي قوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} [هود: ٦]، وجوه:

أحدها: مستقرها حيث تأوي، ومستودعها حيث تموت. قاله ابن عباس.

وعن الربيع بن أنس، قال: "{مستقرها}، أيام حياتها، و {مستودعها}: حيث تموت، ومن حيث تبعث".

الثاني: مستقرها في الرحم، ومستودعها في الصلب، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك.

وروي عن ابن عباس قال: "المستقر: ما كان في أرحام النساء"، وروي عن ابن مسعود وقيس بن أبي حاتم وأبي عبد الرحمن السلمي وعطاء ومجاهد والنخعي والضحاك وقتادة والسدي وعطاء الخراساني نحو ذلك.

وعن ابن عباس:"{ومستودع}، قال: ما كان في أصلاب الرجال". وروي، عن قيس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبي عبد الرحمن السلمي وعطاء بن أبي رباح وإبراهيم النخعي ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي والضحاك وعطاء الخراساني نحو ذلك.

وعن إبراهيم بن محمد بن الحنفية، قال: "المستودع: في أرحام النساء". وهو أحد قولي عطاء بن أبي رباح وقول زيد بن علي ابن الحسين.

الثالث: «المستقر»، في الرحم، و «المستودع»، حيث تموت. قاله عبد الله بن مسعود.

والرابع: مستقرها في الدنيا، ومستودعها في الآخرة.

روي عن عبد الله بن مسعود:"{مستقرها}، في الدنيا".

=

=

عن ابن عباس: {يعلم مستقرها}، قال: مستقرها في الأرض".

والخامس: أن مستقرها في الآخرة من جنة أو نار، ومستودعها في القلب من كفر أو إيمان. أفاده الماوردي.

قال الطبري:"قوله: {ويعلم مستقرها}، حيث تستقر فيه، وذلك مأواها الذي تأوي إليه ليلا أو نهارًا، {ومستودعها} الموضع الذي يودعها، إما بموتها، فيه، أو دفنها... لأن الله جل ثناؤه أخبر أن ما رزقت الدواب من رزق فمنه، فأولى أن يتبع ذلك أن يعلم مثواها ومستقرها دون الخبر عن علمه بما تضمنته الأصلاب والأرحام".

قوله تعالى: {كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦]، أي:"وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، وهو اللوح المحفوظ".

عن قتادة، قوله: "{في كتاب مبين}، قال: كل ذلك في كتاب، عند الله مبين".

قال الطبري: أي: "عدد كل دابة، ومبلغ أرزاقها، وقدر قرارها في مستقرها، ومدة لبثها في مستودعها. كل ذلك في كتاب عند الله مثبت مكتوب {مبين}، يبين لمن قرأه أن ذلك مثبت مكتوب قبل أن يخلقها ويوجدها، وهذا إخبارٌ من الله جل ثناؤه الذين كانوا يثنون صدورهم ليستخفوا منه، أنه قد علم الأشياء كلها، وأثبتها في كتاب عنده قبل أن يخلقها ويوجدها، يقول لهم تعالى ذكره: فمن كان قد علم ذلك منهم قبل أن يوجدهم، فكيف يخفى عليه ما تنطوي عليه نفوسهم إذا ثنوا به صدورهم، واستغشوا عليه ثيابهم؟".

فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علمًا بذواتها، وصفاتها.

- قال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).

وقوله تعالى (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا

=

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧).

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالْأَرْض فِي سِتَّة أَيَّام} أَوَّلهَا الْأَحَد وَآخِرهَا الْجُمُعَة {وَكَانَ عَرْشه} قَبْل خَلْقهمَا {عَلَى الْمَاء} وَهُوَ عَلَى مَتْن الرِّيح {لِيَبْلُوَكُمْ} مُتَعَلِّق بِخَلَقَ أَيْ خَلَقَهُمَا وَمَا فِيهِمَا مِنْ مَنَافِع لَكُمْ وَمَصَالِح لِيَخْتَبِركُمْ {أَيّكُمْ أَحْسَن عَمَلًا} أَيْ أَطْوَع لِلَّهِ {وَلَئِنْ قُلْت} يَا مُحَمَّد لَهُمْ {إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْد الْمَوْت لَيَقُولَن الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ} مَا {هَذَا} الْقُرْآن النَّاطِق بِالْبَعْثِ أَوْ الَّذِي تَقُولهُ {إِلَّا سِحْر مُبِين} بَيِّن وَفِي قِرَاءَة سَاحِر وَالْمُشَار إِلَيْهِ النَّبِيّ ﷺ.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨).

= تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

– وللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق: سماه القرآن بالكتاب.

كما في قوله تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ).

وبالإمام المبين ، كما في قوله تعالى (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ).

وبالكتاب المسطور ، كما في قوله تعالى (وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ).

وبأم الكتاب ، كما قال تعالى (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ).

{وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَاب إلَى} مَجِيء {أُمَّة} أَوْقَات {مَعْدُودَة لَيَقُولُنَّ} اسْتِهْزَاء {مَا يَحْبِسهُ} مَا يمنعه من النزول قال تعالى {أَلَا يَوْم يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا} مَدْفُوعًا {عَنْهُمْ وَحَاقَ} نَزَلَ {بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} من العذاب[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن قتادة؛ قال: لما نزل: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ}، قال ناس: إن الساعة قد اقتربت فتناهوا، فتناهى القوم قليلًا ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء؛ فأنزل الله: {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ}، فقال أناس من أهل الضلالة: هذا أمر الله قد أتى، فتناهى القوم، ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء؛ فأنزل الله هذه الآية: {وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/ ٢٠٠٧) -مختصر- وسنده ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} [هود: ٧]، أي:"وهو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن في ستة أيام".

والله يحمد على ذلك كما قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ).

- وإنما ذكر السموات والأرض، لأنهما من أعظم المخلوقات.

- وخلقهما بالحق كما سيأتي إن شاء الله.

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي: وليس عبثًا، فإن الله منزه عن العبث، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة، فالحق ضد الباطل، فالله خلقهما لحكم باهرة، لم يخلقهما باطلًا ولا عبثًا ولا لعبًا

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا =

=

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّار).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون).

(فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة.

- قال ابن عطية: وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدئ يوم الأحد، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء.

- وقال القرطبي: قوله تعالى (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة.

- وقال ابن كثير: والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة -وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام.

- وقد اختلف في مقدار هذه الأيام:

فقيل: كأيامنا هذه.

لأن الله أطلقها، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه.

وقيل: كل يوم مقدار خمسين ألف سنة.

وقيل: المراد باليوم لحظة. والراجح الأول.

- فإن قيل: أليس الله بقادر على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

قال تعالى (بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (... قال كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (هو الذي يحي ويميت فإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون).

=

=

- وإنما خلقها في ستة أيام لحكمتين:

الحكمة الأولى: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله بعضها على بعض حتى أحكمها.

الحكمة الثانية: أن الله علم عباده التؤدة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه.

- هذه الأيام أربعة منها للأرض، ويومان للماء، كما فصل ذلك في سورة فصلت (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا...).

- قال الإمام القرطبي: وذكر هذه المدة - أي ستة أيام - ولو أراد خلقها في لحظة لفعل؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد:

أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.

ولتظهر قدرته للملائكة شيئًا بعد شيء....

وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام؛ لأن لكل شيء عنده أجلًا، وبيّن بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلًا....

- وقال ابن الجوزي: فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمرًا تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري.

والثاني: أنه التثبت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند

=

=

الملائكة.

والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون).

والرابع: أنه علّم عباده التثبت، فإذا تثبت مَنْ لا يَزِلُّ، كان ذو الزلل أولى بالتثبت.

والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق.) ا. هـ.

- وقال القاضي أبو السعود (... وفي خلق الأشياء مدرجًا مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار، واعتبار للنظار، وحث على التأني في الأمور).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الله الذي إليه مرجعكم أيها الناس جميعا، {وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام}، يقول: أفيعجز من خلق ذلك من غير شيء أن يعيدكم أحياء بعد أن يميتكم؟".

قوله تعالى: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: ٧]، أي:"وكان عرشه على الماء قبل ذلك".

قال الطبري:"يقول: وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض وما فيهن".

جاء في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء).

والعرش: لغة عبارة عن السرير الذي للملك، سمي عرشًا لارتفاعه عليه.

وشرعًا: هو العرش الذي أضافه الله لنفسه وهو سرير عظيم ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم، وهو سقف هذه المخلوقات.

- قال الشنقيطي: وفي هذه الآية دلالة على أن العرش موجود قبل خلق السماوات

=

=

والأرض وأن الماء كان تحته، ولم تكن حينئذ أرض ولا سماء.

قال الزجاج:"قوله: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ}، هذا يدل على أن العرشَ والماءَ كانا قبلَ السَّمَاوَاتِ والأرضِ".

قال مقاتل:"قبل خلق السموات والأرض وقبل أن يخلق شيئا".

قال مجاهد: يعني: «قبل أن يخلق شيئا»".

قال قتادة:"هذا بدء خلقه قبل أن يخلق السماء والأرض".

قال ابن إسحاق:"فكان كما وصف نفسه تبارك وتعالى إنه ليس إلا الماء عليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والإكرام والعزة والسلطان والملك والقدرة والحلم والعلم والرحمة والنقمة الفعال لما يريد".

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء» أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

عن وكيع بن حُدُس، عن عمه أبي رزين قال: "قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كَانَ فِي عَمَاء، مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، ثم خلق عرشه على الماء". أخرجه أحمد (٤/ ١٢)، والطيالسي في مسنده (١٠٩٣)، والترمذي (٣١٠٩)، وابن ماجة (١٨٢)، وأبن أبي عاصم في السنة (٦١٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٠٧)، والطبري في التفسير (١٧٩٨٠)، وابن حبان (٦١٤١)، وأبو الشيخ في العظمة (٨٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٣٧٦) والحديث حسنه الترمذي، وصححه الطبري في تاريخه (١/ ٣٨ - ٤٠)، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال ابن العربي في العارضة (٦/ ٢٠٨): صحيح سندا ومتنا، وقال المصنف في مجموع الفتاوى (٢/ ٢٧٥): مشهور في كتب المسانيد والسنن، وصححه ابن القيم في أعلام الموقعين (٤/ ٢٢٤)،

=

=

وحسنه الذهبي في العلو (١٨)، أما ابن قتيبة فقال في تأويل مختلف الحديث (٤١٥): مختلف فيه وقد جاء من غير هذا الوجه بألفاظ تستشنع أيضا وفيه وكيع بن حدس لايعرف، وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٣/ ٦١٧): فيه وكيع بن حدس هذا لا تعرف له حال ولا يعرف عنه راو إلا يعلى بن عطاء واختلف عليه فيه أصحابه، وضعفه العلامة الألباني بسبب وكيع بن حدس فهو مجهول ومدار الحديث عليه كما في الضعيفة (٥٣٢٠)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٦/ ١٠٨): إسناده ضعيف لأجل وكيع بن حدس.

وعن سعيد بن جبير، قال:"سئل ابن عباس عن قوله تعالى: {وكان عرشه على الماء} [هود: ٧]، على أي شيء كان الماء؟، قال: «على متن الريح».

عن بُريدة، قال: "دخل قومٌ على رسول الله ﷺ، فقالوا: جئنا نُسَلِّم على رسول الله ﷺ ونتَفَقَّه في الدين، ونسأله عن بدء هذا الأمر. فقال: «كان الله ولا شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكَتَب في الذِّكْر كلَّ شيء، ثم خلق سبع سماوات». ثم أتاني آتٍ، فقال: هذه ناقتُك قد ذَهَبَت. فخرَجت والسَّراب ينقطع دونها، فلَودِدتُ أني كنت تركتها".

عن عمران بن حصين، قال: "قال أهل اليمن: يا رسول الله، أخبِرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبلَ كلِّ شيء، وكان عرشه على الماء، وكَتَبَ في اللوح المحفوظ ذِكْرَ كل شيء، وخلق السماوات والأرض». فنادى مُنادٍ: ذهبت ناقتك، يا ابن الحصين. فانطلقتُ، فإذا هي يقطع دونها السَّرابُ، فواللهِ، لوَدِدت أنِّي كنت تركتُها".

وإن قيل: ما الفائدة في ذكر أن عرشه كان على الماء قبل خلق السموات والأرض؟

والجواب: "فيه دلالة على كمال القدرة من وجوه:

الأول: أن العرش كونه مع أعظم من السموات والأرض كان على الماء فلولا أنه

=

=

تعالى قادر على إمساك الثقيل بغير عمد لما صح ذلك.

والثاني: أنه تعالى أمسك الماء لا على قرار وإلا لزم أن يكون أقسام العالم غير متناهية، وذلك يدل على ما ذكرناه.

والثالث: أن العرش الذي هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله تعالى فوق سبع سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه، وذلك يدل أيضا على ما ذكرنا".

قوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود: ٧]، أي:"ليختبركم أيكم أحسن له طاعةً وعملا وهو ما كان خالصًا لله موافقًا لما كان عليه رسول الله ﷺ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وهو الذي خلق السموات والأرض أيها الناس، وخلقكم في ستة أيام {ليبلوكم}، يقول: ليختبركم، {أيكم أحسن عملا}، يقول: أيكم أحسن له طاعة".

لم يقل: أكثر عملًا.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل.

كما قال تعالى هنا (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ولم يقل أيكم أكثر عملًا.

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

فالإحسان: أن يأتي بالعمل حسنًا متقنًا لا نقص فيه ولا وصم، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون.

=

=

عن قتادة:"{ليبلوكم}، يعني: ليخبركم".

عن ابن جريج، في قوله: "{ليبلوكم}، قال: الثقلين".

عن أبي عجلان، قال: "قال الله: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، ولم يقل: أكثر عملا".

قال الزجاج:"معناه: ليختبركم الاختبار الذي يجازيكم عليه، وهو قد علم قبل ذلك أيُّهم أحْسنُ عملًا، إلا أنَّه يجازيهم على أعمالهم لَا عَلى عِلْمِه فيهم".

وفي قوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود: ٧]، أربعة وجوه:

أحدها: يعني: أيكم أتم عملا، قاله قتادة.

الثاني: أيكم أزهد في الدنيا، وهو قول سفيان.

الثالث: أيكم أكثر شكرًا، قاله الضحاك.

الرابع: ما روى كليب بن وائل عن ابن عمر أن النبي ﷺ:"تلا هذه الآية: {أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلًا}، قال: أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله؟ " ولكنه حديث موضوع.

قوله تعالى: {وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ} [هود: ٧].

ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم – مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض – (لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ) أي: يقولون كفرًا وعنادًا ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته، فهو يتبعك على ما تقول.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولئن قلت لهؤلاء المشركين من قومك: إنكم مبعوثون أحياء من بعد مماتكم! فتلوت عليهم بذلك تنزيلي ووحيي".

قوله تعالى: {لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [هود: ٧]، أي:"ليقولنَّ

=

الكفار المنكرون للبعث والنشور ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح مكشوف".
قال الطبري:"أي: ما هذا الذي تتلوه علينا مما تقول، إلا سحر لسامعه، مبين لسامعه عن حقيقته أنه سحر".
قال ابن عباس:"لزادهم تكذيبا".
قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ} [هود: ٨]، أي:"ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيبا واستعجالًا".
قال ابن عاشور: و (معدودة) معناه مقدرة، أي مؤجلة، وفيه إيماء إلى أنّها ليست مديدة لأنّه شاع في كلام العرب إطلاق العَدّ والحساب ونحوهما على التّقليل، لأن الشيء القليل يمكن ضبطه بالعدد، ولذلك يقولون في عكسه: بغير حساب، مثل (والله يرزق من يشاء بغير حساب).
- أطلقت الأمة في القرآن على عدة معان اذكرها؟
أ-بمعنى الطائفة. كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا...).
ب-بمعنى الإمام. كما قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا).
ج-بمعنى الملة. كقوله تعالى عن المشركين (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ...).
د-بمعنى الزمن. كما في هذه الآية.كما قال تعالى (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ...).
قال السعدي: أي: إلى وقت مقدر فتباطأوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم.
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولئن أخرنا عن هؤلاء المشركين من قومك، يا محمد، العذابَ فلم نعجله لهم، وأنسأنا في آجالهم إلى {أمة معدودة}، ووقت محدود وسنين معلومة".
وفي قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ} [هود: ٨]، وجهان:
أحدهما: يعني إلى فناء أمة معلومة، ذكره علي بن عيسى.

=

الثاني: إلى أجل معدود، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وجمهور المفسرين. وتكون الأمة عبارة عن المدة، واصلها الجماعة فعبر بها عن المدة لحلولها في مدة.

قوله تعالى: {لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ} [هود: ٨]، أي:"ليقولُنَّ استهزاء وتكذيبًا: أي شيء يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقًا؟".

وقالوا هذا إما تكذيبًا للعذاب لتأخره عنهم، أو استعجالًا واستهزاء؛ أي ما الذي يحبسه عنا. (القرطبي).

- قال السعدي: ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلا على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال.

عن ابن جريج قال قوله: "{ليقولن ما يحبسه}، قال: للتكذيب به، أو أنه ليس بشيء".

قوله تعالى: {أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ} [هود: ٨]، أي:"ألا يوم يأتيهم ذلك العذاب لا يستطيع أن يصرفه عنهم صارف، ولا يدفعه دافع".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره تحقيقًا لوعيده وتصحيحًا لخبره: {ألا يوم يأتيهم} العذابُ الذي يكذبون به {ليس مصروفًا عنهم}، يقول: ليس يصرفه عنهم صارف، ولا يدفعه عنهم دافع، ولكنه يحل بهم فيهلكهم".

وفي قوله تعالى: {لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ} [هود: ٨]، وجهان:

أحدهما: أنهم قالوا ذلك تكذيبًا للعذاب لتأخره عنهم.

الثاني: أنهم قالوا ذلك استعجالًا للعذاب واستهزاء، بمعنى ما الذي حبسه عنا؟

قوله تعالى: {وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [هود: ٨]، أي:"أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم، ووضع يستهزءون مكان يستعجلون، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم، وعبر بلفظ الماضي تنبيهًا على

=

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩).

{وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَان} الْكَافِر {مِنَّا رَحْمَة} غِنًى وَصِحَّة {ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوس} قَنُوط مِنْ رَحْمَة الله {كَفُور} شَدِيد الْكُفْر به.

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠).

{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْد ضَرَّاء} فَقْر وَشِدَّة {مسته ليقولن ذهب السيئات} المصائب {عني} وَلَمْ يَتَوَقَّع زَوَالهَا وَلَا شُكْر عَلَيْهَا {إِنَّهُ لَفَرِح} بَطِر {فَخُور} عَلَى النَّاس بِمَا أُوتِيَ.

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١).

{إِلَّا} لَكِنْ {الَّذِينَ صَبَرُوا} عَلَى الضَّرَّاء {وَعَمِلُوا الصَّالِحَات} فِي النَّعْمَاء {أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَة وَأَجْر كَبِير} هُوَ الْجَنَّة[1].

=

تحقق وقوعه، فكأنه قد حاق بهم".

قال الطبري:"يقول: ونزل بهم وأصابهم الذي كانوا به يسخرون من عذاب الله. وكان استهزاؤُهم به الذي ذكره الله، قيلهم قبل نزوله {ما يحبسه}، و «هلا تأتينا»؟".

قال السدي:"يقول: وقع بهم العذاب الذي استهزءوا به".

عن مجاهد: "{وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون}، قال: ما جاءت به أنبياؤهم من الحق".

(١) قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً} [هود: ٩]، أي:"ولئن أعطينا الإنسان مِنَّا نعمة من صحة وأمن وغيرهما".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولئن أذقنا الإنسان منّا رخاء وسعةً في الرزق

=

=

والعيش، فبسطنا عليه من الدنيا وهي "الرحمة " التي ذكرها تعالى ذكره في هذا الموضع".

قال الزجاج:"يعني الكافر، والرحْمَة الرزق، ههنا، والإنسان اسم للجنس في معنى الناس".

قال الشوكاني: وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه: لأن الإذاقة والذوق أقل ما يوجد به الطعم.

قوله تعالى: {ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ} [هود: ٩]، أي:"ثم سلبناها منه".

قال الطبري:"يقول: ثم سلبناه ذلك، فأصابته مصائب أجاحته فذهبت به".

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ} [هود: ٩]، أي:"إنه لَشديد اليأس من رحمة الله، جَحود بالنعم التي أنعم الله بها عليه".

قال الطبري:"يقول: يظل قَنِطًا من رحمة الله، آيسًا من الخير".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيرا، ولم يَرْج بعد ذلك فرجا".

عن قتادة، قوله: "{إنه ليؤس كفور}، يقول: إذا ابتلى ببلاء ثم يصبر عليه".

عن ابن جريج في قوله: "{ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور}، يا ابن آدم أما كانت نعمة من الله ﷻ من السعة والأمن والعافية فكفور لما بك منها، وإذا نزعت منك يبتغي بك فراغك وعملك فيئوس من روح الله، قنوط من رحمته كذلك أي المنافق والكافر، يئوس أن يرجع ما كان به منها، كفور لما كان من به".

قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ} [هود: ١٠]، أي:"ولئن أذقنا

=

=

هذا الإنسان اليؤوس الكفور نَعْماءَ بعد ضراء مسته كصحة بعد مرض، وغنى بعد فقر، وأمن بعد خوف، ونجاح بعد فشل".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولئن نحن بسطنا للإنسان في دنياه، ورزقناه رخاءً في عيشه، ووسعنا عليه في رزقه، وذلك هي النّعم التي قال الله جل ثناؤه: {ولئن أذقناه نعماء}، وقوله: {بعد ضراء مسته}، يقول: بعد ضيق من العيش كان فيه، وعسرة كان يعالجها".

قوله تعالى: {لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي} [هود: ١٠]، أي:"ليقولن في هذه الحالة الجديدة ببطر وأشر، وغرور وتكبر، لقد ولت المصائب عنى الأدبار، ولن تعود إلي".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ليقولن عند ذلك: ذهب الضيق والعسرة عني، وزالت الشدائد والمكاره".

قال الواحدي:"يريد: الضُّرَّ والفقر، ومعنى السيئات: الخصال التي تسوء صاحبها".

قال ابن كثير:"أي: يقول: ما بقي ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء".

عن ابن جريج قوله: "{ذهب السيئات عني}، غِرَّةً بالله وجراءة عليه".

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} [هود: ١٠]، أي:"لشديد الفرح والبطر بالنعمة: كثير التباهي والتفاخر بما أعطى منها، مشغول بذلك عن القيام بما يجب عليه نحو خالقه من شكر وثناء عليه- سبحانه-".

- قال ابن عاشور: وشدة الفرح: تجاوزه الحد وهو البطر والأَشَر، كما في قوله (إنّ اللّهَ لاَ يُحبُّ الْفَرِحين).

والفخر: تباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للنّاس.

والمعنى أنّه لا يشكر الله على النعمة بعد البأساء وَمَا كان فيه من الضرّاء فلا يتفكر

=

=

في وجود خالق الأسباب وَنَاقل الأحوال، والمخالف بين أسبابها.

قال ابن كثير:"أي: فرح بما في يده، بطر فخور على غيره".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الإنسان لفرح بالنعم التي يعطاها مسرور بها، {فخور}، يقول: ذو فخر بما نال من السعة في الدنيا، وما بسط له فيها من العيش، وينسى صُرُوفها، ونكدَ العَوَائص فيها، ويدع طلب النعيم الذي يبقى، والسرور الذي يدوم فلا يزول".

عن ابن جريج قوله: "{إنه لفرح}، والله لا يحب الفرحين، {فخور}، بعد ما أعطي، وهو لا يشكر الله".

قال ابن عباس: "يريد يفاخر أوليائي بما وسعت عليه".

قال الواحدي:"وهذا بيان عما يوجبه بطر النعمة من تناسي حال الشدة، وترك الاعتراف بنعمة الله وحمده على ما صرف عنه من الضرّ مع المرح والتكبُّر على عباد الله".

قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [هود: ١١]، أي:"لكن الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيمانًا بالله واحتسابًا للأجر عنده، وعملوا الصالحات شكرا لله على نعمه".

قال الطبري:"فإنهم إن تأتهم شدّة من الدنيا وعسرة فيها، لم يثنهم ذلك عن طاعة الله، ولكنهم صبروا لأمره وقضائه. فإن نالوا فيها رخاء وسعةً، شكروه وأدَّوا حقوقه بما آتاهم منها".

قال ابن كثير:"أي: في الشدائد والمكاره، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: في الرخاء والعافية".

عن ابن جريج: "{إلا الذين صبروا}، عند البلاء، {وعملوا الصالحات}، عند النعمة".

=

=

وروي عن زيد بن أسلم:"{وعملوا الصالحات}، رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله، عنهم".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [هود: ١١]، أي:"هؤلاء لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير في الآخرة".

عن ابن جريج: "{أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ}، لذنوبهم، {وأجر كبير}، قال: الجنة".

عن قتادة:"{أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ}، يقول: مغفرة لذنوبهم"، "{وأجر كبير}: لحسناتهم وهي الجنة".

قال الطبري:"يقول الله: {أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} يغفرها لهم، ولا يفضحهم بها في معادهم، {وأجر كبير}، يقول: ولهم من الله مع مغفرة ذنوبهم، ثوابٌ على أعمالهم الصالحة التي عملوها في دار الدنيا، جزيلٌ، وجزاءٌ عظيم".

قال ابن كثير:"{لَهُمْ مَغْفِرَةٌ}، أي: بما يصيبهم من الضراء، {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}، بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: "والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن هَمٌّ ولا غَمٌّ، ولا نَصَب ولا وَصَب، ولا حَزَن حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّرَ اللهُ عنه بها من خطاياه ، وفي الصحيحين: «والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن» وهكذا قال الله تعالى: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [سورة العصر]، وقال تعالى: {إِنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلا الْمُصَلِّينَ} الآية [المعارج: ١٩ - ٢٢]".

- قال ابن القيم: قوله (ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عني) لَو أَنه قَالَ أذهب الله السَّيِّئَات عني برحمته وَمِنّه لما ذمّ على ذَلِك بل كَانَ مَحْمُودًا عَلَيْهِ وَلكنه غفل عَن الْمُنعم

=

=

بكشفها وَنسب الذّهاب إِلَيْهَا فَرح وافتخر فَإِذا علم الله سُبْحَانَهُ هَذَا من قلب عبد فَذَلِك من أعظم أَسبَاب خذلانه وتخليه عَنهُ فَإِن مَحَله لَا تناسبه النِّعْمَة الْمُطلقَة التَّامَّة.... (الفوائد).

- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي الحديث الصحيح: أن ثلاثة أراد الله أن يبتليهم أبرص وأقرع وأعمى فأظهر الابتلاء حقائقهم التي كانت في علمه قبل أن يخلقهم فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه وأنه كان أعمى فقيرا فأعطاه الله البصر والغنى وبذل للسائل ما طلبه شكرا لله وأما الأقرع والأبرص فكلاهما جحدا ما كان عليه قبل ذلك من سوء الحال والفقر وقال في الغنى إنما أوتيته كابرا عن كابر وهذا حال أكثر الناس لا يعترف بما كان عليه أولا من نقص أو جهل وفقر وذنوب وأن الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضد ما كان عليه وأنعم بذلك عليه.... (شفاء العليل).

- إن قيل: ما وجه عيب الإنسان في قوله (ذهب السيئات عني) وما وجه ذمه على الفرح، وقد وصف الله الشهداء فقال (فرحين)؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري، فقال: إِنما عابه بقوله (ذهب السيئات عني) لأنه لم يعترف بنعمة الله، ولم يحمَده على ما صُرف عنه، وإِنما ذمه بهذا الفرح، لأنه يرجع إِلى معنى المرح والتكبُّر عن طاعة الله.

- وإنها أيضًا لصورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر، الذي يعيش في لحظته الحاضرة، فلا يتذكر فيما مضى، ولا يتفكر فيما سيكون عليه حاله بعد الموت، ولا يعتبر بتقلبات الأيام، فهو يؤوس كفور إذا نزعت منه النعمة، وهو بطر فخور إذا عادت إليه، وهذا من أسوأ ما تصاب به النفس الإنسانية من أخلاق مرذولة.... (التفسير الوسيط).

- قال الرازي: قوله (الإنسان) في هذه الآية فيه قولان:

القول الأول: أن المراد منه مطلق الإنسان ويدل عليه وجوه:

=

=

الأول: أنه تعالى استثنى منه قوله (إِلاَّ الذين صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصالحات) والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، فثبت أن الإنسان المذكور في هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر، وذلك يدل على ما قلناه.

الثاني: أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى (والعصر. إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ. إِلاَّ الذين ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات) وموافقة أيضًا لقوله تعالى (إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعًا).

الثالث: أن مزاج الإنسان مجبول على الضعف والعجز.

قال ابن جريج في تفسير هذه الآية يا ابن آدم إذا نزلت لك نعمة من الله فأنت كفور، فإذا نزعت منك فيؤس قنوط.

والقول الثاني: أن المراد منه الكافر.

قالو: إن الصفات المذكورة للإنسان في هذه الآية لا تليق إلا بالكافر لأنه وصفه بكونه يؤوسًا، وذلك من صفات الكافر لقوله تعالى (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) ووصفه أيضًا بكونه كفورًا، وهو تصريح بالكفر ووصفه أيضًا بأنه عند وجدان الراحة يقول (ذهب السيئات عني) وذلك جراءة على الله تعالى، ووصفه أيضًا بكونه فرحًا (والله لاَ يُحِبُّ الفرحين) ووصفه أيضًا بكونه فخورًا، وذلك ليس من صفات أهل الدين.

- قال الشنقيطي: في هذه الآية ذكر تعالى أن عادة الإنسان الجزع عندما يصيبه شر من فقر ومرض وغيرهما، والبطر عندما يحصل له خير من عافية وغني وغيرهما، فهو معيب في كلا طرفي الابتلاء، فهو لا ينجح في الأمرين، إذ لا يشكر نعمة ولا يصبر على نقمة.

وَقَدْ أَوْضَحَ جَلَّ وَعَلَا هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ:

كَقَوْلِهِ تعالى في سورة فصلت (لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ

=

=
فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ).

وَقَوْلِهِ تعالى في سورة الروم (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ).

وَقَوْلِهِ فِيهَا أَيْضًا (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ).

وَقَوْلِهِ تعالى فِي سُورَةِ يس (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ).

وَقَوْلِهِ تعالى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ).

وَقَوْلِهِ فِيهَا أَيْضًا (فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

- أما المؤمن الحق، فقد بيّن النبي ﷺ أنه بخلاف ذلك: يشكر عند السراء، ويصبر عند الضراء.

قال ﷺ (عَجَبًا لأمْرِ المُؤمنِ إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خيرٌ ولَيسَ ذلِكَ لأَحَدٍ إلاَّ للمُؤْمِنِ: إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيرًا لَهُ، وإنْ أَصَابَتْهُ ضراءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا لَه).

- ثم استثنى الله من هذا الخلق السيء

(إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطروا.

- قال الخازن: هذا استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فإنهم ليسوا كذلك فإنهم إن نالتهم شدة صبروا وإن نالتهم نعمة شكروا عليها
=

=

(أولئك) يعني من هذه صفتهم (لهم مغفرة) يعني لذنوبهم (وأجر كبير) يعني الجنة.

- قال ابن عاشور: ومنْ معاني الصبر انتظار الفرج ولذلك أوثرَ هنا وصفُ (صبروا) دون (آمنوا) لأنّ المرادَ مقابلة حالهم بحال الكفّار في قوله (إنّه ليؤوس كفور).

ودل الاستثناء على أنّهم متّصفون بضد صفات المستثنى منهم.

وفي هذا تحذير من الوقوع فيما يماثل صفات الكافرين على اختلاف مقادير.

قال السعدي: وإنما كان الصبر أعظم العطايا، لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته، وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر، فإنه يحتاج إلى الصبر على طاعة الله، حتى يقوم بها ويؤديها، وإلى صبر عن معصية الله حتى يتركها لله، وإلى صبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخطها، بل إلى صبر على نعم الله ومحبوبات النفس، فلا يدع النفس تمرح وتفرح الفرح المذموم، بل يشتغل بشكر الله، فهو في كل أحواله يحتاج إلى الصبر، وبالصبر ينال الفلاح، ولهذا ذكر الله أهل الجنة فقال (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ) (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) وكذلك قوله (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا).

فهم نالوا الجنة بنعيمها، وأدركوا المنازل بالصبر، ولكن العبد يسأل الله العافية من الابتلاء الذي لا يدري ما عاقبته، ثم إذا ورد عليه فوظيفته الصبر، فالعافية هي المطلوبة بالأصالة في أمور الابتلاء والامتحان، والصبر يؤمر به عند وجود أسبابه ومتعلقاته، والله هو المعين.

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) من واجبات ومستحبات.

ولعمل الصالح لا يكون صالحًا إلا بشرطين: الشرط الأول: أن يكون خالصًا لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

=

=

الشرط الثاني: أن يكون متابعًا للنبي ﷺ، لقوله ﷺ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

فمن عمل عملًا أشرك به مع الله غيره ولو يسير الرياء كان عمله غير صالح، ومن أخلص لله لكن على غير شريعة رسول الله ﷺ كان عمله غير صالح.

- قال السعدي: ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه.

- ودائمًا يقرن الله العمل بالصالح، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحًا.

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...).

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً...).

(أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) يستر الله ذنوبهم جزاء صبرهم وشكرهم.

وفي هذا زوال المرهوب.

(وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) أي: ثواب كبير عظيم، وهو الجنة.

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا).

وقال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...).

والأجر في اللغة جزاء العمل.

- وسمي الثواب أجرًا: لأنه سبحانه التزم على نفسه أن يجزي به كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير.

- ووصفه بالكِبَر لما في الجنة من عظيم الشأن، لأن الله يقول فيها (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، ولأجل هذا وصف هذا

=

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢).

{فَلَعَلَّك} يَا مُحَمَّد {تَارِك بَعْض مَا يُوحَى إلَيْك} فَلَا تُبَلِّغهُمْ إيَّاهُ لِتَهَاوُنِهِمْ بِهِ {وَضَائِق بِهِ صَدْرك} بِتِلَاوَتِهِ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ {أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا} هَلَّا {أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْز أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَك} يُصَدِّقهُ كَمَا اقْتَرَحْنَا {إنَّمَا أَنْت نَذِير} فَمَا عَلَيْك إلَّا الْبَلَاغ لَا الْإِتْيَان بِمَا اقْتَرَحُوهُ {وَاَللَّه عَلَى كُلّ شَيْء وَكِيل} حفيظ فيجازيهم[(١)].

=

الجزاء بالعظم، وقد جاء مفصلًا في القرآن جميع ملاذه، كالمناكح في النساء التي هن في غاية الجمال، والملابس التي هي في غاية الجمال، والمشارب، والأواني والحلي والولدان وغيرها من النعيم، وأعلى ذلك النظر إلى وجهه الكريم.

- وفي هذا حصول المطلوب

- وقدم المغفرة على الأجر العظيم، لأن التخلية قبل التحلية، فغفر لهم وطهرهم من الذنوب أولًا ثم آتاهم الأجر العظيم.

(١) قوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} [هود: ١٢]، أي:"فلعلك - أيها الرسول لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب- تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه".

واختلف في (لعل) على أوجه أظهرها، أنه قصد بها النهي والزجر، كما يقول للعبد: لعلك تفرط في الأمر الفلاني، والقصد من ذلك توبيخه وزجره عن التفريط.

والمعنى: إياك يا محمد أن تترك بعض ما يوحى إليك أو يضيق به صدرك.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فلعلك يا محمد، تارك بعض ما يوحي إليك ربك أن تبلغه من أمرك بتبليغه ذلك".

عن ابن جريج في قوله: "{فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك}، أن تفعل فيه كما

=

=

أمرت وتدعو إليه كما أرسلت".

قوله تعالى: {وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ} [هود: ١٢]، أي:"مما يشق على الكفار سماعه ودعوتهم إليه، فضاق به صدرك؛ خشية أن يطلبوا منك بعض المطالب على وجه التعنت".

قال الطبري: أي: "وضائق بما يوحى إليك صدرك فلا تبلغه إياهم".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مسليًا لرسوله الله ﷺ، عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول - كما أخبر تعالى عنهم -: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنز أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا} [الفرقان: ٧، ٨]. فأمر الله تعالى رسوله، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وأرشده إلى ألا يضيق بذلك منهم صَدْرُه، ولا يهيدنه ذلك ولا يُثْنِيَنَّه عن دعائهم إلى الله ﷻ آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٧ - ٩٩]، وقال هاهنا: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا} أي: لقولهم ذلك".

قوله تعالى: {أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ} [هود: ١٢]، أي:"كأن يقولوا: لولا أُنزل عليه مال كثير، أو جاء معه ملك يصدقه في رسالته".

والمعنى: أنهم يقولون: إذا كنت رسولًا من عند الله فلم لا نرى معك شيئًا من الغنى والكنوز، وأنت مثلنا تأكل الطعام وتمشي في الأسواق.

قال مقاتل:"يعنى: هلا {أنزل عليه كنز}، يعني: المال {من السماء} فيقسمه بيننا، {أو جاء معه ملك} يعينه ويصدقه بقوله: إن كان محمد صادقا في أنه رسول".

قال الطبري: أي: "مخافة {أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك}، له

=

=

مصدق بأنه لله رسول!".

قوله تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ} [هود: ١٢]، أي:"لست يا محمد إلا منذرًا تخوّف المجرمين من عذاب الله".

أي: لم نرسلك لتأنينهم بما يقترحون عليك من الآيات، وليس ذلك من وظيفتك، وإنما وظيفتك أن تنذرهم وتخوفهم عقوبة ربهم.

وقد بين تعالى أنه أنزل آية عظيمة يُستنكر أن يُطلب غيرها من المعجزات، لأنها كافية لمريد الحق، وهي كتابه العزيز.

قال تعالى (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فبلغهم ما أوحيته إليك، فإنك إنما أنت نذير تنذرهم عقابي، وتحذرهم بأسي على كفرهم بي، وإنما الآيات التي يسألونكها عندي وفي سلطاني، أنزلها إذا شئت، وليس عليك، إلا البلاغ والإنذار".

قال ابن كثير:"فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كُذبُوا وأوذُوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله ﷻ".

قال الزجاج:"أي: إنما عليك أن تنْذِرَهُم وتَأْتِيهُمُ من الآيات بما يُوحَى إليك وليس عليك أن تأتيهم بشهواتهم واقتراحهم الآيات".

عن عكرمة، عن ابن عباس قال: "نذيرا من الناس".

وعن ابن عباس، قال: "قال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطلب يا بني فهر يا بني أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا: نعم قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد".

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [هود: ١٢]، أي:"والله على كل شيء حفيظ يدَبِّر جميع شؤون خلقه".

=

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣).

{أَمْ} بَلْ أَ {يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} أَيْ الْقُرْآن {قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَر مِثْله} فِي الْفَصَاحَة وَالْبَلَاغَة {مُفْتَرَيَات} فَإِنَّكُمْ عَرَبِيُّونَ فُصَحَاء مِثْلِي تَحَدَّاهُمْ بِهَا أَوَّلًا ثُمَّ بِسُورَةٍ وَادْعُوا} لِلْمُعَاوَنَةِ عَلَى ذَلِكَ {مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فِي أَنَّهُ افْتِرَاء.

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤).

{فَإِ} نْ {لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ} أَيْ مَنْ دَعَوْتُمُوهُمْ لِلْمُعَاوَنَةِ {فَاعْلَمُوا} خِطَاب لِلْمُشْرِكِينَ {أَنَّمَا أُنْزِلَ} مُلْتَبِسًا {بِعِلْمِ الله} وَلَيْسَ افْتِرَاء عَلَيْهِ {وَأَنْ} مُخَفَّفَة أَيْ أَنَّهُ {لَا إِلَه إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} بَعْد هَذِهِ الْحُجَّة الْقَاطِعَة أي أسلموا[1].

=

فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء.

فالوكيل: الحافظ الذي تسند إليه الأمور ليكفي غيره، وهو من أسماء الله تعالى. (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا).

قال الطبري: "يقول: والله القيم بكل شيء وبيده تدبيره، فانفذ لما أمرتك به، ولا تمنعك مسألتهم إياك الآيات، من تبليغهم وحيي والنفوذ لأمري".

عن السدي قوله: "{وكيل}، أما «الوكيل»، فالحفيظ".

عن قتادة: "{وكفى بالله وكيلا}، قال: حفيظًا".

(١) قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} [هود: ١٣]، أي:"أي بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من عند نفسه؟".

قال الزجاج:"أي: أيقولون افتراه".

=

=

عن ابن جريج:" {أم يقولون افتراه}، قد قالوه، قل: {فأتوا بعشر سور مثله}".
قوله تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ} [هود: ١٣]، أي:"قل لهم: إن كان الأمر كما تزعمون، فأتوا بعشر سور مثله في الفصاحة والبلاغة مفتريات".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كفاك حجة على حقيقة ما أتيتهم به، ودلالة على صحة نبوتك، هذا القرآن، من سائر الآيات غيره، إذ كانت الآيات إنما تكون لمن أعطيها دلالة على صدقه، لعجز جميع الخلق عن أن يأتوا بمثلها. وهذا القرآن، جميع الخلق عجزة عن أن يأتوا بمثله، فقل لهم: يأتوا بعشر سور مثل هذا القرآن "مفتريات"، يعني مفتعلات مختلقات، إن كان ما أتيتكم به من هذا القرآن مفترى، وليس بآية معجزة كسائر ما سألته من الآيات، كالكنز الذي قلتم: هلا أنزل عليه؟ أو الملك الذي قلتم: هلا جاء معه نذيرا له مصدقا! فإنكم قومي، وأنتم من أهل لساني، وأنا رجل منكم، ومحال أن أقدر أخلق وحدي مائة سورة وأربع عشرة سورة، ولا تقدروا بأجمعكم أن تفتروا وتختلقوا عشر سور مثلها، ولا سيما إذا استعنتم في ذلك بمن شئتم من الخلق".
قال الزجاج:"أي: مثل سورة منه، أيّ سورة منها".
عن مجاهد: "{سور مثله}، قال: مثل القرآن".
عن قتادة قوله: "{سور مثله مفتريات}، قال: مثل هذا القرآن حقا وصدقا لا باطل فيه ولا كذب".
عن الحسن، في قوله: "{سور مثله}، قال: فلا يستطيعون والله أن يأتوا بسورة من مثله ولو حرصوا".
قوله تعالى: {وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ} [هود: ١٣]، أي:"وادعوا من استطعتم من جميع خلق الله ليساعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر".
قال الطبري:"أي: اطلبوا أن يعاونكم على ذلك كل من قدرْتم عَليه، ورجَوْتمْ

=

=

مُظَاهَرَتَه ومعاوَنَتَه".

قال الزجاج:"أي: مثل سورة منه، أيّ سورة منها".

عن ابن عباس: "{وادعوا من استطعتم}: من أعوانكم على ما أنتم عليه إن كنتم صادقين".

عن مجاهد:"{وادعوا}، قال: ناس يشهدون به".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود: ١٣]، أي:"إن كنتم صادقين في دعواكم".

قال الطبري:"إن كنتم صادقين أن هذا القرآن افتراه محمد".

أي: إن كنتم صادقين في زعمكم أنى افتريت هذا القرآن، فهاتوا أنتم عشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم.

- والضمير في (مِثْلِهِ) يعود إلى القرآن الكريم، والمراد بمثله هنا: ما يشابهه في حسن النظم، وجمال الأسلوب، وسداد المعنى، وقوة التأثير.

وكلمة مَنِ في قوله (مَنِ اسْتَطَعْتُمْ) تشمل آلهتهم وبلغاءهم وشعراءهم وكل من يتوسمون فيه العون والمساعدة.

- وقد وقع التحدي بالقرآن على أوجه:

تحداهم أن يأتوا بقرآن بمثل هذا القرآن: (في الطور).

قال تعالى (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)، وقال تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا).

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله: (في هود).

كما قال هنا (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله. (في البقرة ويونس).

=

=

في قوله تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وقال تعالى في سورة يونس (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

– وقوله (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ) قيل: أعوانكم ونصراءكم، وقيل: آلهتكم، وقيل: ائتوا بشهداء يشهدون لكم أن ما أتيتم به يعادل القرآن أو يقاربه.

وهذا غاية التحدي لهم. وهذا كما يقول المعجز المتحدي لمن عانده وتحداه: اذهب وائت بمن تستطيع من أصحابك وأعوانك وأوليائك لتستعين بهم.

– قوله (فَأْتُوا) صيغة الأمر هنا للتعجيز.

– (بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ) أي: في الفصاحة والبلاغة وصدق الأخبار وعدل الأحكام.

– وجاءت كلمة (سورة) منكرة، للإشارة إلى أنه لا يطالبهم بسورة معينة، وإنما أباح لهم أن يأتوا بأية سورة من مثل سور القرآن، حتى ولو كانت كأصغر سورة منه.

– قال ابن كثير: ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى،... فكلٌ من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا) أي صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى،... لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء.

– فلا أحد يستطيع أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ولو دعا من دعا إليه ليعاونه، كما قال تعالى (لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا) أي معينًا.

قوله تعالى: {فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ} [هود: ١٤]،

=

=

أي:"فإن لم يستجب هؤلاء المشركون لكم -أيها الرسول ومَن آمن معك- لما تدعونهم إليه؛ لِعَجْز الجميع عن ذلك، فاعلموا أن هذا القرآن إنما أنزله الله على رسوله بعلمه وليس من قول البشر".

وفي معنى الآية قولان:

أحدهما: أنزله وهو عالم بإنزاله، وعالم بأنه حق من عنده.

والثاني: أنزله فيه عِلْمُه الذي لا يعلمه البشر عما سلف وما سيكون، مما لم يقرأ به النبي ﷺ كتابًا ليدل على أنه من عند الله.

قال شيخ الإسلام مجموع الفتاوى ١٤/ ١٩٦: (وليس معنى مجرد كونه أنزله: أنه هو معلوم له؛ فإن جميع الأشياء معلومة له، وليس في ذلك ما يدل على أنها حق، لكن المعنى: أنزله فيه علمه كما يقال: فلان يتكلم بعلم، ويقول بعلم، فهو سبحانه أنزله بعلمه كما قال: {قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الفرقان:٦]). ا.هـ

ثم إن الجمهور اختلفوا: فبعضهم يفسر [الباء] بـ[من]، أي: إنما أنزل من علم الله.

قال شيخ الإسلام مجموع الفتاوى ١٦/ ٤٦٤: (وقوله: {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [النساء:١٦٦]، قال الزجاج: أنزله وفيه علمه، وقال أبو سليمان الدمشقي: أنزله من علمه، وهكذا ذكر غيرهما، وهذا المعنى مأثور عن السلف).

وبعضهم يفسر [الباء] بمعناها الأصلي: وهو الإلصاق، وهو أقرب للصواب، وأقوى في الدلالة؛ فيكون المعنى: أنزله وفيه علمه.

قال ابن القيم الصواعق المرسلة ٣/ ٨٧٧: (وقال تعالى: {لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [النساء:١٦٦]، أي: أنزله وفيه علم لا يعلمه البشر، فالباء للمصاحبة، مثل قوله: {فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ} [هود:١٤]، أي: أنزل وفيه علم الله، وذلك من أعظم البراهين على صحة نبوة من

=

جاء به، ولم يصنع شيئًا من قال: إن المعنى أنزله وهو يعلمه، وهذا وإن كان حقًا فإن الله يعلم كل شيء، فليس في ذلك دليل وبرهان على صحة الدعوى، فإن الله يعلم الحق والباطل، بخلاف ما إذا كان المعنى أنزله متضمنًا لعلمه الذي لا يعلمه غيره إلا من أطلعه عليه وأعلمه به). والله أعلم.

قال الطبري:"قول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: فإن لم يستجب لكم من تدعون من دون الله إلى أن يأتوا بعشر سور مثل هذا القرآن مفتريات، ولم تطيقوا أنتم وهم أن تأتوا بذلك، فاعلموا وأيقنوا أنه إنما أنزل من السماء على محمد ﷺ بعلم الله وإذنه، وأن محمدا لم يفتره، ولا يقدر أن يفتريه".

قال الزجاج:"معنى {أَنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ}، أي: أَنْزِلَ والله عَالِم بإِنْزَاله، وعالم أنه حق من عنده، ويجوز أن يكون -والله أعلم- (بِعِلْمِ اللهِ) أي بما أنبأَ الله فِيهِ من غَيْب، وَدَلَّ على ما سَيكون وما سلف مما لم يَقْرأ بِه النبي ﷺ كتابًا وهذا دليل على أنه من عند الله".

عن مجاهد قال: "«الاستجابة»: الطاعة".

قوله تعالى: {وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [هود: ١٤]، أي:"واعلموا أن لا إله يُعبد بحق إلا الله".

قال الطبري:"يقول: وأيقنوا أيضا أن لا معبود يستحق الألوهة على الخلق إلا الله الذي له الخلق والأمر، فاخلعوا الأنداد والآلهة، وأفردوا له العبادة".

عن ابن عباس: "«لا إله إلا الله»، قال: توحيد".

عن كعب، قال:"لا إله إلا الله: كلمة الإخلاص".

عن محمد بن إسحاق: «لا إله إلا هو»، قال: ليس معه غيره شريكا في أمره".

قوله تعالى: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [هود: ١٤]، أي:"فهل أنتم -بعد قيام هذه الحجة عليكم- مسلمون منقادون لله ورسوله؟".

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥).

{مَنْ كَانَ يُرِيد الْحَيَاة الدُّنْيَا وَزِينَتهَا} بِأَنْ أَصَرَّ عَلَى الشِّرْك وَقِيلَ هِيَ فِي الْمُرَائِينَ {نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالهمْ} أَيْ جَزَاء مَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْر كَصَدَقَةٍ وَصِلَة رَحِم {فِيهَا} بِأَنْ نُوَسِّع عَلَيْهِمْ رِزْقهمْ {وَهُمْ فِيهَا} أَيْ الدُّنْيَا {لَا يُبْخَسُونَ} يُنْقَصُونَ شَيْئًا.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا

=

(فَهَلْ أَنتُم) بعد كل تلك الأدلة الواضحة الدالة على وحدانية الله، وعلى أن هذا القرآن من عنده.

(مُّسْلِمُونَ) أي: داخلون في الإسلام، متبعون لما جاءكم به الرسول ﷺ.

- ويرى بعض العلماء أن الخطاب في هذه الآية موجه إلى النبي ﷺ والمسلمين، أو إليه وحده ﷺ وعلى سبيل التعظيم، وعليه يكون المعنى: فإن لم يستجب لكم -أيها المؤمنون- هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة الحق، بعد أن ثبت عجزهم عن الإتيان بما تحديتموهم به (فَاعْلَمُوا) أي فازدادوا علمًا ويقينًا وثباتًا، بأن هذا القرآن «إنما أنزل بعلم الله» الذي لا يعزب عنه شيء، وازدادوا علما بأنه لا إله إلا هو سبحانه مستحق للعبادة والطاعة، فهل أنتم بعد كل ذلك (مُسْلِمُونَ) أي ثابتون على الإسلام، وملتزمون بكل أوامره ونواهيه.

قال الطبري:"يقول: فهل أنتم مذعنون لله بالطاعة، ومخلصون له العبادة، بعد ثبوت الحجة عليكم؟".

عن مجاهد قوله: "{فهل أنتم مسلمون}، لأصحاب محمد ﷺ".

كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦).

{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النار وحبط} بطل {ما صنعو} هـ {فيها} أي الآخرة فلا ثواب له {وباطل ما كانوا يعملون[1]}.

---

(١) قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا} [هود: ١٥]، أي:"من كان يريد بأقواله الحسنة وبأعماله الطيبة على حسب الظاهر، الحصول على (الحياة الدنيا وزينتها) من مال وجاه ومنصب وغير ذلك من المتع الدنيوية، بدون التفات إلى ما يقربه من ثواب الآخرة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا، وإياها وزينتها يطلب به".

عن الحسن:"{من كان يريد الحياة الدنيا}، قال: من كان يريد أن يعجل له حسناته".

وعن الحسن أيضا:"{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها}، قال: طيباتهم".

عن منصور أنه حدثهم ثم قال: "سألت سعيد بن جبير، عن هذه الآية في قول الله تعالى: {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها}، قال: هو الرجل يعمل عمل الدنيا لا يريد بها الله وهي مثل الآية في الروم: وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله".

عن عبد الله بن معبد قال: قام رجل إلى علي فقال: أخبرنا، عن هذه الآية؟: {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها}، إلى قوله: {وباطل ما كانوا يعملون}، قال: له نعم ويحك ذاك من كان يريد الدنيا لا يريد الآخرة".

قوله تعالى: {نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا} [هود: ١٥]، أي:"نوصل إليهم -بإرادتنا ومشيئتنا- ثمار جهودهم وأعمالهم في هذه الدنيا".

قال الطبري:"نوف إليهم أجور أعمالهم فيها وثوابها".

=

=

قال الزجاج:"أي: نجازيهم على أعمالهم في الدُّنْيَا".

قال الزمخشري: أي:"نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق. وقيل: هم أهل الرياء. يقال للقراء منهم: أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك. ولمن وصل الرحمن وتصدق: فعلت حتى يقال، فقيل. ولمن قاتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء".

قال الصابوني:"أي: نوفّ إِليهم أجور أعمالهم بما يحبون فيها من الصحة والأمن والرزق".

قال مجاهد:"نعجل لمن لا يتقبل منه".

عن الضحاك:"{نوف إليهم أعمالهم فيها}، يقول: يعجل الله له ثواب عمله في الدنيا، يوسع عليه في المعيشة والرزق ويقر عينه فيما حوله ويدفع، عنه من مكاره الدنيا في نحو هذا وليس له في الآخرة من نصيب".

عن ابن عباس: "{نوف إليهم أعمالهم فيها}، يقول الله تعالى وفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة".

وعن ابن عباس أيضا، قوله: "{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون}، وهي الدنيا يعطيهم الله من الدنيا بحسناتهم وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا، يقول: من عمل صالحا التماس الدنيا صوم أو صلاة أو تهجد بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا".

عن قتادة قوله: "{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون}، يقول: من كانت الدنيا همه وطلبه ونيته وحاجته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفض إلى الآخرة، وليس له فيها حسنة وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة وهم فيها لا يبخسون".

عن الضحاك قوله: "{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها

=

=

وهم فيها لا يبخسون}، يقول: من عمل عملا صالحا يريد به وجه الله في غير تقوى يعني: أهل الشرك أعطي على ذلك أجرا في الدنيا يصل رحما، يعطي سائلا، يرحم مضطرا في نحو هذا من أعمال البر يعجل الله له ثواب عمله في الدنيا".

وقرئ: «يوف»، بالياء، على أن الفعل لله ﷻ. و «توف» إليهم أعمالهم بالتاء، على البناء للمفعول. وفي قراءة الحسن: «نوفى»، بالتخفيف وإثبات الياء، لأن الشرط وقع ماضيا، كقول زهير:

وإن أتاه خليلٌ يومَ مسألةٍ   يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ

قوله تعالى: {وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} [هود: ١٥]، أي:"وهم في الدنيا لا يُنقصون شيئًا من أجورهم".

قال الطبري:"يقول: وهم في الدنيا، لا ينقصون أجرها، ولكنهم يوفونه فيها".

عن قتادة:"{وهم فيها لا يبخسون}، يقول: لا يظلمون".

عن مجاهد: "{وهم فيها لا يبخسون}، قال: لا ينقصون".

وقد ثبت في صحيح مسلم (٢٨٠٨) عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يجزى بها).

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ} [هود: ١٦]، أي:"أولئك ليس لهم في الآخرة إلا نار جهنم يقاسون حرَّها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين ذكرت أنا نوفيهم أجور أعمالهم في الدنيا {ليس لهم في الآخرة إلا النار}، يصلونها".

عن الضحاك:"وأما قوله: {أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار}، يقول: ما عملوا من عمل صالح في شركهم، عجل الله لهم ثوابه في الدنيا، ولم يكن لهم في

=

=

الآخرة إلا النار".

قولـه تعـالى: {وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا} [هـود: ١٦]، أي:"بطـل مـا صـنعوه مـن الأعمال الصالحة لأنهم قد استوفوا في الدنيا جزاءها".

قال الطبري:"يقول: وذهب ما عملوا في الدنيا".

عن ابن عباس:"{وحبط ما صنعوا فيها}، يقول: حبط ما صنعوا في الدنيا".

وعن ابن عباس أيضا، قوله: "{وحبط ما صنعوا فيها}، يقول: وحبط عمله الذي كان يعمل التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين".

عن السدي:"{وحبط ما صنعوا فيها}، قال: وحبط ما عملوا من خير".

عن أبي مالك:"{وحبط}، يعني: بطل".

قال الزمخشري:"وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم، يعنى: لم يكن له ثواب لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفي إليهم ما أرادوا".

قوله تعالى: {وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود: ١٦]، أي:"وباطل في نفسه ما كانوا يعملونه في الدنيا من أعمال ظاهرها البر والصلاح، لأنه لا ثمرة له ولا ثواب في الآخرة لأن الأعمال بالنيات، ونيات هؤلاء المرائين، لم تكن تلتفت إلى ثواب الله، وإنما كانت متجهة اتجاها كليا إلى الحياة الدنيا وزينتها، إلى إرضاء المخلوق لا الخالق. والباطل: الزائل المضمحل".

قال الطبري:"لأنهم كانوا يعملون لغير الله، فأبطله الله وأحبط عامله أجره".

قال الزمخشري:"أى: كان عملهم في نفسه باطلا، لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له".

عن السدي:"{وباطل ما كانوا يعملون}، قال: وباطل في الآخرة ليس لهم فيها جزاء".

عن ابن عباس:"{وباطل ما كانوا يعملون}،: في الدنيا".

=

=

وقرئ: «وبطل» على الفعل. وعن عاصم: «وباطلا» بالنصب، وفيه وجهان: أحدهما: أن تكون ما إبهامية وينتصب بيعملون، ومعناه: وباطلا، أى: باطل كانوا يعملون.

والثاني: وأن تكون بمعنى المصدر على: وبطل بطلانا ما كانوا يعملون.

قال ابن رجب: وخرَّج مسلمٌ من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: "إنَّ أوَّلَ الناسِ يُقضى يومَ القيامةِ عليه رجل استُشْهِدَ، فأتِي به، فعرَّفه نِعَمَهُ، فعرفَهَا، قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتَى استُشْهِدتُ، قال: كذبتَ، ولكنَكَ قاتلتَ، لأنْ

يُقالَ: جرِيء، فقد قيل، ثم أُمِرَ به، فسُحِبَ على وجهِهِ، حتى أُلقِيَ في النَّارِ، ورجل تعلَّمَ العلمَ وعلَمَهُ، وقرأ القُرآنَ، فأتِي به، فعرَّفَهُ نِعمَهُ فعرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العِلمَ وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرآنَ، قال: كذبتَ، ولكنَك تعلَّمتَ العلمَ ليُقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقالَ: قارئ، فقدْ قيلَ، ثمَّ أُمِرَ به، فسُحِبَ على وجهِهِ حتى أُلقيَ في النارِ، ورجلٌ وسَّع اللهُ عليه، وأعطاهُ من أصنافِ المالِ كلِّه، فأُتِي به، فعرَّفهَ نِعَمَهُ، فعرَفَها، قالَ: فما عمِلتَ فيها؟

قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنفقَ فيها إلا أنفقتُ فِيهَا لك، قالَ: كذبتَ، ولكنَّكَ فعلتَ، ليُقالَ: هوَ جَواد، فقدْ قيل، ثمَّ أُمِرَ به. فسُحبِ على وجهِهِ حتَّى أُلقيَ في النَّارِ".

وفي الحديثِ: أنَّ معاويةَ لما بَلَغَهُ هذا الحديثُ، بكَى حتى غُشي عليه، فلمَّا أفاقَ، قال: صدقَ اللَهُ ورسولُهُ، قال اللهُ ﷻ: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ).

وقد وردَ الوعيدُ على تعلُّم العلم لغيرِ وجهِ اللهِ، كما خرَّجه الإمامُ أحمدُ

=

=

وخرج أبو داودَ وابنُ ماجةَ، من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: "منْ تعلَّمَ عِلمًا ممَّا يُبتَغَى به وجْهُ اللهِ، لا يتعلَّمُه إلا ليُصيبَ به عرَضًا من الدنيا، لم يَجِدْ عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ" يعني: ريحَها.

وخرَّج الترمذيُّ من حديثِ كعبِ بنِ مالكٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: "منْ طلَبَ العلمَ ليُمارِي به السُّفهاءَ، أو يُجارِي به العُلَمَاءَ، أو يَصرِفَ به وجُوهَ الناسِ إليه، أدخلَهُ اللهُ النارَ".

وخرَّجه ابنُ ماجةَ بمعناهُ من حديثِ ابنِ عمرَ، وحذيفةَ، وجابرٍ، عنِ النبيِّ ﷺ - ولفظُ حديثِ جابرٍ: "لا تعلَّموا العِلمَ لتُباهُوا به العُلَماءَ، ولا لتُمارُوا به السُّفهاءَ، ولا تخيَّروا به المجالسَ، فمنْ فعلَ ذلك، فالنَّارَ النَّارَ".

وقال ابنُ مسعودٍ: لا تعلَّموا العلمَ لثلاثٍ: لتمارُوا به السفهاءَ، أو لتُجادِلوا به الفُقهاءَ، أو لتصرفُوا له وجُوهَ الناس إليكم، وابتعوا بقولِكُم وفعلِكم ما عندَ اللهِ، فإنَّه يبقى ويذهبُ ما سواهُ.

وقد وردَ الوعيدُ على العملِ لغيرِ اللَهِ عمومًا، كما خرَّج الإمام أحمدُ من حديثِ أُبيّ بنِ كعبٍ، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: "بَشِّرْ هذه الأمَّةَ بالسَّناءِ والرِّفْعَةِ والدِّينِ والتمكين في الأرض، فمن عمِلَ منهم عملَ الآخرةِ للدّنيا، لم يكنْ له في الآخرةِ من نصيب" ا.هـ

وهنا مباحث:

المبحث الأول: في الآية ذم من يريد بعمله الصالح الدنيا.

قال تعالى (فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ (٢٠٠) وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).

وفي الحديث (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ

=

=

وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ).

المبحث الثاني: وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي هَذِهِ الْآيَة:

فقيل: نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ وَاخْتَارَهُ النَّحَّاسُ.

لأن قوله تعالى (أُوْلَئِكَ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) لا يليق إلا بالكفار.

وَقِيلَ: الْآيَةُ وَارِدَةٌ فِي النَّاسِ عَلَى الْعُمُومِ كَافِرِهِمْ وَمُسْلِمِهِمْ. وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ كَانَ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ حَظَّ الدُّنْيَا يُكَافَأُ بِذَلِكَ.

وقيل: نزلت في أهل الرياء.

وقيل: أن الآية نزلت في المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها.

وقيل: أن المراد: اليهود والنصارى؛ وهو منقول عن أنس.

- قال ابن الجوزي: اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال:

أحدها: أنها عامة في جميع الخلق، وهو قول الأكثرين.

المبحث الثالث: هذه الآية مقيدة بالآية الأخرى في سورة الإسراء.

قال تعالى (من كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا).

قَالَ الْقُرْطُبِي: ذَهَبَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُطْلَقَةٌ، وَكَذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي في الشورى (مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها) قَيَّدَتْهَا وَفَسَّرَتْهَا الَّتِي فِي سُبْحَانَ: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها مَا نَشاءُ لِمَنْ نُرِيد.

المبحث الرابع: إشكال وجوابه: قال الشنقيطي: هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأن الكافر يُجازَى بحسناته؛ كالصدقة وصلة الرحم وقرى الضيف والتنفيس عن المكروب، في الدنيا دون الآخرة؛ لأنه تعالى قال: (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا) يعني

=

=
الحياة الدنيا، ثم نصَّ على بطلانها في الآخرة بقوله: (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الآية.

ونظير هذه الآية قوله تعالى (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا).

وقد صحَّ عنه ﷺ أن الكافر يُجازى بحسناته في الدنيا.

مع أنه جاءت آيات أُخر تدلُّ على بطلان عمل الكافر واضمحلاله من أصله، وفي بعضها التصريح ببطلانه في الدنيا مع الآخرة في كفر الرِّدَّة وفي غيرها.

أما الآيات الدالّة على بطلانه من أصله:

فكقوله (أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ).

وكقوله (أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ).

وقوله (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا).

وأما الآيات الدالة على بطلانه في الدنيا مع الآخرة:

فكقوله في كفر المرتد (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ).

وكقوله في كفر غير المرتد (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ) إلى قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ). والجواب من أربعة أوجه:

الأول والذي يظهر لي صوابه لدلالة ظاهر القرآن عليه: أن من الكفار من يثيبه الله بعمله في الدنيا، كما دلَّتْ عليه آيات وصحَّ به الحديث، ومنهم من لا يثيبه الله بعمله في الدنيا، كما دلت عليه آيات وصحَّ به الحديث، وهذا مُشاهد فيهم في الدنيا، فمنهم من هو في عيش رغد، ومنهم من هو في بؤس وضيق.

ووجه دلالة القرآن على هذا، أنه تعالى أشار إليه بالتخصيص بالمشيئة في قوله
=

=

(من كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ) فهي مخصصة لعموم قوله تعالى (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُم).

وعموم قوله تعالى (وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا)

ويدل لهذا التخصيص قوله في بعض الكفار (خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ).

وجمهور العلماء من حمل العام على الخاص، والمطلق على المقيد، كما تقرر في الأصول.

الثاني: وهو وجيه أيضًا: أن الكافر يُثاب عن عمله بالصحة وسعة الرزق والأولاد ونحو ذلك، كما صرح به تعالى في قوله (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا) يعني الدنيا، وأكد ذلك بقوله (وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ) وبظاهرها المتبادر منها كما ذكرنا.

فسرها ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك كما نقله عنهم ابن جرير.

وعلى هذا: فبطلان أعمالهم في الدنيا بمعنى أنها لم يعتد بها شرعًا في عصمة دم، ولا ميراث ولا نكاح، ولا غير ذلك، ولا تفتح لها أبواب السماء، ولا تصعد إلى الله تعالى، بدليل قوله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ).

ولا تُدَّخر لهم الأعمال النافعة، ولا تكون في كتاب الأبرار في عليين، وكفى بهذا بطلانًا.

أما مطلق النفع الدنيوي بها، فهو عند الله لا شيء، فلا يُنافي بطلانها؛ بدليل قوله (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعٌ).

وقوله (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون).

وقوله (وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) إلى قوله (للمتقين) والآيات في مثل هذه

=

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧).

{أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَة} بَيَان {مِنْ رَبّه} وَهُوَ النَّبِيّ ﷺ أَوْ الْمُؤْمِنُونَ وَهِيَ الْقُرْآن {وَيَتْلُوهُ} يَتْبَعهُ {شَاهِد} لَهُ بِصِدْقِهِ {مِنْهُ} أَيْ مِنْ الله وَهُوَ جِبْرِيل {وَمِنْ قَبْله} الْقُرْآن {كِتَاب مُوسَى} التَّوْرَاة شَاهِد لَهُ أَيْضًا {إِمَامًا وَرَحْمَة} حَال كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ لَا {أُولَئِكَ} أَيْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَة {يُؤْمِنُونَ بِهِ} أَيْ بِالْقُرْآنِ فَلَهُمْ الْجَنَّة {وَمَنْ يَكْفُر بِهِ مِنْ الْأَحْزَاب} جَمِيع الْكُفَّار {فَالنَّار مَوْعِده فَلَا تَكُ فِي مِرْيَة} شَكّ {مِنْهُ} مِنْ الْقُرْآن {إِنَّهُ الْحَقّ مِنْ رَبّك وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة {لَا يؤمنون}[1].

=

كثيرة.

ومما يوضح هذا المعنى حديث: لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء.

(١) قوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ} [هود: ١٧]، أي:"أفمن كان على نور واضح، وبرهان ساطع من الله تعالى، وهو النبي ﷺ والمؤمنون، وجوابه محذوف أي كمن كان يريد الحياة الدنيا؟ يريد أن بينهما تفاوتًا كبيرًا، وتباينًا بعيدًا، فلا يستوي".

وفي قوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ} [هود: ١٧]، أربعة أقوال:

أحدها: أنه القرآن، قاله عبد الرحمن بن زيد.

الثاني: محمد ﷺ، قاله الحسين بن علي ، والحسن بن علي ،محمد بن علي بن الحنفية ، ومجاهد ، وسفيان ، وأبو العالية ، وأبو صالح ، وإبراهيم ، وعكرمة ،

=

=

والضحاك ،وقتادة ، والسدي ، وابن زيد ، وخصيف ، وابن عيينة ، والفراء ، وابن قتيبة.

الثالث: الحجج الدالة على توحيد الله تعالى ووجوب طاعته، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

والرابع: أن البينة هي الإشراف على القلوب والحكمة على الغيوب. ذكره الماوردي عن بعض المتصوفة.

قال الفراء:"فالذي على البينة من ربه: محمد ﷺ".

قوله تعالى: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ} [هود: ١٧]، أي:"ويتبعه شاهد من الله بصدقه".

عن ابن عباس، "قوله: {ويتلوه شاهد منه}، فهو جبريل شاهد من الله بالذي يتلو من كتاب الله الذي أنزل على محمد ﷺ".

عن مجاهد في قوله: "{ويتلوه شاهد منه}، قال جبريل: تلا التوراة والإنجيل والقرآن، وهو الشاهد من الله ﷻ".

قال الفراء:"يعني: جبريل -عليه السلام- يتلو القرآن، «الهاء» للقرآن".

وقال ابن قتيبة:"{وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ}، أي: من ربّه. «الهاء» مردودة إلى الله تعالى، والشاهد من الله تعالى للنبي، ﷺ: جبريل عليه السلام، يريد أنه يتبعه ويؤيّده ويسدّده ويشهده، ويقال: الشاهد: «القرآن» {يَتْلُوهُ} يكون بعده تاليا شاهدا له، وهذا أعجب إليّ، لأنّه يقول: {وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى}، يعني: التوراة، {إِمامًا وَرَحْمَةً}، قبل القرآن يشهد له بما قدّم الله فيها من ذكره".

قال البغوي: "قوله تعالى (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ) بيان (مِنْ رَبِّهِ) قيل: في الآية حذف، ومعناه: أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها، أو مَنْ كان على بينة من ربه كمن هو في الضلالة والجهالة".

وفي قوله تعالى: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ} [هود: ١٧]، سبعة أقوال:

=

=

أحدها: أنه لسانه يشهد له بتلاوة القرآن، قاله الحسن ، وقتادة ، ومنه قول الأعشى:

فلا تحسبنّي كافرًا لك نعمةً   على شاهدي يا شاهد الله فاشهد.

الثاني: أنه محمد ﷺ شاهد من الله تعالى، قاله الحسين بن علي.

الثالث: أنه جبريل عليه السلام، قاله ابن عباس ، وأبو العالية ، وأبو صالح ، ومجاهد – في إحدى الروايات ، وإبراهيم ، وعكرمة ، والضحاك ، وعطاء الخراساني ، وخصيف.

الرابع: أنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

روي عن علي رضى الله عنه: ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه الآية والآيتان. فقال له رجُل: فأنتَ فأي شيء نزل فيك؟ فقال علي: أما تقرأ الآية التي نزلت في هود: {ويتلوه شاهد منه} " ولكنه حديث ضعيف لا يثبت.

الخامس: أنه ملك يحفظه، قاله مجاهد ، وأبو العالية.

والسادس: ما روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قول الله: "{أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه}، قال: رسول الله ﷺ كان على بينة من ربه والقرآن يتلوه شاهدا أيضا لأنه من رسول الله ﷺ".

والسابع: معناه: ويتلوه شاهد من نفسه بمعرفة حججه ودلائله وهو عقله ووحدته، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

قال الواحدي: "هو جبريل في قول أكثر المفسرين".

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال التي ذكرناها بالصواب في تأويل قوله: (ويتلوه شاهد منه)، قولُ من قال: «هو جبريل»، لدلالة قوله: {ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمةً}، على صحة ذلك. وذلك أن نبي الله ﷺ لم يتلُ قبل القرآن كتاب موسى، فيكون ذلك دليلا على صحة قول من قال: «عنى به لسان محمد ﷺ، أو: محمد نفسه، أو: عليّ» على قول من قال: «عني به علي». ولا يعلم أنّ أحدًا كان

=

تلا ذلك قبل القرآن، أو جاء به، ممن ذكر أهل التأويل أنه عنى بقوله: {ويتلوه شاهد منه}، غير جبريل عليه السلام".

قوله تعالى: {وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً} [هود: ١٧]، أي:"ومن قبل القرآن كتاب التوراة الذي أنزله الله على موسى قدوةً في الخير ورحمة لمن نزل عليهم".

فمن قبل هذا الشاهد التالي للبينة شاهر آخر، وهو كتاب موسى، والمراد به التوراة.

قال الطبري:"ومن قبله كتاب موسى إمامًا لبني إسرائيل يأتمُّون به، ورحمةً من الله تلاه على موسى".

قال ابن الجوزي: قال الزجاج: والمعنى: وكان من قبل هذا كتاب موسى دليلًا على أمر النبي ﷺ، فيكون "كتاب موسى" عطفا على قوله: (ويتلوه شاهد منه) أي: ويتلوه كتاب موسى، لأن موسى وعيسى بشَّرا بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل.

ونصب "إماما" على الحال.

فإن قيل: كيف تتلوه التوراة، وهي قبله؟

قيل: لما بشَّرت به، كانت كأنها تالية له، لأنها تبعته بالتصديق له.

عن إبراهيم، في قوله: "{ومن قبله كتاب موسى}، قال: من قبله جاء بالكتاب إلى موسى".

عن ابن عباس في قوله:"{ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة}، قال: فمن قبله تلا التوراة على موسى، كما تلا القرآن على محمد ﷺ".

وفي قوله تعالى: {وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى} [هود: ١٧]، وجهان:

أحدهما: ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة، قاله ابن زيد.

=

الثاني: ومن قبل محمد كتاب موسى، قاله مجاهد.

قوله تعالى: (إِمَامًا) الإمام: هو الذي يؤتم به في الدين ويقتدى به.

- قال الخازن: يعني أنه كان إمامًا لهم يرجعون إليه في أمور الدين والأحكام والشرائع.

(وَرَحْمَةً) الرَّحْمَةُ: النِّعْمَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَى مَنْ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ بِاعْتِبَارِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُوَافِقَةِ لِحُكْمِ الْقُرْآنِ.

- قال الخازن: وكونه رحمة لأنه الهادي من الضلال وذلك سبب حصول الرحمة.

وفي قوله تعالى: {إِمَامًا وَرَحْمَةً} [هود: ١٧]، وجهان:

أحدهما يعني متقدمًا علينا ورحمة لهم.

الثاني: إمامًا للمؤمنين لاقتدائهم بما فيه ورحمة لهم.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [هود: ١٧]، أي:"أولئك الموصوفون بأنهم على نور من ربهم يصدّقون بالقرآن حق التصديق".

قال الماوردي:"يعني: من كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه".

قال الطبري:"يقول: هؤلاء الذين ذكرت، يصدقون ويقرّون به، إن كفر به هؤلاء المشركون الذين يقولون: إن محمدًا افتراه".

عن سعيد بن جبير في قول الله: "{ليؤمنوا}، قال: ليصدقوا" ،"قوله: {به}، يعني: ليصدقوا بالله تعالى ورسوله".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [هود: ١٧]، أي:"ومن يكفر بالقرآن من أهل الملل والأديان، فله نار جهنم يردها لا محالة".

عن ابن جريج في قوله: "{ومن يكفر به}، بالقرآن {من الأحزاب}".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ومن يكفر بهذا القرآن، فيجحد أنه من عند الله

=

=

{من الأحزاب} وهم المتحزّبة على مللهم، {فالنار موعده}، أنه يصير إليها في الآخرة بتكذيبه".

قال الماوردي:"{فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}، أي: أنها مصيره، قال حسان بن ثابت:

أوردتموها حياض الموت ضاحيةً فالنار موعِدُها والموت لاقيها"

وفي قوله تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ} [هود: ١٧]، قولان:

أحدهما: أنهم أهل الأديان كلها، لأنهم يتحزبون: قاله سعيد بن جبير.

الثاني: هم المتخزبون على رسول الله ﷺ المجتمعون على محاربته.

وفي المراد بهم وجوه:

أحدها: قريش، قاله السدي.

الثاني: اليهود والنصارى، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة.

وروي عن أبي موسى الأشعري: "أن رسول الله ﷺ قال: من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني، فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة".

الثالث: أهل الملل كلها. وهذا مروي عن سعيد بن جبير أيضا.

وروي عن قتادة: "{ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده)، قال: الكفارُ أحزابٌ كلهم على الكفر".

وروي عن أيوب قال: "نبئت أن سعيد بن جبير قال: ما بلغني حديثٌ عن رسول الله ﷺ، على وَجهه إلا وجدت مصداقَه في كتاب الله تعالى، حتى قال: «لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، ولا يهودي ولا نصرانيّ، ثم لا يؤمن بما أرسلت به إلا دخل النار». قال سعيد، فقلت: أين هذا في كتاب الله؟ حتى أتيت على هذه الآية: {ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمةً أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده}، قال: من أهل الملل كُلّها".

قوله تعالى: {فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ} [هود: ١٧]، أي:"فلا تكن في شكٍ من هذا

=

=

القرآن".

قال الطبري:"يقول: فلا تك في شك منه، من أن موعدَ من كفر بالقرآن من الأحزاب النارُ، وأن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك من عند الله".

قال الشوكاني: "وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِغَيْرِهِ ﷺ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ عَنِ الشَّكِّ فِي الْقُرْآنِ".

وفي قوله تعالى: {فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ} [هود: ١٧] وجهان:

أحدهما: في شكّ من القرآن. قاله مقاتل.

الثاني: في مرية من أن النار موعد الكفار، قاله الكلبي.

قال الماوردي:"وهذا خطاب للنبي ﷺ والمراد به جميع المكلفين".

قوله تعالى: {إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} [هود: ١٧]، أي:"هذا القرآن هو الحق، الثابت الذي لا يزول ولا يضمحل، والمراد أنه مطابق للواقع لا كذب فيه".

قال الطبري:"ثم ابتدأ جل ثناؤه الخبر عن القرآن فقال: إن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، يا محمد، الحقّ من ربك لا شك فيه".

عن محمد بن إسحاق:"{الحق من ربك}، قال: ما جاءك من الخير".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} [هود: ١٧]، أي:"ولكن أكثر الناس لا يصدِّقون ولا يعملون بما أُمروا به".

قال مقاتل:"يعني: ولكن أكثر أهل مكة لا يصدقون بالقرآن أنه من عند الله-تعالى".

قال الطبري:"ولكنّ أكثر الناس لا يصدِّقون بأن ذلك كذلك-أي: «إن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، يا محمد، الحقّ من ربك»، فإن قال قائل: أوَ كان النبي ﷺ في شكٍّ من أن القرآن من عند الله، وأنه حق، حتى قيل له: "فلا تك في مرية منه"؟ قيل: هذا نظير قوله: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنزلْنَا إِلَيْكَ} [سورة يونس: ٩٤]".

وهذه الآية تدل على أن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين، فأهل النار هم الأكثر، كما جاء

=

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨).

{وَمَنْ} أَيْ لَا أَحَد {أَظْلَم مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا} بِنِسْبَةِ الشَّرِيك وَالْوَلَد إلَيْهِ {أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبّهمْ} يَوْم الْقِيَامَة فِي جُمْلَة الْخَلْق {وَيَقُول الْأَشْهَاد} جَمْع شَاهِد وَهُمْ الْمَلَائِكَة يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بِالْبَلَاغِ وَعَلَى الْكُفَّار بِالتَّكْذِيبِ {هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبّهمْ أَلَا لَعْنَة الله عَلَى الظَّالِمِينَ} الْمُشْرِكِينَ.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩).

{الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيل الله} دِين الْإِسْلَام {وَيَبْغُونَهَا} يَطْلُبُونَ السَّبِيل {عِوَجًا} مُعْوَجَّة {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هم} تأكيد {كافرون}.

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠).

=

في آيات كثيرة وأحاديث.

كما قال تعالى (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ).

وقال تعالى (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ).

وقال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

وقال تعالى (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ).

وقال تعالى في شأن نوح (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ).

وقال ﷺ (إنما أنتم في الأمم كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض) متفق عليه.

وقال ﷺ (يأتي يوم القيامة النبي وليس معه أحد).

{أولئك لم يكونوا معجزين} الله {فِي الْأَرْض وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {مِنْ أَوْلِيَاء} أَنْصَار يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ عَذَابه {يُضَاعَف لَهُمْ الْعَذَاب} بِإِضْلَالِهِمْ غَيْرهمْ {مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْع} لِلْحَقِّ {وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} هُ أَيْ لِفَرْطِ كَرَاهَتهمْ لَهُ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١).

{أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسهمْ} لِمَصِيرِهِمْ إلَى النَّار الْمُؤَبَّدَة عَلَيْهِمْ {وَضَلَّ} غَابَ {عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} عَلَى الله مِنْ دَعْوَى الشَّرِيك.

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢).

{لَا جَرَم} حَقًّا {أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَة هُمْ الأخسرون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} [هود: ١٨]، أي:"لا أحد أشد ظلمًا ممن تعمد الكذب على الله تعالى بأن زعم بأن الأصنام تشفع لعابديها عنده، أو زعم بأن الملائكة بنات الله، أو أن هذا القرآن ليس من عنده سبحانه".

قال البغوي:"فزعم أن له ولدا أو شريكا، أي: لا أحد أظلم منه".

عن ابن جريج:"{ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا}، قال: هم الكفار والمنافقون".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ} [هود: ١٨]، أي:"أولئك الموصوفون بافتراء الكذب على الله تعالى يعرضون يوم الحساب، على ربهم ومالك أمرهم، كما يعرض المجرم للقصاص منه، ولفضيحته أمام الناس".

قال الزمخشري: أي:"يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم".

قال البغوي:"{أولئك}، يعني: الكاذبين والمكذبين، {يعرضون على ربهم} فيسألهم عن أعمالهم".

=

=

قال ابن جريج:"فيسألهم، عن أعمالهم".
قال الزجاج: ذكر عرضهم توكيدًا لحالهم في الانتقام منهم، وإن كان غيرهم يعرض أيضًا.
- قال الرازي: قوله تعالى (أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ على رَبّهِمْ) وما وصفهم بذلك لأنهم مختصون بذلك العرض، لأن العرض عام في كل العباد كما قال: (وَعُرِضُوا على رَبّكَ صَفًّا) وإنما أراد به أنهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الأشهاد عند عرضهم (هَؤُلاء الذين كَذَبُوا على رَبّهِمْ) فحصل لهم من الخزي والنكال مالا مزيد عليه.
عن صفوان بن محرز قال: "قيل لعبد الله بن عمر، كيف سمعت رسول الله ﷺ يذكر في النجوى؟ فقال: سمعته يقول: يدنو المؤمن من ربه ﷻ يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ثم يقرئه بذنوبه هل تعرف؟ فيقول: يا رب أعرف حتى إذا بلغ منه ما شاء أن يبلغ يقول له تبارك وتعالى: فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفر لك اليوم قال ثم يعطى صحيفة حسابه أو قال: كتابه بيمينه وأما الكافر والمنافق فينادى على رءوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين".
قوله تعالى: {وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ} [هود: ١٨]، أي:"ويقول الأشهاد من الملائكة والنبيين وغيرهم: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم في الدنيا".
والأشهاد: جمع شهيد كشريف وأشراف. أو جمع شاهد بمعنى حاضر كصاحب وأصحاب والمراد بهم- على الراجح- جميع أهل الموقف من الملائكة الذين كانوا يسجلون عليهم أقوالهم وأعمالهم، ومن الأنبياء والمؤمنين.
قال الزمخشري:"ويشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولدا وشريكا".
قال ابن كثير:"يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على

=

=

رءوس الخلائق؛ من الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان، كما قال الإمام أحمد: حدثنا بَهْز وعفان قالا أخبرنا هَمَّام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن مُحْرِز قال: كنت آخذًا بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: "إن الله ﷻ يدني المؤمن، فيضع عليه كنَفَه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قَرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: {الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} » ".

عن الضحاك قوله: "{ويقول الأشهاد}، يعني: الأنبياء والرسل"، "يقولون: يا ربنا أتيناهم بالحق، فكذبوا فنحن نشهد أنهم كذبوا عليك يا ربنا".

وقال مجاهد:"هؤلاء الملائكة يشهدون على بني آدم بأعمالهم".

وقال زيد بن اسلم:"الأشهاد أربعة: الأنبياء والملائكة والمؤمنون والأجساد".

قال ابن الأنباري: وفائدة إِخبار الأشهاد بما يعلمه الله: تعظيم بالأمر المشهود عليه، ودفع المجاحدة فيه.

قوله تعالى: (هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ) أي: هؤلاء الذين افتروا الكذب على الله هؤُلاءِ المجرمون هم الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ بأن نسبوا إليه ما هو منزه عنه، بادعاء الولد، والشركاء تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

- قال أبو حيان: وفي قوله: هؤلاء إشارة إلى تحقيرهم وإصغارهم بسوء مرتكبهم. وفي قوله (على ربهم) أي: على من يحسن إليهم ويملك نواصيهم، وكانوا جديرين أن لا يكذبوا عليه، وهذا كما تقول إذا رأيت مجرمًا: هذا الذي فعل كذا وكذا.

=

قوله تعالى: {أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: ١٨]، أي:"قد سخط الله عليهم، ولعنهم لعنة لا تنقطع؛ لأن ظلمهم صار وصفًا ملازمًا لهم، لأنهم وضعوا الأمور في غير مواضعها، فأوردوا أنفسهم المهالك".

قال الزمخشري:"ويقال: «ألا لعنة الله على الظالمين»، فوا خزياه ووا فضيحتاه".

و (ألا) حرف تنبيه، ومن فوائدها إحضار ذهن السامع لما بعدها.

عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، قال: "هذا كتاب رسول الله ﷺ، عندنا الذي كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن فقال: إن الله كره الظلم، ونهى، عنه وقال: {ألا لعنة الله على الظالمين}".

عن إبراهيم قال: "لعن بعض هؤلاء الجبابرة الحجاج أو غيره فقال: {ألا لعنة الله على الظالمين}".

عن ميمون بن مهران قال: "إن الرجل ليصلي ويلعن نفسه في قراءته، فيقول: ألا لعنة الله على الظالمين، وإنه لظالم".

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [هود: ١٩]، أي:"هؤلاء الظالمون الذين يمنعون الناس عن سبيل الله الموصلة إلى عبادته".

أي: الذين من صفاتهم أنهم لا يكتفون بانصرافهم عن الحق بل يحاولون صرف غيرهم عنه ويطلبون لملة الإسلام العوج ويصفونها بذلك تنفيرا للناس منها.

يَصُدُّونَ من صد بمعنى صرف الغير عن الشيء ومنعه منه. يقال صد يصد صدودا وصدا.

وسَبِيلِ اللهِ طريقه الموصلة إلى رضائه. والمراد بها ملة الإسلام.

وأضيفت إلى الله لأنه هو الذي شرعها ووعد سالكيها بالثواب.

قال ابن كثير:"أي: يردُّون الناسَ عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله ﷻ ويجنبونهم الجنة".

=

عن ابن عباس، قوله: "{يصدون عن سبيل الله}، قال: عن دين الله ﷻ".

عن السدي قوله: "{الذين يصدون عن سبيل الله}، قال: هو محمد ﷺ صدت قريش، عنه الناس".

قوله تعالى: {وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} [هود: ١٩]، أي:"ويريدون أن تكون هذه السبيل عوجاء بموافقتها لأهوائهم".

أي يطلبون لها العوج، يقال: بغيت لفلان كذا إذا طلبته له.

والعوج- بكسر العين- الميل والزيغ في الدين والقول والعمل. وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج.

قال ابن كثير:"أي: ويريدون أن يكون طريقهم عوجا غير معتدلة".

عن ابي مالك، قوله: {ويبغونها عوجا}، يعني: يرجون بمكة غير الإسلام دينا".

عن السدي: "{يبغونها عوجا}: كانوا إذا سألهم أحد هل تجدون محمدا: قالوا لا فصدوا، عنه الناس وبغوا محمدا عوجا هلاكا".

قال الزمخشري:"{ويبغونها عوجا}، يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة. أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد".

قوله تعالى: {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [هود: ١٩]، أي:"وهم كافرون بالآخرة لا يؤمنون ببعث ولا جزاء".

قال قتادة:"لا يؤمنون بها".

قال الزمخشري:"و {هم} الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} [هود: ٢٠]، أي:"أولئك الذين افتروا على الله الكذب لم يكن سبحانه عاجزًا عن إنزال العذاب الشديد بهم في الدنيا".

أي ليسوا مفلتين من عذاب آلله وِان أمهلهم، كما يحدث لبعض الناس في عصيان

=

=

الملـوك، ثـم الفـرار مـنهم، فـلا يـستطيع الملـوك القـبض علـيهم، بخـلاف رب العالمين، فلا يفوته شيء. كما قال تعالى (وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

عن ابن عباس، في قوله: "{معجزين}، قال: مسابقين".

قال الزمخشري" أي: ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ} [هود: ٢٠]، أي:"وما كان لهـم مِن أنصار يمنعونهم من عقابه".

والولي: كل من انعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويجعله يواليك، والمراد: ليس لهم أولياء يدفعون عنهم عذاب الله ويمنعونهم من ذلك.

قال الزمخشري: أي:"وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأشهاد".

قال ابن كثير: أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن (يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ) وفي الصحيحين: "إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذَه لم يُفْلته.

قوله تعالى: {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ} [هود: ٢٠]، أي:"يضاعف عليهم العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم ، يضاعف لهم ضعفًا مكان إضلالهم وصدهم غيرهم، وضعفًا مكان ابتغائهم اعوجاج الطريق".

كما قال تعالى (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ).

وقال ﷺ (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة).

قال قتادة:"أي: عذاب الدنيا والآخرة".

قوله تعالى: {مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} [هود: ٢٠]، أي:"سبب تشديد العذاب ومضاعفته عليهم أن الله جعل لهم سمعًا وبصرًا،

=

=

ولكنهم كانوا صُما عن سماع الحق، عميًا عن اتباعه، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من حواس".

قال قتادة:"يقول: صم، عن الحق فلا يسمعونه".

وقال قتادة أيضا:"ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيرا فينتفعوا به ولا يبصروا خيرا فيأخذوا به".

قال الزمخشري: أي:"أراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكراهتهم له، كأنهم لا يستطيعون السمع".

قال ابن كثير:"أي: يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، بل كانوا صُمًّا عن سماع الحق، عُميا عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: ١٠]، وقال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} [النحل: ٨٨]؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبوه؛ ولهذا كان أصحَّ الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة".

قال الشنقيطي: في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه، بعضها يشهد له القرآن:

الأول – وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره، ونقله عن ابن عباس وقتادة –: أن معنى (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السمع) أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحق سماع منتفع، ولا أن يبصروه إبصار مهتد، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين عن استعمال جوارحهم في طاعة الله تعالى: وقد كانت لهم أسماع وأبصار.

ويدل لهذا قوله تعالى (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله).

=

=

الثاني – وهو أظهرها عندي-: أن عدم الاستطاعة المذكورة في الآية إنما هو للختم الذي ختم الله على قلوبهم وأسماعهم، والغشاوة التي جعل على أبصارهم.

ويشهد لهذا القول قوله تعالى (خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ).

وقوله (إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) ونحو ذلك من الآيات.

وذل الختم والأكنة على القلوب جزاء من الله تعالى لهم على مبادرتهم إلى الكر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم كما دلت عليه آيات كثيرة.

كقوله (بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) وقوله (فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُم) وقوله (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضًا).

وقوله (وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ) الآية وقوله (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: أن المعنى ما كانوا يستطيعون السمع اي لشدة كراهيتهم لكلام الرسل على عادة الرسل على عادة العرب في قولهم: لا استطيع أن اسمع كذا إذا كان شديد الكراهية والبغض له.

ويشهد لهذا القول قوله تعالى (وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُوا المنكر يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا).

وقوله تعالى (وَقَالَ الذين كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لهذا القرآن).

وقوله (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ).

(تنبيه): قال الطحاوي في الطحاوية (ص٧٤)" والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به فهي مع الفعل وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل وبها

=

=

يتعلق الخطاب وهو كما قال تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) [البقرة: ٢٨٦]".

فعلق الشيخ الالباني قائلا:"والأولى قال بها الأشاعرة والأخرى قال بها المعتزلة والصواب القول بهما معا على التفصيل الذي ذكره المؤلف رحمه الله تعالى وقد بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ بيانا شافيا لا بأس من نقله بتمامه لأهميته.

قال رحمة الله عليه في مجموع الفتاوى:"قد تكلم الناس من أصحابنا وغيرهم في استطاعة العبد هل هي مع فعله أم قبله؟ وجعلوها قولين متناقضين فقوم جعلوا الاستطاعة مع الفعل فقط وهذا هو الغالب على مثبتة القدر المتكلمين من أصحاب الأشعري ومن وافقهم من أصحابنا وغيرهم. وقوم جعلوا الاستطاعة قبل الفعل وهو الغالب على النفاة من المعتزلة والشيعة وجعل الأولون القدرة لا تصلح إلا لفعل واحد إذ هي مقارنة له لا تنفك عنه وجعل الآخرون الاستطاعة لا تكون إلا صالحة للضدين ولا تقارن الفعل أبدا والقدرية أكثر انحرافا فإنهم يمنعون أن يكون مع الفعل قدرة بحال فإن عندهم أن المؤثر لا بد أن يتقدم على الأثر لا يقارنه بحال سواء في ذلك القدرة والإرادة والأمر.

والصواب الذي دل عليه الكتاب والسنة أن الاستطاعة متقدمة على الفعل ومقارنة له أيضا وتقارنه أيضا استطاعة أخرى لا تصلح لغيره؟

فالاستطاعة نوعان: متقدمة صالحة للضدين، ومقارنة لا تكون إلا مع الفعل، فتلك هي المصححة للفعل المجوزة له وهذه هي الموجبة للفعل المحققة له، قال الله تعالى في الأولى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا} [آل عمران: ٩٧] ولو كانت هذه الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل لما وجب الحج إلا على من حج ولما عصى أحد بترك الحج ولا كان الحج واجبا على أحد قبل الإحرام به بل قبل فراغه وقال تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم} [التغابن: ١٦] فأمر

=

=

بالتقوى بمقدار الاستطاعة ولو أراد الاستطاعة المقارنة لما وجب على أحد من التقوى إلا ما فعل فقط إذ هو الذي قارنته تلك الاستطاعة وقال تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} [البقرة: ٢٨٦] و «الوسع»: الموسوع وهو الذي تسعه وتطيقه فلو أريد به المقارن لما كلف أحد إلا الفعل الذي أتى به فقط دون ما تركه من الواجبات... ونظائر هذا متعددة فإن كل أمر علق في الكتاب والسنة وجوبه بالاستطاعة وعدمه بعدمها لم يرد به المقارنة وإلا لما كان الله قد أوجب الواجبات إلا على من فعلها وقد أسقطها عمن لم يفعلها فلا يأثم أحد بترك الواجب المذكور.

وأما الاستطاعة المقارنة الموجبة: فمثل قوله تعالى: {ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون} [هود: ٢٠] فهذه الاستطاعة هي المقارنة الموجبة إذ الأخرى لابد منها في التكليف.

فالأولى: هي الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي والثواب والعقاب وعليها يتكلم الفقهاء وهي الغالبة في عرف الناس.

والثانية: هي الكونية التي هي مناط القضاء والقدر وبها يتحقق وجود الفعل فالأولى للكلمات الأمريات الشرعيات والثانية للكلمات الخلقيات الكونيات كما قال: (وصدقت بكلمات ربها وكتبه) [التحريم: ١٢].

وقد اختلف الناس في قدرة العبد على خلاف معلوم الحق أو مراده والتحقيق أنه قد يكون قادرا بالقدرة الأولى الشرعية المتقدمة على الفعل فإن الله قادر أيضا على خلاف المعلوم والمراد وإلا لم يكن قادرا إلا على ما فعله وليس العبد قادرا على ذلك بالقدرة المقارنة للفعل إنه لا يكون إلا ما علم الله كونه وأراد كونه فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وكذلك قول الحواريين: {هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء} [المائدة: ١١٢] إنما استفهموا عن هذه القدرة.

=

=

وكذلك ظن يونس {أن لن نقدر عليه} [الأنبياء: ٨٧] أي فسر بالقدرة كما يقال للرجل هل تقدر أن تفعل كذا؟ أي هل تفعله؟ وهو مشهور في كلام الناس. ولما اعتقدت القدرية أن الأولى (الاستطاعة قبل الفعل) كافية في حصول الفعل وأن العبد يحدث مشيئته جعله مستغنيا عن الله حين الفعل كما أن الجبرية لما اعتقدت أن الثانية موجبة للفعل وهي من غيره رأوه مجبورا على الفعل وكلاهما خطأ قبيح فإن العبد له مشيئة وهي تابعة لمشيئة الله كما ذكر الله ذلك في عدة مواضع من كتابه. فإذا كان الله قد جعل العبد مريدا مختارا شائيا امتنع أن يقال: هو مجبور مقهور مع كونه قد جعله مريدا وامتنع أن يكون هو الذي ابتدع لنفسه المشيئة فإذا قيل: هو مجبور على أن يختار مضطر إلى أن يشاء فهذا لا نظير له وليس هو المفهوم من الجبر بالاضطرار ولا يقدر على ذلك إلا الله. ولهذا افترق القدرية والجبرية على طرفي نقيض وكلاهما مصيب فيما أثبته دون ما نفاه. وابن الخطيب ونحوه من الجبرية يزعمون أن العلم بافتقار رجحان فعل العبد على تركه إلى مرجح من غير العبد ضروري لأن الممكن المتساوي الطرفين لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح ما وكلا القولين صحيح ولكن دعوى استلزام أحدهما نفي الآخر ليس بصحيح فإن العبد محدث لأفعاله كاسب لها وهذا الإحداث مفتقر إلى محدث فالعبد فاعل صانع محدث وكونه فاعلا صانعا محدثا بعد أن لم يكن لابد له من فاعل كما قال: (لمن شاء منكم أن يستقيم) [التكوير: ٢٨] فإذا شاء الاستقامة صار مستقيما ثم قال: (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) [التكوير: ٢٩]

فما علم بالاضطرار وما دلت عليه الأدلة السمعية والعقلية كله حق ولهذا كان لا حول ولا قوة إلا بالله والعبد فقير إلى الله فقرا ذاتيا له في ذاته وصفاته وأفعاله مع أن له ذاتا وصفات وأفعالا فنفي أفعاله كنفي صفاته وذاته وهو جحد للحق شبيه

=

=

بغلو غالية الصوفية الذين يجعلونه هو الحق وجعل شيء منه مستغنيا عن الله أو كائنا بدونه جحد للحق شبيه بغلو الذي قال: {أنا ربكم الأعلى} [النازعات: ٢٤] وقال: إنه خلق نفسه وإنما الحق ما عليه أهل السنة والجماعة". انتهى.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} [هود: ٢١]، أي:"أولئك الذين خسروا أنفسهم بافترائهم على الله".

قال السدي:"غبنوا أنفسهم".

قال البغوي: أي:"غبنوا أنفسهم".

قال ابن عطية: اي:"بوجوب العذاب عليهم، ولا خسران أعظم من خسران النفس".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه صفتهم، هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله".

قوله تعالى: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [هود: ٢١]، أي:"وذهب عنهم ما كانوا يفترون من الآلهة التي يدَّعون أنها تشفع لهم".

قال البغوي: أي:"يزعمون من شفاعة أالملائكة والأصنام".

قال الطبري:"وبطل كذبهم وإفكهم وفريتهم على الله، بادعائهم له شركاء، فسلك ما كانوا يدعونه إلهًا من دون الله غير مسلكهم، وأخذ طريقًا غير طريقهم، فضَلّ عنهم، لأنه سلك بهم إلى جهنم، وصارت آلتهم عدمًا لا شيء، لأنها كانت في الدنيا حجارة أو خشبًا أو نحاسًا، أو كان لله وليًّا، فسلك به إلى الجنة، وذلك أيضًا غير مسلكهم، وذلك أيضًا ضلالٌ عنهم".

قال ابن عطية:"{ضَلَ}، معناه: تلف ولم يجدوه حيث أملوه".

عن ابن عباس: "{وضل عنهم}، قال: في القيامة، {ما كانوا يفترون}: ما كانوا يكذبون في الدنيا".

=

=

عن قتادة، قوله: "{ما كانوا يفترون}، أي: يشركون".

قوله تعالى: {لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ} [هود: ٢٢]، أي:"حقًا إنهم يوم القيامة من أخسر الناس، ولا ترى أحدًا أبينَ خسرانًا منهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: حقا أن هؤلاء القوم الذين هذه صفتهم في الدنيا وفي الآخرة هم الأخسرون الذين قد باعوا منازلهم من الجنان بمنازل أهل الجنة من النار ؛ وذلك هو الخسران المبين".

قال الصابوني:"لأنهم آثروا الفانية على الباقية، واستعاضوا عن الجِنان بلظى النيران".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم، بَسمُوم وحميم، وظِلٍّ من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غِسْلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون".

عن ابن عباس، قوله: "{لا جرم}، يقول: بلى".

وفي قوله تعالى: {لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ} [هود: ٢٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن معنى «لا جرم»: لا بد ولا محالة. قاله الفراء.

الثاني: أن «لا» عائد على «الكفار»، أي: لا دافع لعذابهم، ثم استأنف فقال: جرم، أي: كسب بكفره استحقاق النار، ويكون معنى «جرم»:كسب، أي: بما كسبت يداه، ذكره الزجاج والماوردي ، ومنه قول الشاعر:

نَصَبْنَا رَأْسَهُ فِي جِذْعِ نَخْلٍ ... بِمَا جَرَمَتْ يَدَاهُ ومَا اعْتَدَيْنَا

أي: بما كسبت يداه.

=

الثالث: أن «لا» زائدة دخلت توكيدًا، يعني: حقًا إنهم في الآخرة هم الأخسرون. وهذا قول الكلبي، وسيبويه، والخليل، واختاره البغوي، قال الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتَ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً جَرَمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا

أي: أحقتهم الطعنة بالغضب.

والمعنى لا محالة ولا شك في أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

وأصل الخسران في لغة العرب: هو نقصان مال التاجر، سواء كان نقصًا في ربح المال، أو نقصًا في رأس المال.

والخسران في اصطلاح الشرع: هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه (جل وعلا)؛ لأن الإنسان إذا غُبن في حظوظه من ربه (جل وعلا) فقد خَسِرَ الخُسْرَان المبين.

وقد أقسم الله (جل وعلا) - وهو أصدق من يقول - في سورة كريمة من كتابه - وكل سورة منه كريمة- ألا وهي (سورة العصر) أن الخسران لا ينجو منه إنسان كائنًا ما كان إلا بأعمال معينة مبينة، وذلك في قوله (وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) (إِنَّ الْإِنسَانَ) معناه: إن كل إنسان كائنًا من كان (لَفِي خُسْرٍ) (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) فهذا الخسران لا يُنجي منه شيء أبدًا كما أقسم عليه رب السماوات والأرض إلا الإيمان والأعمال الصالحات، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، هذا الذي يُنجي من الخسران.

وأكبر الأدلة على خسرانهم أنفسهم: أنهم إن صاروا إلى النار أكبر مُنْيةٍ يتمنونها، وأكبر غرض يطلبونه: هو أن يموتوا وتعدم أنفسهم فتصير لا شيء؛ ولذلك يقولون (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ).

ولكن أمنيتهم العُظْمَى الَّتِي هِيَ الموت لا يحصلونها أبدًا؛ لأن الله يقول (لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) ويقول (جل وعلا) في الكافر (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) (فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وَأَخْبَتُوا} سَكَنُوا واطمأنوا أو أنابوا {إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤).

{مَثَل} صِفَة {الْفَرِيقَيْنِ} الْكُفَّار وَالْمُؤْمِنِينَ {كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمّ} هَذَا مَثَل الْكَافِر {وَالْبَصِير وَالسَّمِيع} هَذَا مَثَل الْمُؤْمِن {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} لَا {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} فِيهِ إدْغَام التَّاء فِي الْأَصْل فِي الذَّال تتعظون[1].

=

يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيى).

- قال ابن عاشور: عبر عمّا لحقهم من الضر بالخسارة استعارة لأنه ضر أصابهم من حيث كانوا يرجون المنفعة فهم مثل التجار الذين أصابتهم الخسارة من حيث أرادوا الربح.

وإنما كانوا أخسرين، أي شديدي الخسارة لأنهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما افترق بين الأمم الضالة.

ولأنهم شقُوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة قال تعالى (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا) فكانوا أخسرين لأنهم اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [هود: ٢٣]، أي: "إن الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحة".

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثَنَّى بذكر السُّعَداء.

=

=

قال الرازي: اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد، وذلك لفوائد:

أحدها: ليظهر بذلك عدله سبحانه، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان.

وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه.

وثالثها: أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سببًا للعرفان.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) بقلوبهم.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا في الدنيا بطاعة الله".

عن سعيد قوله: "{آمنوا بالله}، يعني: بتوحيد الله، {ورسوله}، يعني: يصدقون بمحمد ﷺ أنه نبي ورسول".

روي عاصم بن عمر، عن زيد بن أسلم:"{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم".

عن ابن عباس: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".

- والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به.

- والعمل الصالح لا يكون صالحًا إلا بشرطين:

=

=

الشرط الأول: أن يكون خالصًا لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعًا للنبي ﷺ، لقوله ﷺ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

- قال السعدي: ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

قوله تعالى: {وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ} [هود: ٢٣]، أي: "وخضعوا لله في كل ما أُمروا به ونُهوا عنه".

وفي قوله تعالى: {وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ} [هود: ٢٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: خافوا ربهم، قاله ابن عباس.

الثاني: يعني: اطمأنوا، قاله مجاهد.

الثالث: أنابوا، قاله ابن عباس في رواية أخرى ، وقتادة.

الرابع: تواضعوا لربهم. والإخبات: التواضع والوقار. قاله ابن قتيبة.

والخامس: خشعت قلوبهم إلى ربهم. قاله التستري ، والفراء.

قال الفراء:"معناه: تخشعوا لربهم وإلى ربهم".

والسادس: خشعوا وتواضعوا لربهم، رواه معمر عن قتادة.

والسابع: أخلصوا إلى ربهم، قاله مقاتل.

قال الطبري:"وهذه الأقوال متقاربة المعاني، وإن اختلفت ألفاظها، لأن الإنابة إلى الله من خوف الله، ومن الخشوع والتواضع لله بالطاعة، والطمأنينة إليه من الخشوع له، غير أن نفس "الإخبات"، عند العرب: الخشوع والتواضع".

قال أبو عبيدة:"{وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِم} : مجازه: أنابوا إلى ربهم وتضرعوا إليه،

=

=

وخضعوا وتواضعوا له".

- قال الآلوسي: وأخبتوا إلى ربهم: اطمأنوا إليه وخشعوا له.

- قال السعدي: قوله تعالى (وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ) أي: خضعوا له، واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته، وخوفه، ورجائه، والتضرع إليه.

و" الْخَبْتُ " فِي أَصْلِ اللُّغَةِ: الْمَكَانُ الْمُنْخَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ.

قال ابن القيم: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ تَدُورُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: التَّوَاضُعِ، وَالسُّكُونِ إِلَى اللهِ ﷻ

وقد وعد الله المخبتين بالجنة. كما في هذه الآية.

وبشرهم الله تعالى، فقال تعالى (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ).

والإخبات عمل قلبي يبدو على الجوارح فينتظم حركتها وسكناتها.

قال تعالى (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ).

- قال ابن القيم: اعْلَمْ أَنَّهُ مَتَى اسْتَقَرَّتْ قَدَمُ الْعَبْدِ فِي مَنْزِلَةِ الْإِخْبَاتِ وَتَمَكَّنَ فِيهَا ارْتَفَعَتْ هِمَّتُهُ، وَعَلَتْ نَفْسُهُ عَنْ خَطْفَاتِ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ. فَلَا يَفْرَحُ بِمَدْحِ النَّاسِ. وَلَا يَحْزَنُ لِذَمِّهِمْ. هَذَا وَصْفُ مَنْ خَرَجَ عَنْ حَظِّ نَفْسِهِ، وَتَأَهَّلَ لِلْفَنَاءِ فِي عُبُودِيَّةِ رَبِّهِ. وَصَارَ قَلْبُهُ مُطَّرِحًا لِأَشِعَّةِ أَنْوَارِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ. وَبَاشَرَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ قَلْبُهُ. وَالْوُقُوفُ عِنْدَ مَدْحِ النَّاسِ وَذَمِّهِمْ عَلَامَةُ انْقِطَاعِ الْقَلْبِ، وَخُلُوِّهِ مِنَ اللهِ، وَأَنَّهُ لَمْ تُبَاشِرْهُ رُوحُ مَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يَذُقْ حَلَاوَةَ التَّعَلُّقِ بِهِ وَالطُّمَأْنِينَةِ إِلَيْهِ.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون} [هود: ٢٣]، أي: "أولئك هم أهل الجنة، لا يموتون فيها، ولا يَخْرجون منها أبدًا".

قال الطبري:"يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم، هم سكان الجنة الذين لا يخرجون

=

=

عنها ولا يموتون فيها، ولكنهم فيها لابثُون إلى غير نهاية".

قال ابن عباس:"أي: من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها".

وعن ابن عباس -أيضا-:"{هم فيها خالدون}: فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم أن الثواب بالخير والسيئ مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له".

والصحبة تطلق على كل شيئين وقعت بينهما ملازمة طويلة.

وإنما سموا أصحاب الجنة لأنهم ملازموها.

والجنة: في اللغة البستان، والمراد بها هنا دار الكرامة التي أعدها الله لعباده المؤمنين.

(هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أي: ماكثون، والمراد بالخلود هنا الديمومة والبقاء الأبدي الذي لا انقطاع فيه.

كما قال تعالى (عطاء غير مجذوذ) وقال تعالى (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد).

وهذا من أعظم تمام النعيم، أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآبدين.

وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غمًا.

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم.

قوله تعالى: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ} [هود: ٢٤]، أي:"مثل فريقَي الكفر والإيمان، كمثل الأعمى الذي لا يرى والأصم الذي لا

=

=

يسمع والبصير والسميع: ففريق الكفر لا يبصر الحق فيتبعه، ولا يسمع داعي الله فيهتدي به، أما فريق الإيمان فقد أبصر حجج الله وسمع داعي الله فأجابه".

قال أبو عبيدة: أي: "مثل الكافر وهو الأعمى الذي لا يبصر الهدى والحق ولا أمر الله وإن كان ينظر، وهو الأصم الذي لا يسمع الحق ولا أمر الله وإن كان يسمع بأذنه والمؤمن وهو البصر أي المبصر الحق والهدى، وهو السامع الذي يسمع أمر الله ويهتدى له".

قال الطبري: يقول تعالى ذكره:"مثل فريقَي الكفر والإيمان، كمثل الأعمى الذي لا يرى بعينه شيئًا، والأصم الذي لا يسمع شيئًا، فكذلك فريق الكفر لا يبصر الحق فيتبعه ويعمل به، لشغله بكفره بالله، وغلبة خذلان الله عليه، لا يسمع داعي الله إلى الرشاد، فيجيبه إلى الهدى فيهتدي به، فهو مقيمٌ في ضلالته، يتردَّد في حيرته. والسميع والبصير فذلك فريق الإيمان، أبصر حجج الله، وأقر بما دلت عليه من توحيد الله، والبراءة من الآلهة والأنداد، ونبوة الأنبياء عليهم السلام، وسمعَ داعي الله فأجابه وعمل بطاعة الله".

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: "ثم ذكر محمدا ﷺ فقرأ فيما بينه وبين خالقه فقرأ: مثل الفريقين الآية كلها".

قال ابن عباس:"«الأعمى» و «الأصم»: الكافر، و «البصير» و «السميع»: المؤمن".

عن مجاهد: "{مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع}، الفريقان الكافران، والمؤمنان، فأما الأعمى والأصم فالكافران، وأما البصير والسميع فهما المؤمنان".

قال قتادة:"هذا مثلٌ ضربه الله للكافر والمؤمن، فأما الكافر فصم عن الحق، فلا يسمعه، وعمي عنه فلا يبصره. وأما المؤمن فسمع الحق فانتفع به، وأبصره فوعاه

=

=

وحفظه وعمل به".

قوله تعالى: {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} [هود: ٢٤]، أي:"هل يستوي هذان الفريقان؟".

قال أبو عبيدة: "أي: لا يستوى المثلان مثلا، وليس موضع «هل» هاهنا موضع الاستفهام ولكن موضعها هاهنا موضع الإيجاب أنه لا يستويان، وموضع تقرير وتخبير: أن هذا ليس كذاك".

قال الطبري:"يقول: هل يستوي هذان الفريقان على اختلاف حالتيهما في أنفسهما عندكم أيها الناس؟ فإنهما لا يستويان عندكم، فكذلك حال الكافر والمؤمن لا يستويان عند الله".

قال سعيد بن جبير: "لا يستوي في الفضل".

- قال الخازن:... كالأعمى وهو الذي لا يهتدي لرشده والأصم وهو الذي لا يسمع شيئًا البتة، والبصير وهو الذي يبصر الأشياء على ماهيتها، والسميع وهو الذي يسمع الأصوات ويجيب الداعي فمثل المؤمنين كمثل الذي يسمع ويبصر وهو الكامل في نفسه ومثل الكافر كمثل الذي لا يسمع ولا يبصر وهو الناقص في نفسه.

- وقال الشوكاني: ضرب للفريقين مثلًا وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع، على أن كل فريق شبه بشيئين، أو شبه بمن جمع بين الشيئين، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم، والمؤمن شبّه بمن جمع بين السمع والبصر.

فالكافر: عمي البصائر، لا يرون الحق حقًا، ولا الباطل باطلًا، صم الأذان: لا يسمعون الكلام الحسن الذي ينفعهم.

- قال ابن كثير: فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجَج، فلا يسمع ما ينتفع به (وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ

=

=

خَيْرًا لأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ).

وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ: وهذا مثل للفريق المؤمن: فهم يرون ببصائرهم ويعقلون ويسمعون ما ينفع فيأخذون به، وما يضر فيجتنبونه قال ابن كثير: وأما المؤمن ففَطِن ذكي لبيب، بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبعُ الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يَرُوج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا.

- وقد جرت العادة أن الله تعالى يضرب الأمثال في القرآن للمعقولات بالمحسوسات، حتى تصير المعقولات كالمحسوسات.

ولكن الله أخبر سبحانه أنه لا ينتفع بالأمثال إلا أهل البصائر.

فقال تعالى (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ).

بل أخبر تعالى أن تلك الأمثال لا تزيد الكافر إلا ضلالًا.

كما قال تعالى (إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ).

والحقيقة أن البصر الحقيقي هو صلاح البصيرة، ولا يضر عمى البصر مع نور البصيرة، قال تعالى (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

(هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) أي: الفريقان السابقان، هل تستوي صفاتهم وما يترتب عليها في الدنيا والآخرة؟ لا شك أن صفتهم لا تستوي، وهم لا يستوون.

قال تعالى (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

كما قال في الآية الأخرى (لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ

=

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥).

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمه إِنِّي} أَيْ بِأَنِّي وَفِي قِرَاءَة بِالْكَسْرِ عَلَى حَذْف الْقَوْل {لَكُمْ نَذِير مُبِين} بَيِّن الْإِنْذَار.

أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦).

{أَنْ} أَيْ بِأَنْ {لَا تَعْبُدُوا إِلَّا الله إِني أخاف عليكم} إن عبدتم غيره {عذاب يَوْم أَلِيم} مُؤْلِم فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة.

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧).

{فَقَالَ الْمَلَأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمه} وَهُمْ الْأَشْرَاف {مَا نَرَاك إِلَّا بَشَرًا مِثْلنَا} وَلَا فَضْل لَك عَلَيْنَا {وَمَا نَرَاك اتَّبَعَك إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلنَا} أَسَافِلنَا كَالْحَاكَةِ

=

الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ).

وقال (وَمَا يَسْتَوِي الأعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الأحْيَاءُ وَلا الأمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلا نَذِيرٌ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ).

وقوله (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى).

قوله تعالى: {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [هود: ٢٤]، أي:"أفلا تعتبرون وتتفكرون؟".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: أفلا تعتبرون أيها الناس وتتفكرون،، فتعلموا حقيقة اختلاف أمريهما، فتنزجروا عما أنتم عليه من الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان؟".

وَالْأَسَاكِفَة {بَادِئ الرَّأْي} بِالْهَمْزِ وَتَرْكه أَيْ ابْتِدَاء مِنْ غَيْر تَفَكُّر فِيك وَنَصْبه عَلَى الظَّرْف أَيْ وَقْت حُدُوث أَوَّل رَأْيهمْ {وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْل} فَتَسْتَحِقُّونَ بِهِ الِاتِّبَاع مِنَّا {بَلْ نَظُنّكُمْ كَاذِبِينَ} فِي دَعْوَى الرِّسَالَة أَدْرَجُوا قَوْمه مَعَهُ فِي الْخِطَاب(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} [هود: ٢٥]، أي:"ولقد أرسلنا نوحارسولًا إلى قومه بعد أن امتلأت الأرض بشركهم وشرورهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه".

عن أبي صالح: "أرسل: أي: بعث".

عن أنس:"أن النبي ﷺ قال: أول نبي أرسل نوح ﷺ".

قال الإمام الشافعي:"فأقام جل ثناؤه حجته على خلقه في أنبيائه، في الأعلام التي باينوا بها خلقه سواهم، وكانت الحجة بها ثابتة على من شاهد أمور الأنبياء، ودلائلهم التي باينوا بها غيرهم، ومن بعدهم، وكان الواحد في ذلك وأكثر منه سواء، تقوم الحجة بالواحد منهم قيامها بالأكثر".

- قال ابن كثير: وكان قوم نوح يعبدون الأصنام: فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد.

- بدأ تعالى بقصص الأنبياء في السورة تسلية للنبي ﷺ وبيان أن الشدة التي لاقاها من قومه قد لاقاها إخوانه من الأنبياء قبله كما قال تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل) وفيها أيضًا تهديدًا للمشركين.

- وبدأ بنوح لأنه أول رسول أرسل إلى أهل الأرض حينما انتشر الشرك بينهم، ويسمى نوح (آدم الأصغر) لأن البشرية كلها بعده من ذريته كما قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ).

=

=

قوله تعالى: {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [هود: ٢٥]، أي:"فقال لهم: إني نذير لكم من عذاب الله، مبيِّن لكم ما أُرسلت به إليكم من أمر الله ونهيه".

والإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

- ذكر الإنذار هنا دون البشارة مع أن الرسل جاءوا بالنذارة والبشارة: قيل: من باب الاكتفاء.

كقوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) أي: والبرد.

وعلى أحد الأقوال في قوله تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى) أي: وإن لم تنفع.

ويحتمل أنه ذكر النذارة لأنهم كانوا في غاية المكابرة والإعراض، فهو ينذرهم، كما قال ﷺ (أنا النذير العريان).

واقتصر على الإنذار لأنهم لم يعملوا بما بشرهم به وهو الفوز برضا الله- تعالى- إذا ما أخلصوا له العبادة والطاعة.

- قال الرازي: قال بعضهم: المراد من النذير كونه مهددًا للعصاة بالعقاب، ومن المبين كونه مبينًا ما أعد الله للمطيعين من الثواب، والأولى أن يكون المعنى أنه نذير للعصاة من العقاب وأنه مبين بمعنى أنه بين ذلك الإنذار على الطريق الأكمل والبيان الأقوى الأظهر.

قال الطبري: أي: "إني لكم، أيها القوم، نذير من الله، أنذركم بأسَه على كفركم به، فآمنوا به وأطيعوا أمره".

عن ابن عباس:"لما أنزلت «نذير»، قال: يعني: النبي ﷺ أنزلت عليه: «مبشرا ونذيرا»، قال: نذيرا من النار".

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى: {إني لكم} بفتح الألف، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة: {إني لكم} بكسر الألف.

قوله تعالى: {أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ} [هود: ٢٦]، أي: آمركم ألا تعبدوا إلا الله".

=

=

في الآية وجوب عبادة الله ﷻ، وأنها دعوة الرسل جميعًا، وأول ما يبدا به.

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).

وقال ﷺ (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ الأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ،.. وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ).

(الأنبياء أولاد عَلاّت) أولاد العلات: هم الأخوة للأب من أمهات شتى.

معنى الحديث: أن الأنبياء أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد وأما فروع الشرائع فوقع فيها الخلاف.

قال الطبري: أي:"أن لا تعبدوا إلا الله أيها الناس، عبادة الآلهة والأوثان، وإشراكها في عبادته، وأفردوا الله بالتوحيد، وأخلصوا له العبادة، فإنه لا شريك له في خلقه".

عن ابن عباس، قوله: "{اعبدوا}، أي: وحدوا".

عن محمد بن إسحاق قال: "كان من حديث نوح وحديث قومه فيما يذكر أهل العلم أنه كان حليما صبورا لم يلق نبي من قومه من البلاء أكثر مما لقي إلا نبي قتل. وكان يدعوهم كما قال الله تعالى: {لَيْلًا وَنَهَارًا} وسرا وجهارا بالنصيحة لهم فلم يزدهم ذلك منه إلا فرارا حتى إنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه ويجعل أصابعه في أذنيه لكيلا يسمع شيئا من قوله".

قوله تعالى: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} [هود: ٢٦]، أي: إني أخاف عليكم -إن لم تفردوا الله وحده بالعبادة- عذاب يوم موجع".

وهي جملة تعليلية، تبين حرص نوح الشديد على مصلحة قومه ومنفعتهم.

أي: إني أحذركم من عبادة غير الله، لأن هذه العبادة ستؤدى بكم الى وقوع العذاب

=

=

الأليم عليكم، وما حملني على هذا التحذير الواضح إلا خوفي عليكم، وشفقتي بكم، فأنا منكم وأنتم منى بمقتضى القرابة والنسب.

قال الطبري:"يقول: إني أيها القوم، إن لم تخصُّوا الله بالعبادة، وتفردوه بالتوحيد، وتخلعوا ما دونه من الأنداد والأوثان أخاف عليكم من الله عذابَ يوم مؤلم عقابُه وعذابُه لمن عُذِّب فيه".

أخرج ابن ابي حاتم عن أبي العالية في قوله: "{عذاب يوم أليم}، قال: «الأليم»: الموجع في القرآن كله". قال ابن ابي حاتم:"وكذلك فسره سعيد، بن جبير والضحاك، وقتادة، وأبو مالك وأبو عمران النحوي ومقاتل بن حيان".

قوله تعالى: {فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ} [هود: ٢٧]، أي:"قال السادة والكبراء من قوم نوح".

- قيل سُمُّوا (ملًا) لأنهم يملؤون صدورَ المجالسِ بقامتِهم الوافيةِ، أو يملؤونَ صدورَ الناظرِ لأُبَّهَتِهِمْ وَجَمَالِهِمْ، أو أنهم يَتَمَالَؤُونَ على العقدِ والحلِّ فيتفقونَ عليه.

قال الطبري:"فقال الكبراء من قوم نوح وأشرافهم -وهم {الملأ} - الذين كفروا بالله وجحدوا نبوة نبيهم نوح عليه السلام".

عن أبي مالك:"{فَقَالَ الْمَلأُ}، يعني: الأشراف من قومه".

قوله تعالى: {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا} [هود: ٢٧]، أي:"ما نراك إلا واحدًا مثلنا ولا فضل لك علينا".

أي: ما نَراكَ يا نوح إلا بشرًا مثلنا، أي: إلا إنسانًا مثلنا، ليست فيك مزية تجعلك مختصًا بالنبوة دوننا.

فهم- لجهلهم وغبائهم- توهموا أن النبوة لا تجامع البشرية، مع أن الحكمة تقتضي أن يكون الرسول بشرا من جنس المرسل إليهم، حتى تتم فائدة التفاهم

=

=

معه، والاقتداء به في أخلاقه وسلوكه.

- قال الشنقيطي: زعموا أن البشرية مانعة من الرسالة، وهي أكثر ما ابتلاهم به، وأكبر الموانع من إيمانهم بالرسل.

فقال تعالى (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا).

وشُبْهَتُهُمْ هَذِهِ الْبَاطِلَةُ رَدَّهَا اللهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ:

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا).

وَقَوْلِهِ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا) أَيْ: لَا مَلَائِكَةً.

- **قال القرطبي**: لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكًا لفروا من مقاربته وما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب والاتقاء له ما يكفهم من كلامه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لقالوا: لست ملكًا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم.

- والبشر الإنسان، سمي بشرًا لأن بشرته بادية لا يسترها شعر ولا وبر.

هذه الشبهة الأولى للكفار: كون الرسل بشرًا.

قال مقاتل:"يعني: إلا آدميا مثلنا لا تفضلنا بشيء".

قال الطبري:"يعنون بذلك أنه آدمي مثلهم في الخلق والصُّورة والجنس، كأنهم كانوا منكرين أن يكون الله يرسل من البشر رسولا إلى خلقه".

محمد بن إسحاق، عن من لا يتهم، عن عبيد بن عمير الليثي:"أنه كان يحدث أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون به يعني نوحا فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون حتى إذا تمادوا في المعصية، وعظمت فيهم في الأرض الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الشأن، واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر النجل بعد النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي قبله حتى إن كان الآخر

=

=

منهم ليقول: قد كان هذا

مع آبائنا ومع أجدادنا هذا مجنون لا يقبلون منه شيئا حتى شكا ذلك من أمرهم نوح إلى الله ﷻ وقال كما قص الله علينا في كتابه".

قال ابن زيد: "ما عذب قوم نوح حتى ما كان في الأرض سهل ولا جبل إلا له عامر يعمره وحائز يحوزه".

قوله تعالى: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} [هود: ٢٧]، أي: "وما نراك اتبعك إلا الذين هم أسافلنا".

هذه الشبهة الثانية.

أي: ثم ما نراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك.

كما قال تعالى عنهم في سورة الشعراء (قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُون).

- والأراذل جمع أرذل، والرذالة التفاهة والدناءة وسقوط القيمة.

- قال الرازي: هذا جهل منهم، لأن الرفعة في الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية، بل الفقر أهون على الدين من الغنى، بل نقول: الأنبياء ما بعثوا إلا لترك الدنيا والإقبال على الآخرة فكيف تجعل قلة المال في الدنيا طعنًا في النبوة والرسالة.

- وقد أجرى الله العادة في عباده أن أول المسارعين لطاعة رسله هم الفقراء والضعفاء، وهم أكثر أهل الجنة، وأن أول ما يبادر إلى التكذيب هم الأشراف والرؤساء، لأنهم يحبون الرئاسة والشرف، وأن يكونوا متبوعين لا تابعين، وهم أكثر أهل النار.

قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا

=

=

آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ).

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

قال الطبري:"يقول: وما نراك اتبعك إلا الذين هم سفلتنا من الناس، دون الكبراء والأشراف".

قال مقاتل:"الرذالة من الناس: السفلة".

قوله تعالى: {بَادِيَ الرَّأْيِ} [هود: ٢٧]، أي:"وإنما اتبعوك في ظاهر الرأي من غير تفكر أو رويّة".

وقولهم (بَادِيَ الرَّأْيِ) ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء ولا يفكر وينزوي هاهنا إلا عَيِيّ أو غبي. والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاءوا بأمر جلي واضح.

عن ابن عباس قوله: "{وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي}، قال: فيما ظهر لنا".

قال الطبري:"فيما نرَى ويظهر لنا".

قال مقاتل:"يعني: بدا لنا أنهم سفلتنا".

قال الفراء:"فيما يظهر لنا ويبدو".

قال الاخفش:"أي: في ظاهر الرأي. وليس بمهموز لأنه من "بدا" "يبدو" أي: ظهر، وقال بعضهم «بادئ الرأي»، أي: فيما يبدأ به من الرأي".

قال ابن قتيبة:"أي: ظاهر الرأي. بغير همز. من قولك: بدا لي ما كان خفيا: أي ظهر. ومن همزه جعله: أول الرأي. من بدأت في الأمر فأنا أبدأ".

=

=

قال أبو عبيدة:"«بادِيَ الرَّأْيِ» مهموز لأنه من بدأت عن أبى عمرو، ومعناه: أول الرأى، ومن لم يهمز جعله ظاهر الرأى من بدا يبدو، وقال [الراجز]:

وقد علتنى ذرأة بادى بدى

فلم يهمز جعلها من «بدا»: الذّراة الشّمط القليل فى سواد، ملح ذرآنىّ: الكثير البياض وكبش أذرأ، ونعجة ذرآء فى أذنها بياض شبه النّمش".

وفي قوله تعالى: {بَادِيَ الرَّأْيِ} [هود: ٢٧]، وجوه:

احدها: إنك تعمل بأول الرأي من غير فكر، قاله الزجاج.

الثاني: أنهم اتبعُوكَ فِي الظاهر، وبَاطِنُهم عَلَى خلاف ذلِك، قاله الزجاج ايضا.

أن ما في نفسك من الرأي ظاهر، تعجيزًا له، حكاه الماوردي عن ابن شجرة.

الثالث: يعني: ان أراذلنا اتبعوك بأقل الرأي وهم إذا فكروا رجعوا عن اتباعك، حكاه ابن الأنباري ، وذكره الزجاج.

قرأ أبو عمرو: «بادئ» بهمزة مفتوحة بعد «الدل»، {الرأي} لا يهمزه، والباقون: «بادي» بـ «ياء» مفتوحة، وكلهم قرأ {الرأي} مهموزا.

قوله تعالى: {وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ} [هود: ٢٧]، أي:"وما نرى لك ولأتباعك من مزية وشرف علينا يؤهلكم للنبوة، واستحقاق المتابعة".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{من فضل}، يعني: فضيلة".

قال الطبري:"يقول: وما نتبين لكم علينا من فضل نلتموه بمخالفتكم إيانا في عبادة الأوثان إلى عبادة الله وإخلاص العبودة له، فنتبعكم طلبَ ذلك الفضل، وابتغاءَ ما أصبتموه بخلافكم إيانا، وهذا خطاب منهم لنوحٍ عليه السلام، وذلك أنهم إنما كذبوا نوحًا دون أتباعه، لأن أتباعه لم يكونوا رُسلا. وأخرج الخطابَ وهو واحد مخرج خطاب الجميع، كما قيل: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ}، [سورة الطلاق: ١]".

=

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨).

{قَالَ يَا قَوْم أَرَأَيْتُمْ} أَخْبِرُونِي {إِنْ كُنْت عَلَى بَيِّنَة} بَيَان {مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَة} نُبُوَّة {مِنْ عِنْده فَعَمِيَتْ} خَفِيَتْ {عَلَيْكُمْ} وَفِي قِرَاءَة بِتَشْدِيدِ الْمِيم وَالْبِنَاء لِلْمَفْعُولِ {أَنُلْزِمُكُمُوهَا} أَنُجْبِرُكُمْ عَلَى قَبُولهَا {وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} لَا نَقْدِر على ذلك.

وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩).

{وَيَا قَوْم لَا أَسْأَلكُمْ عَلَيْهِ} عَلَى تَبْلِيغ الرِّسَالَة {مَالًا} تُعْطُونِيهِ {إِنْ} مَا {أَجْرِي} ثَوَابِي {إِلَّا عَلَى الله وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمنوا} كما أمرتموني {إنهم ملاقوا رَبّهمْ} بِالْبَعْثِ فَيُجَازِيهِمْ وَيَأْخُذ لَهُمْ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَطَرَدَهُمْ {وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} عَاقِبَة أَمْركُمْ.

وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠).

{وَيَا قَوْم مَنْ يَنْصُرنِي} يَمْنَعنِي {مِنْ الله} أَيْ عَذَابه {إِنْ طَرَدْتهمْ} أَيْ لَا نَاصِر لِي {أَفَلَا} فَهَلَّا {تَذَكَّرُونَ} بِإِدْغَامِ التَّاء الثَّانِيَة فِي الْأَصْل فِي الذَّال تَتَّعِظُونَ.

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ

=

قوله تعالى: {بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} [هود: ٢٧]، أي:"بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه"".

قال الطبري:"بل نظنك، يا نوح، في دعواك أن الله ابتعثك إلينا رسولا كاذبًا".

لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١).

{وَلَا أَقُول لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِن الله وَلَا} إنِّي {أَعْلَم الْغَيْب وَلَا أَقُول إنِّي مَلَك} بَلْ أَنَا بَشَر مِثْلكُمْ {وَلَا أَقُول لِلَّذِينَ تَزْدَرِي} تَحْتَقِر {أَعْيُنكُمْ لَنْ يُؤْتِيهِمْ الله خَيْرًا الله أَعْلَم بِمَا فِي أَنْفُسهمْ} قُلُوبهمْ {إنِّي إذا} إن قلت ذلك {لمن الظالمين}(١).

(١) قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [هود: ٢٨]، أي:"قال نوح: يا قومي أرأيتم إن كنتُ على حجة ظاهرة من ربي فيما جئتكم به تبيِّن لكم أنني على الحق من عنده".

قال الصابوني:"تلطف معهم في الخطاب لاستمالتهم إلى الإيمان".

عن ابن جريج: "قال نوح: {يا قوم إن كنت على بينة من ربي}، قال: قد عرفتها، وعرفت بها أمره، وأنه لا إله إلا هو".

وفي قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [هود: ٢٨]، وجوه:

أحدها: يعني على ثقة من ربي، قاله أبو عمران الجوني.

الثاني: على حجة من ربي، قاله عليّ بن عيسى.

والثالث: يعني: على يقين وبيان، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: {وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ} [هود: ٢٨]، أي:"وآتاني رحمة من عنده، وهي النبوة والرسالة فأخفاها عليكم بسبب جهلكم وغروركم".

قال الماوردي:"{فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ}، يعني: البينة في قوله {إنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةِ مِن رَبِّي} وإنما قال: {فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ} وهم الذين عموا عنها، لأنها خفيت عليهم بترك النظر فأعماهم الله عنها".

=

=

قال ابن قتيبة:"{فعميت عليكم} أي: عميتم عن ذلك. يقال: عمي علي هذا الأمر. إذا لم أفهمه".

وفي قوله تعالى: {وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ} [هود: ٢٨]، وجوه:

أحدها: الإيمان. حكاه الماوردي.

الثاني: النبوة، قاله ابن عباس.

الثالث: الإسلام والهدى والإيمان والحكم والنبوّة. قاله ابن جريج.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص: «فعميت عليكم» بضم العين وتشديد الميم، وفي قراءة أُبي «فعمّاها»، وهي موافقة لقراءة من قرأ بالضم على ما لم يسم فاعله.

وفي الذي عماها على هاتين القراءتين وجهان:

أحدهما: أن الله تعالى عماها عليهم.

الثاني: بوسوسة الشيطان. وما زينه لهم من الباطل حتى انصرفوا عن الحق.

قال الماوردي:"وإنما قصد نبي الله نوح بهذا القول لقومه أن يرد عيهم قولهم: {وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ}، ليظهر فضله عليهم بأنه على بينة من ربه وآتاه رحمة من عنده وهم قد سلبواً ذلك، فأي فضل أعظم منه".

قوله تعالى: {أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} [هود: ٢٨].

أي: إذا كانت الهداية إلى الخير التي جئتكم بها قد خفيت عليكم مع وضوحها وجلائها، فهل أستطيع أنا وأتباعي أن نجبركم إجبارًا، ونقسركم قسرًا على الإيمان بي، وعلى التصديق بنبوتي، والحال أنكم كارهون لها نافرون منها.

كلا إننا لا نستطيع ذلك لأن الإيمان الصادق يكون عن اقتناع واختيار لا عن إكراه وإجبار.

قال ابن قتيبة:"أي: نوجبها عليكم ونأخذكم بفهمها وأنتم تكرهون ذلك".

قال الطبري:"يقول: أنأخذكم بالدخول في الإسلام، وقد عماه الله عليكم {وأنتم

=

=

لها كارهون} يقول: وأنتم لإلزاماكُموها {كارهون}، يقول: لا نفعل ذلك، ولكن نكل أمركم إلى الله، حتى يكون هو الذي يقضي في أمركم ما يرى ويشاء".

وفي قوله تعالى: {أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} [هود: ٢٨]، وجهان:

أحدهما: أنلزمكم الرحمة وهي النعمة والهدى، قاله مقاتل.

الثاني: أنلزمكم البينة وأنتم لها كارهون، وقبولكم لها لا يصح مع الكراهة عليها.

قال قتادة:"أما والله لو استطاع نبيّ الله ﷺ لألزمها قومه، ولكن لم يستطع ذلك ولم يملكه".

عن عمرو بن دينار قال:"قرأ ابن عباس: «أَنُلْزِمُكُمُوهَا مِنْ شَطْرِ أَنْفُسِنَا»، قال، عبد الله: "من شَطْر أنفسنا"، من تلقاء أنفسنا".

عن أبي العالية قال: "في قراءة أبيّ: «أَنُلْزِمُكُمُوهَا مِنْ شَطْرِ أَنْفُسِنَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ»".

وعن أبي العالية، عن أبي بن كعب: «أَنُلْزِمُكُمُوهَا مِنْ شَطْرِ قُلُوبِنَا وأَنْتُمْ لَهَا كارِهُونَ»".

قال الشيخ محمد شاكر:"هذه القراءة التي مرت في الأخبار السالفة، بالزيادة في الآية، قراءة شاذة لزيادتها على المصحف، لا يحل لأحد أن يقرأ بها وظني أن قوله: «من شطر أنفسنا»، أو: «من شطر قلوبنا»، تفسير مدرج في كتابة الآية، وليس قراءة".

قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا} [هود: ٢٩]، أي:"قال نوح عليه السلام لقومه: يا قوم لا أسألكم على دعوتكم لتوحيد الله وإخلاص العبادة له مالًا تؤدونه إليَّ بعد إيمانكم".

قال مقاتل:"يعني: جُعْلًا على الإيمان".

قال النسفي: أي: "على تبليغ الرسالة -لأنه مدلول قوله {إني لكم نذير} -

=

=

{مَالًا} أجرًا يثقل عليكم إن أديتم أو عليّ أن أبيتم".

قال الطبري:"وهذا أيضًا خبرٌ من الله عن قيل نوح لقومه، أنه قال لهم: يا قوم لا أسألكم على نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، مالا أجرًا على ذلك، فتتهموني في نصيحتي، وتظنون أن فعلي ذلك طلبُ عرض من أعراض الدنيا".

قوله تعالى: {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ} [هود: ٢٩]، أي:"ولكن ثواب نصحي لكم على الله وحده".

عن مجاهد: "{إن أجري}: جزائي".

قال مقاتل:"يعني: ما جزائي {إلا عَلى اللهِ} في الآخرة".

قال الطبري:"يقول: ما ثواب نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى ما أدعوكم إليه، إلا على الله، فانه هو الذي يجازيني، ويثيبني عليه".

قوله تعالى: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا} [هود: ٢٩]، أي:"وليس من شأني أن أطرد المؤمنين".

قال الطبري:"وما أنا بمقصٍ من آمن بالله، وأقرّ بوحدانيته، وخلع الأوثان وتبرأ منها، بأن لم يكونوا من عِلْيتكم وأشرافكم".

قال مقاتل:"يعني: وما أنا بالذي لا أقبل الإيمانَ مِن السَّفِلَة عندكم".

قال النسفي:"جواب لهم حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم".

عن ابن جُرَيْج -من طريق حجّاج- في قوله: "{وما أنا بطارد الذين ءامنوا}، قال: قالوا له: يا نوح، إن أحببت أن نَتَّبِعَك فاطرُدهم، وإلّا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ} [هود: ٢٩]، أي:"فإنهم ملاقو ربهم يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول: إن هؤلاء الذين تسألوني طردهم، صائرون إلى الله، والله

=

=

سائلهم عما كانوا في الدنيا يعملون، لا عن شرفهم وحسبهم".

قال النسفي:"فيشكونني إليه إن طردتهم".

عن سعيد، في قوله: "{إنهم ملاقوا ربهم}، قال: الذين شروا أنفسهم لله وطمنوها على الموت".

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ} [هود: ٢٩]، وجهان:

أحدهما: أن يكون قال ذلك على وجه الإعظام لهم بلقاء الله تعالى.

الثاني: على وجه الاختصام، بأني لو فعلت ذلك لخاصموني عند الله.

قال الزمخشري:"معناه: أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم. أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم، أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به من بناء إيمانهم على بادئ الرأى من غير نظر وتفكر، وما على أن أشق عن قلوبهم وأ تعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون، ونحوه: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم} [الأنعام: ٥٢] الآية. أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة".

قوله تعالى: {وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} [هود: ٢٩]، أي:"ولكني أراكم قومًا تجهلون؛ إذ تأمرونني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني".

قال الطبري:"يقول: ولكني، أيها القوم، أراكم قومًا تجهلونَ الواجبَ عليكم من حقّ الله، واللازم لكم من فرائضه. ولذلك من جهلكم سألتموني أن أطرد الذين آمنوا بالله".

قال النسفي: أي:"تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل أو تجهلون لقاء ربكم أو أنهم خير منكم".

قال الزمخشري:"تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل، من قوله:

=

=

ألا لا يجهلن أحد علينا".

قال الآلوسي: أي:"ولكني أراكم قوما تتسفهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة".

وفي قوله تعالى: {تَجْهَلُونَ} [هود: ٢٩]، وجوه:

أحدها: تجهلون في استرذالكم لهم وسؤالكم طردهم. ذكره الماوردي.

الثاني: تجهلون في أنهم خير منكم لإيمانهم وكفركم. ذكره الماوردي.

الثالث: تجهلون بلقاء ربكم. ذكره الزمخشري.

الرابع: تجهلون أنهم خير منكم. ذكره الزمخشري.

الخامس: تجهلون ربوبية ربكم وعظمته. قاله ابن عباس.

قال الزمخشري:"معناه: أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم. أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم، أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به من بناء إيمانهم على بادئ الرأى من غير نظر وتفكر، وما على أن أشق عن قلوبهم وأ تعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون، ونحوه: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم} [الأنعام: ٥٢] الآية. أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة".

قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ} [هود: ٣٠]، أي:"ويا قوم مَن يمنعني من الله إن عاقبني على طردي المؤمنين؟".

قال الفراء:"يقول: من يمنعني من الله".

قال الزمخشري:"أي: من يمنعني من انتقامه إن طردتهم، وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء".

قال الطبري: أي:"فيمنعني من الله إن هو عاقبني على طردي المؤمنين الموحِّدين

=

=

الله إن طردتهم؟".

قال مقاتل:"يمنعني من الله إن طردتهم يعنى إن لم أقبل منهم الإيمان أي من السفلة".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: لو طردتهم فيعذبني الله بذلك، فمن يمنعني من عذاب الله، إن طردتهم عن مجلسي؟".

قال الآلوسي: أي: "من يصونني منه تعالى ويدفع عني حلول سخطه، والاستفهام للإنكار أي لا ينصرني أحد من ذلك {إِنْ طَرَدْتُهُمْ} وأبعدتهم عني وهم بتلك المثابة والزلفى منه تعالى، وفي الكلام ما لا يخفى من تهويل أمر طردهم".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [هود: ٣٠]، أي:"أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم وتنزجرون عنه؟".

قال مقاتل:"يعني: أنه لا مانع لأحد من الله".

قال الطبري:"يقول: أفلا تتفكرون فيما تقولون: فتعلمون خطأه، فتنتهوا عنه؟".

قال أبو الليث السمرقندي:"أي: أفلا تتعظون ولا تفهمون أن من آمن بالله لا يطرد؟".

قال الآلوسي:"أي: أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل فلا تتذكرون ما ذكر من حالهم حتى تعرفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب".

قال المراغي:"أي: أفلا تتفكرون فيما تقولون، وهو ظاهر الخطأ لائحه فتنتهوا عنه؟، فإن لهم ربا ينصرهم وينتقم لهم".

قوله تعالى: {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ} [هود: ٣١]، أي:"ولا أقول لكم: إني أملك التصرف في خزائن الله".

عن ابن جريج، قوله: "{ولا أقول لكم عندي خزائن الله} التي لا يفنيها شيء، فأكون إنما أدعوكم لتتبعوني عليها لأعطيكم منها".

=

=

قال الزمخشري:"معناه: لا أقول لكم: عندي خزائن الله فأدعى فضلا عليكم في الغنى، حتى تجحدوا فضلى بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل".

قال النحاس:"أخبر بتواضعه وتذلله لله جل وعز وأنه لا يدعي ما ليس له من خزائن الله جل وعز وهي أنعامه على من يشاء من عباده".

قوله تعالى: {وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} [هود: ٣١]، أي:"ولا أقول لكم إني أعلم الغيب حتى تظنوا بي الربوبية".

قال الزمخشري: أي:"ولا أدعى علم الغيب حتى تنسبونى إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعى وضمائر قلوبهم".

قال النحاس:"وأنه لا يعلم الغيب لأن الغيب لا يعلمه إلا الله جل وعز".

عن ابن جريج: "{ولا أعلم الغيب}، ولا أقول اتبعوني على علم الغيب".

قال الحسن: "الغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

وقد بيّن تعالى أن الغيب كله لا يعلمه إلا الله.

كما قال تعالى (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ).

وأعظم الخلق: الملائكة، والرسل لا يعلمون الغيب.

فالملائكة لما قال لهم الله (فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ) أجابوا بأن قالوا (سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا).

والرسل عليهم الصلاة – مع ما أعطاهم الله من العلم والمكانة – يقولون: إنهم لا يعلمون الغيب إلا ما علمهم الله.

فهذا سيدهم وخاتمهم قد أمره ربه أن يقول (قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ).

وأمره أيضًا في سورة الأعراف أن يقول (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا

=

=

شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ).

وهذا نوح عليه السلام ذكر الله عنه في سورة هود أنه قال لقومه (وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا).

وهذا نبي الله إبراهيم كما قال الله (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) ولم يدرِ أن الذين ينضج لهم عجله ملائكة كرام لا يأكلون.

وهذا نبي الله يعقوب قال الله فيه (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ) ومع هذا فولده يوسف كان في مصر ، وما بينه وبينه ثمان مراحل ، ولا يعلم عن أمره شيئًا.

وهذا نبي الله سليمان عليه السلام ، الذي أعطاه الله الريح ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وما كان يدر يعن قصة بلقيس وجماعتها ، حتى جاءه الهدهد الضعيف المسكين ، وكان قد خرج بغير إذن ، وكان نبي الله سليمان يتوعده ويتهدده على الخروج بغير إذن كما قص الله في سورة النمل (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ...) حتى قال له (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ...).

قوله تعالى: {وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} [هود: ٣١]، أي:"ولا أقول لكم إني مَلَك من الملائكة".

قال النحاس:"أي ولا أقول إن منزلتي عند الله جل وعز منزلة الملائكة. وقد قالت العلماء: الفائدة في هذا الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلم لدوامهم على الطاعة واتصال عبادتهم إلى يوم القيامة".

قال الزمخشري: أي:"ولا أقول إني ملك حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا".

عن ابن جريج: "{وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} نزلت من السماء برسالة، ما أنا إلا بشر مثلكم".

=

=

واحتمل قوله تعالى: {وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} [هود: ٣١]، من نوح عليه السلام وجهين:

أحدهما: أن يكون جوابًا لقومه على قولهم: {مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا}.

الثاني: أن يكون جوابًا لهم على قولهم: {وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ}، فقال الله تعالى له قل: {وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِن اللهِ}، وفيها وجوه:

أحدها: أنها الرحمة، أي: ليس بيدي الرحمة فأسوقها إليكم، قاله ابن عباس.

الثاني: أنها الأموال، أي: ليس بيدي أموال فأعطيكم منها على إيمانكم. {وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ} فأخبركم بما في انفسكم. {وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} يعني: فأباين جنسكم. ذكره الماوردي.

والثالث: أى: مقدوراته التى منع الناس عنها، لأن الخزن ضرب فى المنع. وهذا قول الفيروزآبادي.

والرابع: أنها: جوده الوسيع وقدرته. حكاه الفيروزآبادي.

والخامس: أي: قوله: «كن». حكاه الفيروزآبادي.

قوله تعالى: {وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا} [هود: ٣١]، أي:"ولا أقول لهؤلاء الذين تحتقرون من ضعفاء المؤمنين: لن يؤتيكم الله ثوابًا على أعمالكم".

قال مقاتل:"يعنى: السفلة، {لن يؤتيهم الله خيرا}، يعني: إيمانا وإن كانوا عندكم سفلة".

قال الزمخشري: أي:"ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيرا في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه، كما تقولون، مساعدة لكم ونزولا على هواكم".

قال الطبري:"يقول: ولا أقول للذين اتبعوني وآمنوا بالله ووحَّدوه، الذين

=

=

تستحقرهم أعينكم، وقلتم: إنهم أراذلكم: {لن يؤتيهم الله خيرًا}، وذلك الإيمان بالله".

قال الماوردي:"أي: ليس لاحتقاركم لهم يبطل أجرهم أو ينقص ثوابهم، وكذلك لستم لعلوكم في الدنيا تزدادون على أجوركم".

عن ابن زيد:"{ولا أقول للذين تزدري أعينكم}، قال: حقرتموهم".

عن ابن عباس {تزدري أعينكم}:"تحتقر وتستصغر".

و «الازدراء»: "الإحتقار. يقال: ازدريت عليه إذاعبته، وزريت عليه إذا حقرته، وأنشد المبرد:

يباعده الصديق وتزدريه حليلته وينهره الصغير"

قال الزجاج:"{تزدري}: تستسفل وتستخس، يقال: ززيت على الرجل إذا عبت عليه وخسست فعله، وأزريت إذا قصرت به".

قوله تعالى: {اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ} [هود: ٣١]، أي:"فالله وحده أعلم بما في صدورهم وقلوبهم".

قال الطبري:"يقول: الله أعلم بضمائر صدورهم، واعتقاد قلوبهم، وهو وليّ أمرهم في ذلك، وإنما لي منهم ما ظهر وبدا، وقد أظهُروا الإيمان بالله واتبعوني، فلا أطردهم ولا أستحل ذلك".

قال الزجاج:"أي: إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في ظاهر الرأي والذي أدعو إليه

توحيد الله، فإذا رأيت من يوحد الله جل ثناؤه عملت على ظاهره، والله أعلم بما في نفسه، لا يعلم الغيب إلا الله".

قوله تعالى: {إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} [هود: ٣١]، أي:"ولئن فعلتُ ذلك إني إذًا لمن الظالمين لأنفسهم ولغيرهم".

=

قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢).

{قَالُوا يَا نُوح قَدْ جَادَلْتنَا} خَاصَمْتنَا {فَأَكْثَرْت جِدَالنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدنَا} بِهِ مِنْ الْعَذَاب {إِنْ كُنْت مِنْ الصَّادِقِينَ} فِيهِ.

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣).

{قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله إِنْ شَاءَ} تَعْجِيله لَكُمْ فَإِنَّ أَمْره إِلَيْهِ لَا إِلَيَّ {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} بِفَائِتِينَ الله.

وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤).

{وَلَا يَنْفَعكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْت أَنْ أَنْصَح لَكُمْ إِنْ كَانَ الله يُرِيد أَنْ يُغْوِيكُمْ} أَيْ إِغْوَاءَكُمْ وَجَوَاب الشَّرْط دَلَّ عَلَيْهِ {وَلَا ينفعكم نصحي} {هو ربكم وإليه ترجعون} قال تعالى.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥).

=

قال الماوردي: "يعني: إن قلت هذا الذي تقدم ذكره".

قال الطبري: "يقول: إنّي إن قلت لهؤلاء الذين أظهروا الإيمان بالله وتصديقي: {لن يؤتيهم الله خيرًا}، وقضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته ألسنتهم لي على غير علم منّي بما في نفوسهم، وطردتهم بفعلي ذلك، لمن الفاعلين ما ليس لهم فعله، المعتدين ما أمرهم الله به، وذلك هو «الظلم»".

قال الزمخشري: أي: "إن قلت شيئا من ذلك، والازدراء: افتعال من زرى عليه إذا عابه، وأزرى به: قصر به، يقال ازدرته عينه، واقتحمته عينه".

{أم} بل أ {يَقُولُونَ} أَيْ كُفَّار مَكَّة {افْتَرَاهُ} اخْتَلَقَ مُحَمَّد الْقُرْآن {قُلْ إنْ افْتَرَيْته فَعَلَيَّ إجْرَامِي} إثْمِي أَيْ عُقُوبَته {وَأَنَا بَرِيء مِمَّا تُجْرِمُونَ} مِنْ إجْرَامكُمْ فِي نِسْبَة الِافْتِرَاء إلَيَّ[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا} [هود: ٣٢]، أي:"قال قوم نوح لنوحٍ عليه السلام: قد خاصمتنا فأكثرهم خصومتنا".

والجدال: هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة

- قال ابن الجوزي: قال الزجاج: الجدال: هو المبالغة في الخصومة والمناظرة، وهو مأخوذ من الجَدْل، وهو شدة الفتل، ويقال للصقر: أجدل، لأنه من أشد الطير.

- **قال القرطبي**: والجَدَل في الدين محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قَبِله أنجح وأفلح، ومن ردّه خاب وخَسِر.

وأما الجِدال لغير الحقّ حتى يظهر الباطل في صورة الحقّ فمذموم، وصاحبه في الدّارين ملوم.

- قال أبو حيان: وإنما كثرت مجادلته لهم لأنه أقام فيهم ما أخبر الله به ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهو كل وقت يدعوهم إلى الله وهم يجيبونه بعبادتهم أصنامهم.

قال الزمخشري:"معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته، كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب".

قال البيضاوي: أي:"خاصمتنا، فأطلته أو أتيت بأنواعه".

عن مجاهد قوله: "{جادلتنا}: ماديتنا".

قال مقاتل:"يعني: ماريتنا {فأكثرت جدالنا}، يعني: مراءنا".

ويقرأ: «فأكثرت جدلنا»، والجدل والجدال المبالغة في الخصومة، والمنافرة، وهو مأخوذ من الجدل وهو لتعدة الفتل، والصقر يقال له أجدل لأنه من أشد الطير.

=

قوله تعالى: {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [هود: ٣٢]، أي:"فائتنا بالعذاب الذي كنت تعدنا به إن كنت صادقًا في ما تقول".

قال الزمخشري: أي:"من العذاب المعجل".

قال مقاتل:"فكذبوه فقالوا: {فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين} بأن العذاب نازل بنا".

قال البيضاوي: أي:"من العذاب، {إن كنت من الصادقين} في الدعوى والوعيد فإن مناظرتك لا تؤثر فينا".

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ} [هود: ٣٣]، أي:"قال نوح لقومه: إن الله وحده هو الذي يأتيكم بالعذاب إذا شاء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال نوح لقومه حين استعجلوه العذاب: يا قوم، ليس الذي تستعجلون من العذاب إلي، إنما ذلك إلى الله لا إلى غيره، هو الذي يأتيكم به إن شاء".

قال الزمخشري:"أي: ليس الإتيان بالعذاب إلى إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه {إن شاء}، يعنى: إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [هود: ٣٣]، أي:"ولستم بفائتيه إذا أراد أن يعذبكم، لأنكم في ملكه وسلطانه".

قال الطبري:"يقول: ولستم إذا أراد تعذيبكم بمعجزيه، أي بفائتيه هربا منه، لأنكم حيث كنتم في ملكه وسلطانه وقدرته، حكمه عليكم جار".

قال البغوي: أي:"بفائتين".

عن ابن عباس في قوله: "{بمعجزين}، قال: بمسابقين".

قوله تعالى: {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ} [هود: ٣٤]، أي:"ولا ينفعكم تذكيري إياكم ونصحي لكم".

=

والنصيحة شرعًا: قيل: هي كلمة يعبر بها عن إرادة الخير للمنصوح له. وقيل: قيام العبد بما لغيره من الحقوق، وهذا أصوب.

قال الطبري:"يقول: ولا ينفعكم تحذيري عقوبته، ونزول سطوته بكم على كفركم به {إن أردت أن أنصح لكم}، في تحذيري إياكم ذلك، لأن نصحي لا ينفعكم، لأنكم لا تقبلونه".

قوله تعالى: {إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} [هود: ٣٤]، أي:"إن أراد الله إضلالكم".

قال الطبري:"يقول: إن كان الله يريد أن يهلككم بعذابه".

قال ابن عباس في رواية عطاء: "يضلكم".

قال مقاتل:"يعنى: يضلكم عن الهدى".

قوله تعالى: {هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [هود: ٣٤]، أي:"هو خالقكم والمتصرف في شئونكم، وإليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم على أعمالكم".

أي: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق وله الأمر.

والرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

ومعاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ثلاثة أصول: السيد، المالك، المصلح للشيء القائم عليه.

- قال الخازن: يعني أنه سبحانه وتعالى هو يملككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه.

قال الطبري:"يقول: وإليه تردون بعد الهلاك".

قال مقاتل:"{هو ربكم} ليس له شريك {وإليه ترجعون} بعد الموت فيجزيكم

=

=

بأعمالكم".

عن أبي العالية: "{إليه ترجعون}، قال: إليه يرجعون بعد الحياة".

عن الضحاك قوله: "{إلى الله مرجعكم}، قال: البر والفاجر".

قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} [هود: ٣٥]، أي: "بل أيقول كفار قريش اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه".

قال الطبري: "أي: أيقولون افتراه؟".

قال مقاتل: "ثم ذكر الله- تعالى- كفار أمة محمد- ﷺ- من أهل مكة.. قالوا: محمد يقول هذا القرآن من تلقاء نفسه وليس من الله".

وقد قيل: هذه الآية في محمد ﷺ وقومه. وقيل: هي في نوح.

- **قال القرطبي:** وقيل: هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر.

لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه؛ فالخطاب منهم ولهم.

- قال الخازن: وأكثر المفسرين على أن هذا من محاورة نوح قومه فهي من قصة نوح عليه السلام.

قال ابن كثير: "هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكد لها ومقرر بشأنها، يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعله من عنده".

قوله تعالى: {قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي} [هود: ٣٥]، أي: "قل لهم يا محمد إن كنت قد افتريت هذا القرآن فعليَّ وزري وذنبي، ولا تؤاخذون أنتم بجريرتي".

وقال مقاتل (أم يقولون) يعني المشركين من كفار مكة افتراه يعني محمدًا ﷺ اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون هذه الآية معترضة في قصة نوح ثم رجع إلى القصة فقال سبحانه وتعالى (وأوحي إلى نوح...).

وقال أبو حيان: قيل: هذه الآية اعترضت في قصة نوح، والإخبار فيها عن قريش.

=

=

يقولون ذلك لرسول الله ﷺ أي: افترى القرآن، وافترى هذا الحديث عن نوح وقومه، ولو صح ذلك بسند صحيح لوقف عنده، ولكن الظاهر أن الضمير في يقولون عائد على قوم نوح، أي: بل أيقولون افترى ما أخبرهم به من دين الله وعقاب من أعرض عنه، فقال عليه السلام قل: إن افتريته فعليّ إثم إجرامي.

وعلى قول من قال: إنها في شأن مشركي مكة: يكون المعنى، لقد سقنا لك يا محمد من أخبار السابقين ما هو الحق الذي لا يحوم حوله باطل، ولكن المشركين من قومك لم يعتبروا بذلك، بل يقولون إنك قد افتريت هذا القرآن، قل لهم: إن كنت قد افتريته- على سبيل الفرض- فعلي وحدي تقع عقوبة إجرامي وافترائي الكذب، وأنا بريء من عقوبة إجرامكم وافترائكم الكذب.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أيقول يا محمد هؤلاء المشركون من قومك: افترى محمد هذا القرآن؟ وهذا الخبر عن نوح؟ = قل لهم: إن افتريته فتخرصته واختلقته فعليّ إثمي في افترائي ما افتريت على ربّي دونكم، لا تؤاخذون بذنبي ولا إثمي، ولا أؤاخذ بذنبكم".

قال الزمخشري:"المعنى: إن صح وثبت أنى افتريته، فعلى عقوبة إجرامى أى افترائى. وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عنى وتتألبوا على".

قال ابن كثير:"أي: فإثم ذلك علي".

عن قتادة، في قوله تعالى: {فعليّ إجرامي}، يقول فعلي عملي".

قال العز بن عبدالسلام:"{إِجْرَامِى} عقاب إجرامي وهي الذنوب المكتسبة أو الجنايات المقصودة".

وقرئ: «أجرامي» بفتح الهمزة على أنه كما قال النحاس: "جمع جرم"، واستشكل العز بن عبد السلام الشرطية بأن الافتراء المفروض هنا ماض والشرط يخلص للاستقبال بإجماع أئمة العربية، وأجاب أن المراد- كما قال ابن السراج-

=

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦).

{وَأُوحِيَ إِلَى نُوح أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِن مِنْ قَوْمك إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِس} تَحْزَن {بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} مِنْ الشِّرْك فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ {رَبّ لَا تَذَر عَلَى الْأَرْض} إلخ فأجاب الله دعاءه فقال.

وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧)

{وَاصْنَعْ الْفُلْك} السَّفِينَة {بِأَعْيُنِنَا} بِمَرْأَى مِنَّا وَحِفْظنَا {وَوَحْينَا} أَمْرنَا {وَلَا تُخَاطِبنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا} كَفَرُوا بِتَرْكِ إهلاكهم {إنهم مغرقون.

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا

=

إن ثبت أني افتريته فعلي إجرامي على ما قيل في قوله تعالى: إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ [المائدة: ١١٦].

قوله تعالى: {وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ} [هود: ٣٥]، أي:"وأنا بريءٌ من إجرامكم بكفركم وتكذيبكم".

قال الطبري:"يقول: وأنا بريء مما تذنبون وتأثَمُون بربكم، من افترائكم عليه".

قال الآلوسي:"أي: من إجرامكم في إسناد الافتراء إلي".

قال ابن كثير:"أي: ليس ذلك مفتعلا ولا مفترى، لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه".

قال الزمخشري:"يعنى: ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه. ومعنى {مما تجرمون}: من إجرامكم في إسناد الافتراء إلى فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم".

عن قتادة، قوله: "{وأنا بريء مما تجرمون}، أي: مما تعملون".

نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨).

{وَيَصْنَع الْفُلْك} حِكَايَة حَال مَاضِيَة {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأ} جَمَاعَة {مِنْ قَوْمه سَخِرُوا مِنْهُ} استهزؤوا بِهِ {قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَر مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} إِذَا نَجَوْنَا وَغَرِقْتُمْ.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩).

{فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ} مَوْصُولَة مَفْعُول الْعِلْم {يَأْتِيه عَذَاب يُخْزِيه ويحل} ينزل {عليه عذاب مقيم}(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ} [هود: ٣٦].

أي: بعد أن لج قوم نوح في طغيانهم، وصموا آذانهم عن سماع دعوته.. أوحى الله تعالى إلى نوح بأن يكتفى بمن معه من المؤمنين، فإنه لم يبق في قومه من يتوقع إيمانه بعد الآن، وبعد أن مكث فيهم زمنًا طويلًا يدعوهم إلى الدخول في الدين الحق، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأوحَى الله إلى نوح، لمّا حَقّ على قومه القولُ، وأظلَّهم أمرُ الله، أنه لن يؤمن، يا نوح، بالله فيوحِّده، ويتبعك على ما تدعوه إليه {من قومك إلا من قد آمن}، فصدّق بذلك واتبعك".

قال الزمخشري:"{لن يؤمن}: إقناط من إيمانهم، وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع إلا من قد آمن إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها".

عن قتادة قوله: "{وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن}، وذلك حين دعا عليهم نوح، قال: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} ".

قال الضحاك:"فحينئذ دعا على قومه، لما بيَّن الله له أنه لن يؤمن من قومه إلا من =

=

قد آمن".

قوله تعالى: {فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [هود: ٣٦]، أي:"فلا تحزن يا نوح على ما كانوا يفعلون".

والآية تسلية له عليه السلام عما أصابه منهم من أذى.

والابتئاس: الحزن. يقال: ابتأس فلان بالأمر، إذا بلغه ما يكرهه ويغمه، والمبتئس: الكاره الحزين في استكانة.

أي: فلا تحزن بسبب إصرارهم على كفرهم، وتماديهم في سفاهاتهم وطغيانهم، فقد آن الأوان للانتقام منهم.

- قال ابن عاشور: قوله تعالى (بما كانوا يفعلون) هو إصرارهم على الكفر واعتراضهم عن النظر في الدعوة إلى وقت أن أوحي إليه هذا.

قال الله تعالى حكاية عنه (فلم يزدهم دعائي إلاّ فِرارًا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارًا).

- قال ابن الجوزي: قال المفسرون: لما أوحي إليه هذا، استجاز الدعاء عليهم، فقال (لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديارًا).

قال الطبري:"يقول: فلا تستكن ولا تحزن {بما كانوا يفعلون}، فإني مهلكهم، ومنقذك منهم ومن اتبعك. وأوحى الله ذلك إليه، بعد ما دعا عليهم نوحٌ بالهلاك فقال: (رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)، [سورة نوح: ٢٦]".

عن ابن عباس قوله: "{فلا تبتئس}، يقول: لا تحزن ولا تيأس".

عن مجاهد قوله: "{فلا تبتئس}،: فلا تحزن".

قال الفراء:"يقول: لا تستكن ولا تحزن".

قال الزمخشري: أي:"فلا تحزن حزن بائس مستكين، قال:

ما يَقْسِمِ اللهُ فاقبل غيرَ مُبْتَئِسٍ منه وأَقْعُدْ كريمًا ناعمَ البالِ

=

=

والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم".

قال الصابوني:"أي: فلا تحزن بسبب كفرهم وتكذيبهم لك فإني مهلكهم".

عن محمد بن كعب، قال: "لما استنقذ الله من أصلاب الرجال وأرحام النساء كل مؤمن ومؤمنة قال: يا نوح «لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون»".

قوله تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} [هود: ٣٧]، أي:"اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأحي إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأن اصنع الفلك، وهو السفينة بعين الله ووحيه كما يأمرك".

قال ابن عباس:"وذلك أنه لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله ﷻ إليه أن يصنعها على مثل [جؤجؤ] الطائر".

عن أبي صالح في قوله: "{الفلك}، قال: سفينة نوح".

عن مجاهد: "الفلك: السفينة".

قال ابن عباس: "كان طول سفينة نوح أربعمائة ذراع وطولها في السماء ثلاثون ذراعا".

قال الحسن:"كان طول سفينة نوح ستمائة ذراع، وارتفاعها ثلاثون ذراعا، وعرضها ثلاثمائة ذراع، وكان بابها في جنبها".

وفي رواية أخرى عن الحسن:"كان طول سفينة نوح ألف ومائة ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت مطبقة".

وعن الحسن أيضا:"كان طول سفينة نوح ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع".

عن خصيف:"أن سفينة نوح كانت من خشب وكانت ثلاثة أبيات وكان طول

=

=

السفينة ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعا وطول الأبيات الثلاثة من أسفل إلى فوق ثلاثون ذراعا كل بيت منها عشرة أذرع، وكانت مغطاة أعلاها وأسفلها إلا باب يدخل منه كل شيء ثم ردمه".

وفي قوله تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} [هود: ٣٧]، وجوه:

أحدهما: بحيث نراك، فعبر عن الرؤية بالأعين لأن بها تكون الرؤية.

الثاني: بحفظنا إياك حفظ من يراك.

الثالث: بأعين أوليائنا من الملائكة.

الرابع: بمعونتنا لك على صنعها. أفاده الماوردي.

وروي عن ابن عباس:"{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا}، قال: بعين الله ووحيه".

وعن عطاء: "وأما قوله: {بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا}، فيقال: بعين الله ورحمته".

واعلم رحمني الله وإياك، أن العين صفة ذاتية خبرية ثابتة لله ﷻ بالكتاب والسنة، وأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن، الله ﷻ له عينان تليقان به؛ {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}. وسيأتي للمسألة مزيد بحث في عند قوله تعالى (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) طه: ٣٩.

قوله تعالى: {وَوَحْيِنَا} [هود: ٣٧]، أي:"وتعليمنا لك".

قال السمعاني:"أي: وأمرنا".

قال عطاء الخراساني:"أي: بوحي الله".

قال المراغي: أي:"وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه، فلا يعرضن لك خطأ فى صنعته ولا فى وصفه".

وفي قوله تعالى: {وَوَحْيِنَا} [هود: ٣٧]، وجهان:

أحدهما: وأمرنا لك أن تصنعها. وهذا معنى قول مجاهد.

روي عن مجاهد: قوله:"{ووحينا}، كما نأمرك".

=

=

الثاني: تعليمنا لك كيف تصنعها.

قوله تعالى: {وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا} [هود: ٣٧]، أي:"ولا تشفع في الذين ظلموا أنفسهم من قومك بكفرهم، فإني مهلكهم لا محالة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولا تسألني في العفو عن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم من قومك، فأكسبوها تعدّيًا منهم عليها بكفرهم بالله = الهلاك بالغرق، إنهم مغرقون بالطوفان".

قال المراغي: "أي: ولا تراجعني في شيء من أمرهم من دفع العذاب عنهم وطلب الرحمة لهم".

عن ابن جريج: {ولا تخاطبني}، قال: يقول: ولا تراجعني. قال: تقدَّم أن لا يشفع لهم عنده".

قال قتادة:"نهى الله ﷻ نوحا عليه السلام أن يراجعه في أحد".

والمعنى ولا تخاطبني في إمهال الكفار فإني قد حكمت بإغراقهم.

وقيل: ولا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك واعلة؛ فإنهما هالكان مع القوم.

- قال الشنقيطي: وهذا الوجه بعيد، لأن نوحًا قد ألح في دعائه لربه أن يهلكهم، فالصحيح أن المراد لا تخاطبني في تعجيل العذاب والإهلاك لقومك، فإنه قد كتب وحان.

- قال الرازي: ففيه وجوه:

الأول: يعني لا تطلب مني تأخير العذاب عنهم فإني قد حكمت عليهم بهذا الحكم، فلما علم نوح عليه السلام ذلك دعا عليهم بعد ذلك.

الثاني: (وَلاَ تخاطبني) في تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا، فإني لما قضيت إنزال ذلك العذاب في وقت معين كان.

الثالث: المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه كنعان.

=

=

قال محمد بن إسحاق:"فلما شكا ذلك منهم نوح إلى الله ﷻ واستنصر عليهم أوحى الله إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا، أي: بعد اليوم إنهم مغرقون".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا} [هود: ٣٧]، قولان:

أحدهما: ولا تخاطبني في إمهال الكفار، فإني قد حكمت بإغراقهم.

والثاني: لا تخاطبني في ابنك؛ فإنه هالك مع القوم.

قال الزمخشري: معناه:"ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك إنهم مغرقون إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب ذلك وقضى به القضاء وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه، كقوله: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} [هود: ٧٦]".

قال الماوردي:"نهاه الله عن المراجعة فيهم فاحتمل نهيه أمرين:

أحدهما: ليصرفه عن سؤال ما لا يجاب إليه.

الثاني: ليصرف عنه مأثم الممالأة للطغاة".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} [هود: ٣٧]، أي:"فإنهم هالكون غرقًا بالطوفان".

قال المراغي: "أي: فقد حقت عليهم كلمة العذاب وقضى عليهم بالإغراق، والخلاصة- لا تأخذنك بهم رأفة ولا شفقة".

قوله تعالى: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ} [هود: ٣٨]، أي:"صنع نوحٌ السفينة كما علّمه ربُّه".

قال الطبري:"ويصنع نوح السفينة".

قال الزمخشري:"{وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ}: حكاية حال ماضية... وروى أن نوحا عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعا، وطولها في السماء ثلاثون ذراعا، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون،

=

=

فحمل في البطن الأسفل: الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط: الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضا بين الرجال والنساء. وقيل: إن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفا من ذلك التراب فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب بن حام. قال: فضرب الكثيب بعصاه فقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام: هكذا أهلكت؟ قال لا، مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمت شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات: طبقة للدواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير. ثم قال له: عد بإذن الله كما كنت، فعاد ترابا".

عن زيد بن أسلم:"أن نوحا عليه السلام مكث يغرس الشجر ويقطعها وييبسها، ثم مائة يعملها".

عن كعب الأحبار:"أنه قال لما استنفذ الله من في الأصلاب والأرحام من المؤمنين والكافرين أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فاصنع الفلك، قال: يا رب ما أنا بنجار، قال: بلى فإن ذلك بعيني خذ القادوم فجعلت يده لا تخطئ فجعلوا يمرون به ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجارا فعملها أربعين سنة".

قوله تعالى: {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ} [هود: ٣٨]، أي:"كلما مرَّ عليه جماعة من كبراء قومه هزءوا منه وضحكوا".

قال الطبري:"وكلما مرّ عليه جماعة من كبراء قومه هزئوا من نوح، ويقولون له: أتحوّلت نجارًا بعد النبوّة، وتعمل السفينة في البر؟".

=

=

وفي سخريتهم منه قولان:

أحدهما: أنهم كانوا يرونه يبني في البر سفينة فيسخرون منه ويستهزئون به ويقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجارًا. قاله عن كعب الأحبار.

قال الزمخشري:"سخروا منه ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية بهماء في أبعد موضع من الماء، وفي وقت عز الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضاحكون ويقولون له: يا نوح، صرت نجارا بعد ما كنت نبيا".

الثاني: أنهم لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا يا نوح: ما تصنع؟ قال: أبني بيتًا يمشي على الماء فعجبوا من قوله وسخروا منه.

عن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن أبي ربيعة أخبره:"أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ: قال لو رحم الله ﷻ من قوم نوح أحد لرحم أم الصبي قال رسول الله ﷺ: كان نوح مكث في قومه ألف سنة وغرس مائة سنة الشجر فعظمت، وذهب كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه فيسخرون منه ويقولون: يعمل سفينة في البر فكيف تجري؟ قال سوف تعلمون فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما صار الماء على الجبل فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها دفعته بيدها فرقا فلو رحم الله ﷻ منهم أحدا لرحم أم الصبي" أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٩٣ - ٣٩٤)، وابن أبي حاتم (١٨٩٩٨)، والحاكم (٢/ ٣٤٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه فتعقبه الذهبي بقوله قلت: إسناده مظلم وموسى بن يعقوب ليس بذاك، وضعفه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٢٥) بقوله: وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد روي عن كعب الأحبار، ومجاهد بن جبر قصة هذا الصبي وأمه بنحو من هذا، وقال الشيخ في الضعيفة (٥٩٨٥) منكر.

=

=

و «الملأ»: "الأشراف من الناس، وهو اسم الجماعة، كالقوم والرهط والجيش، وجمعه أملاء، قال الشاعر:

وقال لها الأملاء من كل معشر وخير أقاويل الرجال سديدها

وأصلها من: «الملء»، وهم الذين يملؤون العيون هيبة ورواء، وقيل: هم الذين يملؤون المكان إذا حضروا، وقال الزجاج: الملأ الرؤساء، سموا بذلك لأنهم يملؤون القلوب بما يحتاج إليه، من قولهم: ملأ الرجل يملأ ملأة فهو مليء".

قوله تعالى: {قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} [هود: ٣٨]، أي:"قال لهم نوح: إن تسخروا منا اليوم لجهلكم بصدق وعد الله، فإنا نسخر منكم غدًا عند الغرق كما تسخرون منا".

قال الطبري:"فيقول لهم نوح: إن تهزءوا منا اليوم، فإنا نهزأ منكم في الآخرة، كما تهزءون منا في الدنيا".

قال الزمخشري:"يعنى: في المستقبل كما تسخرون منا الساعة، أى: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة. وقيل: إن تستجهلونا فيما نصنع فإنا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منا. أو إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم في استجهالكم، لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق".

عن أم عبد الله -يعني: بنت خالد بن مهران، عن أبيها قال:"يقال: الذين يسخرون من الناس في الدنيا ادخلوا الجنة فإذا آتوها ردوا وقيل لهم: سخر بكم كما كنتم تسخرون بالناس في الدنيا".

وفي قوله تعالى: {قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} [هود: ٣٨]، وجهان:

=

=

أحدهما: إن تسخروا من قولنا فسنسخر من غفلتكم.

الثاني: إن تسخروا من فِعلنا اليوم عند بناء السفينة فإنا نسخر منكم غدًا عند الغرق.

قال الماوردي:"والمراد بالسخرية ها هنا الاستجهال. ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم".

القرآن

{فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩)} [هود: ٣٩]

التفسير:

فسوف تعلمون إذا جاء أمر الله بذلك: من الذي يأتيه في الدنيا عذاب الله الذي يُهينه، وينزل به في الآخرة عذاب دائم لا انقطاع له؟

قوله تعالى: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} [هود: ٣٩]، أي:"فسوف تعلمون إذا جاء أمر الله بذلك: من الذي يأتيه في الدنيا عذاب الله الذي يُهينه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل نوح لقومه: {فسوف تعلمون}، أيها القوم، إذا جاء أمر الله، من الهالك، {من يأتيه عذاب يخزيه}، يقول: الذي يأتيه عذابُ الله منا ومنكم يهينه ويذله".

قال الزمخشري: أي:"فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه، ويعنى به إياهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا وهو الغرق".

عن عكرمة، في قوله: "{من يأتيه عذاب يخزيه}، قال: الغرق".

قال ابن عطية:"ثم جاء قوله: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، تهديدا".

قوله تعالى: {وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [هود: ٣٩]، أي:"وينزل به في الآخرة عذاب دائم لا انقطاع له".

قال الطبري:"يقول: وينزل به في الآخرة، مع ذلك، عذابٌ دائم لا انقطاع له، مقيم

=

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠).

{حَتَّى} غَايَة لِلصُّنْعِ {إِذَا جَاءَ أَمْرنَا} بِإِهْلَاكِهِمْ {وَفَارَ التَّنُّور} لِلْخَبَّازِ بِالْمَاءِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَة لِنُوحٍ {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا} فِي السَّفِينَة {مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ} ذَكَرًا وَأُنْثَى أَيْ مِنْ كُلّ أَنْوَاعهمَا {اثْنَيْنِ} ذَكَرًا وَأُنْثَى وَهُوَ مَفْعُول وَفِي الْقِصَّة أَنَّ الله حَشَرَ لِنُوحٍ السِّبَاع وَالطَّيْر وَغَيْرهَا فَجَعَلَ يَضْرِب بِيَدَيْهِ فِي كُلّ نَوْع فَتَقَع يَده الْيُمْنَى عَلَى الذَّكَر وَالْيُسْرَى عَلَى الْأُنْثَى فَيَحْمِلهُمَا فِي السَّفِينَة {وَأَهْلك} أَيْ زَوْجَته وَأَوْلَاده {إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْل} أَيْ مِنْهُمْ بِالْإِهْلَاكِ وَهُوَ زَوْجَته وَوَلَده كَنْعَان بِخِلَافِ سَام وَحَام وَيَافِث فَحَمَلَهُمْ وَزَوْجَاتهمْ الثَّلَاثَة {وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ

=

عليه أبدًا".

قال الزمخشري: أي:"حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه، {عذاب مقيم} وهو عذاب الآخرة".

وقال السمعاني:"معناه: ينزل عليه عذاب دائم، وهو الغرق".

قال ابن عطية:"«العذاب المخزي» هو الغرق، و «المقيم» هو عذاب الآخرة".

قال النحاس:"أي: من يؤول أمره إلى هذا فهو الجاهل".

عن أبي مالك قوله: "{عذاب مقيم}، يعني: دائما لا ينقطع".

عن عكرمة:"{ويحل عليه عذاب مقيم}، قال: جهنم".

قال الزجاج-في الآية-:"أي: فسوف تعْلَمون من هو أحق بالخْري، ومن هو أحْمدُ عاقِبةً".

قال المقري:"قَوْله {مِن يَأتيهِ عَذابٌ يُخزيهِ وَيَحِلُّ عَلَيهِ عَذابٌ مُقيم} نسخ بِآيَة السيف".

مَعَهُ إِلَّا قَلِيل} قِيلَ كَانُوا سِتَّة رِجَال وَنِسَاءَهُمْ وَقِيلَ جَمِيع مَنْ كَانَ فِي السَّفِينَة ثَمَانُونَ نِصْفهمْ رِجَال وَنِصْفهمْ نساء[1].

---

(١) قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ} [هود: ٤٠]، أي:"حتى إذا جاء أمرنا بإهلاكهم كما وَعدْنا نوحًا بذلك، ونبع الماء بقوة من التنور -وهو المكان الذي يخبز فيه- علامة على مجيء العذاب".

قال مطرف بن عبد الله بن الشخير:"كانت علامة بينه وبين ربه إذا رأيت التنور يفور بالماء فـ {احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}".

وفي قوله تعالى: {وَفَارَ التَّنُّورُ} [هود: ٤٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن المراد: وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تَنُّورًا، قاله ابن عباس، وعكرمة.

وقيل لنوح عليه السلام: «إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن اتبعك قال: العرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض».

الثاني: أن التنور العين التي بالجزيرة «عين وردة»، رواه عكرمة عن ابن عباس.

وروي عن ابن عباس في قوله:"{وفار التنور}، قال: بالهند".

الثالث: أنه مسجد بالكوفة من قبل أبواب كندة، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومحمد بن علي، وحذيفة، والشعبي، ومجاهد.

الرابع: أن التنور ما زاد على وجه الأرض فأشرف منها، قاله قتادة.

عن قتادة قوله: "{وفار التنور}، قال: فيفور التنور علم بين نوح وربه والتنور أشرف الأرض وأعلاها عين بالجزيرة عين الوردة".

الخامس: أنه التنور الذي يخبز فيه، قيل له: إذا رأيت الماء يفور منه فاركب أنت ومن معك، قاله مجاهد.

قال عطاء:"بلغني أن نوحا عليه السلام قال لجاريته: إذا فار تنورك ماء فأخبريني قال =

=

عطاء: بلغني أنها لما فرغت من آخر خبزها فار التنور فذهبت إلى سيدها فأخبرته فركب هو ومن معه في أعلى السفينة وفتح الله السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيونا".

السادس: أن التنور هو تنوير الصبح، من قولهم: نور الصبح تنويرًا، وهو مروي عن علي رضي الله عنه.

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله: {التنور}، قول من قال: «هو التنور الذي يخبز فيه»، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها. وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به، لإفهامهم معنى ما خاطبهم به".

- قال ابن كثير: "وأما قوله: {وفار التنور} فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيونا تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف.

وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: التنور: فلق الصبح، وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه، والأول أظهر".

قوله تعالى: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} [هود: ٤٠]، أي:"قلنا لنوح: احمل في السفينة من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكرًا وأنثى".

قال الماوردي:"يعني: من الآدميين والبهائم ذكرًا وأنثى".

عن مجاهد قوله: "{من كل زوجين اثنين}، ذكر وأنثى من كل صنف".

عن عكرمة، في قوله: "{احمل فيها من كل زوجين اثنين}، خلقته ذكرا وأنثى، قال: الذكر زوج، والأنثى زوج".

عن ابن عباس قال: "كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا أحدهم جرهم".

=

عن ابن عباس، قال " كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا منهم أهلوهم وأنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوما".

عن ابن عباس قال:"لما كان نوح في السفينة قرط الفار حبال السفينة فشكى ذلك فأوحي إليه فمسح ذنب الأسد فخرج سنورات وكان في السفينة عذرة فشكى فأوحي إليه فمسح ذنب الفيل فخرج خنزيران".

قوله تعالى: {وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ} [هود: ٤٠]، أي:"واحمل فيها أهل بيتك، إلا مَن سبق عليهم القول ممن لم يؤمن بالله كابنه وامرأته".

عن قتادة، قوله:"{وأهلك إلا من سبق عليه القول}: إنه مغرق".

قوله تعالى: {وَمَنْ آمَنَ} [هود: ٤٠]، أي:"واحمل فيها من آمن معك من قومك".

قال الزجاج:"أي: واحمل من آمن، ويقال إن الذين آمنوا معه كانوا ثمانين نفسا".

قوله تعالى: {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} [هود: ٤٠]، أي:"وما آمن بنوح إلا نزرٌ يسير مع طول إقامته بينهم".

عن الحكم:"{ومن آمن وما آمن معه إلا قليل}، قال: كان نوح وثلاثة بنيه وأربع كنانيه".

واختلف في عددهم، على أقوال:

أحدها: ثمانون رجلًا، قاله ابن عباس.

عن ابن زيد بن أسلم، عن أبيه:"أنه كان مع نوح يوم أغرق قومه ثمانون من أهل الإيمان".

الثاني: اثنان وسبعون، قال كعب الأحبار:"والمؤمنون يومئذ اثنان وسبعون فأرسل الله الماء من السماء وفتح الأرض".

الثالث: سبعة، قاله الأعمش ، ومطر.

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١).

{وَقَالَ} نُوح {ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا} بِفَتْحِ الْمِيمَيْنِ وَضَمّهمَا مَصْدَرَانِ أَيْ جَرْيهَا وَرَسْوهَا أَيْ مُنْتَهَى سَيْرهَا {إِنَّ رَبِّي لَغَفُور رَحِيم} حَيْثُ لَمْ يُهْلِكنَا.

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢).

{وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْج كَالْجِبَالِ} فِي الِارْتِفَاع وَالْعِظَم {وَنَادَى نُوح ابْنه} كَنْعَان {وَكَانَ فِي معزل} عن السفينة {يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين.

قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣).

{قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَل يَعْصِمنِي} يَمْنَعنِي {مِنْ الماء قال لَا عَاصِم الْيَوْم مِنْ أَمْر الله} عَذَابه {إلَّا} لَكِنْ {مَنْ رَحِمَ} الله فَهُوَ الْمَعْصُوم قال تعالى {وحال

=

قال مطر: "كان نوح في السفينة سبعة نوح وثلاثة أولاده وكنانيه ثلاثة".

الرابع: ثمانية، قال قتادة: "ذكر لنا أنه لم ينج ممن في السفينة إلا نوح وثلاثة بنين له ونساؤهم فجمعهم ثمانية".

قال الماوردي: "وكان فيهم ثلاثة بنين: سام وحام ويافث، وثلاث بنات له ونوح معهم فصاروا سبعة، وعلى القول الثاني: كانت فيهم امرأة نوح فصاروا ثمانية.

قال محمد بن عباد بن جعفر: "فأصاب حام امرأته في السفينة فدعا نوح أن يغير لطفته فجاء السودان".

بينهما الموج فكان من المغرقين}.

وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤).

{وَقِيلَ يَا أَرْض ابْلَعِي مَاءَك} الَّذِي نَبَعَ مِنْك فَشَرِبَتْهُ دُون مَا نَزَلَ مِنْ السَّمَاء فَصَارَ أَنْهَارًا وَبِحَارًا {وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي} أَمْسِكِي عَنْ الْمَطَر فَأَمْسَكَتْ {وَغِيض} نَقَصَ {الْمَاء وَقُضِيَ الْأَمْر} تَمَّ أَمْر هَلَاك قَوْم نُوح {وَاسْتَوَتْ} وَقَفَتْ السَّفِينَة {عَلَى الْجُودِيّ} جَبَل بِالْجَزِيرَةِ بِقُرْبِ الْمُوصِل {وَقِيلَ بُعْدًا} هَلَاكًا {لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} [هود: ٤١]، أي:"وقال نوح لمن آمن معه: اركبوا في السفينة، باسم الله يكون جريها على وجه الماء، وباسم الله يكون منتهى سيرها ورُسوُّها".

قال مقاتل:"إذا ركبتموها فقولوا: «باسم الله مجراها» حين تجري، «ومرساها» حين تحبس".

قال الزجاج:"أي بالله تجري، وبه تستقر. ومعنى {قلنا باسم الله}، أي: بالله".

قال ابن كثير:"أي: بسم الله يكون جَرْيُها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رُسُوها... وقال الله تعالى: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلْ رَبِّ أَنزلْنِي مُنزلا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} [المؤمنون: ٢٨، ٢٩]؛ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: {وَالَّذِي خَلَقَ الأزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ =

=

وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} [الزخرف: ١٢ - ١٤]، وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه".

عن مجاهد: "{بِسْمِ اللهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا}، قال: حين يركبون ويجرون ويرسون".

قال الضحاك:"إذا أراد أن ترسي قال: "بسم الله " فأرست، وإذا أراد أن تجري قال "بسم الله " فجرت".

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر وابن عامر «مجرها»، بضم الميم، وقرأ حمزة والكسائى «مجرها» بفتح الميم وكسر الراء، وكذلك حفص عن عاصم «مجرها» بفتح الميم وكسر الراء، وليس يكسر فى القرآن غير هذا الحرف -يعنى «الراء» فى «مجرها».

وقوله {ومرساها}: كلهم قرأ «ومرسهآ» بضم الميم، وكان ابن كثير وابن عامر يفتحان الراء من «مجرها» والسين من «مرسهآ»، وكان نافع وعاصم فى رواية أبى بكر يقرآنهما بين الكسر والتفخيم، وكان أبو عمرو وحمزة والكسائى يميلون الراء من «مجرها»، ويفتح أبو عمرو وحفص عن عاصم السين من «مرسهآ» ويميلها حمزة والكسائى، وليس فيهم أحد جعلها نعتا لله ﷻ.

وقرأ أبو رجاء العَطاردي: "بسْمِ اللهِ مُجْرِيَها ومُرْسِيهَا".

- قال الشوكاني: قوله (وَقالَ ارْكَبُوا فِيها) الْقَائِلُ نُوحٌ، وَقِيلَ: اللهُ سُبْحَانَهُ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى، لِقَوْلِهِ: إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

- وقال الآلوسي: قوله تعالى (وَقَالَ) أي نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى (إِنَّ رَبّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ).

وقيل: الضمير لله تعالى، وفيه أنه لو كان كذلك لكان المناسب إن ربكم الخ، ولعل هذا القول بعد إدخال ما أمر بحمله في الفلك من الأزواج.

=

=

- قال الشنقيطي: ذكر الله تعالى في هذا الآية الكريمة: أن نبيه نوحًا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أمر أصحابه الذين قيل لهم احملهم فيها أن يركبوا فيها قائلًا: وَقَالَ (بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها.

وبين في سورة الفلاح: أنه أمره إذا استوى على السفينة هو ومن معه أن يحمدوا الله الذي نجاهم من الكفرة الظالمين، ويسألوه أن ينزلهم منزلًا مباركًا، وذلك في قوله (فَإِذَا استويت أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الفلك فَقُلِ الحمد للهِ الذي نَجَّانَا مِنَ القوم الظالمين وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ المنزلين).

وبين في سورة الزخرف ما ينبغي أن يقال عند ركوب السفن وغيرها بقوله (والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُون).

ومعنى قوله (مُقْرِنِينَ) أي: مطيقين.

- قال ابن كثير: ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى (وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُون) وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتي في سورة "الزخرف"، إن شاء الله وبه الثقة.

- قال الخازن: وهذا تعليم من الله لعباده أنه من أراد أمرًا فلا ينبغي له أن يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت الشروع حتى يكون ذلك سببًا للنجاح والفلاح في سائر الأمور.

=

=

قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [هود: ٤١]، أي:"إن ربي لَغفور ذنوب من تاب وأناب إليه من عباده، رحيم بهم أن يعذبهم بعد التوبة".

قال الطبري:"يقول: إن ربي لساتر ذنوب من تاب وأناب إليه، رحيم بهم أن يعذبهم بعدَ التوبة".

عن سعيد، بن جبير، قوله: "{لغفور رحيم}، لما كان منهم في الشرك، {رحيم} بهم بعد التوبة".

قال ابن كثير:"{إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكْرُ أنه غفور رحيم، كما قال: {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأعراف: ١٦٧]، وقال: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته".

قوله تعالى: {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ} [هود: ٤٢].

أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طَبَّق جميع الأرض، حتى طفت على رءوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا، وقيل: بثمانين ميلا وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كَنَفه وعنايته وحراسته وامتنانه.

- قال الشنقيطي: ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة: أن السفينة تجري بنوح ومن معه في ماء عظيم، أمواجه كالجبال.

وبين جريانها هذا في ذلك الماء الهائل في مواضع آخر.

كقوله (إِنَّا لَمَّا طَغَا المـآء حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ).

وقوله (فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السمآء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُونًا فَالْتَقَى المـآء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ

=

=

تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ).

- قال ابن عاشور: والموج: ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه، وتشبيهه بالجبال في ضخامته.

- قال الرازي: الأمواج العظيمة إنما تحدث عند حصول الرياح القوية الشديدة العاصفة فهذا يدل على أنه حصل في ذلك الوقت رياح عاصفة شديدة، والمقصود منه: بيان شدة الهول والفزع.

- قال ابن الجوزي: شبهه بالجبال في عِظَمه وارتفاعه.

قال الطبري:"يعني تعالى ذكره بقوله: {وهي تجري بهم}، والفلك تجري بنوح ومن معه فيها".

قال ابن كثير:"أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طَبَّق جميع الأرض، حتى طفت على رءوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا، وقيل: بثمانين ميلا وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كَنَفه وعنايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة: ١١، ١٢]، وقال تعالى: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: ١٣ - ١٥]".

قال الزمخشري:"فإن قلت: بم اتصل قوله وهي تجري بهم؟

قلت: بمحذوف دل عليه اركبوا فيها بسم الله كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم الله، وهي تجري بهم أى تجرى وهم فيها في موج كالجبال يريد موج الطوفان، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها.

فإن قلت: الموج: ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه وزخيره وكان الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجرى في جوف الماء كما تسبح

=

=

السمكة، فما معنى جريها في الموج؟

قلت: كان ذلك قبل التطبيق، وقبل أن يغمر الطوفان الجبال. ألا ترى إلى قول ابنه: سآوى إلى جبل يعصمني من الماء. قيل: كان اسم ابنه: كنعان. وقيل: يام".

قوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ} [هود: ٤٢]، أي:"ونادى نوح ابنه -وكان في مكانٍ عَزَل فيه نفسه عن المؤمنين-".

وفي اسمه قولان:

أحدهما: كنعان، وهو قول الأكثرين.

والثاني: اسمه يام، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عبيد بن عمير، وابن إِسحاق.

- وهذا كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال، إذ يتعذر إيقافها بعد جريها لأن الراكبين كلّهم كانوا مستقرين في جوف السفينة.

قال ابن كثير:"هذا هو الابن الرابع، واسمه "يام"، وكان كافرا، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون".

قال الزمخشري:"«المعزل»: مفعل، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده، يعنى: وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين. وقيل: كان في معزل عن دين أبيه".

عن محمد بن علي: "{ونادى نوح ابنه}، قال: يعني بلغة طيئ: ابن امرأته".

عن قتادة، عن الحسن قال: "ليس بابنه".

عن ثابت بن الحجاج الكلابي في قول الله: "{ونادى نوح ابنه}، قال: ولد على فراشه".

وعن مجاهد قال: "كل نبي أبو أمته".

عن قتادة: "كان اسم ابن نوح الذي غرق: كنعان".

=

=

وقرأ على رضى الله عنه: «ابنها»، والضمير لامرأته. وقرأ محمد بن على وعروة بن الزبير: «ابنه»، بفتح الهاء، يريدان ابنها، فاكتفيا بالفتحة عن الألف، وبه ينصر مذهب الحسن، «قال قتادة: سألته فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه إن ابني من أهلى، وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب» ، واستدل بقوله: {من أهلي}، ولم يقل: منى، ولنسبته إلى أمه وجهان:

أحدهما: أن يكون ربيبا له، كعمر بن أبى سلمة لرسول الله ﷺ.

والثاني: أن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء عليهم السلام.

وقرأ السدى: «ونادى نوح ابناه»، على الندبة والترثى. أى: قال يا ابناه.

قوله تعالى: {يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ} [هود: ٤٢]، أي:"فقال له: يا بني اركب معنا في السفينة، ولا تكن مع الكافرين بالله فتغرق".

تصغيره هنا تصغير شفقة بحيث يجعل كالصغير في كونه محل الرحمة والشفقة.

- قال ابن عاشور: قول نوح عليه السلام له (اركب معنا) كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير.

قيل: المراد كان في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم، وظن نوح عليه السلام أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه إلى السفينة، وقيل: إنما ناداه لأنه كان ينافقه فظن أنه مؤمن، واختاره كثير من المحققين وغيره، وقيل: كان يعلم أنه كافر إلى ذلك الوقت لكنه عليه السلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الأهوال وبلوغ السيل الزبي ينزجر عما كان عليه ويقبل الإيمان، وقيل: لم يجزم بدخوله في الاستثناء لما أنه كان كالمجمل فحملته شفقة الأبوة على أن ناداه.

قال السدي:"نادى نوح الغلام وكان قد ولد على فراشه وكان نوح ظن أنه ابنه فناداه نوح: {يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين}، ولا يعلم نوح إلا أنه ابنه

=

=

وكان ولده وكان كافرا".

قرئ «يا بني» بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الإضافة، وبالفتح اقتصارا عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة في قولك: يا بنيا، أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين، لأن الراء بعدهما ساكنة.

قوله تعالى: {قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ} [هود: ٤٣]، أي:"قال ابن نوح: سألجأ إلى جبل أتحصَّن به من الماء، فيمنعني من الغرق".

ظن ابن نوح أن ذلك المطر والتفجير على العادة، فلذلك قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء أي: من وصول الماء إليّ فلا أغرق، وهذا يدل على عادته في الكفر، وعدم وثوقه بأبيه فيما أخبر به.

قال الطبري:"يقول: سأصير إلى جبل أتحصن به من الماء، فيمنعني منه أن يغرقني".

قال ابن كثير:"قيل: إنه اتخذ له مركبا من زُجاج، وهذا من الإسرائيليات، والله أعلم بصحته. والذي نص عليه القرآن أنه قال: {قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ} اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق".

عن عطاء الخراساني:"{قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ}، يقول: الجبل يعصمني".

عن ابن إسحاق:"إذا كان فظن أن ذلك لما كان يكون".

قوله تعالى: {قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ} [هود: ٤٣]، أي:"فأجابه نوح: لا مانع اليوم من أمر الله وقضائه الذي قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك إلا مَن رحمه الله تعالى".

قال عكرمة:"لا ناج إلا أهل السفينة".

=

=

قال السدي:"فقال نوح: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، ففتح الله عليه السماء".

قال الطبري:"يقول: لا مانع اليوم من أمر الله الذي قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك، إلا من رحمنا فأنقذنا منه، فإنه الذي يمنع من شاء من خلقه ويعصم".

قال ابن كثير:"فقال له أبوه نوح، عليه السلام: {لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلا مَنْ رَحِمَ} أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله. وقيل: إن عاصما بمعنى معصوم، كما يقال: "طاعم وكاس"، بمعنى مطعوم ومكسُوّ".

قال الشنقيطي: الصحيح أن الاستثناء هنا منقطع، أي: ولكن من رحم الله فهو معصوم كالمؤمنين. (ضابط الاستثناء المنقطع: أن يستثني بإلا شيء من غير جنس ما ذكر).

قوله تعالى: {وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} [هود: ٤٣]، أي:"وحال الموج المرتفع بين نوح وابنه، فكان من المغرقين الهالكين".

قال الطبري:"يقول: وحال بين نوح وابنه موج الماء فغرق، فكان ممن أهلكه بالغرق من قوم نوح صلى الله عليه وسلم".

عن القسم بن أبي مرة:"{وحال بينهما الموج}، قال: بين نوح وبين الجبل".

عن عون بن أبي شراد، قال: "غرق الماء الجبال فوقها ثمانين ميلا".

عن مجاهد:"قال لما أصاب قوم نوح الغرق، قال: قام الماء على رأس كل جبل خمسة عشرة رأسا قال: أصاب الغرق امرأة فيمن أصاب لها صبي فوضعته على صدرها فلما بلغها الماء وضعته على منكبيها فلما بلغها الماء وضعته على يديها، قال: فقال تبارك وتعالى: لو رحمت أحدا من أهل الأرض لرحمتها".

قوله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ} [هود: ٤٤]، أي:"وقال الله للأرض - بعد هلاك قوم نوح-: يا أرض اشربي ماءك".

=

=

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها".

قال قتادة:"ابلعي ما كان عليك".

عن وهب بن منبه:"{وقيل يا أرض ابلعي ماءك}، يقول بالحبشية: ازرديه".

عن أبي سعيد، {وغيض}، قال:"خرجت أريد أن أشرب ماء فمررت بالفرات فإذا الحسن والحسين، فقالا: يا أبا سعيد، أين تريد قلت: أشرب ماء المر، قال لا تشرب ماء المر فإنه لما كان زمن الطوفان أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع فاستعصى على بعض البقاع فلعنه فصار ماؤه مرا وترابه سبخا لا ينبت شيئا".

قوله تعالى: {وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي} [هود: ٤٤]، أي:"ويا سماء أمسكي عن المطر".

قال ابن كثير:"وأمر السماء أن تُقلعَ عن المطر".

عن ابن عباس:"{ويا سماء أقلعي}، يقول: اسكني". وروي عن قتادة، نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَغِيضَ الْمَاءُ} [هود: ٤٤]، أي:"ونقص الماء ونضب".

قال ابن كثير:"أي: شرع في النقص".

قال ابن عباس:"ذهب الماء". وروي عن قتادة نحو ذلك.

قال مجاهد:"نقص وروي". وروي عن عطاء الخراساني مثله.

قوله تعالى: {وَقُضِيَ الْأَمْرُ} [هود: ٤٤]، أي:"وقُضي أمر الله بهلاك قوم نوح".

قال ابن كثير:"أي: فُرِغَ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم دَيّار".

عن مجاهد قوله: "{وقضي الأمر}، قال: هلك قوم نوح".

قوله تعالى: {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} [هود: ٤٤]، أي:"ورست السفينة على جبل الجوديِّ".

قال الضحاك:"وأما قوله: الجودي فجبل بالموصل".

=

قال قتادة:"فاستقرت على الجودي شهرا".

قال قتادة:"أبقاها الله من أرض الجزيرة عبروا به حتى رآها أوائل هذه الآية: وكم من سفينة قد كانت بعدها، فهلكت بعدها وصارت رمزا".

قال مجاهد:"الجودي: جبل بالجزيرة تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت وتواضع هو لله فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح".

عن عمر بن هاني العيسى:"أنه حدثه أن شيوخا من عبس أنهم حدثوه إنهم لما كانوا بصفين أتوا الجودي ينظرون إلى موضع السفينة فيه".

قال ابن عباس:"كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا، معهم أهلوهم وأنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوما، وأن الله وجه السفينة إلى مكة فزارت البيت أربعين يوما ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع إلى الجيف يعني فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودي فأتى قرية وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة أحدها اللسان العربي فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض وكان نوح يعبر عنهم".

قال وهب بن منبه: "إن نوحا عليه السلام لما ركب في السفينة فلما أتى الجودي وهو جبل بالجزيرة أرست عليه فأصاب جؤجؤها الجبل فأرست فكشفنا غطاءها فطلعت الشمس فبعث الغراب والحمامة يأتيانه بالخبر فأتته الحمامة بمقدار من الماء إلى ركبتيها فدعا لها قال: فتلك الحمرة في رجليها من ذلك قال واحتبس الغراب على جيفة يأكل منها ثم أخذ نوح من قضبان كان في السفينة من العنب فأغرس فنبت وأثمر ونضج من ساعته فعصر منه فشرب ثم نام في الشمس فتكشف وأتيا سام ويافث بشيء يستران عليه، وضحك حام ومشيا القهقري على

=

أدبارهما فانتبه نوح من نومه فأوحي إليه ما كان من أمرهما فدعا لسام ويافث أن يكون النبوة والعز في أولادهما ودعا أن يكون السواد والعبودة في ولد حام".

قال ابن الجوزي: وفي علة استوائها عليه قولان:

أحدهما: أنه لم يغرق، لأن الجبال تشامخت يومئذ وتطاولت، وتواضع هو فلم يغرق، فأرست عليه، قاله مجاهد.

والثاني: أنه لما قلَّ الماء أَرْسَتْ عليه، فكان استواؤها عليه دلالة على قلة الماء.

وقال القرطبي: وروي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسي على واحد منها فتطاولت، وبقي الجُوديّ لم يتطاول تواضعًا لله، فاستوت السّفينة عليه: وبقيت عليه أعوادها....

وقد قيل: إن الجوديّ اسم لكل جبل.

ويقال: إن الجُوديّ من جبال الجنة؛ فلهذا استوت عليه.

ويقال: أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر: الجوديّ بنوح، وطور سيناء بموسى، وحِراء بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قوله تعالى: {وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [هود: ٤٤]، أي:"وقيل: هلاكًا وبعدًا للقوم الظالمين الذين تجاوزوا حدود الله، ولم يؤمنوا به".

قال ابن كثير:"أي: هلاكًا وخسارًا لهم وبعدا من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية".

عن مقاتل بن حيان، قوله: "{الظالمين}، يعني: المشركين".

قال الرازي: فيه وجهان:

الأول: أنه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرد.

والثاني: أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فإذا هلكوا ونجا منهم قال مثل هذا

=

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥).

{وَنَادَى نُوح رَبّه فَقَالَ رَبّ إنَّ ابْنِي} كَنْعَان {مِنْ أَهْلِي} وَقَدْ وَعَدْتنِي بِنَجَاتِهِمْ {وَإِنَّ وَعْدك الْحَقّ} الَّذِي لَا خُلْف فِيهِ {وَأَنْت أَحْكَم الْحَاكِمِينَ} أَعْلَمهمْ وَأَعْدَلهمْ.

قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦).

{قَالَ} تَعَالَى {يَا نُوح إنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلك} النَّاجِينَ أَوْ مِنْ أَهْل دِينك {إنَّهُ} أَيْ سُؤَالك إيَّايَ بِنَجَاتِهِ {عَمَل غَيْر صَالِح} فَإِنَّهُ كَافِر وَلَا نَجَاة لِلْكَافِرِينَ وَفِي قِرَاءَة بِكَسْرِ مِيم عَمِلَ فِعْل وَنَصْب غَيْر فَالضَّمِير لابنه {فلا تسألن} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف {مَا لَيْسَ لَك بِهِ عِلْم} مِنْ إنْجَاء ابْنك {إنِّي أَعِظك أَنْ تَكُون مِنْ الْجَاهِلِينَ} بِسُؤَالِك مَا لَمْ تَعْلَم.

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧).

{قَالَ رَبّ إنِّي أَعُوذ بِك} مِنْ {أَنْ أَسْأَلك مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْم وَإِلَّا تغفر لي}

=

الكلام ولأنه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق.

(فائدة): قال بعض العلماء: (قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ) هذا عقل.

(قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ) هذا وحي.

وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ...) هذه نتيجة من قدم عقله على الكتاب والسنة غرق في بحور الأهواء.

ما فرط مني {وترحمني أكن من الخاسرين}.

قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨).

{قِيلَ يَا نُوح اهْبِطْ} انْزِلْ مِنْ السَّفِينَة {بِسَلَامٍ} بِسَلَامَةٍ أَوْ بِتَحِيَّةٍ {مِنَّا وَبَرَكَات} خَيْرَات {عَلَيْك وَعَلَى أُمَم مِمَّنْ مَعَك} فِي السَّفِينَة أَيْ مِنْ أَوْلَادهمْ وَذُرِّيَّتهمْ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ {وَأُمَم} بِالرَّفْعِ مِمَّنْ مَعَك {سَنُمَتِّعُهُمْ} فِي الدُّنْيَا} ثُمَّ يَمَسّهُمْ مِنَّا عَذَاب أَلِيم} فِي الْآخِرَة وَهُمْ الكفار.

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩).

{تِلْكَ} أَيْ هَذِهِ الْآيَات الْمُتَضَمِّنَة قِصَّة نُوح {مِنْ أَنْبَاء الْغَيْب} أَخْبَار مَا غَابَ عَنْك {نُوحِيهَا إِلَيْك} يَا مُحَمَّد {مَا كُنْت تَعْلَمهَا أَنْت وَلَا قَوْمك مِنْ قَبْل هَذَا} الْقُرْآن {فَاصْبِرْ} عَلَى التَّبْلِيغ وَأَذَى قَوْمك كَمَا صَبَرَ نوح {إن العاقبة} المحمودة {للمتقين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي} [هود: ٤٥]، أي:"ونادى نوح ربه فقال: رب إنك وعَدْتني أن تنجيني وأهلي من الغرق والهلاك، وإن ابني هذا من أهلي".

قال الحسن:"وإنك قد وعدتني أن تنجي لي أهلي وإن ابني من أهلي".

قال عاصم الجحدري:"كان ابن عباس يحلف بالله إنه لابنه".

قال ابن كثير:"هذا سؤال استعلام وكشف من نوح، عليه السلام، عن حال ولده الذي غرق، {فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي} أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي".

قوله تعالى: {وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ} [هود: ٤٥]، أي:"وإن وعدك الحق الذي لا =

=

خُلْف فيه".

قال ابن كثير:"ووعدُك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق؟".

قوله تعالى: {وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} [هود: ٤٥]، أي:"وأنت أحكم الحاكمين وأعدلهم".

عن عبد الرحمن بن زيد:"{وأنت أحكم الحاكمين}، قال: بالحق".

اكتفى نوح عليه السلام بأن يقول: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي. وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ دون أن يصرح بمطلوبه وهو نجاة ابنه تأدبًا مع الله تعالى وحياء منه سبحانه واعتقادًا منه بأنه سبحانه عليم بما يريده، وخبير بما يجول في نفسه.

- قال السمعاني: (قوله سبحانه وتعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)} [هود:٤٥]، يعني: أنت وعدتني أن تنجي أهلي، وأنت أحكم الحاكمين، يعني: وأنت أحكم الحاكمين بالعدل، قال الله تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هود:٤٦]، معناه: ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم).

وقال الشوكاني: قوله تعالى (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) أي: أَنَّهُ مِنَ الْأَهْلِ الَّذِينَ وَعَدْتَنِي بِتَنْجِيَتِهِمْ بِقَوْلِكَ: وَأَهْلَكَ. ا.هـ

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ طَلَبَ نُوحٌ عليه السلام إِنْجَازَ مَا وَعَدَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: وَأَهْلَكَ وَهُوَ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَتَرَكَ مَا يُفِيدُهُ الِاسْتِثْنَاءُ، وَهُوَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ؟ فَيُجَابُ: بِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ إِذْ ذَاكَ أَنَّهُ مِمَّنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ، فَإِنَّهُ كَانَ يَظُنُّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

- قال القاسمي: وإنما قال نوح ذلك- أي: رب إن ابني من أهلي.. ألخ- لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية، والرحمة النسبية، وغفل- لفرط التأسف على ابنه- عن استثنائه تعالى بقوله: إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ولم يتحقق أن ابنه هو الذي سبق عليه القول، فاستعطف ربه بالاسترحام، وعرض بقوله وَأَنْتَ أَحْكَمُ

=

=

الْحاكِمِينَ إلى أن العالم العادل الحكيم لا يخلف وعده.

يقول المؤرخون: إن أبناء نوح أربعة: أحدهم هذا الذي خاطب الله فيه، ويسمى: كنعان، والثلاثة الباقون هم مؤمنون، ومنهم كان النسل البشري الباقي كما قال تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين).

قوله تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هود: ٤٦]، أي:"قال الله: يا نوح إن ابنك الذي هلك ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم".

قال الطبري:"يقول الله تعالى ذكره: قال الله يا نوح إن الذي غرقته فأهلكته الذي تذكر أنه من أهلك ليس من أهلك".

قال ابن كثير:"أي: الذين وعدت إنجاءهم؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: {وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ} [هود: ٤٠]، فكان هذا الولد ممن سَبَق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبيّ الله نوحا، عليه السلام".

وفي كونه ابن النبي نوح-عليه السلام- أقوال:

أحدها: أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه وكان لغيره رشدة، قاله الحسن، ومجاهد، وابن جريج.

قال عبيد بن عمير: "نرى أن ما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم "الولد للفراش"، من أجل ابن نوح".

عن قتادة قال: "كنت عند الحسن فقال: "نادى نوح ابنه"، لعمْر الله ما هو ابنه! قال: قلت: يا أبا سعيد يقول: {ونادى نوح ابنه}، وتقول: ليس بابنه؟ قال: أفرأيت قوله: (إنه ليس من أهلك)؟ قال: قلت إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك، ولا يختلف أهل الكتاب أنه ابنه. قال: إن أهل الكتاب يكذبون".

سعيد، عن قتادة، قال: "سمعت الحسن يقرأ هذه الآية: {إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح}، فقال عند ذلك: والله ما كان ابنه. ثم قرأ هذه الآية:

=

=

{فَخَانَتَاهُمَا}، [سورة التحريم: ١٠] قال سعيد: فذكرت ذلك لقتادة، قال: ما كان ينبغي له أن يحلف!".

الثاني: أنه ابن امرأته. رواه جابر عن أبي جعفر.

قال أبو جعفر:"لو كان من أهله لنجا".

قال ابن كثير:"وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن، أو أراد أنه نسب إليه مجازا، لكونه كان ربيبًا عنده".

الثالث: أنه كان ابنه، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وميمون ، وثابت بن الحجاج.

قال ابن عباس: "هو ابنه، ما بغت امرأة نبيٍّ قطُّ".

قال الضحاك:"هو والله ابنه لصُلْبه".

قال بزيع: "سأل رجل الضحاك عن ابن نوح، فقال: ألا تعجبون إلى هذا الأحمق! يسألني عن ابن نوح، وهو ابن نوح كما قال الله: {قال نوح لابنه}".

قال عكرمة:"كان ابنه، ولكن كان مخالفًا له في النية والعمل، فمن ثم قيل له: {إنه ليس من أهلك}".

وقال عكرمة:"أشهد أنه ابنه، قال الله: {ونادى نوح ابنه}".

عن سليمان بن قتة قال: "سمعت ابن عباس يُسْأل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله تعالى: {فَخَانَتَاهُمَا}، [سورة التحريم: ١٠]، قال: أما إنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل، على الأضياف. ثم قرأ: {إنه عملٌ خير صالح}،قال ابن عيينة: وأخبرني عمار الدُّهني: أنه سأل سعيد بن جبير عن ذلك فقال: كانَ ابن نوح، إن الله لا يكذب! قال: {ونادى نوح ابنه}، قال: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرَأة نبيٍّ قط".

عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير: "أنه جاء إليه رجل فسأله. فقال:

=

=

أرأيتك ابن نُوح أبنه؟ فسبَّحَ طويلا ثم قال: لا إله إلا الله، يحدِّث الله محمدًا: {ونادى نوح ابنه} وتقول ليس منه؟ ولكن خالفه في العمل، فليس منه من لم يؤمن".

فالمراد نفى أن يكون من أهل دينه واعتقاده، وليس المراد نفى أن يكون من صلبه، لأن ظاهر الآية يدل على أنه ابنه من صلبه، ومن قال بغير ذلك فقوله ساقط ولا يلتفت إليه، لخلوه عن الدليل.

- قول إنه ليس بابنه، وإنما ابن زنية قول عظيم، وجرم كبير.

وقولُ ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رمَوا أم المؤمنين عائشة بنتَ الصدّيق زوج النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) إلى قوله (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ).

أما قوله تعالى (فخانتاهما) فالمراد الخيانة في الدين، وذلك أن امرأة نوح كانت تخبر قومها بمن آمن معه فيعذبونهم، وامرأة لوط كانت توقد الدخان لقومها علامة على أن عند لوط ناسًا ليأتوا فيفعلوا بهم الفاحشة.

وفي تفسير قوله تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هود: ٤٦]، وجهان:

أحدهما: ليس من أهل دينك وولايتك، حكاه الماوردي عن الجمهور.

الثاني: ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وأبو بشر.

قال ابن عباس:"يقول: ليس ممن وعدناه النجاة".

=

=

قال الضحاك:"يقول: ليس هو من أهل ولايتك، ولا ممن وعدتك أن أنجي من أهلك، {إنه عمل غير صالح}، قال: يقول كان عمله في شرك".

قال ابن كثير:"وقولُ ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رمَوا أم المؤمنين عائشة بنتَ الصدّيق زوج النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} إلى قوله {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ} [النور: ١١ - ١٥]".

قال الطبري: الصواب" قول من قال: تأويل ذلك: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم، لأنه كان لدينك مخالفًا، وبي كافرًا وكان ابنه لأن الله تعالى ذكره قد أخبر نبيه محمدًا ﷺ أنه ابنه فقال: {ونادى نوح ابنه}، وغير جائز أن يخبر أنه ابنه فيكون بخلاف ما أخبر. وليس في قوله: {إنه ليس من أهلك}، دلالةٌ على أنه ليس بابنه، إذ كان قوله: {ليس من أهلك}، محتملا من المعنى ما ذكرنا، ومحتملا أنه ليس من أهل دينك، ثم يحذف "الدين" فيقال: {إنه ليس من أهلك}، كما قيل: {واسأل القرية التي كنا فيها}، [سورة يوسف: ٨٢]".

قوله تعالى: {إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ} [هود: ٤٦].

تعليل لانتفاء كونه من أهله.

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ} [هود: ٤٦]، وجوه:

أحدها: أن مسألتك إياي أن أنجيه عمل غير صالح، قاله قتادة، وإبراهيم، وهو تأويل من قرأ «عملٌ غير صالح» بالتنوين.

=

=

وقال ابن عباس:"يقول: سؤالك عما ليس لك به علم".

وروي عن مجاهد:"سؤالك إياي، عمل غير صالح".

والثاني: معناه أن ابنك الذي سألتني أن أنجيه هو عملٌ غير صالحٍ، أي: أنه لغير رشدة، قاله الحسن.

قال الحسن:"ما هو والله بابنه".

والثالث: معناه: إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ، قاله ابن عباس ، وهو تأويل من لم ينون.

- قال البقاعي: قوله تعالى (إنه ليس من أهلك) أي المحكوم بنجاتهم لإيمانهم وكفره، ولهذا علل بقوله (إنه عمل) أي ذو عمل، ولكنه جعله نفس العمل في قراءة الجماعة مبالغة في ذمه.

- قال الشوكاني: قَرَأَ الْجُمْهُورُ: عَمَلٌ، عَلَى لَفْظِ الْمَصْدَرِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَالْكِسَائِيُّ، وَيَعْقُوبُ: عَمِلَ، عَلَى لَفْظِ الْفِعْلِ.

وَمَعْنَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى الْمُبَالَغَةُ فِي ذَمِّهِ كَأَنَّهُ جُعِلَ نَفْسَ الْعَمَلِ، وَأَصْلُهُ ذُو عَمَلٍ غَيْرِ صالِحٍ ثُمَّ حَذَفَ الْمُضَافَ وَجُعِلَ نَفْسَ الْعَمَلِ، كَذَا قَالَ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ. وَمَعْنَى الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ ظَاهِرٌ، أَيْ: إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ، وَهُوَ كُفْرُهُ وَتَرْكُهُ لِمُتَابَعَةِ أَبِيهِ.

- ذهب بعض العلماء: إلى أن هذا الضمير عائد إلى هذا السؤال، فكان التقدير أن هذا السؤال عمل غير صالح، أي قولك: إن ابني من أهلي لطلب نجاته عمل غير صالح، وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنبًا ومعصية.

- قال الرازي: هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب، فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه، ولكن لما انتفت قرابة الدين، لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو: قوله: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ.

- **قال القرطبي**: في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين.

قوله تعالى: (فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) أي: لا تطلب مني الشيء الذي لا

=

=

تعلم أن في طلبك إياه مصلحة، لأنك إذا سألت شيئًا لا ينبغي وقوعه، فقد طلبت من الله أ، يفعل ما لا ينبغي، فكأنك هنا قلت: اللهم أنج كافرًا من الكفار.

(إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أي: إني أنهاك يا نوح عن أن تكون من القوم الجاهلين، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها، ولا يعلمون حقائق الأشياء.

- قال الشوكاني: أَيْ أُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، كَقَوْلِهِ: يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا، وَقِيلَ: الْمَعْنَى: أَرْفَعُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهَذِهِ زِيَادَةٌ مِنَ اللهِ وَمَوْعِظَةٌ يَرْفَعُ بِهَا نُوحًا عَنْ مَقَامِ الْجَاهِلِينَ، وَيُعْلِيهِ بِهَا إِلَى مَقَامِ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ} [هود: ٤٧]، أي:"قال نوح: يا رب إني أعتصم وأستجير بك أن أسألك ما ليس لي به علم".

قال الطبري:"أي: أستجير بك أن أتكلف مسألتك ما ليس لي به علم، مما قد استأثرت بعلمه، وطويت علمه عن خلقك".

قال الواحدي:"يريد أنك علام الغيوب، وأنا لا أعلم ما غاب عني".

وقال ابن الأنباري: لما أعلمه الله أنه لا يجوز له أن يسأل ما لا علم له بجواز مسألته تلك، اعتذر أجمل اعتذار بقوله: {أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ}".

وقال أهل العلم: "لما كان السؤال منه ما يحسن ومنه ما يقبح، وجب ألا يسأل إلا عما يعلم أنه يحسن".

قوله تعالى: {وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [هود: ٤٧]، أي:"وإن لم تغفر لي ذنبي، وترحمني برحمتك، أكن من الذين غَبَنوا أنفسهم حظوظها وهلكوا".

=

=

قال الطبري:"فاغفر لي زلتي في مسألتي إياك ما سألتك في ابني، وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتنقذني من غضبك {أكن} من الذين غبنوا أنفسهم حظوظها وهلكوا".

عن ابن عباس:"{وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي}، قال ابن عباس: يريد جهلي".

عن عمر بن عبد العزيز:"في زحف كان في ولاية: أما بعد فإنه بلغني أن هذا الزحف شيء يعاقب الله به خلقه فقولوا كما قال نوح: {وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين}".

قوله تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا} [هود: ٤٨].

لما أمر الله الأرض ببلع الماء، والسماء بالكف عن إنزاله، واستوت السفينة على الجبل أحب نوح ومن معه النزول، فأمره الله بالهبوط هو ومن معه.

والمراد هنا: قيل: من السفينة، وقيل: من الجبل.

- قال أبو حيان: قيل: القائل هو الله تعالى، وقيل: الملائكة تبليغًا عن الله تعالى، والظاهر الأول لقوله: منا.

قال القرطبي:"أي: قالت له الملائكة، أو قال الله تعالى له: اهبط من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى الأرض، فقد ابتلعت الماء وجفت {بسلام منا}، أي: بسلامة وأمن، وقيل: بتحية".

قال ابن زيد:"هبطوا والله عنهم راض هبطوا بسلام من الله كانوا أهل رحمته من أهل ذلك الدهر".

قال قتادة:"هبط إلى الأرض يوم عاشوراء وصام نوح ومن معه من المغرب إلى المغرب".

قال ابن عباس:"أول شيء غرس نوح حين خرج من السفينة الآس".

قوله تعالى: {وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ} [هود: ٤٨]، أي:"وخيرات

=

=

عظيمة عليك وعلى ذرية من معك من أهل السفينة".

واختلفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال: منهم من حمله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أممًا وجماعات، لأنه ما كان في ذلك الوقت في جميع الأرض أحد من البشر إلا هم، فلهذا السبب جعلهم أممًا.

ومنهم من قال: بل المراد ممن معك نسلًا وتولدًا قالوا: ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى (وَمَا ءامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ).

ومنهم من قال: المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك.

قال القرطبي:"أي نعم ثابتة، مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته وإقامته. ومنه البركة لثبوت الماء فيها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نوح آدم الأصغر، فجميع الخلائق الآن من نسله، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته، على قول قتادة وغيره، حسب ما تقدم، وفي التنزيل: {وجعلنا ذريته هم الباقين} [الصافات: ٧٧]".

قال محمد بن كعب:"فما بقي مؤمن ولا مؤمنة إلا دخل في ذلك السلام وفي تلك البركات إلى يوم القيامة".

قال الضحاك:"{أمما ممن معك}، يعني: ممن لم يولد، قد مضى لمن سبق كلام الله السعادة وأما من سبق له في قضاء الله وكلمته الشقوة، فيمتعهم قليلا ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ".

قال الحسن:"نجى الله نوحا والذين آمنوا معه وأهلك المتمنعين ثم استقرا الأنبياء هود وشعيب وصالح فأنجاهم وأهلك المتمنعين".

قوله تعالى: {وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [هود: ٤٨]، أي:"هناك أمم وجماعات من أهل الشقاء سنمتعهم في الحياة الدنيا، إلى أن يبلغوا آجالهم،

=

=

ثم ينالهم منا العذاب الموجع يوم القيامة".

أي: أن الأمم التي تكون من نسلك ومن نسل أتباعك يا نوح على قسمين: قسم منهم له منا السلام، وعليه البركات بسبب إيمانه وعمله الصالح.

وقسم آخر سنمتعه في الدنيا وبالكثير من زينتها وخيراتها، ثم يصيبه يوم القيامة عذاب أليم بسبب جحوده لنعمنا، وعصيانه لرسلنا.

فعلى كل عاقل أن يجتهد في أن يكون من القسم الأول، وأن يتجنب القسم الثاني.

- قال الخازن: قوله تعالى (وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم..) هذا ابتداء كلام، أي: وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم يعني في الدنيا إلى منتهى آجالهم.

عن ابن عباس:"{عذاب أليم}، يقول: نكال موجع".

عن الضحاك، قوله:"{ثم يمسهم منا عذاب أليم}، لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة".

عن ابن زيد:"{ثم يمسهم منا عذاب أليم}، قال: بعد الرحمة".

قال السدي:"هؤلاء الأمم من أبناء من كان في السفينة مثل عاد وثمود وتلك القرون".

عن الضحاك، في قوله: "{وأمم سنمتعهم}، يعني: متاع الحياة الدنيا".

قال ابن زيد:"ثم أخرج منهم نسلا بعد ذلك أمما، منهم من رحم، ومنهم من عذب. قال: إنما افترقت الأمم من العصابة التي أخرجت من الماء وسلمت".

قال الحسن:"فما زال الله يأخذ لنا بسهمنا وحفظنا ويذكرنا من حيث لا نذكر أنفسنا كلما هلكت أمة خلصنا في أصلاب من نجوا بلطفه حتى جعلنا في خير أمة أخرجت للناس".

قال القرطبي:"{وعلى أمم ممن معك} قيل: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة. ودخل في قوله {وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم} كل كافر إلى

=

=

يوم القيامة، روي ذلك عن محمد بن كعب ".

قوله تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ} [هود: ٤٩]، أي:"تلك القصة التي قصصناها عليك -أيها الرسول- عن نوح وقومه هي من أخبار الغيب السالفة، نوحيها إليك".

قال ابن كثير:"يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ. هذه القصة وأشباهها {مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ} يعني: من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها وجليتها، كأنك شاهدها، {نُوحِيهَا إِلَيْكَ} أي: نعلمك بها وحيا منا إليك".

قال الواحدي:"الإشارة بـ {تلك}، إلى الأنباء، كأنه قيل تلك الأنباء من أنباء الغيب؛ لأنه قد تقدم ذكرها.. وقوله: {مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ}، أي من أخبار ما غاب عن جميع الخلق".

عن أبي مالك قوله:"{تلك}، يعني: هذه".

عن السدي، قال: "ثم رجع إلى محمد ﷺ فقال: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك}".

قوله تعالى: {مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا} [هود: ٤٩]، أي:"ما كنت تعلم تلك القصة أنت ولا قومك مِن قبل هذا البيان".

قال ابن كثير:"أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك".

قال الواحدي:"لأنه لم يشاهد هذه القصص النبي ﷺ، ولا أحد من قومه، ولا من الناس كلهم في ذلك الوقت".

عن أبي عبد الرحمن السلمي، في قوله: "{ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا}، قال: هذا الذي قصصت عليك".

=

=

عن السدي، قوله:"{ما كنت تعلمها أنت ولا قومك}، يعني: العرب".

قال قتادة:"أي: ما علم محمد ﷺ قومه بما صنع نوح قومه لولا بيان الله ﷻ".

قوله تعالى: {فَاصْبِرْ} [هود: ٤٩]، أي:"فاصبر على تكذيب قومك وإيذائهم لك، كما صبر الأنبياء من قبل".

قال الرازي: وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه.

- وإنما أمره بالصبر لأمور:

أولًا: لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر).

ثانيًا: أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات.

ثالثًا: وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ).

رابعًا: وليكون قدوة لغيره.

قال ابن كثير:"فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك، وأذاهم لك".

قال الواحدي:"أي: كما صبر نوح على أذى قومه".

قوله تعالى: {إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [هود: ٤٩]، أي:"إن العاقبة الطيبة في الدنيا والآخرة للمتقين الذين يخشون الله".

قال الواحدي:"فإن آخر الأمر بالظفر والنصرة والتمكين لك ولقومك، كما كان لمؤمني قوم نوح".

قال ابن كثير: أي:"فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بإخوانك بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم، {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا [فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ]} [غافر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى:

=

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠).

{و} أَرْسَلْنَا {إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ} مِنْ الْقَبِيلَة {هُودًا قَالَ يَا قَوْم اُعْبُدُوا الله} وَحِّدُوهُ {مَا لَكُمْ مِنْ} زَائِدَة {إِلَه غَيْره إِنْ} مَا {أَنْتُمْ} فِي عِبَادَتكُمْ الْأَوْثَان {إِلَّا مُفْتَرُونَ} كَاذِبُونَ على الله.

يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١).

{يَا قَوْم لَا أَسْأَلكُمْ عَلَيْهِ} عَلَى التَّوْحِيد {أَجْرًا إِنْ} مَا {أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فطرني} خلقني {أفلا تعقلون}.

وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢).

{وَيَا قَوْم اسْتَغْفِرُوا رَبّكُمْ} مِنْ الشِّرْك {ثُمَّ تُوبُوا} ارْجِعُوا {إِلَيْهِ} بِالطَّاعَةِ {يُرْسِل السَّمَاء} الْمَطَر وَكَانُوا قَدْ مَنَعُوهُ {عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا} كَثِير الدُّرُور {وَيُزِدْكُمْ

=

{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ [وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ]} [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}".

عن ابن عباس: يقول الله سبحانه وبحمده {للمتقين}، أي: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء به".

عن الضحاك:"{الْمُتَّقِينَ}، قال: "الذين يتقون الشرك.

عن السدي: "{المتقين}، قال: هم المؤمنون".

قُوَّة إلَى} مَعَ {قُوَّتكُمْ} بِالْمَالِ وَالْوَلَد {وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} مُشْرِكِينَ.

قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣).

{قَالُوا يَا هُود مَا جِئْتنَا بِبَيِّنَةٍ} بُرْهَان عَلَى قَوْلك {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتنَا عَنْ قولك} أي لقولك {وما نحن لك بمؤمنين}.

إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤).

{إنْ} مَا {نَقُول} فِي شَأْنك {إلَّا اعْتَرَاك} أَصَابَك {بَعْض آلِهَتنَا بِسُوءٍ} فَخَبَلَك لِسَبِّك إيَّاهَا فَأَنْت تَهْذِي {قَالَ إنِّي أُشْهِد الله} عَلَيَّ {واشهدوا أني بريء مما تشركون} هـ به.

مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥).

{مِنْ دُونه فَكِيدُونِي} احْتَالُوا فِي هَلَاكِي {جَمِيعًا} أنتم وأوثانكم {ثم لا تنظرون} تمهلون.

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦).

{إنِّي تَوَكَّلْت عَلَى الله رَبِّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ} زَائِدَة {دَابَّة} نَسَمَة تَدِبّ عَلَى الْأَرْض {إلَّا هُوَ آخِذ بِنَاصِيَتِهَا} أَيْ مَالِكهَا وَقَاهِرهَا فَلَا نَفْع وَلَا ضَرَر إلَّا بِإِذْنِهِ وَخَصَّ الناصبة بِالذِّكْرِ لِأَنَّ مَنْ أَخَذَ بِنَاصِيَتِهِ يَكُون فِي غَايَة الذُّلّ {إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم} أَيْ طَرِيق الْحَقّ وَالْعَدْل.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧).

{فإن تولوا} فيه حذف إحدى التائين أَيْ تُعْرِضُوا {فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْت بِهِ إلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِف رَبِّي قَوْمًا غَيْركُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا} بِإِشْرَاكِكُمْ {إنَّ رَبِّي عَلَى كُلّ شَيْء حفيظ} رقيب.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨).

{وَلَمَّا جَاءَ أَمرنَا} عَذَابنَا {نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ} هِدَايَة {مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَاب غَلِيظ} شَدِيد.

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩).

{وَتلْكَ عَاد} إشَارَة إلَى آثَارهمْ أَيْ فَسِيحُوا فِي الْأَرْض وَانْظُرُوا إلَيْهَا ثُمَّ وَصَفَ أَحْوَالهمْ فَقَالَ {جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبّهمْ وَعَصَوْا رُسُله} جُمِعَ لِأَنَّ مَنْ عَصَى رَسُولًا عَصَى جَمِيع الرُّسُل لاشتراكهم في أصل ما جاؤوا بِهِ وَهُوَ التَّوْحِيد {وَاتَّبَعُوا} أَيْ السَّفَلَة {أَمْر كُلّ جُبَار عَنِيد} مُعَانِد لِلْحَقِّ مِنْ رُؤَسَائِهِمْ.

وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠).

{وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَة} مِنْ النَّاس {ويوم القيامة} لعنة على رؤوس الْخَلَائِق {أَلَا إنَّ عَادًا كَفَرُوا} جَحَدُوا {رَبّهمْ ألا بعدا} من رحمة الله {لعاد قوم هود}[1].

(١) قوله تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} [هود: ٥٠]، أي:"وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحًا، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا".

=

=

قال ابن كثير:"يقول تعالى: ولقد أرسلنا، {إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا}".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هودًا".

قال الزجاج:"وقيل {أخاهم}، من جهتين:

إحداهما: أنه منهم وبين بلسانهم.

والأخرى: أنه أخوهم من ولد آدم، بشر مثلهم".

قال السدي:"إن عادا كانوا باليمن والأحقاف هي الرمال فأتاهم فوعظهم وذكرهم بما قص الله في القرآن فكذبوه وكفروا وسألوه أن يأتيهم بالعذاب".

وهذه الأممُ يَقُصُّ اللهُ خبرَها على هذه الأمةِ لتستفيدَ من ذلك فوائدَ عظيمةً (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ) فيخافُ المكذبونَ للرسلِ الجاحدونَ بآياتِ اللهِ أن ينزلَ بهم مِثْلُ ما نَزَلَ بأولئك من الْمَثُلاَتِ، ومن عذابِ اللهِ المستأصلِ المتصلِ بعذابِ النارِ، وكذلك يُعَلِّمُ الناسَ الآدابَ، وآدابُ الدعاةِ إلى اللهِ في لِينِهِمْ وَعَطْفِهِمْ، وَلِينِ كَلاَمِهِمْ، وكرمِ مخاطبتِهم، وعدمِ بذاءتِهم وكلامِهم بكلامِ الجاهلين.

- وعاد قبيلة عظيمة، وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العَمَد في البر، كما قال تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ) وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ).

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل.

قال تعالى (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ).

- قال ابن كثير: هذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هودا عليه السلام، دفن

=

=

هناك، وقد كان من أشرف قومه نسبا؛ لأن الرسل صلوات الله عليهم إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شُدّد خلقهم شُدِّد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيبًا للحق؛ ولهذا دعاهم هود عليه السلام، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

- قوله تعالى (أخا هودًا) أي: أخاهم في النسب لا في الدين خلافًا لمن زعم أن أصله ليس منهم.

- قال الرازي: اتفقوا على أن هودًا ما كان أخًا لهم في الدين.

- والسر في التعبير بالأخوة لهم: ليزداد التشنيع عليهم، لأنه منهم يعلمون صدقه وثقته وشرفه.

- قال الآلوسي: وحكمة كون النبي يبعث إلى القوم منهم أنهم أفهم لقوله من قول غيره وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله.

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [هود: ٥٠]، أي:"قال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده، ليس لكم من إله يستحق العبادة غيره جل وعلا، فأخلصوا له العبادة".

كل دعوات الرسل هي مضمون (لا إله إلا الله) التي قام عليها أمر السماوات والأرض، وخلقت من أجلها الجنة والنار، ولهذا كل رسول يبدأ قومه بالدعاء إليها (مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أي: ليس لكم معبود يستحق منكم العبادة غيره، لأنه الخالق الرازق المدبر.

قال ابن كثير:"آمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهيا لهم عن عبادة الأوثان".

قال الطبري:"فقال لهم: «يا قوم اعبدوا الله» وحده لا شريك له، دون ما تعبدون من دونه من الآلهة والأوثان، ليس لكم معبود يستحق العبادة عليكم غيره،

=

=

فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالألوهة".

عن محمد بن إسحاق:"وكان من حديث عاد فيها بلغني والله أعلم أنهم كانوا قوما عربا فبعث الله إليهم هودا وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا فأمرهم أن يوحدوا الله ﷻ".

قوله تعالى: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ} [هود: ٥٠]، أي:"فما أنتم إلا كاذبون في إشراككم بالله".

والافتراء: الكذب المتعمد الذي لا شبهة لصاحبه في النطق به.

قال الطبري:"يقول: ما أنتم في إشراككم معه الآلهة والأوثان إلا أهل فرية مكذبون، تختلقون الباطل، لأنه لا إله سواه".

قال البيضاوي: أي:"على الله باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء".

قال ابن كثير:"افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة".

قوله تعالى: {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} [هود: ٥١]، أي:"يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله وترك عبادة الأوثان أجرًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هود لقومه: يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله وخلع الأوثان والبراءة منها، جزاءً وثوابًا".

قال عطاء بن دينار:"لا أسئلكم على ما جئتكم به أجرا".

قال ابن عباس:"لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجرا يقول عرضا من عرض الدنيا".

قوله تعالى: {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي} [هود: ٥١]، أي:"ما أجري على دعوتي لكم إلا على الله الذي خلقني".

قال الطبري:"يقول: إن ثوابي وجزائي على نصيحتي لكم، ودعائكم إلى الله، إلا على الذي خلقني".

=

=

قال الشيخ محمد رشيد رضا: أي: "إلا على الذي خلقني على الفطرة السليمة من هذه البدع الوثنية التي ابتدعها قوم نوح".

قال قتادة:"{فطرني}، أي: خلقني".

قال البيضاوي:"{يا قوم لا أسئلكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني}، خاطب كل رسول به قومه إزاحة للتهمة وتمحيضا للنصيحة، فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع".

- ومقصده من هذا القول، إزالته ما عسى أن يكون قد حاك في نفوسهم، من أنه ما دعاهم إلى ما دعاهم إليه، إلا لأنه رجل يبتغى منهم الأجر الذي يجعله موسرا فيهم.

- قوله (إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي) كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي).

فقوله (إلا الذي فطرني) ولم يقل إلا الله لفائدتين:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة، لأنه كما أنه متفرد بالخلق، فيجب أن ينفرد بالعبادة.

والثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام، ولأنها لم تفطركم حتى تعبدوها، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات.

- قال بعض العلماء: إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم، كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ) وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ).

وقيل: ليذكرهم بذلك نعمته عليهم.

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [هود: ٥١]، أي:"أفلا تعقلون فتميِّزوا بين الحق

=

=

والباطل".

قال البيضاوي: أي:"أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ".

قال الزمخشري: أي:"إذ تردون نصيحة من لا يطلب عليها أجرا إلا من الله. وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك".

قال الطبري:"يقول: أفلا تعقلون أني لو كنت ابتغي بدعايتكم إلى الله غير النصيحة لكم، وطلب الحظ لكم في الدنيا والآخرة، لالتمست منكم على ذلك بعض أعراض الدنيا، وطلبت منكم الأجر والثواب؟".

وقال في سورة الأعراف (أَفَلاَ تَتَّقُونَ) أي: أفلا تخافون عذاب الله فتبتعدوا عن طريق الشرك والضلال لتنجوا من عقابه.

- قال أبو حيان: وفي قوله (أَفَلا تَتَّقُونَ) استعطاف وتحضيض على تحصيل التقوى، ولما كان ما حل بقوم نوح من أمر الطوفان واقعة لم يظهر في العالم مثلها قال لهم: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ وواقعة هود كانت مسبوقة بواقعة نوح وعهد الناس قريب بها فاكتفى هود بقوله لهم: أَفَلا تَتَّقُونَ، والمعنى تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله وعبدوا غيره حل بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خبره في الدنيا، فقوله: أَفَلا تَتَّقُونَ إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة.

قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ} [هود: ٥٢]، أي:"ويا قوم اطلبوا مغفرة الله والإيمان به".

الاستغفار: طلب المغفرة من الله- تعالى- وعدم المؤاخذة على الخطايا:

والتوبة: العزم على الإقلاع عن الذنب، مع الندم على ما حصل منه في الماضي.

أي: ويا قوم استغفروا ربكم مما فرط منكم من شرك وعصيان، ثم عودوا إليه بالتوبة الصادقة النصوح.

=

=

قال الزمخشري:"قيل: {استغفروا ربكم}: آمنوا به".

قال البيضاوي: أي:"اطلبوا مغفرة الله بالإيمان".

قال الطبري:"يقول: آمنوا به حتى يغفر لكم ذنوبكم، و «الاستغفار»: هو الإيمان بالله في هذا الموضع، لأن هودًا ﷺ إنما دعا قومه إلى توحيد الله ليغفر لهم ذنوبهم، كما قال نوح لقومه: {اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [سورة نوح: ٣: ٤]".

قال الزجاج:"وكان قوم هود - أعني عادا - أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التي هي بين الشام واليمن، فدعاهم هود إلى توحيد الله واستغفاره وترك عبادة الأوثان، فلم يطيعوه وتوعدهم بالعذاب فأقاموا على كفرهم، فبعث الله عليهم الريح، فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم وتقطعهم عضوا عضوا".

قال الشعبي:"خرج عمر بن الخطاب يستغفر فما زاد على الاستغفار حتى رجع، قالوا: ما رأيناك استسقيت قال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر ثم قرأ: {ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم}".

قوله تعالى: {ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} [هود: ٥٢]، أي:"ثم توبوا إليه من ذنوبكم".

قال البيضاوي: أي:"ثم توسلوا إليها بالتوبة وأيضا التبري من الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله والرغبة فيما عنده".

قال الزمخشري: أي:"من عبادة غيره، لأن التوبة لا تصلح إلا بعد الإيمان".

قال الطبري:"يقول: ثم توبوا إلى الله من سالف ذنوبكم وعبادتكم غيره بعد الإيمان به".

قال الزجاج:"«التوبة»: الندم على ما سلف، والعزم على ترك العود في الذنوب.

=

=

والإقامة على أداء الفرائض".

قوله تعالى: {يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا} [هود: ٥٢]، أي:"فإنكم إن فعلتم ذلك يرسل المطر عليكم متتابعًا كثيرًا، فتكثر خيراتكم".

قال البيضاوي: أي:"كثير الدر".

قال الطبري:"يقول: فإنكم إن آمنتم بالله وتبتم من كفركم به، أرسل قَطْر السماء عليكم يدرَّ لكم الغيثَ في وقت حاجتكم إليه، وتحَيَا بلادكم من الجدب والقَحط".

وفي قوله تعالى: {يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا} [هود: ٥٢]، وجوه:

أحدها: أنه المطر في إبانه، قاله هارون التيمي.

عن هارون التيمي في قوله: "{يرسل السماء عليكم مدرارا}، قال: المطر".

الثاني: المطر المتتابع، قاله ابن عباس.

عن ابن عباس قوله: "{مدرارا}، قال: يتبع بعضه بعضا".

وعن ابن زيد: "{يرسل السماء عليكم مدرارا}، قال: يدر ذلك عليهم مطرا مطرا".

والثالث: يُدرُّه عند الحاجة. أفاده الماوردي.

والرابع: يُدرُّ به البركة، وهو مأخوذ من: «درور اللبن من الضرع». أفاده الماوردي.

قال الزجاج:"كان أصابهم جدب فاعلمهم أنهم إن استغفروا ربهم وتابوا أرسل السماء عليهم مدرارا".

قال الزمخشري:"«المدرار»: الكثير الدرور، كالمغزار. وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوة، لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حراصا عليها أشد الحرص، فكانوا

=

=

أحوج شيء إلى الماء. وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة، مستحرزين بها من العدو، مهيبين في كل ناحية".

قوله تعالى: {وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ} [هود: ٥٢]، أي:"ويزدكم قوة إلى قوتكم بكثرة ذرياتكم وتتابع النِّعم عليكم".

قال البيضاوي: أي:"ويضاعف قوتكم".

وفي قوله تعالى: {وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ} [هود: ٥٢] وجوه:

أحدها: يعني: شدة إلى شدتك، قاله مجاهد.

وقال ابن زيد:"جعل لهم قوة فلو أنهم أطاعوه زادهم قوة إلى قوتهم، وذكر لنا أنه إنما قيل لهم: {ويزدكم قوة إلى قوتكم}، قال: إنه قد كان انقطع النسل عنهم سنين، فقال هود لهم: إن آمنتم بالله أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد، لأن ذلك من القوة".

قال الزجاج:"يجوز أن يكون: ويزدكم قوة في أبدانكم".

الثاني: خصبًا إلى خصبكم، قاله الضحاك.

الثالث: عزًا إلى عزكم بكثرة عددكم وأموالكم، حكاه الماوردي عن علي بن عيسى.

الرابع: أنه ولد الولد، قاله عكرمة.

والخامس: يزدكم قوة في إيمانكم إلى قوتكم في أبدانكم. أفاده الماوردي.

السادس: أراد القوة في المال. حكاه الزمخشري.

السابع: أراد القوة على النكاح.

قال الزمخشري:"وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم".

قال البيضاوي:"قيل حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الأمطار وتضاعف القوة

=

=

بالتناسل".

عن الحسن بن على رضى الله عنهما:"أنه وفد على معاوية، فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال: إنى رجل ذو مال ولا يولد لي، فعلمني شيئا لعل الله يرزقني ولدا، فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة، فولد له عشرة بنين، فبلغ ذلك معاوية فقال: هلا سألته مم قال ذلك، فوفد وفدة أخرى، فسأله الرجل فقال: ألم تسمع قول هود عَلَيْهِ السَّلَامُ {وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُم} ، وقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: {وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِين} ".

قوله تعالى: {وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [هود: ٥٢]، أي:"ولا تُعرضوا عما دعوتكم إليه مصرِّين على إجرامكم".

قال الزمخشري: أي:"ولا تعرضوا عنى وعما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه مجرمين مصرين على إجرامكم وآثامكم".

قال الطبري:"يقول: ولا تدبروا عما أدعوكم إليه من توحيد الله، والبراءة من الأوثان والأصنام {مجرمين}، يعني: كافرين بالله".

قوله تعالى: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ} [هود: ٥٣]، أي:"قالوا: يا هود ما جئتنا بحجة واضحة على صحة ما تدعونا إليه".

قال البيضاوي: أي:"بحجة تدل على صحة دعواك وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات".

قال الطبري: أي:"بتاركي عبادتهم، صادرين عن قولك".

- قال ابن عطية: ونفوا أن تكون معجزاته آية بحسب ظنهم وعماهم عن الحق، كما جعلت قريش القرآن سحرًا وشعرًا ونحو هذا، وقد قال رسول الله ﷺ (ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر) الحديث، وهذا يقضي بأن هودًا وغيره من الرسل لهم معجزات وإن لم يعين لنا بعضه.

=

=

- قال أبو حيان: وقد كذبوا في ذلك وبهتوه كما كذبت قريش في قولهم (لولا أنزل عليه آية من ربه) وقد جاءهم بآيات كثيرة، أو لعمائهم عن الحق وعدم نظرهم في الآيات اعتقدوا ما هو آية ليس بآية فقالوا: ما جئتنا ببينة تلجئنا إلى الإيمان، وإلا فهود وغيره من الأنبياء لهم معجزات وإن لم يعين لنا بعضها، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر.

قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ} [هود: ٥٣]، أي:"وما نحن بتاركي آلهتنا التي نعبدها من أجل قولك".

قال البيضاوي: أي:"بحجة تدل على صحة دعواك وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات".

قال الطبري:"يقول: وما نحن بتاركي آلهتنا، يعني: لقولك: أو من أجل قولك".

قال السعدي:"أي: لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك، الذي ما أقمت عليه بينة بزعمهم".

قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [هود: ٥٣]، أي:"وما نحن بمصدِّقين لك فيما تدَّعيه".

قال الطبري:"يقول: قالوا: وما نحن لك بما تدعي من النبوة والرسالة من الله إلينا بمصدِّقين".

عن سعيد، بن جبير قوله: "{بمؤمنين}، قال: بمصدقين".

قال السعدي:"وهذا تأييس منهم لنبيهم، هود عليه السلام، في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون".

قال البيضاوي:"{وما نحن لك بمؤمنين}: إقناط له من الإجابة والتصديق".

قوله تعالى: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤)} [هود: ٥٤]

=

=

قال الطبري:"وهذا خبر من الله تعالى ذكره، عن قول قوم هود: أنهم قالوا له، إذ نصح لهم ودعاهم إلى توحيد الله وتصديقه، وخلع الأوثان والبراءة منها: لا نترك عبادة آلهتنا، وما نقول إلا أن الذي حملك على ذمِّها والنهي عن عبادتها، أنه أصابك منها خبَلٌ من جنون".

قال أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ١٠: ما عراك: أي ما نزل بك وما ألم بك ونحو ذلك، ومنه قول الله تبارك وتعالى: {إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء}.

وقال الشوكاني: ({إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء} أي ما نقول إلا أنه أصابك بعض آلهتنا التي تعيبها وتسفه رأينا في عبادتها بسوء: بجنون، حتى نشأ عن جنونك ما تقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها، يقال: عراه الأمر واعتراه: إذا ألم به).

قال الضحاك:"يقولون: نخشى أن يصيبك من آلهتنا سوء، ولا نحب أن تعتريك، يقولون: يصيبك منها سوء".

قال الزجاج:"أي: ما نقول إلا مسك بعض أصنامنا بجنون، بسبك إياها".

قال ابن زيد:"يقولون: اختلَط عقلك فأصابك هذا مما صنعت بك آلهتنا".

عن ابن عباس قوله: "{إن تقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء}، قال: تصيبك آلهتنا بالجنون".

عن مجاهد: "{اعتراك بعض آلهتنا بسوء}، قال: أصابتك الأوثان بجنون".

عن قتادة قوله: "{إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء}، قال: إنما تصنع هذا بآلهتنا أنها أصابتك بسوء".

قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} [هود: ٥٤]، أي:"قال لهم: إني أُشهد الله على ما أقول، وأُشهدكم على أنني بريء مما تشركون".

=

=

قال الطبري:"فقال هود لهم: إني أشهد الله على نفسي وأشهدكم أيضًا أيها القوم، أني بريء مما تشركون في عبادة الله".

قال البيضاوي:"أجاب به عن مقالتهم الحمقاء بأن أشهد الله تعالى على براءته من آلهتهم وفراغه عن إضرارهم تأكيدا لذلك وتثبيتا له، وأمرهم بأن يشهدوا عليه استهانة بهم".

قال أبو حيان:"وسمى الأصنام شركاءهم من حيث أن لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء الله تعالى".

قال السمعاني:"فإن قيل: كيف قال للمشركين: {واشهدوا} ولا شهادة لهم؟

قلنا: هذا مذكور على طريق المبالغة في الحجة، لا على طريق إثبات الشهادة لهم".

قوله تعالى: {مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥)} [هود: ٥٥]

أي: مِن دون الله من الأنداد والأصنام، فانظروا واجتهدوا أنتم ومَن زعمتم من آلهتكم في إلحاق الضرر بي، ثم لا تؤخروا ذلك طرفة عين.

قوله تعالى: {مِنْ دُونِهِ} [هود: ٥٥]، أي:"مِن دون الله من الأنداد والأصنام".

قال البغوي:"يعني: الأوثان".

قال النسفي:"أي: من إشراككم آلهة من دونه".

قوله تعالى: {فَكِيدُونِي جَمِيعًا} [هود: ٥٥]، أي:"فانظروا واجتهدوا أنتم ومَن زعمتم من آلهتكم في إلحاق الضرر بي".

قال الطبري:"يقول: فاحتالوا أنتم جميعًا وآلهتكم في ضري ومكروهي".

عن ابن إسحاق، قوله: "{فكيدوني جميعا}، أي: فكيدوني أنتم ومن معكم جميعا".

قال السمعاني:"«الكيد»: احتيال بشر. وهذا القول معجزة لهود صلوات الله عليه

=

=

فإنه أمرهم أن يحتالوا بكل حيلة لإيصال مكروه إليه، ومنعهم الله تعالى عن ذلك فلم يقدروا عليه، وهذا مثل قول نوح في سورة «يونس»: {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ} [يونس: ٧١]".

قوله تعالى: {ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ} [هود: ٥٥]، أي:"ثم لا تؤخروا ذلك طرفة عين".

قال الطبري:"يقول: ثم لا تؤخرون ذلك، فانظروا هل تنالونني أنتم وهم بما زعمتم أن آلهتكم نالتني به من السوء؟".

قال الزمخشري: أي:"من غير إنظار، فإنى لا أبالى بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرتكم وإن تعاونتم على وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضرني آلهتكم، وما هي إلا جماد لا تضر ولا تنفع، وكيف تنتقم منى إذا نلت منها وصددت عن عبادتها، بأن تخبلنى وتذهب بعقلي".

قال السعدي:"وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور، بأي طريق كان، وهو غير مكترث منهم، ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدرون أن ينالوه بشيء من السوء، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون".

قال البيضاوي: أي:"وأن يجتمعوا على الكيد في إهلاكه من غير إنظار حتى إذا اجتهدوا فيه ورأوا أنهم عجزوا عن آخرهم وهم الأقوياء الأشداء أن يضروه لم يبق لهم شبهة أن آلهتهم التي هي جماد لا يضر ولا ينفع لا تتمكن من إضراره انتقاما منه، وهذا من جملة معجزاته فإن مواجهة الواحد الجم الغفير من الجبابرة الفتاك العطاش إلى إراقة دمه بهذا الكلام ليس إلا لثقته بالله وتثبطهم عن إضراره ليس إلا بعصمته إياه".

فأنت تراه في هذه الآية الكريمة يعلن احتقاره لآلهتهم، وبراءته من شركهم، واستخفافه.

=

=

- وهذا من أعظم الآيات، أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشًا إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقته بربه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم.

- قال ابن كثير: وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جَمَاد لا تسمع ولا تبصر، ولا تُوالي ولا تُعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

- وقال القرطبي: قوله تعالى عن هود (ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ) أي لا تؤخرون، وهذا القول مع كثرة الأعداء يدلّ على كمال الثقة بنصر الله تعالى.

وهو من أعلام النبوّة، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه: فَكِيدُونِي جَمِيعًا.

وكذلك قال النبي ﷺ لقريش، وقال نوح ﷺ (فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُم).

- وقال ابن القيم:... حتَّى إِنَّ مِنْ أَخْفَى آيَاتِ الرُّسُلِ آيَاتُ هُودٍ عليه السلام، حَتَّى قَالَ لَهُ قَوْمُهُ (يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) وَمَعَ هَذَا فَبَيِّنَتُهُ مِنْ أَظْهَرِ الْبَيِّنَاتِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ (إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ: أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا يُخَاطِبُ أُمَّةً عَظِيمَةً بِهَذَا الْخِطَابِ، غَيْرَ جَزِعٍ وَلَا فَزِعٍ، وَلَا خَوَّارٍ، بَلْ وَاثِقٌ مِمَّا قَالَهُ جَازِمٌ بِهِ، قَدْ أَشْهَدَ اللهَ أَوَّلًا عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ، وَمِمَّا هُمْ عَلَيْهِ إِشْهَادَ وَاثِقٍ بِهِ، مُعْتَمِدٍ عَلَيْهِ، مُعْلِمٍ لِقَوْمِهِ: أَنَّهُ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُسَلِّطِهِمْ عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ - إِشْهَادَ مُجَاهِرٍ لَهُمْ بِالْمُخَالَفَةِ -: أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِمْ وَآلِهَتِهِمْ، الَّتِي يُوَالُونَ عَلَيْهَا وَيُعَادُونَ، وَيَبْذُلُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي نُصْرَتِهَا.

=

=

ثُمَّ أَكَّدَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِالِاسْتِهَانَةِ بِهِمْ، وَاحْتِقَارِهِمْ وَازْدِرَائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَوْ يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ عَلَى كَيْدِهِ، وَشِفَاءِ غَيْظِهِمْ مِنْهُ، ثُمَّ يُعَالِجُونَهُ وَلَا يُمْهِلُونَهُ، وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ أَضْعَفُ وَأَعْجَزُ وَأَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّكُمْ لَوْ رُمْتُمُوهُ لَانْقَلَبْتُمْ بِغَيْظِكُمْ مَكْبُوتِينَ مَخْذُولِينَ.

ثُمَّ قَرَّرَ دَعْوَتَهُ أَحَسنَ تَقْرِيرٍ، وَبَيَّنَ أَنَّ رَبَّهُ تَعَالَى وَرَبَّهُمْ، الَّذِي نَوَاصِيهِمْ بِيَدِهِ: هُوَ وَلِيُّهُ وَوَكِيلُهُ، الْقَائِمُ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَلَا يَخْذُلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَآمَنَ بِهِ، وَلَا يُشْمِتُ بِهِ أَعْدَاءَهُ، وَلَا يَكُونُ مَعَهُمْ عَلَيْهِ، فَإِنَّ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ - فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ - يَمْنَعُ ذَلِكَ وَيَأْبَاهُ.

وقال الخازن: (قال) يعني قال هود مجيبًا لهم (إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا) أي: واشهدوا أنتم أيضًا علي (أني بريء مما تشركون من دونه) يعني هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها (فكيدوني جميعًا) يعني احتالوا في كيدي وضري أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضر وتنفع فإنها لا تضر ولا تنفع (ثم لا تنظرون) يعني ثم لا تمهلون، وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام وذلك أنه كان وحيدًا في قومه فما قال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت إلا لثقته بالله وتوكله عليه.

عن محمد بن مهاجر قال: كان عمر جالسا وهو يشق عليه الجلوس فكان متكئا وعنده يومئذ سعيد، بن خالد، وعنبسة بن سعيد، وأناس من بني عمه فقال: يا بني عم أسألكم صنع أما لكم كذا قالوا بلى قال سعيد، بن خالد، وكانت فيه أعرابية والله إنك لتريد أمرا لا تناله حتى تنال السماء قال: فاستوى قاعدا ثم قال: {فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون}، قال: فقال عنبسة بن سعيد، يا أمير المؤمنين أما لنا قرابة أما لنا حق قال: بلى ولكني والله ما لكم فيه إلا كالرجل في حضرموت راعي غنم قال: فلما سمعوها افترقوا ولحقوا بمنازلهم".

=

=

قوله تعالى: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ} [هود: ٥٦]، أي:"إني فوضت أمرى إلى الله الذي هو ربي وربكم، ومالك أمرى وأمركم، والذي لا يقع في هذا الكون شيء الا بإرادته ومشيئته".

وفي قوله (رَبِّي وَرَبِّكُمْ) مواجهة لهم بالحقيقة التي ينكرونها، لإفهامهم أن إنكارهم لا قيمة له، وأنه إنكار عن جحود وعناد.. فهو سبحانه ربهم سواء أقبلوا ذلك أم رفضوه.

قال الأزهري: الناصية عند العرب منبت الشعر في مقدم الرأس ويسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته.

واعلم أن العرب إذا وصفوا إنسانًا بالذلة والخضوع قالوا: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، أي أنه مطيع له، لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا في القرآن بما يعرفون فقوله (مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) أي ما من حيوان إلا وهو تحت قهره وقدرته، ومنقاد لقضائه وقدره.

قال الطبري:"يقول: إني على الله الذي هو مالكي ومالككم، والقيِّم على جميع خلقه، توكلت من أن تصيبوني، أنتم وغيركم من الخلق بسوء".

قال البيضاوي:"المعنى: أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لن تضروني فإني متوكل على الله واثق بكلاءته وهو مالكي ومالككم لا يحيق بي ما لم يرده، ولا تقدرون على ما لم يقدره".

قوله تعالى: {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} [هود: ٥٦]، أي:"فليس من شيء يدِبُّ على هذه الأرض إلا والله مالكه، وهو في سلطانه وتصرفه".

قال الطبري:"فإنه ليس من شيء يدب على الأرض، إلا والله مالكه، وهو في قبضته وسلطانه. ذليلٌ له خاضعٌ".

=

=

قال الزجاج:"أي: هي في قبضته، وتنالها بما تشاء قدرته".

قال البيضاوي:"أي: إلا وهو مالك لها قادر عليها يصرفها على ما يريد بها والأخذ بالنواصي تمثيل لذل".

عن صفوان بن عمرو، عن يفع بن عبد الكلاعي:"أنه قال في قوله: {ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم}، قال: فيأخذ بنواصي عباده فيلين للمؤمن حتى يكون لهم ألين من الوالد بولده، ويقال للكافر: ما غرك بربك الكريم".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٦]، أي:"على عدل، وقسط، وحكمة، وحمد في قضائه وقدره، في شرعه وأمره، وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التي يحمد عليها ويثنى عليه بها".

قال البيضاوي:"أي: أنه على الحق والعدل، لا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم".

قال الطبري:"يقول: إن ربي على طريق الحق، يجازي المحسن من خلقه بإحسانه والمسيء بإساءته، لا يظلم أحدًا منهم شيئًا ولا يقبل منهم إلا الإسلام والإيمان به".

قال الزجاج:"أي: هو سبحانه وإن كانت قدرته تنالها بما شاء، فهو لا يشاء إلا العدل".

عن مجاهد: "{إن ربي على صراط مستقيم}، الحقّ".

- قال الخازن: يعني إن ربي وإن كان قادرًا وأنتم في قبضته كالعبد الذليل فإنه سبحانه وتعالى لا يظلمكم ولا يعمل إلا بالإحسان والإنصاف والعدل فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه.

- وقال ابن القيم: أَيْ مَعَ كَوْنِهِ سُبْحَانَهُ آخِذًا بِنَوَاصِي خَلْقِهِ وَتَصْرِيفِهِمْ كَمَا يَشَاءُ

=

=

فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَا يَتَصَرّفُ فِيهِمْ إلّا بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالرّحْمَةِ. فَقَوْلُهُ مَاضٍ فِيّ حُكْمُك مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ (مَا مِنْ دَابّةٍ إلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) وَقَوْلُهُ عَدْلٌ فِيّ قَضَاؤُك مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ (إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

- قال ابن القيم: وَلذَا قَالَ هود لِقَوْمِهِ (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي على صِرَاط مُسْتَقِيم)، وَقَوله (مَاض فيَّ حكمك عدل فِي قضاؤك) تضمّن هَذَا الْكَلَام أمريْن:

أَحدهمَا: إمضاء حكمه فِي عَبده، وَالثَّانِي: يتضمّن حَمده وعدله وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَهُ الْملك وَله الْحَمد.

وَهَذَا معنى قَول نبيّه هود (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) ثمَّ قَالَ (إِنَّ رَبِّي على صِرَاط مُسْتَقِيم) أَي: مَعَ كَونه مَالِكًا قاهرًا متصرّفا فِي عباده نواصيهم بِيَدِهِ فَهُوَ على صِرَاط مُسْتَقِيم وَهُوَ الْعدْل الَّذِي يتصرّف بِهِ فيهم فَهُوَ على صِرَاط مُسْتَقِيم فِي قَوْله وَفعله وقضائه وَقدره وَأمره وَنَهْيه وثوابه وعقابه فخبره كُله صدق وقضاؤه كلّه عدل وَأمره كُله مصلحَة وَالَّذِي نهى عَنهُ كُله ومفسدة وثوابه لمن يسْتَحق الثَّوَاب بفضله وَرَحمته وعقابه لمن يسْتَحق الْعقَاب بعدله وحكمته.

قال المراغي:"هذا جواب منه عن مقالتهم وهو يتضمن جملة أمور:

١ - البراءة من إشراكهم الذي اقترفوه ولا حقيقة له.

٢ - إشهاد الله على ذلك ثقة منه بأنه على بينة من ربه.

٣- إشهادهم أيضا على ذلك إعلاما منه بعدم مبالاته بهم وبما يزعمون من قدرة شركائهم على إيذائه وضرره:

٤ - طلبه منهم أن يجمعوا كلهم على الكيد له والإيقاع به بلا إمهال ولا تأخير إن استطاعوا.

وفى هذا دليل واضح على أنه لا يخافهم ولا يخاف آلهتهم، وقد صدرت مثل هذه

=

=

المقالة عن نوح عليه السلام إذ قال «فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون» كما لقن الله نبيه مثل هذا بقوله «قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون».

٥- عدم الخوف منهم ومن آلهتهم، إذ وكل أمر حفظه وخذلانهم إلى ربه وربهم، ومالك أمره وأمرهم، المتصرف فى كل مادب على وجه الأرض والمسخر له وهو سبحانه مطلع على أمور العباد، مجاز لهم بالثواب والعقاب، كاف لمن اعتصم به، وهو لا يسلط أهل الباطل من أعدائه على أهل الحق من رسله ولا يفوته ظالم".

قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} [هود: ٥٧]، أي:"فإن تُعرضوا عما أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هود لقومه: {فإن تولوا}، يقول: فإن أدبروا معرضين عما أدعوهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الأوثان".

عن ابن عباس:"{فإن تولوا}، يعني: الكفار".

قوله تعالى: {فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ} [هود: ٥٧]، أي:"فقد أبلغتكم رسالة ربي إليكم، وقامت عليكم الحجة، وفعلت ما أمرت به، وبذلت ما في وسعي، لأبلغكم ما أرسلني الله به إليكم".

قال الطبري: أي:"{فقد أبلغتكم} أيها القوم {ما أرسلت به إليكم}، وما على الرسول إلا البلاغ".

قال البيضاوي: أي: "فقد أديت ما علي من الإبلاغ وإلزام الحجة فلا تفريط مني ولا عذر لكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم".

قوله تعالى: {وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [هود: ٥٧]، أي:"وحيث لم تؤمنوا بالله فسيهلككم ويأتي بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم، ويخلصون لله العبادة".

=

=

أي: أن ربي غني عنكم، فلو شاء لأماتكم على كفركم فلقيتم جزاءكم في الآخرة، وجعل في الأرض خلفًا غيركم، ولا تضرونه بذلك، وإنما تضرون أنفسكم.

- نستفيد من هذه الآية: أن معصية العاصين لا تضر الله شيئًا، كما يفهم منها أن طاعة الطائعين لا تنفع الخالق.

قال ﷺ (قال تعالى: يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني).

قال الطبري: أي:"يهلككم ربي، ثم يستبدل ربي منكم قومًا غيركم، يوحِّدونه ويخلصون له العبادة".

قال القرطبي:"أي: يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبدونه".

قال البيضاوي:"استئناف بالوعيد لهم بأن الله يهلكهم ويستخلف قوما آخرين في ديارهم وأموالهم، أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده القراءة بالجزم على الموضع كأنه قيل: وإن تتولوا يعذرني ربي ويستخلف".

قال ابن عباس: "ويخلق بعدكم من هو أطوع لله منكم".

عن أبي سعيد الخدري، قال: "«الخلف»: من بعد ستين سنة".

قوله تعالى: {وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا} [هود: ٥٧]، أي:"ولا تضرون الله شيئًا بإشراككم".

قال البيضاوي: أي:"من الضرر".

قال القرطبي:"أي: بتوليكم وإعراضكم".

قال الطبري:"يقول: ولا تقدرون له على ضرّ إذا أراد إهلاككم أو أهلككم، وقد قيل: لا يضره هلاكُكُم إذا أهلككم، لا تنقصونه شيئًا، لأنه سواء عنده كُنتم أو لم تكونوا".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} [هود: ٥٧]، أي:"إنه سبحانه رقيبٌ على كل شيء، وهو يحفظني من شركم ومكركم".

=

=

قال ابن كثير: "أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر".

قال الطبري:"يقول: إن ربي على جميع خلقه ذو حفظ وعلم، يقول: هو الذي يحفظني من أن تنالوني بسوء".

قال القرطبي:"أي: لكل شي حافظ.، {على} بمعنى اللام، فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء".

قال البيضاوي: أي:"رقيب فلا تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مجازاتكم، أو حافظ مستول عليه فلا يمكن أن يضره شيء".

قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا} [هود: ٥٨]، أي:"ولما جاء أمرنا بعذاب قوم هود".

قال البغوي: أي:"عذابنا".

قال البيضاوي: أي:"عذابنا أو أمرنا العذاب".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولما جاء قوم هود عذابُنا".

وقد أهلكهم الله بالريح العقيم.

قال تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ).

وقال تعالى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ).

وقال تعالى (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ. تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ).

وقال تعالى (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ).

=

=

(رِيحًا صَرْصَرًا) أي: ريحًا شديدة البرودة، شديدة الصوت. وهي الريح العقيم التي لا نفع فيها كما قال تعالى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ).

(العقيم) التي لا تنتج خيرًا.

(كالرميم) أي: كالشيء البالي الفاني.

(سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا) سبع ليال وثمانية أيام حسومًا: أي متتابعات بلا انقطاع مشؤومات نحسات.

(كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَة) أي: كأنهم جذوع وسيقان النخل التي قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض

- (خاوية) ميتة منقلعة من منابتها هامدة ساقطة على الأرض فهم أجساد بلا رؤوس.

قوله تعالى: {نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} [هود: ٥٨]، أي:"نجَّينا منه هودًا والمؤمنين".

قال الطبري:"نجينا منه هودًا والذين آمنوا بالله معه".

قال البغوي والبيضاوي:"وكانوا أربعة آلاف".

قوله تعالى: {بِرَحْمَةٍ مِنَّا} [هود: ٥٨]، أي:"بفضل منَّا عليهم ورحمة".

قال البغوي: أي:"بنعمة".

قال الطبري:"يعني: بفضل منه عليهم ونعمة".

- قال الخازن: وذلك أن العذاب إذا نزل قد يعم المؤمن والكفار فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه.

- وقال أبو حيان: والظاهر تعلق برحمة منا بقوله: نجينا أي، نجيناهم بمجرد رحمة من الله لحقتهم، لا بأعمالهم الصالحة.

=

=
أو كنى بالرحمة عن أعمالهم الصالحة، إذ توفيقهم لها إنما هو بسبب رحمته تعالى إياهم.
- وقال ابن عاشور: والباء في (برحمة منّا) للسببيّة، فكانت رحمة الله بهم سببًا في نجاتهم.
والمراد بالرحمة فضل الله عليهم لأنّه لو لم يرحمهم لشملهم الاستئصال فكان نقمة للكافرين وبَلوى للمؤمنين.
قوله تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} [هود: ٥٨]، أي:"ونجَّيناهم من عذاب شديد أحله الله بعادٍ فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنُهم".
ووصف العذاب بأنه غليظ، بهذا التصوير المحسوس، يتناسب كل التناسب مع جو هذه القصة، ومع ما عرف عن قوم هود من ضخامة في الأجسام، ومن تفاخر بالقوة.
قال تعالى (فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً).
وكان عذابهم كما جاء في آيات أخرى بالريح العقيم كما تقدم.
- قال بعض العلماء: المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى أنه تعالى كما أنجاهم من عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظًا لأنه أعظم من عذاب الدنيا.
قال الطبري:"يقول: نجيناهم أيضًا من عذاب غليظ يوم القيامة، كما نجيناهم في الدنيا من السخطة التي أنزلتها بعادٍ".
قال البغوي:"وهو الريح التي أهلك بها عادا، وقيل: العذاب الغليظ: عذاب يوم القيامة، أي: كما نجيناهم في الدنيا من العذاب كذلك نجيناهم في الآخرة".
قال البيضاوي:"{ونجيناهم من عذاب غليظ}: تكرير لبيان ما نجاهم منه وهو السموم، كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطع أعضاءهم، أو
=

=

المراد به تنجيتهم من عذاب الآخرة أيضا، والتعريض بأن المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ".

عن أبي مالك قوله: "{غليظا}، يعني: شديدا".

قوله تعالى: {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} [هود: ٥٩]، أي:"وتلك عاد كفروا بآيات الله".

أي: وتلك هي قصة قبيلة عاد مع نبيها هود- عليه السلام- وتلك هي عاقبتها وكانت الإشارة للبعيد تحقيرا لهم، وتهوينا من شأنهم بعد أن انتهوا، وبعدوا عن الأنظار والأفكار، وقد كانوا يقولون: من أشد منا قوة.

- قال الخازن: وتلك عاد رده إلى القبيلة وفيه إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بها.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وهؤلاء الذين أحللنا بهم نقمتنا وعذابنا، عادٌ، جحدوا بأدلة الله وحججه".

قال البيضاوي:"{وتلك عاد} أنث اسم الإشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم. {جحدوا بآيات ربهم}: كفروا بها".

قوله تعالى: {وَعَصَوْا رُسُلَهُ} [هود: ٥٩]، أي:"وعصوا رسوله هودًا".

قال الطبري: أي:"وعصوا رسله الذين أرسلهم إليهم للدعاء إلى توحيده واتباع أمره".

قال البيضاوي:"لأنهم عصوا رسولهم ومن عصى رسولا فكأنما عصي الكل لأنهم أمروا بطاعة كل رسول".

قال الصابوني: أي: "عصوا رسولهم هودًا وفيه تفظيع لحالهم وبيان أن عصيانهم له عصيانٌ لجميع الرسل السابقين واللاحقين، وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض".

=

=

قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [هود: ٥٩]، أي:"وأطاعوا أمر كل مستكبر على الله لا يقبل الحق ولا يُذْعن له".

قال البيضاوي:"يعني كبراءهم الطاغين، و «عنيد» من: عند عندا وعندا وعنودا، إذا طغى، والمعنى: عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم".

قال الطبري:"يعني: كلّ مستكبر على الله، حائد عن الحق، لا يُذعن له ولا يقبله، قال منه: "عَنَد عن الحق، فهو يعنِد عُنُودًا"، و"الرجل عَاند وعَنُود". ومن ذلك قيل للعرق الذي ينفجر فلا يرقأ: "عِرْق عاند": أي ضَارٍ، ومنه قول الراجز:

إِنِّي كَبِيرٌ لا أَطِيقُ العُنَّدَا"

قال قتادة:"العنيد: المشرك".

عن السدي، قوله: "{أمر كل جبار عنيد}، قال: المشاق".

قال مقاتل:"يعني: متعظما عن التوحيد، فهم الأتباع اتبعوا قول الكبراء في تكذيب هود، «عنيد»: يعني معرضا عن الحق، وكان هذا القول من الكبراء للسفلة فى سورة المؤمنين، «ما هذا» يعني: هودا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون من الشراب، وقال للأتباع {وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} ، يعني: لعجزة فهذا قول الكبراء للسفلة".

والجبار: هو الشخص المتعالي المتعاظم على الناس، المترفع عن الاستجابة للحق.

- قال الرازي: والمراد من الجبار المرتفع المتمرد العنيد العنود والمعاند، وهو المنازع المعارض.

- **قال القرطبي**: العنيد الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له.

أي: وتلك هي قصة قبيلة عاد مع نبيها، كفروا بآيات ربهم الدالة على صدق أنبيائه،

=

=

وعصوا رسله الذين جاءوا لهدايتهم، واتبع سفلتهم وعوامهم أمر كل رئيس متجبر متكبر معاند منهم، بدون تفكر أو تدبر.

- قال ابن عطية: قوله تعالى (وَعَصَوْا رُسُلَهُ) مع أنهم قد عصوا رسولًا واحدًا هو هود عليه السلام، للإشارة إلى أن معصيتهم لهذا الرسول كأنها معصية للرسل جميعًا، لأنهم قد جاءوا برسالة واحدة في جوهرها وهي: عبادة الله تعالى وحده، والتقيد بأوامره ونواهيه.

والإشارة أيضًا إلى ضخامة جرائمهم، وإبراز شناعتها حيث عصوا رسلًا لا رسولًا.

- قال ابن عطية: قوله تعالى (وَعَصَوْا رُسُلَهُ) شنعة عليهم وذلك أن في تكذيب رسول واحد تكذيب سائر الرسل وعصيانهم، إذ النبوات كلها مجمعة على الإيمان بالله والإقرار بربوبيته.

- وقال القرطبي: وإنما جمع هاهنا لأن من كذّب رسولًا واحدًا فقد كفر بجميع الرسل.

- وقال ابن عاشور: لأن تكذيبهم هودًا لم يكن خاصًا بشخصه لأنهم قالوا له (وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك) فكل رسول جاء بأمر ترك عبادة الأصنام فهم مكذبون به.

فجميع الأنبياء دعوتهم واحدة. وهي الدعوة إلى توحيد الله وترك الشرك.

ولذلك من كذب واحدًا من الرسل فقد كذب جميع الرسل.

ولهذا يقول تعالى في كل قصة (كذبت قوم نوح المرسلين). مع أن قوم نوح لم يأتهم إلا نوح.

وكذلك قال تعالى في عاد (كذبت عاد المرسلين).

وكذلك في ثمود (كذبت ثمود المرسلين).

=

=

قوله تعالى: {وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ} [هود: ٦٠]، أي:"وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله وسخطًا منه يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأتبع عاد قوم هود في هذه الدنيا غضبًا من الله وسخطةً يوم القيامة، مثلها، لعنةً إلى اللعنة التي سلفت لهم من الله في الدنيا".

قال البيضاوي:"أي: جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم في العذاب".

قال السدي:"لم يبعث نبي بعد عادا إلا لعنت عاد على لسانه".

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ} [هود: ٦٠]، أي:"ألا إن عادًا جحدوا ربهم وكذَّبوا رسله".

قال البيضاوي: أي:"جحدوه أو كفروا نعمه أو كفروا به، فحذف الجار".

قال الطبري:"وقيل: إن معنى: {كفروا ربهم}، كفروا نعمةَ ربهم".

قوله تعالى: {أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ} [هود: ٦٠]، أي:"ألا بُعْدًا وهلاكًا لعاد قوم هود؛ بسبب شركهم وكفرهم نعمة ربهم".

قال الطبري:"يقولُ: أبعدهم الله من الخير".

قال الزجاج:"معنى: «بعدا»، أي: بعدا من رحمة الله".

قال البيضاوي:"دعاء عليهم بالهلاك، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكي عنهم، وإنما كرر ألا وأعاد ذكرهم تفظيعا لأمرهم وحثا على الاعتبار بحالهم. {قوم هود} عطف بيان لـ «عاد»، وفائدته: تمييزهم عن «عاد» الثانية، عاد إرم، والإيماء إلى أن استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود".

جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكا حتى أرى منه لهواته، وإنما كان يبتسم، وقالت: وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه

=

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١).

{و} أَرْسَلْنَا {إِلَى ثَمُود أَخَاهُمْ} مِنْ الْقَبِيلَة {صَالِحًا قَالَ يَا قَوْم اُعْبُدُوا الله} وَحِّدُوهُ {مَا لَكُمْ مِنْ إلَه غَيْره هُوَ أَنْشَأَكُمْ} ابْتَدَأَ خَلْقكُمْ {مِنْ الْأَرْض} بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَم مِنْهَا {وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} جَعَلَكُمْ عُمَّارًا تَسْكُنُونَ بِهَا {فَاسْتَغْفِرُوهُ} مِنْ الشِّرْك {ثُمَّ تُوبُوا} ارْجِعُوا {إلَيْهِ} بِالطَّاعَةِ {إنَّ رَبِّي قَرِيب} مِنْ خَلْقه بِعِلْمِهِ {مُجِيب} لِمَنْ سَأَلَهُ.

قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢).

{قَالُوا يَا صَالِح قَدْ كُنْت فِينَا مَرْجُوًّا} نَرْجُو أَنْ تَكُون سَيِّدًا {قَبْل هَذَا} الَّذِي صَدَرَ مِنْك {أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُد مَا يَعْبُد آبَاؤُنَا} مِنْ الْأَوْثَان {وَإِنَّنَا لَفِي شَكّ مِمَّا تَدْعُونَا إلَيْهِ} مِنْ التَّوْحِيد {مُرِيب} مُوقِع فِي الريب.

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ

=

المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال: "يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا".

- قال بعض العلماء: وهذا تنبيه للكفار أن عادًا كفروا ربهم، فأهلكهم الله تعالى، فاحذروا كيلا يصيبكم بكفركم، ما أصابهم بكفرهم، ويقال (أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ) يعني: ينادي مناد يوم القيامة، لإظهار حالهم.

اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣).

{قَالَ يَا قَوْم أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْت عَلَى بَيِّنَة} بَيَان {مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَة} نُبُوَّة {فَمَنْ يَنْصُرنِي} يَمْنَعنِي {مِنْ الله} أَيْ عَذَابه {إِنْ عَصَيْته فَمَا تَزِيدُونَنِي} بِأَمْرِكُمْ لِي بِذَلِكَ {غَيْر تَخْسِير} تَضْلِيل.

وَيَاقَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤).

{وَيَا قَوْم هَذِهِ نَاقَة الله لَكُمْ آيَة} حَال عَامِله الْإِشَارَة {فَذَرُوهَا تَأْكُل فِي أَرْض الله وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ} عَقْر {فَيَأْخُذكُمْ عَذَاب قَرِيب} إنْ عَقَرْتُمُوهَا.

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥).

{فَعَقَرُوهَا} عَقَرَهَا قِدَار بِأَمْرِهِمْ {فَقَالَ} صَالِح {تَمَتَّعُوا} عِيشُوا {فِي دَاركُمْ ثَلَاثَة أَيَّام} ثُمَّ تَهْلَكُونَ {ذَلِكَ وَعْد غَيْر مَكْذُوب} فِيهِ.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦).

{فَلَمَّا جَاءَ أَمْرنَا} بِإِهْلَاكِهِمْ {نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} وَهُمْ أَرْبَعَة آلَاف {بِرَحْمَةٍ مِنَّا و} نجيناهم {مِن خِزْي يَوْمئِذٍ} بِكَسْرِ الْمِيم إعْرَابًا وَفَتْحهَا بِنَاء لِإِضَافَتِهِ إلَى مَبْنِيّ وَهُوَ الْأَكْثَر {إنَّ رَبّك هُوَ الْقَوِيّ الْعَزِيز} الْغَالِب.

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧).

{وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَة فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارهمْ جَاثِمِينَ} بَارِكِينَ عَلَى الرُّكَب مَيِّتِينَ.

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨).

{كَأَنْ} مُخَفَّفَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ كَأَنَّهُمْ {لَمْ يَغْنَوْا} يُقِيمُوا {فِيهَا} فِي

دَارهمْ {أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبّهمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودٍ} بِالصَّرْفِ وَتَرْكه عَلَى مَعْنَى الْحَيّ وَالْقَبِيلَة(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا} [هود: ٦١]، أي:"وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا نبيًا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد".

وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

قال تعالى (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ).

- قال الرازي: قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثمودًا لقلة مائها من الثمد، وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى، وقيل سميت ثمود لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

عن ابْنَ عُمَرَ قَالَ (مَرَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى الْحِجْرِ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ». ثُمَّ زَجَرَ فَأَسْرَعَ حَتَّى خَلَّفَهَا.

- قال ابن كثير: قوله تعالى (إِلَى ثَمُودَ) وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ مَدَائِنَ الْحِجْرِ بَيْنَ تَبُوكَ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانُوا بَعْدَ عَادٍ، فَبَعَثَ اللهُ مِنْهُمْ (أَخَاهُمْ صَالِحًا) فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْخَالِقِ الرَّازِقِ.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا".

قال الزجاج: المعنى:"وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا. و «ثمود»: لم ينصرف لأنه اسم قبيلة، ومن جعله اسما للحي صرفه وقد جاء في القرآن مصروفا: {أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ} [هود: ٦٨]".

=

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [هود: ٦١]، أي:"فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده ليس لكم من إله يستحق العبادة غيره جل وعلا، فأخلصوا له العبادة".

دعوته عليه السلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين، الأمر بعبادة اللّه، وبيان أنه ليس للعباد إله غير اللّه.

- قال ابن عاشور: "يدلّ على أنّ ثمود كانوا مشركين، وقد صُرح بذلك في آيات سورة هود وغيرها، والظّاهر أنّهم عبدوا الأصنام التي عبدتها عاد، لأنّ ثمود وعادًا أبناء نسب واحد، فيشبه أن تكون عقائدهم متماثلة".

قال الطبري:"فقال لهم: يا قوم، اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الآلهة، فما لكم من إله غيره يستوجب عليكم العبادة، ولا تجوز الألوهة إلا له".

قوله تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ} [هود: ٦١]، أي:"هو الذي بدأ خَلْقكم من الأرض بخلق أبيكم آدم منها".

قال أبو عبيدة:"أي: ابتدأكم فخلقكم منها".

قال الطبري:"يقول: هو ابتدأ خلقكم من الأرض، وإنما قال ذلك لأنه خلق آدم من الأرض، فخرج الخطاب لهم، إذ كان ذلك فعله بمن هم منه".

وفي قوله تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ} [هود: ٦١]، وجوه:

أحدها: خلقكم من الأرض، لأنكم من آدم وآدم من تراب، قاله السدي ، ومقاتل.

والثاني: معناه أنشأكم في الأرض.

والثالث: أنشأكم بنبات الأرض.

قوله تعالى: {وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١]، أي:"وجعلكم عُمَّارا للأرض".

قال الطبري:"يقول: وجعلكم عُمَّارًا فيها، فكان المعنى فيه: أسكنكم فيها أيام

=

حياتكم".

قال ابن كثير:"أي: جعلكم فيها عُمَّارا تعمرونها وتستغلونها، لسالف ذنوبكم".

وفي قوله تعالى: {وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١]، وجوه:

أحدها: معناه: أعمركم فيها بأن جعلكم فيها مدة أعماركم، قاله مجاهد ، من قولهم: أعمر فلان فلانًا داره فهي له عمرى.

قال أبو عبيدة:"مجازه: جعلكم عمّار الأرض، يقال: اعمرته الدار، أي جعلتها له أبدا وهى العمرى، وأرقبته: أسكنته إيّاها إلى موته".

الثاني: امركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها بناء مساكن وغرس أشجار حكاه الماوردي عن علي بن عيسى.

الثالث: أطال فيها أعمالكم، قال الضحاك"كانت أعماركم ألف سنة إلى ثلاثمائة سنة".

الرابع: استخلفكم فيها. قاله ابن زيد.

قوله تعالى: {فَاسْتَغْفِرُوهُ} [هود: ٦١]، أي:"فاسألوه أن يغفر لكم ذنوبكم".

قال الطبري:"يقول: اعملوا عملا يكون سببًا لستر الله عليكم ذنوبكم، وذلك الإيمان به، وإخلاص العبادة له دون ما سواه، واتباعُ رسوله صالح".

قوله تعالى: {ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} [هود: ٦١]، أي:"وارجعوا إليه بالتوبة النصوح".

قال الطبري:"يقول: ثم اتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم، إلى ما يرضاه ويحبه".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} [هود: ٦١]، أي:"إن ربي قريب لمن أخلص له العبادة، ورغب إليه في التوبة، مجيب له إذا دعاه".

قال الطبري:"يقول: إن ربي قريب ممن أخلص له العبادة ورغب إليه في التوبة، مجيبٌ له إذا دعاه".

قال الشنقيطي: ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا قَرِيبٌ يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي وَبَيَّنَ فِي

=

=

آيَةٍ أُخْرَى تَعْلِيقَ ذَلِكَ عَلَى مَشِيئَتِهِ جَلَّ وَعَلَا وَهِيَ قَوْلُهُ (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: التَّعْلِيقُ بِالْمَشِيئَةِ فِي دُعَاءِ الْكُفَّارِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ سِيَاقِ الْآيَةِ، وَالْوَعْدُ الْمُطْلَقُ فِي دُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَلَيْهِ فَدُعَاؤُهُمْ لَا يُرَدُّ، إِمَّا أَنْ يُعْطُوا مَا سَأَلُوا أَوْ يُدَّخَرَ لَهُمْ خَيْرٌ مِنْهُ أَوْ يُدْفَعَ عَنْهُمْ مِنَ السُّوءِ بِقَدْرِهِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْمُرَادُ بِالدُّعَاءِ الْعِبَادَةُ، وَبِالْإِجَابَةِ الثَّوَابُ، وَعَلَيْهِ فَلَا إِشْكَالَ.

قوله تعالى: {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا} [هود: ٦٢]، أي:"قالت ثمود لنبيِّهم صالح: لقد كنا نرجو أن تكون فينا سيدًا مطاعًا قبل هذا القول الذي قلته لنا".

قال البيضاوي: أي:"لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد أن تكون لنا سيدا ومستشارا في الأمور، أو أن توافقنا في الدين فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا عنك".

قال ابن كثير:"يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح، عليه السلام، وبين قومه، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم: {قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا}، أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت".

قال في التفسير الوسيط: "أي قال قوم صالح له بعد أن دعاهم لما يسعدهم: يا صالح لقد كنت فينًا رجلًا فاضلًا نرجوك لمهمات الأمور فينا لعلمك وعقلك وصدقك.. قبل أن تقول ما قلته، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا فيك، وصرت في رأينا رجلا مختل التفكير".

قال أهل العلم:"من أشدِّ مايفتن فيه بعض طلبة العلم الخوفُ على مكانتهم عند مجتمعهم إذا نهوهم عمَّا هم عليه من الباطل، بينما اليقين أن المداهنة لأهل الباطل هي عينُ البَوار في العاجل والآجل".

=

=

قوله تعالى: {أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} [هود: ٦٢]، أي:"أتنهانا أن نعبد الآلهة التي كان يعبدها آباؤنا؟".

قال ابن كثير:"وما كان عليه أسلافنا".

قوله تعالى: {وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [هود: ٦٢]، أي:"وإننا لفي شكٍّ مريب مِن دعوتك لنا إلى عبادة الله وحده".

قال البيضاوي: أي:"من التوحيد والتبري عن الأوثان".

قال ابن كثير: أي:"في شك كثير".

قال قتادة:"وكذبوا والله ما في الله شك في من فطر السماء والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وأظهر لكم من الآلاء والنعم المتظاهرة ما لا يشك في الله".

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [هود: ٦٣]، أي:"قال صالح لقومه: يا قوم أخبروني إن كنت على برهان من الله".

قال ابن كثير:"فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان من الله".

قال البيضاوي: أي: على" بيان وبصيرة، وحرف الشك باعتبار المخاطبين".

قوله تعالى: {وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً} [هود: ٦٣]، أي:"وآتاني منه النبوة والحكمة".

قال البيضاوي: أي:"نبوة".

قال الغرناطي: لـ " أن قوم صالح -عَلَيْهِ السَّلَامُ-؛بالغوا في إساءة الجواب، حين قالوا: {قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا} [هود:٦٢]، أي: قد كنت مرجوًا أن تسُود فينا حتى نقطع عن رأيك، ونرجع إليك من أمورنا، فرَموا مقامه النبوي بحط مرتبته عنهم، فلما بالغوا في إساءة الجواب؛ جاوبهم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ردًا لمقالهم الشنيع، بقوله: {أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً} ؛ فقدم المجرور؛ لتأكيد أن الرحمة من عند الله تعالى: {وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً} . ولما لم يكن في مراجعة قوم نوح مثل هذا

=

=

في شناعة الجواب؛ لأن أقصى المفهوم من قولهم: {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا} [هود:٢٧]؛إلحاقه بهم، ومماثلته إياهم، فلم يكن في قول هؤلاء ما في قول قوم صالح؛ فجرى جوابه (عليه السلام) على نسبة ذلك فقال: {وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ}، فأتى بالمجرور مؤخرًا في محله على ما يجب، حيث لا يقصد في إحراز المفهوم ما قصد في الآية الأخرى، فورد كل على ما يلائم".

قوله تعالى: {فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ} [هود: ٦٣]، أي:"فمن الذي يدفع عني عقاب الله تعالى إن عصيته فلم أبلِّغ الرسالة وأنصحْ لكم؟".

قال البيضاوي: أي:"يمنعني من عذابه إن عصيته في تبليغ رسالته والمنبع عن الإشراك به".

قال الطبري:"يقول: فمن الذي يدفع عنِّي عقابه إذا عاقبني إن أنا عصيته، فيخلصني منه".

قال ابن كثير:"وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده".

قوله تعالى: {فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ} [هود: ٦٣]، أي:"فما تزيدونني غير تضليل وإبعاد عن الخير".

قال البيضاوي:"{فما تزيدونني} إذن باستتباعكم إياي. غير تخسير غير أن تخسروني بإبطال ما منحني الله به والتعرض لعذابه، أو فما تزيدونني بما تقولون لي غير أن أنسبكم إلى الخسران".

قال الطبري:"{فما تزيدونني} بعذركم الذي تعتذرون به، من أنكم تعبدون ما كان يعبدُ آباؤكم، {غير تخسير}، لكم يخسركم حظوظكم من رحمة الله".

قال ابن كثير:"فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني {غَيْرَ تَخْسِيرٍ} أي: خسارة".

وفي قوله تعالى: {فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ} [هود: ٦٣] وجهان:

أحدهما: يعني ما تزيدونني في احتجاجكم بتباع آبائكم إلا خسارًا تخسرونه أنتم،

=

=

قاله مجاهد، وعطاء الخراساني.

الثاني: فما تزيدونني مع الرد والتكذيب إن أجبتم إلى ما سألتم إلا خسارًا لاستبدال الثواب بالعقاب.

الثالث: أي: هلكة. قاله ابن قتيبة.

قال ابن قتيبة: "«الخسران» النقصان. وكذلك الخسر، ويكون بمعنى الهلكة. قال الله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون} [التوبة: ٦٩]، أي: الهالكون: وقال: {فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِير} [هود: ٦٣]، أي: هلكة، وقال في موضع آخر: {وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} [هود: ١٠١]،أي: هلكة".

قال الفراء: "يقول: فما تزيدونني غير تخسير لكم وتضليل لكم، أي كلما اعتذرتم بشيء هو يزيدكم تخسيرا. وليس غير تخسير لي أنا. وهو كقولك للرجل: ما تزيدني إلا غضبا، أي: غضبا عليك".

قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً} [هود: ٦٤]، أي: "ويا قوم هذه ناقة الله جعلها لكم حجة وعلامة تدلُّ على صدقي فيما أدعوكم إليه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل صالح لقومه من ثمود، إذ قالوا له: {وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب}، وسألوه الآية على ما دعاهم إليه: {يا قوم هذه ناقة الله لكم آية}، يقول: حجة وعلامة، ودلالة على حقيقة ما أدعوكم إليه".

قال الزجاج: "يقال: إنها خرجت من حجر، وفي هذا أعظم الآيات، ويقال إنها كانت ترد الماء لا ترد الماء معها دابة، فإذا كان يوم لا ترد، وردت الواردة كلها. وفي هذا أعظم آية".

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (لكم آية) أي: علامة تدل على قدرة الله؛ وإنما قال (لكم) لأنهم هم الذين اقترحوها، وإن كانت آية لهم ولغيرهم.

=

=

وفي وجه كونها آية قولان:

أحدهما: أنها خرجت من صخرة ملساء، فتمخَّضت بها تمخُّضَ الحامل، ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها.

والثاني: أنها كانت تشرب ماء الوادي كله في يوم، وتسقيهم اللبن مكانه.

عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة حدث:"أنهم نظروا إلى الهضبة حين دعا الله صالح بما دعا به تمخض الناقة تمخض الفتوج بولدها فتحركت الهضبة ثم انقضت فانصدعت، عن ناقة كما وصفوا جوفاء وبرا تثوج ما بين جنبيها ما لا يعلمه إلا الله.

قال محمد بن إسحاق،: ثم قال له جندع بن جراش بن عمرو بن الرميل وكان يومئذ سيد ثمود وعظيمها: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء، والمخترجة، ما شاكل البخت من الإبل وقالت ثمود لصالح مثل ما قال جندع بن عمرو لصخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة فإن فعلت آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت وفعل الله لتصدقني ولتؤمنن لي قالوا: نعم وأعطوه على ذلك عهودهم فدعا صالح ربه ﷻ بأن يخرجها لهم من تلك الهضبة كما وصفوا".

(تنبيه): قال الإمام ابن القيم في كتاب الروح (ص ١٥٤): فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته وصفات له غير مخلوقة وكذلك وجهه ويده سبحانه، والثاني إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه لكنها إضافة تقتضي تخصيصا وتشريفا يتميز به المضاف عن غيره كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكا له وكذلك ناقة

=

=

الله والنوق كلها ملكه وخلقه لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد والخاصة تقتضي الاختيار والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى وربك يخلق ما يشاء ويختار وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس... ا.هـ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "فليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق، كقوله تعالى (بيت الله) و (ناقة الله) و (عباد الله) بل وكذلك روح الله عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم. ولكن إذا أضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره مثل كلام الله وعلم الله ويد الله ونحو ذلك كان صفة له " انتهى من "الجواب الصحيح" (٤/ ٤١٤).

وهذه القاعدة ذكرها شيخ الإسلام في مواضع، وحاصلها أن المضاف إلى الله نوعان:

١ - أعيان قائمة بذاتها، فهذه الإضافة للتشريف والتكريم، كبيت الله وناقة الله، وكذلك الروح، فإنها ليست صفة، بل هي عين قائمة بنفسها، ولهذا قال النبي ﷺ في حديث البراء بن عازب الطويل في وفاة الإنسان وخروج روحه: (فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء) (فيأخذها (يعني يأخذ ملك الموت الروح) فإذا أخذها لم يدعوها (يعني الملائكة) في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط) (ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال فيصعدون بها). انظر روايات الحديث في "أحكام الجنائز" للألباني (ص ١٩٨).

=

=

وقال ﷺ: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر) رواه مسلم (٩٢٠) أي: إذا خرجت الروح تبعها البصر ينظر إليها أين تذهب. فهذا كله يدل على أن الروح عين قائمة بنفسها.

٢ - صفات لا تقوم بنفسها، بل لا بد لها من موصوف تقوم به، كالعلم والإرادة والقدرة، فإذا قيل: علم الله، وإرادة الله، فهذا من إضافة الصفة إلى الموصوف.

قوله تعالى: {فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ} [هود: ٦٤]، أي:"فاتركوها تأكل في أرض الله فليس عليكم رزقها".

قال الطبري:"فليس عليكم رزقها ولا مئونتها".

قال القرطبي: "قوله تعالى (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله) أي ليس عليكم رزقها ومؤونتها".

قال أبو حيان: "قوله تعالى (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله) لما أضاف الناقة إلى الله أضاف محل رعيها إلى الله، إذ الأرض وما أنبت فيها ملكه تعالى لا ملككم ولا إنباتكم، وفي هذا الكلام إشارة إلى أن هذه الناقة نعمة من الله ينال خيرها من غير مشقّة تكلف علف ولا طعمة، وهو شأن الإبل كما جاء في الحديث قال فضالة الإبل، قال مالك: ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها".

قوله تعالى: {وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ} [هود: ٦٤]، أي:"بعقر أو غيره، فلا تتعرضوا لها لا بضرب ولا بعقر ولا بغيرهما، بل اتركوها ترعى وتستقي من فضل الله عليها وعليكم".

قال الطبري:"يقول: لا تقتلوها ولا تنالوها بعقر".

قال الآلوسي: "قوله تعالى (وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء) نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذى مبالغة في الزجر فهو كقوله تعالى (وَلاَ تَقْرَبُوا

=

=

مَالَ اليتيم)".

والتنكير للتعميم أي لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلًا كالطرد والعقر وغير ذلك. انتهى.

قوله تعالى: {فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} [هود: ٦٤]، أي:"فإنكم إن فعلتم ذلك يأخذكم من الله عذاب قريب من عَقْرها، وهو ثلاثة أيام".

ولعل الداعي لصالح لنهيهم عن التعرض لها مع أنهم لم يُظهروا ما يدل على ذلك: هو معرفة نبي الله صالح عليه السلام أن القوم متمردون مصرون على كفرهم، وذلك قد يدفعهم إلى قتلها، لأنها آية دالة على صدقه وحجة قائمة عليهم، وهم خصوم له ولدعوته، والخصم لا يحب ظهور حجة خصمه.

قال الطبري:"يقول: فإنكم إن تمسوها بسوء يأخذكم عذاب من الله غير بعيد فيهلككم".

قال السدي:"فسألوا -يعني صالحا- أن يأتيهم بآية، فجاءهم بالناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم وقال: {فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء}، فأقروا بها جميعا، فذلك قوله:} فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدىْ، فكانوا قد أقروا به على وجه النفاق".

عن محمد بن إسحاق قال: "فمكثت الناقة التي أخرج الله لهم معها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر، وتشرب الماء، فقال لهم صالح: "{هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأعراف: ٧٣]".

قوله تعالى: {فَعَقَرُوهَا} [هود: ٦٥]، أي:"فكذَّبوه ونحروا الناقة".

- فإن قال قائل: لماذا قال (فعقروها) مع أن الذي تولى عقرها واحد؟

- **قال القرطبي**: إنما اضيف العقر إلى الكل، لأنه كان برضى الباقين.

=

=

- وقال ابن كثير: وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم، فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم.

- وقال الرازي: واعلم أنه أسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم مع أنه ما باشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة العظيمة: أنتم فعلتم كذا مع أنه ما فعله إلا واحد منهم.

- وقال ابن عاشور: ومقصدهم من نيّتهم إهلاك النّاقة أن يزيلوا آية صالح عليه السلام لئلا يزيد عدد المؤمنِين به، لأنّ مشاهدة آية نبوءته سالمة بينهم تثير في نفوس كثير منهم الاستدلال على صدقه والاستئناس لذلك بسكوت كبرائهم وتقريرهم لها على مرعاها وشِربها، ولأنّ في اعتدائهم عليها إيذانًا منهم بتحفزهم للإضرار بصالح عليه السلام وبمن آمن به بعدَ ذلك وليُرُوا صالحًا عليه السلام أنّهم مستخفّون بوعيده إذ قال لهم (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فعقرت ثمود ناقة الله".

عن محمد بن إسحاق، قال: "فرصدوا الناقة حين صدرت، عن الماء، وقد كمن لها قداد في أصل الصخرة على طريقها وكمن لها مصرع في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بهم فانتظم به عضلة ساقها قال: فشد يعني قدار على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة فحترت ساقيها، ثم طعن في لبتها فنحرها. وانظلم سقيها حتى أتى جبلا ثم أتى صخرة في رأس الجبل فرغا ثم لاذ بها فأتاهم صالح فلما رأى الناقة عقرت بكى ثم قال: انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته".

عن قتادة:"أن ثمود لما عقروا الناقة تغامروا وقالوا: عليكم الفصل فصعد القارة جبل كان حتى إذا كان يوما استقبل القبلة، وقال: يا رب أمتي يا رب أمتي يا رب أمتي، قال: فأرسلت عليهم الصيحة عند ذلك".

=

=

عن عبد الله بن أبي الهذيل، قال: "لما عقرت الناقة صعد بكرها فوق جبل فرغا فما سمعه شيء إلا هو".

قوله تعالى: {فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} [هود: ٦٥]، أي:"فقال لهم صالح: استمتعوا بحياتكم في بلدكم ثلاثة أيام، فإن العذاب نازل بكم بعدها، وذلك وَعْدٌ من الله غير مكذوب، لا بد من وقوعه".

قال الطبري:"يقول: استمتعوا في دار الدنيا بحياتكم ثلاثة أيام، هذا الأجل الذي أجلتكم، وعد من الله، وعدكم بانقضائه الهلاك ونزول العذاب بكم، لم يكذبكم فيه من أعلمكم ذلك".

عن قتادة:"{تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب}، قال:"القوم إلى آجالهم وهو عليهم غضبان فو الله ما عجل إليهم أن وفاهم بقية آجالهم".

عن قتادة:"أن صالحا قال لقومه: إن آية ذلك أن تصبح وجوهكم أول يوم مصفرة، واليوم الثاني محمرة، واليوم الثالث مسودة قال: فخدوا لهم أخدودا وكفر غنيهم فقيرهم فأرسل الله عليهم صيحة فأهمدتهم قال الله: كأن لم يغنوا فيها".

عن جابر قال: "لما نزلنا الحجر مغزا رسول الله ﷺ تبوكا قال لنا: أيها الناس، عن الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث لهم آية فبعث الله لهم الناقة وكانت ترد من ذلك الفج فتشرب ماءهم يوم وردها، ويحتلبون منها الذي كانوا يشربون منها يوم عبها، وتصدر من ذلك فعتوا عن أمر ربهم... فعقروها، فوعدهم الله أن يمكثوا في دارهم ثلاثة أيام فكان من الله وعد غير مكذوب فجاءتهم الصيحة فأهلك الذين كانوا منه تحت مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلا كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله فقيل: يا رسول الله من هو؟ فقال أبو رغال قالوا: ومن أبو قال أبو ثقيف" أخرجه أحمد (٢٢/ ٦٦-الرسالة)، والبزار (١٨٤٤)، والطبري في تفسير (١٢/ ٥٣٧، رقم ١٤٨١٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار

=

=

(٣٧٥٦)، وابن حبان (١٤/ ٧٧، رقم ٦١٩٧)، والطبرانى فى الأوسط (٩/ ٣٧، رقم ٩٠٦٩)، والحاكم (٢/ ٣٥١، رقم ٣٢٤٨) والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال عنه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٤٠): هذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩٤): رجال أحمد رجال الصحيح، وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٠): إسناده حسن، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: حديث قوي، أما العلامة الألباني فضعفه في الضعيفة (٤٣٣٤) وقال: وهذا إسناد ضعيف، رجاله ثقات رجال مسلم؛ غير أن أبا الزبير مدلس وقد عنعنه، ومعلوم أن المدلس لا يقبل حديثه إذا لم يصرح بالتحديث كما هو الواقع هنا، ومع أن الحديث لم يخرجه مسلم في صحيحه وهو على شرطه؛ كما قال الحافظ ابن كثير (٢/ ٢٢٧)؛ فقد قال الذهبي في ترجمة أبي الزبير هذا: "وفي "صحيح مسلم" عدة أحاديث مما لم يوضح فيها أبو الزبير السماع عن جابر، ولا هي من طريق الليث عنه، ففي القلب منها شيء"، ثم ساق بعضها، فكيف لا يكون في النفس شيء من أحاديثه التي لم يتحقق فيها الشرط الذي ذكره وهي ليست في "صحيح مسلم" كهذا؟! ا. هـ وقال في فقه السيرة حسن وفي النفس منه شيء، قلت ما ذكره العلامة الألباني صحيح، ولكن أبو الزبير توبع في هذا الحديث فانتفت شبهة تدليسه، فتابعه عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط، عن جابر كما عند الطبري (١٤/ ٥٠)، والطحاوي في شرح المشكل (٣٧٥٧) مختصرا، من طريقين عن يعقوب بن إسحاق بن أبي عباد، عن داود بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن عثمان، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط عن جابر.

وعن محمد بن إسحاق، قال: "فأتاهم صالح فلما رأى الناقة قد عقرت بكى ثم قال: انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته وأتبع القب أربعة نفر من التسعة

=

=

الذين عقروا الناقة ولما قال لهم صالح أبشروا بعذاب الله ونقمته قالوا وهم يهزئون به ومن ذلك يا صالح وما آية ذلك وكانوا يسمون الأيام فيهم الأحد أول والإثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شبار وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح حين قالوا له ذلك: تصبحون غدا يوم مؤنس يعني الخميس وجوهكم مصفرة وتصبحون يوم العروبة يعني الجمعة ووجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم شبار يعني السبت ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب أول يعني يوم أحد".

قال عبدالواحد بن زيد: قلت للحسن: "يا أبا سعيد، أخبرني عن رجل، لم يشهد فتنة ابن المهلب إلا أنه سكت بلسانه ورضي بقلبه قال: يا ابن أخي كم يدا عقرت الناقة؟ قال: قلت: يد واحدة قال: أليس قد هلك القوم جميعا برضاهم وتماليهم".

قال ابن كثير: "وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه -عياذاً بالله من ذلك- لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من اسفل منهم، ففاضت الأرواح وأزهقت النفوس في ساعة واحدة [فأصبحوا في دارهم جاثمين] أي صرعى لا أرواح فيهم".

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا} [هود: ٦٦]، أي:"فلما جاء أمرنا بهلاك ثمود".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فلما جاء ثمود عذابُنا".

قوله تعالى: {نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا} [هود: ٦٦]، أي:"نجينا

=

=
صالحًا والذين آمنوا معه من الهلاك برحمة منا".

قال مقاتل:"يعني: بنعمة عليهم منا".

قال الطبري:"يقول: بنعمة وفضل من الله".

قال قتادة:"نجاه الله برحمة منه".

قوله تعالى: {وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ} [هود: ٦٦]، أي:"ونجيناهم من هوان ذلك اليوم وذلّته".

قال قتادة:"نجاه من خزي يومئذ".

قال الطبري:"يقول: ونجيناهم من هوان ذلك اليوم، وذلّه بذلك العذاب".

قال السمعاني:"معناه: ومن هلاك يومئذ".

قال البغوي:"أي: من عذابه وهوانه".

قرأ أبو جعفر ونافع والكسائي: "خزي يومئذ" و"عذاب يومئذ" بفتح الميم. وقرأ الباقون بالكسر.

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} [هود: ٦٦]، أي:"إن ربك -أيها الرسول- هو القوي العزيز، ومِن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية، ونجّى الرسل وأتباعهم".

قال الطبري:"{القوي} في بطشه إذا بطش بشيء أهلكه، كما أهلك ثمود حين بطَش بها، {العزيز} فلا يغلبه غالب، ولا يقهره قاهر، بل يغلب كل شيء ويقهره".

عن أبي العالية، قوله: {العزيز}، يقول: العزيز في نقمته". وروي، عن قتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ} [هود: ٦٧]، أي:"وأخذت الصيحة القوية ثمود الظالمين".

وفي قوله تعالى: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ} [هود: ٦٧]، ثلاثة أقوال:
=

=

أحدها: أن جبريل عليه السلام صاح بهم. قاله السدي ، ويحيى بن سلام ، ومقاتل.
قال السدي:"يعني: صيحة جبريل - عليه السلام".
قال أبو الليث السمرقندي:"صيحة جبريل. صاح صيحة، فماتوا كلهم".
الثاني: أن الله تعالى أحدثها في حيوان صاح بهم.
الثالث: أن الله تعالى أحدثها من غير حيوان.
قال محمد بن إسحاق:"فلما كان صبيحة الأحد واشتد الضحى أخذتهم الصيحة فلم يبق منهم صغيرا ولا كبيرا إلا هلك إلا جارية مقعدة يقال لها: الذريعة، وهي كانت كافرة شديدة العداوة لصالح فأطلق الله لها رجليها عند ما عاينت أجمع فخرجت كأسرع ما يرى شيء قط حتى أتت أهل خرج فأخبرتهم بما عانت من العذاب وما أصاب ثمود منه استقت من الماء فسقيت فلما شربت ماتت".
قوله تعالى: {فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [هود: ٦٧]، أي:"فأصبحوا في ديارهم موتى هامدين ساقطين على وجوههم لا حِرَاكَ لهم".
قال مقاتل:"يعني: في منازلهم خامدين".
قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: صاروا خامدين ميتين".
قال الطبري:"قد جثمتهم المنايا، وتركتهم خمودًا بأفنيتهم".
عن أبي مالك:"{في ديارهم}، يعني: بيوتهم".
وفي قوله تعالى: {جَاثِمِينَ} [هود: ٦٧]، وجهان:
أحدهما: مبيتين، لأن الصحية كانت بياتًا في الليل، قاله عبد الرحمن بن زيد.
قال قتادة:"{فأصبحوا في ديارهم جاثمين}، يقول: أصبحوا قد هلكوا".
الثاني: هلكى بالجثوم.
وفي «الجثوم»، تأويلان:
أحدهما: أنه السقوط على الوجه.

=

=

الثاني: أنه القعود على الرُّكب.

قوله تعالى: {كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا} [هود: ٦٨]، أي:"كأنهم في سرعة زوالهم وفنائهم لم يعيشوا فيها".

قال مقاتل:"يقول: كأنهم لم يكونوا في الدنيا قط".

قال الطبري:"يقول: كأن لم يعيشوا فيها، ولم يعمروا بها".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: صاروا كأن لم يكونوا في الدنيا. ويقال: كأن لم ينزلوا في ديارهم، ولم يكونوا".

عن ابن عباس قوله: "{كأن لم يغنوا فيها}، كأن لم يعيشوا فيها". وروي عن قتادة مثله.

وفي رواية عن ابن عباس:"كأن لم يعمروا فيها".

وقال قتادة: "كأن لم ينعموا".

وروي عن أبي مالك:"كأن لم يكونوا فيها".

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ} [هود: ٦٨]، أي:"ألا إن ثمود جحدوا بآيات ربهم وحججه".

قال مقاتل:"كفروا بتوحيد ربهم".

قال الطبري:"يقول: ألا إن ثمود كفروا بآيات ربهم فجحدوها".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: جحدوا وحدانية ربهم، فهذا تنبيه وتخويف لمن بعدهم".

قوله تعالى: {أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ} [هود: ٦٨]، أي:"ألا بُعْدًا لثمود وطردًا لهم من رحمة الله، فما أشقاهم وأذلَّهم!!".

قال الطبري:"يقول: ألا أبعد الله ثمود! لنزول العذاب بهم".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: خزيا وسحقا لثمود في الهلاك".

=

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩).

{وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلنَا إبْرَاهِيم بِالْبُشْرَى} بِإِسْحَاق وَيَعْقُوب بَعْده {قَالُوا سَلَامًا} مَصْدَر {قَالَ سَلَام} عَلَيْكُمْ {فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذ} مَشْوِيّ.

فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠).

{فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيهمْ لَا تَصِل إلَيْهِ نَكِرهمْ} بِمَعْنَى أَنْكَرَهُمْ {وَأَوْجَسَ} أَضْمَرَ فِي نَفْسه {مِنْهُمْ خِيفَة} خَوْفًا {قَالُوا لَا تَخَفْ إنَّا أُرْسِلنَا إلَى قَوْم لُوط} لِنُهْلِكهُمْ.

وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١).

{وَامْرَأَته} أَيْ امْرَأَة إبْرَاهِيم سَارَّة {قَائِمَة} تَخْدُمهُمْ {فَضَحِكَتْ} اسْتِبْشَارًا

=

قرأ الكسائي: «ألا بعدا لثمود» بكسر الدال مع التنوين، وجعله اسما للقوم، فلذلك جعله منصرفا. وقرأ الباقون بنصب الدال، لأنه اسم القبيلة. وإنما يجري في قوله: «ألا إن ثمود» اتباعا للكتابة في مصحف الإمام، وأما الكسائي، فأجراه لقربه من قوله: «ألا إن ثمود كفروا ربهم».

قال قتادة:"ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لما مرّ بوادي ثمود، وهو عامد إلى تبوك قال: فأمر أصحابه أن يسرعوا السير، وأن لا ينزلوا به، ولا يشربوا من مائه، وأخبرهم أنه وادٍ ملعون. قال: وذكر لنا أن الرجل المُوسِر من قوم صالح كان يعطي المعسر منهم ما يتكفّنون به، وكان الرجل منهم يَلْحَد لنفسه ولأهل بيته، لميعاد نبي الله صالح الذي وعدهم. وحدَّث من رآهم بالطرق والأفنية والبيوت، فيهم شبان وشيوخ، أبقاهم الله عبرة وآية".

بِهَلَاكِهِمْ {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاق وَمِنْ وَرَاء} بَعْد {إِسْحَاق يَعْقُوب} وَلَده تَعِيش إِلَى أَنْ تراه.

قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢).

{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى} كَلِمَة تُقَال عِنْد أَمْر عَظِيم وَالْأَلِف مُبْدَلَة مِنْ يَاء الْإِضَافَة {أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوز} لِي تِسْع وَتِسْعُونَ سَنَة {وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا} لَهُ مِائَة أَوْ وَعِشْرُونَ سَنَة وَنَصْبه عَلَى الْحَال وَالْعَامِل فِيهِ مَا فِي ذَا مِنْ الْإِشَارَة {إِنَّ هَذَا لَشَيْء عَجِيب} أَنْ يُولَد وَلَد لِهَرَمَيْنِ.

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)

{قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْر الله} قُدْرَته {رَحْمَة الله وَبَرَكَاته عَلَيْكُمْ} يَا {أَهْل الْبَيْت} بَيْت إِبْرَاهِيم {إِنَّهُ حَمِيد} مَحْمُود {مَجِيد} كَرِيم.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤).

{فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيم الرَّوْع} الْخَوْف {وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى} بِالْوَلَدِ أَخَذَ {يُجَادِلنَا} يُجَادِل رُسُلنَا {فِي} شأن {قوم لوط.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥).

{إِنَّ إِبْرَاهِيم لَحَلِيم} كَثِير الْأَنَاة {أَوَّاه مُنِيب} رَجَّاع فَقَالَ لَهُمْ أَتُهْلِكُونَ قَرْيَة فِيهَا ثَلَاثمِائَةِ مُؤْمِن قَالُوا لَا قَالَ أَفَتُهْلِكُونَ قَرْيَة فِيهَا مائتا مؤمن قالوا لا قال أفتهلكون قراية فِيهَا أَرْبَعُونَ مُؤْمِنًا قَالُوا لَا قَالَ أَفَتُهْلِكُونَ قَرْيَة فِيهَا أَرْبَعَة عَشَرَ مُؤْمِنًا قَالُوا لَا قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا مُؤْمِن وَاحِد قَالُوا لَا قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَم بِمَنْ فِيهَا إِلَخْ.

يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ

(٧٦).

فَلَمَّا أَطَالَ مُجَادَلَتهمْ قَالُوا {يَا إِبْرَاهِيم أَعْرِض عَنْ هَذَا} الْجِدَال {إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْر ربك} بهلاكهم {وإنهم آتيهم عذاب غير مردود}[١].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى} [هود: ٦٩]، أي:"ولقد جاءت الملائكة إبراهيم يبشرونه".

قيل: تبشره بإسحاق.

وقيل: بهلاك قوم لوط.

ويشهد للأول قوله تعالى (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ).

قال الشوكاني: والبشرى التي بشروه بها: هي بشارته بالولد وقيل: بإهلاك قوم لوط، والأولى أولى.

- وقال الشنقيطي: ولم يبين هنا ما المراد بهذه البشرى التي جاءت بها رسل الملائكة إبراهيم ولكنه أشار بعد هذا إلى أنها البشارة بإسحاق ويعقوب في قوله (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب).

و لأن البشارة بالذرية الطيبة شاملة للأم والأب، كما يدل لذلك قوله (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين).

وقيل: البشرى هي إخبارهم له بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط.

وعليه فالآيات المبينة لها كقوله هنا في هذه السورة (قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط).

وقوله (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط).

وقوله (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين).

=

=

والظاهر: القول الأول.

وهذه الآية الأخيرة تدل عليه ؛ لأن فيها التصريح بأن إخبارهم بإهلاك قوم لوط بعد مجيئهم بالبشرى ؛ لأنه مرتب عليه بأداة الشرط التي هي «لما» كما ترى.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {ولقد جاءت رسلنا}، من الملائكة وهم فيما ذكر، كانوا جبريل وملكين آخرين. وقيل: إن الملكين الآخرين كان ميكائيل وإسرافيل معه {إبراهيم}، يعني: إبراهيم خليل الله، {بالبشرى}، يعني: بالبشارة".

وفي اسم «إبراهيم»، وجهان:

أحدهما: أنه اسم أعجمي، قاله الأكثرون. وقيل معناه: «أب رحيم».

الثاني: أنه عربي مشتق من «البرهمة» وهي: إدامة النظر.

وفي البشرى التي جاءوه بها أربعة أقوال:

أحدها: بشروه بنبّوته، قاله عكرمة.

الثاني: بإسحاق، قاله الحسن.

قال ابن كثير:"ويشهد [له] قوله تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} [هود: ٧٤]".

الثالث: بشروه بإخراج محمد ﷺ من صلبه وأنه خاتم الأنبياء.

الرابع: بشروه بهلاك قوم لوط، قاله قتادة.

قوله تعالى: {قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ} [هود: ٦٩]، أي:"فقالوا: سلامًا، قال ردًّا على تحيتهم: سلام".

قال ابن كثير: "قال علماء البيان: هذا أحسن مما حَيّوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام".

قال السعدي: "ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام ،

=

=

وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد، أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية، الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية، الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية".

وفي قوله تعالى: {قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ} [هود: ٦٩]، وجهان:

أحدهما: تحية من الملائكة لإبراهيم عليه السلام فحياهم بمثله فدل على أن السلام تحية الملائكة والمسلمين جميعًا.

قال سعيد بن جبير: "ما كان من قوله الملائكة، فرد عليهم إبراهيم عليه السلام فإنه يقول: {قالوا سلاما قال سلام}".

الثاني: سلمت أنت وأهلك من هلاك قوم لوط.

وقوله «سلام»، أي: الحمد لله الذي سلّمني، فمعنى «سلام»: سلمت.

وقرأ حمزة والكسائي «سِلم»، بكسر السين وإسقاط الألف.

واختلف في «السلم» و «السلام» على وجهين:

أحدهما: أن السلم من المسالمة والسلام من السلامة.

الثاني: أنهما بمعنى واحد، قال الشاعر، وقد أنشده الفراء لبعض العرب:

مَرَرْنَا فَقُلْنَا إِيهِ سِلْمٌ فَسَلَّمَتْ ... كَمَا اكْتَلَّ بِالْبَرْقِ الغَمَامُ اللَّوَائِحُ

قوله تعالى: {فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} [هود: ٦٩]، أي: "فذهب سريعًا وجاءهم بعجل سمين مشويٍّ ليأكلوا منه".

قال ابن كثير: "أي: ذهب سريعا، فأتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتى البقر، حَنِيذ: وهو مَشْوي شيًا ناضجًا على الرّضْف، وهي الحجارة المُحْماة.. وقد تضمَّنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة".

قال الماوردي: "ظنَّ رُسُل ربه أضيافًا لأنهم جاؤُوه في صورة الناس فعجل لهم الضيافة فجاءهم بعجل حنيذ".

=

=

وفي معنى «الحنيذ»، قولان:

أحدهما: أنه الحار، حكاه أبان بن تغلب عن علقمة النحوي.

الثاني: هو المشوي نضيجًا وهو المحنوذ مثل: طبيخ ومطبوخ ، وفيه قولان:

أحدهما: هو الذي حُفر له في الأرض ثم غُمَّ فيها، قال الشاعر:

اذا ما اعتبطنا اللحم للطالب القِرى   حنذناه حتى عَين اللحم آكله

قال الكلبي: "و «الحنيذ»: الذي يُحْنَذُ في الأرض".

الثاني: هو أن يوقد على الحجارة فإذا اشتد حرها ألقيت في جوفه ليسرع نضجه، قال طرفة بن العبد:

لهم راحٌ وكافور ومسكٌ   وعِقر الوحش شائله حنوذ

عن الضحاك:"{بعجل حنيذ} : الذي أنضج بالحجارة".

عن ابن عباس قوله:"{بعجل حينذ}، يقول: نضيج". وروي عن الضحاك مثله.

قال السدي:"ذبحه ثم شواه في الرَّضْف ، فهو «الحنيذ» حين شواه".

عن مجاهد: {بعجل حينئذ}، قال: "بعجل، حَسِيل البقر، و «الحنيذ»: المشوي النضيج".

عن قتادة: "«الحنيذ»: النضيج".

عن سفيان: "{فما لبث أن جاء بعجل حنيذ}، قال: مشويّ".

عن شمر بن عطية: "{فجاء بعجل حنيذ}، قال: المشويّ الذي يقطر".

قال الطبري:"وهذه الأقوال التي ذكرناها عن أهل العربية وأهل التفسير متقارباتُ المعاني بعضها من بعض".

قال الشوكاني: "وإنما جاءهم بعجل، لأن البقر كانت أكثر أمواله".

- وقال الشنقيطي: يؤخذ من قصة إبراهيم مع ضيفه هؤلاء أشياء من آداب الضيافة:

=

=

منها تعجيل القرى ؛ لقوله (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ).

ومنها كون القرى من أحسن ما عنده ؛ لأنهم ذكروا أن الذي عنده البقر وأطيبه لحما الفتي السمين المنصح.

ومنها تقريب الطعام إلى الضيف.

ومنها ملاطفته بالكلام بغاية الرفق، كقوله ألا تأكلون.

قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ} [هود: ٧٠]، أي:"فلما رأى إبراهيم أيديهم لا تَصِل إلى العجل الذي أتاهم به ولا يأكلون منه".

وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَلَا يَشْتَهُونَهُ وَلَا يَأْكُلُونَهُ؛ فَلِهَذَا رَأَى حَالَهُمْ مُعْرِضِينَ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ، فَارِغِينَ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ فَعِنْدَ ذَلِكَ نكرهم (وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً).

وفي سورة الذاريات (فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ. فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فلما رأى إبراهيم أيديَهم لا تصل إلى العجل الذي أتاهم به، والطعام الذي قدّم إليهم".

قوله تعالى: {نَكِرَهُمْ} [هود: ٧٠]، أي:"أنكر ذلك منهم".

قال ابن كثير:"تنكرهم".

قال الطبري:"وذلك أنه لما قدم طعامه ﷺ إليهم، فيما ذكر، كفّوا عن أكله، لأنهم لم يكونوا ممن يأكله. وكان إمساكهم عن أكله، عند إبراهيم، وهم ضِيَفانه مستنكرًا. ولم تكن بينهم معرفةٌ، وراعه أمرهم".

عن جندب بن سفيان قال: "لما دخل ضيف إبراهيم عليه، قرّب إليهم العجل، فجعلوا ينكتُون بقِداح في أيديهم من نبْل، ولا تصل أيديهم إليه، نكرهم عند ذلك".

وفي «نكرهم وأنكرهُم»، وجهان:

=

=

أحدهما: أن معناهما مختلف، فنكرهم إذا لم يعرفهم ونكرهم إذا وجدهم على منكر.

الثاني: أنهما بمعنى واحد، قال الأعشى:

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ ... مِنَ الحَوَادِثِ، إلا الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا

فجمع اللغتين جميعا في البيت. وقال أبو ذؤيب:

فَنَكِرْنَهُ، فَنَفَرْنَ، وامْتَرَسَتْ بِهِ ... هَوْجَاءُ هَادِيَةٌ وَهَادٍ جُرْشُعُ

واختلف في سبب إنكاره لهم على قولين:

أحدهما: أنهم لم يطعموا، ومن شأن العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا به سوءًا وخافوا منه شرًا، فنكرهم إبراهيم لذلك، قاله قتادة.

والثاني: لأنه لم تكن لهم أيدي فنكرهم، قاله يزيد بن أبي حبيب.

قال الماوردي:"وامتنعوا من طعامه لأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون".

قوله تعالى: {وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً} [هود: ٧٠]، أي:"وأحس في نفسه خيفة وأضمرها".

قال الطبري:"يقول: احسَّ في نَفسه منهم خيفة وأضمرها".

قال ابن كثير:"وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم، {وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً}".

وفي قوله تعالى: {وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً} [هود: ٧٠]، وجهان:

أحدهما: أضمر في نفسه خوفًا منهم.

والثاني: أحسّ من نفسه تخوفًا منهم، كما قال يزيد بن معاوية:

جاء البريد بقرطاس يُخَبُّ به ... فأوجس القلبُ من قرطاسه جزعا

=

=

قوله تعالى: {قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ} [هود: ٧٠]، أي:"قالت الملائكة -لما رأت ما بإبراهيم من الخوف-: لا تَخَفْ إنا ملائكة ربك أُرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم".

وكان إبراهيم على ما قيل في فلسطين، وقرية لوط في البحر الميت من الأردن، وهي الآن مغمورة، وكان لوط ابن أخيه كما قيل، وقيل: ابن عمه.

قال الطبري:"يقول: قالت الملائكة، لما رأت ما بإبراهيم من الخوف منهم: لا تخف منا وكن آمنًا، فإنا ملائكة ربّك {أرسلنا إلى قوم لوط}".

وفي إعلامهم إبراهيم بذلك وجهان:

أحدهما: ليزول خوفه منهم.

والثاني: لأن إبراهيم قد كان يأتي قوم لوط فيقول: ويحكم أينهاكم عن الله أن تتعرضوا لعقوبته فلا يطيعونه.

قال السدّي: "لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صُور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم إبراهيم أجَلَّهم، {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ} فذبحه ثم شواه في الرضف، فهو الحنيد حين شواه، وأتاهم به فقعد معهم، وقامت سارة تخدمهم فذلك حين يقول: «وامرأته قائمة وهو جالس» في قراءة ابن مسعود: "فلما قَربه إليهم قال ألا تأكلون قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن. قال فإن لهذا ثمنا. قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حُق لهذا أن يتخذه ربه خليلا"، {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ} يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم، وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت إليه سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم، ضحكت وقالت: عجبا لأضيافنا هؤلاء، إنا نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا".

=

=

روي عن نوح بن قيس عن عثمان بن مِحْصن -في ضيف إبراهيم- قال: "كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورفائيل. قال نوح بن قيس: فزعم نوح بن أبي شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم، فقرب إليهم العجل، مسحه جبريل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه، وأم العجل في الدار".

قوله تعالى: {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ} [هود: ٧١]، أي:"وامرأة إبراهيم -سارة- كانت قائمة من وراء الستر تسمع الكلام، فضحكت تعجبًا مما سمعت، هذا قول الجمهور".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: سارة امرأة إبراهيم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وامرأته}، سارَة بنت هاران بن ناحور بن ساروج بن راعو بن فالغ، وهي ابنة عم إبراهيم {قائمة}، قيل: كانت قائمة من وراء الستر تسمع كلام الرسل وكلام إبراهيم عليه السلام. وقيل: كانت قائمة تخدُم الرسل، وإبراهيم جالسٌ مع الرسل".

وفي قيامها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها كانت قائمة من وراء الستر تسمع كلامهم، قاله وهب ، واختاره البيضاوي.

قال وهب بن منبه:"فلما رأى الله ذلك يعني فاحشة قوم لوط بعث الله عز وجل الملائكة ليعذبوهم فأتوا إبراهيم فلما رأهم راعه هيئتهم وجمالهم فسلموا عليه وجلسوا إليه فقام ليقرب لهم العجل فقالوا مكانك قال: بل دعوني آتيكم بما ينبغي لكم فإن لكم حقا لم يأتنا أحد أحق بالكرامة منكم فأمر بعجل سمين فحنذ له يعني شوي فقرب إليهم الطعام فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة وسارة وراء الباب تسمع".

الثاني: أنها كانت قائمة تخدمهم، قاله مجاهد.

=

=

الثالث: أنها كانت قائمة تُصَلّي، قاله محمد بن إسحاق.

وفي تفسير قوله تعالى: {فَضَحِكَتْ} [هود: ٧١] ثلاثة وجوه:

أحدها: يعني حاضت، قاله ابن عباس ، ومجاهد.

والعرب تقول: ضحكت المرأة إذا حاضت.

عن مجاهد:"{فضحكت} قال: حاضت، وكانت ابنة بضع وتسعين سنة. قال: وكان إبراهيم ابن مائة سنة".

و «الضحك»: الحيض في كلام العرب، قال الشاعر:

وضحك الأرانب فوق الصفا كمثل دم الخوف يوم اللّقا

قال البيضاوي:"ومنه ضحكت السمرة إذا سال صمغها".

قال الزجاج:"فأما من قال: «ضحكت»: حاضت، فليس بشيء".

قال الفراء:"وأما قوله {فضحكت} : حاضت فلم نسمعه من ثقة".

والثاني: أن معنى «ضحكت»: تعجبت، وقد يسمى التعجب ضحكًا لحدوث الضحك عنه، ومنه قول أبي ذؤيب:

فَجَاءَ بِمِزْجٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ هُوَ الضَّحْكُ إلا أَنَّهُ عَملُ النَّحْلِ

ومنه قول الشاعر:

وَضِحْكُ الأرَانِبِ فَوْقَ الصَّفَا كَمِثْل دَمِ الجَوْفِ يَوْمَ اللِّقَا

وللكميت:

فَأَضْحَكَتِ الضِّبَاعُ سُيُوفُ سَعْدٍ بِقَتْلَى مَا دُفِنَّ وَلا وُدِينَا

عن ضمرة بن حبيب:"أن سارة لما بشرها الرسل بإسحاق قال بينما هي تمشي وتحدثهم حين آنست بالحيضة فحاضت قبل أن تحمل إسحاق فكان من قولها للرسل حين بشروها بإسحاق كنت شابة وكان إبراهيم شابا فلم أحمل فحين

=

=

كبرت وكبر أألد قالوا: تعجبين من ذلك يا سارة فإن الله قد صنع بكم ما هو أعظم من ذلك، ان الله قد جعل رحمته وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد".

الثالث: أنه الضحك المعروف في الوجه، حكاه الماوردي عن الجمهور.

قال الطبري:"وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بالصواب قولُ من قال: معنى قوله: {فضحكت} فعجبت من غفلة قوم لوط عما قد أحاط بهم من عذاب الله وغفلتهم عنه، وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب، لأنه ذكر عقيب قولهم لإبراهيم: {لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط}، فإذ كان ذلك كذلك، وكان لا وجه للضحك والتعجب من قولهم لإبراهيم: {لا تخف}، كان الضحك والتعجب إنما هو من أمر قوم لوط".

فإن حمل تأويله على الحيض ففي سبب حيضها ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه وافق وقت عاتها فخافت ظهور دمها وأرادت شداده فتحيرت مع حضور الرسل.

الثاني: ذعرت وخافت فتعجل حيضها قبل وقته، وقد تتغير عادة الحيض باختلاف الأحوال وتغير الطباع.

الثالث: أن يكون الحيض بشيرًا بالولادة لأن من لم تحض لا تلد. أفاده الماوردي.

وإن حمل تأويله على التعجب ففيما تعجب منه أربعة أقوال:

أحدها: أنها تعجبت من أنها وزوجها يخدمان الأضياف تكرمة لهم وهم لا يأكلون، قاله السدي.

الثاني: تعجبت من أن قوم لوط قد أتاهم العذاب وهم غافلون، قاله قتادة.

وقال محمد بن إسحاق:"لما عرفت من أمر الله ولما تعلم من قوم لوط".

وعن كعب:"{إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت}، بخزي الله

=

=

إياهم".

الثالث: أنها عجبت من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها، قاله وهب بن منبه.

الرابع: أنها تعجبت من إحياء العجل الحنيذ لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار، قاله عون بن أبي شداد.

وإن حمل تأويله على ضحك الوجه ففيما ضحكت منه سبعة أقوال:

أحدها: ضحكت سرورًا بالأمن والسلامة. وهذا قول الفراء.

قال الفراء:"وإنما ضحكت سرورا بالأمن".

قال الطبري:"وقال آخرون: بل ضحكت سرورًا بالأمن منهم، لما قالوا لإبراهيم: لا تخف، وذلك أنه قد كان خافهم وخافتهم أيضًا كما خافهم إبراهيم. فلما أَمِنَت ضحكت، فأتبعوها البشارة بإسحاق".

الثاني: سرورًا بالولد، لأن في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: فبشرناها بإسحاق فضحكت بعد البشارة وهو مما قد يحتمله الكلام والله أعلم بصوابه. حكاه الفراء عن بعض المفسرين ، واختاره ابن قتيبة.

قال ابن قتيبة:"أي: بشرناها بإسحاق فضحكت".

قال ابن كثير:"وقال وهب بن مُنَبِّه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق. وهذا مخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مُرتبة على. {فَبَشَّرْنَاهَا...}".

الثالث: لما رأت ما بزوجها من الرّوع، قاله الكلبي ، ومقاتل.

قال مقاتل:"{فضحكت}، من خوف إبراهيم ورعدته من ثلاثة نفر وإبراهيم في حشمه وخدمه".

الرابع: أنها ضحكت سرورا بزوال الخيفة. قاله البيضاوي.

الخامس: أنها ضحكت بهلاك أهل الفساد. حكاه البيضاوي.

=

=

السادس: أنها ضحكت لإصابة رأيها، فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لوطا فإني أعلم أن العذاب ينزل بهؤلاء القوم، فضحكت سرورا لما أتى الأمر على ما توهمت. حكاه الزجاج ، وذكره البيضاوي.

وقال مقاتل:"لوط بن حازان، وامرأة سارة بنت حازان، أخت لوط وإبراهيم عم لوط وختنه على أخته".

السابع: أنها ضحكت ظنًا بأن الرسل يعملون عمل قوم لوط، قاله محمد بن عيسى.

قال الإمام ابن كثير:"وقول محمد بن [عيسى]: إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط، وقول الكلبي: إنها إنما ضحكت لما رأت من الروع بإبراهيم، ضعيفان جدا، وإن كان ابن جرير قد رواهما بسنده إليهما، فلا يلتفت إلى ذلك، والله أعلم".

وقرئ: «فضحكت»، بفتح الحاء.

وقرأ ابن مسعود: «وامرأته قائمة وهو جالس فضحكت».

قوله تعالى: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود: ٧١]، أي:"فبشرناها على ألسنة الملائكة بأنها ستلد مِن زوجها إبراهيم ولدًا يسمى إسحاق وسيكون لها بعد إسحاق حفيد منه، وهو يعقوب".

وفي قوله تعالى: {وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود: ٧١] وجهان:

أحدهما: أن «الوراء»: ولد الولد، قاله ابن عباس ، وعامر الشعبي ، ومحمد بن إسحاق.

قال البيضاوي:"قيل «الوراء»: ولد الولد، ولعله سمي به لأنه بعد الولد وعلى هذا تكون إضافته إلى إسحاق ليس من حيث أن يعقوب عليه الصلاة والسلام وراءه، بل من حيث إنه وراء إبراهيم من جهته وفيه نظر. والاسمان يحتمل وقوعهما في

=

=

البشارة كيحيى، ويحتمل وقوعهما في الحكاية بعد أن ولدا فسميا به".

قال الزجاج:"وفي هذه البشارة -بشارة بالولد وولد الولد- يقال: هذا ابني من الوراء، أي: هذا ابن ابني. فبشرناها بأنها تلد إسحاق وأنها تعيش حتى ترى ولده، وروينا في التفسير أن عمرها كان تسعا وثمانين، وأن عمر إبراهيم كان تسعا وتسعين في وقت البشارة".

عن حبيب بن أبي ثابت قال: "جاء رجل إلى ابن عباس ومعه ابن ابنه فقال: من هذا معك؟ قال: هذا ابن ابني. قال: هذا ولدُك من الوراء! قال: فكأنه شقَّ على ذلك الرجل، فقال ابن عباس: إن الله يقول: {فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب}، فولد الولد هم الوراء".

عن أبي اليسع إسماعيل بن حماد بن أبي المغيرة مولى الأشعري، قال: "كنت إلى جنب جدي أبي المغيرة بن مهران، في مسجد عليّ بن زيد، فمر بنا الحسنُ بن أبي الحسن فقال: يا أبا المغيرة من هذا الفتى؟ قال: ابني من ورائي، فقال الحسن: {فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب}".

قال السدي:"لما ضحكت سارَة. وقالت: "عجبًا لأضيافنا هؤلاء، إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا "! قال لها جبريل: أبشري بولد اسمُه إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. فَضربتْ وَجْهَهَا عجبًا، فذلك قوله: {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا}، [سورة الذاريات: ٢٩]. وقالت: {أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب} قالوا {أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد}، قالت سارة: ما آية ذلك؟ قال: فأخذ بيده عودًا يابسا فلواه بين أصابعه، فاهتز أخضر، فقال إبراهيم: هُو لله إذا ذبيحًا".

الثاني: أنه بمعنى «بعد»، قاله ابن الأنباري، و مقاتل، والزجاج، ومنه قول نابغة الذبياني.

=

=

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراءَ اللهِ للمرء مذهبُ

أي: ليس بعد مذاهب الله للمرء مذهب.

قال الزجاج:"{وراء}: يكون لخلف وقدام، وإنما معناه ما توارى عنك أي ما استتر عنك، وليس من الأضداد كما يقول بعض أهل اللغة".

قال الماوردي:"فعجلوا لها البشرى بالولدين مظاهرة للنعمة ومبالغة في التعجب، فاحتمل أن يكون البشارة بهما باسميهما فيكون الله تعالى هو المسمى لهما، واحتمل أن تكون البشارة بهما وسماها أبوهما".

فإن قيل: فلم خصت سارة بالبشرى من دون إبراهيم؟

قيل عن هذا أربعة أجوبة:

أحدها: أنها لما اختصت بالضحك خصت بالبشرى. أفاده الماروي.

الثاني: أنهم كافأُوها بالبشرى مقابلة على استعظام خدمتها. أفاده الماروي.

الثالث: أن وتوجيه البشارة إليها للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها لا من هاجر. أفاده البيضاوي

الرابع: لأنها كانت عقيمة حريصة على الولد. أفاده البيضاوي.

الخامس: لأن النساء في البشرى بالولد أعظم سرورًا وأكثر فرحًا. أفاده الماروي.

نقل الماوردي عن ابن عباس: "سمي إسحاق لأن سارة سحقت بالضحك حين بشرت به".

قال ابن كثير:"ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده. ووعد الله حق لا خُلْفَ فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله

=

=

الحمد".

وقال الشنقيطي: قوله تعالى (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) لأن رسل الله من الملائكة بشرتها بإسحاق، وأن إسحاق يلد يعقوب، فكيف يعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه، وهو صغير، وهو عنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب.

والموضع الثاني في سورة الصافات، بين فيه بيانا شافيا أن الذبيح إسماعيل.

فإنه بعد أن ذكر أنه أمره بذبح ولده الذي بلغ معه السعي، وأنه فداه، ذكر بعد ذلك أنه بشره بإسحاق، أي: أنه يولد له إسحاق، ولو كان موجودا من قبل لما حصلت البشرى.

قال تعالى (فبشرناه بغلام حليم (١٠١) فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين (١٠٢) فلما أسلما وتله للجبين (١٠٣) وناديناه أن يا إبراهيم (١٠٤) قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين (١٠٥) إن هذا لهو البلاء المبين (١٠٦) وفديناه بذبح عظيم (١٠٧) وتركنا عليه في الآخرين (١٠٨) سلام على إبراهيم (١٠٩) كذلك نجزي المحسنين (١١٠) إنه من عبادنا المؤمنين (١١١) وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين).

وقوله: {يَعْقُوبَ}: نصبه ابن عامر وحمزة وحفص بفعل يفسره ما دل عليه الكلام وتقديره: ووهبناها من وراء إسحاق يعقوب. وقيل إنه معطوف على موضع بإسحاق أو على لفظ إسحاق، وفتحته للجر فإنه غير مصروف ورد للفصل بينه وبين ما عطف عليه بالظرف. وقرأ الباقون بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره الظرف، أي: ويعقوب مولود من بعده.

قوله تعالى: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا} [هود: ٧٢]،

=

=

أي:"قالت سارة لما بُشِّرت بإسحاق متعجبة: يا ويلتا كيف يكون لي ولد وأنا عجوز، وهذا زوجي في حال الشيخوخة والكبر؟".

وكان تعجبها لأمور:

الأول: أنها عجوز، كما في هذه الآية.

الثاني: أنها كانت عقيما، كما في آية الذاريات.

الثالث: أن زوجها كان شيخا لا يولد لمثله عادة.

قال البيضاوي: أي:"{أألد وأنا عجوز} ابنة تسعين أو تسع وتسعين. {وهذا بعلي} زوجي -وأصله القائم بالأمر- {شيخا} ابن مائة أو مائة وعشرين".

قال الطبري:"تقول: أنى يكون لي ولد {وأنا عجوز وهذا بعلي شيْخًا}، والبعل في هذا الموضع: الزوج، وسمي بذلك لأنه قيم أمرها، كما سموا مالك الشيء "بعله"، وكما قالوا للنخل التي تستغني بماء السماء عن سقي ماء الأنهار والعيون "البعل"، لأن مالك الشيء القيم به، والنخل البعل، بماء السمَاء حياتُه... {يا ويلتا} وهي كلمة تقولها العرب عند التعجب من الشيء والاستنكار للشيء، فيقولون عند التعجب: "ويلُ أمِّه رجلا ما أرْجَله"!".

عن أبي مالك قوله: {بعلي}، تعني: زوجي".

عن قتادة في قول الله: "{قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز}، وهي يومئذ بنت سبعين" ، "قوله: {وهذا بعلي شيخا}،وهو يومئذ ابن تسعين سنة"".

قال ابن إسحاق:"ذكر أبي، عن بعض من قرأ الكتاب أنها كانت بنت تسعين سنة".

وقال ابن إسحاق:"ذكر لي، عن بعض من قرأ الكتاب وهذا بعلي شيخا: إن إبراهيم ابن عشرين ومائة سنة".

قال البيضاوي:"{يا ويلتى}: يا عجبا، وأصله في الشر فأطلق على كل أمر فظيع".

وقرئ: «يا ويلتى» بالياء على الأصل.

=

=

وفي قراءة ابن مسعود: «وهذا بعلي شيخ»، على الخبر.

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [هود: ٧٢]، أي:"إن إنجاب الولد مِن مثلي ومثل زوجي مع كبر السن لَشيء عجيب".

قال السمعاني:"يعني: إن هذا لشيء مستعجب بخلاف العادة".

قال البيضاوي:"يعني: الولد من هرمين، وهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة".

قال الطبري:"يقول: إن كون الولد من مثلي ومثل بعلي على السن التي بها نحن لشيء عجيب".

القرآن

{قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)} [هود: ٧٣]

التفسير:

قالت الرسل لها: أتعجبين من أمر الله وقضائه؟ رحمة الله وبركاته عليكم معشر أهل بيت النبوة. إنه سبحانه وتعالى حميد الصفات والأفعال، ذو مَجْد وعظمة فيها.

قوله تعالى: {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ} [هود: ٧٣]، أي:"قالت الرسل لها: أتعجبين من أمر الله وقضائه؟".

قال الطبري:"قالت سَارة لما بُشِّرت بإسحاق أنَّها تلد تعجبًا مما قيل لها من ذلك، إذ كانت قد بلغت السن التي لا يلد من كان قد بلغها من الرجال والنساء، وقيل: إنها كانت يومئذ ابنة تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة سنة".

قال ابن كثير:"أي: قالت الملائكة لها، لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئًا أن يقول له: "كن" فيكون، فلا تعجبي من هذا، وإن كنت عجوزا كبيرة عقيما،

=

=

وبعلك -وهو زوجها الخليل عليه السلام -، وإن كان شيخا كبيرا، فإن الله على ما يشاء قدير".

قال ابن إسحاق:"كانت سارَة يوم بُشِّرت بإسحاق، فيما ذكر لي بعض أهل العلم، ابنة تسعين سنة، وإبراهيم ابن عشرين ومائة سنة".

قوله تعالى: {رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ} [هود: ٧٣]، أي:"رحمة الله وبركاته عليكم معشر أهل بيت النبوة".

قال الطبري:"يقول: رحمة الله وسعادته لكم أهل بيت إبراهيم".

قال البيضاوي:"منكرين عليها فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات، وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ولا حقيق بأن يستغربه عاقل فضلا عمن نشأت وشابت في ملاحظة الآيات".

قوله تعالى: {إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} [هود: ٧٣]، أي:"إنه سبحانه وتعالى حميد الصفات والأفعال، ذو مَجْد وعظمة فيها".

قال الطبري:"يقول: إن الله محمود في تفضله عليكم بما تفضل به من النعم عليكم وعلى سائر خلقه {مجيد}، يقول: ذو مجد ومَدْح وَثَناء كريم".

قال ابن كثير:"أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود، ممجد في صفاته وذاته؛ ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: قولوا: «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد» ".

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الصحيح أنها بمعنى المحمود والحامد، فالله سبحانه حامدٌ من يستحق الحمد، وما أكثر الثناء على من يستحقون الثناء في كتاب الله، وهو كذلك محمود على كمال صفاته، وتمام إنعامه.

=

=

(مَّجِيدٌ) من المجد، وهو العلو والرفعة والشرف.

- قال السعدي: المجد: هو عظمة الصفات وسعتها، فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها.

- المجيد هو الكبير العظيم، الموصوف بصفات المجد والكبرياء، والعظمات والجلال، الذي هو أكبر وأجل وأعلم وأعظم من كل شيء، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه. الشريف ذاته، الجميل أفعاله، الجزيل عطاؤه وثوابه.

- والله يحمد على مجده وعظمته وكبريائه.

قوله تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ} [هود: ٧٤]، أي:"فلما ذهب عن إبراهيم الخوف الذي انتابه لعدم أكل الضيوف الطعام".

قال قتادة:"يقول: ذهب عنه الخوف".

قال ابن إسحاق:"وأمن مما كان يخاف".

قوله تعالى: {وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى} [هود: ٧٤]، أي:"وجاءته البشرى بإسحاق ويعقوب".

قال قتادة:"بإسحاق".

قال ابن إسحاق:"بإسحاق، ويعقوب ولد من صلب إسحاق".

قال الطبري:"«الروع»: فهو الخوف، يقال منه: راعني كذا يَرُوعني روعًا، إذا خافه. ومنه قول النبي ﷺ لرجل: "كيف لَكَ بَرَوْعَة المؤمن" ؟ ومنه قول عنترة:

مَا رَاعَني إلا حَمُولَةُ أَهْلِهَا وَسْطَ الدِّيارِ تَسَفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ

بمعمى: ما أفزعني".

عن مجاهد: «"الروع"، الفَرَق».

وروي عن قتادة: {وجاءته البشرى}، قال: حين أخبروه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط، وأنهم ليسوا إياه يريدون".

=

=

قوله تعالى: {يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} [هود: ٧٤]، أي:"ظلَّ يجادل رسلنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط وإهلاكهم".

عن مجاهد: "{يجادلنا}، يخاصمنا".

قال الطبري:"وزعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أن معنى قوله: {يجادلنا} يكلمنا، وقال: لأن إبراهيم لا يجادل الله، إنما يسأله ويطلب إليه. وهذا من الكلام جهلٌ، لأن الله تعالى ذكره أخبرنا في كتابه أنه يجادل في قوم لوط، فقول القائل: "إبراهيم لا يجادل"، موهمًا بذلك أن قول من قال في تأويل قوله: {يجادلنا}، يخاصمنا، أن إبراهيم كان يخاصم ربَّه، جهلٌ من الكلام، وإنما كان جدالُه الرسلَ على وجه المحاجَّة لهم. ومعنى ذلك: "وجاءته البشرى يجادل رسلنا"، ولكنه لما عرف المراد من الكلام حذف «الرسل»".

وفي قوله تعالى: {يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} [هود: ٧٤]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه جادل الملائكة بقوله {إن فيها لوطًا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله} [العنكبوت: ٣٢]. قاله الحسن.

الثاني: أنه سألهم أتعذبونهم إن كان فيها خمسون من المؤمنين؟ قالوا لا، قال: فإن كان فيها أربعون؟ قالوا: لا، إلى أن أنزلهم إلى عشرة، فقالوا: لا، قتادة.

قال قتادة:"ذكر لنا أن مجادلته إياهم أنه قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المؤمنين أمعذبوها أنتم؟ قالوا: لا! حتى صار ذلك إلى عشرة قال، أرأيتم إن كان فيها عشرة أمعذبوهم أنتم؟ قالوا: لا! وهي ثلاث قرى فيها ما شاء الله من الكثرة والعدد".

وقال سعيد:"لما جاء جبريل ومن معه قالوا لإبراهيم: إنَّا مهلكو أهل هذه القرية إنَّ أهلها كانوا ظالمين: قال لهم إبراهيم: أتهلكون قريةً فيها أربع مائة مؤمن؟ قالوا: لا! قال: أفتهلكون قرية فيها ثلاث مائة مؤمن؟ قالوا: لا! قال: أفتهلكون

=

=

قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا! قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنًا؟ قالوا: لا! قال: أفتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمنًا؟ قالوا: لا! وكان إبراهيم يعدهم أربعة عشر بامرأة لوط، فسكتَ عنهم واطمأنت نفسه".

قال ابن جريج:"قال إبراهيم: أتهلكونهم إن وجدتم فيها مائة مؤمن ثم تسعين؟ حتى هبَط إلى خمسة. قال: وكان في قرية لوط أربعة آلاف ألف".

عن صفوان قال: حدثنا أبو المثني ومسلم أبو الحبيل الأشجعي قالا: "{لما ذهب عن إبراهيم الروع}، إلى آخر الآية قال إبراهيم: أتعذب عالمًا من عالمك كثيرًا، فيهم مائة رجل؟ قال: لا وعزتي، ولا خمسين! قال: فأربعين؟ فثلاثين؟ حتى انتهى إلى خمسة. قال: لا! وعزتي لا أعذبهم ولو كان فيهم خمسة يعبدونني! قال الله ﷻ: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [سورة الذاريات:٣٦]، أي لوطًا وابنتيه، قال: فحلّ بهم من العذاب، قال الله ﷻ: {وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة الذاريات:٣٧]، وقال: {فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط}".

وعن السدي، " {فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى}، قال: ما خطبُكم أيها المرسلون؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم لوط، فجادلهم في قوم لوط قال، أرأيتم إن كان فيها مائة من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا! فلم يزل يحُطُّ حتى بلغ عشرة من المسلمين، فقالوا: لا نعذبهم، إن كان فيهم عشرة من المسلمين، ثم قالوا: "يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه ليس فيها إلا أهل بيت من المؤمنين " هو لوط وأهل بيته، وهو قول الله تعالى ذكره: {يجادلنا في قوم لوط}. فقالت الملائكة: {يا إبراهيم أعرض عن هذا إنَّه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود}".

عن ابن إسحاق قال: "{فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى}، يعني: إبراهيم جادل عن قوم لوط ليردّ عنهم العذاب قال: فيزعم أهل التوراة أن مجادلة

=

=

إبراهيم إياهم حين جادلهم في قوم لوط ليردّ عنهم العذاب، إنما قال للرسل فيما يكلمهم به: أرأيتم إن كان فيهم مائة مؤمن أتهلكونهم؟ قالوا:، لا! قال: أفرأيتم إن كانوا تسعين؟ قالوا: لا! قال: أفرأيتم إن كانوا ثمانين؟ قالوا: لا! قال: أفرأيتم إن كانوا سبعين؟ قالوا: لا! قال: أفرأيتم إن كانوا ستين؟ قالوا لا! قال: أفرأيتم إن كانوا خمسين؟ قالوا لا! قال: أفرأيتم إن كان رجلا واحدًا مسلمًا؟ قالوا: لا! قال: فلما لم يذكروا لإبراهيم أن فيها مؤمنًا واحدًا، {قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا}، يدفع به عنهم العذاب، {قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} [سورة العنكبوت: ٣٢]، {قالوا يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود}".

وروي عن ابن عباس قال، "قال الملك لإبراهيم: إن كان فيها خمسة يصلون رُفع عنهم العذاب".

قال معمر: "بلغنا أنه كان في قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان، أو ما شاء الله من ذلك".

الثالث: أنه سألهم عن عذابهم هل هو عذاب الاستئصال فيقع بهم لا محالة على سبيل التخويف ليؤمنوا، فكان هذا هو جداله لهم وإن كان سؤالًا لأنه خرج مخرج الكشف عن أمر غامض.

قال الخازن: وقال جمهور المفسرين: معناه يجادل رسلنا في قوم لوط وكانت مجادلة إبراهيم مع الملائكة أن قال لهم أرأيتم لو كان في مدائن قوم لوط خمسون رجلًا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فما زال كذلك حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا قال إبراهيم فإن فيها لوطًا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا أمرأته كانت من الغابرين وقيل إنما طلب إبراهيم تأخير العذاب عنهم

=

=

لعلهم يؤمنون أو يرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي.

- وخير ما يفسر به القرآن.

- وقوله (يُجَادِلُنَا) أضاف سبحانه المجادلة إلى نفسه مع أنها كانت مع الملائكة، لأن نزولهم لإهلاك قوم لوط إنما كان بأمره تعالى، فمجادلة إبراهيم لهم هي مجادلة في تنفيذ أمره تعالى.

- وقال سبحانه يُجادِلُنا مع أنها كانت في الماضي، لتصوير هذه الحالة في الذهن تصويرا حاضرا، حتى تزداد منه العبرة والعظة.

قوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ} [هود: ٧٥]، أي:"إن إبراهيم كثير الحلم لا يحب المعاجلة بالعقاب".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن إبراهيم لبطيء الغضب".

قال ابن عباس:"كان من حلمه أنه كان إذا أذاه الرجل من قومه قال له: هداك الله".

قال الحسن:"الحليم: الرحيم".

قوله تعالى: {أَوَّاهٌ} [هود: ٧٥]، أي:"كثير التضرع إلى الله والدعاء له".

قال الطبري:"متذلل لربه خاشع له، منقاد لأمره".

عن عبد الله بن شداد قال: "قال رجل: يا رسول الله، ما «الأواه؟» قال: الخاشع، المتضرع الدعاء، قال: إن إبراهيم لأواه حليم".

عن شعبة عن أبي يونس الباهلي:"سمعت رجلا كان بمكة أصله رومي يحده عن أبي ذر، قال: كان رجل يطوف بالبيت ويقول في دعائه: أوه أوه، فقال رسول الله ﷺ: أنه لأواه، قال أبو ذر فخرجت ليلة فإذا رسول الله- ﷺ- معه المصباح يدفن ذلك الرجل".

قال ابن كثير:"هذا حديث غريب رواه ابن جرير ومشاه".

وروي عن يحيى بن الجزار "أن أبا العبيدين سأل عبد الله عن «الأواه»؟ فقال:

=

=

الرحيم". وروي عن أبي ميسرة. والحسن ومجاهد وقتادة مثل ذلك.

وروي عن ابن عباس قال: "«الأواه»: الموقن".

عن مجاهد وعكرمة قالا:"«الأواه»: الموقن بلسان الحبشة".

وروي عن مجاهد قال:"فقيه موقن".

وروي عن ابن عباس قوله: "{إن إبراهيم لأواه}، يعني: التواب".

وعن مجاهد قال: "«الأواب»: المنيب".

وروي عن أبي أيوب قال: "«الأواه»: الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها".

وعن مجاهد في قول آخر: "«الأواه»: الحفيظ، الرجل يذنب الذنب سرا ثم يتوب منه سرا".

وروي عن أبي الدرداء قال: "لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أواه".

وعن الشعبي قوله:"«اواه»: المسبح".

قوله تعالى: {مُنِيبٌ} [هود: ٧٥]، أي:"تائب يرجع إلى الله في أموره كلها".

قال الطبري: أي:"رَجَّاع إلى طاعته".

قال ابن عباس:"المنيب: المقبل إلى طاعة الله".

عن مجاهد وعكرمة، قالا: المنيب: المخبت".

قال قتادة:"الله يثني عليه: {إن إبراهيم لحليم أواه منيب}، و «المنيب»: التائب".

عن مجاهد: "{أوّاه منيب}، قال: القانت: الرَّجاع".

قوله تعالى: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا} [هود: ٧٦]، أي:"قالت رسل الله: يا إبراهيم أعرض عن هذا الجدال في أمر قوم لوط والتماس الرحمة لهم".

قال الطبري:"فقالوا: دع عنك الجدالَ في أمرهم والخصومة فيه".

قال الزمخشري:"أى: قالت له الملائكة أعرض عن هذا الجدال وإن كانت الرحمة ديدنك، فلا فائدة فيه".

=

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧).

{وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ} حَزِنَ بِسَبَبِهِمْ {وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا} صَدْرًا لِأَنَّهُمْ حِسَان الْوُجُوه فِي صُورَة أَضْيَاف فَخَافَ عَلَيْهِمْ قَوْمه {وَقَالَ هَذَا يَوْم عَصِيب} شَدِيد.

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨).

=

قال كعب:"فكلمهم إبراهيم في أمر قوم لوط إن كان فيهم قالوا يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك".

قوله تعالى: {إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ} [هود: ٧٦]، أي:"فإنه قد جاء أمر ربك الذي قدَّره عليهم بهلاكهم".

قال الزمخشري:"وهو قضاؤه وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة".

قال الطبري:"يقول: قد جاء أمر ربك بعذابهم. وحقَّ عليهم كلمة العذاب، ومضى فيهم بهلاكهم القضاء".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} [هود: ٧٦]، أي:"وإنهم نازل بهم عذاب من الله غير مصروف عنهم ولا مدفوع".

قال مقاتل:"يعني: غير مدفوع عنهم، يعني: الخسف والحصب بالحجارة".

قال الطبري:"يقول: وإن قوم لوط، نازلٌ بهم عذابٌ من الله غير مدفُوع".

قال الزمخشري:"والعذاب نازل بالقوم لا محالة، لا مرد له بحدال ولا دعاء ولا غير ذلك".

{وَجَاءَهُ قَوْمه} لَمَّا عَلِمُوا بِهِمْ {يُهْرَعُونَ} يُسْرِعُونَ {إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْل} قَبْل مَجِيئِهِمْ {كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَات} وَهِيَ إِتْيَان الرِّجَال فِي الْأَدْبَار {قَالَ} لُوط {يَا قَوْم هَؤُلَاءِ بَنَاتِي} فَتَزَوَّجُوهُنَّ {هُنَّ أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون} تَفْضَحُونِ {فِي ضَيْفِي} أَضْيَافِي {أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُل رَشِيد} يَأْمُر بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنْ الْمُنْكَر.

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩).

{قَالُوا لَقَدْ عَلِمْت مَا لَنَا فِي بَنَاتك مِنْ حَقّ} حَاجَة {وَإِنَّك لَتَعْلَم مَا نُرِيد} مِنْ إِتْيَان الرِّجَال.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠).

{قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّة} طَاقَة {أَوْ آوِي إِلَى رُكْن شَدِيد} عَشِيرَة تَنْصُرنِي لَبَطَشْت بِكُمْ فَلَمَّا رَأَتْ الْمَلَائِكَة ذَلِكَ.

قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١).

{قَالُوا يَا لُوط إِنَّا رُسُل رَبّك لَنْ يَصِلُوا إِلَيْك} بِسُوءٍ {فَأَسْرِ بِأَهْلِك بِقِطَع} طَائِفَة {مِنْ اللَّيْل وَلَا يَلْتَفِت مِنْكُمْ أَحَد} لِئَلَّا يَرَى عَظِيم مَا يَنْزِل بِهِمْ {إِلَّا امْرَأَتك} بِالرَّفْعِ بَدَل مِنْ أَحَد وَفِي قِرَاءَة بِالنَّصْبِ اسْتِثْنَاء مِنْ الْأَهْل أَيْ فَلَا تَسْرِ بِهَا {إِنَّهُ مُصِيبهَا مَا أَصَابَهُمْ} فَقِيلَ لَمْ يَخْرُج بِهَا وَقِيلَ خَرَجَتْ وَالْتَفَتَتْ فَقَالَتْ وَاقَوْمَاه فَجَاءَهَا حَجَر فَقَتَلَهَا وَسَأَلَهُمْ عَنْ وَقْت هَلَاكهمْ فَقَالُوا {إِنَّ مَوْعِدهمْ الصُّبْح} فَقَالَ أُرِيد أَعْجَل مِنْ ذَلِكَ قَالُوا {أَلَيْسَ الصُّبْح بِقَرِيبٍ}.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ

(٨٢).

{فَلَمَّا جَاءَ أَمْرنَا} بِإِهْلَاكِهِمْ {جَعَلْنَا عَالِيَهَا} أَيْ قُرَاهُمْ {سَافِلهَا} أَيْ بِأَنْ رَفَعَهَا جِبْرِيل إلَى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض {وأمطرنا عليها حِجَارَة مِنْ سِجِّيل} طِين طُبِخَ بِالنَّارِ {مَنْضُود} متتابع.

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣).

{مُسَوَّمَة} مُعَلَّمَة عَلَيْهَا اسْم مَنْ يُرْمَى بِهَا {عِنْد رَبّك} ظَرْف لَهَا {وَمَا هِيَ} الْحِجَارَة أَوْ بِلَادهمْ {مِنْ الظَّالِمِينَ} أَيْ أَهْل مَكَّة {ببعيد}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ} [هود: ٧٧]، أي:"ولما جاءت ملائكتنا لوطًا ساءه مجيئهم".

أي: ولما جاءت ملائكتنا لوطًا ساءه مجيئهم واغتمَّ لذلك؛ وذلك لأنه لم يكن يعلم أنهم رسل الله، فخاف عليهم من قومه، وقال: هذا يوم بلاء وشدة.

وهؤلاء الملائكة الذين كانوا عند إبراهيم وكانوا على صورة غلمان مرد حسان الوجوه.

- قال الشنقيطي: ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن لوطا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، لما جاءته رسل ربه من الملائكة حصلت له بسبب مجيئهم مساءة عظيمة ضاق صدره بها، وأشار في مواضع متعددة إلى أن سبب مساءته وكونه ضاق بهم ذرعا، وقال هذا يوم عصيب: أنه ظن أنهم ضيوف من بني آدم، كما ظنه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وظن أن قومه ينتهكون حرمة ضيوفه فيفعلون بهم فاحشة اللواط ؛ لأنهم إن علموا بقدوم ضيف فرحوا واستبشروا به ليفعلوا به الفاحشة المذكورة.

فمن ذلك قوله هنا (وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رجل =

=

رشيد قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد).
وقوله في «الحجر» (وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا أولم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون).
قال ابن عباس:"يقول: ساء ظنًا بقومه".
قال كعب:"ساء مكانهم لما رأى منهم من الحال".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولما جاءت ملائكتنا لوطًا، ساءَه مَجيئهم".
قال مقاتل:"{ولما جاءت رسلنا}: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، {لوطا سيء بهم}، يعني: كرههم لصنيع قومه بالرجال مخافة أن يفضحوهم".
قال البيضاوي:"لأنهم جاءوه في صورة غلمان فظن أنهم أناس فخاف عليهم أن يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم".
قال الزمخشري:"كانت مساءة لوط وضيق ذرعه، لأنه حسب أنهم إنس، فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم. روى أن الله تعالى قال لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقا بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملا، يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها".
قال حذيفة: "لما جاءت الرسل لوطًا أتوه وهو في أرض له يعمل فيها، وقد قيل لهم، والله أعلم: لا تهلكوهم حتى يشهدَ لوط. قال: فأتوه فقالوا: إنا مُتَضيِّفوك الليلة، فانطلق بهم، فلما مضى ساعةً التفت فقال: أما تعلمون ما يعمَل أهل هذه القرية؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أناسًا أخبث منهم! قال: فمضى معهم. ثم قال الثانية مثل ما قال، فانطلق بهم. فلما بصرت بهم عجوزُ السَّوْء امرأته، انطلقَت

=

=

فأنذرتهم".

قال قتادة:"أتت الملائكة لوطًا وهو في مزرعة له، وقال الله للملائكة: إن شهد لوط عليهم أربعَ شهادات فقد أذنت لكم في هَلكتهم. فقالوا: يا لوط، إنا نريد أن نُضيِّفك الليلة. فقال: وما بلغكم من أمرهم؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشرُّ قرية في الأرض عملا! يقول ذلك أربع مرات، فشهد عليهم لوط أربع شهادات، فدخلوا معه منزله".

قوله تعالى: {وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا} [هود: ٧٧]، أي:"ضاق صدره بمجيئهم خشيةً عليهم من قومه الأشرار".

قال ابن عباس:"وضاق ذرعًا بأضيافه".

قال الطبري:"يقول: وضاقت نفسه غما بمجيئهم. وذلك أنه لم يكن يعلم أنهم رسلُ الله في حال ما ساءه مجيئهم، وعلم من قومه ما هم عليه من إتيانهم الفاحشة، وخاف عليهم، فضاق من أجل ذلك بمجيئهم ذرعًا، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه".

قال البيضاوي:"وضاق بمكانهم صدره، وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه".

قال ابن إسحاق:"خرجت الرسل فيما يزعم أهل التوراة من عند إبراهيم إلى لوط بالمؤتفكة، فلما جاءت الرسل لوطًا سيء بهم وضاق بهم ذرعًا، وذلك من تخوف قومه عليهم أن يفضحُوه في ضيفه، فقال: {هذا يوم عصيبٌ}".

يقول ابن كثير: "تبدى لهم الملائكة في صورة شباب حسان امتحانًا واختبارًا حتى قامت على قوم لوط الحجة، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر".

قوله تعالى: {وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} [هود: ٧٧]، أي:"وقال: هذا يوم بلاء وشدة".

=

=

وقال مقاتل:"وقال جبريل {هذا يوم عصيب} يعني: فظيع فاش شره عليهم".

قال الزمخشري:"يقال: يوم عصيب، وعصبصب، إذا كان شديدا من قولك: عصبه، إذا شده".

قال ابن عاشور: قوله تعالى (هذا يوم عصيب) قاله في نفسه كما يناجي المرء نفسه إذا اشتد عليه أمر.

والعصيب: الشديد فيما لا يرضي.

يقال: يوم عصيب إذا حدث فيه أمر عظيم من أحوال الناس أو أحوال الجوّ كشدة البرد وشدة الحرّ.

قال الطبري: أي: "وقال لوط: هذا اليوم يوم شديد شره، عظيم بلاؤه، يقال منه: عصب يومنا هذا يعصب عصبًا، ومنه قول عدي بن زيد:

وَكُنْتُ لِزَازَ خَصْمِكَ لمْ أُعَرِّدْ وَقَدْ سَلَكُوكَ فِي يَوْمٍ عَصِيب

وقول الراجز:

يَوْمٌ عَصِيبٌ يَعْصِبُ الأَبْطَالا عَصْبَ القَوِيِّ السَّلَمَ الطِّوَالا

وقول الآخر:

وَإِنَّكَ إنْ لا تُرْضِ بَكْرَ بنَ وَائِلٍ يَكُنْ لَكَ يَوْمٌ بالعِرَاقِ عَصِيبِ

وقال كعب بن جعيل:

ومُلَبُّونَ بِالحَضِيضِ فِئامٌ عَارِفاتٌ مِنْهُ بِيَوْمٍ عَصِيب"

عن ابن عباس، قوله: "{وقال هذا يوم عصيب}، أي: يوم شديد".

عن مجاهد: "{عصيب}: شديد".

عن قتادة، قال: "{هذا يوم عصيب}، يقول: شديد".

عن ابن إسحاق قال: "{هذا يوم عصيب}، أي: يوم بلاء وشدة".

=

=

عن جعفر:"{وقال هذا يوم عصيب}، قال: يوم سئ من قومي".
عن محمد بن كعب القرظي:"{وقال هذا يوم عصيب}، قال: يعصب شره".
قال السدي:"خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا نهر سَدُوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان، اسم الكبرى "ريثا"، والصغرى "زغرتا"، فقالوا لها: يا جارية، هل من منزل؟ قالت: نعم، فَمكانكم لا تدخُلوا حتى آتيكم! فَرِقَتْ عليهم من قَوْمها. فأتت أباها فقالت: يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسنَ منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم! وقد كان قومه نهوه أن يُضيف رجلا فقالوا: خَلِّ عنَّا فلنضِف الرجال! فجاء بهم، فلم يعلم أحدٌ إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، قالت: إن في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قَطّ! فجاءه قومه يُهْرَعون إليه".
قوله تعالى: {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ} [هود: ٧٨]، أي:"وجاء قومُ لوط يسرعون المشي إليه لطلب الفاحشة".
قال الزمخشري:"{يهرعون}: يسرعون كأنما يدفعون دفعا".
قال مجاهد:"يعني: الإسراع في المشي".
قال ابن عباس:"مسرعين".
قال قتادة:"يسرعون إليه".
قال شمر بن عطية:"أقبلوا يسرعون مشيا بين الهرولة والجمز".
قال سفيان بن عيينة:"كأنهم يدفعون".
قال ابن عاشور: وقد طوى القرآن ذكر الغرض الذي جاؤوا لأجله مع الإشارة إليه بقوله (ومن قبل كانوا يعملون السيّئات) فقد صارت لهم دأبًا لا يسعون إلاّ لأجله.
(وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أي: كانوا مِن قبل مجيئهم يأتون الرجال شهوة

=

=

دون النساء.

وقد ذكر الله تعالى أن قوم لوط كانوا أول من ارتكب هذه الفعلة القبيحة.

قال تعالى (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ).

وقد كانوا يتجاهرون بها:

قال تعالى في سورة النمل (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ).

وقال تعالى في سورة العنكبوت (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ...).

- قال ابن عاشور: وجملة (وأنتم تبصرون) حالٌ زيادة في التشنيع، أي تفعلون ذلك علنًا يبصر بعضكم بعضًا، فإن التجاهر بالمعصية معصية لأنه يدل على استحسانها وذلك استخفاف بالنواهي.

قوله تعالى: {وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ٧٨]، أي:"، وكانوا مِن قبل مجيئهم يأتون الرجال شهوة دون النساء".

قال ابن جريج:"يأتون الرجال".

قال الزمخشري:"ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها، فضروا بها ومرنوا عليها وقل عندهم استقباحها، فلذلك جاءوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء. وقيل معناه: وقد عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك".

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} [هود: ٧٨]، أي:"فقال لوط لقومه: هؤلاء بناتي تَزَوَّجوهن فهنَّ أطهر لكم مما تريدون".

عن كعب:"{هؤلاء بناتي هن أطهر لكم}، قال: تزوجوهن".

=

=

قال سعيد بن جبير:"إنما دعاهم إلى نسائهم قال: وكل نبي هو أبو أمته وكان في بعض القراءة: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم»".

وقوله تعالى: {هَؤُلَاءِ بَنَاتِي} [هود: ٧٨]، فيهن قولان:

أحدهما: أنه أراد نساء أمته ولم يرد بنات نفسه. قاله مجاهد.

قال مجاهد:"لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبي أبو أمته".

وقال سعيد بن جبير:"إنما دعاهم إلى نسائهم قال: وكل نبي هو أبو أمته وكان في بعض القراءة: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم»".

قال الخازن: وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب إن شاء الله تعالى والدليل عليه: أن بنات لوط كانتا اثنتين وليستا بكافيتين للجماعة، وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الأنبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار.

- وقال الرازي: وهذا القول عندي هو المختار، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر متبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء؟

الثاني: وهو أنه قال (هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) فبناته اللواتي من صلبه لا تكفي للجمع العظيم.

- وقال ابن عاشور: وقد رُويَ أنه لم يكن له إلاّ ابنتان، فالظّاهر أن إطلاق البنات هنا من قبيل التشبيه البليغ، أي هؤلاء نساؤهن كبناتي، وأراد نساءً من قومه بعدد القوم الذين جاءوا يُهرعون إليه.

وهذا معنى ما فسر به مجاهد، وابن جبير، وقتادة، وهو المناسب لجعلهنّ لقومه إذ

=

=

قال (هنّ أطهر لكم) فإن قومه الذين حضروا عنده كثيرون، فيكون المعنى: هؤلاء النساء فتَزَوّجوهنّ.

(هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) أي: أنزه وأنقى.

الثاني: أنه أراد بنات نفسه وأولاد صلبه لأن أمره فيهن أنفذ من أمره في غيرهن، وهو معنى قول حذيفة بن اليمان.

قال حذيفة بن اليمان:"عرض بناته عليهم تزويجا وأراد نبي الله ﷺ إن يفي بتزويج بناته".

فإن قيل: كيف يزوجهم ببناته مع كفر قومه وإيمان بناته؟

قيل عن هذا ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه كان في شريعة لوط يجوز تزويج الكافر بالمؤمنة، وكان هذا في صدر الإسلام جائزًا حتى نسخ، قاله الحسن.

قال الزمخشري:"أراد أن يقي أضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم، وأراد: هؤلاء بناتي فتزوجوهن وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزا، كما زوج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن وائل قبل الوحى وهما كافران، وقيل كان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه".

الثاني: أنه يزوجهم على شرط الإيمان كما هو مشروط بعقد النكاح. ذكره الماوردي.

الثالث: أنه قال ذلك ترغيبًا في الحلال وتنبيهًا على المباح ودفعًا للبادرة من غير بذل نكاحهن ولا بخطبتهن، قاله ابن أبي نجيح.

قال الزمخشري:"يجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم وإظهارا لشدة امتعاضه مما أوردوا عليه، طمعا في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك، فيتركوا له ضيوفه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن

=

=

لا مناكحة بينه وبينهم".

وقرأ ابن مروان: «هن أطهر لكم»، بالنصب، وضعفه سيبويه وقال: احتبى ابن مروان في لحنه. وعن أبى عمرو بن العلاء: من قرأ «هن أطهر» بالنصب فقد تربع في لحنه، وذلك أن انتصابه على أن يجعل حالا قد عمل فيها ما في «هؤلاء» من معنى الفعل، كقوله: هذا بعلي شيخا أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر، كأنه قيل: خذوا هؤلاء، وبناتي: بدل، ويعمل هذا المضمر في الحال، وهن فصل، وهذا لا يجوز لأن الفصل مختص بالوقوع بين جزأى الجملة، ولا يقع بين الحال وذى الحال، وقد خرج له وجه لا يكون هن فيه فصلا، وذلك أن يكون «هؤلاء» مبتدأ و «بناتي هن» جملة في موضع خبر المبتدإ، كقولك: هذا أخى هو، ويكون أطهر حالا.

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ} [هود: ٧٨]، أي:"اجعلوا بينكم وبين الله الوقاية بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، بأن توحدوه ولا تعبدوا غيره، وتطيعوه فلا ترتكبوا ما نهى عنه من المعاصي، وبخاصة تلك الفاحشة القبيحة".

قال الزمخشري: أي:"بإيثارهن عليهم".

قوله تعالى: {وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي} [هود: ٧٨]، أي:"ولا تفضحوني بالاعتداء على ضيفي".

قال الزمخشري: أي:"ولا تهينونى ولا تفضحوني، من الخزي. أو ولا تخجلوني، من الخزاية وهي الحياء في ضيفي في حق ضيوفى فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة".

قال وهب بن منبه: "فدخلوا على لوط يعني الملائكة فلما رأتهم امرأته أعجبها حسنهم وجمالهم فأرسلت إلى أهل القرية أنه قد نزل بنا قوم لم نر قوما أحسن منهم ولا أجمل فتسامعوا بذلك فغشوا دار لوط من كل ناحية تسوروا عليهم

=

=

الجدران فلقيهم لوط فقال: يا قوم لا تفضحوني في ضيفي وإني أزوجكم بناتي ف هن أطهر لكم فقالوا: لو كنا نريد بناتك لقد عرفنا مكانهم ولكن لا بد لنا من هؤلاء القوم الذين نزلوا بك، خل بيننا وبينهم".

وقرئ: «ولا تخزون»، بطرح الياء.

قوله تعالى: {أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [هود: ٧٨]، أي:"أليس منكم رجل ذو رشد، ينهى من أراد ركوب الفاحشة، فيحول بينهم وبينها".

قال مقاتل:"يقول: ما منكم رجل مرشد".

قال ابن عباس:"يقول: أليس منكم واحد يقول لا إله إلا الله".

قال أبو مالك:"رجل يأمر بالمعروف وينهى، عن المنكر". وروي عن ابن عباس مثله.

قال الزمخشري: "رجل واحد يهتدى إلى سبيل الحق وفعل الجميل، والكف عن السوء".

قال ابن عاشور: "قوله: (منكم) بمعنى بعضكم أنكر عليهم تمالؤهم على الباطل وانعدام رجل رشيد من بينهم، وهذا إغراء لهم على التعقل ليظهر فيهم من يتفطّن إلى فساد ما هم فيه فينهاهم، فإنّ ظهور الرشيد في الفئة الضالة يفتح باب الرشاد لهم، وبالعكس تمالؤُهم على الباطل يزيدهم ضراوة به".

قوله تعالى: {قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ} [هود: ٧٩]، أي:"قال قوم لوط له: لقد علمتَ من قبلُ أنه ليس لنا في النساء من حاجة أو رغبة، وإنك لتعلم ما نريد، أي لا نريد إلا الرجال ولا رغبة لنا في نكاح النساء".

قال البيضاوي: أي:"من حاجة".

قال السمعاني:"معناه: إنا نريد أدبار الرجال".

عن ابن إسحاق:"{قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق}، أي: من أزواج".

=

=

وفي قوله تعالى: {قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ} [هود: ٧٩]، وجهان:
أحدهما: ما لنا في بناتك من حق، أي: حاجة وشهوة.
والثاني: ما لنا في بناتك من حق، أي: من نكاح.
قال البغوي:"أي: لسن أزواجا لنا فنستحقهن بالنكاح".
قال الثعلبي:"أي: ليس لنا أزواجا نلتصقهن بالتزويج".
قال الزمخشري:"ثم قالوا لقد علمت مستشهدين بعلمه ما لنا في بناتك من حق لأنك لا ترى مناكحتنا، وما هو إلا عرض سابرى ، وقيل: لما اتخذوا إتيان الذكران مذهبا ودينا لتواطؤهم عليه، كان عندهم أنه هو الحق، وأن نكاح الإناث من الباطل، فلذلك قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط، لأن نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه. ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة، والغرض نفى الشهوة لتعلم ما نريد عنوا إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة".
نقل الماوردي عن ابي مالك:"ولم يؤمن بلوط إلا ابنتاه رقية وهي الكبرى وعروبة وهي الصغرى".
نقل ابن الجوزي عن مقاتل أن اسمي بنتي لوط -عليه السلام-: ريثا وزعرثا، وعن السدي: رية وعروبة.
قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ} [هود: ٧٩]، أي:"وأنت تعلم غرضنا".
قال البيضاوي:"وهو إتيان الذكران".
قال الثعلبي: أي: "من إتيان الأضياف".
قال السمعاني:"معناه: إنا نريد أدبار الرجال".
قال الطبري:"يقول: قالوا: وإنك يا لوط لتعلم أنَّ حاجتنا في غير بناتك، وأن الذي نُريد هو ما تنهانَا عنه".
عن السدي:"{وإنك لتعلم ما نريد}، إنما نريد الرجال".

=

=

عن محمد بن إسحاق:" {وإنك لتعلم ما نريد}، إن بغيتنا لغير ذلك".

وقال الكلبي:"تعلم أننا لا نتزوج إلا بامرأة واحدة وليس منا رجل إلا له امرأة".

قوله تعالى: {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)} [هود: ٨٠]

قال لهم حين أبوا إلا فعل الفاحشة: لو أن لي بكم قوة وأنصارًا معي، أو أركَن إلى عشيرة تمنعني منكم، لَحُلْتُ بينكم وبين ما تريدون.

قوله تعالى: {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً} [هود: ٨٠]، أي:"لو كان لي قوة أستطيع أن أدفع أذاكم بها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال لوط لقومه حين أبوا إلا المضي لما قد جاؤوا له من طلب الفاحشة، وأيس من أن يستجيبوا له إلى شيء مما عرض عليهم: {لو أن لي بكم قوة}، بأنصار تنصرني عليكم وأعوان تعينني".

قال الزمخشري:"جواب «لو» محذوف، كقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَال} [الرعد: ٣١]، يعنى: لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت. يقال: مالى به قوة، وما لي به طاقة. ونحوه لا قبل لهم بها ومالى به يدان، لأنه في معنى: لا اضطلع به ولا أستقل به. والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي".

قوله تعالى: {أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [هود: ٨٠]، أي:"ألجأ إلى عشيرة وأنصار تنصرني عليكم".

قال الطبري:"يقول: أو أنضم إلى عشيرة مانعة تمنعني منكم، لحلت بينكم وبين ما جئتم تريدونه منِّي في أضيافي، وحذف جواب «لو» لدلالة الكلام عليه، وأن معناه مفهوم".

قال الزمخشري:"جواب «لو» محذوف، كقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَال} [الرعد: ٣١]، يعنى: لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت. يقال: مالى به قوة، وما لي به طاقة. ونحوه لا قبل لهم بها ومالى به يدان، لأنه في معنى: لا

=

=

اضطلع به ولا أستقل به. والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي".

قال الصابوني:"وجواب «لو» محذوف تقديره: لبطشتُ بكم".

قال الزمخشري: أي:"أو أويت إلى قوى أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم. فشبه القوى العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته، ولذلك قالت الملائكة- وقد وجدت عليه-: إن ركنك لشديد... وروى أنه أغلق بابه حين جاؤوا وجعل يرادهم ما حكى الله عنه ويجادلهم، فتسوروا الجدار".

قال وهب بن منبه:"قال لوط: {لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد}، فوجد عليه الرسلُ وقالوا: إنَّ ركنَك لشديد!".

عن السدي: "قال لوط: {قال لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد}، يقول: إلى جُنْد شديد، لقاتلتكم".

عن ابن إسحاق قال: "{لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد}، أي: عشيرة تمنعني أو شيعة تنصرني، لحلت بينكم وبين هذا".

عن قتادة: "{أو آوى إلى ركن شديد}، قال: العشيرة".

عن الحسن: "{أو آوى إلى ركن شديد}، قال: إلى ركن من الناس".

قال ابن جريج:"بلغنا أنه لم يبعث نبيٌّ بعد لوط إلا في ثَرْوَة من قومه، حتى النبي ﷺ".

عن الحسن قال، قال رسول الله ﷺ: "رحم الله أخي لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، فلأيّ شيء استكان!".

عن أبي هريرة، قال: "قال رسول الله ﷺ: رحمة الله على لوط، إن كان ليأوي إلى ركن شديد، إذ قال لقومه: {لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد}، ما بعث الله بعدَه من نبيّ إلا في ثَرْوة من قومه، قال محمد: و «الثروة»، الكثرة والمنعة".

قال النووي: قول النبي ﷺ (وَيَرْحَم الله لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْن شَدِيد)

=

=

فالمراد بالركن الشديد هو الله سبحانه وتعالى، فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها ومعنى الحديث والله أعلم: أن لوطا ﷺ لما خاف على أضيافه ولم يكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم، فغلب ذلك عليه فقال في ذلك الحال: "لو أن لي بكم قوة " في الدفع بنفسي " أو آوي " إلى عشيرة تمنع لمنعتكم وقصد لوط ﷺ إظهار العذر عند أضيافه، وأنه لو استطاع دفع المكروه عنهم بطريق ما لفعله وأنه بذل وسعه في إكرامهم والمدافعة عنهم، ولم يكن ذلك إعراضا منه ﷺ عن الاعتماد على الله تعالى، وإنما كان لما ذكرناه من تطييب قلوب الأضياف ويجوز أن يكون نسي الالتجاء إلى الله تعالى في حمايتهم، ويجوز أن يكون التجأ فيما بينه وبين الله تعالى وأظهر للأضياف التألم وضيق الصدر. والله أعلم.

وقال ابن كثير:"وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه، فطمست أعينهم، حتى قيل غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا أثر... قال تعالى: {وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ [القمر: ٣٧]".

وقرئ «أو آوى»، بالنصب بإضمار «أن»، كأنه قيل: لو أن لي بكم قوة أو أويا، وقرئ: «إلى ركن»، بضمتين.

قوله تعالى: {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ} [هود: ٨١]، أي:"قالت الملائكة: يا لوط إنَّا رسل ربك أَرْسَلَنا لإهلاك قومك، وإنهم لن يصلوا إليك".

قال الطبري:"قالت الملائكة للوط، لما قال لوط لقومه {لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد}، ورأوا ما لقي من الكرب بسببهم منهم: {يا لوط إنا رسل ربك}، أرسلنا لإهلاكهم، وإنهم لن يصلوا إليك وإلى ضيفك بمكروه، فهون عليك الأمر".

=

=

عن محمد بن كعب القرظي -من طريق محمد بن إسحاق- قال: "إنّ الرُّسُلَ عند ذلك سَفَعُوا في وجوه القوم الذين جاءوا لوطًا من قومه يُراوِدُونه عن ضيفه، فرجعوا عُمْيانًا. قال: يقول الله: {ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم} [القمر: ٣٧]".

روى:"أنهم جاءوا وكسروا باب لوط وقصدوا الدخول. وفي رواية أخرى: أنهم كانوا ينازعون مع لوط على الباب، فقال جبريل: يا لوط، افتح الباب ودعهم يدخلوا، فلما دخلوا ضرب بجناحه وجوههم فعموا كلهم، وهذا معنى قوله تعالى: {ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم} فقالوا: يا لوط، لقد جئتنا بقوم سحرة، سترى ما تلقى منا غدا، وكانوا جاءوا مساء".

عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- في قوله: {ولَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أعْيُنَهُمْ}، قال: عمّى الله عليهم الملائكةَ حين دخلوا على لوط".

عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- في قوله: {فَطَمَسْنا أعْيُنَهُمْ}، قال: "ذُكر لنا: أنّ جبريل استأذن ربّه في عقوبتهم ليلةَ أتَوا لوطًا، وأنهم عاجلوا الباب ليدخلوا عليهم، فصفَقهم بجَناحه، فتركهم عُميانًا يتردّدون".

عن الضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق عبيد- في قوله: "{ولَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ}: "جاءت الملائكة في صور الرجال، وكذلك كانت تجيء، فرآهم قومُ لوط حين دخلوا القرية، وقيل لهم: نزلوا بلُوط، فأقبلوا إليهم يريدونهم، فتلقّاهم لوط يناشدهم الله أن لا يخزوه في ضَيفه، فأبَوا عليه، وجاءوا ليدخلوا عليه، فقالت الرُّسُل للُوط: خلِّ بينهم وبين الدخول، فإنّا رسل ربك، لن يصلوا إليك. فدخلوا البيت، وطمس الله على أبصارهم، فلم يَرَوهم؛ وقالوا: قد رأيناهم حين دخلوا البيت، فأين ذهبوا؟! فلم يَرَوهم، ورجعوا".

قوله تعالى: {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ} [هود: ٨١]، أي:"فاخرج من هذه

=

=

القرية أنت وأهلك ببقية من الليل".

وبين في سورة القمر أنه تعالى طمس أعينهم، وذلك في قوله (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر).

ولم يبين هنا هل هو من آخر الليل، أو وسطه أو أوله، ولكنه بين في «القمر» أن ذلك من آخر الليل وقت السحر، وذلك في قوله (إلا آل لوط نجيناهم بسحر).

ولم يبين هنا أنه أمره أن يكون من وراءهم وهم أمامه، ولكنه بين ذلك في «الحجر» بقوله (فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون).

- قوله (بأهلك) يفهم منه أنه لم يؤمن به إلا أهله.

قال الطبري:"يقول: فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل".

قال الزجاج:"أي: بظلمة من الليل. يقال: معنى قطع من الليل أي قطعة صالحة، وكذلك مضى عنك من الليل، وسعو من الليل".

قال ابن كثير:"أمروه أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتَّبع أدبارهم، أي: يكون ساقة لأهله".

عن قتادة:"{بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ}، قال: بطائفة من الليل أي سواد".

قال أبو الصخر:"السحر الأول".

ويقرأ: «فأسر» بإثبات الهمزة في " اللفظ، ويقرأ: فاسر يقال أسريت، وسريت إذا سرت ليلا.

قوله تعالى: {وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ} [هود: ٨١]، أي:"ولا يلتفت منكم أحد وراءه؛ لئلا يرى العذاب فيصيبه".

قال ابن عباس:"ولا يتخلف منكم أحد".

قال مجاهد:"لا ينظر وراءه أحد".

=

=

قال ابن كثير:"أي: إذا سمعتما نزل بهم، ولا تهولنَّكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين كما أنتم".

قوله تعالى: {إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ} [هود: ٨١]، أي:"لكنَّ امرأتك التي خانتك بالكفر والنفاق سيصيبها ما أصاب قومك من الهلاك".

قرأه جمهور القراء إلا امرأتك، بالنصب، وعليه فالأمر واضح ؛ لأنه استثناء من الأهل، أي أسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسر بها، واتركها في قومها فإنها هالكة معهم.

ويدل لهذا الوجه قوله فيها في مواضع (كانت من الغابرين)، والغابر: الباقي، أي من الباقين في الهلاك.

ويحتمل أن يكون من قوله (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) أي: فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم.

قال ابن كثير: والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم.

قال مقاتل:"فالتفتت فأصابها حجر فقتلها".

قال قتادة:"ذكر لنا أنها كانت مع لوط لما خرج من القرية فسمعت الصوت فالتفتت فأرسل عليها حجرا فأهلكها فهي معلوم مكانها شاذة، عن القوم".

قال الطبري:"ولا يلتفت منكم أحد، إلا امرأتك، فإن لوطًا قد أخرجها معه، وإنه نهي لوط ومن معه ممن أسرى معه أن يلتفت سوى زوجته، وأنها التفتت فهلكت لذلك، وقوله: {إنه مصيبها ما أصابهم}، يقول: إنه مصيب امرأتك ما أصاب قومك من العذاب".

قال ابن كثير:"{إِلا امْرَأَتَكَ} قال الأكثرون: هو استثناء من المثبت وهو قوله: {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ} تقديره {إِلا امْرَأَتَكَ} وكذلك قرأها ابن مسعود ونصب هؤلاء امرأتك؛ لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم، وقال آخرون من القراء والنحاة: هو

=

=

استثناء من قوله: {وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ} فجَّوزوا الرفع والنصب، وذكر هؤلاء وغيرهم من الإسرائيليات أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوَجْبَة التفتت وقالت: واقوماه. فجاءها حجر من السماء فقتلها".

قوله تعالى: {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ} [هود: ٨١]، أي:"إن موعد هلاكهم الصبح".

قال الطبري:"يقول: إن موعد قومك الهلاك الصبح".

قوله تعالى: {أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} [هود: ٨١]، أي:"أليس وقت الصبح قريبًا؟".

قال الطبري:"فاستبطأ ذلك منهم لوط وقال لهم: بلى عجِّلوا لهم الهلاك! فقالوا: {أليس الصبح بقريب}، أي: عند الصبح نزولُ العذاب بهم".

قال مقاتل:"قال لوط لجبريل: عجل علي بهلاكهم الآن فرد عليه جبريل أليس الصبح بقريب؟".

عن ابن إسحاق: "{أليس الصبح بقريب}، أي: إنما ينزل بهم من صبح ليلتك هذه، فامض لما تؤمر".

قال السدي:"وقال لوط: أهلكوهم الساعة! فقالوا: إنا لم نؤمر إلا بالصبح، أليس الصبح بقريب؟".

قال الماتريدي:"كأن لوطا استبطأ الصبح لعذابهم، فقالوا: {أليس الصبح بقريب}، هذا من لوط لا يحتمل أن يكون قال ذلك وهو بين أظهرهم، ويعلم أن قراه يقلب أعلاها أسفلها، وأسفلها أعلاها، ولكن قال ذلك -والله أعلم- بعدما أخرجوه وأهله من بين أظهرهم، فعند ذلك قال ما قال، واستبطأ وقت نزول العذاب بهم؛ والله أعلم".

قال ابن كثير:"ثم قربوا له هلاك قومه تبشيرًا له؛ لأنه قال لهم: "أهلكوهم الساعة"، فقالوا: {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}، هذا وقومُ لُوطٍ

=

=

وقُوف على الباب وعُكوف قد جاءوا يُهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر: ٣٧ - ٣٩]".

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن موعد إهلاك قوم لوط وقت الصبح من تلك الليلة، وكذلك قال في «الحجر» في قوله: (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) وزاد في «الحجر» أن صبيحة العذاب وقعت عليهم وقت الإشراق، وهو وقت طلوع الشمس بقوله (فأخذتهم الصيحة مشرقين).

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا} [هود: ٨٢]، أي:"فلما جاء أمرنا بنزول العذاب بهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولما جاء أمرنا بالعذاب وقضاؤنا فيهم بالهلاك".

قال ابن كثير:"كان ذلك عند طلوع الشمس".

قوله تعالى: {جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا} [هود: ٨٢]، أي:"جعلنا عالي قريتهم التي كانوا يعيشون فيها سافلها فقلبناها".

قال ابن عباس: "فلما كان في جوف الليل أدخل جناحيه تحت القرية فرفعها حتى إذا كانت في جو السماء حتى إنهم ليسمعون أصوات الطير قلبها ثم تتبع الشذاذ من خرج منهم بالحجارة".

قال مجاهد: "أخذ جبريل عليه السلام قوم لوط من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وامتعتهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم".

قال قتادة:"بلغنا أن جبريل عليه السلام أخذ بعُرْوة القرية الوُسْطى، ثم ألوَى بها إلى

=

=

السماء، حتى سمع أهل السماء ضَواغِي كلابهم، ثم دمَّر بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعهم الحجارة، قال قتادة: وبلغنا أنهم كانوا أربعة آلاف ألف".

وفي رواية أخرى عن قتادة، قال: "قرية لوط حيث رفعها جبريل وفيها أربعمائة ألف فسمع أهل السماء نباح الكلاب وأصوات الديك ثم قلب أسفلها أعلاها".

وقال قتادة:"ذكر لنا أنها ثلث قرى فيها من العدد ما شاء الله أن يكون من الكثرة. ذكر لنا أنه كان فيها أربعة آلاف ألف وهي سدوم قرية بين المدينة والشام".

عن حذيفة بن اليمان قال: "واستأذن جبريل في هلاكهم فأذن له فاحتمل الأرض التي كانوا عليها وأهوى بها حتى سمع أهل سماء الدنيا ضغا كلابهم وأوقد تحتهم نارا ثم قلبها بهم فسمعت امرأته الوجبة وهي معهم فالتفتت فأصابها العذاب وتبعت سفاهم بالحجارة".

قوله تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ} [هود: ٨٢]، أي:"وأمطرنا عليهم حجارة من طين متصلِّب متين، قد صُفَّ بعضها إلى بعض متتابعة".

وفي قوله تعالى: {مِنْ سِجِّيلٍ} [هود: ٨٢]، تسعة أقوال:

أحدها: أنه فارسي معرب، وهو «سنك وكيل»، فالسنك: الحجر، و «الكيل» الطين، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ووهب.

قال الزجاج:"قال الناس في سجيل أقوالا، ففي التفسير أنها من جل وحجارة. وقال أهل اللغة: هو فارسي معرب، والعرب لا تعرف هذا. والذي عندي أنه إذا كان هذا التفسير صحيحا فهو فارسي أعرب لأن الله - جل وعز - قد ذكر هذه الحجارة في قصة قوم لوط، فقال: {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ} [الذاريات: ٣٣]، فقد تبين للعرب ما عني بـ سجيل، ومن كلام الفرس ما لا يحصى مما قد أعربته العرب، نحو: جاموس وديباج. فلا أنكر أن هذا مما أعرب".

=

=

الثاني: فارسية ونبطية: «سج»، «إيل». قاله سعيد بن جبير.

قال الطبري:"فذهب سعيد بن جبير في ذلك إلى أن اسم الطين بالفارسية "جل " لا "إيل"، وأن ذلك لو كان بالفارسية لكان "سِجْل " لا "سجيل"، لأن الحجر بالفارسية يدعى "سج "والطين "جل"، فلا وجه لكون الياء فيها وهي فارسية".

الثالث: أنه طين قد طبخ حتى صار كالأرحاء، ذكره ابن عيسى.

الرابع: أنه الحجارة الصلبة الشديدة، قاله أبو عبيدة ، وأنشد قول ابن مقبل:

وَرَجْلةً يَضْرِبُونَ البَيْضَ عَنْ عُرُض ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّيلا

إلا أن النون قلبت لامًا.

الخامس: {من سجيل}، يعني: من سماء الدنيا، والسماء الدنيا اسمها «سجيل»، قاله ابن زيد.

السادس: {من سجيل} من جهنم، واسمها «سجين» فقلبت النون لامًا.

السابع: أن «السجيل»، من: «السجل»، وهو «الكتاب»، وتقديره من مكتوب الحجارة التي كتب الله تعالى أن يعذب بها أو كتب عليها، وفي التنزيل {كلا إن كتاب الفجار لفي سجين. وما أدراك ما سجين. كتاب مرقوم} [المطففين: ٧ - ٩].

الثامن: أنه «فِعِّيل» من السجل وهو الإرسال، يقال: أسجلته، أي: أرسلته، ومنه سمي الدلو سجلًا لإرساله فكان السجل هو المرسل عليهم. حكاه الطبري عن آخرين.

التاسع: أنه مأخوذ من «السجل» الذي هو «العطاء»، يقال: سجلت له سجلًا من العطاء، فكأنه قال سُجلوا البلاء، أي: أعطوه. حكاه الطبري عن آخرين.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله المفسرون، وهو أنها حجارة من طين، وبذلك وصفها الله في كتابه في موضع، وذلك قوله: {لِنُرْسِلَ

=

=
عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ} [سورة الذاريات: ٣٣، ٣٤]".

وفي معنى قوله تعالى: {مَنْضُودٍ} [هود: ٨٢]، قولان:

أحدهما: قد نُضِّد بعضه على بعض، قال الربيع بن انس.

وروي عن أبي بكر الهذلي بن عبد الله: "أما قوله: {منضود}، فإنها في السماء منضودة: معدَّة، وهي من عُدَّة الله التي أعَدَّ للظلمة".

الثاني: مصفوف، قاله قتادة، وعكرمة.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك ما قاله الربيع بن أنس، وذلك أن قوله: {منضود} من نعت "سجيل"، لا من نعت "الحجارة"، وإنما أمطر القوم حجارة من طين، صفة ذلك الطين أنه نُضِد بعضه إلى بعض، فصُيِّر حجارة، ولم يُمْطَرُوا الطين، فيكونَ موصوفًا بأنه تتابع على القوم بمجيئه، وإنما كان جائزًا أن يكون على ما تأوّله هذا المتأوّل لو كان التنزيل بالنصب "منضودةً"، فيكون من نعت "الحجارة " حينئذ".

قوله تعالى: {مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ} [هود: ٨٣]، أي:"أن هذه الحجارة التي أمطروا بها من السماء كانت معلَّمة ومميزة عند الله بما يدل على أَنها ليست من حجارة الأرض وأنه – سبحانه – أعدّها لعذاب هؤلاء.

قال أبو عبيدة:"أي: معلمة بالسيماء وكانت عليها أمثال الخواتيم".

قال الطبري:"يقول: معلمة عند الله، أعلمها الله".

قال ابن كثير:"أي: مُعْلَمَة مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه... وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدّث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدّمره، فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد، حتى
=

=

أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد".

عن ابن عباس قوله: "{مسومة}، يقول معلمة".

عن مجاهد: "{مسوّمة}، قال: معلمة".

وفي علامتها أقوال:

أحدها: أنها كانت مختمة، على كل حجر منها اسم صاحبه.

عن السدي: "{مسومة} قال: «المسومة»، المختَّمة".

الثاني: معلمة ببياض في حمرة، على قول ابن عباس.

وعن قتادة، قوله: "{مسومة}، حدثني من رآها أنها حجارة مطوقة عليها نصح من حمرة ليست كحجارتكم هذه".

والثالث: مطوقة بسواد وحمرة. قاله قتادة.

والرابع: عليها سيما خطوط. قاله الربيع.

وفي قوله تعالى: {عِنْدَ رَبِّكَ} [هود: ٨٣]، وجهان:

أحدهما: في علم ربك، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

الثاني: في خزائن ربك لا يملكها غيره ولا يتصرف فيها أحد إلا بأمره.

قوله تعالى: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هود: ٨٣]، أي:"وليست تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر ببعيدة من غيرهم من كل ظالم يأثَم إثمهم ويظلم ظلمهم.

اختلف العلماء في هذه الآية على قولين:

القول الأول: أي وما هذه القرى المهلكة ببعيدة عن قومك (كفار قريش)، فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون.

كما قال تعالى (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون)

وقال تعالى (وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين).

=

=

وعلى هذا القول فالضمير في قوله: وما هي راجع إلى ديار قوم لوط المفهومة من المقام.

والثاني: الضمير يعود على الحجارة.

أي: وما تلك الحجارة التي أمطرت على قوم لوط ببعيد من الظالمين للفاعلين مثل فعلهم، فهو تهديد لمشركي العرب كالذي قبله.

ومن الآيات الدالة على هذا الوجه قوله تعالى (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها). فإن قوله (وللكافرين أمثالها) ظاهر جدا في ذلك، والآيات بنحو ذلك كثيرة.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره متهددًا مشركي قريش: وما هذه الحجارة التي أمطرتها على قوم لوط، من مشركي قومك، يا محمد، ببعيد أن يمطروها، إن لم يتوبوا من شركهم".

عن مجاهد، في قوله: "{وما هي من الظالمين ببعيد}، قال: أن يصيبهم ما أصاب القوم". وفي رواية أخرى:"يُرْهِب بها من يشاء". وفي رواية:"يرهب بها قريش".

وعن قتادة: "{وما هي من الظالمين ببعيد}، يقول: ما أجار الله منها ظالمًا بعد قوم لوط".

وعن قتادة وعكرمة: "{وما هي من الظالمين ببعيد}، يقول: لم يترك منها ظالمًا بعدهم".

عن قتادة أيضا: في قوله: "{وما هي من الظالمين ببعيد}، قال: يعني ظالمي هذه الأمة. قال: والله ما أجارَ منها ظالمًا بعدُ!".

عن السدي: "{وما هي من الظالمين ببعيد}، يقول: من ظَلَمة العرب، إن لم يتوبوا فيعذّبوا بها".

عن أبي بكر الهذلي بن عبد الله قال: "يقول: {وما هي من الظالمين ببعيد}، من

=

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤).

{و} أَرْسَلْنَا {إِلَى مَدْيَن أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْم اُعْبُدُوا الله} وَحِّدُوهُ {مَا لَكُمْ مِنْ إلَه غَيْره وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَال وَالْمِيزَان إنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ} نِعْمَة تُغْنِيكُمْ عَنْ التَّطْفِيف {وَإِنِّي أَخَاف عَلَيْكُمْ} إنْ لَمْ تُؤْمِنُوا {عَذَاب يَوْم مُحِيط} بِكُمْ يُهْلِككُمْ وَوَصْف الْيَوْم بِهِ مَجَاز لِوُقُوعِهِ فِيهِ.

وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥).

{وَيَا قَوْم أَوْفُوا الْمِكْيَال وَالْمِيزَان} أَتِمُّوهُمَا {بِالْقِسْطِ} بِالْعَدْلِ {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاس أَشْيَاءَهُمْ} لَا تُنْقِصُوهُمْ مِنْ حَقّهمْ شَيْئًا {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْض مُفْسِدِينَ} بِالْقَتْلِ وَغَيْره مِنْ عَثِيَ بِكَسْرِ الْمُثَلَّثَة أَفْسَدَ وَمُفْسِدِينَ حَال مُؤَكِّدَة لِمَعْنَى عَامِلهَا تَعْثَوْا.

بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦).

{بقيت الله} رِزْقه الْبَاقِي لَكُمْ بَعْد إيفَاء الْكَيْل والوزن {خير لكم} من البخس {إن كنتم مؤمنين} {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} رَقِيب أُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ إنَّمَا بُعِثْت نَذِيرًا.

قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧).

{قَالُوا} لَهُ اسْتِهْزَاء {يَا شُعَيْب أَصَلَاتك تَأْمُرك} بِتَكْلِيفِ {أَنْ نَتْرُك مَا يَعْبُد

=

ظلمة أمتك ببعيد، فلا يأمنها منهم ظالم".

آبَاؤُنَا} مِنْ الْأَصْنَام {أَوْ} نَتْرُك {أَنْ نَفْعَل فِي أَمْوَالنَا مَا نَشَاء} الْمَعْنَى هَذَا أَمْر بَاطِل لَا يَدْعُو إلَيْهِ دَاعٍ بِخَيْرٍ {إنَّك لَأَنْت الْحَلِيم الرَّشِيد} قَالُوا ذَلِكَ اسْتِهْزَاء.

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨).

{قَالَ يَا قَوْم أَرَأَيْتُمْ إنْ كُنْت عَلَى بينة من ربي ورزقني منه رِزْقًا حَسَنًا} حَلَالًا أَفَأُشَوِّبهُ بِالْحَرَامِ مِنْ الْبَخْس وَالتَّطْفِيف {وَمَا أُرِيد أَنْ أُخَالِفكُمْ} وَأَذْهَب {إلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} فَأَرْتَكِبهُ {إنْ} مَا {أُرِيد إلَّا الْإِصْلَاح} لَكُمْ بِالْعَدْلِ {مَا اسْتَطَعْت وَمَا تَوْفِيقِي} قُدْرَتِي عَلَى ذَلِكَ وَغَيْره مِنْ الطَّاعَات {إلَّا بِاَللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْت وَإِلَيْهِ أُنِيب} أَرْجِع.

وَيَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩).

{وَيَا قَوْم لَا يَجْرِمَنكُمْ} يَكْسِبَنكُمْ {شِقَاقِي} خِلَافِي فَاعِل يَجْرِم وَالضَّمِير مَفْعُول أَوَّل وَالثَّانِي {أَنْ يُصِيبكُمْ مِثْل مَا أَصَابَ قَوْم نُوح أَوْ قَوْم هُود أَوْ قَوْم صَالِح} مِنْ الْعَذَاب {وَمَا قَوْم لُوط} أَيْ مَنَازِلهمْ أَوْ زَمَن هَلَاكهمْ {مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} فَاعْتَبِرُوا.

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠).

{وَاسْتَغْفِرُوا رَبّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ إنَّ رَبِّي رَحِيم} بِالْمُؤْمِنِينَ {وَدُود} مُحِبّ لَهُمْ.

قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١).

{قَالُوا} إيذانًا بِقِلَّةِ الْمُبَالَاة {يَا شُعَيْب مَا نَفْقَه} نَفْهَم {كَثِيرًا مِمَّا تَقُول وَإِنَّا لَنَرَاك فِينَا ضَعِيفًا} ذَلِيلًا {وَلَوْلَا رَهْطك} عَشِيرَتك {لَرَجَمْنَاك} بِالْحِجَارَةِ {وَمَا أَنْت عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} كَرِيم عَنْ الرَّجْم وَإِنَّمَا رَهْطك هُمْ الْأَعِزَّة.

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢).

{قَالَ يَا قَوْم أَرَهْطِي أَعَزّ عَلَيْكُمْ مِنْ الله} فَتَتْرُكُوا قَتْلِي لِأَجْلِهِمْ وَلَا تَحْفَظُونِي لِلَّهِ {وَاتَّخَذْتُمُوهُ} أَيْ الله {وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا} مَنْبُوذًا خَلْف ظُهُوركُمْ لَا تُرَاقِبُونَهُ {إنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيط} عِلْمًا فَيُجَازِيكُمْ.

وَيَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣).

{وَيَا قَوْم اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتكُمْ} حَالَتكُمْ {إنِّي عَامِل} عَلَى حَالَتِي {سَوْف تَعْلَمُونَ مَنْ} مَوْصُولَة مَفْعُول الْعِلْم {يَأْتِيه عَذَاب يُخْزِيه وَمَنْ هُوَ كَاذِب وَارْتَقِبُوا} انْتَظِرُوا عَاقِبَة أَمْركُمْ {إنِّي مَعَكُمْ رقيب} منتظر.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤).

{وَلَمَّا جَاءَ أَمْرنَا} بِإِهْلَاكِهِمْ {نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَة} صَاحَ بِهِمْ جِبْرِيل {فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارهمْ جَاثِمِينَ} بَارِكِينَ عَلَى الرُّكَب مَيِّتِينَ.

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

{كَأَنْ} مُخَفَّفَة أَيْ كَأَنَّهُمْ {لَمْ يَغْنَوْا} يُقِيمُوا {فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت

ثمود}[١].

(١) قوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [هود: ٨٤]، أي:"وأرسلنا إلى «مدين» أخاهم شعيبًا، وهو معطوف على قوله (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه)".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأرسلنا إلى وَلَد مدين أخاهم شعيبًا".

قال السدي:"إن الله تبارك وتعالى بعث شعيبا إلى مدين، وإلى أصحاب الأيكة، والأيكة هي الغيضة من الشجر".

وفي تسميتهم بذلك قولان:

أحدهما: لأنهم بنو مدين بن إبراهيم، فقيل مدين والمراد بنو مدين، كما يقال: مضر، والمراد: بنو مضر.

الثاني: أن «مدين»: اسم مدينتهم، فنسبوا إليها ثم اقتصر على اسم المدينة تخفيفًا.

ثم فيه وجهان:

أحدهما: أنه اسم أعجمي.

الثاني: أنه اسم عربي وفي اشتقاقه وجهان:

أحدهما: أنه من قولهم: مدن بالمكان إذا أقام فيه، والياء زائدة، وهذا قول من زعم أنه اسم مدينة.

الثاني: أنه مشتق من قولهم: دَيَنْت، أي: ملكت والميم زائدمة، وهذا قول من زعم أنه اسم رجل

وأما «شعيب» فتصغير «شعب»، وفيه ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه الطريق في الجبل.

الثاني: أنه القبيلة العظيمة.

الثالث: أنه مأخوذ من: شَعْب الإناء المكسور.

وكانت ديار مدين بأرض معان من أطراف الشام مما يلي الحجاز، قريبا من بحيرة =

=

قوم لوط. وقال بعض أهل العلم: (مدين) اسم بلدة.
- وغلط بعض العلماء وبعض المؤرخين، فزعم أن شعيبا كان بعد موسى، وهذا لا شك أنه غلط؛ لأن شعيبا قبل موسى، وقد دلت عليه آيات القرآن في سورة الأعراف هذه وغيرها؛ لأن الله في سورة الأعراف هذه لما ذكر قصة نوح وقصة هود وصالح ولوط وشعيب مع قومهم قال بعد ذلك في الآيات الآتية (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا) فدل على أن بعث موسى بآيات الله بعد هؤلاء الرسل وأممهم، كما هو نص القرآن العظيم. وزعم بعض العلماء أن شعيبا ابن بنت لوط. قال بعض العلماء: هو ممن آمن مع إبراهيم لما نجا من النار، وهاجر معه. وكلها أقوال لا دليل عليها، وغاية ما يفيده القرآن: أن الله بعث نبيه شعيبا إلى أهل مدين. وذكر الله في آيات أخرى متعددة - كما سيأتي في سورة «الحجرات»، وفي سورة «الشعراء»، وفي سورة «ص» وغير ذلك - أن شعيبا أرسل أيضا إلى أصحاب الأيكة، كما سيأتي في قوله (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) والعلماء مختلفون: هل أصحاب الأيكة هم مدين أنفسهم فيكون شعيب أرسل إلى أمة واحدة، أو مدين أمة وأصحاب الأيكة أمة أخرى، فيكون شعيب قد أرسل إلى أمتين؟ هذا خلاف معروف بين العلماء، وأكثر أهل العلم على أنهم أمة واحدة كانوا يعبدون أيكة، أي: شجرا ملتفا، وأن الله سماهم مرة بنسبهم (مدين) ومرة أضافهم إلى الأيكة التي يعبدونها. وجزم بصحة هذا ابن كثير في تاريخه وتفسيره وممن اشتهر عنه أنهم أمتان قتادة وجماعة، وهو خلاف معروف.
والذين قالوا: إنهما أمتان قالوا: في (مدين) قال: إنه أخوهم حيث قال (إذ قال لهم شعيب) أما أصحاب الأيكة فلم يقل: إنه أخوهم بل قال (كذب أصحاب الأيكة المرسلين. إذ قال لهم شعيب) ولم يقل: أخوهم شعيب.
وأجيب عن هذا بأنه لما ذكر مدين ذكر الجد الذي يشمل القبيلة ومن جملتها

=

=

شعيب، ذكر أنه أخوهم من النسب. أما قوله (أصحاب الأيكة) فمعناه: أنهم يعبدونها، ولما ذكرهم في مقام الشرك وعبادة غير الله لم يدخل معهم شعيبا في ذلك وهم أمة واحدة. هكذا قاله بعضهم والله أعلم.

- قال ابن كثير: قوله تعالى (كذب أصحاب الأيكة المرسلين (١٧٦) إذ قال لهم شعيب ألا تتقون (١٧٧) إني لكم رسول أمين (١٧٨) فاتقوا الله وأطيعون (١٧٩) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٨٠)).

هؤلاء -أعني أصحاب الأيكة- هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: "إذ قال لهم أخوهم شعيب"، وإنما قال (إذ قال لهم شعيب)، فقطع نسبة الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا. ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبا عليه السلام، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم.

- وقال أيضا: وكان أهل مدين كفارا يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة ؛ يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقس.

فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر اكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولي الحميد.

- وقد جاءهم ببينة. كما قال تعالى في سورة الأعراف (قد جاءتكم بينة من ربكم)

=

=

أي: قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به.

- المراد بالبينة ههنا المعجزة، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، وإلا لكان متنبئا لا نبيا، فهذه الآية دلت على أنه حصلت له معجزة دالة على صدقه.

- قال الآلوسي: قوله تعالى (قد جاءتكم بينة من ربكم) أي: معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم.

ولم تذكر معجزته عليه السلام في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ والأنبياء عليهم السلام فيه، والقول بأنه لم يكن له عليه السلام معجزة غلط لأن الفاء في قوله سبحانه (فأوفوا الكيل والميزان) لترتيب الأمر على مجيء البينة، واحتمال كونها عاطفة على (اعبدوا) بعيد، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس.

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [هود: ٨٤]، أي:"فقال: يا قوم اعبدوا الله وحده، ليس لكم مِن إله يستحق العبادة غيره جل وعلا، فأخلصوا له العبادة".

قال الطبري:"يقول: أطيعوه، وتذللوا له بالطاعة لما أمركم به ونهاكم عنه، ما لكم من معبود سواه يستحقّ عليكم العبادة غيره".

قوله تعالى: {وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ} [هود: ٨٤]، أي:"ولا تنقصوا الناس حقوقهم في مكاييلهم وموازينهم".

ونقص الكيل والميزان يكون من وجهين:

أحدهما: أن يكون الاستنقاص من جهتهم إذا باعوا لغيرهم.

وثانيهما: أن يكون الاستنقاص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه، بأن يأخذوا منه أكثر من حقهم.

فكأنه عليه السلام يقول لهم: لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولا عند

=

=

الإعطاء، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم، ولا تأخذوا منه أكثر من حقكم إذا اشتريتم.

وإلى هذين الأمرين أشار قوله تعالى (ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون).

قال الطبري:"يقول: ولا تنقصوا الناس حقوقهم في مكيالكم وميزانكم".

قال السدي:"إن الله بعث شعيبا إلى مدين فكانوا مع كفرهم يبخسون الكيل والوزن فدعاهم فكذبوه فقال لهم ما ذكر الله في القرآن وما ردوا عليه، فلما عتوا وكذبوا سألوه العذاب".

قال خلف بن حوشب: "هلك قوم شعيب من شعيرة إلى شعيرة كانوا يأخذون بالرزينة ويعطون بالخفيفة".

قوله تعالى: {إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ} [هود: ٨٤].

أي: أخلصوا لله عبادتكم، والتزموا العدل في معاملاتكم، فإني أراكم تملكون الوفير من المال، وتعيشون في رغد من العيش، وفي بسطة من الرزق، ومن كان كذلك فمن الواجب عليه أن يقابل هذه النعم بالشكر لواهبها وهو الله تعالى وأن يستعملها استعمالا يرضيه، وأن يعطى كل ذي حق حقه.

- فالمراد بالخير هنا: المال الكثير، والثروات الطائلة التي لا يحتاجون معها إلى التعدي إلى حقوق الناس.

- ويطلق الخير على المال كثيرا.

كما قال تعالى (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين...).

وقال تعالى (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين).

وفي قوله تعالى: {إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ} [هود: ٨٤]، ثلاثة أقوال:

=

=

أحدها: أنه رخص السعر، قاله ابن عباس ، والحسن.

الثاني: أنه المال وزينة الدنيا، قال قتادة ، وابن زيد.

والثالث: أنه الخصب والكسب. أفاده الماوردي.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما أخبر الله عن شعيب أنه قال لقومه، وذلك قوله: {إني أراكم بخير}، يعني بخير الدنيا. وقد يدخل في خير الدنيا، المال وزينة الحياة الدنيا، ورخص السعر، ولا دلالة على أنه عنى بقيله ذلك بعض خيرات الدنيا دون بعض، فذلك على كل معاني خيرات الدنيا التي ذكر أهل العلم أنهم كانوا أوتوها، وإنما قال ذلك شعيب، لأن قومه كانوا في سعة من عيشهم ورخص من أسعارهم، كثيرة أموالهم، فقال لهم: لا تنقصوا الناس حقوقهم في مكاييلكم وموازينكم، فقد وَسَّع الله عليكم رزقكم".

قوله تعالى: {وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ} [هود: ٨٤]، أي:"وإني أخاف عليكم -إن تماديتم على الكفر بالله، والإضرار بالناس- عذاب يوم يحيط بكم".

والإحاطة: الإحداق، أي: أن يحدق بكم العذاب من جميع الجوانب حتى لا يستطيع أن يفر منه فار.

وقيل: إنه كناية عن الهلاك. كقوله (وأحيط بثمره).

- وإنما أسند الإحاطة إلى اليوم، لأن العرب تسند الهول إلى ظرفه، وهو موجود في القرآن.

كما قال تعالى (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا).

قال الطبري:"بمخالفتكم أمر الله، وبَخْسكم الناس أموالهم في مكاييلكم وموازينكم، {عذاب يوم محيط}، يقول: أن ينزل بكم عذاب يوم محيط بكم عذابه. فجعل "المحيط" نعتًا لليوم، وهو من نعت «العذاب»، إذ كان مفهومًا

=

=

معناه، وكان العذاب في اليوم، فصار كقولهم: «بعْض جُبَّتك محترقة»".

وفي قولـه تعـالى: {وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ} [هـود: ٨٤]، ثلاثـة وجوه:

أحدها: غلاء السعر، وهو مقتضى قول ابن عباس ، والحسن.

الثاني: عذاب الاستصال في الدنيا.

الثالث: عذاب النار بالآخرة.

قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ} [هـود: ٨٥]، أي:"فأتموا الكيل والميزان للناس بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: أتموا الكيل والوزن بالقسط يقول: بالعدل".

عن ابن عباس في قوله: "{بالقسط}، يعني: بالعدل".

فالإيفاء: الإكمال والإتمام، أي: كيلوا كيلا وافيا، وزنوا وزنا وافيا، ولا تنقصوا إن كلتم، ولا تزيدوا إن اكتلتم.

قال تعالى في سورة الشعراء (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين).

قال ابن كثير: يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين) أي: إذا دفعتم إلى الناس فكملوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا، وتأخذوه -إذا كان لكم -تاما وافيا، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون.

وقال تعالى (ويل للمطففين (١) الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون (٢) وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (٣) ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون (٤) ليوم عظيم)

(ويل للمطففين) أي هلاك وعذاب ودمار، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان، ثم بين أوصافهم القبيحة بقوله (الذين إذا اكتالوا على الناس

=

=

يستوفون) أي إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيا كاملا لأنفسهم (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، ينقصون الكيل والوزن.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥]، أي:"ولا تُنْقِصوا الناس حقهم في عموم أشيائهم".

يقال: بخسه حقه يبخسه إذا نقصه إياه. وظلمه فيه «وتبخسوا» تعدى إلى مفعولين أولهما الناس والثاني أشياءهم.

وفائدة التصريح بالنهى عن النقص بعد الأمر بالإيفاء، تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده.

قال مقاتل:"يعني: لا تنقصوا الناس حقوقهم في نقصان الكيل والميزان".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: لا تنقصوا الناس حقوقهم".

قال ابن عباس:"لا تظلموا الناس أشياءهم". وروي، عن قتادة والسدي نحو ذلك.

وقال ابن زيد:"لا تنقصوهم: يسمي له شيئا ثم يعطيه غير ذلك".

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥]، أي:"ولا تسيروا في الأرض تعملون فيها بمعاصي الله ونشر الفساد".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: لا تسعوا في الأرض بالفساد والمعاصي، ونقصان الكيل والوزن".

قال قتادة:"لا تسيروا في الأرض مفسدين".

قال أبو مالك:"لا تمشوا بالمعاصي".

عن ابن عباس، قوله: "﴿ولا تعثوا في الأرض﴾، يقول: لا تسعوا في الأرض".

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [هود: ٨٦]، أي:"إن ما يبقى لكم بعد إيفاء

=

=

الكيل والميزان من الربح الحلال ومن حال صالح، ومن ذكر حسن، ومن أمن وبركة في حياتكم... بسبب التزامكم بالقسط في معاملاتكم، هو خير لكم من المال الكثير الذي تجمعونه عن طريق بخس الناس أشياءهم بالتطفيف ونحوه من الكسب الحرام".

قال أبو الليث السمرقندي:"يقال: ثواب الله خير لكم في الآخرة".

قال الفراء:"يقول: ما أبقى لكم من الحلال خير لكم، ويقال بقية الله خير لكم أي مراقبة الله خير لكم".

قال الزجاج:"عناه طاعة الله {خير لكم إن كنتم مؤمنين}، ويجوز أن يكون معناه الحال التي تبقى لكم من الخير خير لكم".

عن مجاهد: {بقيت الله خير لكم}، قال: طاعة الله خير لكم".

وقال قتادة:"يقول: حظكم من ربكم خير لكم".

وقال الربيع بن أنس:"وصية الله خير لكم".

عن ابن عباس: "{بقيت الله}، قال رزق الله".

وقال الحسن:"رزق الله خير لكم من بخسكم الناس".

قال ابن زيد:"الهلاك في العذاب والبقية في الرحمة".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [هود: ٨٦]، أي:"إن كنتم تؤمنون بالله حقا، فامتثلوا أمره".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: مصدقين، فصدقوني فيما أقول لكم".

قال الطبري:"يقول: إن كنتم مصدّقين بوعد الله ووعيده، وحلاله وحرامه".

قوله تعالى: {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} [هود: ٨٦]، أي:"وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: رقيبا ووكيلا، وإنما علي البلاغ".

=

=

قال الطبري:"يقول: وما أنا عليكم، أيها الناس، برقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم، هل توفون الناس حقوقهم أم تظلمونهم؟ وإنما عليّ أن أبلغكم رسالة ربّي، فقد أبلغتكموها".

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} [هود: ٨٦]، ثلاثة وجوه:

أحدها: حفيظ من عذاب الله تعالى أن ينالكم.

الثاني: حفيظ لنعم الله تعالى أن تزول عنكم.

الثالث: حفيظ من البخس والتطفيف إن لم تطيعوا فيه ربكم.

قوله تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} [هود: ٨٧].

أي: قال قوم شعيب له- على سبيل التهكم والاستهزاء-: يا شعيب أصلاتك- التي تزعم أن ربك كلفك بها والتي أنت تكثر منها- تأمرك أن نترك عبادة الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من شأنه.

وأسندوا الأمر إلى الصلاة من بين سائر العبادات التي كان يفعلها، لأنه عليه السلام كان كثير الصلاة، وكانوا إذا رأوه يصلى سخروا منه.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال قوم شعيب: يا شعيب، أصَلواتك تأمرك أن نترك عبادة ما يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام".

قال الزجاج:"هذا دليل أنهم كانوا يعبدون غير الله – جل وعز –".

وفي قوله تعالى: {أَصَلَاتُكَ} [هود: ٨٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: قراءتك، قاله الأعمش.

الثاني: صلاتك التي تصليها لله تعبّدًا.

الثالث: دينك الذي تدين به وأمرت باتباعه لأن أصل الصلاة الاتباع، ومنه أخذ المصلي في الخيل.

قال الحسن:"أي والله إن صلواته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم".

=

=

ويقرأ: «أصلواتك».

وفي قوله تعالى: {تَأْمُرُكَ} [هود: ٨٧]، وجهان:

أحدهما: تدعوك إلى أمرنا.

الثاني: فيها أن تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا يعني من الأوثان والأصنام.

قوله تعالى: {أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ} [هود: ٨٧]، أي:"أو أن نمتنع عن التصرف في كسب أموالنا بما نستطيع من احتيال ومكر؟".

إن كانت صلاتك تأمرك بذلك، فهي في نظرنا صلاة باطلة، لا وزن لها عندنا، بل نحن نراها لونا من ألوان جنونك وهذيانك.

قال الطبري: أي:"من كسر الدراهم وقطعها، وبخس الناس في الكيل والوزن".

قال الزجاج:"المعنى: إنا قد تراضينا بالبخس فيما بيننا، وفي التفسير أنه نهاهم أن يحذفوا الدراهم. أي (أن) يكسروها".

عن قتادة:"{أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء}، أي: ما نشتهي".

وفي قوله تعالى: {أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ} [هود: ٨٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: ما كانوا عليه من البخس والتطفيف.

الثاني: الزكاة، كان يأمرهم بها فيمتنعون منها، قاله سفيان الثوري.

الثالث: حذف الدراهم والدنانير، لأنه كان ينهاهم عنه، وحذف الدراهم من الفساد في الأرض، قال زيد بن أسلم.

قوله تعالى: {إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [هود: ٨٧]، أي:"وقالوا -استهزاءً به-: إنك لأنت الحليم الرشيد".

وقد تقدم أن الحليم من الحلم، وهو العقل الراجح الذي يحمل صاحبه على الأناة والتأني في الأمور وعدم العجلة التي تقتضي وضع الشيء في غير موضعه.

والرشيد من الرشد وهو ضد السفه، فهو من عنده علم وبصيرة بما يضر وينفع.

=

=

قال بعض العلماء: إن هذا ليس تعريضا، وإنما هو على بابه، ومرادهم: إنا قد كنا نأمل في حلمك ورشدك أن لا تقدم على مثل هذه الأمور فتأمر بما لا يليق، كما قال قوم صالح لنبيهم (يا صالح قد كنت فينا مرجوا).

قال الفراء:"استهزاء منهم به".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: السفيه الضال استهزاء منهم به".

قال الزجاج:"قيل كنى بذا عن أنهم قالوا له: إنك السفيه الجاهل، وقيل إنهم قالوا له هذا على وجه السخري".

قال الماتريدي:"قال بعضهم من أهل التأويل: قالوا ذلك له؛ استهزاء به وسخرية، كنوا بـ «الحليم» عن السفيه، وبـ «الرشيد» عن الضال، أي: أنت السفيه الضال؛ حيث سفهت آباءنا في عبادتهم الأصنام، الضال، حيث تركت ملتهم ومذهبهم، وقال بعضهم: على النفي والإنكار، أي: ما أنت الحليم الرشيد".

عن ميمون بن مهران في قول الله: "{إنك لأنت الحليم الرشيد}، قال: هزوا".

عن قتادة قوله: "{إنك لأنت الحليم الرشيد}، قال: استهزاء بالنبي ﷺ".

قال ابن عباس:"يقولون: إنك لست بحليم ولا برشيد".

وحكي الماوردي عن ابن بحر، قال:"أنهم اعترفوا له بالحلم والرشد على وجه والحقيقة وقالوا أنت حليم رشيد فلِم تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟ والحلم والرشد لا يقتضي منع المالك من فعل ما يشاء في ماله".

قال الطبري:"{الحليم} وهو الذي لا يحمله الغضب أن يفعل ما لم يكن ليفعله في حال الرّضى، {الرشيد}، يعني: رشيد الأمر في أمره إياهم أن يتركوا عبادة الأوثان".

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [هود: ٨٨]، أي:"قال شعيب: يا قوم أرأيتم إن كنت على طريق واضح من ربي فيما أدعوكم إليه من

=

=

إخلاص العبادة له، وفيما أنهاكم عنه من إفساد المال".

قال ابن كثير:"أي: على بصيرة فيما أدعو إليه".

عن جعفر بن سليمان قال: "سمعت أبا عمران الجوني قرأ هذه الآية: إني على بينة من ربي قال: على ثقة".

وحكي الماوردي عن ابن عيسى:"أنه النبوة" ، قال: وفي الكلام محذوف وتقديره، أفأعدل مع ذلك عن عبادته".

قوله تعالى: {وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا} [هود: ٨٨]، أي:"ورزقني منه رزقًا واسعًا حلالا طيبًا".

قال الضحاك:"الرزق الحسن: الحلال".

قال ابن كثير:"قيل: أراد النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين".

قوله تعالى: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} [هود: ٨٨]، أي:"وما أريد أن أخالفكم فأرتكب أمرًا نهيتكم عنه".

قال قتادة:"يقول لم أكن أنهاكم، عن أمر وأركبه".

عن مسروق:"أن امرأة جاءت ابن مسعود رضي الله عنه فقالت أتنهى، عن الواصلة قال: نعم فقالت المرأة: فلعله في بعض نسائك فقال ما حفظت إذا وصية العبد الصالح {وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه}".

عن حكيم بن معاوية، عن أبيه: أن أخاه مالكًا قال: "يا معاوية، إن محمدًا أخذ جيراني، فانطَلق إليه، فإنه قد كلمك وعرفك، فانطلقت معه فقال: دع لي جيراني، فقد كانوا أسلموا. فأعرض عنه. فقام مُتَمَعطًا، فقال: أما والله لئن فَعلتَ إن الناس يزعمون أنك تأمر بالأمر وتخالف إلى غيره. وجعلت أجرّه وهو يتكلم، فقال رسول الله ﷺ "ما تقول؟ " فقال: إنك والله لئن فعلت ذلك. إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره. قال: فقال: "أوَ قد قالوها – أو قائلهم – ولئن

=

فعلت ذلك ما ذاك إلا عليّ، وما عليهم من ذلك من شيء، أرسلوا له جيرانه".

قوله تعالى: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [هود: ٨٨]، أي:"وما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم قَدْر طاقتي واستطاعتي".

قال الشنقيطي: ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن نبيه شعيب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، أنه أخبر قومه: أنه إذا نهاهم عن شيء انتهى هو عنه وأن فعله لا يخالف قوله.

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن الإنسان يجب عليه أن يكون منتهيا عما ينهى عنه غيره، مؤتمرا بما يأمر به غيره.

وقد بين تعالى ذلك في مواضع أخر، كقوله (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم).

وقوله (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون).

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ، قال (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون: أي فلان، ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه).

ومعنى قوله ﷺ: فتندلق أقتابه، أي: تتدلى أمعاؤه.

وأخرج وكيع، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو نعيم في «الحلية»، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وغيرهم، عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ (رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت رجعت، فقلت لجبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون). قاله صاحب «الدر
=

=

المنثور». اهـ.

وقد قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله　　　عار عليك إذا فعلت عظيم

وقد أجاد من قال:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى　　　طبيب يداوي الناس وهو مريض

ومعلوم أن عمل الإنسان بما ينصح به غيره أدعى لقبول غيره منه، كما قال الشاعر:

فإنك إذ ما تأت ما أنت آمر　　　به تلف من إياه تأمر آتيا

قوله تعالى: {وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ} [هود: ٨٨]، أي:"، وما توفيقي -في إصابة الحق ومحاولة إصلاحكم- إلا بالله".

قال ابن كثير:"أي: في إصابة الحق فيما أريده {إِلا بِاللهِ}".

قوله تعالى: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨]، أي:"على الله وحده توكلت وإليه أرجع بالتوبة والإنابة".

قال ابن كثير: أي:"في جميع أموري، {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} أي: أرجع".

عن مجاهد، قوله: "{وإليه أنيب}، قال: إليه أرجع".

وروي عن عبيد بن يعلى قال: "«الإنابة»: الدعاء".

عن أبي سليمان الضبي قال: "كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز إلى خراسان فيها الأمر والنهي فيكتب في آخرها: وما كنت في ذلك إلا كما قال العبد الصالح: {وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب}".

قال ابن القيم: فعلى حسن ظنك بربك ورجائك له، يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

=

=

التحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنه به، ولا التوكل على من لا يرجوه.
قال شيخ الإسلام: وما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك، قال تعالى (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق).
وقال: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.
وقال بعض العارفين: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه.
وقال ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ -ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورا بإزالته لأزاله.
قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ} [هود: ٨٩]، أي:"ويا قوم لا تحملنَّكم عداوتي وبغضي وفراق الدين الذي أنا عليه على العناد والإصرار على ما أنتم عليه من الكفر بالله، فيصيبكم مثلُ ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح من الهلاك".
قال السدي:"يقول: لا تحملنكم عداوتي على أن تمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم".
قال الطبري:"يقول: لا يحملنكم عداوتي وبغضي، وفراق الدين الذي أنا عليه، على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر بالله، وعبادة الأوثان، وبخس الناس في المكيال والميزان، وترك الإنابة والتوبة، فيصيبكم {مثلُ ما أصاب قوم نوح}، من الغرق، {أو قوم هود} من العذاب، {أو قوم صالح} من الرّجفة".
قال الزجاج:"لا تكسبنكم عداوتكم إياي أن يصيبكم عذاب العاجلة {مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح}".

=

=

قال ابن كثير:"أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح".

عن قتادة قوله: "{لا يجرمنكم شقاقي}، أي: لا يحملنكم".

قال الفراء:"يقول: لا تحملنكم عداوتي أن يصيبكم. وقد يكون: لا يكسبنكم".

وفي قوله تعالى: {شِقَاقِي} [هود: ٨٩]، أربعة أقوال:

أحدها: إضراري، قاله الحسن.

الثاني: عداوتي، قاله السدي ، واختاره الفراء.

ومنه قول الأخطل:

ألا من مبلغ قيسًا رسولًا   فكيف وجدتم طعمَ الشقاق

الثالث: فراقي، قاله قتادة.

الرابع: عداوتي وبغضائي وفراقي. قاله ابن جريج.

عن أبي ليلى الكندي قال: "كنت مع مولاي أمسك دابته وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان رضي الله عنه إذا أشرف علينا من داره فقال: يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح يا قوم لا تقتلوني إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا وشبك بين أصابعه.".

قوله تعالى: {وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} [هود: ٨٩]، أي:"وما قوم لوط وما حلَّ بهم من العذاب ببعيدين عنكم لا في الدار ولا في الزمان".

ولما كان للمقاربة أثر المشاكلة والمناسبة، غير الأسلوب تعظيما للتهويل فقال: (وما قوم لوط) أي على قبح أعمالهم وسوء حالهم وقوة أخذهم ووبالهم (منكم ببعيد) أي لا في الزمان ولا في المكان فأنتم أجدر الناس بذكر حالهم للاتعاظ بها.

قال ابن كثير:"ما أصاب وقوم لوط من النقمة والعذاب".

قال الطبري:"{وما قوم لوط} الذين ائتفكت بهم الأرض {منكم ببعيد} هلاكهم،

=

=

أفلا تتعظون به، وتعتبرون؟ يقول: فاعتبروا بهؤلاء، واحذروا أن يصيبكم بشقاقي مثلُ الذي أصابهم".

قال الزجاج:"وكان إهلاك قوم لوط أقرب الإهلاكات التي عرفوها، فكأنه قال لهم: العظة في قوم لوط قريبة منكم".

وفي قوله تعالى: {وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} [هود: ٨٩]، وجوه:

أحدهما: يعني: بعد الدار لقربهم منهم.

قال الطبري:"وقد يحتمل أن يقال: معناه: وما دارُ قوم لوط منكم ببعيد".

الثاني: بعد العهد لقرب الزمان. قاله قتادة.

قال قتادة:"إنما كانوا حديثي عهد قريب بعد قوم نوح وعاد وثمود".

قال الفراء:"يقول: إنما هلكوا بالأمس قريبا".

والثالث: أن يكون مرادًا به قرب الدار وقرب العهد.

قال ابن كثير:"ويحتمل الأمران".

قال قتادة:"إنما أهلكوا من أيديكم أمس".

قال الماوردي:"وقد أهلك قوم هود بالريح العاصف، وقوم صالح بالرجفة والصيحة، وقوم لوط بالرجم".

قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ} [هود: ٩٠]،أي:"واطلبوا من ربِّكم المغفرة لذنوبكم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قيل شعيب لقومه: {استغفروا ربكم}، أيها القوم من ذنوبكم بينكم وبين ربكم التي أنتم عليها مقيمون، من عبادة الآلهة والأصنام، وبَخْس الناس حقوقهم في المكاييل والموازين".

عبد الصمد بن يزيد، قال: سمعت الفضل، يقول: "قول العبد: أستغفر الله قال: تفسيره: اقبلني".

=

قوله تعالى: {ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} [هود: ٩٠]، أي:"ثم ارجعوا إلى طاعته واستمروا عليها".

قال الطبري:"يقول: ثم ارجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} [هود: ٩٠]، أي:"إن ربِّي رحيم كثير المودة والمحبة لمن تاب إليه وأناب، يرحمه ويقبل توبته".

قال الطبري:"يقول: هو رحيم بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة، {ودود}، يقول: ذو محبة لمن أناب وتاب إليه، يودُّه ويحبُّه".

عن سفيان في قوله:"{إن ربي رحيم ودود}: مجيب".

قال ابن عباس: "بأوليائه ومن صدق أنبياءه".

قال ابن كثير:"أي: لمن تاب وأناب".

قال السعدي: ومعنى الودود، من أسمائه تعالى، أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فهو "فعول" بمعنى "فاعل" وبمعنى "مفعول"

وقال: "الودود" الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودا وإخلاصا وإنابة من جميع الوجوه.

قوله تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ} [هود: ٩١]، أي:"قالوا لنبيّهم شعيب على وجه الاستهانة: ما نفهم كثيرًا مما تحدثنا به".

عن سفيان: "{ما نفقه كثيرا مما تقول}: ما نعرف".

قال الطبري:"أي: ما نعلم حقيقة كثير مما تقول وتخبرنا به".

قال السمعاني: ({ما نفقه كثيرا مما تقول} [هود:٩١]، معناه: (ما نفهم).

وقال الرازي: (يفقهون: يفهمون).

وفسره آخرون: بالعلم.

=

قال الطبري: ({ما نفقه كثيرا مما تقول} [هود:٩١]، أي: (ما نعلم حقيقة كثير مما تقول).

ولا اختلاف بين هذا ولا هذا، فالفقه عند التأمل في مواضع وروده في كتاب الله؛ نجد أنه يستعمل بمعنى الفهم، ومنه قوله تعالى: {ولكن لا تفقهون تسبيحهم} [الإسراء:٤٤] على القول بأن التسبيح: حقيقة وهو الصواب، ويستعمل بمعنى العلم، ومنه قوله تعالى: {ليتفقهوا في الدين} [التوبة:١٢٢]، ويستعمل في معنى أخص من العلم والفهم، وهو التوصل إلى علم ما كان غائبا بعلم شاهد، ومنه قوله تعالى: {ما نفقه كثيرا مما تقول} [هود:٩١]، وبهذا تنتظم الأقوال، وعند إطلاق العلماء لواحد منها عند تفسير آية فغالبا ما يقيده بما يدل على ما ذكرت.

ولذا فسر بعضهم الآية التي معنا بقولهم: لا نعقل ما تقول.

قال ابن كثير: ({ما نفقه كثيرا مما تقول} [هود:٩١]، أي: ما نفهم ولا نعقل كثيرا من قولك).

وقال ابن عطية: (ومعنى: ما نفقه ما تقول، أي: ما نفقه صحة قولك، وأما فقههم لفظه ومعناه فمتحصل).

وقال النسفي: ({قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول} [هود:٩١] أي: لا نفهم صحة ما تقول، وإلا فكيف لا يفهم كلامه وهو خطيب الأنبياء).

وقال الشوكاني: (ولا نفقه ذلك، أي: نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة).

ولما لم يفصل هذا التفصيل ذكر بعض العلماء أجوبة عن عدم فهمهم لكلامه، مع أنه يخاطبهم بلسانهم.

ومنها: قولهم: إن المراد: ما نفهم كثيرا مما تقول؛ لأنهم كانوا لا يلقون إليه أفهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه.

=

=

وقول بعضهم: إنهم فهموه بقلوبهم، ولكنهم ما أقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة، كما يقول الرجل لصاحبه إذ لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول.

وقال بعضهم: إن هذه الدلائل التي ذكرها ما أقنعتهم في صحة التوحيد والنبوة والبعث، وما يجب من ترك الظلم والسرقة فقولهم ما نفقه أي لم نعرف صحة الدلائل التي ذكرتها على صحة هذه المطالب. والله تعالى أعلم.

- نادوه باسمه وقاحة وعدم احترام، وصرحوا له بعدم فهمهم عنه مع أنه في غاية الفصاحة، حتى قيل: إنه خطيب الأنبياء، فتجاهلوا ذلك وزعموا أنهم لا يفهمون كلامه.

- قال الرازي: لقائل أن يقول: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يخاطبهم بلسانهم، فلم قالوا (ما نفقه) والعلماء ذكروا عنه أنواعا من الجوابات:

فالأول: أن المراد: ما نفهم كثيرا مما تقول، لأنهم كانوا لا يلقون إليه أفهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو كقوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه).

الثاني: أنهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ما أقاموا له وزنا، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه إذ لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول.

قال الآلوسي:"أي: ما نفهم ذلك، كأنهم جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف إذ ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل ولم يجدوا إلى محاورته عَلَيْهِ السَّلَامُ سبيلا من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يفهم معناه ولا يدرك فحواه، وقيل: قالوا ذلك استهانة به عَلَيْهِ السَّلَامُ كما يقول الرجل لمن لا يعبأ به: لا أدري ما تقول، وليس فيه كثير مغايرة للأول، ويحتمل أن يكون ذلك لعدم توجههم إلى سماع كلامه عَلَيْهِ السَّلَامُ لمزيد نفرتهم عنه أو لغباوتهم وقصور عقولهم، قيل: وقولهم كَثِيرًا للفرار عن المكابرة ولا يصح أن يراد به الكل وإن ورد في اللغة

=

=

لأن مما تقول يأبى ذلك كما أن كَثِيرًا نفسه يأبى حمل كلامهم هذا على أنه كناية عن عدم القبول، وزعم بعضهم أنهم إنما لم يفقهوا كثيرا مما يقول لأنه عليه السلام كان ألثغ، وأظن أنه لم يفصح بذلك خبر صحيح على أن ظاهر ما جاء من وصفه عليه السلام بأنه خطيب الأنبياء يأبى ذلك. ولعل صيغة المضارع للإيذان بالاستمرار".

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا} [هود: ٩١]، أي:"وإننا لَنراك فينا ضعيفًا لست من الكبراء ولا من الرؤساء ، لا قوة لك إلى جانب قوتنا، ولا قدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا قتلك أو طردك من قريتنا".

ومرادهم: لست أحق منا بهذا الأمر لو كان خيرا، وهو مثل ما قاله كفار مكة في محمد (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم).

قال الآلوسي:"أي: فيما بيننا ضَعِيفًا لا قوة لك ولا قدرة على شيء من الضر والنفع والإيقاع والدفع".

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا} [هود: ٩١]، وجوه:

أحدها: ضعيف البصر، قاله سفيان.

قال سفيان:"كان ضعيف البصر، وكان يقال له: «خطيب الأنبياء»".

الثاني: ضعيف البدن، حكاه ابن عيسى.

الثالث: أعمى، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة، وشريك.

قال الزجاج:"وكان ضرِيرًا. و (حِمْيَرُ) تُسمَي المكفوف: ضعيفًا، وهذا كما قيل: ضَرِير، أي: قد ضُر بذهاب بَصَرِهِ، وكذلك قد كُفَّ عن التصَرفِ بذهاب بصره".

الرابع: قليل المعرفة وحيدًا، قاله السدي.

الخامس: ذليلًا مهينًا، قاله الحسن ، وأبو روق.

وقال مقاتل:"يعني ذليلا لا قوة لك ولا حيلة".

قال أبو روق:"قالوا له إن عشيرتك ليسوا على دينك فأنت ذليل ضعيف".

=

=

السادس: قليل العقل.

السابع: قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها.

قوله تعالى: {وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ} [هود: ٩١]، أي:"ولولا مراعاة عشيرتك لقتلناك رَجْما بالحجارة.

أي: ولولا مراعاة عشيرتك لقتلناك رجما بالحجارة -وكان رهطه من أهل ملتهم-، وليس لك قدر واحترام في نفوسنا.

والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا أنه لا حرمة له عندهم، ولا وقع له في صدورهم، وأنهم إنما لم يقتلوه لأجل احترامهم رهطه.

والرهط: المراد بهم جماعته وعشيرته وعصبته الأقربون.

والمراد بالرجم: الرجم بالحجارة، وهو من أشنع القتل.

وقيل: إن معنى رجمناك: شتمناك، وقد شتموه حينا قالوا: (إنك لأنت الحليم الرشيد) كما مر أنه سخرية وتهكم.

- والرجم في اللغة عبارة عن الرمي، وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل، ولما كان هذا الرجم سببا للقتل لا جرم سموا القتل رجما، وقد يكون بالقول الذي هو القذف، كقوله (رجما بالغيب) وقوله (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) وقد يكون بالشتم واللعن، ومنه قوله (الشيطان الرجيم) وقد يكون بالطرد كقوله (رجوما للشياطين).

قال الطبري:"يقول: يقولون: ولولا أنك في عشيرتك وقومك {لرجمناك}، يعنون: لسببناك".

وفي قوله تعالى: {وَلَوْلَا رَهْطُكَ} [هود: ٩١]، وجهان:

أحدهما: عشيرتك، قاله أبو روق ، والزجاج ، وحكاه الماوردي عن الجمهور.

قال أبو روق:"أي: ولولا عشيرتك نحفظك فيهم لرجمناك".

=

=

الثاني: لولا شيعتك، حكاه الماوردي عن النقاش.

وفي قوله تعالى: {لَرَجَمْنَاكَ} [هود: ٩١]، وجهان:

أحدهما: لقتلناك بالرجم. قال ابن زيد ، وابن قتيبة ، والزجاج.

قال الزجاج:"أي: لولا عشيرتك {لرجمناك}، أي: لقتلناك بالرجم، والرجم من سيئ القتلات، وكان رهطه من أهل ملتهم فلذلك أظهروا الميل إليهم والإكرام لهم".

قال ابن قتيبة:"أي: قتلناك. وكانوا يقتلون رجما. فسمى القتل رجما. ومثله: قوله: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [يس: ١٨]".

الثاني: لشتمناك بالكلام، قاله أبو روق ، والطبري ، ومنه قول الجعدي:

تَرَاجَمْنَا بِمُرِّ الْقَوْلِ حَتَّى ... نَصِيْرَ كَأَنَّنَا فَرَسَا رِهَانِ

قال أبو روق:"أي لشتمناك وآذيناك ولفعلنا بك".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} [هود: ٩١]، أي:"وليس لك قَدْر واحترام في نفوسنا.

قال مقاتل:"يعنى: بعظيم".

والعزة تطلق على الغلبة، وهو إطلاق مشهور، ومنه قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين).

وتطلق على النفاسة وقلة الوجود.

ومرادهم هنا: لست بكريم ذا مكانة عندنا.

وحكي الماوردي:"بكريم، وقيل: بممتنع".

قال ابن عباس:"يريد: ما أنت علينا بمنيع".

قال الطبري:"يعنون: ما أنت ممن يكرَّم علينا، فيعظمُ علينا إذلاله وهوانه، بل ذلك علينا هيّن".

=

=

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ} [هود: ٩٢]، أي:"يا قوم أعشيرتي أعز وأكرم عليكم من الله؟ ونبذتم أمر ربكم فجعلتموه خلف ظهوركم، لا تأتمرون به ولا تنتهون بنهيه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال شعيب لقومه: يا قوم، أعزّزتم قومكم، فكانوا أعزّ عليكم من الله".

قال الزجاج:"أي: أنتم تزعمون أنكم تتركون قَتْلِي إكرامًا لِرهْطِي - والله - جلَّ وعزَّ - أولى بأن يتبعَ أمْرُه".

قال مقاتل:"يعني: أعظم عندكم من الله- ﷻ-".

قال ابن عباس: "يريد: أمنع عليكم من الله، المنيع القوي".

عن قتادة، في قوله تعالى: {أرهطي أعز عليكم من الله} [هود: ٩٢]، قال: «عززتم قومكم، واغتررتم بربكم».

قوله تعالى: {وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا} [هود: ٩٢]، أي:"ونبذتم أمر ربكم فجعلتموه خلف ظهوركم، لا تأتمرون به ولا تنتهون بنهيه".

قال يحيى بن سلام:"يعني: جعلتم الله بظهر فلا تعظمونه وتعظمون غيره. وقال في سورة البقرة: {كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِم} [البقرة: ١٠١]، يعني: جعلوا كتاب الله بظهر فلا يعملون به وعملوا بالسِّحر".

قال الفراء:"رميتم بأمر الله وراء ظهوركم كما تقول: تعظمون أمر رهطي وتتركون أن تعظموا الله وتخافوه".

قال ابن قتيبة:"أي: لم تلتفتوا إلى ما جئتكم به عنه، تقول العرب: جعلتني ظهريا وجعلت حاجتي منك بظهر؛ إذا أعرضت عنه وعن حاجته".

قال الطبري:"واستخففتم بربكم، فجعلتموه خلف ظهوركم، لا تأتمرون لأمره ولا تخافون عقابه، ولا تعظِّمونه حق عظَمته؟".

=

=

قال ابن عباس:"وذلك أن قوم شعيب ورهطه كانوا أعز عليهم من الله، وصَغُر شأن الله عندهم، عزَّ ربُّنا وجلَّ".

قال قتادة:"يقول: عززتم قومكم، وأظهرْتم بربكم". وفي رواية أخرى:"لا تخافونه".

قال مجاهد:"رهط شعيب جعلوا الله وراءهم ظهريا". وفي رواية:"تركتم ما جاء به شعيب".

قال مقاتل:"يقول: أطعتم قومكم ونبذتم الله وراء ظهوركم فلم تعظموه فمن لم يوحده لم يعظمه".

وفي قوله تعالى: {وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا} [هود: ٩٢]، وجوه:

أحدها: اطرحتم أمره وراء ظهوركم لا تلتفتون إليه ولا تعملون به، وهذا معنى قول مجاهد ، وسفيان ،والسدي ، وأبو عبيدة ، ومنه قول الشاعر:

فَمَنْ مُبْلِغٌ أَبْنَاءَ مُرَّة أَنَّنَا وَجَدْنَا بَنِي البَرْصَاءِ مِنْ وَلَدِ الظَّهْر

أي: من الذين يظهرون بهم ولا يلتفتون إلى أرحامهم.

قال أبو عبيدة:"ألقيتموه خلف ظهوركم فلم تلتفتوا إليه، ويقال: للذى لا يقضى حاجتك ولا يلتفت إليها: ظهرت بحاجتي وجعلتها ظهريّة أي خلف ظهرك".

قال مقاتل:"يقول: أطعتم قومكم ونبذتم الله وراء ظهوركم فلم تعظموه، فمن لم يوحده لم يعظمه".

قال الزجاج:"أىْ: نَبَذْتُموه رَرَاءَ ظهوركم، والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمْرٍ قد جعل فلانٌ الأمر بظهره. قال الشاعر:

تَمِيمُ بنَ قَيْسٍ لا تَكونَنَّ حاجَتِي بظَهْرٍ فلا يَعْيا عَليَّ جَوابُها".

الثاني: يعني: أنكم حملتم أوزار مخالفته على ظهوركم، حكاه الماوردي عن السدي ، من قولهم: حملت فلانًا على ظهري اذا أظهرت عناده.

=

=

الثالث: يعني: أنكم جعلتم الله ظهريًا إن احتجتم استعنتم به، وإن اكتفيتم تركتموه. كالذي يتخذه الجمَّال من جماله ظهريًا إن احتاج إليها حمل عليها وإن استغنى عنها تركها، قاله عبد الرحمن بن زيد.

قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [هود: ٩٢]، أي:"إن ربي بما تعملون محيط، لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة، وسيجازيكم عليها عاجلا وآجلا".

قال الطبري:"يقول: إن ربي محيط علمه بعملكم، فلا يخفى عليه منه شيء، وهو مجازيكم على جميعه عاجلا وآجلا".

قال مقاتل بن حيان:"يقول: أحاط عليه بأعمالهم".

قال مقاتل:"يعني من نقصان الكيل والميزان، يعني: أحاط علمه بأعمالكم".

قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} [هود: ٩٣]، أي:"ويا قوم اعملوا كل ما تستطيعون على طريقتكم وحالتكم".

قال ابو عبيدة:"أي: على حيالكم وناحيتكم".

قال الطبري: أي:"ويا قوم اعملوا على تمكنكم من العمل الذي تعملونه".

قال الزجاج:"المعنى: اعملوا عَلَى تمكنكم. ويجوز أن يكون المعنى اعملوا على ما أنتم عليه، ويقال للرجل إذا أمرته أن يثبت على حال: على مكانتك يا فلان، أي أثبت على ما أنت عليه".

قال مقاتل:"هذا وعيد، يعني: على جديلتكم التي أنتم عليها".

عن ابن عباس قوله:"{يا قوم اعملوا على مكانتكم}، قال: على ناحيتكم". وروي عن مجاهد والضحاك نحو ذلك.

قال البغوي:"أي: على تؤدتكم وتمكنكم. يقال: فلان يعمل على مكانته إذا عمل على تؤدة وتمكن".

قوله تعالى: {إِنِّي عَامِلٌ} [هود: ٩٣]، أي:"إني عامل مثابر على طريقتي وما

=

=

وهبني ربي مِن دعوتكم إلى التوحيد".

قال البغوي: أي:"على تمكني".

قال الطبري: أي:"على تؤدةٍ من العمل الذي أعمله".

قوله تعالى: {سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} [هود: ٩٣]، أي:"، سوف تعلمون مَن منا يأتيه عذاب يذلُّه".

قال الطبري:"أينا الجاني على نفسه، والمخطئ عليها، والمصيب في فعله المحسنُ إلى نفسه، الذي يأتيه منّا ومنكم، أيها القوم {عذاب} يذله ويهينه".

قال البغوي:"أينا الجاني على نفسه، والمخطئ في فعله، فذلك قوله: {من يأتيه عذاب يخزيه} يذله".

عن الحسن:"{سوف تعلمون}، قال: وعيد".

عن عكرمة، في قوله: "{من يأتيه عذاب يخزيه}، قال: الغرق".

قوله تعالى: {وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ} [هود: ٩٣]، أي:"ومَن منا كاذب في قوله، أنا أم أنتم؟".

قال الطبري:"يقول: ويُخزي أيضًا الذي هو كاذب في قيله وخبره منا ومنكم".

قال الزمخشري:"يعنى: في زعمكم ودعواكم".

قال البغوي:"قيل: «من» في محل النصب، أي: فسوف تعلمون الكاذب. وقيل: محله رفع، تقديره: ومن هو كاذب يعلم كذبه ويذوق وبال أمره".

قوله تعالى: {وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ} [هود: ٩٣]، أي:"وانتظروا ما سيحل بكم إني معكم من المنتظرين".

قال الطبري:"أي: انتظروا وتفقدوا من الرقبة، إني أيضًا ذو رقبة لذلك العذاب معكم، وناظر إليه بمن هو نازل منا ومنكم؟".

قال الزمخشري: أي:"وانتظروا العاقبة وما أقول لكم، {إني معكم رقيب}، أي:

=

=

منتظر".

قال البغوي:"{وارتقبوا} وانتظروا العذاب {إني معكم رقيب} منتظر".

قال القرطبي:"أي: انتظروا العذاب والسخطة، فإني منتظر النصر والرحمة".

قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا} [هود: ٩٤]، أي:"ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعيبًا والمؤمنين معه بسبب رحمة عظيمة منا لهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولما جاء قضاؤنا في قوم شعيب، بعذابنا {نجينا شعيبًا} رسولنا، والذين آمنوا به فصدقوه على ما جاءهم به من عند ربهم مع شعيب، من عذابنا الذي بعثنا على قومه {برحمة منا} له ولمن آمن به وأتبعه على ما جاءهم به من عند ربهم".

قال مقاتل:"{برحمة منا}، يعني: بنعمة منا عليهم".

قال محمد بن إسحاق: "بلغني والله أعلم أن الله سلط عليهم الحر حتى إذ أنضجهم أنشأ لهم الظلة كالسحابة السوداء فلما رأوها ابتدروها يستغيثون ببردها ما هم فيه حتى إذا دخلوا تحتها أطبقت. فهلكوا جميعا ونجى الله شعيبا والذين آمنوا معه فأصابه على قومه حزن لما نزل بهم من نقمة الله".

قوله تعالى: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ} [هود: ٩٤]، أي:" وأخذ أولئك الظالمين صيحةُ العذاب".

قال الطبري:"وأخذت الذين ظلموا صيحة من السماء أخمدتهم، فأهلكتهم بكفرهم بربهم. وقيل: إن جبريل عليه السلام، صاح بهم صَيحةً أخرجت أرواحهم من أجسامهم".

قال مقاتل:"يعني: صيحة جبريل - عليه السلام -".

قال البغوي:"قيل: إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم. وقيل:

=

=

أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم".

عن محمد بن كعب القرظي، قال:"إن أهل مدين عذبوا ثلاثة أصناف من العذاب أحدهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ففرقوا أن يدخلوا البيوت إن تسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلا أطيب ولا أبرد، هلموا أيها الناس، فدخلوا جميعا تحت الظلة، فصاح فيهم صيحة واحدة فماتوا جميعا".

قوله تعالى: {فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [هود: ٩٤]، أي:"فأصبحوا في ديارهم باركين على رُكَبهم ميتين لا حِرَاك بهم".

قال الطبري:"على ركبهم، وصرعى بأفنيتهم".

قال مقاتل:"يعني: في منازلهم موتى".

قال قتادة:"ميتين". وروي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مثله".

والهلاك الذي أصاب قوم شعيب ذكر تعالى في الأعراف أنه رجفة.

قال تعالى (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين).

وذكر في هود هنا أنه صيحة (وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين).

وذكر في الشعراء أنه عذاب يوم الظلة، قال تعالى (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره قال: وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام. اهـ منه.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد جمع الله عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفا من المثلات،

=

=

وأشكالا من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها.

في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم راجعين فقال تعالى: (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين). فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب لهذا السياق، ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم، والاستهزاء والتنقص (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد). فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي جهلوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم

وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم (عذاب يوم الظلة) وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريبا إلى ما إليه رغبوا فإنهم قالوا (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين).

قوله تعالى: {كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا} [هود: ٩٥]، أي:"كأن لم يقيموا في ديارهم وقتًا من الأوقات".

- قال الخازن: قوله تعالى (الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) يعني كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوما من الدهر يقال: غنيت بالمكان أي أقمت به.

- وقال الشوكاني: ومعنى الآية: الذين كذبوا شعيبا كأن لم يقيموا في دارهم، لأن

=

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦).

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَان مُبِين} بُرْهَان بين ظاهر.

=

الله سبحانه استأصلهم بالعذاب.

- وقال ابن عطية: قوله تعالى (كأن لم يغنوا فيها) لفظ فيها للإخبار عن قوة هلاكهم ونزول النقمة بهم والتنبيه على العبرة بهم.

- وقال الشنقيطي: المعنى: الذين كذبوا شعيبا دمرهم الله وأهلكهم إهلاكا مستأصلا حتى كأنهم لم يقيموا في دارهم يوما من الدهر أبدا ولم يوجدوا، والذي زال زوالا كليا تقول العرب: كأنه لم يكن يوما ما.

قال قتادة:"كأن لم يعيشوا فيها كأن لم ينعموا".

قال مقاتل:"يعني: كأن لم يكونوا فى الدنيا قط".

قال البغوي:"أي: كأن لم يقيموا ولم يكونوا فيها".

قال الزمخشري:"كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين".

قال أبو عبيدة:"أي: لم ينزلوا فيها ولم يعيشوا فيها، قال مهلهل:

غَنِيَتْ دَارُنَا تِهَامَةَ فِي الدَّهْـ رِ وفِيهَا بَنُو مَعَدٍّ حُلُولَا".

قوله تعالى: {أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ} [هود: ٩٥]، أي:". ألا بُعدًا لـ «مدين» -إذ أهلكها الله وأخزاها- كما بَعِدت ثمود".

قال البغوي:"{ألا بعدا} هلاكا، {لمدين كما بعدت} هلكت {ثمود}".

قال مقاتل:"{ألا بعدا لمدين} فى الهلاك {كما بعدت ثمود}، يعني: كما هلكت ثمود، لأن كل واحدة منهما هلكت بالصيحة، فمن ثم اختص ذكر ثمود من بين الأمم".

وقرأ السلمى: «بعدت»، بضم العين، والمعنى في البناءين واحد، وهو نقيض القرب.

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧).

{إِلَى فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْر فِرْعَوْن وَمَا أَمْر فِرْعَوْن بِرَشِيدٍ} سَدِيد.

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨).

{يَقْدُم} يَتَقَدَّم {قَوْمه يَوْم الْقِيَامَة} فَيَتَّبِعُونَهُ كَمَا اتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا {فَأَوْرَدَهُمْ} أَدْخَلَهُمْ {النَّار وَبِئْسَ الْوِرْد الْمَوْرُود} هِيَ.

وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩).

{وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ} أَيْ الدُّنْيَا {لَعْنَة وَيَوْم الْقِيَامَة} لَعْنَة {بِئْسَ الرِّفْد} الْعَوْن {الْمَرْفُود} رِفْدهمْ[1].

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا} [هود: ٩٦]، أي:"ولقد أرسلنا موسى بأدلتنا على توحيدنا وحجة تبين لمن عاينها وتأملها -بقلب صحيح- أنها تدل على وحدانية الله، وكذب كل من ادعى الربوبية دونه سبحانه وتعالى".

وصيغة الجمع في قوله (ولقد أرسلنا) للتعظيم.

والمراد بالآيات: الآيات التسع المشار إليها في قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات).

وقال تعالى (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين).

وهي: العصا، واليد البيضاء، والسنون العجاف، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

قال مقاتل:"يعني: اليد والعصى".

قال القرطبي: "بيّن أنه أتبع النبي النبي لإقامة الحجة، وإزاحة كل علة، {بآياتنا}، أي: بالتوراة. وقيل: بالمعجزات".

=

=

عن أبي صالح: "{أرسل}، قال: بعث".

قوله تعالى: (وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ).

السلطان المبين: الحجة الواضحة، والبرهان الظاهر على صدقه، وسمى ذلك سلطانا لأن صاحب الحجة والبرهان على ما يدعى، يقهر ويغلب من لا حجة ولا برهان معه، كما يقهر السلطان غيره.

قوله تعالى: {إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ} [هود: ٩٧].

أي: أرسلنا موسى إلى فرعون وأكابر أتباعه وأشراف قومه، فكفر فرعون وأمر قومه أن يتبعوه، فأطاعوه، وخالفوا أمر موسى.

- وقوله (إلى فرعون وملئه) خصهم بالذكر مع فرعون، لأنهم هم الذين كانوا ينفذون أوامره، ويعاونونه على فساده والضمير في قوله فاتبعوا أمر فرعون يعود إلى الملأ.

أي: فاتبعوا أمره في كل ما قرره من كفر، وفي كل ما أشار به من فساد.

- فقد ادعى أنه إلههم من دون الله كما قال تعالى عنه (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري).

وقال تعالى (فقال أنا ربكم الأعلى).

وكان قومه ضعفاء العقول، يتبعون أمره مع وضوح ضلاله وفساده لخفة عقولهم.

كما قال تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين).

قال القرطبي: "أي: شأنه وحاله، حتى اتخذوه إلها، وخالفوا أمر الله تعالى".

قال مقاتل: "حين قال: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى} ، فأطاعوا فرعون في قوله".

قوله تعالى: {وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} [هود: ٩٧]، أي:"وليس في أمر فرعون رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، فكان من الواجب على ملئه أن ينبذوه ويهملوه، بدل أن يطيعوه ويتبعوه".

=

قال القرطبي:"أي: بسديد يؤدي إلى صواب: وقيل: {برشيد}، أي: بمرشد إلى خير".

قال الزمخشري:"تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل، وذلك أنه ادعى الإلهية وهو بشر مثلهم، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتا وأفعالا، فاتبعوه وسلموا له دعواه، وتتابعوا على طاعته. والأمر الرشيد: الذي فيه رشد: أي: وما في أمره رشد إنما هو غى صريح وضلال ظاهر مكشوف، وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم، لا من يضلهم ويغويهم. وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى عليه السلام، وعلموا أن معه الرشد والحق، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط... ويجوز أن يريد بقوله: {وما أمر فرعون برشيد}: وما أمره بصالح حميد العاقبة. ويكون قوله {يقدم قومه} تفسيرا لذلك وإيضاحا. أى: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته. و «الرشد»: مستعمل في كل ما يحمد ويرتضى، كما استعمل الغى في كل ما يذم ويتسخط.".

قوله تعالى: {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [هود: ٩٨]، أي:"يتقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى جهنم، كما كان يتقدمهم في الكفر في الدنيا، فأوردهم النار، أي: فدخلها وأدخلهم معه فيها".

قال مقاتل: "يعني: فرعون قائدهم إلى النار ويتبعونه كما يتبعونه في الدنيا".

قال الزمخشري:"أى كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه... ويقال: قدمه بمنى تقدمه. ومنه: قادمة الرجل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدمه. ومنه مقدمة الجيش. وأقدم بمعنى تقدم. ومنه مقدم العين.

فإن قلت: هلا قيل: يقدم قومه فيوردهم؟ ولم جيء بلفظ الماضي؟

=

قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به، فكأنه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة".

قال القرطبي:"يعني: أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم. يقال: قدمهم يقدمهم قدما وقدوما إذا تقدمهم".

قال قتادة:"يقول: يقود قومه يوم القيامة". وفي رواية أخرى:"يمضي بين أيديهم يحم بهم على النار".

قوله تعالى: {فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ} [هود: ٩٨]، أي:"فأدخلهم نار جهنم".

قال مقاتل: "فأدخلهم".

قال القرطبي:"أي: أدخلهم فيها. ذكر بلفظ الماضي، والمعنى: فيوردهم النار، وما تحقق وجوده فكأنه كائن، فلهذا يعبر عن المستقبل بالماضي".

قال ابن عباس:"«الورد»: الدخول".

قال نافع بن الأزرق لابن عباس يا ابن عباس ما الورود قال: الدخول قال إنما الورود: الوقوف على شفيرها قال: فقال ابن عباس والله لأردنها ولتردنها وإني لأرجوا أن أكون من الذين قال الله: ثم ننجي الذين اتقوا وتكون أنت من الذين قال الله تعالى: ونذر الظالمين فيها جثيا قال: وكذلك كان يقرأها ويحك يا نافع بن الأزرق أما تقرأ كتاب الله وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار أفتراه ويحك إنما أقامهم على شفيرها والله تعالى يقول: ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب".

قوله تعالى: {وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ} [هود: ٩٨]، أي:"وبئس الورد الذي يردونه النار، لان الورد- الذي هو النصيب المقدر للإنسان من الماء- إنما يذهب إليه قاصده لتسكين عطشه، وإرواء ظمئه، وهؤلاء إنما يذهبون إلى النار التي هي الضد من ذلك".

=

=

والورد- بكسر الواو- يطلق على الماء الذي يرد إليه الإنسان والحيوان للشرب، فالورد الشيء الذي يورد.

قال مقاتل: "المدخل المدخول".

قال القرطبي:"أي: بئس المدخل المدخول، ولم يقل: «بئست»، لأن الكلام يرجع إلى المورود، وهو كما تقول: نعم المنزل دارك، ونعمت المنزل دارك والمورود الماء الذي يورد، والموضع الذي يورد، وهو بمعنى المفعول".

قال الزمخشري:"المورود الذي وردوه، شبه بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء. وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بئس الورد الذي يردونه النار، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار ضده".

قال ابن عباس:"المورد في القرآن أربعة أوراد وإن منكم إلا واردها".

قوله تعالى: {وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ} [هود: ٩٩]، أي:"وأتبعهم الله في هذه الدنيا مع العذاب الذي عجَّله لهم فيها من الغرق في البحر لعنةً، ويوم القيامة كذلك لعنة أخرى بإدخالهم النار".

قال الزمخشري:"أى: يلعنون في الدنيا، ويلعنون في الآخرة".

قال الطبري:"يقول الله تعالى ذكره: وأتبعهم الله في هذه - يعني في هذه الدنيا-مع العذاب الذي عجله لهم فيها من الغرق في البحر، لعنتَه، {ويوم القيامة}، يقول: وفي يوم القيامة أيضًا يلعنون لعنةً أخرى".

عن مجاهد: "{وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة}، قال: زِيدوا بلعنته لعنةً أخرى، فتلك لعنتان".

وفي قوله تعالى: {وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ} [هود: ٩٩]، وجهان:

أحدهما: أن اللعنة في الدنيا من المؤمنين وفي الآخرة من الملائكة.

الثاني: أنه عنى بلعنة الدنيا الغرق، وبلعنة الآخرة النار، قاله الكلبي، ومقاتل.

=

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠).

=

قوله تعالى: {بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} [هود: ٩٩]، أي:"وبئس ما اجتمع لهم وترادَف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة".

قال الزمخشري:"أي: بئس العون المعان. وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له، وقد رفدت باللعنة في الآخرة. وقيل: بئس العطاء المعطى".

قال الطبري: «يقول: بئس العَوْن المُعان، اللعنةُ المزيدة فيها أخرى مثلها، وأصل "الرفد"، العون، يقال منه: "رفَد فلانٌ فلانًا عند الأمير يَرفِده رِفْدًا " بكسر الراء وإذا فتحت، فهو السَّقي في القدح العظيم، و"الرَّفد": القدحُ الضخم، ومنه قول الأعشى:

رُبَّ رَفْدٍ هَرَقْتَهُ ذَلِكَ الْيَوْ مَ وَأَسْرَى مِنْ مَعْشَرٍ أَقْتَالِ

ويقال: "رَفد فلان حائطه"، وذلك إذا أسنده بخشبة، لئلا يسقط. و"الرَّفد"، بفتح الراء المصدر. يقال منه: "رَفَده يَرفِده رَفْدًا"، و"الرِّفْد"، اسم الشيء الذي يعطاه الإنسان، وهو "المَرْفَد"».

عن ابن عباس قوله: "{بئس الرفد المرفود}، قال: لعنة الدنيا والآخرة".

عن قتادة: "{بئس الرفد المرفود}، قال: لعنهم الله في الدنيا، وزيد لهم فيها اللعنة في الآخرة".

قال الضحاك:"أصابتهم لعنتان في الدنيا، رفدت إحداهما الأخرى".

وفي قوله تعالى: {بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} [هود: ٩٩]، ثلاثة وجوه:

أحدها: بئس العون المعان، قاله أبو عبيدة.

الثاني: أن الرَّفد بفتح الراء: القدح، والرفد بكسرها ما في القدح من الشراب، حكي ذلك عن الأصمعي فكأنه ذم بذلك ما يُسقونه في النار.

الثالث: أن الرفد الزيادة، ومعناه بئس ما يرفدون به بعد الغرق النار، قاله الكلبي.

{ذَلِكَ} الْمَذْكُور مُبْتَدَأ خَبَره {مِنْ أَنْبَاء الْقُرَى نَقُصّهُ عَلَيْك} يَا مُحَمَّد {مِنْهَا} أَيْ الْقُرَى {قائم} هلك أهله دونه {و} مِنْهَا {حَصِيد} هَلَكَ بِأَهْلِهِ فَلَا أَثَر لَهُ كَالزَّرْعِ الْمَحْصُود بِالْمَنَاجِلِ.

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١).

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ} بِإِهْلَاكِهِمْ بِغَيْرِ ذَنْب {وَلَكِنْ ظَلَمُوا أنفسهم} بالشرك {فما أغنت} دفعت { {عنهم آلهتهم الَّتِي يَدْعُونَ} يَعْبُدُونَ {مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {مِنْ} زَائِدَة {شَيْء لَمَّا جَاءَ أَمْر رَبّك} عَذَابه {وَمَا زَادُوهُمْ} بِعِبَادَتِهِمْ لَهَا {غَيْر تتبيب} تخسير[1].

---

(١) قوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ} [هود: ١٠٠]، أي:"ذلك الذي قصصناه عليك- أيها الرسول الكريم- في هذه السورة الكريمة، وهو جزء من أنباء القرى المهلكة".

(نقصه عليك) أي: نخبرك به إخبارا مفصلا في هذا القرآن عن طريق وحينا الصادق، ليعتبر به الناس، وليعلموا أن هذا القرآن المشتمل على هذا القصص الذي لا علم لهم به من عند الله.

والنبأ أخص من الخبر، فكل نبأ خبر وليس كل خبر نبأ، لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر الخاص، وهو الخبر الذي له خطب وشأن، وهلاكهم وتهديد ووعيدهم نبأ عظيم له شأن وخطب جسيم.

وإنما كانت هذه الأنباء عن هذه القرى أخبار لها خطب وشأن؛ لأنها دلت على كمال قدرة الله، وعلى صبر أنبيائه، وعلى شدة بطشه وعدالته وإنصافه، وإهلاكه للظالمين، وأن فيها من التخويف للموجودين من عذاب الله وسخطه ما ينهاهم أن =

=

يقع منهم مثل ما وقع من الأولين، ولذا كان لها شأن وخطب؛ ولذا قال (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: هذا القصص الذي ذكرناه لكَ في هذه السورة،، والنبأ الذي أنبأناكه فيها، من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسله {نقصه عليك} فنخبرك به".

قال أبو مالك:"{أنباء}، يعني: أحاديث".

- قال السعدي: قوله تعالى (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين.

- وقال القرطبي: وهي تسلية للنبي عليه السلام والمسلمين.

- والقرى تطلق على الأبنية وعلى الساكنين بها.

قوله تعالى: {مِنْهَا قَائِمٌ} [هود: ١٠٠]، أي:"من هذه القرى المهلكة ما آثارها قائمة يراها الناظر إليها، كآثار قوم ثمود، ومنها ما أثارها عفت وزالت وانطمست وصارت كالزرع المحصود الذي استؤصل بقطعه، فلم تبق منه باقية، كديار قوم نوح".

والضمير في قوله: (منها) يعود إلى تلك القرى المهلكة، والجملة مستأنفة للتحريض على النظر والاعتبار، فكأن سائلا سأل ما حال هذه القرى المهلكة أباقية آثارها أم عفى عليها الزمن؟ فكان الجواب: منها قائم وحصيد.

قال مقاتل:"يقول: من القرى ما ينظر إليها ظاهرة".

قال الطبري:"يقول: منها قائم بنيانه، بائدٌ أهله هالك".

عن ابن عباس قوله: منها قائم يعني: بالقائم قرى عامرة".

عن محمد بن كعب في قوله: "{قائم وحصيد}، قال: ما كان من بنيانهم قائم لم يخرب".

=

=

قوله تعالى: {وَحَصِيدٌ} [هود: ١٠٠]، أي:"ومن تلك القرى ما قد مُحِيَتْ آثاره، فلم يَبْق منه شيء".

قال مقاتل:"ومنها خامدة قد ذهبت ودرست".

قال الطبري:"ومنها قائم بنيانه عامر، ومنها حصيدٌ بنيانه، خرابٌ متداعٍ، قد تعفى أثرُه دارسٌ".

قال ابن عباس:"يعني بـ «الحصيد»: قرى خامدة".

عن الأعمش:"{وحصيد}، قال: خر بنيانه".

قال قتادة:"قرى خاوية على عروشها لاصق بالأرض ولا ترى فيها أثرا".

قوله تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [هود: ١٠١]، أي:"وما كان إهلاكهم بغير سبب وذنب يستحقونه، ولكن ظلموا أنفسهم بشركهم وإفسادهم في الأرض".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما عاقبنا أهل هذه القرى التي اقتصَصنا نبأها عليك، يا محمد، بغير استحقاق منهم عقوبتنا، فنكون بذلك قد وضعنا عقوبتنا هُمْ في غير موضعها، ولكنهم أوجبوا لأنفسهم بمعصيتهم الله وكفرهم به، عقوبتَه وعذابه، فأحلوا بها ما لم يكن لهم أن يحلوه بها، وأوجبوا لها ما لم يكن لهم أن يوجبوه لها".

عن ابن زيد: "{وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم...}، " فما ذكرنا لك من عذاب من عذبناه من الأمم ولكن ظلموا أنفسهم".

قال عطاء عن ابن عباس: "يريد وما نقصناهم في الدنيا من النعيم ولا من الرزق، ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله".

قوله تعالى: {فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ} [هود: ١٠١]، أي:"فما نفعتهم آلهتهم التي كانوا يدعُونها ويطلبون منها

=

=

أن تدفع عنهم الضر لمَّا جاء أمر ربك بعذابهم".

قال الطبري:"يقول: فما دفعت عنهم آلهتهم التي يدعونها من دون الله، ويدعونها أربابًا من عقاب الله وعذابه إذا أحله بهم ربُّهم من شيء، ولا ردَّت عنهم شيئًا منه – يا محمد–، لما جاء قضاء ربك بعذابهم، فحقّ عليهم عقابه، ونزل بهم سَخَطه".

عن قتادة: قوله: "{يدعون من دون الله}، قال: الوثن".

الواحدي: "أي: ما نفعتهم وما دفعت عنهم، {الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} أي التي يعبدون سوى الله وغيره".

قوله تعالى: {وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} [هود: ١٠١]، أي:"وما زادتهم آلهتهم غير تدمير وإهلاك وخسران".

قال الطبري:"يقول: وما زادتهم آلهتهم عند مجيء أمر ربك هؤلاء المشركين بعقاب الله غير تخسيرٍ وتدميرٍ وإهلاك".

وفي قوله تعالى: {وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} [هود: ١٠١]، ثلاة وجوه:

أحدها: أن التتبيب: الشر، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"التتبيب: الشر، قال: وما زادوهم إلا شرا، وقرأ: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد: ١]، قال: وأما التب: الخسران والشر ما زادوهم إلا خسرانا".

الثاني: أنه الهلكة، قاله قتادة. وأبو عبيدة ، قال لبيد:

ولقد بَلِيْتُ وكلُّ صاحبِ جِدَّةٍ لِبِلىً يعودُ وذاكمُ التَّتْبيبُ

الثالث: أنه التخسير، وهو "الخسران"، قاله ابن عمر ، ومجاهد ، وقتادة ، واختاره الزجاج ، وابن قتيبة (.

قال ابن قتيبة:"أي: غير تخسير. ومنه قوله ﷻ: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} [المسد: ١]، أي: خسرت".

قال الطبري:"يقال منه: «تبّبْتُه أتبِّبُه تَتْبيبًا»، ومنه قولهم للرجل: «تبًّا لك»، قال

=

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢).

{وَكَذَلِكَ} مِثْل ذَلِكَ الْأَخْذ {أَخْذ رَبّك إذَا أَخَذَ الْقُرَى} أُرِيد أَهْلهَا {وَهِيَ ظَالِمَة} بِالذُّنُوبِ أَيْ فَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ أَخْذه شَيْء {إنَّ أَخْذه أَلِيم شَدِيد} رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله ﷺ إنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُول الله ﷺ {وَكَذَلِكَ أَخْذ رَبّك} الْآيَة[1].

=

جرير:

عَرَادَةُ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ لُوطٍ أَلا تَبًّا لِمَا فَعَلُوا تَبَابًا"

قال ابن سلام البغدادي:"يعني: تخسير بلغة قريش".

(١) قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ} [هود: ١٠٢]، أي:"وكما أخذتُ أهل القرى الظالمة بالعذاب لمخالفتهم أمري وتكذيبهم برسلي، آخذ غيرهم مِن أهل القرى إذا ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله ومعصيتهم له وتكذيبهم لرسله".

والأخذ: هو العقاب المباغت السريع: يقال أخذ فلان الموت، إذا نزل به بسرعة وقوة.

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) متفق عليه.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكما أخذت، أيها الناس، أهلَ هذه القرى التي اقتصصت عليك نبأ أهلها بما أخذتُهم به من العذاب، على خلافهم أمري، وتكذيبهم رسلي، وجحودهم آياتي، فكذلك أخذي القرَى وأهلها إذا أخذتهم بعقابي، وهم ظلمة لأنفسهم بكفرهم بالله، وإشراكهم به غيره، وتكذيبهم رسله".

=

=

قال الواحدي:"أي: وكما ذكر من إهلاك الأمم وأخذهم بالعقاب أخذ ربك إذا أخذ القرى، ومعنى أخذ الله نقلهم إلى جهة عقابه. {وَهِيَ ظَالِمَةٌ} من صفة القرى وهي في الحقيقة لأهلها ومن كان يسكنها، ونحو هذا قوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً} [الأنبياء: ١١] وقوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا}، [القصص: ٥٨] يعني أن أهلها بطروا المعيشة، ويكون هذا من باب حذف المضاف".

قال مقاتل:"{وهي ظالمة}، أي: مشركة".

قوله تعالى: {إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢]، أي:"إنَّ أَخْذه بالعقوبة لأليم موجع شديد".

قال مقاتل:"{إِنَّ أَخْذَهُ}، يعني: بطشة، {أليم}، يعني: وجيع {شديد}".

قال الطبري:"يقول: إن أخذ ربكم بالعقاب من أخذه موجع {شديد} الإيجاع".

قال ابن قتيبة:"الأخذ: التعذيب، قال الله تعالى: وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى [هود:
١٠٢] أي: تعذيبه. وقال: فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ [العنكبوت: ٤٠] أي عذبنا، وقال: وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ [غافر: ٥] أي ليعذبوه أو ليقتلوه".

قال ابن زيد: "إن الله حذّر هذه الأمة سطوتَه بقوله: {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد}".

عن ابن عباس قوله: "{إن أخذه أليم شديد}، يقول: موجع".

قال أبو العالية:"الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

عن أبي موسى قال، قال رسول الله ﷺ: "إن الله يُمْلي -ورُبَّما، قال: يمهل- الظالمَ، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتُه. ثم قرأ: {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي

=

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣).

{إِنَّ فِي ذَلِكَ} الْمَذْكُور مِنْ الْقَصَص {لَآيَة} لَعِبْرَة {لِمَنْ خَافَ عَذَاب الْآخِرَة ذَلِكَ} أَيْ يَوْم الْقِيَامَة {يَوْم مَجْمُوع لَهُ} فِيهِ {النَّاس وذلكم يوم مشهود} يشهده جميع الخلائق.

وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤).

{وما نؤخر إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُود} لِوَقْتٍ مَعْلُوم عِنْد الله(١).

=

ظالمة}".

(١) قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ} [هود: ١٠٣]، أي:"إن في أخذنا لأهل القرى السابقة الظالمة لعبرةً وعظة لمن خاف عقاب الله وعذابه في الآخرة".

(لمن خاف عذاب الآخرة) لأنه هو المنتفع بالعبر والعظات لصدق إيمانه، وصفاء نفسه، وإيقانه بأن هناك في الآخرة ثوابا وعقابا وحسابا على الأعمال الدنيوية.

أما الذي ينكر الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، فإنه لا يعتبر بما أصاب الظالمين من عذاب دنيوي دمرهم تدميرا، بل ينسب ذلك إلى أسباب طبيعة أو فلكية أو غيرهما، لا علاقة لها بكفرهم وظلمهم وطغيانهم.

- قال الشنقيطي:... وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه كما قال (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى) وقال في الساعة (إنما أنت منذر من يخشاها).

وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل وما

=

=

حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك (إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة.

وقوله (إنما أنت منذر من يخشاها) أي: يخشى عذاب الآخرة، فالمحذوف في سورة النازعات صرح به هنا.

- أما من لا يؤمن بالآخرة فلا ينتفع بهذه الآيات.

قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد)

وقال تعالى (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا).

وقال تعالى (وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن في أخذنا من أخذنا من أهل القرى التي اقتصصنا خبرَها عليكم أيها الناس لآية، يقول: لعبرة وعظة، لمن خاف عقاب الله وعذابه في الآخرة من عباده، وحجةً عليه لربه، وزاجرًا يزجره عن أن يعصي الله ويخالفه فيما أمره ونهاه، وقيل: بل معنى ذلك: إن فيه عبرة لمن خاف عذاب الآخرة، بأن الله سيفي له بوَعْده".

قال الواحدي:"يعني: ما ذكر من عذاب الأمم الخالية وإهلاكهم {لَآيَةً}".

قال ابن عباس: "لعبرة وعظة".

قال ابن زيد في قوله: "{إن في ذلك لآيه لمن خاف عذاب الآخرة}، إنا سوف نفي لهم بما وعدناهم في الآخرة، كما وفينا للأنبياء: أنا ننصرهم".

عن سعيد بن جبير، في قوله: "{إن في ذلك لآية}، قال:"هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه

=

=

إلى أهله".

قوله تعالى: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ} [هود: ١٠٣]، أي:"ذلك اليوم الذي يُجمع له الناس جميعًا للمحاسبة والجزاء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هذا اليوم -يعني يوم القيامة - {يوم مجموع له الناس}، يقول: يحشر الله له الناس من قبورهم، فيجمعهم فيه للجزاء والثواب والعقاب".

قال الواحدي:"لأن الخلق كلهم يحشرون ويجمعون لذلك اليوم".

قوله تعالى: {وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود: ١٠٣]، أي:"ويشهده الخلائق كلهم".

قال الطبري:"يقول: وهو يوم تَشهده الخلائق، لا يتخلَّف منهم أحدٌ، فينتقم حينئذ ممن عصى الله وخالف أمره وكذَّب رُسُلَه".

عن الحسن والحسين بن علي، قال: "المشهود: يوم القيامة".

عن مجاهد في قوله: "{ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود}، قال: يوم القيامة".

عن الضحاك قوله: "{ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود}، قال: ذلك يوم القيامة، يجتمع فيه الخلق كلهم، ويشهدُه أهل السماء وأهل الأرض".

عن ابن عباس قال، «"الشاهد"، محمد، و"المشهود"، يوم القيامة. ثم قرأ: {ذلك يوم مجموعٌ له الناس وذلك يوم مشهود}».

وقال ابن عباس:"يشهده البر والفاجر".

قال الزجاج:"فأعلم الله - ﷻ - أنه يحيي الخلق ويبعثهم في ذلك اليوم ويشهدوا به".

قوله تعالى: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ} [هود: ١٠٤]، أي:"ما نؤخر ذلك اليوم - يوم القيامة - إلا لزمنٍ معيَّن سبق به قضاء الله، لا يتقدم ولا يتأخر".

=

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥).

{يَوْم يَأْتِ} ذَلِكَ الْيَوْم {لَا تَكَلَّم} فِيهِ حَذْف إِحْدَى التَّاءَيْنِ {نَفْس إِلَّا بِإِذْنِهِ} تَعَالَى {فَمِنْهُمْ} أَيْ الْخَلْق {شَقِيّ و} مِنْهُمْ {سَعِيد} كُتِبَ كُلّ فِي الْأَزَل.

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦).

{فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا} فِي عِلْمه تَعَالَى {فَفِي النَّار لَهُمْ فِيهَا زَفِير} صَوْت شَدِيد {وَشَهِيق} صوت ضعيف.

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧).

{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَات وَالْأَرْض} أَيْ مُدَّة دَوَامهمَا فِي الدُّنْيَا {إِلَّا} غَيْر {مَا شَاءَ رَبّك} مِنْ الزِّيَادَة عَلَى مُدَّتهمَا مِمَّا لَا مُنْتَهَى لَهُ وَالْمَعْنَى

=

قال مقاتل: "يعني: وما نؤخر يوم القيامة إلا لأجل موقوت".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وما نؤخّر يوم القيامة عنكم أن نجيئكم به إلا لأن يُقْضَى، فقضى له أجلا فعدّه وأحصَاه، فلا يأتي إلا لأجله ذلك، لا يتقدم مجيئه قبل ذلك ولا يتأخر".

قال الزمخشري: "«الأجل»: يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها، فيقولون: انتهى الأجل، وبلغ الأجل آخره، ويقولون: حل الأجل فإذا جاء أجلهم يراد آخر مدة التأجيل، والعد إنما هو للمدة لا لغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله وما نؤخره إلا لأجل معدود إلا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف".

قال ابن عباس: "{لأجل}، يعني: الموت".

قرأ يعقوب وحده {وَمَا يؤَخِّرُهُ} [١٠٤]، بالياء. وقرأ الباقون {وَمَا نُؤَخِّرُهُ} بالنون.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا {إن ربك فعال لما يريد} .

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) .

{وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا} بِفَتْحِ السِّين وَضَمّهَا {فَفِي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات وَالْأَرْض إلَّا} غَيْر {مَا شَاءَ رَبّك} كَمَا تَقَدَّمَ وَدَلَّ عَلَيْهِ فِيهِمْ قَوْله {عَطَاء غَيْر مَجْذُوذ} مَقْطُوع وَمَا تَقَدَّمَ مِنْ التَّأْوِيل هُوَ الَّذِي ظَهَرَ وَهُوَ خَال مِنْ التَّكَلُّف وَاَللَّه أعلم بمراده.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩).

{فَلَا تَكُ} يَا مُحَمَّد {فِي مِرْيَة} شَكّ {مِمَّا يَعْبُد هَؤُلَاءِ} مِنْ الْأَصْنَام إنَّا نُعَذِّبهُمْ كَمَا عَذَّبْنَا مَنْ قَبْلهمْ وَهَذَا تَسْلِيَة لِلنَّبِيِّ ﷺ {مَا يَعْبُدُونَ إلَّا كَمَا يَعْبُد آبَاؤُهُمْ} أَيْ كَعِبَادَتِهِمْ {مِنْ قَبْل} وَقَدْ عَذَّبْنَاهُمْ {وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ} مِثْلهمْ {نَصِيبهمْ} حَظّهمْ مِنْ الْعَذَاب {غَيْر مَنْقُوص} أَيْ تَامًّا[1] .

(١) قوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [هود: ١٠٥]، أي:"يوم يأتي ذلك اليوم الرهيب لا يتكلم أحدٌ إلا بإذن الله تعالى".

عن سعيد بن جبير، في قوله: "{إلا بإذنه}، قال: من يتكلم عنده إلا بإذنه".

وفي قوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [هود: ١٠٥]، وجوه:

أحدها: لا تشفع إلا بإذنه.

الثاني: لا تتكلم إلا بالمأذون فيه من حسن الكلام لأنهم ملجؤون إلى ترك القبيح.

الثالث: أن لهم في القيامة وقت يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه.

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى يوم تأتي كل نفس =

=

تجادل عن نفسها وقوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون؟ قلت: ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها: يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم".

قرئ يوم: «يأت»، بغير ياء.

قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [هود: ١٠٥]، أي:"فمن أهل الموقف شقيٌّ متسحق للعذاب، ومنهم سعيد متفضَّل عليه بالنعيم".

الشقي: هو الشخص المتلبس بالشقاوة. والشقاء: أي سوء الحال- بسبب إيثاره الضلالة على الهداية، والباطل على الحق.

والسعيد: هو الشخص المتلبس بالسعادة، وبالأحوال الحسنة بسبب إيمانه وعمله الصالح.

والمعنى: حين يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة، لا تتكلم فيه نفس بأي كلام إلا بإذن الله تعالى ويكون الناس فيه منقسمين إلى قسمين: قسم شقي معذب بسبب كفره، وسوء عمله، وتفريطه في حقوق الله، وقسم سعيد منعم بسبب إيمانه: وعمله الصالح.

قال الطبري:"يقول: فمن هذه النفوس التي لا تكلم يوم القيامة إلا بإذن ربها، شقيٌّ وسعيد".

قال الزمخشري:"الشقي: الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد: الذي وجبت له الجنة لإحسانه".

وفي قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [هود: ١٠٥]، وجهان:

أحدهما: محروم ومرزوق، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

الثاني: معذب ومكرم ، قال لبيد:

=

=

فمنهم سعيد آخذٌ بنصيبه ومنهم شقي بالمعيشة قانعُ

روي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال:"قال عمر: يا رسول الله، أرأيت ما نعمل، فيه أمرٌ مُبتدأ، أو فيما قد فُرِغَ منه؟ فقال: "فيما قد فُرِغ يا ابن الخطاب، وكل مُيَسَّرٌ، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فإنه يعمل للشقاوة".

وعن الضحاك عن ابن عباس قال: "هاتان من المخبيات. فمنهم شقي وسعيد فهم قوم من أهل الكبائر من أهل هذه القبلة يعذبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم ثم يأذن في الشفاعة لهم فيشفع لهم المؤمنون فيخرجون من النار فيدخلهم الجنة فسماهم أشقياء حين عذبهم في النار فقال: فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق" وإسناده ضعيف.

وفي رواية قال: "لما نزلت {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [هود: ١٠٥] سألتُ رسول الله ﷺ فقلت: فعلام نعمل؟ وساق نحو الأولى.

قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ} [هود: ١٠٦]، أي:"فأما الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة فإنهم مستقرون في نار جهنم".

قوله تعالى: {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [هود: ١٠٦]، أي:"لهم من شدة كربهم {زَفِيرٌ} وهو إخراج النَّفَس بشدة {وَشَهِيقٌ} وهو ردُّ النَّفَس بشدة".

وفي تفسير قوله تعالى: {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [هود: ١٠٦]، وجوه:

أحدها: أن الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف، قاله ابن عباس.

الثاني: أن الزفير في الحلق من شدة الحزن، مأخوذ من الزفير، والشهيق في الصدر، قاله الربيع بن أنس ، وأبو العالية.

الثالث: أن الزفير تردد النفس من شدة الحزن، مأخوذ من الزفر وهو الحمل على الظهر الشدته، والشهيق النفس الطويل الممتد، مأخوذ من قولهم جبل شاهق أي

=

=

طويل، قاله ابن عيسى.

الرابع: أن الزفير أول نهيق الحمار، والشهيق آخر نهيقه. قاله قتادة ، قال الشاعر:

حشرج في الجوف سحيلًا أو شهق حتى يقال ناهق وما نهق

قال قتادة:"صوت الكافر في النار صوت الحمار، أوّله زفير وآخره شهيق".

والمراد الدلالة على شدة كربهم وغمهم، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة، واستبد به الضيق حتى صار في كرب شديد.

والمعنى: فأما الذين كان نصيبهم الشقاء في الآخرة، بسبب كفرهم واقترافهم للمعاصي في الدنيا، فمصيرهم إلى الاستقرار في النار، لهم فيها من ضيق الأنفاس. وحرج الصدور، وشدة الكروب ما يجعلهم يفضلون الموت على ما هم فيه من هم وغم. وخص سبحانه من بين أحوالهم الأليمة حالة الزفير والشهيق تنفيرا من الأسباب التي توصل إلى النار، وتبشيعا لتلك الحالة التي فيها ما فيها من سوء المنظر، وتعاسة الحال...

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هود: ١٠٧]، أي:"ماكثين في النار أبدًا ما دامت السموات والأرض، فلا ينقطع عذابهم ولا ينتهي، بل هو دائم مؤكَّد، إلا ما شاء ربك من إخراج عصاة الموحدين بعد مدَّة من مكثهم في النار".

عن قتادة قوله: {فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك} ، الله أعلم بتثنيته على ما وقعت به".

عن سعيد بن جبير:"{خالدين فيها} ، يعني: لا يموتون".

عن السدي:"{إلا ما شاء ربك} ، فإن هذه الآية يوم نزلت كانوا يطمعون في الخروج فنسختها قوله: خالدين فيها أبدا".

عن ابن عباس: "{خالدين فيها ما دامت السموات والأرض} ، لا يموتون، ولا

=

=

هم منها يخرجون ما دامت السموات والأرض، {إلا ما شاء ربك}، قال: استثناءُ الله. قال: يأمر النار أن تأكلهم. قال: وقال ابن مسعود: ليأتين على جهنَّم زمان تخفِقُ أبوابُها، ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابًا".

عن الشعبي قال: "جهنم أسرع الدارين عمرانًا وأسرعهما خرابًا".

وقال ابن زيد في قوله: "{خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك}، فقرأ حتى بلغ: {عطاء غير مجذوذ}، قال: وأخبرنا بالذي يشاء لأهل الجنة، فقال: {عطاء غير مجذوذ}، ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار".

(تنبيه): قوله تعالى: (إلا ما شاء ربك) هذه الآية دلت بظاهرها على استثناء خلود أهل النار.

فقد يفهم البعض أن ذلك يدل على انقطاع عذاب الكفار في النار، ونفي الخلود المؤبد لهم وذلك لقوله (إلا ما شاء الله).

- ومن المعلوم المقطوع به، وهو من عقائد أهل السنة والجماعة: خلود أهل النار بها واستمرار عذابهم بها وعدم انقطاعه، وقد جاءت النصوص الكثيرة المتواترة بذلك:

كقوله تعالى (خالدين فيها أبدا).

وقوله تعالى (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون).

وقال تعالى (وما هم بخارجين من النار).

وقال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون).

وقال تعالى (مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا).

وقال تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف

=

=

عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) لأنهم لو ماتوا استراحوا من العذاب.

وقد أجاب العلماء على هذه الآية (إلا ما شاء الله) بأجوبة:

الجواب الأول: أن الاستثناء هنا خاص بالعصاة من المؤمنين.

ورجح هذا القول: ابن جرير، وابن كثير.

قال ابن كثير: وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة... نقل كثيرا منها الإمام ابن جرير، واختار: أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط، وقال يوما من الدهر: لا إله إلا الله، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديما وحديثا في تفسير هذه الآية الكريمة. (تفسير ابن كثير)

- وقال الشوكاني: قوله (إلا ما شاء ربك) قد اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء على أقوال منها:

أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين وإنهم يخرجون بعد مدة من النار، وعلى هذا يكون قوله (فأما الذين شقوا) عاما في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من خالدين، وتكون ما بمعنى من، وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد، فكان ذلك مخصصا لكل عموم.

- وقال الرازي: بعد ذكره هذا القول: وهذا كلام قوي في هذا الباب.

وعلى هذا يكون قوله سبحانه (فأما الذين شقوا) عاما في الكفرة والعصاة من أهل

=

=

التوحيد، ويكون الاستثناء من خالدين.

- وقال البيضاوي في تفسيره (إلا ما شاء ربك) استثناء من الخلود في النار، لأن بعضهم -وهم فساق الموحدين- يخرجون منها.

- وقال الشنقيطي: قوله (إلا ما شاء الله) معناه إلا من شاء الله عدم خلوده فيها من أهل الكبائر من الموحدين، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن بعض أهل النار يخرجون منها وهم أهل الكبائر من الموحدين.

الجواب الثاني: أن المدة التي استثناها الله هي المدة التي بين بعثهم من قبورهم واستقرارهم في مصيرهم قاله ابن جرير أيضا.

الوجه الثالث: أن قوله (إلا ما شاء الله) فيه إجمال وقد جاءت الآيات والأحاديث الصحيحة مصرحة بأنهم خالدون فيها أبدا، وظاهرها أنه خلود لا انقطاع له، والظهور من المرجحات، فالظاهر مقدم على المجمل كما تقرر في الأصول.

وفي قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هود: ١٠٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: خالدين فيها ما دامت سماء الدنيا وأرضها إلا ما شاء ربك من الزيادة عليها بعد فناء مدتها. حكاه ابن عيسى ، وذكره الفراء.

الثاني: ما دامت سموات الآخرة وأرضها إلا ما شاء ربك من قدر وقوفهم في القيامة، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين.

الثالث: ما دامت السموات والأرض، أي: مدة لبثهم في عالم الدنيا، قاله ابن قتيبة.

الرابع: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من أهل التوحيد أن يخرجهم منها بعد إدخالهم إليها، قاله قتادة، فيكونون أشقياء في النار سعداء في الجنة، حكاه الضحاك عن ابن عباس.

وروى يزيد بن أبي حبيب عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أناسا

=

=

يدخلون جهنم حتى إذا كانوا حمما أدخلوا الجنة فيقول أهل الجنة من هؤلاء، فيقال: هؤلاء الجهنميون".

وفي رواية:"ليخرجن قوم من أمتى من النار بشفاعتى يسمون الجهنميون".

وفي رواية:"ليصيبن ناسا سفع من النار عقوبة بذنوب عملوها ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته فيقال لهم الجهنميون".

وفي رواية:"يخرج قوم من النار منتنين قد محشتهم النار فيدخلون الجنة برحمة الله وشفاعة الشافعين فيسمون الجهنميون".

وفي رواية:"يدخل قوم النار حتى إذا صاروا فحما أخرجوا فأدخلوا الجنة فيقول أهل الجنة من هؤلاء فيقال الجهنميون".

الخامس: إلا ما شاء من أهل التوحيد أن لا يدخلهم إليها، قاله أبو نضرة يرويه مأثورًا عن النبي ﷺ.

عن أبي نضرة، عن جابر أو: أبي سعيد -يعني الخدري -أو: عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، في قوله: {إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد}، قال: "هذه الآية تأتي على القرآن كلِّه"، يقول: حيث كان في القرآن {خالدين فيها}، تأتي عليه، قال: وسمعت أبا مجلز يقول: هو جزاؤه، فإن شاء الله تجاوَزَ عن عذابه".

السادس: يعني: الذين كانوا في النار حين أذن في الشفاعة لهم فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة. قاله ابن عباس.

عن الضحاك بن مزاحم قوله: "{إلا ما شاء ربك}، يقول: إلا ما مكثوا في النار حتى أدخلوا الجنة".

قال الحسن:"فأما الاستثناءان جميعا ففي أهل التوحيد الذين يعذبون في البراني وهو واد يعذب الموحدون فيه ثم يشفع فيهم النبي ﷺ ثم يردون إلى الجنة ويقول: الذين شقوا خالدين فيها إلا الموحدون الذين يخرجون من البراني".

=

=

وعن خالد بن مهران قوله: "{إلا ما شاء ربك}، قال: إنه في أهل التوحيد من أهل القبلة".

وروي، عن مقاتل بن حيان، قال: "وقع الاستثناء على من في النار من أهل التوحيد حتى يخرجوا منها".

السابع: أن الاستثناء راجع إلى قولهم: {لهم فيها زفير وشهيق} إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي ليست بزفير ولا شهيق مما لم يسم ولم يوصف ومما قد سمّي ووصف، ثم استأنف {ما دامت السموات والأرض}، حكاه ابن الأنباري.

الثامن: أن الاستثناء واقع على معنى: لو شاء ربك أن لا يخلدهم لفعل، ولكن الذي يريده ويشاؤه ويحكم به تخليدُهم.

وفي تقدير خلودهم بمدة السموات والأرض، وجهان:

أحدهما: أنها سموات الدنيا وأرضها، ولئن كانت فانية فهي عند العرب كالباقية على الأبد فذكر ذلك على عادتهم وعرفهم كما قال زهير:

ألا لا أرى على الحوادث باقيا ولا خالدًا إلا الجبال الرواسيا

والوجه الثاني: أنها سموات الآخرة وأرضها لبقائها على الأبد.

قال ابن عباس:"لكل جنة سماء وأرض".

قال السدي:"أما السماء والأرض فسماء الجنة وأرضها".

قال الحسن:"تبدل سماء غير هذه وأرض غير هذه فما دامت تلك السماء وتلك الأرض".

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال في تأويل هذه الآية بالصواب، القولُ الذي ذكرنا عن قتادة والضحاك: من أن ذلك استثناء في أهل التوحيد من أهل الكبائر أنه يدخلهم النار، خالدين فيها أبدًا إلا ما شاءَ من تركهم فيها أقل من ذلك، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة".

=

=

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هود: ١٠٧]، أي:"إن ربك -أيها الرسول- فعَّال لما يريد".

أي: فهو إن شاء غير ذلك فعله، وإن شاء ذلك فعله، ما شاء من الأفعال كان وما لم يشاء لم يكن.

وجاء سبحانه بصيغة المبالغة فعال للإشارة إلى أنه سبحانه لا يتعاصى عليه فعل من الأفعال بأي وجه من الوجوه.

عن الجريدي، سمعت أبا نضرة يقول:"ينتهي القرآن كله إلى هذه الآية: {إن ربك فعال لما يريد}".

قال الحسن:"إذا كان يوم القيامة أخذ الله السماوات السبع والأرضين السبع فطهرهن من كل قذر ودنس فصيرهن أرضا بيضاء فضة نورا تلألأ فصيرهن أرضا للجنة والسماوات والأرضون اليوم في الجنة كالجنة في الدنيا فصيرهن الله على عرض الجنة ويضع الجنة عليها وهي اليوم على أرض زعفرانية، عن يمين العرش فما دامت أرضا للجنة وأهل الشرك خالدين في جهنم ما دامت أرض الجنة".

قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هود: ١٠٨]، أي:"وأما الذين رزقهم الله السعادة فهم مستقرون في الجنة، لا يُخْرجون منها أبدًا، دائمون فيها دوام السماوات والأرض، حسب مشيئته تعالى، وقد شاء تعالى لهم الخلود والدوام".

عن أبي سنان في قوله: {وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها... إلا ما شاء ربك}، ومشيئته خلودهم فيها، ثم أتبعها عطاء غير مجذوذ".

عن ابن عباس قوله: "{وأما الذين سعدوا}، يعني: بعد الشقاء الذي كانوا فيه".

وفي قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هود: ١٠٨]، خمسة وجوه من التفسير:

=

=

أحدها: دامت سموات الدنيا وأرضها إلا ما شاء ربك من الزيادة عليها في الخلود فيها.

الثاني: {إلا ما شاء ربك} من مدة يوم القيامة.

الثالث: {إلا ما شاء ربك} من مدة مكثهم في النار إلى أن يخرجوا منها، قاله الضحاك.

الرابع: {خالدين فيها}، يعني: أهل التوحيد، إلا ما شاء ربك يعني أهل الشرك، وهو يشبه قول أبي نضرة.

الخامس: {خالدين فيها إلا ما شاء ربك}، أي: ما شاء من عطاء غير مجذوذ، فتكون «إلا» -هنا- بمعنى «الواو»، كقول الشاعر:

وكلُّ أخٍ مفارقُهُ أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان.

أي: والفرقدان.

قوله تعالى: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: ١٠٨]، أي:"**عطاءً غير مقطوع عنهم**".

قال ابن عباس:"يقول: عطاء غير مقطوع".

قال الحسن:"لا ينقص منه شيء".

قوله تعالى: {فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ} [هود: ١٠٩]، أي:"فلا تكن -أيها الرسول- في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء المشركون من قومك".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فلا تَك في شك، يا محمد، مما يعبد هؤلاء المشركون من قومك من الآلهة والأصنام، أنه ضلالٌ وباطلٌ، وأنه بالله شركٌ".

قال الزمخشري:"أي: فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وتعرّصهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلية لرسول الله ﷺ، وعدة بالانتقام منهم ووعيدًا لهم".

=

=

قوله تعالى: {مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ} [هود: ١٠٩]، أي:"ما يعبدون من الأوثان إلا مثل ما يعبد آباؤهم من قبل".

قال الطبري:"يقول: إلا كعبادة آبائهم، من قبل عبادتهم لها. يُخبر تعالى ذكره أنهم لم يعبدُوا ما عبدوا من الأوثان إلا اتباعًا منهم منهاج آبائهم، واقتفاءً منهم آثارهم في عبادتهموها، لا عن أمر الله إياهم بذلك، ولا بحجة تبيَّنوها توجب عليهم عبادتها".

قال الزمخشري:"يريد: أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحالين، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلنّ بهم مثله، وهو استئناف معناه تعليل النهى عن المرية".

عن قتادة، قال: "ما يعبد هؤلاء الآلهة إلا ليشفعوا عند الله".

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ} [هود: ١٠٩]، أي:"وإنا لموفوهم ما وعدناهم تاما غير منقوص".

قال الزمخشري:"أى: حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم أنصباءهم".

قال الزجاج:"أي: نوفيهم ما يصيبهم من خير أو شر".

قال الطبري:"يعني: حظهم مما وعدتهم أن أوفّيهموه من خير أو شر {غير منقوص}، يقول: لا أنقصهم مما وعدتهم، بل أتمّم ذلك لهم على التمام والكمال".

عن ابن عباس: "{وإنا لموفُّوهم نصيبهم غير منقوص}، قال: ما وُعِدوا فيه من خير أو شر".

قال ابن زيد في قوله: "{وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص}، قال: نصيبهم من العذاب".

عن أبي العالية في قوله: "{وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص}، قال: من

=

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠).

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَاب} التَّوْرَاة {فَاخْتُلِفَ فِيهِ} بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيب كَالْقُرْآنِ {وَلَوْلَا كَلِمَة سَبَقَتْ مِنْ رَبّك} بِتَأْخِيرِ الْحِسَاب وَالْجَزَاء لِلْخَلَائِقِ إلَى يَوْم الْقِيَامَة {لَقُضِيَ بَيْنهمْ} فِي الدُّنْيَا فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ {وَإِنَّهُمْ} أَيْ الْمُكَذِّبِينَ بِهِ {لَفِي شَكّ مِنْهُ مُرِيب} مُوقِع فِي الرِّيبَة.

وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١).

{وَإِنْ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {كُلًّا أَيْ} كُلّ الْخَلَائِق {لَمَّا} مَا زَائِدَة وَاللَّام مُوَطِّئَة لِقَسَمٍ مُقَدَّر أَوْ فَارِقَة وَفِي قِرَاءَة بِتَشْدِيدِ لَمَّا بِمَعْنَى إلَّا فَإِنْ نَافِيَة {لَيُوَفِّيَنهمْ رَبّك أَعْمَالهمْ} أَيْ جَزَاءَهَا {إنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِير} عَالِم بِبَوَاطِنِهِ كظواهره[1].

=

الرزق".

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ} [هود: ١١٠]، أي:"ولقد آتينا موسى الكتاب وهو التوراة، فاختلف فيه قومه، فآمن به جماعة وكفر به آخرون كما فعل قومك بالقرآن".

أي: كما اختلف قومك- أيها الرسول الكريم- في شأن القرآن الكريم فمنهم من وصفه بأنه أساطير الأولين، فقد اختلف قوم موسى من قبلك في شأن التوراة التي أنزلها الله على نبيهم موسى لهدايتهم، إذ منهم من آمن بها ومنهم من كفر... ، ومادام الأمر كذلك، فلا تحزن- أيها الرسول الكريم- لاختلاف قومك في شأن القرآن الكريم، فإن هذا الاختلاف شأن الناس في كل زمان ومكان والمصيبة إذا عمت خفت.

فالجملة الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من مشركي قومه.

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره، مسليًا نبيه في تكذيب مشركي قومه إياه فيما أتاهم به من عند الله، بفعل بني إسرائيل بموسى فيما أتاهم به من عند الله. يقول له تعالى ذكره: ولا يحزنك، يا محمد، تكذيب هؤلاء المشركين لك، وامض لما أمرك به ربُّك من تبليغ رسالته، فإن الذي يفعل بك هؤلاء من ردِّ ما جئتهم به عليك من النصيحة من فعل ضُربائهم من الأمم قبلهم وسنَّةٌ من سُنتهم، ثم أخبره جل ثناؤه بما فعل قوم موسى به فقال: {ولقد آتينا موسى الكتاب}، يعني: التوراة، كما آتيناك الفرقان، فاختلف في ذلك الكتاب قومُ موسى، فكذّب به بعضُهم وصدّق به بعضهم، كما قد فعل قومك بالفرقان من تصديق بعض به، وتكذيب بعض".

قال ابن عطية: تسلية لمحمد ﷺ وذكر قصة موسى مثل له، أي لا يعظم عليك أمر من كذبك، فهذه هي سيرة الأمم، فقد جاء موسى، بكتاب فاختلف الناس عليه.

- وقال ابن عاشور: اعتراض لتثبيت النبي ﷺ وتسليته بأن أهل الكتاب وهم أحسن حالا من أهل الشرك قد أوتوا الكتاب فاختلفوا فيه، وهم أهل ملة واحدة فلا تأس من اختلاف قومك عليك، فالجملة عطف على جملة (فلا تك في مرية) ولأجل ما فيها من معنى التثبيت فرع عليها قوله (فاستقم كما أمرت).

- قال ابن عاشور: معنى الاختلاف فيه اختلاف أهل التوراة في تقرير بعضها وإبطال بعض، وفي إظهار بعضها وإخفاء بعض مثل حكم الرجم، وفي تأويل البعض على هواهم، وفي إلحاق أشياء بالكتاب على أنها منه، كما قال تعالى: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) فهذا من شأنه أن يقع من بعضهم لا من جميعهم فيقتضي الاختلاف بينهم بين مثبت وناف، وهذا الاختلاف بأنواعه وأحواله يرجع إلى الاختلاف في شيء من الكتاب.

عن قتادة:"{آتينا موسى الكتاب}، قال: التوراة".

=

=

عن أبي بن كعب، قوله: "{فاختلف فيه}، يعني: إسرائيل".

قوله تعالى: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} [هود: ١١٠].

أي: يعني بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لكان الذي يستحقونه من تعجيل العقوبة في الدنيا على كفرهم وتكذيبهم وهو قوله تبارك وتعالى: (لقضي بينهم) يعني لعذبوا في الحال وفرغ من عذابهم وإهلاكهم

ويحتمل: أن يكون بالكلمة أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه.

كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا).

- قال ابو حيان: والظاهر عود الضمير في بينهم على قوم موسى عليه السلام، إذ هم المختلفون فيه، أو في الكتاب.

وقيل: يعود على المختلفين في الرسول من معاصريه.

- قال ابن عطية: وأن يعمهم اللفظ أحسن عندي، وهذه الجملة من جملة تسليته أيضا.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولولا كلمة سبقت، يا محمد، من ربك بأنه لا يعجل على خلقه العذاب، ولكن يتأنى حتى يبلغ الكتاب أجله، لقضي بين المكذب منهم به والمصدِّق، بإهلاك الله المكذب به منهم، وإنجائه المصدق به".

قال ابن كثير:"يحتمل أن يكون المراد بالكلمة، أنه لا يعذب أحدا إلا بعدم قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} [الإسراء: ١٥]؛ فإنه قد قال في الآية الأخرى: {وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [طه: ١٢٩، ١٣٠]".

قال السدي:"كان الناس أهل دين واحد، على دين آدم فكفروا فلولا أن ربك أجلهم إلى يوم القيامة لقضي بينهم".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [هود: ١١٠]، أي:"وإن الكفار من

=

=
اليهود والمشركين -أيها الرسول- لفي شك -من هذا القرآن- مريب، وهذا الشك قد أوقعهم في الريبة والتخبط والاضطراب".

وهذا شأن المعرضين عن الحق، لا يجدون مجالا لنقده وإنكاره، فيحملهم عنادهم وجحودهم على التشكيك فيه، وتأويله تأويلا سقيما يدعو إلى الريبة والقلق.

وبعض المفسرين يرى عودة الضمير في قوله وإنهم إلى قوم موسى، وفي قوله منه إلى كتابهم التوراة.

وبعضهم يرى عودة الضمير الأول إلى قوم النبي ﷺ والثاني إلى القرآن الكريم.

قال الطبري:"يقول: وإن المكذبين به منهم لفي شك من حقيقته أنه من عند الله {مريب}، يقول: يريبهم، فلا يدرون أحقٌّ هو أم باطلٌ؟ ولكنهم فيه ممترون".

قال ابن كثير:"أخبر أن الكافرين في شك - مما جاءهم به الرسول - قوي".

قوله تعالى: {وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ} [هود: ١١١]، أي:"وإن كل أولئك الأقوام المختلفين المصدق والمكذب الذين ذكرنا لك -أيها الرسول- أخبارهم ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم يوم القيامة، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر".

واللام لام القسم تقديره والله ليوفينهم جزاء أعمالهم في القيامة فيجازي المصدق على تصديقه الجنة ويجازي المكذب على تكذيبه النار.

قال مقاتل:"و {لما} -هاهنا- صلة، يقول: يوفر لهم ربك جزاء أعمالهم".

قال الزمخشري:"المعنى: وإن جميعهم والله ليوفينهم ربك أعمالهم من حسن وقبيح وإيمان وجحود".

قال القرطبي:"أي: إن كلا من الأمم التي عددناهم يرون جزاء أعمالهم، فكذلك قومك يا محمد".

قال الرازي: أي: أن من عجلت عقوبته ومن أخرت ومن صدق الرسل ومن كذب
=

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢).

{فَاسْتَقِمْ} عَلَى الْعَمَل بِأَمْرِ رَبّك وَالدُّعَاء إِلَيْهِ {كَمَا أُمِرْت و} لِيَسْتَقِمْ {مَنْ تَابَ} آمَنَ {مَعَك وَلَا تَطْغَوْا} تُجَاوِزُوا حُدُود الله {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير} فَيُجَازِيكُمْ بِهِ[1].

=

فحالهم سواء في أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم في الآخرة.

فجمعت الآية الوعد والوعيد فإن توفية جزاء الطاعات وعد عظيم وتوفية جزاء المعاصي وعيد عظيم.

قرأ ابن كثير ونافع {وإن} مخففة {كلا لما} مخففة، وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر {وإن كلا} خفيفة {لما} مشددة، وقرأ حمزة والكسائى {وإن} مشددة النون واختلفا فى الميم من {لما} فشددها حمزة وخففها الكسائى، وقرأ أبو عمرو مثل قراءة الكسائى وقرأ ابن عامر مثل قراءة حمزة، وقرأ حفص {وإن} مشددة النون {لما} مشددة أيضا مثل حمزة وابن عامر.

قوله تعالى: {إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [هود: ١١١]، أي:"إن ربك بما يعمل هؤلاء المشركون خبير، لا يخفى عليه شيء من عملهم".

قال ابن كثير:"أي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن ربك بما يعمل هؤلاء المشركون بالله من قومك، يا محمد، {خبير}، لا يخفى عليه شيء من عملهم، بل يخبرُ ذلك كله ويعلمه ويحيط به، حتى يجازيهم على جميع ذلك جزاءهم".

(١) قوله تعالى: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ} [هود: ١١٢]، أي: فاستقم - أيها النبي- كما أمرك ربك أنت ومن تاب معك".

يأمر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين في هذه الآية بالثبات والدوام على الاستقامة، لأن ذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، وينهاهم عن

=

=

الطغيان وهو البغي، لأنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك.
عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال «قل آمنت بالله فاستقم) رواه مسلم.
والاستقامة هي المداومة على فعل ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه وقيل: هي طلب إقامة النفس على الصراط المستقيم، والصراط المستقيم هو الإسلام كما ثبت تفسيره من حديث ثوبان عند أحمد بسند جيد.
قال ابن رجب: فيه إشارة إلى أنه لا بد من التقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك الاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة، فهو كما قال النبي ﷺ لمعاذ (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها) وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس لن يستطيعوا الاستقامة حق الاستقامة، ففي الصحيحين عن أبي هريرة. عن النبي ﷺ قال (سددوا وقاربوا) فالسداد هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد، والمقاربة أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه، ولكن بشرط أن يكون مصمما على قصد السداد وإصابة الغرض، فتكون مقاربته عن عمد.
- وأعظم ما ينبغي مراعاته في الاستقامة استقامة القلب، فهو ملك الأعضاء وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه.
- قال ابن القيم: فاستقامة القلب بشيئين:
(أحدهما) أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا تعارض حب تعالى الله وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما سواه، فرتب على ذلك مقتضاه.
ما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل، فعند الامتحان، يكرم المرء أو يهان.
وما أكثر ما يقدم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على

=

=

ما يحبه الله تعالى.

(والثاني) الذي يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهى، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي، فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه، قال سبحانه وتعالى: (ما لكم لا ترجون لله وقارا) قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة.

وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله ﷻ واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه.

وكذلك مما ينبغي مراعاة استقامته بعد القلب اللسان، فإنه ترجمان القلب.

ولذلك قال ﷺ (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا) رواه الترمذي.

وجاء في رواية للترمذي: قلت يا رسول الله! ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه.

وقد جاء في مسند الإمام أحمد عن أنس. أن النبي ﷺ قال (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه).

- أسباب الاستقامة:

أولا: دعاء الله بالثبات.

كان ﷺ يقول: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك).

ثانيا: قراءة القرآن وتدبره.

قال تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا).

- أن من استقام في هذه الدار على الهداية، وفقه الله تعالى للهداية يوم القيامة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في

=

=

هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط.

(إنه بما تعملون بصير) استئناف لتحذير من أخفى الطغيان بأن الله مطلع على كل عمل يعمله المسلمون، ولذلك اختير وصف (بصير) من بين بقية الأسماء الحسنى لدلالة مادته على العلم البين ودلالة صيغته على قوته.

قال قتادة: "أمر الله نبيه أن يستقيم على أمره".

قال السدي:"الخطاب له والمراد منه أمته".

عن ابن عباس: {وَمَنْ تَابَ مَعَكَ}: "يريد: الصحابة الذين تابوا من الشرك".

قال ابن كثير:"يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد".

قال مقاتل:"يعني: فامض يا محمد بالتوحيد {كما أمرت ومن تاب معك} من الشرك فليستقيموا معك فامضوا على التوحيد".

قال الزمخشري:"فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق، غير عادل عنها، {ومن تاب معك} معطوف على المستتر في «استقم»، وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. والمعنى: فاستقم أنت وليستقم من تاب على الكفر وآمن معك".

قال القرطبي:"الخطاب للنبي ﷺ ولغيره. وقيل: له والمراد أمته، قاله السدي. وقيل: {استقم} اطلب الإقامة على الدين من الله واسأله ذلك». فتكون «السين» «سين» السؤال، كما تقول: أستغفر الله أطلب الغفران منه... {ومن تاب معك}، أي: استقم أنت وهم، يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن اتبعه من أمته. قال ابن عباس ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب! فقال:"شيبتني

=

=

هود وأخواتها". وقد تقدم في أول السورة. وروي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا علي السري «٢» يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله! روي عنك أنك قلت: «شيبتني هود». فقال: «نعم»، فقلت له: ما الذي شيبك منها؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم! فقال:"لا، ولكن قوله: {فاستقم كما أمرت} »".

و «الاستقامة»: "الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال، فاستقم على امتثال أمر الله.

وروى الدارمي أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدي قال: «دخلت على ابن عباس فقلت أوصني! فقال: نعم! عليك بتقوى الله والاستقامة، اتبع ولا تبتدع».

قوله تعالى: {وَلَا تَطْغَوْا} [هود: ١١٢]، أي: ولا تتجاوزوا ما حدَّه الله لكم".

قال ابن عباس: "يريد تواضعوا لله ولا تَجَبَّروا على أحد".

قال مقاتل:"يقول ولا تعصوا الله فى التوحيد فتخلطوه بشك".

قال الزمخشري:"ولا تخرجوا عن حدود الله".

قال القرطبي:"نهى عن الطغيان والطغيان مجاوزة الحد، ومنه: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء} [الحاقة: ١١]، وقيل: أي: لا تتجبروا على أحد".

قال ابن كثير:"نهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مَصرَعة حتى ولو كان على مشرك".

قوله تعالى: {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [هود: ١١٢]، أي: إن ربّكم بما تعملون من الأعمال كلها بصير، لا يخفى عليه شيء منها، وسيجازيكم عليها".

قال الزمخشري:"عالم فهو مجازيكم به، فاتقوه".

قال ابن كثير:"أعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى

=

وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣).

{وَلَا تَرْكَنُوا} تَمِيلُوا {إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا} بِمَوَدَّةٍ أَوْ مُدَاهَنَة أَوْ رِضَا بِأَعْمَالِهِمْ {فَتَمَسّكُمْ} تُصِيبكُمْ {النَّار وَمَا لَكُمْ مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {مِنْ} زَائِدَة {أَوْلِيَاء} يَحْفَظُونكُمْ مِنْهُ {ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} تُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابه[1].

=

عليه شيء".

(١) قوله تعالى: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [هود: ١١٣].

الركون إلى الشيء: الميل إليه، يقال ركن فلان إلى فلان، إذا مال إليه بقلبه، واعتمد عليه في قضاء مصالحه.

- قال الرازي: والركون هو السكون إلى الشيء والميل إليه بالمحبة ونقيضه النفور عنه.

والمراد بالذين ظلموا هنا: ما يتناول المشركين وغيرهم من الظالمين الذين يعتدون على حقوق الغير، ويستحلون من محارم الله.

والمعنى: واحذروا- أيها المؤمنون- أن تميلوا إلى الظالمين، أو تسكنوا إليهم لأن ذلك يؤدى إلى تقوية جانبهم. وإضعاف جانب الحق والعدل.

- **قال القرطبي**: قوله تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) قيل: أهل الشرك.

وقيل: عامة فيهم وفي العصاة، على نحو قوله تعالى (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا).

وهذا هو الصحيح في معنى الآية؛ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة؛ وقد قال حكيم:

=

=

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

- **قال الرازي**: قال المحققون: الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون.

قال مقاتل:"ولا تميلوا إلى أهل الشرك، يقول: ولا تلحقوا بهم، {فتمسكم النار}، يعني: فتصيبكم النار".

قال التستري:"أي: لا تعتمدوا في دينكم إلا على سنتي".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولا تميلوا، أيها الناس، إلى قول هؤلاء الذين كفروا بالله، فتقبلوا منهم وترضوا أعمالهم {فتمسكم النار} بفعلكم ذلك".

قال أبو البركات النسفي:"هذا خطاب لأتباع الكفرة أي لا تركنوا إلى القادة والكبراء في ظلمهم وفيما يدعونكم إليه {فتمسكم النار} وقيل الركون إليهم الرضا بكفرهم".

قال البيضاوي: أي:"ولا تميلوا إليهم أدنى ميل، فإن «الركون» هو الميل اليسير كالتزيي بزيهم وتعظيم ذكرهم واستدامته. فتمسكم النار بركونكم إليهم وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلما كذلك فما ظنك بالركون إلى الظالمين أي الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم كل الميل، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه، ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه، وخطاب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بها للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط وتفريط فإنه ظلم على نفسه أو غيره بل ظلم في نفسه".

عن ابن عباس قوله: "{ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار}، يعني:

=

=

الركون إلى الشرك".

قال قتادة:"يقول: لا تلحقوا بالشرك، وهو الذي خرجتم منه".

عن الربيع، عن أبي العالية: "{ولا تركنوا إلى الذين ظلموا}، يقول: لا ترضوا أعمالهم. يقول: «الركون»، الرضى".

وقال ابن زيد:"«الركون»: الإدهان. وقرأ: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [سورة القلم: ٩]، قال: تركنُ إليهم، ولا تنكر عليهم الذي قالوا، وقد قالوا العظيمَ من كفرهم بالله وكتابه ورسله. قال: وإنما هذا لأهل الكفر وأهل الشرك وليس لأهل الإسلام. أما أهل الذنوب من أهل الإسلام، فالله أعلم بذنوبهم وأعمالهم. ما ينبغي لأحد أن يُصَالح على شيء من معاصي الله، ولا يركن إليه فيها".

وروي عن ابن جريج: "{ولا تركنوا إلى الذين ظلموا}، قال: قال ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا".

قال ابن كثير:"وهذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم".

قال ابن الوزير:"قال أبو حيان في «غريب القرآن» له، «أي: لا تطمئنوا». وهو حسنٌ. فإنه العرفُ في الرُّكُونِ".

قال الزمخشري:"وتأمل قوله: {ولا تركنوا}، فإن «الركون»: هو الميل اليسير، وقوله: {إلى الذين ظلموا}، أى: إلى الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل: «إلى الظالمين».

وحكى أن الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشى عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف بالظالم".

وعن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «جعل الله الدين بين لاءين: ولا تطغوا، ولا تركنوا».

ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين: «عافانا الله وإياك أبا بكر

=

=

من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك: أصبحت شيخا كبيرا وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء، قال الله سبحانه لتبيننه للناس ولا تكتمونه واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت: أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغى بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا، حين أدناك اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم، وجسرا يعبرون عليك إلى بلائهم وسلما يصعدون فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشك بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما

يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام».

وقال سفيان: «في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك».

وعن الأوزاعى: «ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا».

وعن محمد ابن مسلمة: «الذباب على العذرة، أحسن من قارئ على باب هؤلاء».

ولقد سئل سفيان: «عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت؟ فقال: دعه يموت».

قال الشيخ محمد رشيد الرضا:"ولو كان معنى الركون في اللغة الميل اليسير مهما يكن نوعه كما زعم الزمخشري ومقلدوه، لكان هذا الوعيد الشديد على قليل منه على قلته في نفسه مما لا يمكن أن تراد به حقيقته ؛ لأنه أشد الوعيد على ما لا يستطيع بشر اتقاءه إلا بعصمة خاصة من الله – تعالى – كما سترى في تفسيرهم له،

=

=

أما والحق ما قلناه، وهو أن الركون إلى الشخص أو الشيء هو الاعتماد عليه والاستناد إليه وجعله ركنا شديدا للراكن، فأجدر بقليله أن يتعذر اجتنابه على أكمل البشر إلا بالعصمة والتثبيت الخاص من الله ﷻ، فكيف ينهى جميع المؤمنين عن الميل اليسير إلى من وقع منه أي: نوع من الظلم؟

لم يكن ميل النفس الطبعي من المؤمنين إلى أولادهم وأرحامهم المشركين الظالمين ولا البر بهم والإحسان إليهم محظورا عليهم ؛ لأنه ليس من الركون إليهم الخاص بالولاية لهم والاعتماد عليهم وهو المنهي عنه، ولا من الميل إليهم لأجل الظلم. ولما فعل حاطب بن أبي بلتعة - رضي الله عنه - فعلته التي هي أقرب إلى الولاية الحربية منها إلى صلة الرحم كما تأولها، أنزل الله - تعالى - سورة الممتحنة التي نهى فيها عن ولاية المشركين الظالمين المقاتلين في الدين والمودة فيها وقال: - {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون} [الممتحنة: ٩]، وأذن بالبر والقسط لغيرهم منهم، ولا تنس ما ورد في الصحيح من نزول قوله - تعالى - : {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت} [القصص: ٥٦]، في حرص النبي ﷺ على إسلام عمه أبي طالب الذي كفله في صغره، وكان يحميه ويناضل عنه في نبوته، واذكر قول السيدة خديجة رضي الله عنها له في حديث بدء الوحي: "كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكل " إلخ. بل لم تكن الثقة ببعض المشركين والاعتماد عليهم في أهم الأعمال من الركون المنهي عنه، فقد وثق النبي - ﷺ - والصديق الأكبر - رضي الله عنه - بمشرك من بني الديل وائتمناه على الراحلتين اللتين هاجرا عليهما ليوافيهما بهما في الغار بعد ثلاث، وكان المشركون الظالمون يبحثون عنهما، وقد جعلوا لمن يدلهم عليهما قدر ديتهما".

وقرئ: «تركنوا» «فتمسكم» بكسر التاء على لغة تميم، و «تركنوا» على البناء للمفعول من أركنه.

=

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤).

{وَأَقِمْ الصَّلَاة طَرَفَيْ النَّهَار} الْغَدَاة وَالْعَشِيّ أَيْ الصُّبْح وَالظُّهْر وَالْعَصْر {وَزُلَفًا} جَمْع زُلْفَة أَيْ طَائِفَة {مِنْ اللَّيْل} الْمَغْرِب وَالْعِشَاء {إِنَّ الْحَسَنَات}

=

قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} [هود: ١١٣]، أي:"ليس لكم من دون الله من يمنعكم من عذابه ثم لا تجدون من ينصركم من ذلك البلاء".

قال مقاتل:"يعني: من أقرباء يمنعونكم، يقول: لا يمنعونكم من النار {ثم لا تنصرون}".

قال الطبري:"يقول: فإنكم إن فعلتم ذلك لم ينصركم الله، بل يخلِّيكم من نصرته ويسلط عليكم عدوّكم".

قال ابن كثير:"أي: ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه".

قال الزمخشري:"معناه: وما لكم من دون الله من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه، لا يقدر على منعكم منه غيره ثم لا تنصرون ثم لا ينصركم هو، لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم. فإن قلت: فما معنى «ثم»؟ قلت: معناها الاستبعاد، لأن النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له".

قال بعض العلماء: الآية أبلغ ما يتصور في النهى عن الظلم، والتهديد عليه، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى الذين ظلموا فكيف يكون حال من ينغمس في حمأته؟!! ثم قال: وقد وسع العلماء في ذلك وشددوا، والحق أن الحالات تختلف، والأعمال بالنيات. والتفصيل أولى.

كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْس {يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات} الذُّنُوب الصَّغَائِر نَزَلَتْ فِيمَنْ قَبَّلَ أَجْنَبِيَّة فَأَخْبَرَهُ النَّبِيّ ﷺ فَقَالَ أَلِي هَذَا فَقَالَ لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلّهمْ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ {ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} عظة للمتعظين(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، قال: فنزلت: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)}، فقال الرجل: يا رسول الله! ألي هذه؟ قال: "لمن عمل بها من أمتي (وفي رواية: لجميع أمتي كلهم)".

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢/ ٨/ ٥٢٦، ٨/ ٢٠٦ رقم ٤٦٨٧)، ومسلم في "صحيحه" (٤/ ٢١١٥، ٢١١٦ رقم ٢٧٦٣) وغيرهم.

وعن معاذ بن جبل؛ قال: أتى النبي ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله! أرأيت رجلًا لقي امرأة وليس بينهما معرفة، فليس يأتي الرجل شيئًا إلى امرأته إلا قد أتى هو إليها إلا أنه لم يجامعها، قال: فأنزل الله -تعالى-: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)}؛ فأمره أن يتوضأ ويصلي، قال معاذ: فقلت: يا رسول الله! أهي له خاصة أم للمؤمنين عامة؟ قال: "بل للمؤمنين عامة".

أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٤)، وعبد بن حميد (١١٠)، والترمذي (٣١١٣)، والطبري في تفسيره (١٢/ ١٣٦)، والطبراني في الكبير (٢٠/ رقم ٢٧٧، ٢٧٨)، والدارقطني (١/ ١٣٤)، والحاكم (١/ ١٣٥)، والبيهقي (١/ ١٢٥)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٥٩٤)، وفي أسباب النزول (ص١٨١) من حديث معاذ رضي الله عنه، وأخرجه النسائي في الكبرى (٧٣٢٨)، والطبري في تفسيره (١٢/ ١٣٦) من طريق شعبة، عن عبد الملك بن عمير، عن ابن أبي ليلى مرسلا لم يذكر فيه معاذا، =

=

ووقع ذكره في المطبوع من "السنن الكبرى"، وهو خطأ يصوب من تحفة الأشراف (٨/ ٤٠٩) والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بمتصل عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ، ومعاذ بن جبل مات في خلافة عمر، وقتل عمر وعبد الرحمن بن أبي ليلى غلام صغير ابن ست سنين، وقد روى عن عمر ورآه، وروى شعبة، هذا الحديث عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن النبي ﷺ مرسلا، وكذا قال ابن عبد البر في الإستذكار (١/ ٣٢٥)، وضعفه العلامة الألباني قي ضعيف الترمذي، وضعفه الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (ص٣٦٢، رقم ٣٨٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٦/ ٤٢٦): صحيح لغيره، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أنه منقطع، عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع معاذا، قلت للحديث شواهد في الصحيحين.

وعن أبي اليسر؛ قال: أتتني امرأة تبتاع تمرًا، فقلت: إن في البيت تمرًا أطيب منه، فدخلت معي في البيت فأهويت إليها؛ فقبلتها، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له، قال: استر على نفسك، وتب، ولا تخبر أحدًا، فلم أصبر؛ فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: "أَخَلَفْتَ غازيًا في سبيل الله في أهله، بمثل هذا"، حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهل النار؟ قال: وأطرق رسول الله ﷺ عليه وسلم طويلًا حتى أوحى الله إليه: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ} إلى قوله: {ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}. قال أبو اليسر: فأتيته فقرأها عليّ رسول الله ﷺ، فقال أصحابه: يا رسول الله! ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ قال: "بل للناس عامة" أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٢٢٠، ٢٢١)، والترمذي (٣١١٥)، والنسائي في الكبرى (٧٣٢٧)، والطبري في تفسيره (١٢/ ٨٢)، والبزار (٢٣٠٠)، والهيثم بن كليب في المسند (١٥٣٠٣)، والطبراني في

=

=

الكبير (١٩/ ١٤٧)، والخطيب في الأسماء المبهمة (٤٣٩)، وابن بشكوال في غوامض الأسماء (١/ ٢٩٤) من حديث أبي اليسر كعب بن عمرو رضي الله عنه، والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وكذا حسنه صاحبا الإستيعاب (٢/ ٣٦٧).

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يهوى امرأة، فكان ذات يوم جالسًا عند رسول الله ﷺ، فاستأذن النبي ﷺ في حاجة؛ فأذن له فخرج في يوم مطر، فإذا هو بامرأة على غدير ماء تغتسل، فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته، وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة، فقام نادمًا، فأتى النبيّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال له رسول الله ﷺ: "اركع ركعات"؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)} أخرجه البزار (٣/ ٥٢، ٥٣ رقم ٢٢١٩ - كشف)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٥/ ٤٠٤ رقم ٧٠٨٥) من طريق عبيد الله بن موسى ثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس به، وإسناده صحيح.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن رجلًا أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! أقم فيّ حد الله مرة أو ثنتين، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة؛ قال: "أين هذا القائل: أقم فيّ الحد؟ "، قال: أنا ذا، قال: "هل أتممت الوضوء وصليت معنا العشاء؟ "، قال: نعم، قال:"فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك، فلا تعدُ" وأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ} الآية.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٨/ ١٦٠، ١٦١ رقم ٨٦٧٥)، و"مسند الشاميين" (٣/ ٨٢ - ٨٣ رقم ١٨٤٠)، والطبري في "جامع البيان" (١٢/ ٨٢)

=

=

من طريق إسحاق بن إبراهيم بن زبريق الحمصي ثنا عمرو بن الحارث ثنا عبد الله بن سالم عن الزبيدي ثنا سليم بن عامر أنه سمع أبا أمامة. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: إسحاق بن إبراهيم هذا ضعيف، ولخصه الحافظ في "التقريب" (١/ ٥٤) بقوله: "صدوق يهم كثيرًا، وأطلق محمد بن عوف أنه يكذب". والثانية: عمرو بن الحارث الحمصي هذا؛ قال في "التقريب": "مقبول"؛ يعني: حيث يتابع، وإلا؛ فلين، ولم يتابع. وأصل الحديث في "صحيح مسلم" (١٧/ ٢١٤، ٢١١٨ رقم ٢٧٦٥) وغيره من طريق عكرمة بن عمار ثنا شداد ثنا أبو أمامة به دون التصريح بسبب النزول.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا أتى عمر، فقال: امرأة جاءت تبايعه، فأدخلتها الدولج، فأصبت منها ما دون الجماع. فقال: ويحك! لعلها مغيب في سبيل الله؟ قال: أجل، قال: فائت أبا بكر، فاسأله، قال: فأتاه؛ فسأله؛ فقال: لعلها مغيب في سبيل الله؟ قال: فقال مثل قول عمر، ثم أتى النبي ﷺ، فقال له مثل ذلك، قال: "فلعلها مغيب في سبيل الله؟ "؛ ونزل القرآن: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} إلى آخر الآية، فقال: يا رسول الله! أَلِيَ خاصّة، أم للناس عامة؟ فضرب عمر صدره بيده، فقال: لا، ولا نعمة عين، بل للناس عامة، فقال رسول الله ﷺ: "صدق عمر".

أخرجه أحمد في "المسند" (١/ ٢٤٥، ٢٦٩)، وابن عدي في الكامل (٨/ ١٢١)، والطبراني (١٢٩٣١)، والواحدي في أسباب النزول (ص ١٨١) والحديث قال عنه الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٨): وفي إسناد أحمد والكبير علي بن زيد، وهو سيئ الحفظ، وبقية رجاله ثقات، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٣/ ١٥): إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤/ ٨٤): صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد، ولين يوسف بن مهران.

=

=

وله شاهد عن ابن مسعود عند البخاري (٤٦٨٧)، ومسلم (٢٧٦٣).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يهوى امرأة، فكان ذات يوم جالسًا عند رسول الله ﷺ، فاستأذن النبي ﷺ في حاجة؛ فأذن له فخرج في يوم مطر، فإذا هو بامرأة على غدير ماء تغتسل، فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته، وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة، فقام نادمًا، فأتى النبيّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال له رسول الله ﷺ: "اركع ركعات"؛ فأنزل الله عز وجل: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)}.

أخرجه البزار في "مسنده" (٣/ ٥٢، ٥٣ رقم ٢٢١٩ - كشف)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٥/ ٤٠٤ رقم ٧٠٨٥) من طريق عبيد الله بن موسى ثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس به. وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٣٧): "رواه البزار ورجاله رجال الصحيح". وهو كما قال.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} [آل عمران: ١٣٥]؛ قال: يريد نبهان التمار، وكنيته أبو مقبل، أتته امرأة حسناء جميلة تبتاع منه تمرًا، فضرب على عجزها، فقالت: والله ما حفظت غيبة أخيك، ولا نلت حاجتك؛ فأسقط في يده، فذهب إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "إياك أن تخون امرأة غازٍ"، فذهب يبكي، فقام ثلاثة أيام: النهار صائمًا، والليل قائمًا حزينًا، فلما كان يوم الرابع؛ أنزل الله -تعالى- فيه: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [آل عمران: ١٣٥] الآية؛ فأرسل رسول الله ﷺ فأخبره بما نزل فيه؛ فحمد الله وشكره، وقال: يا رسول الله! هذه توبتي قبلها الله مني، فكيف لي حتى يقبل شكري؟ فأنزل الله -تعالى-: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ

=

=

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}.

أخرجه ابن منده في "معرفة الصحابة"؛ كما في "أسد الغابة" (٤/ ٥٣٣)، وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٥/ ٢٧٠٩ رقم ٦٤٧٣) من طريق عبد الغني بن سعيد الثقفي ثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس.

وسنده تالف، قال الحافظ ابن حجر في "الإصابة" (٣/ ٥٥٠): "ومقاتل متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس، وعبد الغني وموسى هالكان".

وعن بريدة؛ قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رجل يبيع التمر بالمدينة، وكانت امرأة حسناء جميلة، فلما نظر إليها أعجبته، وقال: ما أرى عندي ما أرضى لك ههنا، ولكن في البيت حاجتك، فانطلقت معه حتى إذا دخلت راودها على نفسها فأبت، وجعلت تناشده، فأصاب منها من غير أن يكون أفضى إليها، فانطلق الرجل وندم على ما صنع، حتى أتى النبي ﷺ وأخبره فقال: "ما حملك على ذلك؟ "، قال: الشيطان، فقال له: "صلّ معنا"، ونزل: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ}، يقول: صلاة الغداة والظهر والعصر، {وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ} المغرب والعشاء، {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}؛ فقال الناس: يا رسول الله! لهذا خاصة أم للناس عامة؟ قال: "بل هي للناس عامة".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٨٣) ونسبه لابن مردويه، وسكت عنه الحافظ في "فتح الباري" (٨/ ٣٥٦).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: أتى عمر بن غزية الأنصاري، وكان يبيع التمر لرسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! أتتني امرأة تبتاع مني تمرًا؛ فأعجبتني، فلم أترك شيئًا مما يصنع الرجل بالمرأة إلا فعلته؛ إلا أني لم أجامعها، فقال رسول الله ﷺ: "ما أدري ما أرد عليك حتى يأتيني فيك شيء من الله"، فبينما هو كذلك؛ إذ

=

=

حضرت العصر، فقام رسول الله ﷺ فصلى العصر، فلما فرغ من الصلاة؛ نزل عليه جبريل بتوبته، فقال: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} الآية.

أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٤/ ١٩٥٠ رقم ٤٩٠٨، ص ٢٠٢٥ رقم ٥٠٩٠)، وابن منده في "معرفة الصحابة"، وأبو موسى المديني في "الصحابة"؛ كما في "أسد الغابة" (٣/ ٧٥٧) من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. ومن دون ابن عباس كذابون.

وعن عطاء بن أبي رباح في قوله -تعالى-: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ}: أن امرأة دخلت على رجل يبيع الدقيق، فقبلها فأسقط في يده، فأتى عمر فذكر ذلك له، فقال: اتق الله ولا تكن امرأة غاز، فقال الرجل: هي امرأة غاز فذهب إلى أبي بكر، فقال مثل ما قال عمر، فذهبوا إلى النبي ﷺ جميعًا، فقال له كذلك ثم سكت النبي ﷺ، فلم يجبهم؛ فأنزل الله ﷻ: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ} الصلوات المفروضات {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٢/ ٨٣) من طريقين عنه. وهو مرسل صحيح الإسناد.

وعن قتادة: أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله! هلكت؛ فأنزل الله: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٢/ ٨٢، ٨٣): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن سليمان التيمي؛ قال: ضرب رجل على كفل امرأة، ثم أتى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما؛ فكلما سأل رجلًا منهما عن كفارة ذلك؛ قال: أمغزية هي؟ قال: نعم، قال:

=

=

لا أدري، ثم أتى النبي ﷺ فسأله عن ذلك، فقال: "أمغزية هي؟ "، قال: نعم، قال: "لا أدري"، حتى أنزل الله -تعالى-: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}.

أخرجه الطبري (١٢/ ٨٣): ثنا محمد بن عبد الأعلى ثنا محمد بن ثور عن معمر عن سليمان به.

وهذا سند ضعيف؛ لإرساله.

وعن يحيى بن جعدة: أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع النبي ﷺ، فاستأذنه لحاجة؛ فأذن له، فذهب في طلبها؛ فلم يجدها، فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبي ﷺ بالمطر، فوجد المرأة جالسة على غدير فدفع في صدرها وجلس بين رجليها فصار ذكره مثل الهدبة، فقام نادمًا حتى أتى النبي ﷺ، فأخبره بما صنع، فقال له النبي ﷺ: "استغفر ربك وصل أربع ركعات"، قال: ثم تلا عليه: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ} الآية.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٣١٥) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٢/ ٨٢) -: نا محمد بن مسلم عن عمرو بن دينار عن يحيى به. وهذا إسناد ضعيف؛ لإرساله، وضعف محمد وهو ابن مسلم الطائفي.

وعن يزيد بن رومان: أن رجلًا من بني غنم دخلت عليه امرأة فقبلها، ووضع يده على دبرها، فجاء إلى أبي بكر رضي الله عنه ثم إلى عمر رضي الله عنه ثم أتى إلى النبي ﷺ؛ فنزلت هذه الآية: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ} إلى قوله: {ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}؛ فلم يزل ذلك الرجل الذي قبل المرأة يذكر، فذلك قوله: {ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}.

أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٢/ ٨٣) -: ثني الحجاج عن ابن جريج عن يزيد به. وهذا إسناد ضعيف؛ لإرساله، وعنعنة ابن

=

=

جريج، وضعف سنيد صاحب "التفسير".

وعن إبراهيم النخعي؛ قال: جاء فلان بن معتب رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله! دخلت عليّ امرأة فنلت منها ما ينال الرجل من أهله؛ إلا أني لم أواقعها، فلم يدر رسول الله ﷺ ما يجيبه حتى نزلت هذه الآية: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} الآية، فدعاه فقرأها عليه.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٢/ ٨١) من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن النخعي به.

وهذا سند ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ} [هود: ١١٤]، أي:"أقم الصلاة المكتوبة على تمامها وكمالها أول النهار وآخره".

وإقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر).

- قال ابن عاشور: انتقل من خطاب المؤمنين إلى خطاب النبيء ﷺ وهذا الخطاب يتناول جميع الأمة بقرينة أن المأمور به من الواجبات على جميع المسلمين، لا سيما وقد ذكر معه ما يناسب الأوقات المعينة للصلوات الخمس، وذلك ما اقتضاه حديث أبي اليسر الآتي.

وطرف الشيء: منتهاه من أوله أو من آخره، فالتثنية صريحة في أن المراد أول النهار وآخره.

- والمراد بالصلاة هنا: الصلاة المفروضة.

- **قال القرطبي**: لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية، المراد بها الصلوات المفروضة. وخصها بالذكر لأنها ثانية أركان الإسلام، وإليها يفزع في

=

=

النوائب، وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

قال الماوردي:"وأما «الطرف الأول» فصلاة الصبح باتفاق".

وأما الطرف الثاني ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عنى صلاة الظهر والعصر، قاله مجاهد ، ومحمد بن كعب القرظي ، والضحاك.

الثاني: صلاة العصر وحدها، قاله الحسن ، وقتادة ، وهو مروي عن محمد بن كعب القرظي ، والضحاك أيضا.

الثالث: صلاة المغرب، قاله ابن عباس ، وابن زيد ، وهو مروي عن الحسن في رواية أخرى.

قال بعضهم: "بل عنى بطرفي النهار: الظهر، والعصر، وبقوله: {زلفًا من الليل}، المغر ب، والعشاء، والصبح".

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: "هي صلاة المغرب"، كما ذكرنا عن ابن عباس، وإنما قلنا هو أولى بالصواب لإجماع الجميع على أن صلاة أحد الطرفين من ذلك صلاة الفجر، وهي تصلى قبل طلُوع الشمس. فالواجب إذ كان ذلك من جميعهم إجماعًا، أن تكون صلاةُ الطرف الآخر المغرب، لأنها تصلى بعد غُروب الشمس. ولو كان واجبًا أن يكون مرادًا بصلاة أحد الطرفين قبل غروب الشمس، وجب أن يكون مرادًا بصلاة الطرف الآخر بعدَ طلوعها، وذلك ما لا نعلم قائلا قاله، إلا من قال: "عنى بذلك صلاة الظهر والعصر". وذلك قول لا يُخِيلُ فساده، لأنهما إلى أن يكونا جميعًا من صلاة أحد الطرفين، أقربُ منهما إلى أن يكونا من صلاة طرفي النهار. وذلك أن "الظهر" لا شك أنها تصلَّى بعد مضي نصف النهار في النصف الثاني منه، فمحالٌ أن تكون من طرف النهار الأول، وهي في طرفه الآخر.

=

=

فإذا كان لا قائلَ من أهل العلم يقول: "عنى بصلاة طرف النهار الأول صلاةً بعد طلوع الشمس"، وجب أن يكون غير جائز أن يقال: "عنى بصلاة طرف النهار الآخر صلاةً قبل غروبها"، وإذا كان ذلك كذلك، صح ما قلنا في ذلك من القول، وفسدَ ما خالفه".

قوله تعالى: {وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ} [هود: ١١٤]، أي:"وفي ساعات من الليل".

قال الطبري:"يعني: ساعاتٍ من الليل، وهي جمع "زُلْفة"، و"الزلفة"، الساعة، والمنزلة، والقربة، وقيل: إنما سميت "المزدلفة " و"جمع " من ذلك، لأنها منزلٌ بعد عرفة وقيل سميت بذلك، لازدلاف آدم من عَرَفة إلى حواء وهي بها، ومنه قول العجاج في صفة بعير:

ناجٍ طَوَاهُ الأَيْنُ مِمَّا وجَفا طَيَّ اللَّيالِي زُلَفًا فَزُلَفَا"

وفي قوله تعالى: {وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ} [هود: ١١٤]، قولان:

أحدهما: صلاة العشاء الآخرة، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد.

عن ابن عباس: "{زلفًا من الليل} يقول: صلاة العتمة".

عن مجاهد، في قول الله: "{وزلفًا من الليل}، قال: الساعات من الليل صلاة العتمة".

عن ابن زيد في قوله: "{وزلفًا من الليل}، قال: العتمة، وما سمعت أحدًا من فقهائنا ومشايخنا، يقول «العشاء»، ما يقولون إلا «العتمة»".

وعن الحسن: "{وزلفًا من الليل}، قال: العشاء".

الثانية: صلاة المغرب والعشاء، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، ومحمد بن كعب القرظي.

وروي عن الحسن -مرفوعا-،:"قال الله لنبيه ﷺ: "{أقم الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل}، قال: {زلفًا من الليل}: المغرب، والعشاء، قال رسول الله ﷺ

=

=

«هما زُلْفَتا الليل، المغرب والعشاء»".

وفي رواية أخرى عن الحسن -مرفوعا-:"قد بيّن اللهُ مواقيتَ الصلاة في القرآن، قال: {أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} [سورة الإسراء: ٧٨]، قال: «دلوكها»: إذا زالت عن بطن السماء، وكان لها في الأرض فيءٌ. وقال: {أقم الصلاة طرفي النهار}، الغداة، والعصر {وزلفًا من الليل}، المغرب، والعشاء. قال: فقال رسول الله ﷺ: «هُما زلفتا الليل، المغرب والعشاء»".

وقرئ: «وزلفا»، بضم الزاي واللام، كأنه وجَّهه إلى أنه واحدٌ، وأنه بمنزلة "الحُلُم"، وقرأ بعض المكيين: «وَزُلْفًا»، ضم الزاي وتسكين اللام.

قوله تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤]، أي:"إنَّ فِعْلَ الخيرات يكفِّر الذنوب السالفة ويمحو آثارها".

أي: إن الأعمال الحسنة- كالصلاة والزكاة والصيام والحج، والاستغفار... يذهبن الأعمال السيئات، أي يذهبن المؤاخذة عليها، ويذهبن الاتجاه إليها ببركة المواظبة على الأعمال الحسنة.

وفي قوله تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤]، وجوه:

أحدها: الصلوات الخمس، قاله عثمان بن عفان ، وابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، الضحاك ، ومحمد بن كعب القرظي ، وسلمان ، ومسروق.

وروي عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: "جعلت الصلوات كفارات لما بينهن، فإن الله قال: {إن الحسنات يذهبن السيئات}".

وعن أبي عثمان النهدي قال: "كنت مع سلمان تحت شجرة، فأخذ غصنا من أغصانها يابسًا فهزَّه حتى تحاتَّ ورقُه، ثم قال: هكذا فعل رسول الله ﷺ، كنت معه تحت شجرة، فأخذ غصنًا من أغصانها يابسًا فهزه حتى تحاتَّ ورقُه، ثم قال: ألا تسألني لم أفعل هذا يا سلمان؟ فقلت: ولم تفعله؟ فقال: إن المسلم إذا توضأ

=

=

فأحسن الوضوء، ثم صلَّى الصلوات الخمس، تحاتّت خطاياه كما تحاتَّ هذا الورق. ثم تلا هذه الآية: (أقم الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل)، إلى آخر الآية".

الثاني: هي قول: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر». قاله مجاهد.

وروي عطاء بن دينار، في قوله: "{إن الحسنات يذهبن السيئات}، قال: وإن من الحسنات قوله: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله»، وهن الباقيات الصالحات".

الثالث: أن الحسنات المقبولة يذهبن السيئات المغفورة.

الرابع: أن الثواب الطاعات يذهبن عقاب المعاصي.

قال الطبري: "الصواب في ذلك، قولُ من قال في ذلك: "هن الصلوات الخمس"، لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ وتواترها عنه أنه قال: «مَثَلُ الصلوات الخمس مَثَلُ نَهْرٍ جَارٍ عَلَى بابِ أحَدِكم، ينغمس فيه كل يومٍ خمس مرات، فماذا يُبقينَ من دَرَنه؟» ، وأن ذلك في سياق أمر الله بإقامة الصلوات، والوعدُ على إقامتها الجزيلَ من الثواب عَقيبها، أولى من الوعد على ما لم يجر له ذكر من صالحات سائر الأعمال، إذا خُصّ بالقصد بذلك بعضٌ دون بعض".

قال الحسن:"استعينوا على السيئات القديمات بالحسنات الحديثات. وإنكم لن تجدوا شيئا أذهب بسيئة قديمة من حسنة حديثة، قال الحسن: وأنا أجد تصديق ذلك في كتاب الله: {إن الحسنات يذهبن السيئات}".

وقد قيل المراد بالسيئات هنا صغار الذنوب.

لقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما).

ولقوله تعالى (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع

=

=

المغفرة).

ولأن كبائر الذنوب لا تكفرها إلا التوبة الصادقة.

كما قال ﷺ (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر) رواه مسلم.

قوله تعالى: {ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: ١١٤].

أي: ذلك الذي أمرناك به من وجوب إقامة الصلاة، ومن الاستقامة على أمر الله... فيه التذكرة النافعة، لمن كان شأنه التذكر والاعتبار، لا الإعراض والعناد.

أي عظمة للمتعظين، وخصهم بالذكر لأنه المنتفعون بها.

والإشارة إلى ما تقدم من الوصية بالاستقامة والنهي عن الطغيان والركون إلى الذين ظلموا وإقامة الصلوات في تلك الأوقات بتأويل المذكور، وإلى هذا ذهب الزمخشري، واستظهر أبو حيان كون ذلك إشارة إلى إقامة الصلاة وأمر التذكير سهل، وقيل: هي إشارة إلى الإخبار بأن الحسنات يذهبن السيآت، وقال الطبري: إشارة إلى الأوامر والنواهي في هذه السورة، وقيل: إلى القرآن، وبعض من جعل الاشارة إلى الإقامة فسر الذكري بالتوبة.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هذا الذي أوعدت عليه من الركون إلى الظلم، وتهددت فيه، والذي وعدت فيه من إقامة الصلوات اللواتي يُذهبن السيئات، تذكرة ذكّرت بها قومًا يذكُرون وعد الله، فيرجُون ثوابه ووعيده، فيخافون عقابه، لا من قد طبع على قلبه، فلا يجيب داعيًا، ولا يسمع زاجرًا".

عن الحسن:"{ذلك ذكرى للذاكرين}، قال: هم الذين يذكرون الله في السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء".

عن مجاهد قال: "لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا".

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥).

{وَاصْبِرْ} يَا مُحَمَّد عَلَى أَذَى قَوْمك أَوْ عَلَى الصَّلَاة {فَإِنَّ الله لَا يُضِيع أَجْر الْمُحْسِنِينَ} بِالصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَة(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَاصْبِرْ} [هود: ١١٥]، أي:"واصبر -أيها النبي- على ما تَلْقى من الأذى من مشركي قومك".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: واصبر، يا محمد، على ما تلقى من مشركي قومك من الأذى في الله والمكروه، رجاءَ جزيل ثواب الله على ذلك".

قال البغوي: {وَاصْبِرْ} " يا محمد على ما تلقى من الأذى. وقيل: على الصلاة، ونظيره {وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها} [طه -١٣٢]".

قال الزمخشري:"ثم كر إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحله، كأنه قال: وعليك بما هو أهم مما ذكرت به وأحق بالتوصية، وهو الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به".

قوله تعالى: {فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [هود: ١١٥]، أي:"فإن الله لا يضيع ثواب المحسنين في أعمالهم".

قال البغوي: أي:"في أعمالهم".

قال الطبري:"فإن الله لا يضيع ثوابَ عمل من أحسن فأطاع الله واتبع أمره، فيذهب به، بل يوَفّره أحوجَ ما يكون إليه".

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "يعني: المصلين".

قال الزمخشري:"{فإن الله لا يضيع أجر المحسنين}: جاء بما هو مشتمل على الاستقامة وإقامة الصلوات والانتهاء عن الطغيان والركون إلى الظالمين والصبر وغير ذلك من الحسنات".

=

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦).

{فَلَوْلَا} فَهَلَّا {كَانَ مِنْ الْقُرُون} الْأُمَم الْمَاضِيَة {مِنْ قَبْلكُمْ أُولُو بَقِيَّة} أَصْحَاب دِين وَفَضْل {يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَاد فِي الْأَرْض} الْمُرَاد بِهِ النَّفْي أَيْ مَا كَانَ فِيهِمْ ذَلِكَ {إِلَّا} لَكِنَّ {قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ} نَهَوْا فَنَجَوْا وَمِنْ لِلْبَيَانِ {وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا} بِالْفَسَادِ وَتَرْك النهي {ما أترفوا} نعموا {فيه وكانوا مجرمين[1]}.

=

قال السمعاني:"ظاهر المعنى، حث على الصبر على هذه الصلوات، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين".

عن الربيع بن أنس قال: "مكتوب في الكتاب الأول أن الحاسد لا يضر بحسده إلا نفسه ليس ضارا من حسد وإن الحاسد ينقضه حسده وإن المحسود إذا صبر أنجاه تصبره، لأن الله يقول: {واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين}".

(١) قوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ} [هود: ١١٦]، أي:"فهلاَّ وُجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير والصلاح، ينهون أهل الكفر عن كفرهم، وعن الفساد في الأرض".

قال أبو عبيدة: أي:"فهلا كان من القرون الذين من قبلكم ذووا بقية، أي: يبقون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فهلا كان من القرون الذين قصصت عليك نبأهم في هذه السورة، الذين أهلكتهم بمعصيتهم إياي، وكفرهم برسلي من قبلكم ذو بقية من الفهم والعقل، يعتبرون مواعظَ الله ويتدبرون حججه، فيعرفون ما لهم في الإيمان بالله، وعليهم في الكفر به، ينهون أهل المعاصي عن معاصيهم، وأهل الكفر بالله عن كفرهم به، في أرضه".

وفي قوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ} [هود: ١١٦]، ثلاثة

=

=

وجوه:

أحدها: أولو طاعة.

الثاني: أولو تمييز.

الثالث: أولو حذر من الله تعالى.

قوله تعالى: {إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ} [هود: ١١٦]، أي:"لم يوجد من أولئك الأقوام إلا قليل ممن آمن، فنجَّاهم الله بسبب ذلك مِن عذابه حين أخذ الظالمين".

قال الطبري:"يقول: لم يكن من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، إلا يسيرًا، فإنهم كانوا ينهون عن الفساد في الأرض، فنجاهم الله من عذابه، حين أخذ من كان مقيمًا على الكفر بالله عذابُه - وهم اتباع الأنبياء والرسل-".

عن قتادة: "{فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم}، أي: لم يكن من قبلكم من ينهى عن الفساد في الأرض، {إلا قليلا ممن أنجينا منهم}".

عن ابن جريج قوله: "{فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية}، إلى قوله: {إلا قليلا ممن أنجينا منهم}، قال: يستقلَّهم الله من كل قوم".

قال ابن زيد: "اعتذر فقال: {فلولا كان من القرون من قبلكم}، حتى بلغ: {إلا قليلا ممن أنجينا منهم}، فإذا هم الذين نجوا حين نزل عذاب الله. وقرأ: {واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه}".

عن داود، قال: "سألني بلال عن قول الحسن في القدر، قال: فقال: سمعت الحسن يقول: {قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم}، قال: بعث الله هودًا إلى عاد، فنجى الله

=

=

هودًا والذين آمنوا معه وهلك المتمتعون. وبعث الله صالحًا إلى ثمود، فنجى الله صالحًا وهلك المتمتعون. فجعلت أستقريه الأمم، فقال: ما أراه إلا كان حسَّن القول في القَدر".

قوله تعالى: {وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ} [هود: ١١٦]، أي:"واتَّبع الذين ظلموا أنفسهم ما مُتِّعوا فيه من لذات الدنيا ونعيمها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: واتبع الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله ما أترفوا فيه".

قال مجاهد:"يعني: في مهلكهم وتجبرهم وتركهم الحق".

قال ابن كثير:"أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجَأهم العذابُ".

وفي قوله تعالى: {وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ}، وجهان:

أحدهما: أنهم اتبعوا على ظلمهم ما أترفوا فيه من استدامة نعمهم استدراجًا لهم.

قال مجاهد:"يعني: في مهلكهم وتجبرهم وتركهم الحق".

الثاني: أنهم أخذوا بظلمهم فيما أترفوا فيه من نعمهم. والمترف: المنعّم.

وقال ابن عباس: "{أترفوا فيه}: ما أنظروا فيه".

قال قتادة:"من دنياهم".

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال:"إن الله أخبر تعالى ذكره: أن الذين ظلموا أنفسهم من كل أمة سلفت فكفروا بالله، اتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا وكفروا بالله، واتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا عن أمر الله وتجبروا وصدوا عن سبيله، وذلك أن المترف في كلام العرب: هو المنعم الذي قد غُذِّي باللذات، ومنه قول الراجز:

نُهْدِي رُءُوسَ المُتْرَفِينَ الصُّدَّادْ إلى أَمِير المُؤْمِنِينَ المُمْتَادْ".

=

=

قولـه تعـالى: {وَكَـانُوا مُجْـرِمِينَ} [هـود: ١١٦]، أي:"وكـانوا مجـرمين ظـالمين باتباعهم ما تنعموا فيه، فحقَّ عليهم العذاب".

قال الطبري:"يقول: وكانوا مكتسبي الكفر بالله".

قال مقاتل:"يعني: الأمم الذين كذبوا فى الدنيا".

* أمـر تعـالى هـذه الأمـة الـشريفة أن يكـون فيهـا مـن يـأمر بـالمعروف وينهـى عـن المنكر.

كما قال تعالى (ولتكن منكم أمة يـدعون إلـى الخيـر ويـأمرون بـالمعروف وينهـون عن المنكر وأولئك هم المفلحون).

وفي الحديث (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب).

- ففي الآية إرشاد إلـى أن الأمـم إذا خلـت مـن الآمـرين بـالمعروف والنـاهين عـن المنكر، حلت بها المصائب والنكبات.

ولولا: حرف تحضيض بمعنى هلا.

والمقصود بالتحضيض هنا تحـذير المعاصـرين للنبـي ﷺ ومـن يـأتي بعـدهم مـن الوقوع فيما وقع فيه أهل القرون الماضية مـن تـرك الأمـر بـالمعروف والنهـى عـن المنكر، حتى لا يصيب اللاحقين ما أصاب السابقين.

- وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له عقوبات:

منها: نزول عقاب الله وعدم استجابة الدعاء.

عن حذيفة - رضي الله عنه -، عـن النبـي ﷺ، قـال (والـذي نفـسي بيـده، لتـأمرن بـالمعروف، ولتنهـون عـن المنكـر أو ليوشـكن الله أن يبعـث علـيكم عقابـا منـه ثـم تدعونه فلا يستجاب لكم) رواه الترمذي، وقال: ((حديث حسن)).

ومنها: أن ذلك من صفات المنافقين.

قال تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بـالمنكر وينهـون عـن

=

=

المعروف ويقبضون أيديهم).

ومنها: نزول البلاء والعذاب العام.

قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة). والتحقيق في معناها: أن المراد بتلك الفتنة التي تعم الظالم وغيره هي أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بالعذاب، صالحهم وطالحهم، وبه فسرها جماعة من أهل العلم، والأحاديث الصحيحة شاهدة لذلك.

ولما قالت أم المؤمنين زينب رضي الله عنها: (أنهلك وفينا الصالحون؟) قال لها الرسول ﷺ: نعم، إذا كثر الخبث).

وكما في الحديث (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه).

ومنها: اللعن والإبعاد من رحمة الله.

قال تعالى (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون).

قال ﷺ (والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم). رواه أبو داود

ومنها: انتفاء خيرية الأمة.

لأن الله علق خيرية هذه الأمة بالقيام بهذه المهمة، قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر).

قال القرطبي: مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطأوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سببا

=

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧).

{وَمَا كَانَ رَبّك لِيُهْلِك الْقُرَى بِظُلْمٍ} مِنْهُ لها {وَأَهْلهَا مُصْلِحُونَ} مُؤْمِنُونَ[1].

=

لهلاكهم.

ومنها: ظهور المعاصي والمنكرات وانتشارها.

ومنها: استعلاء أهل الشر والفساد.

(١) قوله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: ١١٧].

أي: وما كان ربك -أيها الرسول- ليهلك قرية من القرى وأهلها مصلحون في الأرض، مجتنبون للفساد والظلم، وإنما يهلكهم بسبب ظلمهم وفسادهم.

كما قال تعالى (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم).

وقال (وما ربك بظلام للعبيد).

وقال تعالى (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون).

وفي تفسير هذه الآية قولان:

أحدهما: أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك إذا تعاطوا الإنصاف فيما بينهم، ولم يظلم بعضهم بعضا.

والثاني: أن الله لا يظلم أهل قرية فيهلكهم بلا جناية.

قال السمعاني: "والأول أشهر".

وعن ابن عباس في رواية عطاء، قال: "{وما كان ربك ليهلك القرى}:"يريد الرجال، {بظلم}: بشرك، {وأهلها مصلحون}، يريد: فيما بينهم، كقوم لوط عذبهم الله باللواط، وقوم شعيب عذبوا ببخس المكيال".

قال الزجاج:"يجوز أن يكون: وما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه، كما قال: {إن الله لا يظلم الناس شيئا}، وجائز أن يكون معناه: وما كان ربك ليهلك القرى

=

=

- ومعناه: أهل القرى - بظلم وأهلها يتعاطون فيما بينهم بالنصفة".

قال البغوي:"أي: لا يهلكهم بشركهم، {وأهلها مصلحون} فيما بينهم يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعضا، وإنما يهلكهم إذا تظالموا، وقيل: لا يهلكهم بظلم منه وهم مصلحون في أعمالهم، ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات".

قال الواحدي:"أَيْ: ليس من سبيل الكفَّار إذا قصدوا الحقَّ في المعاملة أن يُنزِّل اللهُ بهم عذاب الاستئصال كقوم لوطٍ عُذِّبوا باللِّواط وقوم شعيب عُذِّبوا ببخس المكيال".

قال الثعلبي:"{بظلم}: بظلم منه لهم، {وأهلها مصلحون} في أعمالهم غير مسيئين، لكنه يهلكها بكفرهم وإتيانهم السيئات، وقيل: معناه لم يكن ليهلكهم بشركهم وأهلها مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون، ويتعاطون الحق بينهم وإن كانوا مشركين، وإنما يهلكهم إذا ظلموا

قال أبو الليث السمرقندي:"يقول: لم يكن ربك ليعذب أهل قرية، {بظلم}، يعني: بغير جرم، {وأهلها مصلحون}، يعني: موحدين مطيعين، وروي عن ابن عباس أنه قال: «ما أهلك الله قوما إلا بعملهم، ولم يهلكهم بالشرك»، يعني: لم يهلكهم بشركهم وهم مصلحون، لا يظلم بعضهم بعضا، لأن مكافأة الشرك النار، لا دونها. وإنما أهلكهم الله بمعاصيهم زيادة على شركهم، مثل قوم صالح بعقر الناقة، وقوم لوط بالأفعال الخبيثة، وقوم شعيب بنقصان الكيل والوزن، وقوم فرعون بإيذائهم موسى وبني إسرائيل. ويقال: وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون يعني: وفيهم من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. وقال: لم يكن ليهلكهم وهم يتعاطون الحق فيما بينهم، وإن كانوا مجرمين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما كان ربك، يا محمد، ليهلك القرى، التي أهلكها، التي قَصَّ عليك نبأها، ظُلمًا وأهلها مصلحون في أعمالهم، غير مسيئين،

=

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨).

{وَلَوْ شَاءَ رَبّك لَجَعَلَ النَّاس أُمَّة وَاحِدَة} أهل دين واحد {ولا يزالون مختلفين} في الدين.

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩).

{إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبّك} أَرَادَ لَهُمْ الْخَيْر فَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} أَيْ أَهْل الِاخْتِلَاف لَهُ وَأَهْل الرَّحْمَة لَهَا {وَتَمَّتْ كَلِمَة ربك} وهي {لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين}[1].

=

فيكون إهلاكه إياهم مع إصلاحهم في أعمالهم وطاعتهم ربّهم، ظلمًا، ولكنه أهلكها بكفر أهلها بالله وتماديهم في غيِّهم، وتكذيبهم رُسُلهم، وركوبهم السيئات، وقد قيل: معنى ذلك: لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله. وذلك قوله "بظلم" يعني: بشرك {وأهلها مصلحون}، فيما بينهم لا يتظالمون، ولكنهم يتعاطَون الحقّ بينهم، وإن كانوا مشركين، إنما يهلكهم إذا تظالموا".

قال مكي:"المعنى: وما كان ربك يا محمد أن يهلك القرى التي قص عليم نبأها (بظلم)، وأهلها مصلحون، ولكن أهلكها بكفرها.

وقيل: المعنى: ما كان الله ليهلكهم بظلمهم، أي: بشركهم، وهم مصلحون، لا يتظالمون بينهم، إنما يهلكهم إذا جمعوا مع الشرك غيره من الفساد. ألا ترى إلى قوله في قوم لوط؟: {وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السيئات} [هود: ٧٨]، يريد الشرك، فعذبهم باللواط الذي أافوه إلى شركهم. وأخبر الله عن قوم شعيب أنه عذبهم لنقصهم الكيل، وأمسك عن ذكر شركهم، وهذا قول غريب".

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} [هود: ١١٨].

=

=

أي: ولو شاء ربك- أيها الرسول الكريم الحريص على إيمان قومه- أن يجعل الناس جميعا أمة واحدة مجتمعة على الدين الحق لجعلهم، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، ليتميز الخبيث من الطيب.

كما قال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا).

وقال تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى).

وفي قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} [هود: ١١٨]، وجهان:

أحدهما: على ملة الإسلام وحدها، قاله سعيد بن جبير.

الثاني: أهل دين واحد، أهل ضلالة وأهل هدى، قاله الضحاك.

قوله تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} [هود: ١١٨]، أي:"ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم، وذلك مقتضى حكمته".

قال ابن كثير:"أي: ولا يزال الخُلْفُ بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم".

وفي قوله تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٩) إِلَّا مَنْ رَحِمَ} [هود: ١١٨ - ١١٩]، أقوال:

أحدها: مختلفين في الأديان إلا من رحم ربك من أهل الحق، قاله الحسن ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والأعمش.

قال عطاء:"اختلاف الملل". "والحنيفيَّة همُ الذين رحم ربُّك".

الثاني: مختلفين في الحق والباطل إلا من رحم ربك من أهل الطاعة، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"لا يزالون مختلفين في الهوى".

الثالث: مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير إلا من رحم ربك من أهل القناعة. قاله الحسن.

=

=

الرابع: مختلفين بالشقاء والسعادة إلا من رحم ربك بالتوفيق.

الخامس: مختلفين في المغفرة والعذاب إلا من رحم ربك بالجنة. حكاه الطبري عن بعضهم.

السادس: أنه معنى «مختلفين»، أي: يخلف بعضهم بعضًا، فيكون من يأتي خلفًا للماضي لأن سوءًا في كل منهم خلف بعضهم بعضًا، فاقتتلوا ومنه قولهم: ما اختلف الجديدان، أي جاء هذا بعد ذاك، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في تأويل ذلك، بالصواب قولُ من قال: معنى ذلك: "ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم وأهوائهم على أديان وملل وأهواء شتى، إلا من رحم ربك، فآمن بالله وصدق رسله، فإنهم لا يختلفون في توحيد الله، وتصديق رسله، وما جاءهم من عند الله"، وإنما قلت ذلك أولى بالصواب في تأويل ذلك، لأن الله جل ثناؤه أتبع ذلك قوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: ١١٩]، ففي ذلك دليلٌ واضح أن الذي قبله من ذكر خبره عن اختلاف الناس، إنما هو خبرٌ عن اختلاف مذموم يوجب لهم النار، ولو كان خبرًا عن اختلافهم في الرزق، لم يعقّب ذلك بالخبر عن عقابهم وعَذابهم".

قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} [هود: ١١٩]، أي:"إلا مَن رحم ربك فآمنوا به واتبعوا رسله، فإنهم لا يختلفون في توحيد الله وما جاءت به الرسل من عند الله".

قال ابن كثير:"أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ الأمي خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازروه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضا: "إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين

=

=

فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة". قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» ".

قوله تعالى: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود: ١١٩]، أي:"خلقهم لتكون العاقبة اختلافهم ما بين شقي وسعيد".

وفي قوله تعالى: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود: ١١٩]، أربعة وجوه:

أحدها: أن الإشارة للاختلاف، أي: وللاختلاف خلقهم.

وبهذا قال الحسن، وعطاء، ومالك، ورجحه ابن جرير الطبري، والقاسمي، والشنقيطي، وابن عاشور، لقوله تعالى (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين).

قالوا: ففي هذا تصريح بأنه تعالى خلق أقواما للهداية والجنة، وأقواما آخرين للضلالة والنار.

وفي حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - (ثم يبعث الله إليك الملك فيؤمر بأربع كلمات: فيكتب رزقه، وأجله وعمله، وشقي أم سعيد".

وروى مسلم من حديث عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم).

وفي صحيح مسلم، من حديث عبد الله بن عمرو. أن رسول الله ﷺ قال (إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء).

- وإذا تقرر أن قوله تعالى (ولذلك خلقهم) معناه: أنهم خلقهم لسعادة بعض وشقاوة بعض.

فلا يخفى ظهور التعارض بين هذه الآية، مع قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).

=

=

وقد اختلف العلماء في الجمع بين الآيتين على أقوال:

أصحها: أن الله تعالى ذكر في قوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الغاية التي من أجلها خلقوا وأمروا بها، وفي قوله (ولا يزالون مختلفين) الغاية التي إليها يصيرون، وكلتاهما مرادة له.

فالإرادة في قوله (ولذلك خلقهم) إرادة كونية قدرية، وهي التي بمعنى المشيئة التي يتعين فيها وقوع المراد وهي عامة فيما يحبه الله وما لا يحبه.

وأما الإرادة في قوله (وما خلقت الجن...) فهي إرادة شرعية دينية، وهي التي بمعنى المحبة التي لا يتعين وقوع المراد، وهي تختص فيما يحبه الله سواء وقع أو لم يقع.

القول الثاني: للرحمة خلقهم، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة.

قال ابن عباس:"للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب".

وقال عكرمة:"أهل الحقّ ومن اتبعه لرحمته".

روي عن ابن أبي نجيح، عن طاوس:"أن رجلين اختصما إليه فأكثرا فقال طاوس اختلفتما وأكثرتما قال أحد الرجلين لذلك خلقنا فقال طاوس كذبت قال: أليس الله يقول: {ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم}، قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة".

وقال عمر بن عبدالعزيز:"خلق أهل رحمته ألا يختلفوا".

القول الثالث: للشقاء والسعادة خلقهم، قاله ابن عباس ، واختاره الطبري.

قال ابن عباس:"خلقهم فرقتين فريقا يرحم فلا يختلف وفريقا لا يرحم يختلف وذلك قوله: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيد} ".

القول الرابع: للجنة والنار خلقهم، قاله الحسن.

عن منصور بن عبد الرحمن قال: "قلت للحسن: {ولا يزالون مختلفين إلا من

=

=

رحم ربك ولذلك خلقهم}، قال: خلق هؤلاء لجنته، وهؤلاء للنار، وخلق هؤلاء لرحمته وهؤلاء للعذاب".

وعن الحسن أيضا:"خلق أهل رحمته للجنة لئلا يختلفوا وخلق أهل الاختلاف لناره".

قال الأشهب: "سألت مالكا عن هذه الآية، فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنة، وفريق في السعير".

قال الطبري: الصواب" قولُ من قال: وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم، لأن الله جل ذكره ذكر صنفين من خلقه: أحدهما أهل اختلاف وباطل، والآخر أهل حق، ثم عقَّب ذلك بقوله: {ولذلك خلقهم}، فعمّ بقوله: {ولذلك خلقهم}، صفة الصنفين، فأخبر عن كل فريق منهما أنه ميَسَّر لما خلق له".

قوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: ١١٩]، أي:"تمَّ أمر الله ونفذ قضاؤه بأن يملأ جهنم من الجنّ والإنس من الكفرة الفجرة جميعا".

قال الطبري:"لعلمه السابق فيهم أنهم يستوجبون صليها بكفرهم بالله، وخلافهم أمره".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "اختصمت الجنة والنار إلى ربهما، فقالت الجنة: يا رب، ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار: - يعني - أوثرت بالمتكبرين، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي، أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، قال: فأما الجنة، فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا، وإنه ينشئ للنار من يشاء، فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد، ثلاثا، حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ، ويرد بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط قط".

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠).

{وكلا} نصب بنقص وتنوينه عوض عن الْمُضَاف إلَيْهِ أَيْ كُلّ مَا يَحْتَاج إلَيْهِ {نَقُصّ عَلَيْك مِنْ أَنْبَاء الرُّسُل مَا} بَدَل مِنْ كُلًّا {نُثَبِّت} نُطَمِّنُ {بِهِ فُؤَادك} قَلْبك {وَجَاءَك فِي هَذِهِ} الْأَنْبَاء أَوْ الْآيَات {الْحَقّ وَمَوْعِظَة وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} خُصُّوا بِالذِّكْرِ لِانْتِفَاعِهِمْ بِهَا فِي الْإِيمَان بِخِلَافِ الْكُفَّار(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ} [هود: ١٢٠]، أي:"ونقصُّ عليك -أيها النبي- من أخبار الرسل الذين كانوا قبلك، كل ما تحتاج إليه مما يقوِّي قلبك للقيام بأعباء الرسالة".

لما ذكر الله تعالى في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر؛ ذكر الحكمة في ذكر ذلك فقال:

(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) أي: ونقص عليك- يا محمد- كل ما تحتاج إلى معرفته من أخبار الرسل المتقدمين؛ ما نثبت به قلبك، فتزداد إيمانا ويقينا وصبرا على تكذيب قومك، كما صبر المرسلون من قبلك.

- فيه أن من فوائد قصص الأنبياء تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى.

وذلك لأن الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبلية فإذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه، كما يقال: المصيبة إذا عمت خفت، فإذا سمع الرسول هذه القصص، وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع أتباعهم هكذا، سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه.

كما قال تعالى (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور).

وقال تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو =

=

عقاب أليم).

- وقال الخازن: وذلك لأن النبي (ﷺ) إذا سمع هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه.

- وقال أبو حيان: وتثبيت الفؤاد هو بما جرى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولاتباعهم المؤمنين، وما لقوا من مكذبيهم من الأذى، ففي هذا كله أسوة بهم، إذ المشاركة في الأمور الصعبة تهون ما يلقى الإنسان من الأذى، ثم الإعلام بما جرى على مكذبيهم من العقوبات المستأصلة بأنواع من العذاب من غرق وريح ورجفة وخسف، وغير ذلك فيه طمأنينة للنفس، وتأنيس بأن يصب الله من كذب الرسول ﷺ بالعذاب، كما جرى لمكذبي الرسل.

وإنباء له عليه الصلاة والسلام بحسن العاقبة له ولأتباعه، كما اتفق للرسل وأتباعهم.

- قال الشوكاني: قوله تعالى (ما نثبت به فؤادك) أي: ما نجعل به فؤادك مثبتا بزيادة يقينه بما قصصناه عليك، ووفور طمأنينته، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وكلا نقصّ عليك}، يا محمد {من أنباء الرسل}، الذين كانوا قبلك {ما نثبت به فؤادك}، فلا تجزع من تكذيب من كذبك من قومك، وردَّ عليك ما جئتهم به، ولا يضق صدرك، فتترك بعض ما أنزلتُ إليك من أجل أن قالوا: {لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك}؟ إذا علمت ما لقي من قبلك من رسلي من أممها".

عن ابن جريج قوله: "{وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك}، قال: لتعلم ما لقيت الرسل قبلك من أممهم".

=

=

قوله تعالى: {وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ} [هود: ١٢٠]، أي:"وقد جاءك في هذه السورة وما اشتملت عليه من أخبار، بيان الحق الذي أنت عليه".

وفي قوله تعالى: {وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ} [هود: ١٢٠]، ثلاثة وجوه:

أحدها: في هذه السورة، قاله ابن عباس ، وأبو موسى ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وأبو العالية ، ومجاهد ،وقتادة ، والربيع بن أنس.

الثاني: في هذه الدنيا، قاله الحسن ، وقتادة.

الثالث: في هذه الأنباء، حكاه ابن عيسى.

قال الطبري: والصواب" في تأويل ذلك، قول من قال: وجاءك في هذه السورة الحق، لإجماع الحجة من أهل التأويل، على أن ذلك تأويله".

وفي هذا «الحق»، وجهان:

أحدهما: صدق القصص وصحة الأنباء وهذا تأويل من جعل المراد السورة.

الثاني: النبوة، وهذا تأويل من جعل المراد الدنيا.

- قال الرازي: واعلم أنه لا يلزم من تخصيص هذ السورة بمجيء الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك، لاحتمال أن يكون الحق المذكور في هذه السورة أكمل حالا مما ذكر في سائر السور، ولو لم يكن فيها إلا قوله: (فاستقم كما أمرت) لكان الأمر كما ذكرنا.

الجواب الثاني: خصت بذلك تشريفا لها.

- قال الخازن: فإن قلت جاءه الحق في سورة القرآن فلم خص هذه السورة بالذكر قلت لا يلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر أن لا يكون قد جاءه الحق في غيرها من السور بل القرآن كله حق وصدق وإنما خصها بالذكر تشريفا لها.

- وقال الشوكاني: يكون تخصص هذه السورة بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور، لقصد بيان اشتمالها على ذلك، لا بيان كونه موجودا فيها

=

=

دون غيرها.

قولـه تعـالى: {وَمَوْعِظَـةٌ وَذِكْـرَى لِلْمُـؤْمِنِينَ} [هـود: ١٢٠]، أي:"وجـاءك فيهـا موعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون بالله ورسله".

قال الطبري: "يقول: وجاءك موعظةٌ تعظ الجاهلين بالله، وتبين لهم عبره ممن كفر به وكذب رسله {وذكرى للمؤمنين}، يقول: وتذكرة تذكر المؤمنين بالله ورسله، كي لا يغفلوا عن الواجب لله عليهم".

قال الشعبي:"موعظة من الجهل".

وقوله تعالى {وَمَوْعِظَةٌ} [هود: ١٢٠]، يحتمل وجهين:

أحدهما: القرآن الذي هو وعظ الله تعالى لخلقه.

الثاني: الاعتبار بأنباء من سلف من الأنبياء ولذلك قال النبي ﷺ «والسعيد من وعظ بغيره».

عن قتادة قال:"المؤمنون هم العجاجون بالليل والنهار ﷺ والله ما زالوا يقولون: «ربنا»، حتى استجيب لهم".

- **قال القرطبي**: فالموعظة ما يتعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة؛ وهذا تشريف لهذه السورة؛ لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحق والموعظة والذكرى ولم يقل فيها كما قال في هذه على التخصيص.

- وقال الخازن: أي وهذه السورة موعظة يتعظ بها المؤمنون إذا تذكروا أحوال الأمم الماضية وما نزل بهم.

والقرآن وصفه الله بأنه كله موعظة فقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم) أي: زاجر عن الفواحش.

والوعظ هو التذكير بالعواقب لترق القلوب، فمن أوصاف القرآن أنه موعظة.

والقرآن مملوء بما يتعظ القارئ به إذا تدبره وفهم معناه، وأرعى له سمعه، وفرغ له

=

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١).

{وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتكُمْ} حَالَتكُمْ {إنَّا عَامِلُونَ} عَلَى حَالَتنَا تَهْدِيد لَهُمْ.

وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢).

{وَانْتَظِرُوا} عَاقِبَة أَمْركُمْ {إنَّا مُنْتَظِرُونَ} ذَلِكَ[1].

=

قلبه.

- قال ابن عاشور: الموعظة التذكير بما يصد المرء عن عمل مضر.

(وذكرى للمؤمنين) الذكرى: مجرد التذكير بما ينفع.

- **قال القرطبي**: وخص المؤمنين لأنهم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء.

(١) قوله تعالى: {وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١)} [هود: ١٢١]

وقل -أيها الرسول- للكافرين الذين لا يقرُّون بوحدانية الله: اعملوا ما أنتم عاملون على حالتكم وطريقتكم في مقاومة الدعوة وإيذاء الرسول والمستجيبين له، فإنَّا عاملون على مكانتنا وطريقتنا من الثبات على ديننا وتنفيذ أمر الله.

قال البيضاوي:"{اعملوا على مكانتكم}، على حالكم. {إنا عاملون} على حالنا".

قال القرطبي:"تهديد ووعيد".

قال ابن الجوزي:"هذا تهديد ووعيد، والمعنى: اعملوا ما أنتم عاملون فستعلمون عاقبة أمركم".

قال أبو حيان:"{اعملوا}: صيغة أمر ومعناه: التهديد والوعيد، والخطاب لأهل مكة وغيرها. على مكانتكم أي: جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. وقيل: اعملوا في

=

=

هلاكي على إمكانكم".

قال ابن كثير:"أي: على طريقتكم ومنهجكم، {إِنَّا عَامِلُونَ}، أي: على طريقتنا ومنهجنا".

عن الضحاك:"{اعملوا على مكانتكم}، على ناحيتكم".

عن قتادة قوله: "{اعملوا على مكانتكم}، أي: منازلكم".

قال ابن الجوزي:"قال المفسرون: وهذه الآية اقتضت تركهم على أعمالهم، والاقتناع بإنذارهم، وهي منسوخة بآية السيف. واعلم أنه إذا قلنا: إن المراد بالآية التهديد، لم يتوجه نسخ".

قال أبو حيان:"ويشبه أن يكون إيتاء موادعة، فلذلك قيل: إنهما منسوختان، وقيل: محكمتان، وهما للتهديد والوعيد والحرب قائمة".

قوله تعالى: {وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢)} [هود: ١٢٢]

وانتظروا عاقبة أمرنا، فإنَّا منتظرون عاقبة أمركم.

قال القرطبي:"تهديد آخر".

قال الطبري:"يقول: انتظروا مواعيد الشيطان إياكم على ما يزيّن لكم، {إنا منتظرون}".

قال أبو الليث السمرقندي:"يقال: وانتظروا بهلاكي، إنا منتظرون بكم العذاب والهلاك، فهذا تهديد لهم".

قال الثعلبي:"وانتظروا ما يحل بنا من رحمة الله إنا منتظرون ما يحل بكم من النقمة".

قال الزمخشري:"وانتظروا بنا الدوائر إنا منتظرون أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم".

قال الشوكاني:"فيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى. والمعنى: انتظروا عاقبة أمرنا

=

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣).

{وَلِلَّهِ غَيْب السَّمَاوَات وَالْأَرْض} أَيْ عِلْم مَا غَابَ فِيهِمَا {وَإِلَيْهِ يَرْجِع} بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ يَعُود وَلِلْمَفْعُولِ يُرَدّ {الْأَمْر كُلّه} فَيَنْتَقِم مِمَّنْ عَصَى {فَاعْبُدْهُ} وَحْده {وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} ثِقْ بِهِ فَإِنَّهُ كَافِيك {وما ربك بغافل عما يعملون} وإنما يؤخرهم وفي قراءة بالفوقانية[1].

=

فإنا منتظرون عاقبة أمركم وما يحل بكم من عذاب الله وعقوبته".

قال ابن كثير:"أي: فستعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون. وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم".

عن ابن جريج في قوله: "{وانتظروا إنا منتظرون}، قال: يقول: انتظروا مواعيد الشيطان إياكم على ما يزيّن لكم {إنا منتظرون}".

عن الربيع في قوله: "{وانتظروا}، قال: خوفهم عذابه وعقوبته ونقمته".

(١) قوله تعالى: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [هود: ١٢٣]، أي:"يعلم ما غاب عن العباد فيهما يعني أن علمه سبحانه وتعالى نافذ في جميع الأشياء خفيها وجليها وحاضرها ومعدومها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء".

قال ابن ابي زمنين:"أي: لا يعلمه إلا هو".

قال السمعاني:"أي: ولله علم ما غاب في السموات والأرض".

قال البغوي:"أي: علم ما غاب عن العباد فيهما".

قال البيضاوي: أي:"خاصة لا يخفى عليه خافية مما فيهما".

قال أبو حيان: "لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، ولا حظ لمخلوق في علم

=

=

الغيب".

قال الآلوسي: "أي أنه سبحانه يعلم كل ما غاب في السموات والأرض ولا يعلم ذلك أحد سواه جل وعلا".

قال مكي:"المعنى: [لله] ما غاب عن أبصاركم في السماوات والأرض دون ما سواه".

قال السعدي:"أي: ما غاب فيهما من الخفايا، والأمور الغيبية".

قال الزمخشري:"لا تخفى عليه خافية مما يجرى فيهما، فلا تخفى عليه أعمالكم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولله، يا محمد، ملك كل ما غاب عنك في السموات والأرض فلم تطلع ولم تعلمه، ولم تعلمه، كل ذلك بيده وبعلمه، لا يخفى عليه منه شيء، وهو عالم بما يعمله مشركو قومك، وما إليه مصير أمرهم، من إقامة على الشرك، أو إقلاع عنه وتوبة".

حكي الثعلبي عن ابن عباس في {لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، قال:"خزائن الله".

وحكي الثعلبي عن الضحاك: "جميع ما غاب عن العباد".

قال الحسن: "الغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

وقال مقاتل:"يقول: ولله غيب نزول العذاب وغيب ما فى الأرض".

قال الشوكاني:"أي: علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما وخص الغيب من كونه يعلم بما هو مشهود، كما يعلم بما هو مغيب، لكونه من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره، وقيل: إن غيب السموات والأرض: نزول العذاب من السماء، وطلوعه من الأرض، والأول أولى، وبه قال أبو علي الفارسي وغيره، وأضاف الغيب إلى المفعول توسعا".

=

=

قال بعض أهل العلم بأن غيب السماوات والأرض، نوعان:

أحدهما: غيب نسبي: وهو ما غاب عن بعض الخلق دون بعض.

والثاني: غيب عام: وهو ما غاب عن الخلق عمومًا.

قوله تعالى: {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ} [هود: ١٢٣]، أي:"كل الأمور راجعة إليه تعالى، ومن الأمور الراجعة إليه بنو آدم وأعمالهم، فيجازي كلا منهم بما يستحق من خير أو شر".

- قال ابن عاشور: وإلى الله لا إلى غيره يرجع الأمر كله، وهو تعريض بفساد آراء الذين عبدوا غيره، لأن من لم يكن كذلك لا يستحق أن يعبد، ومن كان كذلك كان حقيقا بأن يفرد بالعبادة.

(فاعبده) أي: قم بعبادته.

وفي هذا وجوب عبادة الله تعالى، وهذا أول واجب على العبد. (وقد تقدمت مباحث العبودية).

- وفائدة الترتيب بالفاء في قوله (فاعبده) الإشارة إلى نكتة، وهو أنه لا ينبغي أن يعبد ويخضع ويذل إلا لمن اتصف بهذه الصفات العظيمة، ومثله (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا).

(وتوكل عليه) أي: اعتمد على الله وثق به. (وقد تقدم مباحث التوكل).

وخص التوكل بالذكر وهو الاستعانة وهي من عبادة الله؛ ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة؛ إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونته.

قال مقاتل:"يعني: أمر العباد يرجع إلى الله يوم القيامة وذلك قوله «وإلى الله ترجع الأمور» يعني أمور العباد".

قال ابن أبي زمنين: أي: "يوم القيامة".

=

=

قال البغوي: أي: "المعاد".

قال القرطبي:"أي: يوم القيامة، إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه".

قال السمعاني:"معناه: إليه يرجع أمر العباد فيجازيهم على الخير والشر".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: عواقب الأمور كلها ترجع إليه يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول: وإلى الله مَعَادُ كل عامل وعمله، وهو مجازٍ جميعَهم بأعمالهم".

قال الزمخشري:"فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك، فينتقم لك منهم".

قال السعدي: أي: "من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب".

قال الصابوني:"أي: علمُ ما غاب وخفي فيهما، كلُّ ذلك بيده وبعلمه".

عن ابن جريج: "{وإليه يرجع الأمر كله}، قال: فيقضي بينهم بحكمه بالعدل".

وقال أبو العالية: "يرجعون إليه بعد الحياة".

قرأ نافع وحفص: «يرجع» بضم الياء وفتح الجيم: أي: يرد. وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الجيم، أي: يعود الأمر كله إليه حتى لا يكون للخلق أمر.

قوله تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [هود: ١٢٣]، أي:"فاعبده -أيها النبي- وفوِّض أمرك إليه".

قال مقاتل:"{فاعبده}، يعني: وحده، {وتوكل عليه}، يقول: وثق بالله".

قال أبو الليث السمرقندي:"يقول: أطعه واستقم على التوحيد، [و] فوض إليه جميع أمورك".

قال الطبري:"يقول: فاعبد ربك يا محمد، وفوِّض أمرك إليه، وثق به وبكفايته، فإنه كافي من توكل عليه".

قال الزمخشري:"فإنه كافيك وكافلك".

قال القرطبي:"أي: الجأ إليه وثق به".

=

=

قال السعدي:"أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله في ذلك".

قال الصابوني:"أي: اعبد ربَّك وحده، وفوّضْ إليه أمرك، ولا تعتمدْ على أحدٍ سواه، فإنه كافي من توكَّل عليه".

قال الفخر الرازي:"أن أول درجات السير إلى الله تعالى هو عبودية الله، وآخرها التوكل على الله، فلهذا السبب قال: {فاعبده وتوكل عليه}".

قوله تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [هود: ١٢٣]، أي:"وما ربك بغافل عما تعملون من الخير والشر، وسيجازي كلًا بعمله".

قال مقاتل:"هذا وعيد".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: بما يفعل الكفار".

قال القرطبي:"أي: يجازي كلا بعمله".

قال السمعاني:"يعني: أنه لا يغيب عنه شيء من أعمال العباد وإن صغر".

قال السعدي: أي:"من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه، وجزاؤه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما ربك، يا محمد، بساه عما يعمل هؤلاء المشركون من قومك، بل هو محيط به، لا يعزب عنه شيء منه، وهو لهم بالمرصاد، فلا يحزنك إعراضهم عنك، ولا تكذيبهم بما جئتهم به من الحقّ، وامض لأمر ربّك، فإنك بأعيننا".

عن سعيد بن جبير:"{عما تعملون}، يعني: بما يكون".

عن كعب، قال: "خاتمة «التوراة»، خاتمة «هود»".

قال ابن عطية:"هذه آية تعظم وانفراد بما لا حظ لمخلوق فيه، وهو علم الغيب، وتبيين أن الخير والشر، وجليل الأشياء وحقيرها- مصروف إلى أحكام مالكه، ثم

=

=

أمر البشر بالعبادة والتوكل على الله تعالى، وفيها زوال همه وصلاحه ووصوله إلى رضوان الله".

- قال القاسمي: وقوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى. فإن الله ﷻ إذا كان عالما بما يعملونه، مطلعا عليه غير غافل عنه، كان لمجازاتهم بالمرصاد.

- والغفلة صفة منفية فيجب نفيها عن الله مع إثبات ضدها، فالله لا يغفل لكمال علمه.

قرأ نافع وعاصم في رواية حفص: «وإليه يرجع الأمر كله» بضم الياء ونصب الجيم، على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون: بنصب الياء وكسر الجيم، فيكون الفعل للأمر، وقرأ نافع وعاصم، في رواية حفص: «عما تعملون» بالتاء على وجه المخاطبة، وقرأ الباقون بالياء على وجه المغايبة.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها قوله تعالى: (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) (هود: ١٠)، وفي سورة حم السجدة: (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) (فصلت: ٥٠)، للسائل أن يسأل عن زيادة (منا) وزيادة (من) في سورة السجدة وسقوطهما معا في سورة هود؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه لم يرد في هود ما يستدعي تلك الزيادة، وأما سورة السجدة فتدم فيها قوله: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي) (فصلت: ٤٧) قطعا بهم وتنبيهًا على سوء مرتكبيهم، وقد عاينوا الحق، وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل من شركاء الله سبحانه، وظنوا أي أيقنوا وعلموا أنه لا محيص لهم ولا مفر، فلما تقدم ذكر الشركاء قال تعالى: (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا)، فنبه تعالى بقوله (منا) على أن لا شريك له، ولا معطي غيره، وأنه لا يأتي العبد شيء من سواه سبحانه.

=

=

ولما لم يتقدم في سورة هود ذكر لذلك لم يرد فيها التنبيه بقوله: (منا) وأما زيادة: (من) في قوله: (مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ) فمناسب لإطناب هذا الغرض في هذه السورة، فناسب ذلك الزيادة. ولإيجاز هذا القصد في سورة هود ناسبه سقوط (من)، فجاء كل على ما يناسب ويجب، ولم يكن ليلائم كلا من الموضوعين إلا ما ورد فيه، والله أعلم.

الآية الثانية منها: (بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ) (هود: ١٧)، وفي آخر السورة إثر قوله: (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) (هود: ١٠٨)، (فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ) (هود: ١٠٩)، وفي سورة السجدة: () وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ) (السجدة: ٢٣) بثبات نون تكن، وحذفها في آيتي سورة هود فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن العرب تصرفت في يكون عند دخول الجازم تصرفًا لم تفعله في نظائرها وما يشبهها، وبسط هذا في مظانه، فيكون الوجه في يكون عند دخول الجازم تسكين النون، فتحذف الواو عند التقاء الساكنين كما ورد في سورة السجدة، إلا أن حذف النون في يكون من فصيح كلامهم ما لم تكن متحركة، فإن كانت متححركة لم تحذف لقوتها بالحركة وإن كانت عارضة كقوله تعالى: (لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا...) (البينة: ١)، ولا تحذف هذه إلا في الشعر نحو قوله:

لم يك الحق سوى أن هاجه رسم دار قد تعفَّى بالسرْ فورد في سورة هود على ما اعتمدوه من تخفيف هذا اللفظ ليناسب بذلك إيجاز الكلام المتعلق بقوله: (فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ) (هود: ١٧)، والمتصل به تمامه تمام معنى المقصود وذلك قوله: (إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ) (هود: ١٧)، وكذلك قوله في آخر السورة: (فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ) (هود: ١٠٩) إلى قوله: (غَيْرَ

=

=

مَنقُوصٍ) (هود: ١٠٩).

وورد في سورة السجدة على أصل الكلمة قبل حذفها فقيل: (فَلا تَكُنْ)، ليجريذلك مع ما ورد في هذه السورة من طول الكلام المتعلق بقوله (فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ) (السجدة: ٢٣)، ألا ترى أن الكلام واحد إلى قوله: (فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (السجدة: ٢٥)، فنوسب الإيجاز بالإيجاز والطول بالطول والله أعلم.

الآية الثالثة منها قوله تعالى: (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ) (هود: ٢٢)، وفي سورة النحل: (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (النحل: ١٠٩)، للسائل أن يسأل عن وجه تخصيص آية هود بقوله: (الأَخْسَرُونَ) وآية النحل (بقوله) (الْخَاسِرُونَ)؟ (وهل كان يمكن العكس)؟

والجواب: أن آية هود تقدمها (ما يفهم) المفاضلة، ألا ترى أن قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ) (هود: ١٧)، الآية يفهم من سياقها أن المراد: أفمن كان على بينة من ربه كمن كفر وجحد (وكذب) الرسل؟ ثم أتبع هذا بقوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) (هود: ١٨)، فهذا صريح مفاضلة، ثم أستمرت الآي في وصف من ذكر وعرضهم على ربهم وقول الأشهاد: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) (هود: ١٩، ١٨) إلى ذكر مضاعفة العذاب لهم، وأستمر ذكرهم إلى قوله: (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الأَخْسَرُونَ) (هود: ٢٢)، فناسب لفظ الأخسرين بصيغة التفاضل، ومقصود التفاوت ما تقدم مما يفهم ذلك من قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) (هود: ١٧)، وأفعل من كذا في قوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى) (هود: ١٨)، فالأيات من لدن قوله (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) إلى قوله: (هُمْ الأَخْسَرُونَ) (مبنيات على ما ذكرناه غير خارجة عن هذا المقصود، ولو ورد هنا

=

((الخاسرون)) مكان ((الأخسرين)) لتنافى النظم وتباين السياق ولم يتناسب.

وأما آية (النحل) فلم يقع قبلها أفعل التي للمفاضلة والتفاوت ولا ما يفهمهما، وإنما قبلها: (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لا يَهْدِيهِمْ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ) (النحل: ١٠٥، ١٠٤)، وبعد هذا (وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (النحل: ١٠٧)، وبعد هذا (وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ)، فتأمل هذه الفواصل واتفاقها في اسم الفاعل المجموع جمع السلامة في قوم متفقي الأحوال في كفرهم إلى أن ختم وصفهم وما قصد من ذكرهم بقوله: (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ)، فتناسبت الآي في السياق والفواصل، وختمت بمصل ما به بدأت، ولم يكن ليناسب ما ورد هنا لفظ المفاضلة، إذ ليس في الكلام ما يستدعي ذلك لا من لفظه ولا معناه، ووضح إختصاص كل من العبارتين بمكانة، وإن العكس لا يلائم، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة هود قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ) (هود: ٢٨)، في قصة صالح بعد: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً) (هود: ٦٣)، للسائل أن يسأل عن مجاوبة كل واحد من هذين النبيين الكريمين لقومه، لم تقدم المجرور في قول صالح عليه السلام (وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً) على المفعول الثاني من مفعولي أتى التي هو رحمة والوجه تأخيره لأنه فضله كما تقدم متأخرا في قول نوح عليه السلام (وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)؟

والجواب على ذلك: أن قوم صالح، عليه السلام، بالغوا في أساءت الجواب حين قالوا: (قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) (هود: ٦٢)، أي قد كنت مرجوًا أن تسود فينا حتى نقطع عن رأيك ونرجع إليك من أمورنا، فرموا مقامه النبوي بحط مرتبته عنهم، فلما بالغوا في إساءة الجواب جاوبهم، عليه السلام، ردا لمقالهم الشنيع بقوله: (أَرَأَيْتُمْ إِنْ

=

كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً) (هود: ٦٣)، ولا شك أن عَلَيْهِ السَّلَامُ كذلك، وأنه على بصيرة من أمره، ولكنه خاطبهم على ما يجري في مناظرة من فرض ما لا يعتقده المناظر على حسب نطقه، ولكنه يستنزل بذلك مناظرة ليقيم الحجة عليه، فيقول هب كذا على ما تقوله، فعلى هذا جرى قول النبي الكريم (أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)، أي كيف ترون إن كنت على واضحه وعلى يقين من ربي وآتاني منه رحمة فعصيته بموافقتكم، فإن فعلت ذلك فمن ينصرني ويمنعني من عذابه، فخاطبهم عَلَيْهِ السَّلَامُ بطريقة فرض هذا: إن كان كذا، وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ العليم بحاله الجليل، وعلى بينة من ربي، وأكد بتقدم المجرور في قوله (وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً)، لما يحرز تقديمه من التأكد ويعيه مفهومه من أن الرحمة منه سبحانه لا يشرك فيها غيره، فهو مخصوص لا يحصل مع تأخيره. فتقديم هذا الضمير المجرور كتقديمه في قوله سبحانه: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (الأخلاص: ٤)، وقد تقدم مثله في إنشاد سيبويه (رحمة الله عليه): لتقربن قربًا لجذيا ما دام فيهن فصيل حيا

فلما بالغوا في قبح الجواب بالغ، عَلَيْهِ السَّلَامُ في رد مقالهم، فقدم المجرور لتأكيد أن الرحمة من عند الله تعالى: (وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً).

ولما لم يكن في مراجعة قوم نوح مثل هذا في شناعة الجواب، لأن أقصى المفهوم من قولهم: (مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا)، إلحاقه بهم ومماثلته إياهم، وكلهم يقولون لو كنت رسول لكنت من الملائكة ولم تكن لتماثلنا. فلم يكن في قول هؤلاء ما في قول قوم صالح، فجرى جوابه، عَلَيْهِ السَّلَامُ، على نسبة ذلك فقال: (وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)، فأتى بالمجرور مأخرًا في محله على ما يجب، حيث لا يقصد في إحراز المفهوم ما قصد في الآية الأخرى، فورد كل على ما يلائم، والله أعلم.

الآية الخامسة من سورة هود قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) (هود: ٤٠)، وفي

=

=

سورة: ((قد أفلح المؤمنون)) (فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ...) (المنؤمنون: ٢٧). للسائل أن يسأل عن وقله في سورة هود (قُلْنَا احْمِلْ) وفي السورة الثانية (فَاسْلُكْ) والقصة واحدة فهل ذلك بمقتض لكل واحد من الموضوعين بما وقع فيه؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن لفظ احملأوسع مواقع في اللغة وأكثر تصرفًا في الكلام تقول: حملت الشيء إلى فلان، وحملته على كاهلي، وحملت العلم عن فلان، وحمل فلان الأمانة، وحمله الغضب على كذا، وحمِل الفارس على صاحبه، وحملت المرأة والشجر، ولا تقول في شيء من هذا سلك إلا أن يكون المحصور فيه حسبما تعاقب سلك وحمل إن لم يعرض في المعنى ما يمنع. وأما سلك فإن العرب تقول: سلكت الشيء في الشيء وأسلكته أي أدخلته قال الله تعالى: (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ) (القصص: ٣٢)، أي أدخلها، وقال تعالى: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ) (المدثر: ٤٢) أي ما أدخلكم، وقال تعالى: (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) (الجن: ١٧) أي ندخله فيه، وكل ما يخرج سلك عن هذا المعنى من الدخول حقيقة ومجازًا، ففيها من حيث معنها الخصوص، وأما حمل ففيها اتساع لا يكون في سلك. فوجه ورودها في سورة هود مناسبتها من حيث المعنى من حيث ما اقترن بها من لفظ: ((قلنا))، فطال الكلام لفظا مع ما أشرنا إليه من سعة المحامل، وإن لم يرد جميعها هنا، لكن ناسب مجموع هذه العبارة ما ورد في سورة هود من إستيفاء قصة نوح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وطول الكلام بذلك.

وأما آية المؤمنون ففي قصة نوح فيها إيجاز وإجمال، إلا ترى أنها في كلمها وعدد حروفها - أعني آية هود - على الضعف أو أطول مما في سورة المؤمنون، فلذلك ورد في سورة المؤمنون لفظ ((أسلك)) لإيجازه من حيث معناه وعروه عن (إقتران) لفظ ((قلنا)) أو غيره مما يحرز الطول، بخلاف ما في سورة هود. ومما

=

=

يعضد هذا المقصود ويشهد له قوله تعالى في سورة هود: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا) (هود: ٤٠)، وفي سورة المؤمنون: (فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا) (المؤمنون: ٢٧). فتأمل تنظير ((حتى)) وهي على أربعة أحرف بفاء التعقيب في سورة المؤمنون في قوله: ((فإذا))، وإنما الفاء على حرف واحد، فنوسب بالفاء موضعها المبنى على الإيجاز، وبحتى موضعها المبني على الاستيفاء والطول، فقد وضح ورود كل من ما في السروتين على ما يجب ويناسب، والله سبحانه أعلم بما أرد.

الآية السادسة من سورة هود: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) (هود: ٥٨)، وقال في قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) (هود: ٩٤)، فعطفت لما على ما قبلها بواو النسق في هذين الموضوعين وخالفت قصة صالح وقصة لوط، عليهما السلام، في الحرف المعطوف به هذه الجملة المصدرة بحرف الوجوب فقيل في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) (هود: ٦٦)، وفي قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) (هود: ٨٢)، بعطف لما على ما قبلها من هتين الآيتين بفاء التعقيب، فللسائل أن يسأل عن وجه اختصاص آيتي هود وشعيب بالواو وآيتي صالح ولوط، عليهما السلام، (فاء التعقيب؟ وهل ذلك بواجب؟).

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آيتي صالح وهود ورد فيهما ما يقتضي معناه أن يربط بالفاء المقتضية التعقيب، أما قصة صالح منهما فتقدمها قوله تعالى: (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ) (هود: ٦٥)، فكأن قد قيل: فلما انقضت، فالموضوع للفاء لمقصود التعقيب. ومثل هذا من غير فرق قوله تعالى في قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) (هود: ٨١)، ولا شك أن المعنى يستدعي تقدير فلما أصبح تحقيقا لصدق الوعيد، وإعقابًا لا يتحصل بغير الفاء، فهذا

=

=

يوجب خصوص الفاء بهذين الموضعين. وأما قصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلم يرد فيها ما يستدعي تعقيبًا، بل قبلها ما يقتضي أن ينسق ما بعده عليه بواو العطف، وذلك قوله تعالى مخبراً عن قوم هود: (وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا) (هود: ٥٧)، ثم قال: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) (هود: ٥٨)، فعطف هذه الجمل بعضها على بعض بما يعطي ذلك، ويناسب العطف بالواو، وعلى هذا وردت آية شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فورد قبلها: (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) (هود: ٩٣) ثم بعد ذلك: (وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) (هود: ٩٣)، وليس هذا ما يقتضي تعقيبًا بل بابه حمل الآي بعضها على بعض بحرف التشريك، فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم بما أراد.

الآية السابعة قوله تعالى في قصة هود: (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً) (هود: ٦٠)، وفي قصة موسى بعد من هذه السورة: (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً) (هود: ٩٩) فجمع في قصة هود بين اسم الإشارة ولفظ الدنيا الجاري عليه وصفا، وأكتفي في قصة موسي باسم الإشارة دون التابع، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟ وهل كان يجوز عكس الوارد؟

والجواب عن ذلك: أن الوارد عليه كلا من الآيتين لا يحسن خلافه ولا يناسب، وذلك لوجهين: أحدهما أن قصة هود، عَلَيْهِ السَّلَامُ، في هذه السورة أكثر استيفاء من قصة موسي عَلَيْهِ السَّلَامُ، بكثير فناسب الطول الطول والإيجاز الإيجاز، ولا يليق العكس. والوجه الثاني أن قوله تعالى في قصة هود: (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً) (هود: ٦٠)، وارد على الأصل من الجمع بين التابع نعتًا أو عطف بيان وبين متبوعه، وجاء في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ((وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً) على حذف الوصف للإكتفاء باسم الإشارة، وكل فصيح، فجيء بما هو في الأصل أولًا، ثم جيء ثانيًا بما هو ثان عنه على ما ينبغي، ولا يحسن العكس لأن ذلك شبه التفسير وبابه أن يتقدم،

=

=

فما يحذف يكون لما تقدم من ما يدل عليه ويحذف لما سيأتي بعد إلا في قليل نحو قوله: نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض، والرأي مختلف، وهذا الوجه كاف. والوجه الأول أنسب لراعي النظم، والله أعلم.

الآية الثامنة من سورة هودقوله تعالى: في قصة صالح: (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍقَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (هود: ٦٢)، وقال في سورة إبراهيم عليه السلام: (وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (إبراهيم: ٩)، للسائل أن يسأل عن ثبات النونين وهما للمضاعفة الداخلة للتأكيد ونون الضمير في ((إننا)) في سورة هود (وسقوط إحدى النونين في سورة إبراهيم من ((إنّا))؟ وعن إفراد النون في سورة هود: (في)) (تَدْعُونَا) والحاق نون ثانية في (تَدْعُونَنَا) من سورة إبراهيم؟

والجواب عن ذلك: أن ((إننا)) الواردة في سورة هود المضموم فيها إلى أن المشددة الناصبة للإسم والرافعة للخبر نون الضمير المنصوب وارده على ما يجب وعلى الأصل في إتصال الضمير المنصوب، ثم يجوز حذف إحدى المضاعفين تخفيفًا فنقول: (إنا) فنكتفي بالضمير عن النون المحذوفة، وذلك من فصيح كلامهم، والأصل الأول، وإذا تقرب هذا فاعلم أن الضمير المتصل بالفعل في (تدعونا) في سورة هود ضمير مفرد مستتر وهو ضمير صالح، عليه السلام، ورفع هذا الفعل بالضمة المقدرة في الواو من (تدعونا) ضمير قوم صالح. ولا نون هنا غير هذه، وأما قوله في سورة إبراهيم عليه السلام: (مِمَّا تَدْعُونَنَا) فالواو ضمير الرسل المقول لهم: (إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ)، ورفع هذا الفعل بالنون الأولى والنون الثانية ضمير المدعوّين، فلابد هنا من النونين في (تدعوننا)، فلما لزمت النونان هنا جيء

=

=

معهما بإن المحذوفة النون لتقارب اللفظ أعني قرب إن من تدعوننا، فكان في مظنة الإستثقال فحسن الحذف حيث يجوز فقيل: (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (إبراهيم: ٩)، ولما لم يكن في (تدعونا) في سورة هود إلا نون واحدة وهي نون الضمير لم يستثقل، فجيء بإننا على الأصل فجاء كل على ما يجب، والله أعلم بما أراد.

الآية التاسعة من سورة هود، عَلَيْهِ السَّلَامُ، قوله تعالى في قصة صالح: (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (هود: ٦٧)، وقال في هذه السورة في قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (هود: ٩٤)، يسأل عن سقوط علامة التأنيث من الفعل في قوله: (وَأَخَذَ) في قصة صالح وثبوتها فيه في قصصة شعيب مع التساوي في الفاعل وهي الصيحة والتساوي في الفصل الواقع بين الفعل وفاعله الرافع له؟

والجواب عن ذلك: أن التأنيث على ضربين حقيقي وغير حقيقي، فالحقيقي لا تحذف تاء التأنيث من فعله غالبًا إلا أن يقع فصل نحو قام اليوم هند، وكلما كثر الفصل حسن الحذف، ومن كلامهم حضر القاضي اليوم امرأة، والإثبات مع الحقيقي أولى ما لم يكن جمعًا. وأما التانيث غير الحقيقي فالحذف فيه مع الفصل حسن، قال تعالى: (فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى) (البقرة: ٢٧٥)، وهو كثير، فإن كثر الفصل ازداد حسنًا، (ومنه) (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ)، فالحذف والإثبات هنا جائزان والحذف أحسن، فجاء الفعل في الآية الأولى على الأولى، ثم ورد في قصة شعيب وهي الثانية بإثبات علامة التأنيث على الوجه الثاني، جمعًا بين الوجهين إذ الآيتان في سورة واحدة وتقدمها الأولى على ما ينبغي، والله أعلم. وهذا ما لم يكن الفاعل ضمير مؤنث فله أحكام تخصه.

=

=

الآية العاشرة (من سورة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ) قوله تعالى: (أَلَآ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ) (هود: ٦٨) وقرئ ثمود في الموضوعين بالوجهين من الصرف وعدمه إلا أن أكثر القراء على الصرف في الأول ومنعه في الثاني، فيترتب على قراءة الأكثرين سؤال وهو لم صرف في الأول في قراءة غير حفص وحمزة ومنع الثاني الصرف في قراءة الجماعة غير الكسائي؟ ووجه ذلك، والله أعلم: التفات شيء في خفاء يراعي مثله وذلك أن الاسم النكرة إذا تكرر وأريد بالثاني الأول ولم يرد غيره لزمت الألف واللام التي للعهد فصار معرفة تقول: رأيت رجلًا فضربت الرجل تريد المذكور ولا تعيده نكرة بوجهه، ولك أن تأتي به مضمرًا فتقول رأيت رجلًا فضربته فإذا تكلمت (بهذا) في المعرفة فالأكثر أن تأتي به مضمرًا أو موصوفًا كقولك المذكور أو ما لا يخرج عن الأول حتى لا يظن أنك تريد سواه فتقول: رأيت زيدًا فكلمته ولقيت عمرًا فضربت المذكور أو ضربت عمرًا المذكور، والثاني المكرر أبدًا إن كان الأول نكرة كان هو معرفة بأداة العهد، وإن كان الأول معرفة كان الثاني أمكن في التعريف إذ قد يدخل الأول اشتراك لوجود أمثله ممن سمّي باسمه، أما الثاني فلا يدخله اشتراك من حيث هو إلا أن يسري له الاشتراك من الأول، (فقد) ثبت على كل حال أنه أبعد من الاشتراك والالتباس من الأول وذلك شفوف له عليه، فكأنه أعرف منه فإذا تكرر غيرر مضمر ولا منعوت وكان علمًا مما يجوز في مثله الوجهان من الصرف وعدمه وذلك الثلاثي الساكن الوسط، والعرب قد تصرفه لخفته ومنهم من يمنعه الصرف لوجود علتين ولا يراعى خفته، وقد أنشدوا عليه:

لم تتلفع بفضل مئزرها دعدٌ ولم تستق دعدُ في العلبِ

فصرف أولًا ولم يصرف آخر، فإذا كان أكد تعريفًا كان الوجه منع صرفه إشعارًا لتمكن تعريفه، إذ هذا الضرب من التعريف من موانع الصرف ولا اعتبار بما دونه

=

=

من المعارف في منع الصرف إلا لموانع أخر، فلهذا كان الثاني في قوله: (ألا بعدًا لثمود) أولى بمنع الصرف، والله أعلم، وعلى هذا ورد ما أنشدوه (من قوله): لم تتلفع بفضل مئزرها دعدٌ ولم تسق دعدٌ في العلبِ

فالمؤنث الثلاثي الساكن الوسط إذا لم يكن منقولًا عن مذكر فيه الوجهان الصرف وعدمه، إلا أن في اختصاص مكرره بالمنع تأنيس لما ذكرناه وإن لم ترد به الشواهد إذ باب هذا معروف ومفهوم لا توقف فيه.

الآية الحادية عشر: غ – قوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) (هود: ٧٧)، وفي سورة العنكبوت: (وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ) (العنكبوت: ٣٣) فوردت آية العنكبوت بزيادة (أن) بعد (لما) بخلاف آية هود، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

الجواب عنه، والله أعلم: أن (أن) هذه الخفيفة كثيرًا ما تزاد، وزيادتها على ضربين بقياس وغير قياس، فالذي بغير قياس نحو قوله:

كأن الظبية تعطو إلى وارث السلم فزيدت بعد كاف التشبيه بينها وبين مجهورها، وأما التي تزاد بقياس فبعد لما، ولما ورد في آية هود قوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) ثم ورد هذا اللفظ بجملته في سورة العنكبوت متكررًا بعينه ورد أولا بغير ((أن)) على الأصل، وورد ثانيا بزيادة أن على الثاني ليحصل (بين) التواردين ما يرفع تقصاقل اللفظ المذكور.

فإن قلت: فإنه قد تباعد ما بين الآيتين ومثل هذا ما يحصل فيه ما ذكرت، فإقول: لما كان اللفظ اللفظ وكان زيادة (أن) وعدم زيادتها هنا هينًا فصيحًا جيء بالجائزين معًا وتأخرت الزيادة إذ هي غير الأصل إلى المتأخر من الآيتين.

فإن قلت: إن قوله تعالى: (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ) (يوسف: ٩٦) لم يقع فيه تكرر

=

=

فلم زيد فيه أن ولم يأت على الأصل؟ قلت: لما كان مجيء البشير إلى يعقوب، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعد طول الحزن وتباعد المدة ناسب ذلك زيادة أن لما في مقتدى وصفها من التراخي، فورد كل من هذا على ما يجب، والله أعلم.

الآية الثانية عشر من سورة هود، عَلَيْهِ السَّلَامُ، قوله تعالى: (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ) (هود: ٨١)، وقال في سورة الحجر: (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) (الحجر: ٨٥) هنا ثلاثة سؤالات: أحدها (إلا أمراتك) في سورة هود، ولم يقع ذلك الإستثناء في الحجر، والثاني: ما ورد في الحجر قوله: (وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ)، والثالث قوله: (وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) ولم يذكر في سورة هود.

والجواب عن الأول: أن آية الحجر ورد قبلها قوله في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ *الُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) (الحجر: ٥٧ - ٦٠)، فلما ورد هنا استثناء المرأة وذكر حالها وقع بذلك الاكتفاء فلم يذكر في الآية بعد، إذ ذلك كله كلام متصل بعضه ببعض، ولم يتقدم لامرأة لوط، عَلَيْهِ السَّلَامُ، في سورة هود ذكر تحتيجة إلى استثنائها.

والجواب عن السؤال الثالث أن قوله في سورة الحجر: (وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) (الحجر: ٦٥) زيادة إخبار بما ليس في سورة هود، وقد تأخرت سورة الحجر عنها. فوفت بما لم يذكر في سورة هود، ومصل هذا لا سؤال فيه.

الآية الثالثة عشرغ - قولة تعالى: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) (هود: ٨٢)، وفي صورة الحجر: (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا

=

=

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) (الحجر: ٧٤)، ففي الأولى: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا) والضمير للقرية والمراد أهلها، وفي الثانية: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا) والضمير لقوم لوط فللسائل (أن يسأل) عن وجه اختلاف الضمير مع اتحاد المقصود؟ والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن كلا من الموضوعين مراعي فيه مناسبة ما تقدمه، ولما تقدم آية الحجر قوله تعالى: (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ) (الحجر: ٥٨)، فذكر قوم لوط موصوفين بالإجرام الموجب لهلاكهم فروعي هذا المتقدم فقيل: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا) (الحجر: ٧٤) ونظير هذا قوله تعالى في سورة الذاريات: (الُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ) (الذاريات: ٣٢ - ٣٣)، فقيل: (عليهم) لما تقدم (قوله): (إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ)، وأما آية هود فلم يتقدم فيها مثل هذا، فكتفى بضمير القرية فقيل: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا) (هود: ٨٢)، وأغنى ذلك عن ذكر المهلكين إذ هم المقصودون بالعذاب، فورد كل على ما يناسب، والله أعلم.

الآية الرابعة عشر من سورة هود قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) (هود: ٩٦ - ٩٧)، وقال في سورة غافر: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) (غافر: ٢٣ - ٢٤)، وقال في سورة الزخرف: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الزخرف: ٤٦)، وقد ذكر صاحب كتاب الدرة هذه الآيات الثلاث لستوائها في الافتتاح والمطالع وانفراد آيتي هود وغافر بزيادة قوله (وسلطان مبين)، ولم يذكر ذلك في آية سورة الزخرف، وقد ورد في مثل هذا أمثلة في العدد وإن خالفه في المطالع والافتتاح إلا أنها من ضربها وذلك قوله في سورة المؤمنون: (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا

=

=

قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ) (المؤمنون: ٤٥ – ٤٧)، وتقدم في سورة الاعراف: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا) (الاعراف: ١٠٣)، وفي سورة يونس: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ) (يونس: ٧٥)، فورد في سورة هود وفي سورة المؤمنون وسورة غافر زيادة قوله: (وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ) ولم تزدد هذه الزياده في السور الثلاث الآخر، وورد في سورة يونس وسورة المؤمنون ذكر تأييد موسي بأخيه هارون، عليهما السلام، ولم يرد ذلك في غيرهما، وأنفردت سورة المؤمنون بالجمع بين تأييده، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بأخيه وسلطان مبين، فللسائل أن يسأل عن توجيه ذلك كله لاتحاد الاخبار؟

والجواب عنه، والله أعلم: أنه حيث يذكر سوء رد المرسل اليهم وقبح جوابهم يقابل ابدا تأيده بأخيه أو عضده بالآيات مما يقتضي القهر والإرغام وهو المعبر عنه بالسلطان المبين فيكون ذلك مقابلة لشنيع مجاوبتهم وسوء ردهم بالجملة، فإنه إذا اجتمع افصاحهم بالتكذيب واستكبارهم جمع في التهديد المتقدم بين التأييد بهارون وسلطان مبين، وحيث يصرح بالتكذيب أو ما يعطيه بيانا كقوله: (فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) قدم ذلك التأييد بالسلطان (المبين)، وحيث تذكر صفتان محوتان على تكذيب من غير إفصاح يقدم ذكر التأييد بهارون، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما كان دون ما ذكر لم يذكر هارون ولا السلطان المبين، فمن ذلك قوله (فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) فإنه اخر تعالى عنهم بأنهم لم تجد عليهم البراهين ولا الآيات، إلا اتباع أمر فرعون، وقوله تعالى مخبراً عنهم في سورة المؤمنون بقوله: (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) (المؤمنون: ٤٦)، إلا ما تبع ذلك محكيا من قبيح قولهم: (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا) (المؤمنون: ٤٧ – ٤٨) وأخباره تعالى عنهم في سورة غافر في قوله: (سَاحِرٌ كَذَّابٌ) (غافر: ٢٤)، فهذه

=

=

المواضع لما ذكر فيها شنيع مرتكبيهم في تلقي دعاء موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، إياهم قدم تواطئه لسوء مرتكبيهم تأييده، عَلَيْهِ السَّلَامُ، السلطان المبين ليفيهم ذلك أخذهم وهلاكهم بسوء مرتكبهم، وقدم في سورة يونس تواطئه لما ذكر فيها من استكبارهم واجترامهم تأييد موسي بأخيه هارون، عليهما السلام، وذلك من السلطان المبين، ولما تضاعف المحكي من مرتكبيهم وقبيح مقالهم في سورة المؤمنون قدم في ذكر إرساله تأييده باخيه والسلطان المبين مقابلة للاخبار عنهم بقوله: (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا) (المؤمنون: ٤٦ - ٤٨)، فاخبر تعالى عنهم بالتكذيب والاستكبار والاجترام والعلو تامردا وعلوا وادعاء المماثلة لهم في البشرية الاختصار لإقدارهما العلية، فقوبل هذا الاسهاب من مقالهم السيء بالإطالة في ذكر التأييد ليتناسب الطرفان. أما حيث لم يرد ذكر السلطان فنجد جوابهم في ذلك دون ما تقدم من التشديد كقولهم في سورة الاعراف: (فَظَلَمُوا بِهَا) (الاعراف: ١٠٣)، وقوله في سورة الزخرف: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ) (الزخرف: ٤٧)، فليس موقع جوابهم في هاتين السورتين كموقع ما تقدم في الآيتين، فنوسب بين طرفي الإدعاء والجواب.

الآية الخامسة عشر (من سورة هود) قوله تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود: ١١٧)، وفي سورة القصص: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) (القصص: ٥٩)، للسائل أن يسأل عن (قوله في) أولى الآيتين: (وما كان ربك) وفي الثانية (وما كنا)، وعن قوله في الأولى: (ليهلك) بالفعل الداخلة عليه لام الجحود، وفي الآخر: (مهلك) و (مهلكي) بسم الفاعل، وعن قوله في الأولى: ((مصلحون)) وفي الثانية: ((حتى نبعث في أمها رسولا..) الآية

=

=

وفي الثالثة: ((إلا وأهلها ظالمون)) فتلك ثلاثة اسأله.
والجواب: أن آية هود تقدمها قوله تعالى (لَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) (هود: ١١٦)، أي فهلا كان منهم خيار وينهون عن الفساد والظلم، فلو كان منهم ذلك لما هلكوا: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود: ١١٧)، أي ما كان ليفعل بهم وإن وقع منهم ظلم ذلك كان فيهم مغير للظلم وناه عن الفساد ولكنهم كانوا كما أخبر تعالى عن المعتدين من بني إسرائيل في قوله تعالى عنهم: (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ) (المائدة: ٧٩)، وجيء بالفعل في قوله: (ليهلك) إشارة إلى التكرر بحسب ما يكون منهم، فلو كان في كل أمة وقرن بعد قرن من ينهي عن الفساد والظلم لما أخذ بذوي الظلم منهم ولكان تعالى يدفع بعضهم عن بعض، ولكن تكرر الفساد وعم كل قرن فتكرر عليهم الجزاء والأخذ، فأشار الفعل إلى التكرر ولم يكن الاسم ليعطي ذلك، وهذا كقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ) (الملك: ١٩) ولم يقل: وقابضات لما قصده من معنى التكرر، وأما قوله في سورة القصص: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا...) (القصص: ٥٩) فإنه تقدم هذا في قوله تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (القصص: ٥١) أي أتبعنا وولينا التذكار، ويشهد قوله تعالى: (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) (فاطر: ٢٤)، وقوله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) (الإسراء: ١٥)، فلما أعلم سبحانه تتابع التذكار وتعاقب الإنظار قال: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا) (القصص: ٥٩)، ونسب هذا ذكر اسم الفاعل لأنه قصد ذكر الاتصاف بهذا ولم يقصد التكرر ولم يكن حاصله، وقال هنا وفي آية هود: (وما كان ربك) بإضافة اسم الرب جل وتعالى إلى ضمير نبينا صلي الله عليه وسلم المخاطب بهذه

=

سورة يوسف[(١)]

=

ملاطفة لهذا النبي ﷺ وتأنيسًا له ولأمته وإشعارا بعظيم حظوته ومنزلته لديه سبحانه، ثم اتبع تعالى هذا بقوله: (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) (القصص: ٥٩)، فأخبر تعالى أنه ما أهلكهم إلا بعد استحقاق جميعهم العذاب وتساويهم في الظلم وقيل في هذه الآية الأخيرة: (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى) لئلا يتكرر اللفظ بعينه مع الاتصال والقرب وليس من مواضعه، وقد حصل جواب الاسئلة الثلاثة وبيان خصوص كل آية منها بمواضعها، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٢٥٣-٢٦٥).

(١) اختلف أهل التفسير في وقت نزول السورة على قولين:

أحدهما: أنها مكِّيّة كلها. قاله ابن عباس، وابن زبير، ومقاتل، وبه قال ابن قتيبة، وقال السيوطي، القرطبي، وابن كثير.

قال الفيروزآبادي:"هذه السّورة مكِّيّة بالإجماع".

قال ابن الجوزي:"هي مكية بالإجماع".

والثاني: أنها مكية ماعدا الآيات: [١، ٢، ٣، ٧)، فمدنية، قاله الزمخشري.

نقل القرطبي: عن ابن عباس وقتادة أنها مكية: "إلا أربع آيات منها".

وروي عن ابن عباس قال: "سألت اليهود النبي ﷺ، فقالوا: حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف، فأنزل الله ﷻ: {الر تلك آيات الكتاب المبين}".

* عدد آياتها مائة وإحدى عشرة، بلا خلاف. وكلماتها أَلْف وسبعمائة وستّ وسبعون. وحروفها سبعة آلاف ومائة وست وستُّون. وما فيها آية مختلف فيها.

مجموع فواصل آياتها يجمعها قولك (لم نر). منها آية واحدة على الَّلام: {قَالَ الله

=

=
على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}.

* سميت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة: «سورة يوسف»، ولا يعرف لها اسم غير ذلك.

ووجه تسميتها بسورة «يوسف»، لاشتمالها على قصّة يوسف عليه السلام كلها، ولم تذكر قصته في غيرها، ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة «الأنعام»، وذلك في قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الأنعام: ٨٤]، وكذلك في سورة «غافر»، في قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} [غافر: ٣٤].

* مقصود السّورة إجمالًا: عَرْض العجائب الَّتى تتضمّنها: من حديث يوسف ويعقوب، والوقائع الَّتى فى هذه القصّة: من تعبير الرّؤْيا، وحَسَد الإِخْوة، وحِيلهم فى التفريق بينه وبين أَبيه، وتفصيل الصّبر الجميل من جهة يعقوب، وبشارة مالك بن دعر بوجْدان يوسف، وبيْع الإِخوة أَخاهم بثمن بَخْس، وعَرْضه على البيع والشراءِ، بسُوق مصر، ورغبة زَلِيخَا وعزيز مصر فى شراه، ونظر زَلِيخَا إِلى يوسف، واحتراز يوسف منها، وحديث رؤية البرهان، وشهادة الشاهد، وتعيير النسوة زَليخا، وتحيّرهنّ فى حسن يوسف، وجماله، وحبسه فى السّجن، ودخول السّاقى والطَّبّاخ إِليه، وسؤالهما إِيّاه، ودعوته إِيَّاه إِلى التَّوحيد، ونجاة السّاقى، وهلاك الطَّبّاخ، ووصيّة يوسف للسّاقى بأَن يذكره عند رَبّه، وحديث رؤيا مالك بن الرّيان، وعجز العابرين عن عبارته، وتذكُّر السّاقى يوسف، وتعبيره لرؤياه فى السّجن، وطلب مالك يوسف، وإِخراجه من السّجن، وتسليم مقاليد الخزائن إِليه، ومَقْدَم
=

إِخوته لطلب المِيرة، وعهد يعقوب مع أَولاده، ووصيّتهم فى كيفيّة الدّخول إِلى مصر، وقاعدة تعريف يوسف نفسه لبنيامين، وقضائه حاجة الإِخوة، وتغييبه الصّاع فى أَحمالهم، وتوقيف بنيامين بعلَّة السّرقة، واستدعائهم منه توقيف غيره من الإِخوة مكانه، وردّه الإِخوة إِلى أَبيهم، وشكوى يعقوب من جَوْر الهجْران، وأَلم الفراق، وإِرسال يعقوب إِيّاهم فى طلب يوسف، وأَخيه، وتضرّع الإِخْوة بين يَدىْ يوسف، وإِظهار يوسف لهم ما فعلوه معه من الإِساءَة وعفوه عنهم، وإِرساله بقميصه صحبتهم إِلى يعقوب، وتوجُّه يعقوب من كَنْعَان إِلى مصر، وحوالة يوسف ذَنْب إِخوته على مكايد الشيطان، وشكره لله تعالى على ما خوّله من الْمُلْك، ودعائه وسؤاله حسن الخاتمة، وجميل العاقبة، وطلب السّعادة، والشَّهادة، وتعيير الكفَّار على الإِعراض من الحجّة، والإِشارة إِلى أَنّ قصة يوسف عِبْرة للعالمين فى قوله: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الألباب} إِلى آخر السّورة.

* المتشابهات: قوله: {إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} ليس فى القرآن غيره أَى عليم: علَّمك تأويلَ الأَحاديث، حكيم: اجتباك للرّسالة.

قوله: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} فى موضعين، وليس بتكرار؛ لأَنَّه ذكر الأَوّل حين نُعِى إِليه يوسف، والثَّانى حين رُفع إِليه ما جرى على بنيامين.

قوله: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} ومثلها فى القصص. وزاد فيها (واستوى)؛ لأَنَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أُوحى إِليه وهو فى البئر، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُوحى إِليه بعد أَربعين سنة. وقوله (واستوى) إِشارة إِلى تلك الزِّيادة. ومثله {وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} بعد قوله: {حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ}.

قوله: {مَعَاذَ الله} هنا فى موضعين، وليس بتكرار؛ لأَنَّ الأَوّل ذكره حين دعته إِلى

=

المواقعة، والثانى حين دُعى إِلى تغيير حكم السّرقة.

قوله: {قُلْنَ حَاشَ للهِ} فى موضعين: أَحدهما فى حضرة يوسف، حين نَفَين عنه البشرية بزعمهنَّ، والثانى بظهر الغَيب حين نَفَين عنه السّوءَ.

قوله: {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين} (فى موضعين) ليس بتكرار؛ لأَنَّ الأَوّل من كلام من صاحبى السّجن ليوسف، والثانى من كلام إِخوته له.

قوله: {ياصاحبي السجن} فى موضعين: الأَوّل ذَكَره يوسف حين عدل عن جوابهما إِلى دعائهما إِلى الإِيمان. والثانى حين عاد إِلى تعبير (رؤياهما)؛ تنبيهًا على أَنَّ الكلام الأَوّل قد تمّ.

قوله: {لعلي أَرْجِعُ إِلَى الناس لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ} كرّر (لعلِّى) مراعاةً لفواصل الآى. ولو جاءَ على مقتضى الكلام لقال: لعلىّ أَرجع إِلى النَّاس فيعلموا، بحذف النون على الجواب. ومثله فى هذه السّورة سواءً قوله: {لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا انقلبوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أَى لعلَّهم يعرفونها فيرجعوا.

قوله: {وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجِهَازِهِمْ} فى موضعين: الأَوّل حكاية عن تجهيزه إِيّاهم أَوَّل ما دخلوا عليه. والثانى حين أَرادوا الانصراف من عنده فى المرّة الثانية. وذَكَرَ الأَوّل بالواو؛ لأَنَّه أَوّل قَصَصهم معه، والثَّانى بالفاءِ، عطفًا على {وَلَمَّا دَخَلُوا} وتعقيبًا له.

قوله: (تالله) فى ثلاثة مواضع: الأَوّل يمين منهم أَنهم ليسوا سارقين، وأَنَّ أَهل مصر بذلك عالمون، والثَّانى يمين منهم أَنَّك لو واظبت على هذا الحزن والجَزَع تصير حَرَضًا، أَو تكونُ من الهالكين، والثالث يمين منهم أَنَّ الله فضَّله عليهم، وأَنَّهم كانوا خاطئين.

قوله: {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ} وفى الأَنبياءِ {وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ} بغير (مِن) لأَن (قبل) اسم للزَّمان السّابق على ما أُضيف إِليه، و (مِن) يفيد استيعاب الطَّرفين، وما

=

بسم الله الرحمن الرحيم[(١)]

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١).

{الر} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[(٢)] {تِلْكَ} هَذِهِ الْآيَات {آيَات الْكِتَاب} الْقُرْآن وَالْإِضَافَة بِمَعْنَى مِنْ {الْمُبِين} الْمُظْهِر لِلْحَقِّ مِنْ الْبَاطِل.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) .

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} بِلُغَةِ الْعَرَب {لَعَلَّكُمْ} يَا أَهْل مَكَّة {تَعْقِلُونَ} تَفْقَهُونَ

=

فى هذه السّورة للاستيعاب. وقد يقع (قبل) على بعض ما تقدم؛ كما فى الأنبياءِ، وهو قوله: {مَآ آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ} ثم وقع عقِبه {وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ} فحذف (مِن) لأَنَّه هو بعينه.

قوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرض} بالفاءِ. وفى الروم والملائكة بالواو؛ لأَنَّ الفاءَ يدلّ على الاتِّصال والعطف، والواو يدلّ على العطف المجرّد. وفى هذه السّورة قد اتَّصلت بالأَوّل؛ كقوله تعالى: {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالًا نوحي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرض فَيَنظُرُوا} حال مَن كذَّبهم وما نزل بهم، وليس كذلك فى الرّوم والملائكة.

قوله: {وَلَدَّارُ الآخرة خَيْرٌ} بالإِضافة، وفى الأَعراف {والدار الآخرة خَيْرٌ} على الصّفة؛ لأَنَّ هنا تقدّم ذكرُ السّاعة، فصار التقدير: ولدار السّاعة الآخرة، فحذف الموصوف، وفى الأَعراف تقدّم قوله: {عَرَضَ هاذا الأدنى} أَى المنزل الأَدنى، فجعله وصفًا للمنزل، والدّار الدّنيا والدّار الآخرة بمعناه، فأُجْرى مُجْراه. تأَمّل فى السّورة فإِنَّ فيها برهان أَحسنِ القصص. بصائر ذوي التمييز (١/ ٢٥٥-٢٦١).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

مَعَانِيه[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن سعد بن أبي وقاص؛ قال: أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله! لو قصصت علينا؟ فأنزل الله -تعالى-: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)}، فتلاها عليهم رسول الله ﷺ زمانًا فقالوا: يا رسول الله! لو حدثتنا؟ فأنزل الله: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)} [الزمر: ٢٣]، كل ذلك يؤمرون بالقرآن، قال خلاد -الراوي-: وزاد فيه حين قالوا: يا رسول الله! ذكرنا؛ فأنزل الله -تعالى-: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)} [الحديد: ١٦].

أخرجه الطحاوي في المشكل (١١٥٧)، وابن حبان (٦٢٠٩)، والضياء في المختارة (١٠٦٩)، وأبو يعلى (٧٤٠)، والبزار (١١٥٢، ١١٥٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ رقم ٢٠٩٨، ٢٠٩٩)، ابن أبي عاصم في المُذَكِّر والتذكير (رقم ٢٤)، والطبري في تفسيره (١٢/ ٩٠)، والواحدي في أسباب النزول (ص ١٨٢)، والحاكم (٢/ ٢٤٥) والحديث صححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وقال الحافظ في المطالب العالية (٤٠١٣): هذا حديث حسن، وصححه صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ٣٧٤ - ٣٧٥)، وقال الشيخ مشهور في تعليقه على كتاب الموافقات (١/ ٥٠): إسناده جيد، رجاله ثقات رجال مسلم؛ غير =

=

خلاد، وهو ثقة، وثقه ابن معين في رواية الدوري، وقال في رواية عثمان بن سعيد الدارمي: "لا بأس به"، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال أبو حاتم: "حديثه مقارب"، وأعلَّه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢١٩) بالحسين بن عمرو، وقال عنه: "وثقه ابن حبان، وضعّفه غيره، وبقية رجاله ثقات، والحسين بن عمرو توبع؛ كما يظهر لك من التخريج السابق.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قالوا: يا رسول الله! لو قصصت علينا؛ فنزلت: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٢/ ٩٠): ثني نصر بن عبد الرحمن الأودي ثنا حكام الرازي عن أيوب السختياني عن عمرو بن قيس الملائي عن ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف؛ لأن عَمرًا ذا لم يدرك ابن عباس؛ فهو منقطع.

وعن عون بن عبد الله؛ قال: ملّ أصحاب رسول الله مَلة؛ فقالوا: يا رسول الله! حدثنا، فأنزل الله عز وجل: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ} [الزمر: ٢٣]؛ ثم ملوا ملة أخرى، فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن؛ يعنون: القصص؛ فأنزل الله عز وجل: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)} هذه السورة، فأرادوا الحديث؛ فدلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص؛ فدلهم على أحسن القصص.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٢/ ٩٠)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٧/ ٢١٠٠)، وأبو نعيم في "الحلية" (٤/ ٢٤٨)، وأبو عبيد في "فضائل القرآن" (ص ٥٣، ٥٤) من طريق وكيع وحجاج وسفيان بن عيينة عن المسعودي عن عون به. وهذا إسناد ضعيف؛ لإعضاله، وأما ما يخشى من اختلاط المسعودي؛ فالراوي عنه هنا وكيع، وسماعه منه قديم.

=

=

وعن عبد الله بن مسعود؛ قال: قالوا: يا رسول الله! لو قصصت علينا؛ فنزلت: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٩٦) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} [يوسف: ١]، أي:"هذه آيات الكتاب البيِّن الواضح في معانيه وحلاله وحرامه وهداه".

عن سعد بن أبي وقاص؛ قال: أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله! لو قصصت علينا؟ فأنزل الله -تعالى-: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)}، فتلاها عليهم رسول الله ﷺ زمانًا فقالوا: يا رسول الله! لو حدثتنا؟ فأنزل الله: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)} [الزمر: ٢٣]، كل ذلك يؤمرون بالقرآن، قال خلاد -الراوي-: وزاد فيه حين قالوا: يا رسول الله! ذكرنا؛ فأنزل الله -تعالى-: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)} [الحديد: ١٦] أخرجه الطحاوي في المشكل (١١٥٧)، وابن حبان (٦٢٠٩)، والضياء في المختارة (١٠٦٩)، وأبو يعلى (٧٤٠)، والبزار (١١٥٢، ١١٥٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ رقم ٢٠٩٨، ٢٠٩٩)، ابن أبي عاصم في المُذَكِّر والتذكير (رقم ٢٤)، والطبري في تفسيره (١٢/ ٩٠)، والواحدي في أسباب النزول (ص ١٨٢)، والحاكم (٢/ ٢٤٥) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال الحافظ في المطالب العالية (٤٠١٣): هذا

=

=

حديث حسن، وصححه صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ٣٧٤ - ٣٧٥)، وقال الشيخ مشهور في تعليقه على كتاب الموافقات (١/ ٥٠): إسناده جيد، رجاله ثقات رجال مسلم؛ غير خلاد، وهو ثقة، وثقه ابن معين في رواية الدوري، وقال في رواية عثمان بن سعيد الدارمي: "لا بأس به"، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال أبو حاتم: "حديثه مقارب"، وأعلَّه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢١٩) بالحسين بن عمرو، وقال عنه: "وثقه ابن حبان، وضعّفه غيره، وبقية رجاله ثقات، والحسين بن عمرو توبع؛ كما يظهر لك من التخريج السابق.

وفي تفسير قوله تعالى: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} [يوسف: ١]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنها الآيات المتقدم ذكرها في السورة التي قبلها.

الثاني: الآيات التي في هذه السورة، ويكون معنى قوله تعالى) تلك آيات الكتاب المبين (أي هذه آيات الكتاب المبين.

الثالث: أن تلك الآيات إشارة إلى ما افتتحت به السورة من الحروف وأنها علامات الكتاب العربي، قاله ابن بحر.

قال الزمخشري:"{تلك}، إشارة إلى آيات السورة. و «الكتاب المبين»: السورة، أى: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم. أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر. أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم. أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف. فقد روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف".

أخرج ابن أبي حاتم عن خالد بن عرفطة قال: "كنت عند عمر ابن الخطاب إذ أتى برجل من عبد القيس، مسكنه بالسوس، فقال له عمر: أنت فلان ابن فلان

=

=

العبدي؟ قال: نعم، قال: وأنت النازل بالسوس، فضربه بقناة معه فقال العبدي: مالي؟ فقرأ عليه: {الر تلك آيات الكتاب المبين} إلى قوله: {وإن كنت من قبله لمن الغافلين}، فقرأها عليه ثلاث مرات فضربه ثلاث مرات، ثم قال له عمر: أنت الذي انتسخت كتاب دانيال؟ قال: نعم. قال: اذهب فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ولا تقرأه ولا تقرئه أحدا من الناس" قال ابن كثير: حديث غريب.

قوله (آيَاتُ) جمع آية، والآية العلامة، وسميت جمل القرآن آيات للإشارة إلى أنها في عظمتها وإعجازها ودلالتها القاطعة على الحق كأنها الآيات المعجزات التي كانت يزود بها الأنبياء.

(المبين) المظهر لطريق الحق موضّح له، بل لكل ما يحتاج الناس إليه. (يعني أن القرآن أظهر كل شيء يحتاج الناس إليه في دينهم ودنياهم).

وقيل: المراد بالمبين: البيّن، أي: الواضح الظاهر من أبان بمعنى بان أي: ظهر.

ولو قيل: إنه مبين بيّن فلا بأس.

والقاعدة: الكلمة إذا احتملت معنيين مساويين لا ينافي أحدهما الآخر وليس أرجح منه، فإنها تُحمل عليهما جميعًا.

- قال أبو السعود: قوله تعالى (المبين) من أبان بمعنى بان، أي: الظاهرِ أمرُه في كونه من عند الله تعالى وفي إعجازه بنوعيه لا سيما الإخبارُ عن الغيب، أو الواضحِ معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقُه ولا يلتبس لديهم دقائقُه لنزوله على لغتهم. أو بمعنى (بيّن) أي المبين لِما فيه من الأحكام والشرائعِ وخفايا المُلكِ والملكوتِ وأسرارِ النشأتين في الدارين وغيرِ ذلك من الحِكَم والمعارف والقصص.

- قال الرازي: وَإِنَّمَا وُصِفَ الْقُرْآنُ بِكَوْنِهِ مُبِينًا لِوُجُوهٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجِزَةٌ قَاهِرَةٌ وَآيَةٌ بَيِّنَةٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ.

=

=

وَالثَّانِي: أَنَّهُ بَيَّنَ فِيهِ الْهُدَى وَالرُّشْدَ، وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَلَمَّا بُيِّنَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِيهِ كَانَ الْكِتَابُ مُبِينًا لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ بُيِّنَتْ فِيهِ قِصَصُ الْأَوَّلِينَ وَشُرِحَتْ فِيهِ أَحْوَالُ الْمُتَقَدِّمِينَ.

- وقال ابن عطية: ووصفه ب (المبين) قيل: من جهة أحكامه وحلاله وحرامه، وقيل: من جهة مواعظه وهداه ونوره، وقيل: من جهة بيان اللسان العربي وجودته إذ فيه ستة أحرف لم تجتمع في لسان -روي هذا القول عن معاذ بن جبل- ويحتمل أن يكون مبينًا لنبوة محمد بإعجازه، والصواب أنه " مبين " بجميع هذه الوجوه.

قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [يوسف: ٢]، أي:"إنا أنزلنا هذا الكتاب على محمد بلسان عربي مبين".

فلغة العرب يجب أن توقر وأن تعظم لأنها لغة القرآن.

قال الزمخشري: أي:"أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض القرآن قرآنا، لأن «القرآن»: اسم جنس يقع على كله وبعضه".

وفي قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [يوسف: ٢]، وجهان:

أحدهما: إنا أنزلنا الكتاب قرآنًا عربيًا بلسان العرب، حكاه الماوردي عن الجمهور.

الثاني: إنا أنزلنا خبر يوسف قرآنًا، أي: مجموعًا عربيًا، أي: يعرب عن المعاني بفصيح من القصص وهو شاذ.

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: ٢].

لعلكم أيها المكلفون بالإيمان به، تعقلون معانيه، وتفهمون ألفاظه، وتنتفعون بهداياته، وتدركون أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام خالق القوى والقدر وهو الله ﷻ

=

=

قال ابن عباس: "يريد كي تفهموا".

قال الزمخشري: أي:"إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُه} [فصلت: ٤٤]".

- قال البيضاوي: قوله تعالى (لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) علة لإنزاله بهذه الصفة كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه، وتستعملوا عقولكم.

- وقال أبو السعود: قوله تعالى (لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أي: لكي تفهموا معانيَه طرًا وتحيطوا بما فيه من البدائع خُبْرًا وتطّلعوا على أنه خارجٌ عن طوق البشر منزَّلٌ من عند خلاق القُوى والقدر

فالله تعالى أخبر أن المقصود الأعظم من إنزال القرآن تفهمه وتدبره والعمل به.

- قال ابن كثير: قوله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات، وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وفي أشرف شهور السنة، فكمل له الشرف من كل الوجوه.

نزله بأشرف لغة. وهي لغة العرب.

وبأشرف ليلة: وهي ليلة القدر.

وأنزله مع أشرف الملائكة: وهو جبريل.

على أشرف مكان: وهو مكة.

على أشرف رسول: هو النبي ﷺ.

إذًا صار القرآن عربيًا ليفهم مراد الله تعالى منه.

وقد أقسم الله تعالى بذلك فقال (حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣).

{نَحْنُ نَقُصّ عَلَيْك أَحْسَن الْقَصَص بِمَا أَوْحَيْنَا} بِإِيحَائِنَا {إلَيْك هَـذَا الْقُرْآن وَإِنْ} مُخَفَّفَة أَيْ وأنه {كنت من قبله لمن الغافلين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ} [يوسف: ٣]، أي:"نحن نحدثك يا محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة، بأصدق كلام، وأحسن بيان، بإيحاءتنا إليك هذا القرآن المعجز".

وإنما كان قصص القرآن أحسن القصص، لاشتماله على أصدق الأخبار، وأبلغ الأساليب، وأجمعها للحكم والعبر والعظات.

والباء في قوله بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ للسببية متعلقة بنقص، وما مصدرية.

أي: نقص عليك أحسن القصص، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي هو في الذروة العليا في بلاغته وتأثيره في النفوس.

- قال ابن عاشور: وقصص القرآن أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه وإعجاز أسلوبه وبما يتضمّنه من العبر والحكم، فكلّ قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكلّ قصة في القرآن هي أحسن من كلّ ما يقصّه القاصّ في غير القرآن.

وليس المراد أحسن قصص القرآن حتى تكون قصّة يوسف عليه السلام أحسن من بقيّة قصص القرآن كما دلّ عليه قوله (بما أوحينا إليك هذا القرآن).

- قال ابن تيمية: وليس المراد بقوله (أحسن القصص) قصة يوسف وحدها بل هي مما قصه الله ومما يدخل في أحسن القصص ولهذا قال تعالى في آخر السورة (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في
=

=

الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون) (حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون).

فبين أن العبرة في قصص المرسلين وأمر بالنظر في عاقبة من كذبهم وعاقبتهم بالنصر. ومن المعلوم أن قصة موسى وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير كثير، ولهذا هي أعظم قصص الأنبياء التي تذكر في القرآن ثناها الله أكثر من غيرها وبسطها وطولها أكثر من غيرها؛ بل قصص سائر الأنبياء -كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين- أعظم من قصة يوسف ولهذا ثنى الله تلك القصص في القرآن ولم يثن قصة يوسف.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:.... وأما قصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم والواقع فيها من الجانبين فما فعلته الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه وإظهار آياته وأمره ونهيه ووعده ووعيده ومجاهدة المكذبين لهم والصبر على أذاهم هو أعظم عند الله ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه أولئك أولوا العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم).

فقصصهم أحسن من قصة يوسف؛ ولهذا ثناها الله في القرآن لا سيما قصة موسى. قال الإمام أحمد بن حنبل: أحسن أحاديث الأنبياء حديث تكليم الله لموسى. (الفتاوى).

=

=

- **قال القرطبي**: اختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص؟

فقيل: لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة؛ وبيانه قوله في آخرها (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب).

وقيل: سماها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم بعد الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه في العفو عنهم، حتى قال (لا تثريب عليكم اليوم).

وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين، والجن والإنس والأنعام والطير، وسير الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

وقال بعض أهل المعاني: إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة؛ انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته، وامرأة العزيز؛ قيل: والملك أيضا أسلم بيوسف وحسن إسلامه، ومستعبر الرؤيا الساقي، والشاهد فيما يقال؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير.

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ:"نحن نقص عليك" يا محمد،"أحسن القصص" بوحينا إليك هذا القرآن، فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية، وأنباء الأمم السالفة والكتب التي أنزلناها في العصور الخالية".

قال الزجاج: "أي: نبين لك أحسن البيان و «القاص»: الذي يأتي بالقصة على حقيقتها، بما أوحينا إليك هذا القرآن}، أي: بوحينا إليك هذا القرآن".

قال الماوردي:"أي: نبين لك أحسن البيان، و «القاصّ» الذي يأتي بالقصة على حقيقتها".

=

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ

=

عن قتادة: "{نحن نقص عليك أحسن القصص}، من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم، {وإن كنت من قبله لمن الغافلين}".

قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} [يوسف: ٣].

أي: وإن كنت (من قبله) أي: من قبل إيحائنا إليك هذه السورة (لمن الغافلين) عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط. كما قال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا).

قال تعالى (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين).

- الغفلة هنا معناها عدم العلم، فليست ذما للنبي ﷺ.

ومن معانيها: عدم القصد:

قال تعالى (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم).

ومن معانيها: الاعراض عن الحق إلى الباطل والاشتغال بالباطل.

قال تعالى (ولا تكن من الغافلين).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإن كنت يا محمد من قبل أن نوحيه إليك لمن الغافلين عن ذلك، لا تعلمه ولا شيئا منه".

قال الزجاج: "أي: من الغافلين عن قصة يوسف وإخوته، لأنه عليه السلام إنما علم ذلك بالوحي".

قال السمعاني:"أي: لمن الساهين عن هذه القصة وغيرها".

عن قتادة: "{وإن كنت من قبله لمن الغافلين}، أي: من قبل هذا القرآن".

لِي سَاجِدِينَ (٤).

اُذْكُرْ {إذْ قَالَ يُوسُف لِأَبِيهِ} يَعْقُوب {يَا أَبَتِ} بِالْكَسْرِ دَلَالَة عَلَى يَاء الْإِضَافَة الْمَحْذُوفَة وَالْفَتْح دَلَالَة عَلَى أَلِف مَحْذُوفَة قُلِبَتْ عَنْ الْيَاء {إنِّي رَأَيْت} فِي الْمَنَام {أَحَد عَشَر كَوْكَبًا وَالشَّمْس وَالْقَمَر رَأَيْتهمْ} تَأْكِيد {لِي سَاجِدِينَ} جُمِعَ بِالْيَاءِ وَالنُّون لِلْوَصْفِ بِالسُّجُودِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَات الْعُقَلَاء.

قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥).

{قَالَ يَا بُنَيّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاك عَلَى إخْوَتك فَيَكِيدُوا لَك كَيْدًا} يَحْتَالُونَ فِي هَلَاكك حَسَدًا لِعِلْمِهِمْ بِتَأْوِيلِهَا مِنْ أَنَّهُمْ الْكَوَاكِب وَالشَّمْس أُمّك وَالْقَمَر أَبُوك {إنَّ الشَّيْطَان لِلْإِنْسَانِ عَدُوّ مُبِين} ظَاهِر الْعَدَاوَة[1].

---

(١) قوله تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا} [يوسف: ٤]، أي:"اذكر -أيها الرسول- لقومك قول يوسف لأبيه: إني رأيت في المنام أحد عشر كوكبًا".

قال السعدي: فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة.

وهكذا إذا أراد الله أمرا من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلا لأمره، واستعدادا لما يرد على العبد من المشاق، لطفا بعبده، وإحسانا إليه، فأولها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراما وإعظاما، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض، وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، =

=

الذين سجدوا له وصاروا تبعا له فيها.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإن كنت يا محمد، لمن الغافلين عن نبأ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إذ قال لأبيه يعقوب بن إسحاق: {يا أبت إني رأيت أحدَ عشر كوكبًا} ؛ يقول: إني رأيت في منامي أحد عشر كوكبًا".

قال ابن عباس:"كانت رؤيا الأنبياء وحيًا".

قال مقاتل:"هبطوا إلى الأرض من السماء".

قال البغوي:"أي: واذكر إذ قال يوسف لأبيه، و «يوسف» اسم عبري عُرّب، ولذلك لا يجري [عليه الإعراب]، وقيل: هو عربي".

سئل أبو الحسن الأقطع عن يوسف؟ فقال: «الأسف: الحزن، والأسيف: العبد، واجتمعا في » يوسف، فلذلك سمي يوسف، لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-".

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: "إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم".

وفي قوله تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا} [يوسف: ٤]، وجهان:

أحدهما: أنه رأى أبويه وإخوته ساجدين له، فكنى عن ذكرهم، وهذا مروي عن ابن عباس ، وقتادة.

الثاني: أنه رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ساجدين له فتأول الكواكب إخوته، والشمس أباه، والقمر أمه، قاله قتادة ، والضحاك ، وسفيان ، وابن جريج ، وابن زيد ، وهو قول الأكثرين.

قال ابن زيد، في قوله:"{يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبًا} الآية، قال: أبواه وإخوته. قال: فنعاه إخوته، وكانوا أنبياء ، فقالوا: ما رضي أن يسجد له إخوته حتى

=

=

سجد له أبواه! حين بلغهم".

قال مقاتل:"فالكواكب الأحد عشر إخوته والشمس أم يوسف وهي راحيل بنت لاتان، ولاتان هو خال يعقوب، والقمر أبوه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم".

قال قتادة:"الكواكب: إخوته، والشمس والقمر: أبواه".

وحكي الثعلبي عن قتادة: "الشمس أبوه والقمر خالته، وذلك أن أمه راحيل كانت قد ماتت".

وقال السدي: "الشمس أبوه، والقمر خالته، لأن أمه كانت قد ماتت".

قال الواحدي:"قال وهب والمفسرون: رأى يوسف وهو ابن اثنتي عشرة سنة أن أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر سجدن له".

قال ابن كثير:"وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلا سواه والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه رُوي هذا عن ابن عباس، والضحاك وقتادة وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه: {وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [يوسف: ١٠٠]".

قرأ أبو جعفر وابن عامر {يا أبت} بفتح التاء في جميع القرآن على تقدير: يا أبتاه.

وقرأ الآخرون: {يا أبت} بكسر التاء لأن أصله: يا أبت، والجزم يحرك إلى الكسر.

قوله تعالى: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [يوسف: ٤]، أي:"ورأيت في المنام الشمس والقمر ساجدةً لي مع الكواكب".

قال الطبري:"يقول: والشمس والقمر رأيتهم في منامي سجودا".

وفي إعادة قوله: {رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [يوسف: ٤]، وجهان:

=

=

أحدهما: تأكيدًا للأول لبعد ما بينهما قاله ابن الأنباري ، اولزجاج ، والطبري.
قال ابن الأنباري: لما تطاول الكلام بين الرؤية والسجود أعيدت الرؤية مع السجود؛ ليكون ذلك أكشف للمعنى وأدل على التوكيد والبيان".
الثاني: أن الأول رؤيته لهم والثاني رؤيته لسجودهم.
وفي قوله «ساجدين»، وجهان:
أحدهما: أنه السجود المعهود في الصلاة إعظامًا لا عبادة.
الثاني: أنه رآهم خاضعين فجعل خضوعهم سجودًا، كقول الشاعر:

بجَمْع تضل البُلْقُ في حَجَراته ... ترى الأكْم منه سجدا للحوافر

قوله تعالى: {قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا} [يوسف: ٥]، أي:"قال له يعقوب: لا تخبرْ بهذه الرؤيا إخوتك، فيحتالوا لإهلاكك حيلةً عظيمة لا تقدر على ردّها".
قوله يا بني تصغير ابن. والتصغير هنا سببه صغر سنه مع الشفقة عليه، والتلطيف معه.
- وإنما قال له ذلك، لأن هذه الرؤيا تدل على أن الله تعالى سيعطى يوسف من فضله عطاء عظيما، ويهبه منصبا جليلا، ومن شأن صاحب النعمة أن يكون محسودا من كثير من الناس، فخاف يعقوب من حسد إخوة يوسف له، إذا ما قص عليهم رؤياه، ومن عدوانهم عليه.
- قال البغوي: قوله تعالى (قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك) وذلك أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي فعلم يعقوب أن الإخوة إذا سمعوها حسدوه فأمره بالكتمان.
قال مقاتل:"فيحسدوك إضمار، {فيكيدوا لك كيدا}، فيعلموا بك شرا".
قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قَصّ عليه ما

=

=

رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيما زائدًا، بحيث يخرون له ساجدين إجلالا وإكراما واحتراما فخشي يعقوب، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن يحدث بهذا المنام أحدا من إخوته فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الغوائل، حسدا منهم له؛ ولهذا قال له: {لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا} أي: يحتالوا لك حيلةً يُرْدُونَك فيها. ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحوَّل إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثا، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحدًا، فإنها لن تضره». وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد، وبعض أهل السنن، من رواية معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبر، فإذا عُبرت وقعت» ، ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث: "استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود"".

قال محمد بن إسحاق:"يقول الله ﷻ في كتابه، لمحمد ﷺ، وهو يذكر له خبر يوسف وإخوته: إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا الآية، فعرف يعقوب تأويلها، وخشي عليه بغي إخوته فيما عرف من التأويل أن الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا أبوه وأمه وإخوته، فقال: يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين".

قال السدي:"فكان الغلامان يوسف وبنيامين في حجر يعقوب، أحبهما وعطف عليهما ليتمهما من أمهما، وكان أحب الخلق إليه يوسف، فلما قدموا نحو الشام قال يعقوب لرعاته وغلمانه: إن أتاكم أحد يسألكم: من أنتم فقولوا: نحن ليعقوب عبد عيصا فلقيهم عيصا فقال: من أنتم؟ فقالوا نحن ليعقوب عبد عيصا، قال: فكف، عن يعقوب، فذلك حين قال: وإذ غلبتني على الدعوة فلا تغلبني على

=

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦).

{وَكَذَلِكَ} كَمَا رَأَيْت {يَجْتَبِيك} يَخْتَارك {رَبّك وَيُعَلِّمك مِنْ تَأْوِيل الْأَحَادِيث} تَعْبِير الرُّؤْيَا {وَيُتِمّ نِعْمَته عَلَيْك} بِالنُّبُوَّةِ {وَعَلَى آل يَعْقُوب} أَوْلَاده {كَمَا أَتَمَّهَا} بِالنُّبُوَّةِ {عَلَى أَبَوَيْك مِنْ قَبْل إِبْرَاهِيم وَإِسْحَاق إِنَّ رَبّك عَلِيم} بِخَلْقِهِ {حَكِيم} فِي صنعه بهم(١).

=

القبر، فنزل يعقوب الشام فكان ليس له هم إلا يوسف وأخوه فحسده إخوته مما رأوا، من حب أبيه له ورأى يوسف في النوم رؤيا أن: أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين فحدث أباه بها فقال له يعقوب يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا فبلغ إخوة يوسف الرؤيا فحسدوه".

وكَانَ الكسائى يمِيل «رءياك» و «رءيى» و «للرءيا»، فى كل الْقُرْآن.

قوله تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [يوسف: ٥]، أي:"إن الشيطان للإنسان عدو ظاهر العداوة".

قال مقاتل:"يعني: بيّن".

قال الثعلبي: يعني: "بين العداوة، وقيل: مظهر العداوة، قد أبان عداوته لكم بإبائه السجود لأبيكم آدم عليه السلام، وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة".

عن قتادة قوله: "{إن الشيطان للإنسان عدو مبين}، قال: عادوه، فإنه يحق على كل مسلم عداوته، وعداوته، أن تعاديه بطاعة الله".

قال مطرف: "وجدنا أغش عباد الله لعبيد الله، الشيطان".

(١) قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ} [يوسف: ٦]، أي:"وكما أراك مثل هذه

=

=

الرؤيا العظيم كذلك يختارك ربك للنبوة".

قال أبو عبيدة:"أي: يختارك".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، {وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ}، أي: يختارك ويصطفيك لنبوته".

قال الطبري:"يقول: كما أراك ربك الكواكب والشمسَ والقمرَ لك سجودًا، فكذلك يصطفيك ربك".

قال الفراء:"قوله: {وكذلك يجتبيك ربك} جواب لقوله: {إني رأيت أحد عشر كوكبا}، فقيل له: وهكذا يجتبيك ربك".

قال الشوكاني: "قوله تعالى (وكذلك يجتبيك ربك) أي: مثل ذلك الاجتباء البديع الذي رأيته في النوم من سجود الكواكب والشمس والقمر يجتبيك ربك، ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا، فيجعلك نبيا، ويصطفيك على سائر العباد، ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التي رأيتها في منامك فصارت ساجدة لك".

قال مقاتل:"وهكذا يستخلصك ربك بالسجود".

عن عكرمة: "{وكذلك يجتبيك ربك}، قال: يصطفيك".

قال قتادة:"فاجتباه واصطفاه وعلّمه من عَبْر الأحاديث، وهو «تأويل الأحاديث»".

قال الزجاج:"التأويل: أنه لما قال له: {إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين}، فتأول الأحد عشر كوكبا أحد عشر نفسا لهم فضل وأنهم يستضاء بهم، لأن الكواكب لا شيء أضوأ منها وبها يهتدى، قال الله جل وعز: {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [النحل: ١٦]، فتأول الشمس والقمر أبويه. فالقمر الأب والشمس الأم والأحد عشر كوكبا إخوته، فتأول له أنه يكون نبيا، وأن إخوته

=

=

يكونون أنبياء لأنه أعلمه أن الله يتم نعمته عليه وعلى إخوته كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق، فإتمام النعمة عليهم أن يكونوا أنبياء إذ قال: {كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق}".

وفي قوله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ} [يوسف: ٦]، ثلاثة وجوه:

أحدها: بحسن الخَلق والخُلق.

الثاني: بترك الإنتقام.

الثالث: بالنبوة، قاله الحسن.

قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} [يوسف: ٦]، أي:"ويعلمك تفسير الرؤيا المناميَّة".

قال الطبري:"يقول: ويعلمك ربك من علم ما يؤول إليه أحاديثُ الناس، عما يرونه في منامهم. وذلك تعبير الرؤيا".

قال ابن كثير:"أي: بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: {كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ} وهو الخليل، {وَإِسْحَاقَ} ولده، وهو الذبيح في قول، وليس بالرجيح".

وفي قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} [يوسف: ٦]، ثلاثة أقوال:

أحدها: عبارة الرؤيا، قاله مجاهد ، ومقاتل.

الثاني: العلم والكلام والحكمة، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"تأويل الكلام: العلم والحكم، وكان يوسف أعبر الناس، وقرأ: ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما".

الثالث: عواقب الأمور ، ومنه قول الشاعر:

وللأحبة أيام تذكّرُها وللنوى قبل يوم البيْن تأويل

- **قال البغوي**: سمي تأويلا، لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه.

=

=

- **قال القرطبي**: وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا، وقد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها.

- قال الشنقيطي: بين الله جل وعلا أنه علم نبيه يوسف من تأويل الأحاديث، وصرح بذلك أيضا في قوله (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث).

وقوله (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث).

واختلف العلماء في المراد بتأويل الأحاديث.

فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد بذلك: تعبير الرؤيا، فالأحاديث على هذا القول هي الرؤيا.

وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا، ويدل لهذا الوجه الآيات الدالة على خبرته بتأويل الرؤيا، كقوله (ياصاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان).

وقوله (قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله...).

وقال بعض العلماء: المراد بتأويل الأحاديث معرفة معاني كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض وما اشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم ويشرحها، ويدلهم على مودعات حكمها.

وسميت أحاديث ؛ لأنها يحدث بها عن الله ورسله، فيقال: قال الله كذا، وقال رسوله كذا.

ألا ترى إلى قوله تعالى (فبأي حديث بعده يؤمنون).

وقوله (الله نزل أحسن الحديث).

ويدل لهذا الوجه قوله تعالى (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما).

قوله تعالى: {وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ

=

=

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ} [يوسف: ٦]، أي:"يتمم فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب، كما أكمل النعمة من قبل ذلك على جدك إِبراهيم وجدك إسحاق بالرسالة والاصطفاء".

قال الطبري:"باجتبائه إياك، واختياره، وتعليمه إياك تأويل الأحاديث {وعلى آل يعقوب}، يقول: وعلى أهل دين يعقوب، وملته من ذريته وغيرهم، {كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق}، باتخاذه هذا خليلا وتنجيته من النار، وفدية هذا بذبح عظيم".

قال عكرمة:"فنعمته على إبراهيم أن نجاه من النار، وعلى إسحاق أنْ نجَّاه من الذَّبح".

قال سعيد بن جبير:"من تمام النعمة، دخول الجنة أن الله لم يتم على أحد نعمه فيدخله النار".

قوله (وعلى آل يعقوب) وهم إخوته وذريتهم، بأن يسبغ عليهم الكثير من نعمه.

(كما أتمها على أبويك من قبل) أي: من قبل هذه الرؤيا أو من قبل هذا الوقت.

(إبراهيم وإسحق) فجعلهما نبيين.

- وقوله (إبراهيم وإسحاق) بيان لأبويه، وعبر عنهما بأنهما أبوان ليوسف، مع أن إبراهيم جد أبيه، وإسحاق جده، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام-، وللمبالغة في إدخال السرور على قلبه.

وفي قوله تعالى: {وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} [يوسف: ٦]، ثلاثة وجوه:

أحدهما: باختيارك للنبوة.

الثاني: بإعلاء كلمتك وتحقيق رؤياك، قاله مقاتل.

قال التستري:"يعني: بتصديق الرؤيا التي رأيتها لنفسك".

الثالث: أن أخرج إخوته إليه حتى أنعم عليهم بعد إساءتهم إليه. أفاده الماوردي.

=

=

قال الشوكاني: "فيجمع لك بين النبوة والملك، كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك الله، أو يجمع لك بين خيري الدنيا والآخرة".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [يوسف: ٦]، أي:"إن ربك عليمٌ بمن هو أهلٌ للفضل، حكيم في تدبيره لخلقه".

قال ابن كثير:"أي: هو أعلم حيث يجعل رسالاته، كما قال في الآية الأخرى".

قال الطبري:"باجتبائه إياك، واختياره، وتعليمه إياك تأويل الأحاديث {وعلى آل يعقوب}، يقول: وعلى أهل دين يعقوب، وملته من ذريته وغيرهم، {كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق}، باتخاذه هذا خليلا وتنجيته من النار، وفدية هذا بذبح عظيم".

عن محمد بن إسحاق، قوله: "{عليم}، أي: عليم بما تخفون"، "قوله: حكيم، في عذره وحجته إلى عباده".

عن أبي العالية في قوله: "{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

- قال السعدي: أي علمه محيط بالأشياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كلا ما تقتضيه حكمته وحمده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

أي: أن هذه النعم كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل، لأنه خلقها لقبول ذلك، فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة.

- قال البغوي: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصير أبويه وإخوته إليه أربعون سنة، وهو قول أكثر أهل التفسير.

- قال الشوكاني: وكان هذا كلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيرا لرؤياه على طريق الإجمال، أو علم ذلك من طريق الوحي، أو عرفه بطريق الفراسة وما

=

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧).

{لَقَدْ كَانَ فِي} خَبَر {يُوسُف وَإِخْوَته} وَهُمْ أَحَد عَشَر {آيَات} عِبَر {لِلسَّائِلِينَ} عَنْ خَبَرهمْ[1].

=

تقتضيه المخايل اليوسفية.

(١) قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ} [يوسف: ٧]

لقد كان في قصة يوسف وإخوته عبر وأدلة تدل على قدرة الله وحكمته لمن يسأل عن أخبارهم، ويرغب في معرفتها.

الآيات: جمع آية والمراد بها هنا العبر والعظات والدلائل الدالة على قدرة الله تعالى ووجوب إخلاص العبادة له.

أي: لقد كان في قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات عظيمة، ودلائل تدل على قدرة الله القاهرة، وحكمته الباهرة، وعلى ما للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر، وعلى ما للحسد والبغي من شرور وخذلان.

قال ابن أبي زمنين:"أي: عبرة لمن كان سائلا عن حديثهم".

قال أبو الليث السمرقندي:"معنى الآية: أن في خبر يوسف وإخوته عبرة وموعظة لمن سأل عن أمرهم".

قال الزمخشري:"{في يوسف وإخوته}، أي: في قصتهم وحديثهم آيات علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته في كل شيء للسائلين لمن سأل عن قصتهم وعرفها. وقيل آيات على نبوة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها، فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب... وقيل: إنما قص الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغي إخوته عليه، لما رأى من بغي قومه عليه ليتأسى به، وقيل أساميهم: يهوذا: وروبيل، وشمعون، ولاوى، وربالون، ويشجر، ودينة، ودان، ونفتالى، وجاد، وآشر: السبعة الأولون كانوا من ليا بنت

=

=

خالة يعقوب، والأربعة الآخرون من سريتين: زلفة، وبلهة: فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل، فولدت له بنيامين ويوسف".

عن قتادة قوله: "{لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين}، يقول: من سأل، عن ذلك فهو هكذا ما قص الله عليكم وأنبأكم به".

عن الحسن: "{لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين}، قال: عبر".

قال مقاتل:"وذلك أن اليهود سألوا النبي- ﷺ- عن أمر يوسف فكان ما سمعوا علامة لهم وهم السائلون عن أمر يوسف- عليه السلام- وكان يوسف قد فضل في زمانه بحسنه على الناس كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب".

عن ابن إسحاق، قال: "إنما قصّ الله تبارك وتعالى على محمد خبر يوسف، وبَغْي إخوته عليه وحسدهم إياه، حين ذكر رؤياه، لما رأى رسول الله ﷺ من بغي قومه وحسده حين أكرمه الله ﷻ بنبوته، ليأتسي به".

قال السمعاني:"«الآيات»: جمع «الآية»؛ و «الآية»: هي الدلالة على أمر عظيم. وفي معنى الآية قولان:

أحدهما: أن اليهود سألوا رسول الله عن قصة يوسف - عليه [الصلاة] السلام - وفي بعض الروايات (أنهم سألوه) عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعنان إلى مصر، فذكر لهم قصة يوسف فوجدوها موافقة لما في التوراة؛ فهذا معنى قوله: {آيات للسائلين} أي: دلالة على نبوة الرسول.

والقول الثاني: أن (نعنى) قوله: {آيات للسائلين} يعني: أنها غبر للمعتبرين فإنها تشتمل على ذكر حسد إخوة يوسف له وما آل إليه أمرهم في الحسد، وتشتمل على ذكر رؤياه وما حقق الله منها، وتشتمل على ما صبر يوسف عن قضاء الشهوة، وعلى العبودية في السجن، وما آل إليه أمره من الملك، وتشتمل أيضا على ذكر حزن يعقوب وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد، وذهاب الحزن عنه، وغير

=

=
هذا مما يذكر في السورة؛ فهذه عبر للمعتبرين".
قال البغوي:"وأسماؤهم: روبيل، وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبالون، وقيل: زبلون، وآشر، وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب عليه السلام، وولد له من سريتين له، اسم إحداهما زلفة والأخرى
يلهمة أربعة أولاد: دان، ونفتالي، وقيل: نفتولي، وجاد، وأشير. ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب عليه السلام أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين. وقيل: وابن يامين، فكان بنو يعقوب عليه السلام اثني عشر رجلا".
وروي عن مجاهد وابن كثير أنهما قرآ: «ءاية للسآئلين»، على التوحيد.
وفي بعض المصاحف: «عبرة للسائلين».
قوله (للسائلين) أي: لمن يتوقع منهم السؤال، بقصد الانتفاع بما ساقه القرآن الكريم من مواعظ وأحكام.
أي: لقد كان فيما حدث بين يوسف وإخوته، آيات عظيمة، لكل من سأل عن قصتهم، وفتح قلبه للانتفاع بما فيها من حكم وأحكام، تشهد بصدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه.
- قال الخازن: ومعنى (آيات للسائلين) أي: عبرة للمعتبرين فإن هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم، ومنها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها، ومنها حسد إخوته له وما آل إليه أمرهم من الحسد، ومنها صبر يوسف على إخوته وبلواه مثل إلقائه في الجب وبيعه عبدا وسجنه بعد ذلك وما آل إليه أمره من الملك، ومنها ما تشتمل عليه من حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التي إذا فكر فيها الإنسان اعتبر واتعظ.
وقال ابن الجوزي:.. في وجه هذه الآيات خمسة أقوال:
أحدها: الدلالة على صدق محمد ﷺ حين أخبر أخبار قوم لم يشاهدهم، ولا نظر
=

=

في الكتب.

والثاني: ما أظهر الله في قصة يوسف من عواقب البغي عليه.

والثالث: صدق رؤياه وصحة تأويله.

والرابع: ضبط نفسه وقهر شهوته حتى قام بحق الأمانة.

والخامس: حدوث السرور بعد اليأس.

- قال البغوي: قوله تعالى (للسائلين) وذلك أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام.

وقيل: سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعان إلى مصر. فذكر لهم قصة يوسف، فوجدوها موافقة لما في التوراة فتعجبوا منها، فهذا معنى قوله (آيات للسائلين) أي: دلالة على نبوة رسول الله ﷺ.

وقيل: آيات للسائلين ولمن لم يسأل، كقوله (سواء للسائلين).

وقيل: معناه عبرة للمعتبرين، فإنها تشتمل على حسد إخوة يوسف، وما آل إليه أمرهم في الحسد، وتشتمل على رؤياه، وما حقق الله منها، وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة، وعلى الرق وفي السجن، وما آل إليه أمره من الملك، وتشتمل على حزن يعقوب وصبره وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد وغير ذلك من الآيات.

وهذا الافتتاح لتلك القصة، كفيل بتحريك الانتباه لما يلقى بعد ذلك منها، ومن تفصيل لأحداثها، وبيان لما جرى فيها.

- وقال ابن عاشور:... ففي قصة يوسف عليه السلام دلائل على ما للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر، أو على ما للحسد والإضرار بالناس من الخيبة والاندحار والهبوط.

وفيها من الدلائل على صدق النبي ﷺ، وأن القرآن وحي من الله، إذ جاء في هذه

=

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨)

اُذْكُرْ {إذْ قَالُوا} أَيْ بَعْض إخْوَة يُوسُف لِبَعْضِهِمْ {لَيُوسُف} مُبْتَدَأ {وَأَخُوهُ} شَقِيقه بِنْيَامِين {أَحَبّ} خَبَر {إلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَة} جَمَاعَة {إنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَال} خَطَأ {مُبِين} بَيِّن بإيثارهما علينا.

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩).

{اُقْتُلُوا يُوسُف أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا} أَيْ بِأَرْضٍ بَعِيدَة {يَخْلُ لَكُمْ وَجْه أَبِيكُمْ} بِأَنْ يُقْبِل عَلَيْكُمْ وَلَا يَلْتَفِت لِغَيْرِكُمْ {وَتَكُونُوا مِنْ بَعْده} أَيْ بَعْد قَتْل يُوسُف أَوْ طَرْحه {قَوْمًا صَالِحِينَ} بِأَنْ تَتُوبُوا.

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠).

قَالَ قَائِل مِنْهُمْ} هُوَ يَهُوذَا {لَا تَقْتُلُوا يوسف وألقوه} اطرحوه {في غيابت

=

السورة ما لا يعلمه إلا أحبار أهل الكتاب دون قراءة ولا كتاب وذلك من المعجزات.

وفي بلاغة نظمها وفصاحتها من الإعجاز ما هو دليل على أن هذا الكلام من صنع الله ألقاه إلى رسوله ﷺ معجزة له على قومه أهل الفصاحة والبلاغة.

- قال السعدي: أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا في القصص والبينات.

الْجُبّ} مُظْلِم الْبِئْر وَفِي قِرَاءَة بِالْجَمْعِ {يَلْتَقِطهُ بَعْض السَّيَّارَة} الْمُسَافِرِينَ {إنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} مَا أَرَدْتُمْ مِنْ التَّفْرِيق فَاكْتَفَوْا بِذَلِكَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا} [يوسف: ٨]، أي:"إذ قال إخوة يوسف من أبيه فيما بينهم: إن يوسف وأخاه الشقيق أحب إلى أبينا منا، يفضِّلهما علينا".

والآية بيان لما قاله إخوة يوسف فيما بينهم، قبل أن ينفذوا جريمتهم.

والمراد بأخيه: أخوه من أبيه وأمه وهو «بنيامين» وكان أصغر من يوسف عليه السلام أما بقيتهم فكانوا إخوة له من أبيه فقط.

ولم يذكروه باسمه، للإشعار بأن محبة يعقوب له، من أسبابها كونه شقيقا ليوسف، ولذا كان حسدهم ليوسف أشد.

أي: قال إخوة يوسف وهم يتشاورون في المكر به: ليوسف وأخوه «بنيامين» أحب إلى قلب أبينا منا، مع أننا نحن جماعة من الرجال الأقوياء الذين عندهم القدرة على خدمته ومنفعته والدفاع عنه دون يوسف وأخيه.

عن قتادة: "{إذ قالوا ليوسف وأخوه}، يعني: بنيامين، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه".

عن السدي، قوله: "{إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا}، وأخوه: بنيامين".

قوله تعالى: {وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} [يوسف: ٨]، أي:"ونحن جماعة ذوو عدد".

وفي معنى «العصبة»، أقوال:

أحدها: أنها ستة أو سبعة، قاله سعيد بن جبير.

الثاني: أنها من عشرة إلى خمسة عشر، قاله مجاهد.

الثالث: من عشرة إلى أربعين، قاله قتادة ، وأبو المليح.

=

=

قال السدي:"كانوا عشرة".

قال مقاتل:"{ونحن عصبة}، يعني: عشرة".

الرابع: أنها أربعون رجلا. قاله الحكم.

الخامس: عشرة فما زاد. قاله الفراء.

السادس: الجماعة، قاله عبد الرحمن بن زيد.

قوله تعالى: {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [يوسف: ٨]، أي:"إن أبانا لفي خطأ بيِّن حيث فضَّلهما علينا من غير موجب نراه".

وهو تذييل قصدوا به درء الخطأ عن أنفسهم فيما يفعلونه بيوسف وإلقائه على أبيه الذي فرق بينهم -في زعمهم- في المعاملة.

والمراد بالضلال هنا: عدم وضع الأمور المتعلقة بالأبناء في موضعها الصحيح، وليس المراد به الضلال في العقيدة والدين.

أي: إن أبانا لفي خطأ ظاهر، حيث فضل في المحبة صبيين صغيرين على مجموعة من الرجال الأشداء النافعين له القادرين على خدمته.

قال القرطبي: لم يريدوا بقولهم (إن أبانا لفي ضلال مبين) الضلال في الدين إذ لو أرادوه لكانوا كفارا، بل أرادوا: إن أبانا لفي ذهاب عن وجه التدبير في إيثاره اثنين على عشرة، مع استوائهم في الانتساب إليه.

- قال الشنقيطي: الظاهر أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة - إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي.

ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب. فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم: (قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم).

وقوله تعالى في نبينا ﷺ (ووجدك ضآلا فهدى) أي لست عالما بهذه العلوم التي

=

=

لا تعرف إلا بالوحي، فهداك إليها وعلمكها بما أوحي إليك من هذا القرآن العظيم.

وليس المراد أولاد يعقوب الضلال في الدين، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارا، وإنما مرادهم أن أباهم في زعمهم في ذهاب عن إدراك الحقيقة، وإنزال الأمر منزلته اللائقة به، حيث آثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعا له، وأقدر على القيام بشؤونه وتدبير أموره.

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين:

أحدهما: الضلال في الدين، اي الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه. وهذا أشهر معانيه في القرآن. ومنه بهذا المعنى (غير المغضوب عليهم ولا الضآلين).

وقوله (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين).

وقوله (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون).

الثاني: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة من قول العرب: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه وهلك فيه، ولذلك تسمي العرب الدفن إضلالا. لأنه تغيب في الأرض يؤول غلى استهلاك عظام الميت فيها، لأنها تصير رميما وتمتزج بالأرض. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى (وقالوا أإذا ضللنا في الأرض).

ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى (وضل عنهم ما كانوا يفترون).أي غاب واضمحل.

- قال الرازي: إن من الأمور المعلومة أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد، ويورث الآفات، فلما كان يعقوب عليه السلام عالما بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل وأيضا الأسن والأعلم والأنفع أفضل، فلم قلب هذه القضية؟

والجواب: أنه عليه السلام ما فضلهما على سائر الأولاد إلا في المحبة، والمحبة ليست

=

=

في وسع البشر فكان معذورا فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم.

قال الخازن: ويحتمل أن يعقوب إنما خص يوسف بمزيد المحبة والشفقة لأن أمه ماتت وهو صغير، ولأنه رأى فيه من آيات الرشد والنجابة ما لم يره في سائر إخوته.

- وقال الآلوسي: فالذي ينبغي أن يعول عليه أنه عليه السلام إنما أحبه أكثر منهم لما رأى فيه من مخايل الخير ما لم ير فيهم وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا لتأكيدها تلك الامارات عنده، ولا لوم على الوالد تفضيله بعض ولده على بعض في المحبة لمثل ذلك، وقد صرح غير واحد أن المحبة ليست مما تدخل تحت وسع البشر.

قال السدي:"في ضلال من أمرنا".

قال مقاتل:"يعني خسران مبين يعني في شقاء بين نظيرها فى سورة القمر {إن المجرمين في ضلال} ، يعني: في شقاء، من حب يعقوب لابنه يوسف وذكره".

قال الطبري:"يعنون: إنّ أبانا يعقوب لفي خطأ من فعله، في إيثاره يوسف وأخاه من أمه علينا بالمحبة، ويعني بـ «المبين»: أنه خطأٌ يبينُ عن نفسه أنه خطأ لمن تأمله ونظر إليه".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [يوسف: ٨]، وجوه:

أحدها: لفي خطأ من رأيه، قال ابن زيد.

الثاني: لفي جور من فعله، قال ابن كامل.

الثالث: لفي محبة ظاهرة، وهذا معنى قول الطبري.

وإنما جعلوه في ضلال مبين لثلاثة وجوه:

أحدها: لأنه فضّل الصغير على الكبير.

الثاني: القليل على الكثير.

الثالث: من لا يراعي ما له على من يراعيه.

=

=

قال الماوردي:"واختلف فيهم هل كانوا حينئذ بالغين؟ فذهب قوم إلى أنهم كانوا بالغين مؤمنين ولم يكونوا أنبياء بعد لأنهم قالوا {يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين}، وهذه حالة لا تكون إلا من بالغ، وقال آخرون: بل كانوا غير بالغين لأنهم قالوا: {أرسله معنا غدًا نرتع ونلعب}، وإنما استغفروه بعد البلوغ".

قوله تعالى: {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا} [يوسف: ٩].

أي: اقتلوا يوسف أو اقذفوا به في أرض بعيدة مجهولة حتى يموت، فإنكم إن فعلتم ذلك، خلصت لكم محبة أبيكم دون أن يشارككم فيها أحد، فيقبل عليكم بكليته، ويكون كل توجهه إليكم وحدكم، بعد أن كان كل توجهه إلى يوسف.

قال الطبري:"قال إخوة يوسف بعضهم لبعض: اقتلوا يوسف أو اطرحوه في أرض من الأرض، يعنون مكانا من الأرض".

قوله تعالى: {يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ} [يوسف: ٩]، أي:"يخلُص لكم حب أبيكم وإقباله عليكم، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم".

قال مقاتل:"فيقبل عليكم بوجهه".

قال الطبري:"يعنون: يخلُ لكم وجه أبيكم من شغله بيوسف، فإنه قد شغله عنّا، وصرف وَجهه عنَّا إليه".

قال الواحدي:"أي: يقبل بكليته عليكم، ويخلص لكم عن شغله بيوسف، يعنون أن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه، فإذا فقده أقبل إلينا بالميل والمحبة".

قال الزجاج:"يدل على أنَّهم تآمروا في أن يَطْرحُوه في أَرض لا يَقْدِرُ عليه فيها أبوه".

قوله تعالى: {وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} [يوسف: ٩].

أي: وتكونوا من بعد الفراغ من أمر يوسف بسبب قتله أو طرحه في أرض بعيدة، قوما صالحين في دينكم، بأن تتوبوا إلى الله بعد ذلك فيقبل الله توبتكم، وصالحين

=

=

في دنياكم بعد أن خلت من المنغصات التي كان يثيرها وجود يوسف بينكم.

قال القرطبي: "قوله تعالى (قوما صالحين) أي تائبين؛ أي تحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم.

وقيل: "صالحين" أي يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل".

قال الطبري:"يعنون: أنهم يتوبون من قتلهم يوسف، وذنبهم الذي يركبونه فيه، فيكونون بتوبتهم من قتله من بعد هلاك يوسف قومًا صالحين".

وفي قوله تعالى: {وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ}، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنهم أرادوا صلاح الدنيا لا صلاح الدين، قاله الحسن.

الثاني: أنهم أرادوا صلاح الدين بالتوبة، وهذا معنى قول ابن عباس ، والسدي. وهذا قول عامة المفسرين.

قال ابن عباس: "يريد تحدثوا توبة بعد ذلك يقبلها الله منكم".

قال السدي:"تتوبون مما صنعتم ، أو: من صنيعكم".

قال الزجاج:"أي: تَتُوبونَ من بعد قتله".

الثالث: أنهم أرادوا صلاح الأحوال بتسوية أبيهم بينهم من غير أثرة ولا تفضيل، وفي هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم. ذكره الماوردي ، وهو معنى قول مقاتل.

قال مقاتل:"يعني: يصلح أمركم وحالكم عند أبيكم".

- قال الخازن: قوله تعالى (قوما صالحين) يعني: تائبين فتوبوا إلى الله يعف عنكم فتكونوا قوما صالحين وذلك أنهم لما علموا أن الذي عزموا عليه من الذنوب والكبائر قالوا نتوب إلى الله من هذا الفعل ونكون من الصالحين في المستقبل.

- وقال السعدي: فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلا لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطا من بعضهم لبعض.

=

=

- التوبة الأصل فيها أن تكون بعد الذنب، أما التوبة التي تعد سلفا، فهي نوع من المكر والكيد الذي يزينه الشيطان، وفيها عدة مفاسد:

أولا: أن فيها تسويفا بالتوبة.

ثانيا: أن فيها استصغار للمعصية واستخفاف بفعلها.

ثالثا: أنها دافع للشر وتسويغه.

قوله تعالى: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ} [يوسف: ١٠].

قال قآئل منهم لا تقتلوا يوسف فإن قتله أعظم إثما وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه: (وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) بيان للرأي الذي اقترحه أحدهم، واستقر عليه أمرهم.

قال السمعاني:"أشار عليهم أن لا ترتكبوا هذه الكبيرة العظيمة".

اختلف في قائل هذا منهم على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه شمعون، قاله مجاهد.

الثاني: أنه يهوذا، قاله ابن عباس ، والسدي.ونحو هذا قال الكلبي ومقاتل ، والزجاج.

قال عطاء عن ابن عباس: "هو يهودا، وهو أكبر ولد يعقوب وأعقلهم".

الثالث: أنه روبيل وهو أكبر إخوة يوسف وابن خالته، قاله قتادة ، ومحمد بن إسحاق.

قال محمد بن إسحاق:"فذكروا والله أعلم أن الذي قال ذلك منهم روبيل الأكبر من بني يعقوب، وكان أقصدهم فيه رأيا، وكل قد عظم فيه جرمه، وكان أيسرهم جرما، وكفى بجرمه جرما لما اجتمعوا عليه من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد وقلة

=

=

الرأفة بالصغير الضرع، الذي لا ذنب له وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل عليهم، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده- ليفرقوا بينه وبين ولده وحبيبه على كبر سنه، ورقة عظمه، مع مكانه من الله وبين من أحبه طفلا صغيرا على ضعف قوته، وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده، وسكونه إليه يغفر الله لهم، وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرا عظيما".

عن ابن عباس:"{... غيابت الجب}، يعني: الركية".

وفي قوله تعالى: {وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ} [يوسف: ١٠]، وجهان:

أحدهما: يعني: قعر الجب وأسفله.

عن قتادة:"{وألقوه في غيابت الجب}، في بعض نواحيه أسفله".

الثاني: ظلمه الجب التي تغيّب عن الأبصار ما فيها، قاله الكلبي. فكان رأس الجب ضيقًا وأسفله واسعًا.

وفي تسميته «غيابة الجب»، وجهان:

أحدهما: لأنه يغيب فيه خبره.

الثاني: لأنه يغيب فيه أثره، قال ابن أحمر:

ألا فالبِثَا شَهْرَيْن أو نِصْفَ ثالث   إلى ذَاكُما ما غَيّبْتْني غَيَابِيَا

قال الزجاج:"«الغيابة»: كل ما غاب أو غيب عنك شيئا، قال المنخل:

وإن أنا يوما غيبتني منيتي   فسيري بسيري في العشيرة والأصل".

قال السمعاني:"يعني: أسفل الجب، والغيابة: كل موضع ستر عنك الشيء وغيّبه.. وعنى بالغيابة: القبر؛ لأنه يغيب الميت ويستره".

وفي «الجبّ»، أقوال:

أحدها: أنه اسم بئر في «بيت المقدس»، قاله قتادة.

الثاني: أن الجب الذي جعل فيه يوسف بحذاء طبرية بينه وبينها أميال. قاله ابن

=

=

زيد.

الثالث: أنه بئر غير معينة، وإنما يختص بنوع من الآبار ، قال الأعشى:

لئن كنت فى جبّ ثمانين قامة ورقيّت أسباب السماء بسلّم

وفيما يسمى من الآبار جبًا، قولان:

أحدهما: أنه ما عظم من الآبار سواء كان فيه ماء أو لم يكن.

الثاني: أنه ما لا طيّ له من الآبار.

والراجح أن (الجب): هي البئر التي لم تطو –أي ليست مطوية بالحجارة– وبهذا القول قال عامة المفسرين؛ فبه قال: أبو عبيدة معمر بن المثنى، والطبري، والنحاس، والزجاج، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: (الجب: الركية التي لم تطو، قال الأعشى:

لئن كنت في جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم).

وقال الزجاج: (الجب: البئر التي ليست بمطوية، وسميت جبا من أنها قطعت قطعا، ولم يحدث فيها غير القطع من طي وما أشبهه).

وذكر بعض المفسرين قولا آخر في معنى الجب، وهو أنه ما عظم من الآبار سواء كان فيه ماء أو لم يكن.

والراجح القول الأول، وهو أن الجب: البئر التي لم تطو، فهذا هو المعنى المشهور للجب، وبه قال عامة أهل التفسير.

وقرأ أهل الحجاز: «غيابات»، على الجمع.

قوله تعالى: {يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ} [يوسف: ١٠].

و(السيارة): جمع سيار، والمراد بهم جماعة المسافرين الذين يبالغون في السير ليصلوا إلى مقصودهم.

=

=

والمعنى: قال قائل من إخوة يوسف أفزعه ما هم مقدمون عليه بشأن أخيهم الصغير:

لا تقتلوا يوسف، لأن قتله جرم عظيم، وبدلا من ذلك، ألقوه في قعر الجب حيث يغيب خبره، إلى أن يلتقطه من الجب بعض المسافرين، فيذهب به إلى ناحية بعيدة عنكم، وبذلك تستريحون منه ويخل لكم وجه أبيكم.

- **قال القرطبي**: السيارة الجمع الذي يسيرون في الطريق للسفر؛ وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاجوا إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود؛ فإن من التقطه من السيارة يحمله إلى موضع بعيد؛ وكان هذا وجها في التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم، فربما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم.

- قال السعدي: وهذا القائل أحسنهم رأيا في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل.

قال الطبري:"يقول: يأخذه بعض مارّة الطريق من المسافرين".

قال ابن أبي زمنين:"أي: بعض من يمر في الطريق".

قال مقاتل:"فيذهبوا به فيكفونكم أمره".

قال الثعلبي: أي:"بعض ماري الطريق من المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى".

قال السمعاني:"أي: يجده بعض السيارة، والالتقاط: هو أخذ الشيء من حيث لا يحتسبه، والسيارة".

وفي «السيارة»، قولان:

أحدهما: أنهم المسافرون سُموا بذلك لأنهم يسيرون.

الثاني: أنهم مارة الطريق، قاله الضحاك.

=

=

وقرأ الحسن: «تلتقطه»، بالتاء.

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} [يوسف: ١٠]، أي:"إن كنتم عازمين على فعل ما تقولون".

قال الصابوني:"أي: إن كان لا بدَّ من الخلاص منه فاكتفوا بذلك، وكان رأيه فيه أهون شرًا من رأي غيره".

قال السمعاني:"يعني: إن عزمتم على فعلكم".

قال الثعلبي: أي:"إن كنتم فاعلين ما أقول لكم".

قال الطبري:"يقول: إن كنتم فاعلين ما أقول لكم".

قال ابن عباس:"التقطه ناس من الأعراب".

قال أبو بكر بن عياش: "كان يوسف في الجب ثلاثة أيام".

قال الثعلبي:"قيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب؟ ولهذا قيل: الأب جلاب، والأخ سلاب".

قال محمد بن إسحاق: "اشتمل فعلهم على جرائم من قطع الرحم، وعقوق الوالدين، وقلة الرأفة بالصغير، الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة، وترك العهد والكذب مع أبيهم. وعفا الله عنهم ذلك كله حتى لا ييئس أحد من رحمة الله".

قال البغوي:"قال بعض أهل العلم: إنهم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم، ولو فعلوا لهلكوا أجمعين، وكل ذلك كان قبل أن أنبأهم الله تعالى".

واختلف أهل العلم أنهم كانوا بالغين أو لم يكونوا بالغين حين عزموا على هذا وفعلوا؟ وفيه قولان:

أحدهما: أنهم كانوا رجالا بالغين، إلا أنهم لم يكونوا أنبياء بعد، والدليل عليه: أنهم قالوا: وتكونوا من بعده قوما صالحين؛ وهذا إنما يستقيم بعد البلوغ ويدل (عليه) أنهم قالوا: يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين، والصغير لا ذنب له، دل

=

=

أنهم كانوا رجالا. حكاه السمعاني عن الأكثرين.

الثاني: أنهم كانوا صغارا.

قال السمعاني: "وهذا القول غير مرضي. واستدل من قال بهذا القول بأنهم قالوا: {أرسله معنا غدا نرتع ونلعب} واللعب فعل الصغار لا فعل الكبار.

وأجابوا عن هذا: أنهم لم يذكروا لعبا حراما، وإنما عنوا لعبا مباحا".

حكي عن أبي عمرو بن العلاء:"أنه سئل عن قوله: {نلعب} فقيل له: كيف قالوا: {نلعب}، وقد كانوا أنبياء؟ فقال: هذا قبل أن نبأهم الله تعالى".

(تنبيه): قال السيوطي رسالة "دفع التعسف عن أخوة يوسف" وهي في الحاوي للفتاوى (١/ ٤٨٠ - ٤٨٣) قال فيها: مسألة - في رجلين قال أحدهما إن أخوة يوسف عليه السلام أنبياء وقال الآخر ليسوا بأنبياء فمن أصاب.

الجواب - في أخوة يوسف عليه السلام قولان للعلماء والذي عليه الأكثرون سلفا وخلفا أنهم ليسوا بأنبياء أما السلف فلم ينقل عن أحد من الصحابة أنهم قالوا بنبوتهم- كذا قال ابن تيمية، ولا أحفظه عن أحد من التابعين وأما أتباع التابعين فنقل عن ابن زيد أنه قال بنبوتهم وتابعه على هذا فئة قليلة وأنكر ذلك أكثر الأتباع فمن بعدهم، وأما الخلف فالمفسرون فريق منهم من قال بقول ابن زيد كالبغوي ومنهم من بالغ في رده كالقرطبي والإمام فخر الدين وابن كثير ومنهم من حكى القولين بلا ترجيح كابن الجوزي ومنهم من لم يتعرض للمسألة ولكن ذكر ما يدل على عدم كونهم أنبياء كتفسيره الأسباط بمن نبئ من بني إسرائيل والمنزل إليهم بالمنزل إلى أنبيائهم كأبي الليث السمرقندي والواحدي ومنهم من لم يذكر شيئا من ذلك ولكن فسر الأسباط بأولاد يعقوب فحسبه ناس قولا بنبوتهم وإنما أريد بهم ذريته لا بنوه لصلبه كما سيأتي تحرير ذلك، قال القاضي عياض في الشفا أخوة يوسف لم تثبت نبوتهم وذكر الأسباط وعدهم في القرآن عند ذكر الأنبياء قال

=

=

المفسرون يريد من نبئ من أبناء الأسباط فانظر إلى هذا النقل عن المفسرين من مثل القاضي، وقال ابن كثير أعلم أنه لم يقم دليل على نبوة أخوة يوسف وظاهر سياق القرآن يدل على خلاف ذلك ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك وفي هذا نظر ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل ولم يذكروا سوى قوله تعالى (وما أنزل إلى إبراهيم إلى قوله والأسباط) وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب فذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون ولكن كل سبط من نسل رجل من أخوة يوسف ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم انتهى.

وقال الواحدي الأسباط من ولد إسحاق بمنزلة القبائل من ولد إسماعيل وكان في الأسباط أنبياء وقال في قوله تعالى (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) يعني المختصين بالنبوة منهم، وقال السمرقندي في قوله تعالى (وما أنزل إلينا) إلى قوله والأسباط السبط بلغتهم بمنزلة القبيلة للعرب وما أنزل على أنبيائهم وهم كانوا يعملون به فأضاف إليهم كما أنه أنزل على محمد ﷺ فأضاف إلى أمته فقال وما أنزل إلينا فكذلك الأسباط أنزل على أنبيائهم فأضاف إليهم لأنهم كانوا يعملون به وقال في قوله تعالى (إنا أوحينا إليك) إلى وقوله (والأسباط) هم أولاد يعقوب أوحى إلى أنبيائهم، ثم رأيت الشيخ تقي الدين بن تيمية ألف في هذه المسألة مؤلفا خاصا قال فيه ما ملخصه: الذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار أن أخوة يوسف ليسوا بأنبياء وليس في القرآن ولا عن النبي ﷺ بل ولا عن أصحابه خبر بأن الله تعالى نبأهم وإنما احتج من قال إنهم نبئوا بقوله في آيتي البقرة والنساء (والأسباط) وفسر الأسباط بأنهم أولاد يعقوب، والصواب أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه بل ذريته كما يقال فيهم أيضا بنو إسرائيل وقد كان في ذريته الأنبياء فالأسباط من بني

=

=

إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، قال أبو سعيد الضرير أصل السبط شجرة ملتفة كثيرة الأغصان فسموا الأسباط لكثرتهم فكما أن الأغصان من شجرة واحدة كذلك الأسباط كانوا من يعقوب ومثل السبط الحافد وكان الحسن والحسين سبطى رسول الله ﷺ والأسباط حفدة يعقوب ذرارى أبنائه الاثنى عشر، وقال تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما) فهذا صريح في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل كل سبطة أمة لا أنهم بنوه الاثنا عشر بل لا معنى لتسميتهم قبل أن تنتشر عنهم الأولاد أسباطا فالحال أن السبط هم الجماعة من الناس ومن قال الأسباط أولاد يعقوب لم يرد أنهم أولاده لصلبه بل أراد ذريته كما قال بنو إسرائيل وبنو آدم فتخصيص الآية ببنيه لصلبه غلط لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى ومن ادعاه فقد أخطأ بينا والصواب أيضا أن كونهم أسباطا إنما سموا به من عهد موسى للآية المتقدمة ومن حينئذ كانت فيهم النبوة فإنه لا يعرف أنه كان فيهم نبي قبل موسى إلا يوسف ومما يؤيد هذا أن الله تعالى لما ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم قال ومن ذريته داود وسليمان الآيات فذكر يوسف ومن معه ولم يذكر الأسباط فلو كان أخوة يوسف نبئوا كما نبئ يوسف لذكروا معه وأيضا فإن الله يذكر عن الأنبياء من المحامد والثناء ما يناسب النبوة وإن كان قبل النبوة كما قال عن موسى (ولما بلغ أشده الآية) وقال في يوسف كذلك، وفي الحديث أكرم الناس أكرم ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبي من نبي من نبي فلو كانت اخوته أنبياء كانوا قد شاركوه في هذا الكرم وهو تعالى لما قص قصة يوسف وما فعلوا معه ذكر اعترافهم بالخطيئة وطلبهم الاستغفار من أبيهم ولم يذكر من فضلهم ما يناسب النبوة ولا شيئا من خصائص الأنبياء بل ولا ذكر عنهم توبة باهرة كما ذكر عن ذنبه دون ذنبهم بل إنما حكى عنهم الاعتراف وطلب الاستغفار ولا ذكر سبحانه عن أحد من الأنبياء لا قبل

=

قَالُوا يَاأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١).

{قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُف وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ} لَقَائِمُونَ بِمَصَالِحِهِ.

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢).

{أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا} إِلَى الصَّحْرَاء {نَرْتَع وَنَلْعَب} بالنون والياء فيهما ننشط ونتسع {وإنا له لحافظون}.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ

=

النبوة ولا بعدها أنه فعل مثل هذه الأمور العظيمة من عقوق الوالد وقطيعة الرحم وإرقاق المسلم وبيعه إلى بلاد الكفر والكذب البين وغير ذلك مما حكاه عنهم ولم يحك عنهم شيئا يناسب الاصطفاء والاختصاص الموجب لنبوتهم بل الذي حكاه يخالف ذلك بخلاف ما حكاه عن يوسف، ثم إن القرآن يدل على أنه لم يأت أهل مصر نبي قبل موسى سوى يوسف لآية غافر، ولو كان من أخوة يوسف نبي لكان قد دعا أهل مصر وظهرت أخبار نبوته فلما لم يكن ذلك علم أنه لم يكن منهم نبي فهذه وجوه متعددة يقوى بعضها بعضا. وقد ذكر أهل السير أن أخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر وهو أيضا وأوصى بنقله إلى الشام فنقله موسى. والحاصل أن الغلط في دعوى نبوتهم حصل من ظن انهم هم الأسباط وليس كذلك إنما الأسباط ذريتهم الذين قطعوا أسباطا من عهد موسى كل سبط أمة عظيمة ولو كان المراد بالأسباط أبناء يعقوب لقال ويعقوب وبنيه فإنه أوجز وأبين واختير لفظ الأسباط على لفظ بني إسرائيل للإشارة إلى أن النبوة إنما حصلت فيهم من حين تقطيعهم أسباطا من عهد موسى- هذا كله كلام ابن تيمية والله أعلم.

(١٣).

{قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنَنِي أَنْ تَذْهَبُوا} أَيْ ذَهَابكُمْ {بِهِ} لِفِرَاقِهِ {وَأَخَاف أَنْ يَأْكُلهُ الذِّئْب} الْمُرَاد بِهِ الْجِنْس وَكَانَتْ أَرْضهمْ كَثِيرَة الذِّئَاب {وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ} مَشْغُولُونَ.

قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤).

{قَالُوا لَئِنْ} لَام قَسَم {أَكَلَهُ الذِّئْب وَنَحْنُ عُصْبَة} جَمَاعَة {إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ} عَاجِزُونَ فَأَرْسَلَهُ معهم.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥).

{فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا} عَزَمُوا {أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبّ} وَجَوَاب لَمَّا مَحْذُوف أَيْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِأَنْ نَزَعُوا قَمِيصه بَعْد ضَرْبه وَإِهَانَته وَإِرَادَة قَتْله وَأَدْلَوْهُ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى نِصْف الْبِئْر أَلْقَوْهُ لِيَمُوتَ فَسَقَطَ فِي الْمَاء ثُمَّ أَوَى إِلَى صَخْرَة فَنَادَوْهُ فَأَجَابَهُمْ يَظُنّ رَحْمَتهمْ فَأَرَادُوا رَضْخه بِصَخْرَةٍ فَمَنَعَهُمْ يَهُوذَا {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ} فِي الْجُبّ وَحْي حَقِيقَة وَلَهُ سَبْع عَشْرَة سَنَة أَوْ دُونهَا تَطْمِينًا لِقَلْبِهِ {لَتُنَبِّئَنَّهُمْ} بَعْد الْيَوْم {بِأَمْرِهِمْ} بِصَنِيعِهِمْ {هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} بِك حَال الْإِنْبَاء[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ يقول: لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون، قال: جيء بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف، يدين دينكم، وإنكم =

=

انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب، فأتيتم أباكم، فقلتم: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب، قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم، قال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم: {لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٢/ ٩٦): ثنا الحارث بن أبي أسامة ثنا عبد العزيز بن أبان ثنا صدقة بن عبادة الأسدي عن أبيه، قال: سمعت ابن عباس (فذكره). وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان: الأولى: عبد العزيز بن أبان هذا؛ متروك، وكذبه ابن معين وغيره؛ كما في "التقريب".

والثانية: عبادة بن نشيط الأسدي: ما روى عنه غير ابنه، ولم يوثقه إلا ابن حبان على قاعدته في توثيق المجاهيل.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٥١١) وزاد نسبته لابن أبي حاتم، فإن رواه من غير طريق عبد العزيز، فتبقى علة الحديث قائمة بجهالة عبادة.

* قوله تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ} [يوسف: ١١]، أي:"قال إخوة يوسف لأبيهم- محاولين استرضاءه لاستصحاب يوسف معهم-: يا أبانا «مالك لا تأمنا على يوسف» أي: أي شيء جعلك لا تأمنا على أخينا يوسف في خروجه معنا".

قال البيضاوي: أي:"لِمَ تخافنا عليه".

قال ابن كثير:"لما تواطئوا على أخذه وطَرْحه في البئر، كما أشار عليهم أخوهم الكبير رُوبيل، جاءوا أباهم يعقوب، عليه السلام، فقالوا: {يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ} وهذه توطئة وسلف ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك؛ لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له".

قال البغوي:"بدؤوا بالإنكار عليه في ترك إرساله معهم كأنهم قالوا: إنك لا ترسله

=

=

معنا أتخافنا عليه؟".

قال القرطبي:"قيل: لما تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلم الثاني عادوا إلى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول. وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتي".

قرأ أبو جعفر: {تأمنا} بلا إشمام، وهو رواية عن نافع، وقرأ الباقون: {تأمنا} بإشمام الضمة في النون الأولى المدغمة.

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ} [يوسف: ١١]، أي:"وإنا جميعًا له لمخلصون نريد له الخير ونشفق عليه".

قال القرطبي:"أي: في حفظه وحيطته حتى نرده إليك".

قال البيضاوي: أي: "ونحن نشفق عليه ونريد له الخير، أرادوا به استنزاله عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم".

قال السدي:"فلما أجمعوا أمرهم على ذلك، أتوا أباهم فقالوا: {يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ}".

(وإنا له لناصحون) والحال أننا له ناصحون، فهو أخونا ونحن لا نريد له إلا الخير الخالص، والود الصادق.

- وفي ندائهم له بلفظ (يا أبانا) استمالة لقلبه، وتحريك لعطفه، حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم.

والاستفهام في قولهم «مالك لا تأمنا.. » للتعجيب من عدم ائتمانهم عليه مع أنهم إخوته، وهو يوحى بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك في اصطحابه معهم ولكنها جميعا باءت بالفشل.

- قال البقاعي: قوله تعالى (إنا له لناصحون) والنصح دليل الأمانة وسببها، ولهذا قرنا في قوله (ناصح أمين).

=

=

والنصح: إخلاص العمل من فساد يتعمد، وضده الغش.

- قال الرازي: اعلم أن هذا الكلام يدل على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك وإلا لما قالوا هذا القول.

- قال ابن عاشور: ولعل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان لا يأذن ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالخروج مع إخوته للرعي أو للسبق خوفا عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم، ولم يكن يصرح لهم بأنه لا يأمنهم عليه ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه فنزلوه منزلة من لا يأمنهم، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان.

- **قال القرطبي**: قيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك ببني يعقوب! ولهذا قيل: الأب جلاب والأخ سلاب؛ فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال.

وقالوا ليعقوب: "يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف" وقيل: لما تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلم الثاني عادوا إلى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وقالوا هذا القول.

وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتي.

قوله تعالى: {أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ} [يوسف: ١٢]، أي:"أرسله معنا غدًا عندما نخرج إلى مراعينا يَسْعَ وينشط ويفرح، ويلعب".

الرتع والرتوع هو الاتساع في الملاذ والتنعم في العيش، يقال: رتع الإنسان في النعمة إذا أكل ما يطيب له ورتعت الدابة إذا أكلت حتى شبعت.

(ويلعب) المراد باللعب هنا الاستجمام ورفع السآمة، كالتسابق عن طريق العدو، وما يشبه ذلك من ألوان الرياضة المباحة.

قال الطبري: أي:"أرسله معنَا غدًا نلهو ونلعب وننعم، وننشط في الصحراء".

وفي قوله تعالى: {أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ} [يوسف: ١٢]، وجوه من

=

=

التفسير:

أحدها: يتلهَّى ويلعب، قاله الضحاك ، ومقاتل بن حيان.

الثاني: ينشط ويلعب. قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدي.

وفي رواية عن قتادة:"ينشط ويلهو".

الثالث: يسعى ويلهو. قاله قتادة.

الرابع: يسعى وينشط، قاله ابن عباس ، والضحاك -في رواية-.

الخامس: ينشط ويفرح. والعرب تقول: رتعت لك يعنى فرحت لك. قاله مقاتل.

السادس: يحفظ بعضنا بعضًا، نتكالأ نتحارس، ونلهو، قاله مجاهد.

قال ابن قتيبة:"{يرتع} بتسكين العين: يأكل. يقال: رتعت الإبل؛ إذا رعت. وأرتعتها: إذا تركتها ترعى، ومن قرأ: (نرتع) بكسر العين - أراد: نتحارس ويرعى بعضنا بعضا، أي: يحفظ. ومنه يقال: رعاك الله؛ أي: حفظك".

السابع: يرعى غنمه، وينظر ويعقل، فيعرف ما يعرف الرجُل، قاله ابن زيد ، ومنه قول الفرزدق:

راحَتْ بمسلمةَ البغالُ عَشِيَّةً ... فارعَيْ فَزارةُ لا هَنَاكِ المَرْتَعْ

قال الزجاج:"كأنهم قالوا يرعى ماشيته ويلعب، فيجتمع النفع والسرور".

الثامن: نطعم ونتنعم مأخوذ من «الرتعة»، وهي سعة المطعم والمشرب، قاله ابن شجرة ، وأنشد قول الشاعر:

أكُفرًا بعد رَدّ الموت عنّي ... وبعد عطائك المائة الرِّتاعا

أي: الراتعة لكثرة المرعى.

قال الماوردي:"ولم ينكر عليهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ اللعب لأنهم عنوا به ما كان مباحًا".

قرأ ابن كثير «نرتع ونلعب» بفتح النون فيهما وكسر العين فى «نرتع» من غير ياء من

=

=

ارتعيت، عن إسماعيل المكى قال سمعت ابن كثير يقرأ «نرتع»، بالنون وكسر العين {ويلعب} بالياء وجزم الباء وقرأ نافع {يرتع} مثل ابن كثير فى كسر العين وهى بياء {ويلعب} بالياء وجزم الباء، وقرأ أبو عمرو وابن عامر «نرتع ونلعب» بالنون فيهما وتسكين العين والباء، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى {يرتع ويلعب} بالياء وجزم العين والباء.

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [يوسف: ١٢]، أي:"وإنا لحافظون له من كل ما تخاف عليه".

قال البيضاوي: أي:"من أن يناله مكروه".

قال الطبري: "أيونحن حافظُوه من أن يناله شيء يكرهه أو يؤذيه".

قال ابن كثير:"يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك".

قال الثعلبي:"نحوطه ونحفظه حتى نرده إليك".

قال مقاتل: "في الكلام تقديم وتأخير؛ وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم: {أرسله معنا غدا} الآية. فقال أبوهم: {إني ليحزنني أن تذهبوا به} الآية. فحينئذ قالوا: {ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون}".

قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ} [يوسف: ١٣]، أي:"قال يعقوب: إني لَيؤلم نفسي مفارقته لي إذا ذهبتم به إلى المراعي".

قال الثعلبي:"أي: ذهابكم به".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال يعقوب لهم: إني ليحزنني أن تذهبوا به معكم إلى الصحراء".

قال السمعاني:"معناه: إني ليغمني أن تذهبوا به؛ والحزن هاهنا: ألم القلب بفراق المحبوب".

قال القرطبي:"أخبر عن حزنه لغيبته".

=

=

قوله تعالى: {وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ} [يوسف: ١٣]، أي:"وأخشى أن يأكله الذئب، وأنتم عنه غافلون منشغلون".

قال الطبري:"مخافة عليه من الذئب أن يأكله، وأنتم عنه غافلون لا تشعرون".

قال ابن كثير:"يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورَعْيتكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه".

قال السمعاني:"{غَافِلُونَ}، أي: ساهون".

وفي قوله تعالى: {وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ} [يوسف: ١٣]، قولان:

أحدهما: أنه قال ذلك لخوفه منهم عليه، وأنه أرادهم بالذئب، وخوفه إنما كان من قتلهم له فكنى عنهم بالذئب مسايرة لهم، قال ابن عباس "فسماهم ذئابًا".

قال السمعاني:"وليس هذا بشيء؛ لأنه لو خافهم عليه لم يدفعه إليهم، وما كان يجوز له ذلك، ولأنه معنى متكلف مستكره، فلا يجوز أن يصار إليه".

والقول الثاني: ما خافهم عليه، ولو خافهم ما أرسله معهم، وإنما خاف الذئب لأنه أغلب ما يخاف منه من الصحارى.

قال مقاتل:"وكانت أرضا مذئبة فمن ثم قال يعقوب: «أخاف أن يأكله الذئب».

وقال الكلبي: "بل رأى في منامه أن الذئب شَدّ على يوسف فلذلك خافه عليه".

قال أبو مجلز:"لا ينبغي لأحد أن يلقن ابنه الشر، فإن بني يعقوب لم يدروا أن الذئب يأكل الناس، حتى قال لهم أبوهم: إني أخاف أن يأكله الذئب".

قال ابن كثير: أي: يشق علي مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه.

والثاني: خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به.

=

=

وخص الذئب بالذكر لأن الأرض التي عرفوا بالنزول فيها كانت كثيرة الذئاب.

- قال ابن عاشور: وإنما ذكر يعقوب عليه السلام أن ذهابهم به غدا يحدث به حزنا مستقبلا ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به لأن شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن أباه.

- قال ابن عطية: وإنما خاف يعقوب الذئب دون سواه، وخصصه لأنه كان الحيوان العادي المنبت في القطر، وروي أن يعقوب كان رأى في منامه ذئبا يشتد على يوسف.

قوله تعالى: {قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ} [يوسف: ١٤]، أي:"قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين إدخال الطمأنينة على قلبه، وإزالة الحزن والخوف عن نفسه: يا أبانا والله لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا، ونحن عصابة من الرجال الأقوياء الحريصين على سلامته، إنا إذا في هذه الحالة لخاسرون خسارة عظيمة، نستحق بسببها عدم الصلاح لأي شيء نافع".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال إخوة يوسف لوالدهم يعقوب: لئن أكل يوسف الذئبُ في الصحراء، ونحن أحد عشر رجلا معه نحفظه- وهم العصبة- إنا إذًا لعجزة هالكون".

قال ابن كثير:"يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذًا لهالكون عاجزون".

قال مقاتل:"{لخاسرون}، يعنى: لعجزة.

قال محمد بن إسحاق:"فلم يزالوا يأتونه حتى أرسله معهم دعاه حين أرادوا الذهاب به فضمه إليه ودعا له".

عن السدي: "قال: لن أرسله معكم، أخاف أن يأكله الذئب... قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون، فأرسله معهم".

=

=

وقال السدي أيضا:"فلما ذهبوا به، أخرجوه وبه عليهم كرامة، فلما خرجوا به إلى البرية أظهروا به، فلما أخرجوه، وبه عليهم كرامة، فلما خرجوا به إلى البرية، أظهروا له العداوة، فجعل يضربه أحدهم فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيما فضربوه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح، يا أبتاه يا يعقوب، لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء، فلما كادوا أن يقتلوه قال يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقا ألا تقتلوه، فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوا فيه فجعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفة البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال: يا إخوتاه، ذروا علي قميصي أتوارى به في الجب، قالوا له: ادع الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر يؤنسوك، قال: فإني لم أر شيئا فدلوه في البئر، حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت فكان في البئر ماء فسقط فيه فلم يضره، ثم أوى إلى صخرة في البئر فقام عليها فجعل يبكي فناداه إخوته فظن أنها رحمة أدركتهم، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه، بصخرة فقام يهوذا فمنعهم وقال: قد أعطيتموني موثقا ألا تقتلوه، فكان يهوذا يأتيه بالطعام".

قوله تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ} [يوسف: ١٥]، أي:"فلما أقنعوا أباهم بإرسال يوسف معهم، وذهبوا به في الغد إلى حيث يريدون، وأجمعوا أمرهم على أن يلقوا به في قعر الجب، فعلوا به ما فعلوا من الأذى، ونفذوا ما يريدون تنفيذه بدون رحمة أو شفقة".

قال الطبري: أي:"فأرسله معهم، وأجمع رأيهم، وعزموا على {أن يجعلوه في غيابة الجب}".

قال السمعاني:"الإجماع: هو العزم على الشيء، والواو هاهنا مقحمة، والمعنى: فلما ذهبوا به أجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب. قال الشاعر:

أجمعوا أمرهم بليل فلما أصبحوا أصبحوا علي لصوصا.

قال ابن كثير: "قوله تعالى (وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب) هذا فيه تعظيم

=

=

لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراما له، وبسطا وشرحا لصدره، وإدخالا للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب عليه السلام، لما بعثه معهم ضمه إليه، وقبله ودعا له".

قال الآلوسي: "والروايات في كيفية إلقائه في الجب، وما قاله لإخوته عند إلقائه وما قالوه له كثيرة، وقد تضمنت ما يلين له الصخر، لكن ليس فيها ما له سند يعول عليه".

وقوله {وأجمعوا] أن يجعلوه في غيابة الجب} معناه: بأن يلقوه في غيابة الجب".

وذكر وهب بن منبه، وغيره أنهم لما أخذوا يوسف أخذوه بغاية الإكرام وجعلوا يحملونه إلى أن أصحروا به، فلما أصحروا به ألقوه وجعلوا يضربونه وهو يستغيث حتى كادوا يقتلونه، ثم إن يهوذا منعهم منه.

وذكروا أنه كان من أبناء اثنتى عشرة سنة. هذا هو المعروف.

وفي بعض الروايات: أنه كان ابن ست سنين. وفي بعض الروايات: أنه كان ابن سبع عشرة سنة. وهذا معروف أيضا.

ثم أنهم أجمعوا على أن يطرحوه في البئر، فجاءوا إلى بئر على غير الطريق واسع الأسفل، ضيق الرأس، فطرحوه فيها، فروي أنه كان يتعلق بجوانب البئر، فشدوا يديه ثم ألقوه. وفي بعض الروايات: أنهم جعلوه في دلو وأرسلوه في البئر، فلما بلغ الماء فإذا صخرة فقام عليها. وروي أنهم قالوا له: اقعد في ذلك الطاق من البئر، فإذا جاء من يستقي فتعلق بالدلو حتى تخرج.

قال محمد بن مسلم الطائفي: "لما صار يوسف في البئر دعا الله تعالى فقال: يا شاهدا غير غائب، ويا غالبا غير مغلوب، ويا قريبا غير بعيد، اجعل لي مما أنا فيه فرجا ومخرجا".

ثم اختلفت الرواية أنه كم بات في البئر؟ "فالأكثرون: أنه بات فيها ثلاث ليالي

=

=

والقول الآخر: أنه بات فيها ليلة".

قال السدي:"أخرجوه وبه عليهم كرامة، فلما خرجوا به إلى البرية أظهروا به، فلما أخرجوه، وبه عليهم كرامة، فلما خرجوا به إلى البرية، أظهروا له العداوة، فجعل يضربه أحدهم فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيما فضربوه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح، يا أبتاه يا يعقوب، لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء، فلما كادوا أن يقتلوه قال يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقا ألا تقتلوه، فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوا فيه فجعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفة البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال: يا إخوتاه، ذروا علي قميصي أتوارى به في الجب، قالوا له: ادع الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر يؤنسوك، قال: فإني لم أر شيئا فدلوه في البئر، حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت فكان في البئر ماء فسقط فيه فلم يضره، ثم أوى إلى صخرة في البئر فقام عليها فجعل يبكي فناداه إخوته فظن أنها رحمة أدركتهم، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه، بصخرة فقام يهوذا فمنعهم وقال: قد أعطيتموني موثقا ألا تقتلوه، فكان يهوذا يأتيه بالطعام".

قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [يوسف: ١٥].

يقول تعالى ذاكرا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطييبا لقلبه، وتثبيتا له: إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجا ومخرجا حسنا، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع.

قال الطبري:"يقول: وأوحينا إلى يوسف لتخبرنَّ إخوتك بفعلهم هذا الذي فعلوه بك، وهم لا يعلمون ولا يدرُون".

قال ابن كثير:"يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطييبًا لقلبه، وتثبيتًا له: إنك لا

=

=

تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع".

قال الرازي:"فائدة تقديم الوحي تأنيسه وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه".

قال مقاتل:"وذلك أن الله أوحى إلى يوسف- عليه السلام- بعد ما انصرف إخوته إنك ستخبر إخوتك بأمرهم هذا الذي ركبوا منك ثم قال: «وهم لا يشعرون» أنك يوسف حين تخبرهم فأنبأهم يوسف بعد ذلك حين قال لهم: وضرب الإناء. فقال: إن الإناء ليخبرني بما فعلتم بيوسف من الشر ونزع الثياب".

وفي قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ} [يوسف: ١٥]، وجهان:

أحدهما: يعني: وألهمناه، كما قال تعالى {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ} [القصص: ٧].

الثاني: أن الله تعالى أوحى إليه وهو في الجب، قاله مجاهد ، وقتادة.

قال مجاهد:"أوحى إلى يوسف وهو في الجبّ أنْ سينبئهم بما صنعوا، وهم لا يشعرون بذلك الوحي".

قال قتادة:"أوحى الله إليه وحيا وهو في الجب، فهون ذلك الوحي عليه ما صنع به".

قال السمعاني:"أكثر أهل التفسير على أن هذا الوحي إلى يوسف، وبعث الله جبريل يؤنسه ويبشره بالخروج ويخبره: أنه ينبئهم بما فعلوا ويجازيهم عليه وهم لا يعرفون أنه يوسف، وسيأتي بعد هذه القصة".

وفي قوله تعالى: {لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا} [يوسف: ١٥]، وجهان:

أحدهما: أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا، فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجب تبشيرًا له بالسلامة.

=

=

الثاني: أنه أوحى إليه بالذي يصنعون به، فعلى هذا يكون الوحي قبل إلقائه في الجب إنذارًا له.

قال قتادة:"أتاه الوحي من الله، وهو في البئر بما يريدوا أن يفعلوا به، وهم لا يشعرون بما أطلع الله عليه رسوله من أمرهم".

قال السعدي: "ففيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض".

وفي قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [يوسف: ١٥]، وجهان:

أحدهما: لا يشعرون بأنه أخوهم يوسف، قاله قتادة ، وابن جريج.

قال ابن عباس:"لما دخل إخوة يوسف فعرفهم وهم له منكرون، قال: جيء بالصُّوَاع، فوضعه على يده، ثم نقره فطنَّ، فقال: إنه ليخبرني هذا الجامُ أنه كان لكم أخٌ من أبيكم يقال له يوسف، يدنيه دونكم، وإنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب! قال: ثم نقره فطنَّ فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدَمٍ كذب! قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم! قال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم: {لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون}".

قال الفخر الرازي:"المراد أن الله تعالى أوحى إلى يوسف إنك لتخبرن إخوتك بصنيعهم بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف، والمقصود تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت قهره وقدرته.

وعلى هذا التفسير " كان هذا أمرا من الله تعالى نحو يوسف في أن يستر نفسه عن أبيه وأن لا يخبره بأحوال نفسه، فلهذا السبب كتم أخبار نفسه عن أبيه طول تلك المدة، مع علمه بوجد أبيه به خوفا من مخالفة أمر الله تعالى، وصبر على تجرع

=

=

تلك المرارة، فكان الله سبحانه وتعالى قد قضى على يعقوب عليه السلام أن يوصل إليه تلك الغموم الشديدة والهموم العظيمة ليكثر رجوعه إلى الله تعالى، وينقطع تعلق فكره عن الدنيا فيصل إلى درجة عالية في العبودية لا يمكن الوصول إليها إلا بتحمل المحن الشديدة".

الثاني: لا يشعرون بوحي الله تعالى له بالنبوة، قاله ابن عباس ، ومجاهد.

قال الزجاج:"أي: أنبأناه بالوحي وهم لا يشعرون أنه نبي قد أوحي إليه".

قال الفخر:"أن المراد إنا أوحينا إلى يوسف عليه السلام في البئر بأنك تنبئ إخوتك بهذه الأعمال، وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحي عليه، والفائدة في إخفاء نزول ذلك الوحي عنهم أنهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم فكانوا يقصدون قتله".

وقد اختلف العلماء في قوله (وأوحينا إليه) على قولين:

أحدهما: أن المراد منه الوحي والنبوة والرسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين.

ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام هل كان في ذلك الوقت بالغا أو كان صبيا، قال بعضهم: إنه كان في ذلك الوقت بالغا وكان سنه سبع عشرة سنة، وقال آخرون: إنه كان صغيرا إلا أن الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحا لقبول الوحي والنبوة كما في حق عيسى عليه السلام.

والقول الثاني: إن المراد من هذا الوحي الإلهام.

كما في قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى) وقوله (وأوحى ربك إلى النحل).

- وقال القرطبي: قوله تعالى (وأوحينآ إليه) دليل على نبوته في ذلك الوقت.

قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة: أعطاه الله النبوة وهو في الجب على حجر مرتفع عن الماء.

وقيل: كان وحي إلهام كقوله (وأوحى ربك إلى النحل).

=

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦).

{وجاءوا أباهم عشاء} وقت المساء {يبكون}.

قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧).

{قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِق} نَرْمِي {وَتَرَكْنَا يُوسُف عِنْد مَتَاعنَا} ثِيَابنَا {فَأَكَلَهُ الذِّئْب وَمَا أَنْت بِمُؤْمِنٍ} بِمُصَدِّقٍ {لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} عِنْدك لَاتَّهَمْتنَا فِي هَذِهِ الْقِصَّة لِمَحَبَّةِ يُوسُف فَكَيْفَ وَأَنْت تُسِيء الظَّنّ بِنَا.

وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨).

{وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصه} مَحَلّه نَصْب عَلَى الظَّرْفِيَّة أَيْ فَوْقه {بِدَمٍ كَذِب} أَيْ

=

وقيل: كان مناما.

والأول أظهر والله أعلم وأن جبريل جاءه بالوحي.

- وكان هذا الإيحاء- على الراجح- قبل أن يبلغ سن الحلم، وقبل أن يكون نبيا. وكان المقصود منه، إدخال الطمأنينة على قلبه، وتبشيره بما يصير إليه أمره من عز وغنى وسلطان.

- قال الشنقيطي: قوله تعالى (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب) أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أنه سينبئ إخوته بهذا الأمر الذي فعلوا به في حال كونهم لا يشعرون.

ثم صرح في هذه السورة الكريمة بأنه جل وعلا أنجز ذلك الوعد في قوله (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون). وصرح بعدم شعورهم بأنه يوسف في قوله (وجآء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون).

ذِي كَذِب بِأَنْ ذَبَحُوا سَخْلَة وَلَطَّخُوهُ بِدَمِهَا وَذُهِلُوا عَنْ شَقّه وَقَالُوا إنَّهُ دَمه {قَالَ} يَعْقُوب لَمَّا رَآهُ صَحِيحًا وَعَلِمَ كَذِبهمْ {بَلْ سَوَّلَتْ} زَيَّنَتْ {لَكُمْ أَنْفُسكُمْ أَمْرًا} فَفَعَلْتُمُوهُ بِهِ {فَصَبْر جَمِيل} لَا جَزَع فِيهِ وَهُوَ خَبَر مُبْتَدَأ مَحْذُوف أَيْ أَمْرِي {وَاَللهُ الْمُسْتَعَان} الْمَطْلُوب مِنْهُ الْعَوْن {عَلَى مَا تَصِفُونَ} تَذْكُرُونَ مِنْ أَمْر يُوسُف[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ} [يوسف: ١٦].

أي: لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليكونوا في الظلمة أجرأ على الاعتذار بالكذب.

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: وجاء إخوة يوسف أباهم، بعد ما ألقوا يوسف في غيابة الجبّ عشاء يبكون".

قال البقاعي: (عشاء) في ظلمة الليل لئلا يتفرس أبيهم في وجوههم إذا رآها في ضياء النهار ضد ما جاؤوا به من الاعتذار، وقد قيل: لا تطلب الحاجة بالليل فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار.

والآية دالة على أن البكاء لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع.

قال السدي:"ثم إنهم رجعوا إلى أبيهم فأخذوا جديا من الغنم فذبحوه، ونضحوا دمه على القميص، ثم أقبلوا على أبيهم عشاء يبكون".

قال محمد بن إسحاق: "فلما انطلقت به العير، وعرف إخوته أن قد ذهب به، جاؤ أباهم عشاء يبكون".

قال القرطبي:"وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار، فروي أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال: ما بكم؟ أجرى في الغنم شي؟ قالوا: لا. قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذهبنا نستبق فأكله =

=

الذئب، فبكى وصاح وقال: أين قميصه؟".

روى:"أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت، فقال له الشعبي: يا أبا أمية، أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة: ولا ينبغي لأحد أن يقضى إلا بما أمر أن يقضى به من السنة المرضية".

قوله تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ} [يوسف: ١٧]، أي:"نتسابق عن طريق الرمي بالسهام، أو على الخيل، أو على الأقدام. يقال: فلان وفلان استبقا أي: تسابقا حتى ينظر أيهما يسبق الآخر".

وفي قوله تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ} [يوسف: ١٧]، وجوه:

أحدها: معناه ننتصل، من السباق في الرمي، قاله ابن قتيبة ، والزجاج ، والطبري ، والزمخشري.

الثاني: أنهم أرادوا السبق بالسعي على أقدامهم.

الثالث: أنهم عنوا استباقهم في العمل الذي تشاغلوا به من الرعي والاحتطاب.

الرابع: أي: نتصيد. قاله مقاتل ، قال الماوردي:"وأنهم يستبقون على اقتناص الصيد".

قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ} [يوسف: ١٧]، أي:"تركنا يوسف عند ثيابنا وحوائجنا ليحفظها فجاء الذئب فافترسه".

قال السدي:"أقبلوا على أبيهم عشاء يبكون، فلما سمع أصواتهم فزع وقال: ما لكم يا بنيّ؟ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا! قال: فما فعل يوسف؟ قالوا: {يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب} ! فبكى الشيخ وصاح بأعلى صوته، وقال: أين القميص؟ فجاءوه بالقميص عليه دمٌ كذب، فأخذ القميص فطرحه على وجهه، ثم بكى حتى تخضَّب وجهه من دم القميص".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يوسف: ١٧]، أي:"وما أنت

=

=

بمصدِّق لنا ولو كنا موصوفين بالصدق؛ لشدة حبك ليوسف".

عن السدي: "{وما أنت بمؤمن لنا}، قال: بمصدق لنا!".

قال محمد بن إسحاق:"أي: ما أنت بمصدقنا ولو كنا صادقين وإن كنا قد صدقنا".

قال الزمخشري: أي:"بمصدق لنا ولو كنا صادقين ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة، لشدة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيئ الظن بنا، غير واثق بقولنا؟".

قال الزجاج:"ليس يريدون أن يعقوب عليه السلام لا يصدق من يعلم أنه صادق، هذا محال، لا يوصف الأنبياء بذلك، ولكن المعنى: لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتهمتنا في يوسف لمحبتك إياه، وظننت أنا قد كذبناك".

نقل القرطبي عن السدي وابن حبان: "إنه لما قالوا أكله الذئب خر مغشيا عليه، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك، ونادوه فلم يجب، قال وهب: ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نفس يعقوب فلم يحس بنفس، ولم يتحرك له عرق، فقال لهم يهوذا: ويل لنا من ديان يوم الدين! ضيعنا أخانا، وقتلنا أبانا، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السحر، فأفاق ورأسه في حجر روبيل، فقال: يا روبيل! ألم آتمنك على ولدي؟ ألم أعهد إليك عهدا؟ فقال: يا أبت كف عني بكاءك أخبرك، فكف يعقوب بكاءه فقال: يا أبت {إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب}".

قوله تعالى: {وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ} [يوسف: ١٨]، أي:"وجاءوا على ثوبه بدمٍ كاذب".

قال ابن قتيبة:"أي: مكذوب به".

قال قتادة:"الدم الكذب، لم يكن دم يوسف".

قال الصابوني:"وُصِفَ بالمصدر مبالغةً كأنه نفسُ الكذب وعينُه".

=

=

- قال ابن عطية: روي أنهم أخذوا سخلة أو جديا فذبحوه ولطخوا به قميص يوسف، وقالوا ليعقوب: هذا قميصه، فأخذه ولطخ به وجهه وبكى، ثم تأمله فلم ير خرقا ولا أثر ناب.

فاستدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان الذئب حليما، يأكل يوسف ولا يخرق قميصه؟ - قص هذا القصص ابن عباس وغيره، وأجمعوا على أنه استدل على كذبهم لصحة القميص

- قال الرازي: إنما جاؤوا بهذا القميص الملطخ بالدم ليوهم كونهم صادقين في مقالتهم.

قيل: ذبحوا جديا ولطخوا ذلك القميص بدمه.

- روي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أخذ القميص منهم وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق قميصه.

عن ابن عباس، في قوله: "{بدم كذب}، قال: بدم سخلة". قال ابن عباس:"لو أكله السبع لخرق القميص" ، وفي رواية:"لما أتي يعقوب بقميص يوسف، فلم ير فيه خرقًا، قال: كذبتم، لو أكله السبع لخرق قميصه!".

عن مجاهد في قول الله: "{بدم كذب}، قال: دم سخلة، يعني: شاة".

قال السدي:"ذبحوا جديًا من الغنم، ثم لطَّخوا القميص بدمه، ثم أقبلوا إلى أبيهم، فقال يعقوب: إن كان هذا الذئبُ لرحيما! كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه؟ يا بني، يا يوسف ما فعل بك بنو الإماء!".

قال الشعبي:"ذبحوا جديًا ولطخوه من دمه. فلما نظر يعقوب إلى القميص صحيحًا، عرف أن القوم كذبوه. فقال لهم: إن كان هذا الذئب لحليمًا، حيث رَحم القميص ولم يرحم ابني! فعرف أنهم قد كذبوه".

=

=

قال الحسن:"جيء بقميص يوسف إلى يعقوب، فجعل ينظر إليه فيرى أثر الدم، ولا يرى فيه خَرْقًا، قال: يا بني ما كنت أعهدُ الذئب حليمًا؟". وفي رواية:"أكل ابني، وأبقى على قميصه!".

قال عامر:"في قميص يوسف ثلاث آيات: حين ألقي على وجه أبيه فارتد بصيرًا، وحين قُدَّ منْ دُبُر، وحين جاؤوا على قميصه بدم كذب".

قوله تعالى: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا} [يوسف: ١٨]، أي:"فقال لهم أبوهم يعقوب عليه السلام: ما الأمر كما تقولون، بل زيَّنت لكم أنفسكم الأمَّارة بالسوء أمرًا قبيحًا في يوسف، فرأيتموه حسنًا وفعلتموه".

وفي قوله تعالى: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا} [يوسف: ١٨]، وجهان:

أحدهما: بل أمرتكم أنفسكم، رواه الضحاك عن ابن عباس.

الثاني: بل زينت لكم أنفسكم أمرًا، قاله قتادة.

وفي ردّ يعقوب عليهم وتكذيبه لهم ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه كان ذلك بوحي من الله تعالى إليه بعد فعلهم.

الثاني: أنه كان عنده علم بذلك قديم أطلعه الله عليه.

الثالث: أنه قال ذلك حدسًا بصائب رأيه وصدق ظنه.

ومن اللطائف: "أنهم ذهبوا وجاءوا بذئب وقالوا: هذا الذي أكل ولدك، فقال له يعقوب: يا ذئب! أكلت ولدي وثمرة فؤادي؟ فأنطقه الله تعالى وقال: بالله ما رأيت وجه ابنك قط، فقال: فكيف وقعت بأرض كنعان؟ فقال: جئت لصلة قرابة". أورده النقاش في تفسيره ، والله أعلم

قوله تعالى: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} [يوسف: ١٨]، أي:"فصبري صبر جميل لا شكوى معه لأحد من الخلق".

قال الطبري:"يقول: فصبري على ما فعلتم بي في أمر يوسف صبرٌ جميل= أو فهو

=

=

صبر جميل".

قال السمعاني:"معناه: فأمري صبر جميل. وقيل: فصبر جميل أختاره".

وفي "الصبر الجميل"، وجهان:

أحدهما: أنه الصبر الذي لا جزع فيه: قاله مجاهد.

الثاني: أنه الصبر الذي لا شكوى فيه.

قال السمعاني:"الصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه ولا جزع".

عن حبان بن أبي جبلة، قال: "سئل رسول الله ﷺ عن قوله: {فصبر جميل}، قال: صبر لا شكوى فيه. قال: من بثّ فلم يصبر".

أخرج الطبري بسنده عن الثوري، عن بعض أصحابه قال: "يقال: ثلاث من الصبر: أن لا تحدِّث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكّي نفسك، قال أخبرنا الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت: أن يعقوب النبيّ ﷺ كان قد سقط حاجبَاه، فكان يرفعهما بخرقةٍ، فقيل له: ما هذا؟ قال: طول الزمان، وكثرة الأحزان! فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: يا يعقوب، أتشكوني؟ قال: يا رب خطيئة أخطأتها، فاغفرها لي".

قال سهل التستري:"الصبر مع الرضا. قيل: ما علامته؟ قال: أن لا يجزع فيه. فسئل: بأي شيء يحصل التجمل بالصبر؟ قال: بالمعرفة بأن الله تعالى معك، وبراحة العافية، فإنما مثل الصبر مثل قدح أعلاه الصبر وأسفله العسل. ثم قال: عجبت ممن لم يصبروا كيف لم يصبروا للحال، ورب العزة يقول: إن الله مع الصابرين [البقرة: ١٥٣]".

وقال ابن الجوزي: وقد كان السلف يكرهون الشكوى إلى الخلق، والشكوى وإن كان فيها راحة إلا أنها تدل على ضعف وذل والصبر عنها دليل على قوة وعز.

قال ابن تيمية: والصبر الجميل صبر بلا شكوى قال يعقوب عليه السلام (إنما أشكو

=

=

بثي وحزني الى الله) مع قوله (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل.

- يقول أحد الشعراء الحكماء:

وإذا عراك بلية فاصبر لها * صبر الكريم فإنه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما * تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

قال عمر: ما في الشكوى إلى الخلق إلا أن تحزن صديقك، وتشمت عدوك.

وقال الأحنف: شكوت إلى عمي في بطني فنهرني، ثم قال: يا بن أخي لا تشك إلى أحد ما نزل بك، فإنما الناس رجلان، صديق تسوءه بهذه الشكوى وتؤلمه،، وعدو تسره.

قال ابن القيم: الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم، ورأى بعض السلف رجلا يشكو إلى رجل فاقته وضرورته، فقال: يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك.

قوله تعالى: {وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: ١٨]، أي:"وأستعين بالله على احتمال ما تصفون من الكذب، لا على حولي وقوتي".

قال الطبري:"يقول: واللهَ أستعين على كفايتي شرّ ما تصفون من الكذب".

عن قتادة: "{والله المستعان على ما تصفون}، أي: على ما تكذبون".

قال السمعاني:"معناه: والله المستعان على الصبر على ما تكذبون".

قال ابن عاشور: "وإنما فوض يعقوب عليه السلام الأمر إلى الله ولم يسع للكشف عن مصير يوسف عليه السلام لأنه علم تعذر ذلك عليه لكبر سنه، ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك".

(تنبيه): حكم العمل بالقرائن عند غياب الأدلة:

=

=

وقد جاء إخوة يوسف على قميصه بدم ليس دمه؛ وذلك لإيجاد قرينة تثبت صدقهم عنده، ولم يقبل يعقوب ذلك، وفي هذا أن القرينة إن كانت ظنية أو متوهمة لا يقبلها القاضي في الخصومات وغيرها منفردة، ويعقوب لم يقبل تلك القرينة التي جاؤوا بها، وهي الدم؛ لقرائن قابلتها أو غلبتها:

أولها: أن يعقوب حذر من أكل الذئب ليوسف؛ لعلمه أنه أقرب خطر يمكن أن يصل إلى يوسف، والعادة: أن الرجل إن حذر من شيء ونبه عليه أن يحذر منه وينتبه إليه، فجعل يعقوب ذلك قرينة على عدم صدقهم؛ لأنه حذر من ذلك، وفي الظاهر فإنهم إما أن يكونوا مفرطين، وإما أن يكونوا كاذبين؛ وكلاهما لا يخرجون فبه عن اللوم.

ثانيها: أنهم جاؤوا بدم كذب ليس دم إنسان، وصاحب الخبرة يفرق بينهما، وجاؤوا بقميصه وليس فيه تمزيق من ناب الذئب وأظفاره؛ كما قال ابن عباس: "لو أكله الذئب، لخرق القميص". وبنحوه قال الشعبي، وقد قال قتادة والسدي: "إن يعقوب قال: إن هذا لسبع رحيم!".

ثالثها: أنهم جاؤوا بقميصه ولم يأتوا بشيء من بدنه، ومعلوم أن الذئب لا يبتلع الإنسان كابتلاع الحوت؛ فكيف استلوا قميصه ولم يجدوا جسده أو شيئا منه؟ !

رابعها: أن يعقوب علم من سالف أمرهم ما يدل على كذبهم، وهذا في قوله: {بل سولت لكم أنفسكم أمرا} ؛ فكأنه استدل بحال نفسهم السابقة معه على أمر لاحق، وهو التخلص منه.

وجمع القرائن عند الفصل -خاصة في الدماء- من واجبات القاضي، فإن أخذ بقرينة ولم يسبر ما يقابلها ويجمعه، وقع في الخطإ في حكمه عند غياب الأدلة؛ فإن القرائن تقوم مقام الأدلة إن غابت.

مسألة: في حكم الاستعانة.

=

=

تعريفه لغة: استعان أصلها من عون، والعون: المعاونة والمظاهرة يقال فلان عوني: أي معيني.

والاستعانة شرعا: طلب العون، والاستعانة بالله عبادة بل أجل العبادات وهي تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه.

قال شيخ الإسلام: "تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة قال تعالى: {إياك نعبد وإياك نستعين (٥)} [الفاتحة: ٥]".

* الدليل من الكتاب: قال تعالى: {إياك نعبد وإياك نستعين (٥)}.

* الدليل من السنة: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت ردف النبي ﷺ فقال لي: "يا غلام إني محدثك حديثا احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله فقد رفعت الأقلام وجفت الكتب، فلو جاءت الأمة ينفعونك بشيء لم يكتبه الله عَزَّ وَجَلَّ لك لما استطاعت ولو أرادت أن تضرك بشيء لم يكتبه الله لك ما استطاعت".

* أقوال العلماء: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصري ما يقول في قصائده في مدح الرسول ﷺ من الاستغاثة به مثل قوله: بك أستغيث، وأستعين، وأستنجد ونحو ذلك. وكذلك ما يفعله كثير من الناس من استنجاد الصالحين والمتشبهين بهم والاستعانة بهم أحياء وأمواتا فإني أنكرت ذلك في مجالس عامة وخاصة وبينت للناس التوحيد ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة".

وقال: رَحِمَهُ اللَّهُ: "فالعبادة والاستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء والاستغاثة والخشية والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستغفار كل هذا لله وحده لا شريك له، فالعبادة متعلقة بألوهيته، والاستعانة متعلقة بربوبيته، والله رب العالمين لا إله إلا هو ولا رب لنا غيره لا ملك ولا نبي ولا غيره".

=

=

* حكم الاستعانة بالمخلوق:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والمخلوق يطلب منه من هذه الأمور ما يقدر عليه منها".

قال الشوكاني: "ولا خلاف أنه يجوز أن يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه من أمور الدنيا كأن يستعين به على أن يحمل معه متاعه".

وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة ما نصه: "الاستعانة بالحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه جائزة"، "ويمكن الاستعانة بالأحياء من الناس في حدود الأسباب العادية ببذل مال أو شفاعة عند ذي سلطان مثلا، أو إنقاذ من مكروه ونحو ذلك من الوسائل التي هي من طاقة البشر حسب ما هو معتاد ومعروف بينهم، أما ما كان فوق قوى البشر من الأسباب غير العادية فليس ذلك إلى العباد بل هو إلى الله وحده لا شريك له". وجاء فيها أيضا: "فالاستعانة بغير الله فيما هو من اختصاص الله تعالى نوع من الشرك الأكبر الذي يخرج من فعله من ملة الإسلام وكذا الاستعانة بالأموات أو الاستعانة بالغائبين عن نظر من استعان بهم من ملائكة أو جن أو إنس في جلب نفع أو دفع ضر نوع من الشرك الأكبر الذي لا يغفر الله إلا لمن تاب منه؛ لأن هذا النوع من الاستعانة قربة وعبادة وهي لا تجوز إلا لله خالصة لوجهه الكريم".

وجاء أيضا: "إن الاستعانة بالجن واللجوء إليهم في قضاء الحاجات من الإضرار بأحد أو نفعه شرك في العبادة؛ لأنه نوع من الاستمتاع بالجني بإجابته سؤاله وقضائه حوائجه في نظير استمتاع الجني بتعظيم الإنسي له ولجوئه إليه واستعانته به في تحقيق رغبته".

وجاء في موضع آخر من فتاوى اللجنة: "إن الاستعانة بالجن والملائكة والاستغاثة بهم لدفع ضر أو جلب نفع أو للتحصن من شر الجن شرك أكبر يخرج

=

=
من ملة الإسلام والعياذ بالله".
وقد لخص الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحكام الاستعانة فقال: "هي أنواع:
الأول: الاستعانة بالله وهي: الاستعانة المتضمنة لكمال الذل من العبد لربه، وتفويض الأمر إليه، واعتقاد كفايته وهذه لا تكون إلا لله تعالى ودليلها قوله تعالى: {إياك نعبد وإياك نستعين}. ووجه الاختصاص أن الله تعالى قدم المعمول {إياك} وقاعدة اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص وعلى هذا يكون صرف هذا النوع لغير الله تعالى شركا مخرجا عن الملة.
الثاني: الاستعانة بالمخلوق على أمر قادر عليه، فهذه على حسب المستعان عليه فإن كانت على بر فهي جائزة للمستعين مشروعة للمعين لقوله تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى} [المائدة: ٢] وإن كانت على إثم فهي حرام على المستعين والمعين لقوله تعالى: {ولا تعاونوا على الإثم والعدوان}. وإن كانت على مباح فهي جائزة للمستعين والمعين لكن المعين قد يثاب على ذلك ثواب الإحسان إلى الغير ومن ثم تكون في حقه مشروعة لقوله تعالى: {وأحسنوا إن الله يحب المحسنين} [البقرة: ١٩٥].
الثالث: الاستعانة بمخلوق حي حاضر غير قادر فهذه لغو لا طائل تحتها مثل أن يستعين بشخص ضعيف على حمل شيء ثقيل.
الرابع: الاستعانة بالأموات مطلقا أو بالأحياء على أمر غائب لا يقدرون على مباشرته فهذا شرك لأنه لا يقع إلا من شخص يعتقد أن لهؤلاء تصرفا خفيا في الكون.
الخامس: الاستعانة بالأعمال والأحوال المحبوبة إلى الله تعالى وهذه مشروعة بأمر الله تعالى في قوله: {واستعينوا بالصبر والصلاة} [البقرة: ٤٥]".
=

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩).

{وَجَاءَتْ سَيَّارَة} مُسَافِرُونَ مِنْ مَدْيَن إلَى مِصْر فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ جُبّ يُوسُف {فَأَرْسَلُوا وَارِدهمْ} الَّذِي يَرِد الْمَاء لِيَسْتَقِيَ مِنْهُ {فَأَدْلَى} أَرْسَلَ {دَلْوه} فِي الْبِئْر فَتَعَلَّقَ بِهَا يُوسُف فَأَخْرَجَهُ فَلَمَّا رَآهُ {قَالَ يَا بُشْرَايَ} وَفِي قِرَاءَة بُشْرَى وَنِدَاؤُهَا مَجَاز أَيْ أُحْضُرِي فَهَذَا وَقْتك {هَذَا غُلَام} فَعَلِمَ بِهِ إخْوَته فَأَتَوْهُ {وَأَسَرُّوهُ} أَيْ أَخْفَوْا أَمْره جَاعِلِيهِ {بِضَاعَة} بِأَنْ قَالُوا هَذَا عَبْدنَا أَبَقَ وَسَكَتَ يُوسُف خَوْفًا مِنْ أن يقتلوه {والله عليم بما يعملون}.

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠).

{وشروه} باعوه منهم {بِثمن بَخْس} نَاقِص {دَرَاهِم مَعْدُودَة} عِشْرِينَ أَوْ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ {وَكَانُوا} أَيْ إخْوَته {فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} فَجَاءَتْ بِهِ السَّيَّارَة إلَى مِصْر فَبَاعَهُ الَّذِي اشْتَرَاهُ بِعِشْرِينَ دِينَارًا وَزَوْجَيْ نَعْل وَثَوْبَيْنِ[1].

=

ضابط الاستعانة الشركية:

إذا كانت الاستعانة بالأموات أو الغائبين أو الأصنام ونحوها أو استعانة بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله فهي شرك أكبر مخرج من الإسلام. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يطلب إلا من الله".

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: "فالاستعانة بغيره فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك في الإلهية والربوبية".

وقال الشوكاني: "وأما ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ فلا يستعان فيه إلا به ومنه {إياك نعبد وإياك نستعين}".

(١) قوله تعالى: {وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ} [يوسف: ١٩]، أي:"وجاءت جماعة من
=

=

المسافرين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وجاءت مارة الطريق من المسافرين".

والسيارة: "هم القوم المسافرون، سموا سيارة لأنهم يسيرون في الأرض".

قوله تعالى: {فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ} [يوسف: ١٩]، أي:"فأرسلوا مَن يطلب لهم الماء، فلما أرسل دلوه في البئر تعلَّق بها يوسف".

قال الطبري:"{فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ}، وهو الذي يرد المنهل والمنزل، أرسل دلوه في البئر".

قال مقاتل:"فبعثوا رجلين مالك بن دعر، وعود بن عامر، إلى الماء فأدلى أحدهم دلوه واسمه مالك بن دعر بن مدين بن إبراهيم خليل الرحمن".

و"الوارد": "هو الذي يقدم القوم ليستقي الماء من البئر. قال الأصمعي: تقول العرب: أدليت الدلو إذا أرسلتها في البئر، ودليتها إذا نزعتها من البئر".

قوله (فأدلى دلوه) أي: أرسلها ليملأها، يقال أدلاها إذا أرسل الدلو ليملأها، ودلاها إذا أخرجها ملأى.

قال قتادة:"أرسلوا رسولهم، فلما أدلى دلوه تشبث بها الغلام، {قال يا بشرى هذا غلام}".

قوله تعالى: {قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ} [يوسف: ١٩]، أي:"ففرح وارد الماء وابتهج بالعثور على غلام، وقال: يا بشري هذا غلام نفيس".

قال الطبري:"فتعلق به يوسف، فخرج، فقال المدلي: {يا بشرى هذا غلام}".

قال مقاتل:"فتعلق يوسف بالدلو فصاح مالك قال فقال: يا عود للذي يسقى- وهو عود بن عامر بن الدرة ابن حزام- يا بشرى يقول: يا مالك أبشر هذا غلام".

قال قتادة:"تباشروا به حين أخرجوه. وهي بئر بأرض بيت المقدس معلوم مكانها".

=

=

قال قتادة:"بشرهم واردهم حين وجد يوسف".

قال قتادة:"فتشبث الغلام بالدلو، فلما خرج قال: {يا بشرى هذا غلام}".

قال السدي:"فتعلق يوسف بالحبل، فخرج، فلما رآه صاحب الحبل نادى رجلا من أصحابه يقال له"بشرى": {يا بشرى هذا غلام}".

وقال السدي:"نادى رجلا من أصحابه يقال له" بشرى"، فقال: {يا بشرى هذا غلام}".

قال السدي:"كان اسم صاحبه"بشرى"".

قال السدي:"اسم الغلام"بشرى" ؛ قال:"يا بشرى"، كما تقول": يا زيد"".

قال أبو السعود: كأنه نادى البشرى، وقال تعالي فهذا أوانك حيث فاز بنعمة جليلة.

- قال ابن كثير: زعم السدي أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه، معلما له أنه أصاب غلاما. وهذا القول من السدي غريب؛ لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم. وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريدها، كما تقول العرب: "يا نفس اصبري"، و"يا غلام أقبل"، بحذف حرف الإضافة.

- قال الرازي: واعلم أن سبب البشارة هو أنهم وجدوا غلاما في غاية الحسن وقالوا: نبيعه بثمن عظيم ويصير ذلك سببا لحصول الغنى.

قوله تعالى: {وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً} [يوسف: ١٩].

الضمير يعود إلى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه في الجب، وذلك لأنهم قالوا: إن قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيه، وإن قلنا اشتريناه: سألونا الشركة، فالأصوب أن نقول: إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم

=

=

بمصر. وهذا اختيار ابن جرير.

وفي قوله تعالى: {وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً} [يوسف: ١٩]، وجوه:

أحدها: أن إخوة يوسف كانوا بقرب الجب، فلما رأوا الوارد قد أخرجه قالوا هذا عبدنا قد أوثقناه فباعوه وأسرّوا بيعه بثمن جعلوه بضاعة لهم، قاله ابن عباس.

قال أبو الصخر:"إنهم لما ألقوه في الجب، بصروا العير قد أقبلت، فلما أرسل أهل العير واردهم، وأدلى دلوه أحس بالغلام، فنادى أصحابه فلما أتوا، قال لهم إخوة يوسف: هذا الغلام الذي في الجب غلام لنا مملوك، فهل لكم أن تبتاعوه منا؟ وأسروا بيعهم بينهم".

الثاني: أن الواردين إلى الجُب أسرّوا ابتياعه عن باقي أصحابهم ليكون بضاعة لهم كيلا يشركوهم فيه لرخصه، وتواصوا أنه بضاعة استبضعوها من أهل الماء، قاله مجاهد ، والسدي ، وبه قال الفراء.

قال مقاتل:"يعني: أخفوه من أصحابهم الذين مروا على الماء في الرفقة وقالوا: هو بضاعة لأهل الماء نبيعه لهم بمصر، لأنهما لو قالا: إنا وجدناه أو اشتريناه سألوهما الشركة فيه".

الثالث: أن الذين شروه أسرُّوا بيعه على الملك حتى لا يعلم به أصحابهم وذكروا أنه بضاعة لهم.

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال بالصواب: قولُ من قال:"وأسرَّ وارد القوم المدلي دلوَه ومن معه من أصحابه، من رفقته السيارة، أمرَ يوسف أنهم أشتروه، خيفةً منهم أن يستشركوهم، وقالوا لهم: هو بضاعة أبضَعَها معنا أهل الماء، وذلك أنه عقيب الخبر عنه، فلأن يكون ما وليه من الخبر خبرًا عنه، أشبهُ من أن يكون خبرًا عمَّن هو بالخبر عنه غيرُ متَّصِل".

وحكى جويبر عن الضحاك "أنه ألقيَ في الجب وهو ابن ست سنين، وبقي فيه إلى

=

=

أن أخرجته السيارة منه ثلاثة أيام" وإسناده ضعيف جدا.

وقال الكلبي: "ألقي فيه وهو ابن سبع عشرة سنة".

- قال ابن كثير: قوله (وأسروه بضاعة) أي: وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. قاله مجاهد، والسدي، وابن جرير. هذا قول.

وقيل: (وأسروه بضاعة) يعني: إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع. فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه (يا بشرى هذا غلام) يباع، فباعه إخوته.

- وقال أبو السعود: قوله تعالى (وأسروه) أي: أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة.

وقيل: أخفوا أمره ووجدانهم له في الجب وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر.

وقيل: الضمير لإخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ولا يخفى ما فيه من البعد.

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [يوسف: ١٩].

أي: والله عليم بما يعملون من استرقاق من ليس لهم حق في استرقاقه، ومن كان حقه أن يسألوا عن قومه ويبلغوه إليهم، لأنهم قد علموا خبره، أو كان من حقهم أن يسألوه لأنه كان مستطيعا أن يخبرهم بخبره.

محمد بن إسحاق:" {العليم}، أي: علم بما يخفون".

قال مقاتل" يعني: بما يقولون من الكذب".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله ذو علم بما يعمله باعَةُ يوسف ومشتروه في

=

=

أمره، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولكنه ترك تغيير ذلك ليمضي فيه وفيهم حكمه السابق في علمه، وليري إخوة يوسف ويوسف وأباه قدرتَه فيه، وهذا، وإن كان خبراً من الله تعالى ذكره عن يوسف نبيّه ﷺ، فإنه تذكير من الله نبيَّه محمدًا ﷺ، وتسلية منه له عما كان يلقى من أقربائه وأنسبائه المشركين من الأذى فيه، يقول: فاصبر، يا محمد، على ما نالك في الله، فإنّي قادرٌ على تغيير ما ينالك به هؤلاء المشركون، كما كنت قادرًا على تغيير ما لقي يوسف من إخوته في حال ما كانوا يفعلون به ما فعلوا، ولم يكن تركي ذلك لهوان يوسف عليّ، ولكن لماضي علمي فيه وفي إخوته، فكذلك تركي تغييرَ ما ينالك به هؤلاء المشركون لغير هوان بك عليّ، ولكن لسابق علمي فيك وفيهم، ثم يصير أمرُك وأمرهم إلى عُلوّك عليهم، وإذعانهم لك، كما صار أمر إخوة يوسف إلى الإذعان ليوسف بالسؤدد عليهم، وعلوِّ يوسف عليهم".

قوله تعالى: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ} [يوسف: ٢٠]، أي:"وباعه إخوته للواردين من المسافرين بثمن قليل من الدراهم".

عن عطية، عن أبيه:"{وشروه}، قال: باعوه".

قال أبو عبيدة:"«وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ»،أي: باعوه، فإذا بعته أنت قلت: اشتريته".

قال الماوردي:"معنى {شروه}، أي: باعوه، ومنه قول ابن مفرغ الحميري:

وشريت بردًا ليتني ... من بعدِ بُرْدٍ كنت هامه

واسم «البيع والشراء»، يطلق على كل واحد من البائع والمشتري لأن كل واحد منهما بائع لما في يده مشتر لما في يد صاحبه".

وفي بائعه قولان:

أحدهما: أنهم إخوته باعوه على السيارة حين أخرجوه من الجب فادّعوه عبدًا، قاله ابن عباس ، ومجاهد. وهذا اختيار ابن جرير. قال ابن الجوزي: وهو قول

=

=

الأكثرين.

- قال السعدي: والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يسروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

- قال ابن كثير: قول تعالى (وشروه بثمن بخس) وباعه إخوته بثمن قليل، قاله مجاهد وعكرمة.

والبخس: هو النقص، كما قال تعالى (فلا يخاف بخسا ولا رهقا) أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دون قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الضمير في قوله: (وشروه) عائد على إخوة يوسف.

القول الثاني: أن السيارة باعوه عن ملك مصر، قاله الحسن ، وقتادة.

والأول أقوى: لأن قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فيرجح من هذا أن الضمير في (وشروه) إنما هو لإخوته. (تفسير ابن كثير).

وفي قوله تعالى: {بِثَمَنٍ بَخْسٍ} [يوسف: ٢٠]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن البخس -ها هنا-: الحرام، قاله الضحاك.

عن ابن عباس:" {بِثَمَنٍ بَخْسٍ}، يقول: لم يحلّ لهم أن يأكلوا ثمنَه".

قال مقاتل" وباعوه بثمن حرام لا يحل لهم بيعه، لأنه حر وثمن الحر حرام وبيعه حرام".

الثاني: أنه الظلم، قاله قتادة ، وعطية.

=

=

الثالث: أنه القليل، قاله مجاهد، والشعبي.

واختلفوا في تفسير قوله تعالى: {دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ} [يوسف: ٢٠]، على وجوه:

أحدها: أنه بيع بعشرين درهمًا اقتسموها وكانوا عشرة فأخذ كل واحد منهم درهمين، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، وعطية، وعكرمة، وأبو الصخر، والسدي، ونوف بن فضالة البكالي الشامي.

قال عطية: "كانوا عشرة اقتسموا درهمين درهمين".

قال الفراء: "قيل: عشرين، وإنما: قيل معدودة ليستدل به على القلة لأنهم كانوا لا يزنون الدراهم حتى تبلغ أوقية، والأوقية كانت وزن أربعين درهما".

الثاني: باثنين وعشرين درهمًا، كانوا أحد عشر فأخذ كل واحد درهمين، قاله مجاهد، والسدي.

الثالث: بأربعين درهما، قاله عكرمة، وابن إسحاق.

قال ابن إسحاق: "باعوه ولم يبلغ ثمنه الذي باعوه به أوقية، وذلك أن الناس كانوا يتبايعون في ذلك الزمان بالأواقي، فما قصَّر عن الأوقية فهو عَدد؛ يقول الله: {وشروه بثمن بخس دراهم معدودة}، أي: لم يبلغ الأوقية".

وكان السدي يقول: "اشتروا بها خفافًا ونِعالًا".

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنهم باعُوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحدَّ مبلغَ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في كتاب ولا خبر من الرسول ﷺ. وقد يحتمل أن يكون كان عشرين - ويحتمل أن يكون كان اثنين وعشرين - وأن يكون كان أربعين، وأقل من ذلك وأكثر، وأيُّ ذلك كان، فإنها كانت معدودة غير موزونة؛ وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضرّ فيه. والإيمان بظاهر التنزيل فرضٌ، وما عَداه فموضوعٌ عنا تكلُّفُ علمه".

=

=

قال ابن كثير: قيل: المراد بقوله: (بخس) الحرام. وقيل: الظلم. وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا؛ لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال، وعلى كل أحد، لأنه نبي ابن نبي، ابن نبي، ابن خليل الرحمن، فهو الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أي: إنهم إخوته، وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان؛ ولهذا قال (دراهم معدودة) فعن ابن مسعود باعوه بعشرين درهما، وكذا قال ابن عباس، ونوف البكالي، والسدي، وقتادة، وعطية العوفي وزاد: اقتسموها درهمين درهمين.

- قال ابن عاشور: (معدودة) كناية عن كونها قليلة لأن الشيء القليل يسهل عده فإذا كثر صار تقديره بالوزن أو الكيل.

ويقال في الكناية عن الكثرة: لا يعد.

قوله تعالى: {وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} [يوسف: ٢٠]، أي:"وكانوا زاهدين فيه راغبين في التخلص منه؛ وذلك أنهم لا يعلمون منزلته عند الله".

قال الفراء:"يقول: لم يعلموا منزلته من الله ﷻ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكان إخوة يوسف في يوسف من الزاهدين، لا يعلمون كرامته على الله، ولا يعرفون منزلته عنده، فهم مع ذلك يحبّون أن يحولوا بينه وبين والده، ليخلو لهم وجهه منه، ويقطعوه عن القرب منه، لتكون المنافع التي كانت مصروفة إلى يوسف دونهم، مصروفةً إليهم".

قال الصابوني:"أي: وكانوا في يوسف من الزاهدين الذين لا يرغبون فيه لأنهم التقطوه وخافوا أن يكون عبدًا آبقًا فينتزعه سيّده من أيديهم، ولذلك باعوه بأبخس الأثمان".

عن الضحاك:"{وكانوا فيه من الزاهدين}، قال: لم يعلموا بنبوته، ولا بمنزلته من

=

=

الله".

وفي قوله تعالى: {وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} [يوسف: ٢٠]، وجهان:

أحدها: أنهم إخوة يوسف كانوا فيه من الزاهدين حين صنعوا به ما صنعوا.

الثاني: أن السيارة كانوا فيه من الزاهدين حين باعوه بما باعوه به.

قال الضحاك:"فاستقى من الماء فاستخرج يوسف، فاستبشروا بأنهم أصابوا غلامًا لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه، فزهدوا فيه، فباعوه. وكان بيعه حرامًا، وباعوه بدراهم معدودة".

وفي زهدهم فيه ثلاثة وجوه:

أحدهما: لعلمهم بأنه حرٌّ لا يبتاع.

الثاني: أنه كان عندهم عبدًا فخافوا أن يظهر عليه مالكوه فيأخذوه.

والثالث: أنهم كانوا في ثمنه من الزاهدين لاختبارهم له وعلمهم بفضله.

وقال عكرمة:"أعتق يوسف حين بيع".

أي: أن السيارة الذين باعوه كانوا فيه من الزاهدين، لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بأي شيء يبيعه أو لأنهم خافوا أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم، فلا جرم باعوه بأوكس الأثمان.

وعلى القول الآخر - أن الذي باعه إخوته - كانوا فيه من الزاهدين، لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه.

- ومعنى الزهد قلة الرغبة، يقال زهد فلان في كذا إذا لم يرغب فيه، وأصله القلة.

- **قال القرطبي:** قوله تعالى (وكانوا فيه من الزاهدين) قيل: المراد إخوته. وقيل: السيارة. وقيل: الواردة.

وعلى أي تقدير فلم يكن عندهم غبيطا، لا عند الإخوة؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أبق منا والزهد قلة الرغبة ولا

=

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١).

{وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْر} وَهُوَ قطفير الْعَزِيز {لِامْرَأَتِهِ} زُلَيْخَا {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ} مُقَامه عِنْدنَا {عَسَى أَنْ يَنْفَعنَا أَوْ نَتَّخِذهُ وَلَدًا} وَكَانَ حَصُورًا {وَكَذَلِكَ} كَمَا نَجَّيْنَاهُ مِنْ الْقَتْل وَالْجُبّ وَعَطَّفْنَا عَلَيْهِ قَلْب الْعَزِيز {مَكَّنَّا لِيُوسُف فِي الْأَرْض} أَرْض مِصْر حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ {وَلِنُعَلِّمهُ مِنْ تَأْوِيل الْأَحَادِيث} تَعْبِير الرُّؤْيَا عُطِفَ عَلَى مُقَدَّر مُتَعَلِّق بمَكَّنَّا أَيْ لِنُمَلِّكهُ أَوْ الْوَاو زَائِدَة {وَاَللهُ غَالِب عَلَى أَمْره} تَعَالَى لَا يَعْجِزهُ شَيْء {وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس} وَهُمْ الْكُفَّار {لَا يَعْلَمُونَ} ذَلِكَ.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢).

{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدّه} وَهُوَ ثَلَاثُونَ سَنَة أَوْ وَثَلَاث {آتَيْنَاهُ حُكْمًا} حِكْمَة {وَعِلْمًا} فِقْهًا فِي الدِّين قَبْل أَنْ يُبْعَث نَبِيًّا {وَكَذَلِكَ} كَمَا جَزَيْنَاهُ {نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} لِأَنْفُسِهِمْ[1].

=

عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم، ورأوا أن القليل من ثمنه في الانفراد أولى.

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ} [يوسف: ٢١]، أي:"ولما ذهب المسافرون بيوسف إلى «مصر» اشتراه منهم عزيزها، وهو الوزير، وقال لامرأته: أحسني معاملته، واجعلي مقامه عندنا كريمًا".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى بألطافه بيوسف، عليه السلام، أنه قيض له الذي اشتراه من

=

=

مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والفلاح، فقال لامرأته: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: وقال الذي اشترى يوسف من بائعه بمصر [لامرأته]... أكرمي موضع مقامه، وذلك حيث يَثوِي ويُقيم فيه".

قال مقاتل:"{وقال الذي اشتراه من مصر}، وهو قطفير بن ميشا {لامرأته}، زليخا بنت يمليخا، {أكرمي مثواه}، يعني: أحسني منزلته وولايته".

قوله: (لامرأته أكرمي مثواه) أي: وقال الرجل المصري الذي اشترى يوسف لامرأته: اجعلي محل إقامته كريما، وأنزليه منزلا حسنا مرضيا.

وهذا كناية عن وصيته لها بإكرامه على أبلغ وجه، لأن من أكرم المحل بتنظيفه وتهيئته تهيئة حسنة فقد أكرم صاحبه.

- قال البقاعي: قوله تعالى (أكرمي مثواه) أي: موضع مقامه، وذلك أعظم من الأمر بإكرامه نفسه، فالمعنى: أكرميه إكراما عظيما بحيث يكون ممن يكرم كل ما لابسه لأجله، ليرغب في المقام عندنا.

- وقال الرازي: وقال المحققون: أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه دون إكرام نفسه، يدل على أنه كان ينظر إليه على سبيل الإجلال والتعظيم.

عن قتادة:"{أكرمي مثواه}: منزلته".

قال ابن عباس:"كان اسم الذي اشتراه قطفير".

قال مجاهد:"اشتراه الملك، والملك مسلم".

وعن محمد بن سحاق:"إن اسمه إطفير بن روحيب، وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريَّان بن الوليد، رجل من العماليق".

وروي عن ابن عباس:"إن الذي باعه بمصر كان مالك بن ذعر بن بُويب بن عفقان

=

=

بن مديان بن إبراهيم".

أخرج الطبري عن ابن إسحاق أن اسم امراة العزيز:"راعيل بنت رعائيل".

وأخرج الثعلبي عن هشام الرفاعي، أن: "اسم امرأة العزيز التي ضمت يوسف زليخا بنت موسى".

قوله تعالى: {عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} [يوسف: ٢١].

أي: عسى هذا الغلام أن ينفعنا في قضاء مصالحنا، وفي مختلف شئوننا، أو نتبناه فيكون منا بمنزلة الولد، فإني أرى فيه علامات الرشد والنجابة، وأمارات الأدب وحسن الخلق.

قال البعض هذه الجملة (أو نتخذه ولدا) توحي بأنهما لم يكن عندهما أولاد.

قال مقاتل:"نصيب منه خيرا أو نتخذه ولدا".

قال الزمخشري: أي:"لعله إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته. أو نتبناه ونقيمه مقام الولد، وكان قطفير عقيما لا يولد له، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك... وروى أنه سأله عن نفسه، فأخبره بنسبه فعرفه".

قال الطبري:"ذكر أن مشتري يوسف قال هذا القول لامرأته، حين دفعه إليها، لأنه لم يكن له ولد، ولم يأت النساء، فقال لها: أكرميه عسَى أن يكفينا بعض ما نعاني من أمورنا إذا فهم الأمور التي يُكلَّفها وعرفها {أو نتخذه ولدًا}، يقول: أو نتبنَّاه".

قال السدي:"انطُلِق بيوسف إلى مصر، فاشتراه العزيز ملك مصر، فانطلق به إلى بيته فقال لامرأته: {أكرمي مثْواه عسى أن ينفعنا أو نتخذهُ ولدًا}".

قال محمد بن إسحاق:"كان إطفير فيما ذكر لي رجلا لا يأتي النساء، وكانت امرأته راعيل امرأةً حسناء ناعمةً طاعمة، في مُلك ودُنْيا".

وقال سهل:"قوله تعالى: {أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا}، يعني: عسى أن يكون

=

=

شفيعنا في الآخرة".

قال عبد الله بن مسعود: "أحسن الناس في فراسة ثلاثة: العزيز في يوسف حين قال لامرأته {أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا} ، وابنة شعيب في موسى حين قالت لأبيها {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: ٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر".

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ} [يوسف: ٢١]، أي:"وكما أنجينا يوسف وجعلنا عزيز «مصر» يَعْطِف عليه، فكذلك مكنَّا له في أرض «مصر»".

قال الزجاج:"أي: ومثل الذي وصفنا، مكنا ليوسف في الأرض".

قال القرطبي: أي:"أقدرناه على ما يريد".

قال الطبري:"يقول ﷻ: وكما أنقذنا يوسف من أيدي إخوته وقد هموا بقتله، وأخرجناه من الجبّ بعدَ أن ألقي فيه، فصيرناه إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر، كذلك مكنّا له في الأرض، فجعلناه على خزائنها".

قال الثعلبي:"وكما أنقذ يوسف من أيدي إخوته وقد هموا بقتله فأخرجناه من الجب بعد أن ألقي فيه، فصيرناه إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر مكنا ليوسف في الأرض يعني أرض مصر، فجعلناه على خزائنها، قال أهل الكتاب: لما تمت ليوسف -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ثلاثون سنة، استوزره فرعون".

عن السدي قوله: "{عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا}، يقول الله: {وكذلك مكنا ليوسف في الأرض}".

قال الإمام الشافعي:"التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتحن صبر، وإذا صبر مكن، ألا ترى أن الله - ﷻ امتحن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم مكنه، وامتحن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم مكنه، وامتحن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم مكنه، وامتحن

=

=

سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكا، والتمكين أفضل الدرجات، قال الله عز وجل: {وكذلك مكنا ليوسف في الأرض}، وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكن، قال الله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُم} الآية".

قال الغزالي رحمه الله فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبحره في أسرار القرآن، واطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء".

قوله تعالى: {وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} [يوسف: ٢١]، أي:"ولنعلِّمه تفسير الرؤى فيعرف منها ما سيقع مستقبلا".

قال مجاهد:"عبارة الرؤيا".

قال الثعلبي:"أي: ولكي نعلمه من عبارة الرؤيا، مكنا له في الأرض".

قوله تعالى: {وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ} [يوسف: ٢١]، أي:"والله غالب على أمره، فحكمه نافذ لا يبطله مبطل".

قال الزمخشري: أي:"على أمر نفسه: لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضى. أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره".

قال ابن كثير: "أي إذا أراد شيئا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{والله غالب على أمره}، قال: فعال".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٢١]، أي:"ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله، ولا يدرون حكمته في خلقه، وتلطفه لما يريد، لا يعلمون لطائف صنعه، وخفايا فضله".

والتعبير بقوله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) احتراس لإنصاف ومدح القلة من الناس الذين يعطيهم الله تعالى من فضله ما يجعلهم لا يندرجون في الكثرة التي لا

=

تعلم، بل هو سبحانه يعطيهم من فضله ما يجعلهم يعلمون ما لا يعلمه غيرهم.

قال الزمخشري:"أن الأمر كله بيد الله".

قال الصابوني:"أي: لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله".

قال الثعلبي:"ما الله صانع بيوسف، وما إليه يوسف من أمره صائر، وهم الذين زهدوا فيه وباعوه بثمن بخس وفعلوا به ما فعلوا، قالت الحكماء في هذه: والله غالب على أمره حيث أمر يعقوب يوسف (عليهما السلام) أن لا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حين قص، ثم أراد يعقوب أن لا يكيدوا فغلب أمره حتى كادوا، ثم أراد أخوة يوسف قتله فغلب أمره حتى لم يقتلوه، ثم أرادوا أن يلقوه في الجب ليلتقطه بعض السيارة فيندرس اسمه، فغلب أمره حتى لم يندرس اسمه وصار مذكورا مشهورا، ثم باعوه ليكون مملوكا فغلب أمره حتى صار ملكا والعبيد بين يديه، ثم أرادوا أن يخلوا لهم وجه أبيهم، فغلب أمره حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين تائبين، فغلب أمره حتى نسوا الذنب وأصروا حتى أقروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد أربعين سنة، وقالوا: وإن كنا خاطئين، وقالوا لأبيهم: إنا كنا خاطئين، ثم أرادوا أن يغروا باسم القميص والدم والبكاء، فغلب أمره حتى لم يخدع، وقال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا ثم احتالوا أن تذهب محبته من قبل أبيه، فغلب أمره حتى ازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم تدبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقي، فغلب أمره حتى نسي الساقي في ذكره، ولبث في السجن بضع سنين، ثم احتالت امرأة العزيز أن [تترك] المراودة عن نفسها حتى قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الآية، فغلب أمره حتى شهد الشاهد من أهلها".

قوله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} [يوسف: ٢٢]، أي:"ولما بلغ يوسف منتهى قوته في شبابه أعطيناه فهمًا وعلمًا".

=

قال ابن كثير:"أي: يوسف عليه السلام {أَشُدَّهُ}، أي: استكمل عقله وتم خلقه. {آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} يعني: النبوة، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لما بلغ يوسف أشده، يقول: ولما بلغ منتهى شدته وقوته في شبابه وحَدِّه، وذلك فيما بين ثماني عشرة إلى ستين سنة، وقيل إلى أربعين سنة"

قال الزجاج:"أي: جعلناه حكيما عالما، وليس كل عالم حكيما، «الحكيم»: العالم المستعمل علمه، الممتنع من استعمال ما يجهل فيه، وأصل: «أحكمت» في اللغة: «منعت»، ومن هذا حكمة الذائة، لأن الفارس يمنع بها الدائة من إرادتها".

قال الماوردي:"الفرق بين الحكيم والعالم أن الحكيم هو العامل بعلمه، والعالم هو المقتصر على العلم دون العمل".

قال ابن العربي:"الحكم هو العمل بالعلم، وقد تقدم في سورة البقرة معنى ترتيب " حكم"، والعمل بمقتضى العلم إنما يكون بعد البلوغ، وما قبله في زمان عدم التكليف فإنه فيه معدوم إلا في النادر. قال الله تعالى في يحيى بن زكريا: {وآتيناه الحكم صبيا} [مريم: ١٢]. قال المفسرون: قيل له، وهو صغير: ألا تذهب تلعب؟ قال: ما خلقت للعب. وهذا إنما بين الله به حال يوسف من حين بلوغه بأنه آتاه العلم، وآتاه العمل بما علم؛ وخبر الله صادق، ووصفه صحيح، وكلامه حق، فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنا وتحريم خيانة السيد أو الجار أو الأجنبي في أهله، فما تعرض لامرأة العزيز، ولا أناب إلى المراودة [بحكم المراودة]؛ بل أدبر عنها، وفر منها؛ حكمة خص بها، وعملا بمقتضى ما علمه الله سبحانه؛ وهذا يطمس وجوه الجهلة من الناس والغفلة من العلماء في نسبتهم إليه ما لا يليق به، وأقل ما اقتحموا من ذلك أنه هتك السراويل، وهم بالفتك فيما رأوه من تأويل، وحاش لله ما علمت عليه من سوء، بل أبرئه مما برأه منه، فقال: {ولما

=

=

بلـغ أشـده آتينـاه حكمـا وعلمـا} [يوسـف: ٢٢]، كـذلك لنـصرف عنـه الـسوء والفحشاء إنـه مـن عبادنـا الـذين استخلـصناهم. والفحشاء هـي الزنـا والـسوء هـو المراودة والمغازلة، فما ألم بشيء ولا أتى بفاحشة".

وفي معنى «الأشدُّ»، عشرة أقوال:

أحدها: ببلوغ الحلم، قاله الشعبي ، وربيعة ، وزيد بن أسلم ، ومالك.

قال الشعبي:"الأشد: الحلم. إذا كتبت له الحسنات، وكتبت عليه السيئات".

الثاني: ثماني عشرة سنة، قاله سعيد بن جبير ، وبه قال مقاتل.

الثالث: عشرون سنة، قاله ابن عباس ، والضحاك.

الرابع: خمس وعشرون سنة، قاله عكرمة.

الخامس: ثلاثون سنة، قاله السدي.

السادس: ثلاث وثلاثون سنة. قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة.

السابع: بضع ثلاثون سنة. قاله ابن عباس.

الثامن: ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سـنة. وهـذا مـروي عـن ابـن عبـاس مـن وجه غير مرضي -كما قاله الطبري-.

التاسع: أربعون سنة. قاله الحسن. قال ابن العربي:"يروى عن جماعة".

العاشر: من نحو سبع عشرة سنة إلى نحو الأربعين. قاله الزجاج.

قـال الطبـري:"وأولـى الأقـوال في ذلـك بالـصواب أن يقـال: إن الله أخـبر أنـه آتـى يوسف لما بلغ أشدهُ حكمًا وعلمًا، و"الأَشُدّ": هو انتهاء قوتـه وشـبابه، وجـائز أن يكون آتاه ذلك وهو ابن ثماني عشرة سـنة، وجـائز أن يكـون آتـاه وهـو ابـن عـشرين سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وثلاثين سـنة، ولا دلالـة لـه في كتـاب الله، ولا أثر عن الرسـول ﷺ، ولا في إجمـاع الأمـة، علـى أيّ ذلـك كـان. وإذا لـم يكـن ذلك موجودًا من الوجه الذي ذكـرت، فالـصوابُ أن يقـال فيـه كمـا قـال ﷻ، حتـى

=

=

تثبت حجة بصحة ما قيل في ذلك من الوجه الذي يجب التسليم له، فيسلم لها حينئذ".

قال ابن العربي:"والصحيح أن الحلم إلى خمسين سنة؛ فإن من الحلم يشتد الآدمي إلى خمسين ثم يأخذ في القهقرى "

قال الشوكاني:"والأولى في تحقيق بلوغ «الأشد»: أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشد، وهو أن يكون في تصرفاته بماله سالكا مسلك العقلاء، لا مسلك أهل السفه والتبذير، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة

النساء: {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} [النساء: ٦]، فجعل بلوغ النكاح، وهو بلوغ سن التكليف مقيدا بإيناس الرشد".

قال الشنقيطي:"أما الأشُد من حيث هو: فهو يطلق على خمس وعشرين، وعلى ثلاثين سنة، وعلى أربعين، وعلى ستين، وعلى خمسين".

وفي آخر الأشد ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه أربعون سنة. حكاه الطبري.

وروي عن الحسن في قوله: {بلغ أشده}، قال: أربعين سنة". وذكره الماوردي في الأشد الآخر. والظاهر انه في الأشد الاول. والله أعلم.

الثاني: أنه ستون سنة، حكاه الطبري، وأنشد قول حُميد:

وَقَدْ أَتَى لَوْ تُعْتِبُ الْعَوَاذِلُ بَعْدَ الأَشُدّ أَرْبَعٌ كَوَامِلِ"

وقال سُحَيْم بن وثيل الرياحي:

أخو خمسين مجتمع أَشُدّي وتجذّني مداورة الشئون

الثالث: اثنتان وستون. حكاه الزمخشري.

قوله تعالى: {آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} [يوسف: ٢٢]، أي:"أعطيناه فهمًا وعلمًا".

=

=

قال ابن كثير:"يعني: النبوة، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام".

قال الزمخشري:"هو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه".

قال يحيى بن سلام:"يعني: عقلا وفهما". وقال:"النبوة فيها الحكم والعلم".

قال مجاهد:"«يعني: الفقه والعقل والعلم قبل النبوة». وفي رواية:"العقل والعلم قبل النبوة".

وفي هذا الحكم الذي آتاه ستة وجوه:

أحدها: العقل، قاله مجاهد.

الثاني: العلم. قاله ابن عباس.

الثالث: القرآن، قاله مجاهد ، وسفيان.

الرابع: النبوة، قاله السدي.

الخامس: الحكم على الناس. ذكره الماوردي.

السادس: الحكمة في أفعاله. ذكره الماوردي.

وفي هذا العلم الذي آتاه ثلاثة وجوه:

أحدها: الفقه، قاله مجاهد.

الثاني: النبوة، قاله ابن أبي نجيح.

والثالث: أنه العلم بتأويل الرؤيا. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٢٢]، أي:"، ومثل هذا الجزاء الذي جزينا به يوسف على إحسانه نجزي المحسنين على إحسانهم".

قال مقاتل:"بالفهم والعلم".

قال الزجاج:"أي: ومثل ما وصفنا من تعليم يوسف نجزي المحسنين".

قال ابن كثير:"أي: إنه كان محسنًا في عمله، عاملا بطاعة ربه تعالى".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكما جزيت يوسف فآتيته بطاعته إيّاي الحكمَ

=

=

والعلمَ، ومكنته في الأرض، واستنقذته من أيدي إخوته الذين أرادوا قتله، كذلك نجزي من أحسن في عمله، فأطاعني في أمري، وانتهى عما نهيته عنه من معاصي، وهذا، وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن، فإن المرادَ به محمدٌ نبيُّ الله ﷺ. يقول له ﷺ: كما فعلت هذا بيوسف من بعد ما لقي من إخوته ما لقي، وقاسى من البلاء ما قاسى، فمكنته في الأرض، ووطَّأتُ له في البلاد، فكذلك أفعل بك فأنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكن لك في الأرض، وأوتيك الحكم والعلم، لأنّ ذلك جزائي أهلَ الإحسان في أمري ونهيي".

قال الزمخشري: قوله:"{وكذلك نجزي المحسنين}: تنبيه على أنه كان محسنا في عمله، متقيا في عنفوان أمره، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه. وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله".

عن ابن عباس: "{وكذلك نجزي المحسنين}، يقول: المهتدين".

وفي الآية فضل عظيم لكل محسن في عبادة الله وطاعته، وبالإحسان إلى المخلوقين.

- قال ابن عاشور: وفي ذكر (المحسنين) إيماء إلى أن إحسانه هو سبب جزائه بتلك النعمة.

- قال السعدي (وكذلك نجزي المحسنين) في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علما نافعا.

ودل هذا، على أن يوسف وفى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

- ومن أعظم أسباب الإحسان: مراقبة الله وعلم العبد أن الله مطلع عليه.

- قال الشنقيطي: فسر النبي ﷺ الإحسان بقوله لما سأله جبريل ما الإحسان؟

=

=

(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينيا أن الله مطلع عليه.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل.

كما قال تعالى في أول سورة هود (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) ثم بين الحكمة فقال (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) ولم يقل أيكم أكثر عملا.

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها) ثم بين الحكمة بقوله (لنبلوهم أيهم أحسن عملا).

وقال تعالى في أول سورة الملك (الذي خلق الموت والحياة) ثم بين الحكمة فقال (ليبلوكم أيكم أحسن عملا). (أضواء البيان).

فالإحسان: أن يأتي بالعمل حسنا متقنا لا نقص فيه ولا تقصير، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون.

(فائدة): قوله تعالى: (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه...) في هذه الآية بيان لجريان عرف البشر على خدمة المرأة لزوجها وقيامها بشأن بيتها ورعاية عياله، لقد وكل من اشترى يوسف رعايته وإكرامه لامرأته، ولم يكله إلى عبده ومولاته، أو خادمه أو وزيره.

وأما طاعة المرأة لزوجها في بيته، فمنه: ما هو محل اتفاق على وجوبه، ومنه: ما هو محل اتفاق على عدم وجوبه، ومه: ما هو محل خلاف:

أما الطاعة الواجبة بلا خلاف: فما يملكه منها، وهو بضعها، فلو دعاها إلى فراشه، حرم عليها الامتناع عن ذلك، وفي "الصحيحين"، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول

=

=

الله ﷺ: (إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح).

وكل أمر يتصل بذلك، فيجب عليها طاعته فيه؛ كالامتناع عما يحول بينه وبين قضاء وطره ووطرها؛ من أكل يكره رائحته، أو لباس يزهده فيها وينفره منها، وترك سفر أو خروج مباح تغيب به عنه فيحتاج إليها ولا يجدها.

وأما خروجها من منزلها، فلا يختلف في أن السنة استئذان المرأة من زوجها لخروجها ولو إلى بيت أبويها؛ ومن ذلك قول عائشة؛ كما في "الصحيحين" للنبي ﷺ: "أتأذن لي أن آتي أبوي؟".

وأما من جهة وجوب ذلك من عدمه، فإن خروجها على حالين:

خروج ليس بعارض؛ كالخروج إلى الأسواق، أو شهود الولائم، وأشد منه السفر؛ فذلك لا يجوز إلا بإذنه، وقد حكى بعض العلماء الاتفاق على ذلك؛ قال ابن تيمية: "فليس لها أن تخرج من منزله إلا بإذنه، سواء أمرها أبوها أو أمها أو غير أبويها، باتفاق الأئمة".

وأما خروجها لما جرى العرف بالخروج إلى مثله، كما كانت النساء تخرج إلى المسجد والخلاء، وخروج المرأة إلى جارتها وما أشرف على دارها، فخروجها لمثله جائز ما لم يمنعها منه، وقد كانت أمهات المؤمنين يفعلن ذلك، وكان النبي ﷺ يسأل الواحدة منهن: (أين كنت؟)، كما جاء عن عائشة؛ قالت أبطأت على عهد رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جئت، فقال: (أين كنت؟)، قلت؟ كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك، لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام وقمت معه حتى استمع له، ثم التفت إلي، فقال: (هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا).

ومثل خروجها: إذنها لأحد بالدخول في بيته، ولو كان ذلك من نسائها، فإن كان

=

=

ممن لا يعتاد إتيانه في بيتها وزوجها شاهد، فالأصل عدم إدخاله إلا بإذنه؛ لما في "الصحيحين"؛ من حديث أبي هريرة؛ قال ﷺ: (ولا تأذن في بيته إلا بإذنه).

ومن جرت العادة بدخوله بيتها؛ كأمها وأختها وجارتها، فذلك جائز ولو لم يأذن في كل مرة، وقد كانت النساء ترد إلى بيوت النبي ﷺ ويدخلهن أزواجه ويسأل عنهن، وفي "الصحيحين"، عن عائشة؛ أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: (من هذه؟)، قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال: (مه، عليكم بما تطيقون، فوالله، لا يمل الله حتى تملوا)، وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه.

وأما الطاعة غير الواجبة بالاتفاق: فقد تحرم إن أمرها بمحرم كالوطء في الدبر، وقد تكره إن أمرها بفعل مكروه، وإن أمرها بما يضر بها، فليس عليها طاعته، وأما إن أمرها بما لا يضر بها ولا منفعة له به؛ كان يأمرها أن تلبس الأبيض أو الأصفر أو الأخضر عند النساء، فلا يجب عليها ذلك؛ لأن الأمر يتعلق بها لا به، لكنه لو أمرها ألا تلبس لون كذا وكذا عنده، فهذا له.

وأما خدمة المرأة لزوجها في بيته من طبخ طعام ونظافة ثياب، فقد وقع فيها خلاف:

وقد ذهب جماعة من الفقهاء: إلى وجوب ذلك؛ كما هو قول أهل الرأي، وجماعة من المالكية، وأبي بكر بن أبي شيبة، ولكن الحنفية أوجبوه ديانة لا قضاء.

وذهب الشافعية والحنابلة وجماعة من فقهاء المالكية: إلى عدم الوجوب.

والأظهر في ذلك: أنه يجرى على العرف؛ وذلك لأن الخدمة تختلف صفتها يحسب البلدان؛ فأحوال البوادي تختلف عن القرى، وأحوال المدن الكبيرة تختلف عن القرى، وقد كان ذلك جاريا عند العرب وما زال، وقد قضى النبي ﷺ على فاطمة بخدمة روجها في بيته، وعلى علي بالخدمة الظاهرة، وكان الصحابة

=

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣).

{وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا} هِيَ زُلَيْخَا {عَنْ نَفْسه} أَيْ طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يُوَاقِعهَا {وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَاب} لِلْبَيْتِ {وَقَالَتْ} لَهُ {هَيْتَ لَك} أَيْ هَلُمَّ وَاللَّامُ لِلتَّبْيِينِ وَفِي قِرَاءَة بِكَسْرِ الْهَاء وَأُخْرَى بِضَمِّ التَّاء {قَالَ مَعَاذ الله} أَعُوذ بِاَللهِ مِنْ ذَلِكَ {إِنَّهُ} الَّذِي اشْتَرَانِي {رَبِّي} سَيِّدِي {أَحْسَنَ مَثْوَايَ} مُقَامِي فَلَا أَخُونه فِي أَهْله {إِنَّهُ} أَيْ الشَّأْن {لَا يُفْلِح الظالمون} الزناة[1].

=

يتزوجون وتقوم أزواجهم يخدمتهم؛ كما قال جابر للنبي ﷺ: "إن عبد الله هلك وترك بنات، وإني كرهت أن أجيئهن بمثلهن، فتزوجت امرأة تقوم عليهن وتصلحهن".

وإنما لم تأت نصوص صريحة آمرة في ذلك؛ لأن كل البيوت كانت تجري على العرف، فتركت على ما هي عليه، والنساء يعملن في بيوت أزواجهن ولا يؤمرن بذلك، ويقوم الزوج بعلاج زوجته إن مرضت، وأكثر الفقهاء كالمذاهب الأربعة لا يوجبون ذلك عليه، ويفعل ذلك عادة وإحسانا بلا تعاقد ولا مشارطة عليه، ولو دخلت المشارطة والعقود في مثل هذا العرف، لفسدت البيوت وقل الإحسان بين الزوجين.

(١) قوله تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ} [يوسف: ٢٣]، أي:"ودعت امرأة العزيز -برفق ولين- يوسف الذي هو في بيتها إلى نفسها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وراودت امرأة العزيز، وهي التي كان يوسفُ في بيتها [يوسفَ] عن نفسه، أن يواقعها".

قال ابن وهب:"حدثني ابن زيد: {وراودته التي هو في بيتها عن نفسه}، حين بلغ
=

=

مبلغ الرجال".

عن السدي: {وراودته التي هو في بيتها عن نفسه}، قال: أحبته". وفي رواية:"أحبته التي هو في بيتها".

عن ابن إسحاق: "ولما بلغ أشدَّه، {راودته التي هو في بيتها عن نفسه}: امرأة العزيز".

قال قتادة:"وهي امرأة العزيز".

عن سعيد بن جبير، قال:"قالت: تعالَهْ".

قال الزجاج:"المعنى أنها رَاوَدْته عما أرادَتْه مما يريد النساء من الرجَالِ، فَعُلِمَ بِتَرْكِهِ ذكرَ الفَاحِشَةِ نفسها ما راودته عليه".

- قال ابن عطية: "المراودة " الملاطفة في السوق إلى غرض، وأكثر استعمال هذه اللفظة إنما هو في هذا المعنى الذي هو بين الرجال والنساء.

- وقال أبو حيان: والمراودة الطلب برفق ولين القول.

قوله تعالى: {وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ} [يوسف: ٢٣]، أي:"غلّقت أبواب البيوت عليها وعلى يوسف وأحكمت إغلاقها، لأن مثل هذا لفعل لا يكون إلا في ستر وخفية أو أنها أغقلتها لشدة خوفها".

قال مقاتل:"على نفسها وعلى يوسف في أمر الجماع".

قال الطبري:"يقول: وغلقت المرأة أبواب البيوت عليها وعلى يوسف، لما أرادت منه وراودته عليه، بابًا بعد باب".

وفي قوله تعالى: {وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ} [يوسف: ٢٣]، وجهان:

أحدهما: بتكثير الأغلاق.

الثاني: بكثرة الإيثاق.

- قال الرازي: قوله تعالى (وغلقت الأبواب) والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به

=

إلا في المواضع المستورة لا سيما إذا كان حراما، ومع قيام الخوف الشديد.

- قال ابن كثير: يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) أي: حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حبا شديدا لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، فامتنع أشد الامتناع.

- واعلم أن يوسف عليه السلام كان في غاية الجمال والحسن، فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال أيضا إن زوجها كان عاجزا.

قال المفسرون: وإنما جاء غلقت على التكثير لأنها غلقت سبعة أبواب، ثم دعته إلى نفسها.

قوله تعالى: {وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ} [يوسف: ٢٣]، أي:"وقالت: هلمَّ إليَّ".

قال الزجاج:"المعنى: هلم لك، أي: أقبل إلى ما أدعوك إليه".

قال مقاتل:"يعني هلم لك نفسي تريد المرأة الجماع فغلبته بالكلام".

وفي قوله تعالى: {وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ} [يوسف: ٢٣]، وجوه:

أحدها: معناه: تهيأت لك، قاله عكرمة ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وهذا تأويل من قرأ بكسر الهاء وترك الهمز ، وقال الشاعر:

قد رابني أن الكرى أسكتا لو كان معنيًا بها لهيتا

أخرج الطبري من طريق احمد بن يوسف عن قتادة: "أن ابن عباس قرأها كذلك، مكسور الهاء، مضمومة التاء. قال أحمد: قال أبو عبيدة: لا أعلمها إلا مهموزة".

عن عاصم بن بهدلة، قال: "كان أبو وائل يقول: «هِئْتُ لَكَ»: أي: تهيأت لك. وكان أبو عمرو بن العلاء والكسائي ينكران هذه القراءة".

عن القاسم، قال: لم يكن الكسائي يحكي: «هئت لك» عن العرب".

=

عن علي بن المغيرة، قال:"قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: شهدت أبا عمرو وسأله أبو أحمد - أو أحمد -وكان عالما بالقرآن [وكان لألاء، ثم كبر، فقعد في بيته، فكان يؤخذ عنه القرآن، ويكون مع القضاة، فسأله] عن قول من قال:"هِئْتُ لَكَ" بكسر الهاء، وهمز الياء. فقال: أبو عمرو: [سى] إي: باطل، جعلها،"فعلت" من"تهيأت"، فهذا الخندق، فاستعرض العربَ حتى تنتهي إلى اليمن، هل تعرف أحدًا يقول: «هئت لك»".

الثاني: معناه: عليك عليك. أي: دونك حاجتك. قاله الحسن.

وعن محمد بن إسحاق:"{وقالت هيت لك}، أي: تعال فأنا لك".

الثالث: هلم لك، قاله ابن عباس، والحسن، والسدي، وابن زيد.

قال مجاهد:"لغة عربية، تدعُوه بها".

وعن مجاهد:"{هيت لك}، قال: ألقت نفسها، ودعته إلى نفسها، وهي لغة".

وعن ابن إسحاق: "{هيت لك}، قال: تعال".

وعن ابن زيد:"{وقالت هيت لك}، قال: هلمَّ لك، إليَّ".

عن ابن عباس:"أنه كان يقرأ كما يقرأ عبد الله يعني: «هيت لك»، وهو كقول أحدكم لصاحبه: هلم لك".

قال أبو عبيد: كان الكسائي يحكيها - يعني: {هيت لك} - قال: وقال: وهي لغة لأهل حوران وقعت إلى الحجاز، معناها:"تعال". قال: وقال أبو عبيدة: سألت شيخًا عالمًا من أهل حوران، فذكر أنها لغتُهم، يعرفها".

وأنشد أبو عمرو بن العلاء:

أَبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيـ ... ـنَ ابْنَ الزُّبَيْرِ إِذَا أَتَيْتَا

إِنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ ... سَلَمٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

قال الماوردي:"وهذا تأويل من قرأ هيت لك بفتح الهاء وهي أصح وأفصح، قال

=

=

طرفة بن العبد:

لَيْسَ قَومِي بِالأبْعَدِينَ إذَا مَا قَالَ دَاعٍ مِنَ الْعَشِيرَةِ هَيْتُ"

ثم اختلف قائلو هذا التفسير في الكلمة، على وجوه:

أحدها: حكى عطية عن ابن عباس أن {هيت لك}، كلمة بالقبطية معناها هلم لك.

الثاني: قال مجاهد بل هي كلمة عربية هذا معناها.

والثالث: وقال الحسن: هي كلمة سريانية.

قال السعدي: هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجرا، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعا أو كارها.

قوله تعالى: {قَالَ مَعَاذَ اللهِ} [يوسف: ٢٣]، أي:"عياذًا بالله من فعل السوء".

قال الطبري:"قال يوسف إذ دعته المرأة إلى نفسها، وقالت له:"هلم إلي": أعتصم بالله من الذي تدعوني إليه، واستجير به منه".

قال مقاتل:"يعني: أعوذ بالله".

قال الزجاج:"المعنى: أعوذ بالله أن أفعل هذا".

قوله تعالى: {إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ} [يوسف: ٢٣]، أي:"إن زوجك هو سيدي العزيز الذي أكرمني وأحسن تعهدي فكيف أسيء إليه بالخيانة في حَرَمه؟".

قال الطبري:"يقول: يقول: إن صاحبك وزوجك سيدي أحسن منزلتي، وأكرمني وائتمنني، فلا أخونه".

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ} [يوسف: ٢٣]، وجهان:

=

=

أحدهما: إن الله ربي أحسن مثواي، أي: تولاني في طول مقامي فلا أعصيه، أجازه الزجاج.
قال أبو حيان: الضمير في (إنه) الأصح أنه يعود على الله تعالى أي: إن الله ربي أحسن مثواي إذ نجاني من الجب، وأقامني في أحسن مقام.
الثاني: أنه أراد العزيز إظفير، {إنه ربي}، أي: سيدي أحسن مثواي فلا أخونه. قاله مجاهد، وابن إسحاق، والسدي، وابن أبي نجيح، وبه قال مقاتل. والطبري.
قال ابن تيمية: قول يوسف ﷺ لما قالت له امرأة العزيز (هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون) المراد بربه في أصح القولين هنا سيده وهو زوجها الذي اشتراه من مصر الذي قال لامرأته (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا). وهذا الراجح.
- لماذا علل يوسف بحق الزوج ولم يعلل بقوله: إنه زنا.
قال ابن تيمية:... علل يوسف ذلك بحق الزوج وإن كان كل من الأمرين مانعا له وكان في تعليله بحق الزوج فوائد.
منها: أن هذا مانع تعرفه المرأة وتعذره به بخلاف حق الله تعالى فإنها لا تعرف عقوبة الله في ذلك.
ومنها: أن المرأة قد ترتدع بذلك فترعى حق زوجها إما خوفا وإما رعاية لحقه فإنه إذا كان المملوك يمتنع عن هذا رعاية لحق سيده فالمرأة أولى بذلك لأنها خائنة في نفس المقصود منها بخلاف المملوك فإن المطلوب منه الخدمة وفاحشته بمنزلة سرقة المرأة من ماله.
ومنها: أن هذا مانع مؤيس لها فلا تطمع فيه لا بنكاح ولا بسفاح بخلاف الخلية من الزوج فإنها تطمع فيه بنكاح حلال.
ومنها: أنه لو علل بالزنا فقد تسعى هي في فراق الزوج والتزوج به فإن هذا إنما

=

=

يحرم لحق الزوج خاصة، فلو علل بأن هذا زنا محرم ربما طمعت في أن تفارق الزوج وتتزوجه، فإن كيدهن عظيم؛ وقد جرى مثل هذا. فلما علل بحق سيده وقال (إنه ربي أحسن مثواي) يئست من ذلك وعلمت أنه يراعي حق الزوج فلا يزاحمه في امرأته ألبتة.

(فائدة): في الآية دليل على جواز الاستدلال بوازع الطبع على الإقلاع عن المحرم، ولكن الكمال ألا يذكر إلا بعد وازع الشرع، وهو الخوف من الله، وأنه يجوز وعظ الناس للإقلاع عن المحرم بوازع الطبع؛ كقول: لا يصح من العرب ولا أخلاقهم الخيانة والغدر والفجور؛ وذلك أن طلب الإقلاع عن المحرم بوازع الطبع أهون من طلب الامتثال بالعبادة، وأعظم الغايات في الحرام هو أن يترك، وأعظم الغايات من فعل العبادة إخلاصها لله؛ فإن الحرام لو تركه الإنسان لغير الله، لم يأثم، لكنه لا يؤجر، ولكن العبادة لو فعلها أحد لغير الله، أشرك بفعله ذلك، بل تركه لها خير من إنشائها لغير الله.

ولا بجوز أن يوعظ الناس بالطبع المجرد عن قصد التعبد بفعل العبادات، ولكن يصح تبعا؛ كأن يأمره بالصلاة والصيام والحج ويذكره بحق الله ووجوب الوفاء له بامتثال أمره، ثم يذكر فضل قومه وأخلاقهم وصدقهم وعادتهم لله.

ويدل على جواز الوعظ للإقلاع عن المحرم بوازع الطبع قوله ﷺ: (من اتقى الشبهات، استبرأ لدينه وعرضه) ؛ يعني: حتى لا يقع الناس فيه؛ فعليه أن يحمي عرضه بترك الشبهات.

عن مجاهد: "{قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي}، قال: سيدي - يعني: زوج المرأة-".

عن مجاهد: "{أحسن مثواي}، قال: يريد يوسف سيدَه زوجَ المرأة".

عن ابن إسحاق: "{قال معاذ الله إنه ربي}، يعني: إطفير. يقول: إنه سيدي". وفي

=

=

رواية:"إنه سيدي، قد أحسن مثواي وآمنني علي بيته، وهذا الذي تدعوني إليه ظلم".

عن ابن إسحاق، قال: "{أحسن مثواي}، أمنني على بيته وأهله".

عن السدي: {أحسن مثواي}، فلا أخونه في أهله".

عن قتادة في قول الله: "{إنه ربي أحسن مثواي}، قال: منزلتي".

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: ٢٣].

أي: الذين يجازون الإحسان بالإساءة، وقيل: أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم أو لأن عملهم يقتضي وضع الشيء في غير موضعه.

قال الطبري:"يقول: إنه لا يدرك البقاء، ولا ينجح من ظلم، ففعل ما ليس له فعله. وهذا الذي تدعوني إليه من الفجور، ظلم وخيانة لسيدي الذي ائتمنني على منزله".

عن ابن إسحاق: "{إنه لا يفلح الظالمون}، قال: هذا الذي تدعوني إليه ظلم، ولا يفلح من عمل به".

قال ابن تيمية: يقول: متى أفسدت امرأته كنت ظالما بكل حال وليس هذا جزاء إحسانه إلي. والناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضا وإن كانوا فعلوه بتراضيهم.

قال ابن القيم:... ولذلك كان صبر يوسف الصديق عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لما ألقوه في الجب وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبد.

وقال رحمه الله: وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصديق من العفاف أعظم ما يكون فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان

=

=

إلى الماء والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيرا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلا بل يحمد.

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شابا، وشهوة الشباب وحدته أقوى.

الثالث: أنه كان عزبا ليس له زوجة ولا سرية تكسر شدة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يتأتى له في وطنه بين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية، فإن كثيرا من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها، يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة والراغبة، وقد غلقت الأبواب، وغيبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكا لها في الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه، فكان الإنس سابقا على الطلب، وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: ما حملك على الزنى؟ قالت: قرب الوساد، وطول السواد، تعني قرب وساد الرجل من وسادي، وطول السواد بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن، وشكت حالها إليهن، لتستعين بهن عليه؛ فاستعان هو بالله عليهن، فقال (وإلا تصرف عني

=

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤).

{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ} قَصَدَتْ مِنْهُ الْجِمَاع {وَهَمَّ بِهَا} قَصَدَ ذَلِكَ {لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَان ربه} قال بن عَبَّاس مُثِّلَ لَهُ يَعْقُوب فَضَرَبَ صَدْره فَخَرَجَتْ شَهْوَته مِنْ أَنَامِله وَجَوَاب لَوْلَا لَجَامَعَهَا {كَذَلِكَ} أَرَيْنَاهُ الْبُرْهَان {لِنَصْرِف عَنْهُ السُّوء} الْخِيَانَة {وَالْفَحْشَاء} الزنى {إِنَّهُ مِنْ عِبَادنَا الْمُخْلِصِينَ} فِي الطَّاعَة وَفِي قِرَاءَة بِفَتْحِ اللَّام أَيْ الْمُخْتَارِينَ[1].

=

كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين).

الثاني عشر: أنها تواعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر منه من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما، ويبعد كلا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلهما به أن قال ليوسف (أعرض عن هذا) وللمرأة (واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) وشدة الغيرة في الرجل من أقوى الموانع، وهذا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلها، فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى، فقال (قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني) وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرفه عنه صبأ إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ} [يوسف: ٢٤]، أي:"ولقد مالت نفسها لفعل الفاحشة".

=

=

قال الصابوني:"همَّت بمخالطته عن عزمٍ وقصدٍ وتصميم، عزمًا جازمًا على الفاحشة لا يصرفها عنها صارف، وقصدت إجباره على مطاوعتها بالقوة، بعد أن استحكمت من تغليق الأبواب، ودعوته إلى الإسراع، مما اضطره إلى الهرب إلى الباب".

قال مقاتل:"" وألقي عليها شهوة أربعين إنسانا ولقد همت به يقول همت المرأة بيوسف حتى استلقت للجماع".

قال ابن عطية:"لا شك أن «هم» زليخا كان في أن يواقعها يوسف".

قال الزمخشري:"هم بالأمر، إذا قصده وعزم عليه. قال:

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى   تركت على عثمان تبكى حلائله

ومنه قولك: لا أفعل ذلك ولا كيدا ولا هما. أي: ولا أكاد أن أفعله كيدا، ولا أهم بفعله هما، حكاه سيبويه، ومنه: الهمام وهو الذي إذا هم بأمر أمضاه ولم ينكل عنه. وقوله {ولقد همت به}، معناه: ولقد همت بمخالطته".

قال القرطبي: اختلف العلماء في همه. ولا خلاف أن همها كان المعصية.

قال ابن الجوزي: فأما هم زليخا، فقال المفسرون: دعته إلى نفسها واستلقت له.

وقد أجمع العلماء على أن هم امرأة العزيز بيوسف كان هما بمعصية، وكان مقرونا بالعزم والجزم والقصد، بدليل المراودة وتغليق الأبواب، وقولها: هيت لك.

- قال الشنقيطي:... بخلاف هم امرأة العزيز، فإنه هم عزم وتصميم، بدليل أنها شقت قميصه من دبر وهو هارب عنها، ولم يمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه.

ومثل هذا التصميم على المعصية معصية يؤاخذ بها صاحبها، بدليل الحديث الثابت في الصحيح عنه ﷺ من حديث أبي بكرة: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما

=

=

فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصا على قتل صاحبه»، فصرح ﷺ بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار. (أضواء البيان).

قوله تعالى: {وَهَمَّ بِهَا} [يوسف: ٢٤].

وفي قوله تعالى: {وَهَمَّ بِهَا} [يوسف: ٢٤]، أقوال:

أحدها: أنه همّ بها أن يضربها حين راودته عن نفسه ولم يهم بمواقعتها. حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين.

الثاني: أن قوله ولقد همت به كلام تام قد انتهى، ثم ابتدأ الخبر عن يوسف فقال: {وهم بها لولا أن رأى برهان ربه}، ومعنى الكلام: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، قاله قطرب.

الثالث: أن همها كان شهوة، وهمه كان عفة.

الرابع: أن همه بها لم يكن عزمًا وإرادة وإنما كان تمثيلًا بين الفعل والترك، ولا حرج في حديث النفس إذا لم يقترن به عزم ولا فعل، وأصل الهم حديث النفس حتى يظهر فيصير فعلًا، ومنه قول جميل:

هممت بهمٍّ من بثينة لو بدا   شفيت غليلات الهوى من فؤاديا

قال الأخفش:"فلم يكن هم بالفاحشة ولكن دون ذلك مما لا يقطع الولاية".

الخامس: أنه همه كان حركة الطباع التي في قلوب الرجال من شهوة النساء وإن كان قاهرًا له وهو معنى قول الحسن.

السادس: أن الهم بالفاحشة لم يقع منها ولا منه - عليه السلام - وإنما الذي وقع منها هو المراودة، فلما امتنع وكان ذلك إهانة لها وكسرا لطبيعة الأنثى التي فطرت على أن تكون مراودة لا مراودة، من عبدها العبراني، وعدت هذا احتقارا منه، أرادت الانتقام منه بالاعتداء عليه والبطش به في ثورة غضبها وهو انتقام معهود من مثلها

=

=

ومن دونها في كل زمان ومكان، والهم منه كان هما بدفع اعتدائها عليه. أفاده الشيخ رشيد رضا.

السابع: أنه هم بمواقعتها وعزم عليه. وهذا المعنى مروي عن ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي. وحكي الماوردي هذا القول عن جمهور المفسرين.

قال مجاهد:"حل سراويله حتى بلغ ثنته، فمثل له يعقوب فضرب في صدره، فخرجت شهوته من أنامله".

عن أسباط، عن السدي، قوله: "{ولقد همت به وهم بها}، فقالت له: يا يوسف، ما أحسن شعرك. قال: هو أول ما يتناثر من جسدي، قالت: يا يوسف ما أحسن عينيك.. قال: هما أول ما يسيلان إلى الأرض من جسدي، قالت: يا يوسف ما أحسن وجهك.. قال: هو للتراب يأكله، فلم تزل به حتى أطمعها ف همت به وهم بها ودخل البيت، وغلقت الأبواب فذهب يحل سراويله، فإذا هو بصورة يعقوب قائما في البيت قد عض على أصبعه يقول: يا يوسف، لا تواقعها".

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله ابن أبي مليكة: "سئل ابن عباس عن هم يوسف فقال: حل الهميان، وجلس منها مجلس الخاتن فنودي: يا ابن يعقوب أتزني؟ فيكون مثلك مثل طائر سقط ريشه، فذهب يطير فلم يستطع".

وفي رواية اخرى عن عبد الله بن أبي مليكة عن ابن عباس:"لما همت به تزينت ثم استلقت على فراشها، وهم بها وجلس بين رجليها يحل ثيابه، فنودي من السماء يا ابن يعقوب، لا تكن كطائر نتف ريشه فبقي لا ريش له، فلم يتعظ على النداء شيئا، أي: لم يفصم، حتى رأى برهان ربه، جبريل في صورة يعقوب، عاضا على أصبعيه ففزع".

وعن عن محمد بن إسحاق قوله: "{ولقد همت به وهم بها}، فأكبت عليه تطيعه مرة، وتخيفه مرة أخرى، وتدعوه إلى لذة وهي من حاجة الرجال، في جمالها

=

=

وحسنها وملكها، وهو شاب مقتبل يجد من شبق الرجال ما يجد الرجال حتى رق لها مما يرى من كلفها به، ولم يتخوف منها حتى هم بها وهمت به، حتى دخلوا في بعض بيوته فلما هم وتهيأ لذلك رأى برهان ربه فانكشف عنها هاربا".

قال مقاتل:"{وهم بها} يوسف حين حل سراويله وجلس بين رجليها".

قال الماوردي:"فإن قيل: فكيف يجوز أن يوصف يوسف بمثل هذا الفعل وهو نبي الله ﷺ؟

قيل: هي منه معصية، وفي معاصي الأنبياء ثلاثة أوجه:

أحدها: أن كل نبي ابتلاه الله بخطيئة إنما ابتلاء ليكون من الله تعالى على وجل إذا ذكرها فيجدّ في طاعته إشفاقًا منها ولا يتكل على سعة عفوه ورحمته.

الثاني: أن الله تعالى ابتلاهم بذلك ليعرفهم موقع نعمته عليهم بصفحه عنهم وترك عقوبتهم في الآخرة على معصيتهم.

الثالث: أنه ابتلاهم بذلك ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء رحمة الله وترك الإياس في عفوه عنهم إذا تابوا".

قال ابن حزم الاندلسي:"وأما قوله: {همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه}، فليس كما ظن من لم يمعن النظر حتى قال من المتأخرين من قال أنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة! ومعاذ الله من هذا أن يظن برجل من صالحي المسلمين أو مستوريهم فكيف برسول الله ﷺ فقط.

فإن قيل: أن هذا قد روى عن ابن عباس رضي الله عنه من طريق جيدة الإسناد؟

قلنا: نعم ولا حجة في قول أحد إلا فيما صح عن رسول الله ﷺ فقط، والوهم في تلك الرواية إنما هي بلا شك عمن دون ابن عباس أو لعل ابن عباس لم يقطع بذلك إذ إنما أخذه عمن لا يدري من هو ولا شك في أنه شيء سمعه فذكره لأنه رضي الله عنه لم يحضر ذلك ولا ذكره عن رسول الله ﷺ ومحال أن يقطع ابن

=

=

عباس بما لا علم له به لكن معنى الآية لا يعدو أحد وجهين:
- إما أنه هم بالايقاع بها وضربها كما قال تعالى: {وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوه} [غافر: ٥]، وكما يقول القائل: لقد همت بك، لكنه عَلَيْهِ السَّلَامُ امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه استغنى به عن ضربها وعلم أن الفرار أجدى عليه وأظهر لبراءته على ما ظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بأمر القد من القميص.
- والوجه الثاني: أن الكلام تم عند قوله: {ولقد همت به}، ثم ابتدأ تعالى خبرا آخر فقال: {وهم بها لولا أن رأى برهان ربه}، وهذا ظاهر الآية بلا تكلف تأويل، وبهذا نقول حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي حدثنا ابن عون الله أنبأنا إبراهيم ابن أحمد بن فراس حدثنا أحمد بن محمد بن سالم النيسابوري أنا اسحق بن راهوية أنا المؤمل ابن إسماعيل الحميري حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه «إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: {ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب}، قال رسول الله ﷺ: لما قالها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال له جبريل: يا يوسف اذكر همك، فقال يوسف: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوء} »، فليس في هذا الحديث على معنى من المعاني تحقيق الهم بالفاحشة ولكنه فيه أنه بأمرها وهذا حق كما قلنا فسقط هذا الاعتراض وصح الوجه الأول والثاني معا إلا أن الهم بالفاحشة باطل مقطوع على كل حال وصح أن ذلك الهم ضرب سيدته وهي خيانة لسيده إذ هم بضرب امرأته و {برهان ربه} -ها هنا- هو النبوة وعصمة الله ﷻ إياه ولولا البرهان لكان يهم بالفاحشة وهذا لا شك فيه، ولعل من ينسب هذا إلى النبي المقدس يوسف ينزه نفسه الرذلة عن مثل المقام فيهلك وقد خشى النبي ﷺ الهلاك على من ظن به ذلك الظن إذ قال للأنصاريين حين لقيهما «هذه صفية».
ومن الباطل الممتنع أن يظن ظان أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هم بالزنا وهو يسمع قول الله
=

=

تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء فنسأل من خالفنا عن الهم بالزنا بسوء هو أم غير سوء فلا بد أنه سوء ولو قال إنه ليس بسوء لعاند الإجماع فإذ هو سوء وقد صرف عنه السوء فقد صرف عنه الهم بيقين وأيضا فإنها قالت: «ما جزاء من أراد بأهلك سوءا» وأنكر هو ذلك فشهد الصادق المصدق «إن كان قمصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين»، فصح أنها كذبت بنص القرآن وإذا كذبت بنص القرآن فما أراد بها سوء فما هم بالزنا قط ولو أراد بها الزنا لكانت من الصادقين وهذا بين جدا وكذلك قوله تعالى عنه انه قال: {وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين} فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن، فصح عنه أنه قط لم يصب إليها. وبالله تعالى التوفيق".

وقال أبو حيان:"طول المفسرون في تفسير هذين «الهمين»، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق. والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله، ولا تقول: إن جواب «لولا» متقدم عليها وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري، وأبو العباس المبرد. بل نقول: أن جواب «لولا» محذوف لدلالة ما قبله عليه، كما تقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت، فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم، ولا يدل قوله: أنت ظالم على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل.

وكذلك هنا التقدير: «لولا أن رأى برهان ربه لهم بها»، فكان موجدا الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم.

ولا التفات إلى قول الزجاج. ولو كان الكلام ولهم بها كان بعيدا، فكيف مع

=

=

سقوط اللام؟ لأنه يوهم أن قوله: {وهم بها} هو جواب «لولا»، ونحن لم نقل بذلك، وإنما هو دليل الجواب. وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب فـ «اللام» ليست بلازمة لجواز أن ما يأتي جواب «لولا» إذا كان بصيغة الماضي باللام، وبغير «لام»، تقول: لولا زيد لأكرمتك، ولولا زيد أكرمتك.

فمن ذهب إلى أن قوله: {وهم بها} هو نفس الجواب لم يبعد، ولا التفات لقول ابن عطية إن قول من قال: إن الكلام قد تم في قوله: ولقد همت به، وإن جواب «لولا» في قوله: {وهم بها}، وأن المعنى: لولا أن رأى البرهان لهم بها فلم يهم يوسف عليه السلام قال، وهذا قول يرده لسان العرب وأقوال السلف انتهى.

أما قوله: يرده لسان العرب فليس كما ذكر، وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب قال الله تعالى: {إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [القصص: ١٠]، فقوله: {إن كادت لتبدي به}، إما أن يتخرج على أنه الجواب على ما ذهب إليه ذلك القائل، وإما أن يتخرج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب، والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.

وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضا، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين، فضلا عن المقطوع لهم بالعصمة. والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب، لأنهم قدروا جواب لولا محذوفا، ولا يدل عليه دليل، لأنهم لم يقدروا لهم بها. ولا يدل كلام العرب إلا على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط، لأن ما قبل الشرط دليل عليه، ولا يحذف الشيء لغير دليل عليه. وقد طهرنا كتابنا هذا عن نقل ما في كتب التفسير مما لا يليق ذكره، واقتصرنا على ما دل عليه لسان العرب، ومساق الآيات التي في هذه السورة مما يدل على العصمة، وبراءة يوسف

=

=

عليه السلام من كل ما يشين. ومن أراد أن يقف على ما نقل عن المفسرين في هذه الآية فليطالع ذلك في تفسير الزمخشري، وابن عطية، وغيرهما".

وقال ابن العربي:"قد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنا وتحريم خيانة السيد أو الجار أو الأجنبي في أهله، فما تعرض لامرأة العزيز، ولا أناب إلى المراودة [بحكم المراودة]؛ بل أدبر عنها، وفر منها؛ حكمة خص بها، وعملا بمقتضى ما علمه الله سبحانه؛ وهذا يطمس وجوه الجهلة من الناس والغفلة من العلماء في نسبتهم إليه ما لا يليق به، وأقل ما اقتحموا من ذلك أنه هتك السراويل، وهم بالفتك فيما رأوه من تأويل، وحاش لله ما علمت عليه من سوء، بل أبرئه مما برأه منه، فقال: {ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما} [يوسف: ٢٢]، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا الذين استخلصناهم. والفحشاء هي الزنا والسوء هو المراودة والمغازلة، فما ألم بشيء ولا أتى بفاحشة.

فإن قيل: فقد قال الله: {ولقد همت به وهم بها} [يوسف: ٢٤].

قلنا: قد تقصينا عن ذلك في كتاب الأنبياء من شرح المشكلين، وبينا أن الله [سبحانه] ما أخبر عنه أنه أتى في جانب القصة فعلا بجارحة، وإنما الذي كان منه الهم، وهو فعل القلب، فما لهؤلاء المفسرين لا يكادون يفقهون حديثا، ويقولون: فعل، وفعل؟ والله إنما قال: هم بها، لا أقالهم ولا أقاتهم الله ولا عالهم.

كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية، وأيّ إمام، يعرف بابن عطاء، تكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته من مكروه ما نسب إليه، فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كان طائفة، فقال له: يا سيدي، فإذن يوسف هم وما تم. فقال: نعم؛ لأن العناية من ثم. فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم، وانظر إلى فطنة العامي في سؤاله، وجواب العالم في اختصاره، واستيفائه. ولذلك قال علماء الصوفية: إن فائدة قوله: {ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما} [يوسف:

=

=

٢٢] أن الله أعطاه العلم والحكمة إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة".

وأرجح هذه الأقوال أن المراد به خطرات القلب، وهذا لا يسلم منه أحد، فتركه لله فأثابه الله.

ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم.

- قال ابن القيم:... الصواب أن همه كان هم خطرات فتركه لله فأثابه الله عليه، وهمها كان هم إصرار بذلت معه جهدها فلم تصل إليه فلم يستو الهمان.

قال الإمام أحمد بن حنبل: الهم همان هم خطرات وهم إصرار فهم الخطرات لا يؤاخذ به وهم الإصرار يؤاخذ به. (روضة المحبين)

- قال ابن الجوزي:... أنه كان من جنس همها، فلولا أن الله تعالى عصمه لفعل.

وإلى هذا المعنى ذهب الحسن، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسدي.

وهو قول عامة المفسرين المتقدمين، واختاره من المتأخرين جماعة منهم ابن جرير، وابن الأنباري.

واحتج من نصر هذا القول بأنه مذهب الأكثرين من السلف والعلماء الأكابر.

قالوا: ورجوعه عما هم به من ذلك خوفا من الله تعالى يمحو عنه سيء الهم، ويوجب له علو المنازل.

ففي الحديث الصحيح (انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم... قال أحدهم: اللهم إنه كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إلي» وفي رواية: «كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بيني وبين نفسها

=

=

ففعلت، حتى إذا قدرت عليها» وفي رواية: «فلما قعدت بين رجليها، قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة...). (زاد المسير).

وقد قال ﷺ (وهم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة) وفي رواية (إنما تركها من جراي) لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفا من الله، وامتثالا لأمره، كما قال تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى).

وهم بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد، كهم يوسف هذا، بدليل قوله (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما) لأن قوله: والله وليهما يدل على أن ذلك الهم ليس معصية؛ لأن إتباع المعصية بولاية الله لذلك العاصي إغراء على المعصية.... (أضواء البيان)

- قال ابن تيمية:... ولهذا لما لم يذكر عن يوسف توبة في قصة امرأة العزيز دل على أن يوسف لم يذنب أصلا في تلك القصة كما يذكر من يذكر أشياء نزهه الله منها بقول تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) وقد قال تعالى (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) والهم كما قال الإمام أحمد - رضي الله عنه - همان:

هم خطرات، وهم إصرار.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال (إن الله تعالى يقول إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة كاملة فإن عملها فاكتبوها عشرا إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن تركها فاكتبوها له حسنة فإنما تركها من جراي) فيوسف عليه السلام لما هم ترك همه لله، فكتب الله به حسنة كاملة ولم يكتب عليه سيئة

=

=

قط، بخلاف امرأة العزيز فإنها همت، وقالت، وفعلت فراودته بفعلها وكذبت عليه عند سيدها واستعانت بالنسوة وحبسته لما اعتصم وامتنع عن الموافقة على الذنب. (جامع الرسايل)

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالهم اسم جنس تحته "نوعان" كما قال الإمام أحمد الهم همان: هم خطرات وهم إصرار وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ (أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه وإذا تركها لله كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له سيئة واحدة) وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة ويوسف ﷺ هم هما تركه لله ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه.... (مجموع الفتاوى).

- إن قيل: فقد سوى القرآن بين الهمتين، فلم فرقتم؟

فالجواب: أن الاستواء وقع في بداية الهمة، ثم ترقت همتها إلى العزيمة، بدليل مراودتها واستلقائها بين يديه، ولم تتعد همته مقامها، بل نزلت عن رتبتها، وانحل معقودها، بدليل هربه منها، وقوله: «معاذ الله».

- وقد بين القرآن براءته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الوقوع فيما لا ينبغي حيث بين شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به.

أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله (هي راودتني عن نفسي) وقوله (قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه).

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم).

وقولها (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين).

وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله (قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين).

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد

=

=

من قبل فصدقت وهو من الكاذبين).

وأما شهادة الله جل وعلا ببراءته ففي قوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين).

قوله تعالى: {لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} [يوسف: ٢٤]، أي:"لولا أن رأى آية من آيات ربه تزجره عمَّا حدثته به نفسه".

قال الصابوني:"لولا حفظ الله ورعايتُه ليوسف، وعصمتُه له لخالطها وأمضى ما حدثته نفسه به، ولكنَّ الله عصمه بالحفظ والتأييد فلم يحصل منه شيءٌ البتَّة".

وفي قوله تعالى: {لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} [يوسف: ٢٤]، وجوه:

أحدها: أن برهان ربه الذي رآه أن نودي بالنهي عن مواقعة الخطيئة. وهذا قول ابن عباس ، وقتادة ، و ابن أبي مليكة.

قال ابن عباس:"نودي: يا يوسف، أتزني، فتكون كالطير وَقَع ريشه، فذهب يطير فلا ريش له؟".

وفي رواية اخرى:"نُودي: يا ابن يعقوب، لا تكن كالطائر له ريش، فإذا زنى ذهب ريشه، أو قعد لا ريش له. قال: فلم يُعْطِ على النداء، فلم يزد على هذا".

وفي رواية أخرى عن ابن عباس:"نودي: يا ابن يعقوب، لا تكن كالطير إذا زنى ذهب ريشه، وبقي لا ريش له! فلم يطع على النداء، ففُزِّع".

قال قتادة:"نودي يوسف فقيل: أنت مكتوب في الأنبياء، تعمل عمل السفهاء؟".

الثاني: أنه رأى صورة يعقوب-عليه السلام- يتوعّده، فكفّ عن مواقعة الخطيئة، قاله ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، ومجاهد ، والسدي ، وأبو صالح ، ومحمد بن سيرين ، وحميد بن عبد الرحمن ، والقاسم بن ابي بزة ، ومشمر بن عطية.

قال الحسن:"رأى يعقوب عاضا على أصابعه يقول: يوسف، يوسف".

=

=

وفي رواية أخرى:"زعموا، والله أعلم، أن سقف البيت انفرج، فرأى يعقوبَ عاضًّا على أصابعه".

قال سعيد بن جبير:"رأى تمثال وجه أبيه، قائلا بكفه هكذا – وبسط كفه– فخرجت شهوته من أنامله".

عن وهب بن جرير، عن أبيه قال: "سمعت ابن أبي مليكة قال: قيل لابن عباس: ما بلغ من هم يوسف؟ قال: أطلق تكة سراويله، وقعد منها ذلك المقعد، فمثل له يعقوب في سقف البيت عاضا على إبهامه، فانتزع الله كل شهوة كانت في جسده فخرج يسعى إلى باب البيت".

وعن الضحاك، عن ابن عباس، قوله: "{لولا أن رأى برهان ربه}، قال: "رأى صورة أبيه، يعقوب في وسط البيت عاضا على إبهامه فأدبر هاربا، قال: وحقك يا أبه، لا أعود أبدا".

قال قتادة:"مثل له يعقوب عاضا على أصبعيه وهو يقول له: أيا يوسف أتتهم بعمل السفهاء وأنت مكتوب في الأنبياء؟ فذلك البرهان، فانتزع الله كل شهوة كانت في مفاصله".

قال محمد بن سيرين:"مثل له يعقوب عاضا على أصبعيه يقول: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، اسمك في الأنبياء، وتعمل عمل السفهاء".

قال السدي:"فإذا هو بصورة يعقوب قائم في البيت قد عض على أصبعه يقول: يا يوسف، لا تواقعها، إنما مثلك مثل الطير في جو السماء لا يطاق، ومثلك إذا وقعت عليها مثله إذا مات فوقع على الأرض لا يستطيع أن يدفع، عن نفسه، ومثلك مثل الثور الصعب الذي لم يعمل عليه ومثلك إذا واقعتها مثله إذا مات، فدخل الماء في أصل قرنيه لا يستطيع أن يدفع، عن نفسه فربط سراويله".

=

=

قال مجاهد: "تمثل له يعقوب، فضرب في صدر يوسف، فطارت شهوته من أطراف أنامله، فولد لكل ولد يعقوب اثنا عشر ذكر غير يوسف لم يولد له إلا غلامان".

قال سعيد بن جبير: "رأى صورةً فيها وجه يعقوب عاضًّا على أصابعه، فدفع في صدره، فخرجت شهوته من أنامله. فكلُّ ولد يعقوب وُلِدَ له اثنا عشر رجلا إلا يوسف، فإنه نقص بتلك الشهوة، ولم يولد له غير أحد عشر".

عن علي بن بذيمة، قال: "كان يولد لكل رجل منهم اثنا عشر ابنًا، إلا يوسف، ولد له أحد عشر، من أجل ما خرج من شهوته".

قال عبيد الله بن أبي جعفر: "بلغ من شهوة يوسف أن خرجت من بَنَانه".

الثالث: أن البرهان الذي رآه ما أوعد الله تعالى على الزنى. وهذا المعنى مروي عن محمد بن كعب القرظي، وأبي هلال في رواية نافع.

قال محمد بن كعب القرظي: "رفع رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت: {لا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا} [سورة الإسراء: ٣٢]".

وقال محمد بن كعب: "لولا أن رأى ما حرم عليه من القرآن لرجع عليه".

وعن أبي صخر، قال: "سمعت القرظي يقول في «البرهان»: الذي أرى يوسف ثلاث آيات من كتاب الله: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}، وقول الله: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ}، وقول الله: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}، قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل القرظي، وزاد آية أخرى رابعة {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا}".

الرابع: أن البرهان الذي رآه. تمثال الملك إظفير سيده، قاله ابن عباس، وابن إسحاق.

=

=

قال محمد بن إسحاق:"كان بعض أهل العلم، فيما بلغني، يقول: البرهان الذي رأى يوسف فصرف عنه السوءَ والفحشاء، يعقوبُ عاضًّا على إصبعه، فلما رآه انكشفَ هاربًا، ويقول بعضهم: إنما هو خيال إطفير سيده، حين دَنا من الباب، وذلك أنه لما هرب منها واتبعته، ألفياه لدى الباب".

الخامس: أن البرهان الذي رآه هو ما آتاه الله تعالى من آداب آبائه في العفاف والصيانة وتجنب الفساد والخيانة، قاله ابن بحر.

فالبرهان على هذا القول هو: اليقين والإيمان وشدة مراقبة الله تعالى.

السادس: أن البرهان الذي رآه أنه لما همت به وهم بها رأى سترًا فقال لها: ما وراء هذه الستر؟ فقالت: صنمي الذي أعبده أستره استحياء منه. فقال: إذا استحيت مما لا يسمع ولا يبصر فأنا أحق أن أستحي من إلهي وأتوقاه، قاله الضحاك.

السابع: انه رأى آية من كتاب الله نهته مثلت له في جدار، وهو البرهان الذي رأى. وهذا القول حكاه الأوزاعي عن ابن عباس.

وقال قتادة:"رأى آية من آيات ربه حجزه الله بها، عن معصيته".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن همِّ يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آيةٌ من الله، زجرته عن ركوب ما همَّ به يوسف من الفاحشة، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك - وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا، ولا حجة للعذر قاطعة بأيِّ ذلك [كان] من أيٍّ. والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ} [يوسف: ٢٤]، أي:"وإنما أريناه ذلك؛ لندفع عنه السوء والفاحشة في جميع أموره".

=

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥).

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: كما أرينَا يوسف برهاننا على الزجر عمَّا همّ به من الفاحشة، كذلك نسبّب له في كلِّ ما عرض له من همٍّ يهمُّ به فيما لا يرضاه، ما يزجره ويدفعه عنه ؛ كي نصرف عنه ركوب ما حرَّمنا عليه، وإتيان الزنا، لنطهره من دنس ذلك".

قوله تعالى: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]، أي:"، إنه من عبادنا المطهرين المصطفَين للرسالة الذين أخلصوا في عبادتهم لله وتوحيده".

قال الطبري:"إن يوسف من عبادنا الذين أخلصناهم لأنفسنا، واخترناهم لنبوّتنا ورسالتنا".

عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر في قوله: "كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء}، قال: الزنا، والثناء القبيح".

عن أبي ثمامة قال: "قال الحواريون: يا روح الله: أخبرنا من المخلص لله؟ قال: الذي يعمل لله لا يحب أن يحمده الناس".

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «المخلصين» بكسر اللام، وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله تعالى.

وقرأ الباقون «الْمُخْلَصِينَ» بفتح اللام، وتأويلها الذين أخلصهم الله برسالته، وقد كان يوسف عليه السلام بهاتين الصفتين لأنه كان مخلصًا في طاعة الله تعالى، مستخلصًا لرسالة الله.

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بكسر اللام، والمعنى: إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بفتح اللام، أرادوا: من الذين أخلصهم الله من الأسواء والفواحش.

{وَاسْتَبَقَا الْبَاب} بَادَرَ إِلَيْهِ يُوسُف لِلْفِرَارِ وَهِيَ لِلتَّشَبُّثِ بِهِ فَأَمْسَكَتْ ثَوْبه وَجَذَبَتْهُ إِلَيْهَا {وَقَدَّتْ} شَقَّتْ {قَمِيصه مِنْ دُبُر وَأَلْفَيَا} وَجَدَا {سَيِّدهَا} زَوْجهَا {لَدَى الْبَاب} فَنَزَّهَتْ نَفْسهَا ثُمَّ {قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِك سُوءًا} زِنًا {إِلَّا أَنْ يُسْجَن} يُحْبَس فِي سِجْن {أَوْ عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم بِأَنْ يُضْرَب.

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦).

{قَالَ} يُوسُف مُتَبَرِّئًا {هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وشهد شاهد من أهلها} بن عَمّهَا رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ فِي الْمَهْد فَقَالَ {إنْ كَانَ قَمِيصه قُدَّ مِنْ قُبُل} قُدَّام {فصدقت وهو من الكاذبين}.

وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧).

{وَإِنْ كَانَ قَمِيصه قُدَّ مِنْ دُبُر} خَلْف {فكذبت وهو من الصادقين}.

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨).

{فَلَمَّا رَأَى} زَوْجهَا {قَمِيصه قُدَّ مِنْ دُبُر قَالَ إِنَّهُ} أَيْ قَوْلك {مَا جَزَاء مَنْ أراد} إلخ {من كيدكن} أيها النساء {إن كيدكن عظيم}.

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩).

ثم قال يا {يُوسُف أَعْرِضْ عَنْ هَذَا} الْأَمْر وَلَا تَذْكُرهُ لِئَلَّا يَشِيع {وَاسْتَغْفِرِي} يَا زُلَيْخَا {لِذَنْبِك إنَّك كُنْت مِنَ الْخَاطِئِينَ} الْآثِمِينَ وَاشْتَهَرَ الْخَبَر وَشَاعَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ} [يوسف: ٢٥]، أي:"وأسرع يوسف إلى الباب يريد الخروج، وأسرعت تحاول الإمساك به".

=

=

والاستباق وهو افتعال من السبق بمعنى أن كل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب.

ووجه تسابقهما: أن يوسف عليه السلام أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروبا من الفاحشة التي طلبتها منه. وهي أسرعت خلفه لتمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه.

قال قتادة:"استبق هو والمرأة الباب".

قال الزجاج:"أي: استبقا إلى الباب، يعني به يوسف وامرأة العزيز".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: واستبق يوسف وامرأة العزيز بابَ البيت، أما يوسف ففرارًا من ركوب الفاحشة لما رأى برهان ربه فزجره عنها، وأما المرأة فطلبها ليوسف لتقضي حاجتها منه التي راودته عليها".

قال مقاتل:"ويوسف أمامها هارب منها وهي ورائه تتبعه لتحبسه على نفسها فأدركته قبل أن ينتهي إلى الباب".

قال الثعلبي:"وذلك أن يوسف لما رأى البرهان قام مبادرا إلى باب البيت، هاربا مما أرادته منه، واتبعته المرأة فذلك قوله تعالى: {واستبقا الباب}، يعني: بادر يوسف وراحيل إلى الباب، أما يوسف ففرارا من ركوب الفاحشة، وأما المرأة فطلبها ليوسف لتقضي حاجتها أي راودته عليها".

عن عبد الله بن عباس، قال: "فلم يتعظ بالنداء، حتى صكه جبريل في صدره فطارت كل شهوة في رأسه، فخرجت من أنامله، فوثب إلى الباب، فوجده مغلقا، فرفع يوسف رجله، فضرب بها الباب الأدنى، فانفرج له، فانفرجت له الأبواب التي دونه، واتبعته فأدركته عند آخر باب منها".

قوله تعالى: {وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ} [يوسف: ٢٥].

القد: القطع والشق، وأكثر استعماله في الشق والقطع الذي يكون طولا، وهو

=

=

المراد هنا، لأن الغالب أنها جذبته من الخلف وهو يجري أمامها فانخرق القميص إلى أسفله.

قال الطبري:"فأدركته فتعلقت بقميصه، فجذبته إليها مانعةً له من الخروج من الباب،، فقدَّته من دبر، يعني: شقته من خلف لا من قدام، لأن يوسف كان هو الهارب، وكانت هي الطالبة".

قال ابن ابي زمنين:"أي: شقته من خلفه".

قال الثعلبي:"فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه فجذبته إليها مانعة له من الخروج، {وقدت}، أي: خرقت وشقت، {قميصه من دبر}: من خلف لا من قدام، لأن يوسف كان الهارب والمرأة الطالبة".

قال الزجاج:"«القد»: القطع، أي خرقته خرقا انقد منه".

قال مقاتل:"يقول: فمزقت قميصه من ورائه حتى سقط القميص عن يوسف".

قال ابن عباس:"فوضعت يداها في قميصه، فشقته حتى بلغت عظمة ساقيه، وسقط عنه، وتبعته فـ {ألفيا سيدها لدى الباب}".

قال ابن إسحاق:"لما رأى برهان ربه، انكشفَ عنها هاربًا، واتبعته، فأخذت قميصه من دبر، فشقَّته عليه".

قوله تعالى: {وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ} [يوسف: ٢٥]، أي:"ووجدا زوجها عند الباب".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: وصادفا سيدها -وهو زوج المرأة- عند الباب".

قال مقاتل:"يقول وجدا كقوله: {مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [البقرة: ١٧٠]، يعنى: وجدا سيدها، يعني: زوجها {لدى الباب}، يعني: عند الباب ومعه ابن عمها يمليخا بن زليخا".

قال الثعلبي:"فلما خرجا {وألفيا سيدها لدى الباب}، أي: وجدا زوجها قطفير

=

=

عند الباب جالسا مع ابن عم لراحيل".

قال مجاهد:"سيدها: زوجها، {لدى الباب}، قال: عند الباب".

قال زيد بن ثابت: "«السيد»، الزوج".

قال أبو صالح: "والسيد هو الزوج بلسان القبط".

عن السدي: "{وألفيا سيدها لدى الباب}، قال: جالسًا عند الباب وابن عمّها معه، فلما رأته قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا؟ إنه راودني عن نفسي، فدفعته عن نفسي، فشققت قميصه. قال يوسف: بل هي راودتني عن نفسي، وفررت منها فأدركتني، فشقت قميصي. فقال ابن عمها: تِبْيان هذا في القميص، فإن كان القميص، قدّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين. فأتي

بالقميص، فوجده قدّ من دبر قال: {إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم. يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين}".

عن ابن إسحاق: "{وألفيا سيدها لدى الباب}، إطفير، قائمًا على باب البيت، فقالت وهابَتْه: {ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن أو عذاب أليم}، ولطخته مكانها بالسيئة، فَرَقًا من أن يتهمها صاحبُها على القبيح. فقال هو، وصَدقه الحديث: {هي راودتني عن نفسي}".

قال يحيى بن زكريا بن أبي زائدة: "وفي قراءة عبد الله: «ووجدا سيدها»، يعني: {وألفيا}".

قوله تعالى: {قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [يوسف: ٢٥]، أي:"فقالت: ما جزاء مَن أراد بامرأتك فاحشة إلا أن يسجن أو يعذب العذاب الموجع".

قال مقاتل:"يعنى: الزنا، {إلا أن يسجن}، حبسا في نصب أو {عذاب أليم}، =

=

يعني: ضربا وجيعا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قالت امرأة العزيز لزوجها لما ألفياه عند الباب، فخافت أن يتهمها بالفجور: ما ثواب رجل أرادَ بامرأتك الزنا {إلا أن يسجن} في السجن، أو إلا {عذاب أليم}، يقول: موجع".

قال الثعلبي:"فلما رأته هابته فقالت: سابقة بالقول لزوجها: {قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا}، يعني: الزنا، {إلا أن يسجن}: يحبس، {أو عذاب أليم}، يعني: الضرب بالسياط، قاله ابن عباس".

عن ابن عباس:"{أو عذاب}، يقول: نكال".

وعن ابن عباس في قول الله: "{عذاب أليم}، قال: كل شيء موجع".

عن نوف الشامي، قال: "ما كان يوسف يريد أن يذكره، حتى قالت: {ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا}، الآية، قال: فغضب، فقال: {هي راودتني عن نفسي}".

أخرج الثعلبي عن جعفر بن سليمان، قال: "سمعت امرأة في بعض الطرق وهي تتكلم ببعض الرفث فقلت لها: [....] إنكن صويحبات يوسف، فقالت له المرأة: وا عجبا نحن دعوناه إلى اللذة، وأنتم أردتم قتله، فمن أصحابه نحن أو أنتم، وقتل النفس أعظم مما أردناه؟".

فوائد الآيات: [٢٣ - ١٥]:

قوله تعالى: {قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي} [يوسف: ٢٦]، أي:"قال يوسف: هي التي طلبت مني ذلك".

قال مقاتل:"قال يوسف للزوج: هي راودتني عن نفسي".

قال الزجاج:"أي: هي التِي أرادَتِ السَّوءَ".

قال الطبري:"قال يوسف لما قذفته امرأة العزيز بما قذفته من إرادته الفاحشة منها، مكذِّبًا لها فيما قذفته به ودفعًا لما نسب إليه: ما أنا راودتها عن نفسها، بل هي

=

=

راودتني عن نفسي".

قال السدي:"واشتد نحو الباب وألفيا سيدها جالسا عند الباب هو وابن عم المرأة فلما رأته قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم إنه راودني، عن نفسي، فدفعته عني، فشققت قميصه فقال يوسف: لا بل هي راودتني، عن نفسي فأبيت وفررت منها فأدركتني فأخذت بقميصي فشقته علي".

عن نوف الشامي، قال: "ما كان يوسف يريد أن يذكره، حتى قالت: {ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا}، الآية، قال: فغضب فقال: {هي راودتني عن نفسي}".

قوله تعالى: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا} [يوسف: ٢٦]، أي:"سخرالله في تلك اللحظة الحرجة، من يدلي بشهادته لتثبت براءة يوسف أمام العزيز".

قال العلماء: وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة.

قال ابن عباس:"كان من خاصة الملك".

وفي هذا الشاهد، أربعة أقوال:

أحدها: أنه صبي أنطقه الله تعالى في مهده، قاله ابن عباس ، وأبو هريرة ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وهلال بن يساف.

قال ابن عباس:"تكلم أربعة في المهد وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام". ورواه مرفاعا.

عن أبي هريرة، قال: عيسى، وصاحب يوسف، وصاحب جريج، يعني: تكلموا في المهد".

الثاني: أنه خلق من خلق الله تعالى ليس بإنس ولا جن، قاله مجاهد. قال ابن كثير: "هذا قول غريب".

الثالث: أنه رجل حكيم من أهلها، قاله قتادة ، وعكرمة.

=

=

قال قتادة:"رجل حكيم كان من أهلها، فقال: القميص يقضي بينكما، إن كان قميصه قد من قبل، فصدقت وهو من الكاذبين".

وقال مجاهد:"كان رجلا:". وروي عنه أيضا: "حكم حاكم".

وقال سعيد بن جبير:"رجل".

قال الحسن:"رجل له رأي أشارَ برأيه".

وروي عن ابن عباس، قال: "كان ذا لحية". وفي رواية:"كان من خاصّة".

قال زيد بن أسلم:"ابن عم كان لها حكيما".

قال السدي:"ابن عمها كان الشاهدَ من أهلها".

قال ابن إسحاق:"إن الشاهد مشيوا، رجل من أهل أطيفير، كان يستعين برأيه ويسمع منه إلا أنه قال: أشهد إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وذلك أن الرجل إنما يريد المرأة مقبلا، وذلك أن الرجل لا يأتي المرأة مدبرا، وقال: إنه لا ينبغي أن يكون في الحق إلا ذلك".

وقال الحسن:"رجل له فهم وعلم".

الرابع: أنه عنى شهادة القميص المقدود، قاله مجاهد أيضًا.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك، قول من قال: كان صبيًّا في المهد للخبر الذي ذكرناه عن رسول الله ﷺ. أنه ذكر من تكلم في المهد. فذكر أنَّ أحدهم صاحب يوسف، فأمّا ما قاله مجاهد من أنه القميص المقدود، فما لا معنى له ؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر عن الشاهد الذي شهد بذلك أنه من أهل المرأة فقال: {وشهد شاهد من أهلها}، ولا يقال للقميص هو من أهل الرجل ولا المرأة".

قال العلامة الألباني في الضعيفة (): روا الحاكم في " المستدرك " (٢ / ٢٩٥): حدثنا أبو الطيب محمد بن محمد الشعيري: حدثنا السري بن خزيمة: حدثنا

=

=

مسلم بن إبراهيم: حدثنا جرير بن حازم: حدثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعا " لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة بنت فرعون " باطل بهذا اللفظ.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين "! ووافقه الذهبي وهو عجب، فإن السري بن خزيمة لم أجد له ترجمة، وكذلك محمد بن محمد الشعيري لم أجده إلا أن يكون، هو الذي أورده السمعاني في " الأنساب ": محمد بن جعفر الشعيري، قال (٣٣٥ / ٢): "حدث عن عثمان بن صالح الخياط، روى عنه علي بن هارون الحربي". ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا. وهذا الحديث بهذا الإسناد باطل عندي، وذلك لأمرين: الأول: أنه حصر المتكلمين في المهد في ثلاثة، ثم عند التفصيل ذكرهم أربعة! والثاني: أن الحديث رواه البخاري في " صحيحه - أحاديث الأنبياء " من الطريق التي عند الحاكم فقال: حدثنا مسلم بن إبراهيم بسنده عند الحاكم تماما إلا أنه خالفه في اللفظ فقال: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج (قلت فذكر قصته وفيها: ثم أتى الغلام فقال: من أبو ك يا غلام؟ فقال: الراعي، ثم قال:) وكانت امرأة ترضع ابنا لها من بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: "اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها فأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله". الحديث.

وأخرجه مسلم أيضا (٨ / ٤ - ٥) من طريق يزيد بن هارون: أخبرنا جرير بن حازم به ورواه أحمد (٢ / ٣٠٧ - ٣٠٨) من طريقين آخرين عن جرير به.

والظاهر أن أصل حديث الترجمة موقوف، فقد أخرجه ابن جرير في " تفسيره " (١٢ / ١١٥): حدثنا ابن وكيع: قال: حدثنا العلاء بن عبد الجبار عن حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "تكلم أربعة في

=

=

المهد وهم صغار ...".

قلت: فذكرهم كما في رواية الحاكم الباطلة! ورجال هذا الموقوف موثقون ولكن فيه علتان:

الأولى: عطاء بن السائب، فإنه كان قد اختلط، وحماد بن سلمة روى عنه قبل الاختلاط وبعده، خلافا لمن يظن خلافه من المعاصرين! الثانية: ابن وكيع هذا وهو سفيان، قال الحافظ: "كان صدوقا إلا أنه ابتلي بوراقه، فأدخل عليه ما ليس من حديثه، فنصح فلم يقبل، فسقط حديثه".

قلت: لكنه لم يتفرد به، فقال ابن جرير: "حدثنا الحسن بن محمد قال: أخبرنا عفان قال: حدثنا حماد قال: أخبرني عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "تكلم أربعة وهم صغار، فذكر فيهم شاهد يوسف".

قلت: وأخرجه الحاكم (٢ / ٤٩٦ - ٤٩٧) من طريق أخرى عن عفان به وقال: "صحيح الإسناد "! ووافقه الذهبي مع أنه قال في عطاء في " الضعفاء " (١٨٧ / ٢): "مختلف فيه، من سمع منه قديما فهو صحيح".

وقد علمت مما سبق أن حماد بن سلمة سمع منه في اختلاطه أيضا، ولا يمكن تمييز ما سمعه في هذا الحال عن ما سمعه قبلها، فلذا يتوقف عن تصحيح روايته عنه. ثم إن السيوطي قد أورد حديث أبي هريرة من طريق الحاكم في " الجامع الصغير " بلفظ: "لم يتكلم في المهد إلا عيسى ابن مريم ... " فحذف منه كما ترى لفظة " ثلاثة " لمعارضتها للتفصيل المذكور في الحديث عقبها كما سبق بيانه، وهذا تصرف من السيوطي غير جيد عندي، بل الواجب إبقاء الرواية كما هي، مع التنبيه على ما فيها من التناقض، فلربما دل هذا التناقض على ضعف أحد رواة الحديث كما فعلنا نحن حيث بينا أن الحديث في " البخاري " من الطريق التي أخرجها الحاكم بغير هذا اللفظ.

=

=

هذا، ولم أجد في حديث صحيح ما ينافي هذا الحصر الوارد في حديث الصحيحين إلا ما قصة غلام الأخدود ففيها أنه قال لأمه: "يا أمه اصبري فإنك على الحق " رواه أحمد (٦ / ١٧ - ١٨) من حديث صهيب مرفوعا بسند صحيح على شرط مسلم. وفيه عنده زيادة أن أمه كانت ترضعه، والقصة عند مسلم أيضا (٨ / ٢٣١) دون هذه الزيادة، وقد عزاها الحافظ في " الفتح " (٦ / ٣٧١) لمسلم، وهو وهم إن لم تكن ثابتة في بعض نسخ مسلم.

وقد جمع بين هذا الحديث وحديث الصحيحين بأن حمل هذا على أنه لم يكن في المهد. والله أعلم. ومن تخاليط عطاء بن السائب أنه جعل قول هذا الغلام: "اصبري ... " من كلام ابن ماشطة بنت فرعون!

وسيأتي في لفظ: "لما أسري بي....". ثم إن ظاهر القرآن في قصة الشاهد أنه كان رجلا لا صبيا في المهد، إذ لوكان طفلا لكان مجرد قوله إنها كاذبة كافيا وبرهانا قاطعا، لأنه من المعجزات، ولما احتيج أن يقول: "من أهلها "، ولا أن يأتي بدليل حي على براءة يوسف عليه السلام وهو قوله: (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد من الدبر) الآية، وقد روى ابن جرير بإسناد رجاله ثقات عن ابن عباس أن الشاهد كان رجلا ذا لحية، وهذا هو الأرجح، والله أعلم.

(فائدة) ما يذكر في بعض كتب التفسير وغيرها أنه تكلم في المهد أيضا، إبراهيم ويحيى ومحمد ﷺ أجمعين. فليس له أصل مسند إلى النبي ﷺ. فاعلم ذلك. انتهى من الضعيفة.

قوله تعالى: {إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [يوسف: ٢٦]، أي:"فقال: إن كان قميصه شُقَّ من الأمام فصدقت في اتِّهامها له، وهو من الكاذبين".

=

=

قال ابن كثير:"{قُدَّ مِنْ قُبُلٍ}، أي: من قدامه، {فَصَدَقَتْ}، أي: في قولها إنه أرادها على نفسها لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدت قميصه، فيصح ما قالت".

قال الزجاج:"أي: إن كان هو المقبل عليها وهي الدافعة له عن نفسها فيجب أن تكون خرقت قميصه من قُبُل".

قال عامر: "كان في قميص يوسف ثلاث آيات: حين قد قميصه من دبر، وحين ألقي على وجه أبيه فارتد بصيرا، وحين جاؤ على قميصه بدم كذب، عرف أن الذئب لو أكله خرق قميصه".

قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)} [يوسف: ٢٧]

وإن كان قميصه شُقَّ من الخلف فكذبت في قولها، وهو من الصادقين.

قال الزجاج:"وإن كان هو المتباعدَ مِنْهَا، وهي التابعة له في استباقهما فيجب أن يكون قَدُّ القَميصِ من دبُرٍ".

قال ابن كثير:"وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لتردّه إليها، فقدت قميصه من ورائه".

قال مقاتل:"أي: وإن كان يوسف هو الهارب منها فأدركته فقدت قميصه من دبر فكذبت على يوسف، ويوسف من الصادقين في قوله وقد سمعا جلبتهما وتمزيق القميص من وراء الباب".

قال الصابوني:"لأن الأمر المنطقي أن يُشق الثوب من خلف إن كانت هي الطالبة له وهو الهارب".

قال الماوردي:"وهذه إحدى الآيات الثلاث في قميصه: إن كان قُدَّ من دبر فكان فيه دليل على صدقه، وحين جاءوا على قميصه بدم كذب، وحين ألقي على وجه

=

=

أبيه فارتدّ بصيرًا".

قال السدي:"قال ابن عمها: في القميص تبيان الأمر انظروا إن كان قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما أتى بالقميص وجد قد قد من دبر".

قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ} [يوسف: ٢٨]، أي:"فلما رأى زوجها أن الثوب قد شُقَّ من الوراء".

قال ابن كثير: "أي: فلما تحقق زوجها صدقَ يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به".

قال محمد بن إسحاق:"فلما رأى أطيفير قميصه قد من دبر عرف أنه من كيدها قال: {إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم}".

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ} [يوسف: ٢٨]، أي:"قال لزوجته: إن هذا الكذب الذي اتهمتِ به هذا الشاب هو مِن جملة مكركن -أيتها النساء-".

قال مقاتل:"يقول: تمزيق القميص من فعلكن، يعني: امرأته".

قال الزجاج:"أي: إن قولَكِ: {ما جزاءُ مَنْ أَرَادَ بأَهلِكَ سُوءًا} ... من كَيْدِكُنَّ".

قال ابن كثير:"أي: إن هذا البهت واللَّطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن".

قوله تعالى: {إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} [يوسف: ٢٨]، أي:"إن مكركنَّ معشر النسوة واحتيالكنّ للتخلص مما دبرتُنَّ شيءٌ عظيم".

قال الطبري: فقال الزوج: "إن هذا الفعل من صنيعكن، يعني: من صنيع النساء".

قال مقاتل:"يعني: فعلكن {عظيم}، لأن المرأة لا تزال بالرجل حتى يقع في الخطيئة العظيمة".

وفي قائل ذلك قولان:

=

=

أحدهما: أنه الزوج، قاله محمد بن إسحاق.

وفي القصة: "أنه كان قليل الحمية والغيرة".

الثاني: أنه الشاهد، حكاه علي بن عيسى.

وفي هذه الآية دليل على اعتبار القرينة في الفصل في الخصومات؛ فإن قميص يوسف شق من دبره؛ لأنها كانت تطلبه وهو يهرب منها إلى الباب، فجعل شق القميص من الخلف قرينة على هروبه منها، وجعل شق القصيص من الإمام قرينة على إقباله عليها، وجعل وجود شق في القميص قرينة على وجود ممتنع من الفاحشة من الطرفين.

والقرائن معتبرة في الشريعة، ومتى قويت ولم يوجد قرينة أقوى منها تخالفها وكانت قوية، قامت مقام الدليل، وإذا وجد ما هو مثلها أوأقوى منها أو ما يقاربها مما يذهب قوتها، تركت، كما تقدم في قرينة وضع الدم على قميص يوسف، ورد يعقوب لها بقرائن أقوى منها.

والقرائن ليست على مرتبة واحدة في الشريعة ولا في العقل؛ فإما أن تكون قاطعة، أو ظنية، أو متوهمة، وكل واحدة من هذه القرائن تختلف منزلتها من حاكم إلى آخر، ومن حال إلى أخرى؛ بحسب ما يقع في النفوس:

فأما القرائن القاطعة: فهي ما كان الحجج فيه غير بينات: مما يقطع معها الحاكم لزوم الحق لجهة، كان يوجد سجين مقتول بآلة أو بخنق بين، ولا يوجد معه إلا واحد، ولا يدخل عليهما أحد، وانتفت قرائن الانتحار، وقد تجتمع عدة قرائن ظنية وتكاثر ولا يقابلها شيء، فتكون مجتمعة قرينة قطعية، وإن كانت كل واحدة منها ظنية.

والقرائن القاطعة معتبرة عند أكثر الفقهاء، وقد قضى النبي ﷺ لأحد ابني عفراء لما تداعيا قتل أبي جهل، فقال لهما رسول الله ﷺ: (هل مسحتما سيفيكما؟)،

=

=

قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: (كلاكما قتله)، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. فأخذ بأثر السيف وما عليه من دم.

ومن ذلك: أن النبي ﷺ أمر الملتقط أن يدفع اللقطة إلى واصفها، وأمره أن يعرف عفاصها ووعاءها ووكاءها؛ فجعل وصفه لها قرينة تملكه الحق.

وأما القرائن الظنية: فهي ما كان من القرائن التي لا تكفي وحدها للحكم على أحد بحق، ولا يجسر الحاكم معها على تكذيب صاحبها ولا تصديقه، ما لم يأت بقرينة مثلها أو أقوى منها، كعدم تمزيق قميص يوسف: قرينة على براءة الذئب منه، وكشق قميص يوسف من ورائه: قرينة على أنها تراوده لا يراودها، وقد تجتمع مع ظنيات أخر، كما تقدم؛ فتكون قرينة قاطعة.

وأما القرائن المتوهمة: فهي القرائن التي لا اعتبار بها، ولو انضم إليها مثلها، ما لم تستفض؛ وذلك كوجود طعام في بيت أحد اتهم بسرقته، وهذا الطعام يوجد في بيوت أكثر الناس مثله كالتمر والعنب، ما لم يكن في ببدر أو وسق أو حاوية على وصف ولون يختص بالمسروق؛ فتلك قرينة أخرى ترفع التوهم إلى الظن.

ومن القرائن: ما لا يمكن وصفه ولا تمييزه؛ وذلك مما يبدو على وجوه المتخاصمين؛ من جسارة بالمطالبة، أو ارتباك، أو حرص، أو تناقض وتردد، فهذا مما لا يقدر القاضي على التعبير عنه بالكتابة، ولكنها قرائن تقوي غيرها.

وقد تجتمع قرائن من ذلك، ظنيات مع متوهمات، تقوي القضاء بالقرينة، كما في قول سليمان نبي الله ﷺ للمرأتين اللتين ادعتا الولد، فحكم به داود ﷺ للكبرى، فقال سليمان: "ائتوني بالسكين أشقه بينهما"، فسمحت الكبرى بذلك، فقالت الصغرى: "لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها! "، فقضى به للصغرى.

قوله تعالى: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا} [يوسف: ٢٩]، أي:"قال عزيز «مصر»: يا يوسف اترك ذِكْر ما كان منها فلا تذكره لأحد".

=

=

وفي هذا إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغيرة حيث لـم ينتقم ممـن أرادت خيانته، وتدنيس فراشه بالإثم والفجور.

قال الزجاج:"معناه: يا يوسف اكتم هذا الأمر ولا تذكره... ويـروى أنـه كـان قليـل الغيرة".

قال السمعاني: "يعني: لا تذكر هذا حتى يشيع".

قال الطبري:"وهذا فيما ذكر عن ابن عباس، خبرٌ من الله تعالى ذكره عن قِيل الشاهد أنه قال للمرأة وليوسف.. يقول: أعرض عن ذكر ما كان منها إليك فيما راودتك عليه، فلا تذكره لأحد".

قال ابن كثير:"ثم قال آمرا ليوسف، عليه السلام، بكتمان ما وقع: يا {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا}، أي: اضرب عن هذا الأمر صفحا، فلا تذكره لأحد".

- قال ابن كثير: وقد كان (زوجها) لين العريكة سهلا أو أنه عذرها، لأنها رأت ما لا صبر لها عنه.

جاء في التفسير الوسيط: وهكذا نجد هذا الرجل- صاحب المنصب الكبير- يعالج الجريمة التي تثور لها الدماء في العروق، وتستلزم حسما وحزما في الأحكام، بهذا الأسلوب الهادئ البارد، شأن المترفين في كل زمان ومكان، الذين يهمهم ظواهر الأمور دون حقائقها وأشكالها دون جواهرها، فهو يلوم امرأته لوما خفيفا يشبه المدح، ثم يطلب من يوسف كتمان الأمر، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة.. ثم تستمر الأمور بعد ذلك على ما هي عليه من بقاء يوسف معها في بيتها.

عن قتادة، قوله: "{يوسف أعرض عن هذا}: الأمر والحديث".

عن ابن زيد:"{يوسف أعرض عن هذا}، قال: لا تذكره".

وفي قوله تعالى: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا} [يوسف: ٢٩]، وجهان:

=

=

أحدهما: أعرض عن هذا الأمر، قاله قتادة ، على وجه التسلية له في ارتفاع الإثم.

الثاني: أعرض عن هذا القول، قاله ابن زيد ، على وجه التصديق له في البراءة من الذنب.

قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ} [يوسف: ٢٩]، أي:"واطلبي -أيتها المرأة- المغفرة لذنبك".

قال السمعاني: أي: "توبي إلى الله تعالى".

قال مقاتل:"يعني: واعتذري إلى زوجك واستعفيه ألا يعاقبك".

قال ابن كثير:"يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلا أو أنه عذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ}، أي: الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قَذْفه بما هو بريء منه، استغفري من هذا الذي وقع منك".

عن ابن زيد:"{واستغفري} أنت زوجك، يقول: سليه أن لا يعاقبك على ذنبك الذي أذنبتِ، وأن يصفح عنه فيستره عليك".

عن السدي:"{واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين}، يقول: لا تعودن لذنبك".

قال الزجاج:"ويرْوى: أنهُ كان قَليلَ الغَيْرَةِ".

قوله تعالى: {إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} [يوسف: ٢٩]، أي:"إنك كنتِ من الآثمين في مراودة يوسف عن نفسه، وفي افترائك عليه".

قال الطبري:"يقول: إنك كنت من المذنبين في مراودة يوسف عن نفسه".

قال الثعلبي: أي:"من المذنبين حين راودت شابا عن نفسه وخنت زوجك، فلما استعصم كذبت عليه. يقال: خطئ يخطأ خطأ، وخطئا، وخطئا إذا أذنب. والاسم منه الخطيئة. قال الله تعالى: {إن قتلهم كان خطئا كبيرا}، وقال أمية:

عبادك يخطئون وأنت رب   بكفيك المنايا والحتوم

=

=

أي: يذنبون.

فإذا أرادوا أنه لم يتعمد قالوا: أخطأ خطأ أيضا، إلا أن الفعل بالألف. قال الله تعالى: {وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ}، وإنما قال: {من الخاطئين} ولم يقل من الخاطئات؛ لأنه لم يقصد بذلك قصد الخبر عن النساء، وإنما قصد به الخبر عمن يفعل ذلك، تقديره: من القوم الخاطئين، كقوله تعالى {وكانت من القانتين}، بيانه قوله سبحانه: {إنها كانت من قوم كافرين}".

قال الماوردي:"يعني: من المذنبين، يقال لمن قصد الذنب خَطِئَ، ولمن لم يقصده أخطأ، وكذلك في الصوب والصواب، قال الشاعر:

لَعَمْرُكَ إِنَّمَا خَطَئِي وَصَوْبِي   عَلَيَّ وَإِنَّمَا أَهْلَكْتُ مَالِي

وقال: {من الخاطئين}، ولم يقل: «من الخاطئات»، لتغليب المذكر على المؤنث".

(فائدة): في قوله تعالى: {سيدها} إشارة إلى سيادة الزوج على امرأته، وسيادتها على بيته، فبعدما قال في الآية السابقة: {هو في بيتها} [يوسف: ٢٣]، فنسب البيت إليها، فلما جاء زوجها، قال: {سيدها لدى الباب}، وفي هذا إنكار ما أخذ من عادة الغرب اليوم من تسمية نساء الملوك بسيدة الدولة والبلد؛ فإن الله جعل امرأة العزيز سيدة بيتها فحسب، ولا يتعدى شأنها ذلك، كسائر النساء في بيوتهن.

ويروى عن زيد بن ثابت؛ أنه قال: "الزوج سيد في كتاب الله، ثم قرأ: {وألفيا سيدها لدى الباب}؛ السيد: الزوج"، ويروى عند ابن السني؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (كل نفس من بني آدم سيد، فالرجل سيد أهله، والمرأة سيدة بيتها).

وقد كانت المرأة من السلف تسمي زوجها سيدا؛ كما روى مسلم؛ من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز؛ قال: حدثتني أم الدرداء، قالت: حدثني سيدي –

=

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠).

{وَقَالَ نِسْوَة فِي الْمَدِينَة} مَدِينَة مِصْر {امْرَأَة الْعَزِيز تُرَاوِد فَتَاهَا} عَبْدهَا {عَنْ نَفْسه قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا} تَمْيِيز أَيْ دَخَلَ حُبّه شِغَاف قَلْبهَا أَيْ غِلَافه {إِنَّا لَنَرَاهَا فِي

=

تعني: زوجها أبا الدرداء-: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل).

وسيادة الزوج على زوجته هي قوامته التي جعلها الله، وتقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى: {الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم} [النساء: ٣٤].

وسيادة الزوج على زوجته تكليف يتضمن تشريفا، وليس تشريفا يتضمن نكليفا؛ لأن الأول غرمه أعظم من غنمه، والثاني غنمه أعظم من غرمه، وكذلك بالنسبة لسيادة المرأة في بيتها، فإنه تكليف يتضمن تشريفا؛ كما في "الصحيح"؛ قال ﷺ: (الرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها).

والمرأة لدى الرجل كالأسيرة العانية، كما في الحديث؛ قال ﷺ: (استوصوا بالنساء خيرا؛ فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك)، وقالت أسماء بنت أبي بكر: "النكاح رق؛ فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته".

وإنما قال النبي ﷺ ذلك؛ للتنبيه على عظم حقها، ووجوب الرحمة بها؛ فإن أخلاق العظماء تتضح مع نسائهم؛ كما قال ﷺ: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي) (٣) فإن كل أحد يستطيع تصنع الخلق الحسن مع الغرباء، ولكن تظهر الأخلاق مع الأهل؛ لأن الخلق الدائم لا يمكن أن يتصنع.

ضَلَال} أَيْ فِي خَطَأ {مُبِين} بَيِّن بِحُبِّهَا إِيَّاهُ.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١).

{فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ} غِيبَتهنَّ لَهَا {أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وأعتدت} أعدت {لهن متكأ} طَعَامًا يُقطَّع بِالسِّكِّينِ لِلِاتِّكَاءِ عِنْده وَهُوَ الْأُتْرُجّ {وَآتَتْ} أَعْطَتْ {كُلّ وَاحِدَة مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ} لِيُوسُف {اُخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ} أَعْظَمْنَهُ {وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهنَّ} بِالسَّكَاكِينِ وَلَمْ يَشْعُرْنَ بِالْأَلَمِ لِشَغْلِ قَلْبهنَّ بِيُوسُف {وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ} تَنْزِيهًا لَهُ {مَا هَذَا} أَيْ يُوسُف {بَشَرًا إِنْ} مَا {هَذَا إِلَّا مَلَك كَرِيم} لِمَا حَوَاهُ مِنْ الْحُسْن الَّذِي لَا يَكُون عَادَة فِي النَّسَمَة الْبَشَرِيَّة وَفِي الْحَدِيث أَنَّهُ أُعْطِيَ شَطْر الْحُسْن.

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢).

{قَالَتْ} امْرَأَة الْعَزِيز لَمَّا رَأَتْ مَا حَلَّ بِهِنَّ {فَذَلِكُنَّ} فَهَذَا هُوَ {الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ} فِي حُبّه بَيَان لِعُذْرِهَا {وَلَقَدْ رَاوَدْته عَنْ نَفْسه فَاسْتَعْصَمَ} امْتَنَعَ {وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَل مَا آمُرهُ} بِهِ {لَيُسْجَنَن وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ} الذَّلِيلِينَ فَقُلْنَ لَهُ أَطِعْ مَوْلَاتك.

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣).

{قَالَ رَبّ السِّجْن أَحَبّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِف عَنِّي كَيْدهنَّ أَصْبُ} أَمِلْ {إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ} أَصِرْ {مِنَ الْجَاهِلِينَ} الْمُذْنِبِينَ وَالْقَصْد بِذَلِكَ

الدُّعَاء فَلِذَا قَالَ تَعَالَى.

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤).

{فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبّه} دُعَاءَهُ {فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدهنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيع} لِلْقَوْلِ {الْعَلِيم} بِالْفِعْلِ.

ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥).

{ثُمَّ بَدَا} ظَهَرَ {لَهُمْ مِنْ بَعْد مَا رَأَوْا الْآيَات} الدَّالَّات عَلَى بَرَاءَة يُوسُف أَنْ يسجنوه دل على هذا {ليسجننه حتى} إلَى {حِين} يَنْقَطِع فِيهِ كَلَام النَّاس فَسُجِنَ[1].

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ} [يوسف: ٣٠].

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتى تحدث الناس به: فقال تعالى: (وقال نسوة في المدينة) أي: وقال نسوة من نساء مدينة مصر- على سبيل النقد والتشهير والتعجب- إن امرأة العزيز، صاحبة المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة، بلغ بها الحال في انقيادها لهواها، وفي خروجها عن طريق العفة.. أنها تراود فتاها عن نفسه، أي: تطلب منه مواقعتها، وتتخذ لبلوغ غرضها شتى الوسائل والحيل.

قوله تعالى (وقال نسوة..) قيل: مثل نساء الأمراء و الكبراء، ينكرن على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعبن ذلك عليها.

وقيل: وهي امرأة ساقي العزيز وامرأة خبازه، وامرأة صاحب دوابه، وامرأة صاحب سجنه، وامرأة حاجبه.

لكن الواقع: أن القرآن لم يبين لنا عدد هؤلاء النسوة ولا صفاتهم، لأنه لا يتعلق =

=

بذلك غرض نافع، ولأن الذي يهدف إليه القرآن الكريم هو بيان أن ما حدث بين يوسف وامرأة العزيز، قد شاع أمره بين عدد من النساء في مدينة كبيرة كمصر وفي وصفها بأنها «امرأة العزيز» زيادة في التشهير بها. فقد جرت العادة بين الناس، بأن ما يتعلق بأصحاب المناصب الرفيعة من أحداث، يكون أكثر انتشارا بينهم، وأشد في النقد والتجريح.

قال الطبري:"قول تعالى ذكره: وتحدث النساء بأمر يوسف وأمر امرأة العزيز في مدينة مصر، وشاع من أمرهما فيها ما كان، فلم ينكتم، وقلن: {امرأة العزيز تراود فتاها} عبدها {عن نفسه}".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتى تحدث الناس به، {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ} مثل نساء الأمراء والكبراء، ينكرن على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعبن ذلك عليها: {امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ} ،أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها".

قال محمد بن إسحاق:"وشاع الحديث في القرية، وتحدث النساء بأمره وأمرها، وقلن: {امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه}، أي: عبدها".

قال الماوردي:"قلن ذلك ذمًا لها وطعنًا فيها وتحقيقًا لبراءة يوسف وإنكارًا لذنبه".

و «العزيز»: الملك في كلام العرب، مأخوذ من عزته، ومنه قول أبى داؤد:

دُرّةٌ غَاصَ عليها تَاجِرٌ　　　جُلِبَت عند عَزِيزٍ يَوْمَ طَل

قال أبو حيان:"«الفتى»: الغلام، وعرفه في المملوك- وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي» ، ولكنه قد يقال في غير المملوك، ومنه: {إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ} [الكهف: ٦٠] وأصل «الفتى» في اللغة الشاب، ولكن لما كان جل الخدمة شبابا استعير لهم اسم الفتى".

=

=

قوله (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها.

- قال أبو حيان: وصرحوا بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع، لأن النفوس أقبل لسماع ذوي الأخطار وما يجري لهم.

قوله تعالى: {قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا} [يوسف: ٣٠]، أي:"قد وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو غلافه".

قال ابن عطية: قوله تعالى (شغفها) معناه: بلغ حتى صار من قلبها موضع الشغاف، وهو على أكثر القول غلاف من أغشية القلب، وقيل: "الشغاف ": سويداء القلب، وقيل: الشغاف: داء يصل إلى القلب.

والمعنى: أنه وصل حبه إلى سويداء قلبها، وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم.

قال ابن عباس:"يقول: عَلَّقها حبًّا".

قال عكرمة:"دخل حبه تحت الشَّغاف".

قال مجاهد:"دخل حبه في شَغافها".

قال الشعبي: "«المشغوف»: المحب، و «المشعوف»، المجنون".

قال الحسن:"قد بطنَها حبًّا".

وعن أبي رجاء والحسن: "{قد شغفها حبًّا}، قال أحدهما: قد بَطَنَها حبًّا. وقال الآخر: قد صَدَقها حبًّا".

قال قتادة:"استبطنها حبها إياه".

قال الضحاك:"هو الحب اللازق بالقلب". وفي رواية:"هلكت عليه حبًّا، و"الشَّغَاف": شَغَاف القلب".

قال الطبري:"يقول قد وصل حبُّ يوسف إلى شَغَاف قلبها فدخل تحته، حتى

=

=

غلب على قلبها".

قال ابن كثير:"أي قد: وصل حبه إلى شغاف قلبها. وهو غلافه".

وفي «شغاف القلب»، خمسة أقوال:

أحدها: أنه حجاب القلب، قاله ابن عباس.

الثاني: أنه غلاف القلب وهو جلدة رقيقة بيضاء تكون على القلب وربما سميت لباس القلب، قاله السدي ، وسفيان.

الثالث: أنه باطن القلب، قاله الحسن.

وقيل: "هو حبة القلب".

وقال أبو علي الفارسي:"وسط القلب".

الرابع: أنه ما يكون في الجوف، قاله الأصمعي.

الخامس: هو الذعر والفزع الحادث عن شدة الحب، قاله إبراهيم.

قال الطبري:"«شَغَاف القلب»: حجابه وغلافه الذي هو فيه، وإياه عنى النابغة الذبياني بقوله:

وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ دَاخِلٌ   دُخُولَ شَغَافٍ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِع"

قال أبو حيان:"شَغَفَها معناه: بلغ حتى صار من قلبها موضع الشغاف، وهو على أكثر القول غلاف من أغشية القلب".

وقد قرئ في الشواذ عن ابن محيصن: «قد شعفها حبًا»، بالعين غير معجمة، واختلف في الفرق بينهما على قولين:

أحدهما: أن «الشغف» بالغين معجمة هو الجنون، وبالعين غير معجمة هو الحب، قاله الشعبي.

والثاني: أن «الشغف» بالإعجام: الحب القاتل، والشعف بغير إعجام دونه، قاله ابن عباس ، وقال أبو ذؤيب:

=

=

فلا وجْدَ إلا دُون وجْدٍ وجَدته أصاب شغافَ القلب والقلبُ يشغف

قوله تعالى: {إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [يوسف: ٣٠]، أي:"إنا لنعتقد أنها في ضلال عن طريق الرشد واضح بسبب حبها إيّاه".

قال الخازن: "يعني في خطأ بين ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر وأحبت فتاها".

قال الواحدي:"أي: ضلال عن طريق الرشد، بحبها إياه، كقوله تعالى: {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [يوسف: ٨]".

قال مقاتل:"يعني: في خسران بين يعني شقاء من حب يوسف- عليه السلام- حتى فشا عليها".

قال الطبري:"قلن: إنا لنرى امرأة العزيز في مراودتها فتاها عن نفسه، وغلبة حبه عليها، لفي خطأ من الفعل، وجَوْر عن قصد السبيل {مبين}، لمن تأمله وعلمه أنه ضلال، وخطأ غير صواب ولا سداد. وإنما كان قيلهنّ ما قلن من ذلك، وتحدُّثهن بما تحدَّثن به من شأنها وشأن يوسف، مكرًا منهن، فيما ذكر، لتريَهُنَّ يوسف".

عن عبد الصمد بن محمد العباداني، قال: "سمعتُ أبي يقول: قال رجلٌ ليوسف: إنِّي أُحِبُّك. فقال له يوسف: لا أريد أن يُحِبَّني أحدٌ غير الله؛ مِن حُبِّ أبي أُلقِيتُ في الجُبِّ، ومِن حُبِّ امرأة العزيز أُلقِيتُ في السِّجن".

قوله تعالى: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ} [يوسف: ٣١]، أي:"فلما سمعت امرأة العزيز بغِيْبتهن إياها واحتيالهن في ذمِّها".

قال مقاتل:"فلما سمعت زليخا بقولهن لها".

قال الواحدي:"يعني زليخا {بِمَكْرِهِنَّ}".

عن ابن عباس:"{بِمَكْرِهِنَّ} قال: يريد مقالتهن".

عن قتادة، قوله: "{فلما سمعت بمكرهن}، أي: بحديثهن".

=

=

عن السدي: "{فلما سمعت بمكرهن}، يقول: بقولهن".

قال ابن إسحاق:"لما أظهر النساء ذلك، من قولهن: تراود عبدها! مكرًا بها لتريهن يوسف، وكان يوصف لهن بحُسنه وجماله؛ {فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ}".

وإنما سمي قولهن مكرا لوجوه:

الأول: أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر إلى وجهه لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن.

وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حسن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك

الثاني: أن امرأة العزيز أسرت إليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر، فلما أظهرن السر كان ذلك غدرا ومكرا.

الثالث: أنهن وقعن في غيبتها، والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر.

- قال الخازن: وإنما سمى قولهن ذلك مكرا:

لأنهن طلبن بذلك رؤية يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله فقصدن أن يرينه.

وقيل: إن امرأة العزيز أفشت إليهن سرها واستكتمتهن فأفشين ذلك عليها فلذلك سماه مكرا.

- قال الشوكاني: (بمكرهن) أي: بغيبتهن إياها، سميت الغيبة مكرا لاشتراكهما في الإخفاء.

وقيل: أردن أن يتوسلن بذلك إلى رؤية يوسف، فلهذا سمي قولهن مكرا.

وقيل: إنها أسرت عليهن فأفشين سرها فسمي ذلك مكرا.

قوله تعالى: {أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ} [يوسف: ٣١]، أي:"أرسلت إليهن تدعوهن

=

=

لزيارتها".

عن قتادة: "{أرسلت إليهن}، يقول: أرسلت إلى النسوة اللاتي تحدثن بشأنها وشأن يوسف".

قال وهب: "اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة، منهن هؤلاء اللاتي عيرنها".

قوله تعالى: {وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا} [يوسف: ٣١]، أي:"هيأت لهنَّ ما يتكئن عليه من الفرش والوسائد".

قال ابن عباس:"وهيأت لهن متكئا".

قال الطبري:"يعني: مجلسًا للطعام، وما يتكئن عليه من النمارق والوَسائد".

وفي «المُتْكَأ» ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه المجلس، قاله ابن عباس.

وعن الحسن أنه كان يقرأ: "«مُتَّكَآءً»، ويقول: هو المجلس والطعام".

وعن السدي، قوله: "{وأعتدت لهن متكأ} يتكين عليه، وآتت كل واحدة منهن سكينا وأترنجا يأكلنه".

والثاني: أنه النمارق والوسائد يتكأ عليها، قاله أبو عبيدة ، والسدي.

قال الطبري:"حكى أبو عبيد القاسم بن سلام قول أبي عبيدة، ثم قال: والفقهاء أعلم بالتأويل منه. ثم قال: ولعله بعضُ ما ذهب من كلام العرب، فإنّ الكسائي كان يقول: قد ذهب من كلام العرب شيء كثير انقرض أهله، والقول في أن الفقهاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة، كما قال أبو عبيد لا شك فيه، غير أن أبا عبيدة لم يُبْعد من الصواب في هذا القول، بل القول كما قال: مِن أن مَن قال للمتكأ: هو الأترج، إنما بيَّن المعدَّ في المجلس الذي فيه المتكأ، والذي من أجله أعطين السكاكين، لأن السكاكين معلومٌ أنها لا تعدُّ للمتكأ إلا لتخريقه! ولم يعطين السكاكين لذلك".

=

=

الثالث: أنه الطعام، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد، وقتادة-في إحدى الروايات-، وعطية، والسدي-في إحدى الروايات-، وابن زيد، ومحمد بن إسحاق. وهو

مأخوذ من قول العرب: اتكأنا عند فلان، أي: طعمنا عنده، وأصله أن من دعي إلى طعام أُعد له متكأ فسمي الطعام بذلك متكأ على الاستعارة.

فعلى هذا، أيّ الطعام هو؟ فيه أربعة أقوال:

أحدها: أنه الزُّماورد، قاله الضحاك.

الثاني: أنه الأترج، قاله ابن عباس ، والضحاك ، والسدي ، وأبو عبد الله الشقري ، وهو وتأويل من قرأها مخففة غير مهموزة.

قال مقاتل:"فجئنها {وأعتدت لهن متكأ}، وهو الأترج، وكل شيء يحز بالسكين فهو متكأ".

عن عبد الله الشقري، قال: "(متكأ) بكلام الحبش، يسمون: الترنج متكئا".

وقال ابن زيد:"وأعطتهن تُرنجًا وعسلا فكن يحززن الترنج بالسكين، ويأكلن بالعسل".

و «المتْك» في كلامهم الأترج، قال الشاعر:

نَشْرَبُ الإِثمَ بالصُّواعِ جِهارًا   وترى المُتْكَ بيننا مُسْتعارا

عن عوف، قال: "حدثت عن ابن عباس أنه كان يقرؤها: «مُتْكًا»، مخففة، ويقول: هو الأترُجّ".

قال عبد الله بن يزيد: "من قرأ: «مُتْكًا»، خفيفة، يعني: طعامًا. ومن قرأ «مُتَّكَأ»، يعني المتكأ".

الثالث: أنه كل ما يجز بالسكين. وهو قول عكرمة ، والضحاك.

قال الماوردي:"لأنه في الغالب يؤكل على متكأ".

=

الرابع: أنه كل الطعام والشراب على عمومه، وهو قول سعيد بن جبير ، وقتادة.

قوله تعالى: {وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا} [يوسف: ٣١]، أي:"وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ليُقَطِّعن الطعام".

قال ابن عباس:"كانت سنتهم إذا وضعوا المائدة أعطي كل إنسان منهم سكينا يأكل بها".

قوله تعالى: {وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ} [يوسف: ٣١]، أي:"قالت ليوسف: اخرج عليهن".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقالت امرأة العزيز ليوسف: {اخرج عليهن}، فخرج عليهن يوسف".

أخرج ابن ابي حاتم بسنده عن دريد بن مجاشع عن بعض أشياخه، قال:"{وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا}، قالت للقيم: أدخله عليهن وألبسه ثيابا بيضاء، فإن الجميل أحسن ما يكون في البياض، قال فأدخله عليهن، وهن يحززن ما في أيديهن، فلما رأينه حززن أيديهن، وهن لا يشعرن من النظر إليه فنظرن إليه مقبلا، ثم أومأت إليه أن ارجع فنظرن إليه مدبرا، وهن يحززن أيديهن بالسكاكين، لا يشعرن بالوجع من نظرهن إليه فلما خرج نظرن إلى أيديهن، وجاء الوجع فجعلن يولولن، وقالت لهن: أنتن من ساعة واحدة هكذا صنعتن فكيف أصنع أنا؟ {قلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم}".

قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ} [يوسف: ٣١]، أي:"فلما رأينه أعظمنه وأجللنه".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: فلما رأين يوسف أعظمنه وأجللْنه".

وفي قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ} [يوسف: ٣١]، ثلاثة اقوال:

أحدها: معناه أعظمنه، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي وابن زيد.

=

الثاني: معناه وجدن شأنه في الحسن والجمال كبيرًا، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

الثالث: معناه: حضن عند رؤيته، وهو قول رواه عبد الصمد بن علي الهاشمي عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس.

وقيل: إن المرأة إذا جزعت أو خافت حاضت، وقد يسمى الحيض إكبارًا، قال الشاعر:

نَأْتِي النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلا نَأْتِي النِّسَاءَ إِذَا أَكْبَرْنَ إِكْبَارَا

قال الطبري:"فالهاء التي في {أكبرنه}، من ذكر يوسف، ولا شك أن من المحال أن يحضنَ يوسف. ولكن الخبر، إن كان صحيحًا عن ابن عباس على ما روي، فخليقٌ أن يكون كان معناه في ذلك أنهن حضن لِمَا أكبرن من حسن يوسف وجماله في أنفسهن، ووجدن ما يجد النساء من مثل ذلك".

قوله تعالى: {وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} [يوسف: ٣١]، أي:"فجرحن أيديهن وهن يُقَطِّعن الطعام من فرط الدهشة والذهول".

وفي قطع أيديهن وجهان:

أحدهما: أنهن قطعن أيديهن حتى بانت. قاله مجاهد، وقتادة.

الثاني: أنهن جرحن أيديهن حتى دميت، من قولهم قطع فلان يده إذا جرحها. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، وابن إسحاق.

قال ابن عباس:"جعلن يقطعن أيديهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج".

قال السدي:"كانت في أيديهن سكاكين مع الأترج، فقطعن أيديهنّ، وسالت الدماء، فقلن: نحن نلومك على حبّ هذا الرجل، ونحن قد قطعنا أيدينا وسالت الدماء!".

قال ابن زيد:"قال ابن زيد: جعلن يحززن أيديهن بالسكين، ولا يحسبن إلا أنهن يحززن الترنج، قد ذهبت عقولهن مما رأين!".

=

=

قال الشوكاني: "أي: جرحنها، وليس المراد به القطع الذي تبين منه اليد، بل المراد به: الخدش والحز".

قال ابن إسحاق:"قالت ليوسف: {اخرج عليهن}، فخرج عليهن، {فلما رأينه أكبرنه}، وغلبت عقولهن عجبًا حين رأينه، فجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين التي معهن، ما يعقلن شيئًا مما يصنعن، {وقلن حاش لله ما هذا بشرًا}".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عنهن أنهن قطَّعن أيديهن وهن لا يشعرن لإعظام يوسف، وجائز أن يكون ذلك قطعًا بإبانة، وجائز أن يكون كان قطع حزّ وخدش، ولا قول في ذلك أصوب من التسليم لظاهر التنزيل".

عن أنس، عن النبي ﷺ، قال: "أعطي يوسف شَطْرَ الحسن".

وفي روابة، قال: "أعطي يوسف وأمه شَطْرَ الحسن".

قال عبد الله:"أعطي يوسف وأمه ثلث الحسن".

وفي رواية:"أعطي يوسف وأمه ثلث حسن الخلق".

عن الحسن:"أعطي يوسف وأمه ثلث حسن الدنيا، وأعطي الناس الثلثين".

عن ربيعة الجرشي، قال: "قسم الحسن نصفين، فأعطي يوسف وأمه سارة نصف الحسن، والنصف الآخر بين سائر الخلق".

قوله تعالى: {وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا} [يوسف: ٣١]، أي:"وقلن متعجبات: معاذ الله، ما هذا من جنس البشر".

وقرئ: «ما هذا بشرًا»، بكسر الباء والشين، أى: ما هذا عبدًا مشترى.

وقرأ بعض البصريين: «حَاشَى لله»، بإثبات الياء.

قوله تعالى: {إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} [يوسف: ٣١]، أي:"ما هو إلا مَلَك كريم من الملائكة، وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به

=

=

آية للناظرين، وعبرة للمتأملين".

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير - أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة:

- قال ابن كثير: المقصود منه إثبات الحسن العظيم له قالوا: لأنه تعالى ركز في الطباع أن لا حي أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا حي أقبح من الشيطان، ولذلك قال تعالى في صفة جهنم (طلعها كأنه رءوس الشياطين) وذلك لما ذكرنا أنه تقرر في الطباع أن أقبح الأشياء هو الشيطان فكذا ههنا تقرر في الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك، فلما أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف عليه السلام بالحسن لا جرم شبهنه بالملك.

قال أهل العلم:"وإنما قلن ذلك لما هو مقرر عند الناس من وصف الملائكة بالجمال الباهر".

جاء في شرح الطحاوية:"قال الأولون: إن هذا إنما كان لما هو مركوز في النفس: أن الملائكة خلق جميل عظيم، مقتدر على الأفعال الهائلة، خصوصا العرب، فإن الملائكة كانوا في نفوسهم من العظمة بحيث قالوا إن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا".

قال السيوطي:"فالمراد من هذا التشبيه إما تشبيه يوسف بالملك في صورته أو في سيرته، والثاني أولى لأنه شبهه بالملك الكريم والملك إنما يكون كريما بالسيرة لا بالصورة فثبت أن المراد تشبيهه بالملك في نفي دواعي الشهوة ونفي الحرص على طلب اللذات الحسية، وإثبات ضد ذلك، وهي صفة الملائكة، وهي غض البصر ومنع النفس عن الميل إلى المحرمات، فدلت هذه الآية على إطباق العقلاء من الرجال والنساء والمؤمن والكافر على اختصاص الملائكة بالدرجات الفائقة

=

=

على درجات البشر، فإن قيل: قول المرأة {فَذلِكَ الذَي لُمتُنَنَي فِيهِ} [يوسف: ٣٢]، يقتضي أن يكون تشبيه يوسف بالملك إنما وقع في الصورة لا في السيرة لأن ظهور عذرها في شدة عشقها له يحتمل أن يكون لسبب غاية زهده، لأن الإنسان حريص على ما منع، وكلما كان إعراض المعشوق اكثر كان شدة عشق العاشق أكثر".

قوله تعالى: {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ} [يوسف: ٣٢]، أي:"قالت امرأة العزيز للنسوة اللاتي قطَّعن أيديهن: فهذا الذي أصابكن في رؤيتكن إياه ما أصابكن هو الفتى الذي لُمتُنَّني في الافتتان به".

قال مقاتل:"الذي افتتنتن به".

قال القرطبي:"لما رأت افتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها: {لُمْتُنَّنِي فِيهِ}، أي: بحبه".

قال الطبري:"قالت امرأة العزيز للنسوة اللاتي قطعن أيديهن، فهذا الذي أصابكن في رؤيتكن إياه، وفي نظرة منكن نظرتن إليه ما أصابكن من ذهاب العقل وعُزوب الفهم وَلَهًا، أَلِهتُنّ حتى قطعتن أيديكن، هو الذي لمتنني في حبي إياه، وشغف فؤادي به، فقلتنّ: قد شغف امرأة العزيز فتاها حُبًّا، إنا لنراها في ضلال مبين! ثم أقرّت لهن بأنها قد راودته عن نفسه وأن الذي تحدثن به عنها في أمره حق".

عن زيد بن أسلم، قال: "وأعتدت لهن متكأ قال: لما تغدين، وطابت أنفسهن، قالت لقيمها، ايتهن ترنجا وسكاكينا، فأتاهن بهن فجعلن يقطعن ويأكلن فقالت لهن: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن ما شئت فأمرت قيمها فأدخله عليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أصابعهن مع الأترنج، وهن لا يشعرن، ولا يجدن ألما مما رأين من حسنه، فلما ولى عنهن قالت: هذا الذي لمتنني فيه، فلقد رأيتكن تقطعن أيديكن وما تشعرن، قال: فنظرن إلى أيديهن فجعلن يصحن ويبكين

=

=

قالت: فكيف أصنع أنا؟ فقلن: {حاش لله ما هذا بشرا، إن هذا إلا ملك كريم} وما نرى عليك من لوم بعد الذي رأينا".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ} [يوسف: ٣٢]، أي:"ولقد طلبته وحاولت إغراءه؛ ليستجيب لي فامتنع وأبى".

قال الطبري: أي:"مما راودته عليه من ذلك".

قال مقاتل:"يعني: فامتنع عن الجماع".

عن ابن عباس، قوله: "{فاستعصمْ}، يقول: فامتنع".

عن قتادة، قوله: "{فاستعصم}، أي: فاستعصى".

عن السدي: "{ولقد راودته عن نفسه فاستعصم}، بعد ما كان قد حل سراويله، ثم لا أدري ما بدا له". وفي رواية:"تقول: بعد ما حلّ السراويل استعصى، لا أدري ما بَدَا له".

قال القرطبي:"أي: أمتنع، وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل: {استعصم}، أي: استعصى، والمعنى واحد".

قال الزمخشري:"«الاستعصام»: بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها. ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأى واستفحل الخطب. وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أنور منه، على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهم والبرهان".

قوله تعالى: {وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ} [يوسف: ٣٢]، أي:"ولئن لم يفعل ما آمره به مستقبلا لَيعاقَبَنَّ بدخول السجن، ولَيكونن من الأذلاء".

عن سعيد بن جبير: "{الصاغرين}، يعني: مذلين".

=

=

قال الزجاج:"{من الصاغرين}، من المذلين".

قال الطبري:"تقول: ولئن لم يطاوعني على ما أدعوه إليه من حاجتي إليه، ليحبسن وليكونًا من أهل الصغار والذلة بالحبس والسجن، ولأهينَنَّه".

قال القرطبي:"عاودته المراودة بمحضر منهن، وهتكت جلباب الحياء، ووعدت بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لوما ولا مقالا خلاف أول أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها".

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} [يوسف: ٣٣]، أي:"قال يوسف مستعيذًا مِن شرهن ومكرهن: يا ربِّ السجنُ أحب إليَّ مما يدعونني إليه من عمل الفاحشة".

قال الزجاج:"المعنى: نزول السجن أحب إلي، {مما يدعونني إليه}، أي: من ركوب المعصية".

قال الطبري:"قال يوسف: يا رب، الحبس في السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه من معصيتك، ويراودنني عليه من الفاحشة... وهذا الخبر من الله يدلُّ على أن امرأة العزيز قد عاودت يوسف في المراودة عن نفسه، وتوعَّدته بالسّجن والحبس إن لم يفعل ما دعته إليه، فاختار السجن على ما دعته إليه من ذلك ؛ لأنها لو لم تكن عاودته وتوعَّدته بذلك، كان محالا أن يقول: {ربّ السجن أحبُّ إليّ مما يدعونني إليه}، وهو لا يدعَى إلى شيء، ولا يخوَّف بحبس".

قال البيضاوي:"أي: آثر عندي من مؤاتاتها زنا نظرا إلى العاقبة وإن كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه، وإسناد الدعوة إليهن جميعا لأنهن خوفنه من مخالفتها وزين له مطاوعتها. أو دعونه إلى أنفسهن، وقيل: إنما ابتلي بالسجن لقوله هذا وإنما كان الأولى به أن يسأل الله العافية ولذلك رد رسول الله ﷺ على من كان يسأل الصبر".

=

=

قال الزمخشري:"وقال ي {دعونني} على إسناد الدعوة إليهن جميعا، لأنهن تنصحن له وزين له مطاوعتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال: رب نزول السجن أحب إلى من ركوب المعصية. فإن قلت: نزول السجن مشقة على النفس شديدة، وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحب إليه من اللذة؟ قلت: كانت أحب إليه وآثر عنده نظرا في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية، وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظرا في مشتهى النفس ومكروهها".

قال ابن تيمية: "في قول يوسف (قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته وإلا فإذا لم يثبت القلب صبا إلى الآمرين بالذنوب وصار من الجاهلين. ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة".

قال محمد بن إسحاق:"قال يوسف، وأضاف إلى ربه، واستغاثه على ما نزل به {رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه}، أي: السجن أحبّ إليّ من أن آتي ما تكره".

عن السدي: "{قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه}: من الزنا".

وقرئ: «السجن»، بافتح، على المصدر.

قوله (مما يدعونني إليه) ولم يقل مما تدعوني إليه امرأة العزيز، لأنهن جميعا كن مشتركات في دعوته إلى الفاحشة سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، بعد أن شاهدن هيئته وحسنه، وبعد أن سمعن ما قالته في شأنه ربة الدار..

=

=

قال الآلوسي: «وإسناد الدعوة إليهن، لأنهن خوفنه من مخالفتها، وزين له مطاوعتها.

فقد روى أنهن قلن له أطع مولاتك، واقض حاجتها، لتأمن عقوبتها.

وروى أن كل واحدة منهن طلبت الخلوة به لنصيحته، فلما خلت به دعته إلى نفسها.

قوله تعالى: {وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ} [يوسف: ٣٣]، أي:"وإن لم تدفع عني مكرهن أَمِلْ إليهن".

قال الزجاج:"أي: إلا تعصمني {أصب إليهن}، أي: أمل إليهن. يقال: صبا إلى اللهو يصبو صبوا، وصبيا، وصبا، إذا مال إليه، وقال: {وإلا تصرف عني كيدهن} .. وجائز أن يكون يعني امرأة العزيز وحدها، ألا أنه أراد كيدها وكيد جميع النساء، وجائز أن يكون كيدها وكيد النسوة اللاتي رأين يوسف حين أرتهن إياه".

قال الطبري:"يقول: وإن لم تدفع عني، يا رب، فعلهن الذي يفعلن بي، في مراودتهن إياي على أنفسهن، أمِلْ إليهن، وأتابعهن على ما يُرِدن مني ويهوَيْن، من قول القائل:"صَبا فلان إلى كذا"، ومنه قول الشاعر:

إِلَى هِنْدٍ صَبَا قَلْبِي وَهِنْدٌ مِثْلُهَا يُصْبِي"

قال البيضاوي:"وإن لم تصرف عني. كيدهن في تحبيب ذلك إلي وتحسينه عندي بالتثبيت على العصمة. أصب إليهن أمل إلى جانبهن أو إلى أنفسهن بطبعي ومقتضى شهوتي، والصبوة الميل إلى الهوى ومنه الصبا لأن النفوس تستطيبها وتميل إليها".

قال الزمخشري:"فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإجبار على التعفف

=

=

والإلجاء إليه، {أصب إليهن}: أمل إليهن. والصبوة: الميل إلى الهوى. ومنها: الصبا، لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها".

عن ابن إسحاق: "{وإلا تصرف عني كيدهن}، أي: ما أتخوَّف منهن، {أصب إليهن}".

عن قتادة: "{أصب إليهن}، يقول: أتابعهن".

وقرئ: «أصب إليهن»، من الصبابة.

قوله تعالى: {وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [يوسف: ٣٣]، أي:"وأكن من السفهاء الذين يرتكبون الإثم لجهلهم".

قال الطبري:"يقول: وأكن بصبوتي إليهن، من الذين جهلوا حقك، وخالفوا أمرك ونهيك".

قال الزمخشري:"من الذين لا يعملون بما يعلمون. لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء. أو من السفهاء، لأن الحكيم لا يفعل القبيح".

قال البيضاوي: أي:"من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه فإن الحكيم لا يفعل القبيح، أو من الذين لا يعملون بما يعلمون فإنهم والجهال سواء".

عن ابن إسحاق: "{وأكن من الجاهلين}، أي: جاهلا إذا ركبت معصيتك".

قوله تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ} [يوسف: ٣٤]، أي:"استجاب الله ليوسف دعاءه فصرف عنه ما أرادت منه امرأة العزيز وصواحباتها من معصية الله".

قال مقاتل: {كَيْدَهُنَّ}:"يعني: مكرهن وشرهن".

قال البيضاوي:"فأجاب الله دعاءه الذي تضمنه قوله: وإلا تصرف. فصرف عنه كيدهن فثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان".

=

=

قال الزمخشري:"وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدم الدعاء، لأن قوله: {وإلا تصرف عني}، فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف.

قال محمد بن إسحاق:"أي: نجاه من أن يركب المعصية فيهن، وقد نزل به بعض ما حذر منه".

قال النسفي:"فلما كان في قوله: {وإلا تصرف عني كيدهن}، معنى: طلب الصرف يوسف والدعاء، قال: {فاستجاب لَهُ رَبُّهُ}، أي: أجاب الله دعاءه".

قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يوسف: ٣٤]، أي:"إن الله هو السميع لدعاء يوسف، ودعاء كل داع مِن خلقه، العليم بمطلبه وحاجته وما يصلحه، وبحاجة جميع خلقه وما يصلحهم".

قال مقاتل: {إنه هو السميع} لدعاء يوسف، {العليم} به".

قال الزمخشري والبيضاوي: أي:"{السميع} لدعاء الملتجئين إليه. {العليم}، بأحوالهم وما يصلحهم".

قال محمد بن إسحاق:"أي: سميع لما يقولون، عليم بما يخفون".

قوله تعالى: {ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ} [يوسف: ٣٥]، أي:"ثم ظهر للعزيز وأهله ومن استشارهم بعد الدلائل القاطعة على براءة يوسف، سجنه إلى مدة من الزمن غير معلومة".

قال الزمخشري:"أى: ظهر لهم رأى ليسجننه، والضمير في لهم للعزيز وأهله من بعد ما رأوا الآيات وهي الشواهد على براءته، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وفتلها منه في الذروة والغارب وكان مطواعة لها وجميلا ذلولا زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه وإلحاق الصغار به كما أو عدته به، وذلك لما أيست من طاعته لها، أو لطمعها في أن يذلله السجن ويسخره لها... {حتى حين}، إلى زمان، كأنها اقترحت أن يسجن زمانا حتى تبصر

=

=

ما يكون منه".

قال البيضاوي:"ثم ظهر للعزيز وأهله من بعد ما رأوا الشواهد الدالة على براءة يوسف كشهادة الصبي وقد القميص وقطع النساء أيديهن واستعصامه عنهن وفاعل بدا مضمر يفسره، {ليسجننه حتى حين}، وذلك لأنها خدعت زوجها وحملته على سجنه زمانا حتى تبصر ما يكون منه، أو يحسب الناس أنه المجرم فلبث في السجن سبع سنين".

قال مقاتل:"وذلك أنها قالت لزوجها حين لم يطاوعها يوسف: احبس يوسف في السجن لا يلج عليّ، فصدقها فحبسته".

قال السدي:"قالت المرأة لزوجها: إن هذا العبدَ العبرانيَّ قد فضحني في الناس، يعتذر إليهم، ويخبرهم أني راودته عن نفسه، ولست أطيق أن أعتذر بعذري، فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر، وإما أن تحبسه كما حبستَني. فذلك قول الله تعالى: {ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين}".

وفي الآيات التي رأوها وجهان:

أحدهما: قدَّ القميص من دُبُر، وخمشًا في الوجه، وقَطْعَ أيديهن. قاله ابن عباس.

وقال قتادة:"حزُّهن أيديهن، وقدُّ القميص".

قال السدي:"القميصُ، وقطع الأيدي".

وقال مجاهد:"قدُّ القميص من دبر".

قال ابن إسحاق:"شق قميصه من دُبر".

الثاني: ما ظهر لهم من عفته وجماله حتى قلن: {ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم}.

وفي قوله تعالى: {لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ} [يوسف: ٣٥]، أربعة أقوال:

أحدها: أن الحين: قد يكون غدوة وعشية. قاله ابن عباس.

=

=

والثاني: أن الحين -ها هنا- ستة أشهر، قاله سعيد بن جبير.

الثالث: أنه سبع سنين، قاله عكرمة.

الرابع: أنه زمان غير محدود، حكاه الماوردي عن أكثر المفسرين.

قال الطبري:"يقول: ليسجننه إلى الوقت الذي يرون فيه رأيهم".

وروي عن عكرمة:"نذر رجل أن يقطع يد غلامه، ويحبسه حينا، فسألني عمر بن عبد العزيز عنها فقلت: لا تقطع يده، ويحبسه الحين في سنة مرة، ثم قرأ: ليسجننه حتى حين".

قال ابن عباس:"عثر يوسف عليه السلام ثلاثَ عثرات: حين همَّ بها فسجن. وحين قال: {اذكرني عند ربك}، فلبث في السجن بضع سنين، وأنساه الشيطان ذكر ربه. وقال لهم: {إنكم لسارقون}، فقالوا: {إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل}".

قال وهب بن منبه:"لما أتى جبريل يوسف بالبشرى، وهو في السجن، قال: هل تعرفني أيها الصديق؟ قال: أرى صورة طاهرة وروحا طيبا، لا يشبه أرواح الخطائين، قال: فإني رسول رب العالمين، وأنا الروح الأمين، قال: فما الذي أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين، ورأس المقربين، وأمين رب العالمين؟ قال ألم تعلم يا يوسف أن الله يطهر البيوت بطهر النبيين، وأن الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأرضين، وأن الله قد طهر بك السجن وما حوله، يا طاهر الطاهرين ويا ابن المتطهرين...: إنما يتطهر بفضل طهورك وطهر آبائك المخلصين، قال: كيف تسميني بأسماء الصديقين، وتعدني مع المخلصين الصالحين وقد أدخلت مدخل المذنبين، وسميت بالضالين المفسدين؟ قال: لم يفتن قلبك الحزن، ولم يدرس حرمتك الرق، ولم تطع سيدتك في معصية ربك، ولذلك سماك الله بأسماء الصديقين، وعدك مع المخلصين وألحقك بآبائك الصالحين".

=

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦).

{وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْن فَتَيَانِ} غُلَامَانِ لِلْمَلِكِ أَحَدهمَا سَاقِيه وَالْآخَر صَاحِب طَعَامه فَرَأَيَاهُ يَعْبُر الرُّؤْيَا فَقَالَا لِنَخْتَبِرَنَّهُ {قَالَ أَحَدهمَا} وَهُوَ السَّاقِي {إِنِّي أَرَانِي أَعْصِر خَمْرًا} أَيْ عِنَبًا {وَقَالَ الْآخَر} وَهُوَ صَاحِب الطَّعَام {إِنِّي أَرَانِي أَحْمِل فَوْق رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُل الطَّيْر مِنْهُ نَبِّئْنَا} خَبِّرْنَا {بتأويله} بتعبيره {إنا نراك من المحسنين}.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧).

{قَالَ} لَهُمَا مُخْبِرًا أَنَّهُ عَالِم بِتَعْبِيرِ الرُّؤْيَا {لَا يَأْتِيكُمَا طَعَام تُرْزَقَانِهِ} فِي مَنَامكُمَا {إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ} فِي الْيَقَظَة {قَبْل أَنْ يَأْتِيكُمَا} تَأْوِيله {ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي} فِيهِ حَثّ عَلَى إيمَانهمَا ثُمَّ قَوَّاهُ بِقَوْلِهِ {إِنِّي تَرَكْت مِلَّة} دِين {قَوْم لَا يُؤْمِنُونَ بِاَللهِ وَهُمْ بالآخرة هم} تأكيد {كافرون}.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ

=

وقرئ «لتسجننه» بالتاء، على أن بعضهم خاطب به العزيز على التعظيم أو العزيز ومن يليه، و في قراءة ابن مسعود: «عتى حين» بلغة هذيل.

وعن عمر رضى الله عنه:"أنه سمع رجلا يقرأ «عتى حين»، فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود. فكتب إليه: إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربيا وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل، والسلام".

شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨).

{وَاتَّبَعْت مِلَّة آبَائِي إبْرَاهِيم وَإِسْحَاق وَيَعْقُوب مَا كَانَ} يَنْبَغِي {لَنَا أَنْ نُشْرِك بِاَللهِ مِنْ} زَائِدَة {شَيْء} لِعِصْمَتِنَا {ذَلِكَ} التَّوْحِيد {مِنْ فَضْل الله عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاس وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس} وَهُمْ الْكُفَّار {لَا يَشْكُرُونَ} الله فَيُشْرِكُونَ ثُمَّ صَرَّحَ بِدُعَائِهِمَا إلَى الْإِيمَان فَقَالَ.

يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩).

{يَا صَاحِبَيْ} سَاكِنِي {السِّجْن أَأَرْبَاب مُتَفَرِّقُونَ خَيْر أَمِ الله الْوَاحِد الْقَهَّار} خَيْر اسْتِفْهَام تَقْرِير.

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠).

{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونه} أَيْ غَيْره {إلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا} سَمَّيْتُمْ بِهَا أَصْنَامًا {أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ الله بِهَا} بِعِبَادَتِهَا {مِنْ سُلْطَان} حُجَّة وَبُرْهَان {إنِ} مَا {الْحُكْم} الْقَضَاء {إلَّا لِلَّهِ} وَحْده {أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ ذَلِكَ} التَّوْحِيد {الدِّين الْقَيِّم} الْمُسْتَقِيم {وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس} وَهُمْ الْكُفَّار {لَا يَعْلَمُونَ} مَا يَصِيرُونَ إلَيْهِ مِنْ الْعَذَاب فَيُشْرِكُونَ.

يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١).

{يَا صَاحِبَيِ السِّجْن أَمَّا أَحَدكُمَا} أَيْ السَّاقِي فَيَخْرُج بَعْد ثَلَاث {فَيَسْقِي رَبّه} سَيِّده {خَمْرًا} عَلَى عَادَته {وَأَمَّا الْآخَر} فَيَخْرُج بَعْد ثَلَاث {فَيُصْلَب فَتَأْكُل الطَّيْر مِنْ رَأْسه} هَذَا تَأْوِيل رؤيا كما فَقَالَا مَا رَأَيْنَا شَيْئًا فَقَالَ {قُضِيَ} تَمَّ

{الْأَمْرِ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} سَأَلْتُمَا عَنْهُ صَدَّقْتُمَا أم كذبتما(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ} [يوسف: ٣٦]، أي:"وأدخل يوسف السجن، واتفق أنه أدخل حينئذ آخران من خدم الملك الخاص".

والفتيان: تثنية فتى، وهو من جاوز الحلم ودخل في سن الشباب.

قالوا: وهذان الفتيان كان أحدهما: خبازا للملك وصاحب طعامه، وكان الثاني: ساقيا للملك، وصاحب شرابه.

وقد أدخلهما الملك السجن غضبا عليهما، لأنهما اتهما بخيانته.

قال النسفي:"عبدان للملك خبازه وشرابيه بتهمة السم فأدخلا السجن ساعة أدخل يوسف لأن مع يدل على معنى الصحبة تقول خرجت مع الأمير تريد مصاحبًا له فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له".

قال البيضاوي:"أي: أدخل يوسف السجن واتفق أنه أدخل حينئذ آخران من عبيد الملك شرابيه وخبازه للاتهام بأنهما يريدان أن يسماه".

قال ابن إسحاق:"فطرح في السجن - يعني يوسف - {ودخل معه السجن فتيان}، غلامان كانا للملك الأكبر الرّيان بن الوليد، كان أحدهما على شرابه، والآخر على بعض أمره، في سَخْطَةٍ سخطها عليهما، اسم أحدهما: «مجلث» والآخر: «نبو»، و «نبو» الذي كان على الشراب".

قال قتادة:"كان أحدهما خبازًا للملك على طعامه، وكان الآخر ساقيه على شرابِه".

قال السدي:"إن الملك غضب على خبَّازه، بلغه أنه يريد أن يسمّه، فحبسه وحبس صاحب شرابه، ظنَّ أنه مالأه على ذلك. فحبسهما جميعًا ؛ فذلك قول الله: {ودخل معه السجن فتيان}".

قال مقاتل:"الخباز والساقي، اسم أحدهما: شرهم أقم، وهو الساقي، واسم =

=

الخباز: شرهم أشم".

قوله تعالى: {قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا} [يوسف: ٣٦]، أي:"قال أحدهما: إني رأيت في المنام أني أعصر عنبًا ليصير خمرًا".

قال ابن كثير: وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث، وحسن السمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن، تآلفا به وأحباه حبا شديدا... ثم إنهما رأيا مناما.

عن ابن عباس: "{إني أراني أعصر خمرًا}، قال: عنبًا".

قال عكرمة:"أتاه، فقال: رأيت فيما يرى النائم أني غرست حَبَلة من عنب، فنبتت، فخرج فيه عناقيد فعصرتهنّ، ثم سقيتهن الملك، فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمرًا".

قال مقاتل:"قال: كأني دخلت البستان فإذا فيه أصل كرم وعليه ثلاث عناقيد فكأني أعصرهن وأسقي الملك".

وفي تسميته خمرًا وجهان:

أحدهما: لأن عصيره يصير خمرًا فعبر عنه بما يؤول إليه. ذكره الماوردي.

الثاني: أن أهل عُمان يسمون العنب خمرًا، قاله الضحاك.

عن عبيد، قال: "سمعت الضحاك يقول في قوله: {إني أراني أعصر خمرًا}، يقول: أعصر عنبًا، وهو بلغة أهل عمان، يسمون العنب خمرًا".

وقرأ ابن مسعود: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عِنَبًا».

قال الزجاج:"قال أهل اللغة: الخمر في لغة عمان اسم للعنب، فكأنه قال: أراني أعصر عنبا، ويجوز أن يكون عنى الخمر بعينها، لأنه يقال للذي يصنع من التمر الدبس هذا يعمل دبسا، وإنما يعمل التمر حتى يصير دبسا، وكذلك كل شيء نقل

=

=

من شيء، وكذلك قوله: {أعصر خمرا}، أي: أعصر عنب الخمر أي: العنب الذي يكون عصيره خمرا".

قوله تعالى: {وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ} [يوسف: ٣٦]، أي:"وقال الآخر: إني رأيت أني أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير منه".

قال البيضاوي:"أي: تنهش منه".

قال مقاتل:"وقال الآخر: إني أراني رأيت في المنام: كأني أحمل فوق رأسي خبزا ثلاث سلال وأعلاهن جفنة من خبز فوق رأسى، تأكل الطير منه".

وفي الرؤيا-هاهنا- ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها. قاله مجاهد، وابن إسحاق.

روى عن أبي هريرة عن النبيﷺ أنه قال: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءا من النبوة والرؤيا ثلاث فالرؤيا

الصالحة بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم وليتفل ولا يحدث بها الناس وأحب القيد فى النوم وأكره الغل، القيد ثبات فى الدين».

عن مجاهد: "أن يوسف قال لهم حين قالا له ذلك: أنشدكما الله أن لا تحباني، فوالله ما أحبني أحدٌ قط إلا دخل عليَّ من حبه بلاء، لقد أحبتني عمتي فدخل علي من حبها بلاء، ثم لقد أحبني أبي فدخل عليّ بحبه بلاء، ثم لقد أحبتني زوجةُ صاحبي هذا فدخل عليَّ بحبها إياي بلاء، فلا تحباني بارك الله فيكما! قال: فأبيا إلا حبه وإلفه حيث كان، وجعلا يعجبهما ما يريان من فهمه وعقله. وقد كانا رأيا حين أدخلا السجن رؤيا، فرأى "مجلث" أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه،

=

=

ورأى"نبو" أنه يعصر خمرًا، فاستفتياه فيها، وقالا له: {نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين}، إن فعلت".

الثاني: أنها كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجربة، فلما أجابهما قالا: إنما كنا نلعب، فقال: {قضي الأمر الذي فيه تستفتيان}، وهذا معنى قول ابن مسعود، والسدي.

قال ابن مسعود:"ما رأى صاحبا يوسف شيئًا، وإنما كانا تحالما ليجرِّبا علمه".

قال السدي:"لما دخل يوسف السجن قال: أنا أعبُرُ الأحلام. فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلمَّ نجرّب هذا العبد العبرانيّ فتراءَيَا له! فسألاه، من غير أن يكونا رأيا شيئًا. فقال الخباز: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير".

قال الطبري:"ذكر أن يوسف صلوات الله عليه لما أدخل السجن، قال لمن فيه من المحبَّسين، وسألوه عن عمله: إني أعبُرُ الرؤيا: فقال أحد الفتيين اللذين أدخلا معه السجن لصاحبه: تعال فلنجربه"

الثالث: أن المصلوب منهما كان كاذبًا، والآخر صادقًا، قاله أبو مجلز.

قوله تعالى: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [يوسف: ٣٦]، أي:"أخبرنا -يا يوسف -بتفسير ما رأينا".

قال مقاتل:"يقول: أخبرنا بتفسير ما رأينا في المنام".

قال الزجاج:"أي: تأويل ما رأينا، وقولهما {نبئنا بتأويله} يدل على أنهما رأيا ذلك في النوم، لأنه لا تأويل لرؤية اليقظة غير ما يراه الإنسان".

قال الطبري:"يقول: أخبرنا بما يؤول إليه ما أخبرناك أنَّا رأيناه في منامنا، ويرجع إليه".

قال مجاهد:"أن «تأويل الشيء»، هو الشيء. قال: ومنه: «تأويل الرؤيا»، إنما هو الشيء الذي تؤول إليه".

قوله تعالى: {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٣٦]، أي:"إنا نراك من الذين

=

=

يحسنون في عبادتهم لله، ومعاملتهم لخلقه".

قال البيضاوي: أي:"من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين، وإنما قالا ذلك لأنهما رأياه في السجن يذكر الناس ويعبر رؤياهم، أو من المحسنين إلى أهل السجن فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه".

وفي قوله تعالى: {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٣٦]، وجوه:

أحدها: أنهم وصفوه بذلك، لأنه كان يعود مريضهم ويعزي حزينهم ويوسع على من ضاق مكانه منهم، قاله الضحاك.

قال مقاتل:"وكان إحسانه في السجن أنه كان يعود مرضاهم ويداويهم، ويعزي مكروبهم، ورآه متعبدا لربه فهذا إحسانه".

وقال قتادة:"بلغنا أن إحسانه أنه كان يداوي مريضهم، ويعزِّي حزينهم، ويجتهد لربه. وقال: لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قومًا قد انقطع رجاؤهم، واشتد بلاؤهم، فطال حزنهم، فجعل يقول: أبشروا واصبروا تؤجَروا، إن لهذا أجرًا، إن لهذا ثوابًا. فقالوا: يا فتى، بارك الله فيك، ما أحسن وجهك، وأحسن خلقك، لقد بورك لنا في جوارك، ما نحبُّ أنَّا كنا في غير هذا منذ حبسنا، لما تخبرنا من الأجر والكفَّارة والطَّهارة، فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف، ابن صفي الله يعقوب، ابن ذبيح الله إسحاق بن إبراهيم خليل الله. وكانت عليه محبَّة. وقال له عامل السجن: يا فتى، والله لو استطعت لخلَّيت سبيلك، ولكن سأحسن جِوارك، وأحسن إسارك، فكن في أيِّ بيوت السجن شئت".

وفي رواية عن الضحاك:"كان يوسع للرجل في مجلسه، ويتعاهد المرضى".

الثاني: لأنه كان يعين المظلوم وينصر الضعيف، ويعود العليل. حكاه الزجاج.

الثالث: معناه: لأنه كان يأمرهم بالصبر ويعدهم بالثواب والأجر.

الرابع: إنا نراك ممن أحسن العلم. حكاه ابن جرير الطبري.

=

=

وقال الزجاج:"وقيل: {من المحسنين}، أي: ممن يحسن التأويل. وهذا دليل أن أمر الرؤيا صحيح، وأنها لم تزل في الأمم الخالية، ومن دفع أمر الرؤيا وأنه منها ما يصح فليس بمسلم لأنه يدفع القرآن والأثر عن رسول الله ﷺ لأنه روي عن رسول الله أن الرؤيا «جزء من أربعين جزءا من النبوة»، وتأويله أن الأنبياء يخبرون بما سيكون، والرؤيا الصادقة تدل على ما سيكون".

الخامس: أنه كان لا يرد عذر معتذر.

السادس: أنه كان يقضي حق غيره ولا يقضي حق نفسه.

السابع: إنا نراك من المحسنين إن أنبأتنا بتأويل رؤيانا هذه، قاله ابن إسحاق.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، القول الذي ذكرناه عن الضحاك وقتادة، فإن قال قائل: وما وجهُ الكلام إن كان الأمر إذن كما قلت، وقد علمت أن مسألتهما يوسف أن ينبئهما بتأويل رؤياهما، ليست من الخبَرَ عن صفته بأنه يعود المريض ويقوم عليه، ويحسن إلى من احتاج في شيء، وإنما يقال للرجل:"نبئنا بتأويل هذا فإنك عالم"، وهذا من المواضع التي تحسن بالوصف بالعلم، لا بغيره؟ قيل: إن وجه ذلك أنهما قالا له: نبئنا بتأويل رؤيانا محسنًا إلينا في إخبارك إيانا بذلك، كما نراك تحسن في سائر أفعالك: {إنا نراك من المحسنين}".

قال ابن عاشور: الإحسان: الإتقان، يقال: هو لا يحسن القراءة، أي لا يتقنها.

ومن عادة المساجين حكاية المرائي التي يرونها، لفقدانهم الأخبار التي هي وسائل المحادثة والمحاورة، ولأنهم يتفاءلون بما عسى أن يبشرهم بالخلاص في المستقبل.

قوله تعالى: {قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا} [يوسف: ٣٧]، أي:"قال لهما يوسف: لا يأتيكما طعام ترزقانه في حال من الأحوال إلا أخبرتكما بتفسيره قبل أن يأتيكما".

=

=

قبل أن يبدأ يوسف عليه السلام في تأويل رؤياهما، أخذ يمهد لذلك بأن يعرفهما بنفسه، وبعقيدته، ويدعوهما إلى عبادة الله وحده ويقيم لهما الأدلة على ذلك...

وهذا شأن المصلحين العقلاء المخلصين لعقيدتهم الغيورين على نشرها بين الناس، إنهم يسوقون لغيرهم من الكلام الحكيم ما يجعل هذا الغير يثق بهم، ويقبل عليهم، ويستجيب لهم.

أي: قال يوسف لرفيقيه في السجن اللذين سألاه أن يفسر لهما رؤياهما: «لا يأتيكما» أيها الرفيقان «طعام ترزقانه» في سجنكما، في حال من الأحوال، إلا وأخبرتكما بماهيته وكيفيته وسائر أحواله قبل أن يصل إليكما.

وإنما قال لهما ذلك ليبرهن على صدقه فيما يقول، فيستجيبا لدعوته لهما إلى وحدانية الله بعد ذلك.

- قال الشوكاني.... وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه، بل جعله عليه السلام مقدمة قبل تعبيره لرؤياهما بيانا لعلو مرتبته في العلم، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين، فهو كقول عيسى عليه السلام : وأنبئكم بما تأكلون) وإنما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكف.

- قال البيضاوي: أراد أن يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه، كما هو طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد، فقدم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير.

قال الطبري:"{قال} يوسف للفتيين اللذين استعبراه الرؤيا: {لا يأتيكما}، أيها الفتيان في منامكما {طعام ترزقانه} بما يؤول إليه ويصير في يقظتكما {قبل أن يأتيكما}".

قال الزجاج:"وليس هذا جواب ما سألا عنه، إنما سألا أن يخبر هما بتأويل ما

=

=

رأياه فأحب يوسف عليه السلام أن يدعوهما إلى الإيمان وأن يعلمهما أنه نبي، وأن يدلهما على نبوته بآية معجزة، فأعلمهما أنه يخبرهما بكل طعام يؤتيان به قبل أن يرياه".

قال ابن عباس:"ما أدري لعل يوسف كان يعتاف، وهو كذلك لأني أجد في كتاب الله عز وجل حين قال للرجلين: {لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله}، قال إذا جاءه الطعام حلوا ومرا اعتاف عند ذلك، وقال: إنما علم فعلم".

وفي قوله تعالى: {قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا} [يوسف: ٣٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: لا يأتيكما طعام ترزقانه في النوم إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما في اليقظة. قاله مجاهد، والسدي، وابن إسحاق.

عن السدي، قال: قال يوسف لهما: "{لا يأتيكما طعام ترزقانه}، في النوم، {إلا نبأتكما بتأويله، في اليقظة".

عن ابن إسحاق، قال: "قال يوسف لهما: {لا يأتيكما طعام ترزقانه}، يقول: في نومكما {إلا نبأتكما بتأويله}".

الثاني: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يصلكما، لأنه كان يخبر بما غاب مثل عيسى، قاله الحسن.

الثالث: أن الملك كان من عادته إذا أراد قتل إنسان صنع له طعامًا معروفًا وأرسل به إليه، فكره يوسف تعبير رؤيا السوء قبل الإياس من صاحبها لئلا يخوفه بها فوعده بتأويلها عند وصول الطعام إليه، فلما ألحّ عليه عبرها، لئلا يخوفه بها فوعده بتأويلها عند وصول الطعام إليه، فلما ألحَّ عليه عبرها، قاله ابن جريج.

قال ابن جريج:"فكره العبارة لهما، وأخبرهما بشيء لم يسألاه عنه ليريهما أن عنده علمًا. وكان الملك إذا أراد قتل إنسان، صنع له طعامًا معلومًا، فأرسل به إليه،

=

=

فقال يوسف: {لا يأتيكما طعام ترزقانه}، إلى قوله: {تشكرون}، فلم يدَعَاه، فعدل بهما، وكره العبارة لهما. فلم يدعاه حتى يعبر لهما، فعدل بهما وقال: (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار}، إلى قوله: {يعلمون}، فلم يدعاه حتى عبر لهما، فقال: {يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرًا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه}. قالا ما رأينا شيئًا، إنما كنا نلعب! قال: {قضي الأمر الذي فيه تستفتيان}.

قال الطبري:"وعلى هذا التأويل الذي تأوله ابن جريج، فقوله: {لا يأتيكما طعام ترزقانه}، في اليقظة لا في النوم،. وإنما أعلمهما على هذا القول أنَّ عنده علم ما يؤول إليه أمر الطعام الذي يأتيهما من عند الملك ومن عند غيره، لأنه قد علم النوعَ الذي إذا أتاهما كان علامةً لقتل من أتاه ذلك منهما، والنوع الذي إذا أتاه كان علامة لغير ذلك، فأخبرهما أنه عنده علم ذلك".

قوله تعالى: {ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي} [يوسف: ٣٧]، أي:"ذلكما التعبير الذي سأعبِّره لكما مما علَّمني ربي".

قال الطبري:"يقول: هذا الذي أذكر أني أعلمه من تعبير الرؤيا، مما علمني ربى فعلمته".

قال الزجاج:"أي: لست أخبركما على جهة التكهن، والتنجم، إنما أخبركما بوحي من الله وعلم".

عن أبي مالك قوله: "{ذلكما}، يعني: هذا".

قال مقاتل:"قال يوسف ألا أخبركما بأعجب من الرؤيا التي رأيتما قال: {لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله} إلا أخبرتكما بألوانه {قبل أن يأتيكما} الطعام، فقالوا ليوسف: إنما يعلم هذا الكهنة، والسحرة، وأنت لست في هيئة ذلك، فقال يوسف لهما: {ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي..}".

=

=

قوله تعالى: {إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [يوسف: ٣٧]، أي:"إني آمنت به، وأخلصت له العبادة، وابتعدت عن دين قوم لا يؤمنون بالله، وهم بالبعث والحساب جاحدون".

قال مقاتل:"أولئك الكهنة، والسحرة، يعني: أهل مصر، {لا يؤمنون بالله}، يعني: لا يصدقون بتوحيد الله، ولا بالبعث الذي فيه جزاء الأعمال {وهم بالآخرة هم كافرون}".

قال الصابوني:"نبّه على أصلين عظيمين: الإيمان بالله، والإيمان بدار الجزاء، إذ هما أعظم أركان الإيمان، وكرر لفظه {هُمْ} على سبيل التأكيد".

قال الطبري:"يقول: إني برئت من ملة من لا يصدق بالله، ويقرّ بوحدانيته، وهم مع تركهم الإيمان بوحدانية الله، لا يقرّون بالمعاد والبعث، ولا بثواب ولا عقاب".

- قال الرازي: لقائل أن يقول: في قوله (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) توهم أنه عليه السلام كان في هذه الملة. فنقول جوابه من وجوه:

الأول: أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضا فيه.

والثاني: وهو الأصح أن يقال إنه عليه السلام كان عبدا لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد، ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفا منهم على سبيل التقية، ثم إنه أظهره في هذا الوقت، فكان هذا جاريا مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر.

- وقال الشوكاني:... والمراد بالترك هو عدم التلبس بذلك من الأصل، لا أنه قد كان تلبس به، ثم تركه كما يدل عليه قوله: ما كان لنا أن نشرك بالله.

قوله تعالى: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} [يوسف: ٣٨]، أي:"واتبعت دين آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب فعبدت الله وحده".

=

=

قال الطبري:"واتبعت دينهم لا دين أهل الشرك".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم".

روي عن ابن عباس:"أنه كان يجعل الجد أبا ويقول: والله لمن شاء لأعناه عند الحجر ما ذكر الله جدا ولا جدة، قال الله: واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب".

عن أبي إسحاق سمع أبا الأحوص، يقول:"فاخر أسماء بن خارجة الفزاري رجلا، فقال: أنا ابن الأشياخ الكرام، فقال عبد الله بن مسعود: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله".

قوله تعالى: {مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ} [يوسف: ٣٨]، أي:"ما كان لنا أن نجعل لله شريكًا في عبادته".

قال الطبري:"يقول: ما جاز لنا أن نجعل لله شريكًا في عبادته وطاعته، بل الذي علينا إفراده بالألُوهة والعبادة".

قوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ} [يوسف: ٣٨]، أي:"ذلك التوحيد بإفراد الله بالعبادة، مما تفضل الله به علينا وعلى الناس".

قال الطبري:"يقول: اتباعي ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب على الإسلام، وتركي ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، من فضل الله الذي تفضّلَ به علينا، فأنعم إذ أكرمنا به {وعلى الناس}، يقول: وذلك أيضًا من فضل الله على الناس، إذ أرسلنا إليهم دعاةً إلى توحيده وطاعته".

قال الزجاج:"أي اتباعنا الإيمان بتوفيق الله لنا بفضله علينا {وعلى الناس} بأن دلهم
على دينه المؤدي إلى صلاحهم".

=

=

عن ابن عباس،:"وقول يوسف: {ذلك من فضل الله علينا}، يقول: أن بعثنا أنبياء"، " قوله: {وعلى الناس}، أن بعثنا إليهم رسلا".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} [يوسف: ٣٨]، أي:"ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على نعمة التوحيد والإيمان".

قال الطبري:"يقول: ولكن من يكفر بالله لا يشكر ذلك من فضله عليه، لأنه لا يعلم من أنعم به عليه ولا يعرف المتفضِّل به".

قال قتادة:"وإن المؤمن ليشكر نعم الله عليه، وعلى خلقه".

وروي عن قتادة قال: "ذكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول: يا رب شاكر نعمة غير منعم عليه لا يدري، ويا رب حامل فقه غير فقيه".

قوله تعالى: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)} [يوسف: ٣٩]

التفسير:

وقال يوسف للفَتَيين اللذين معه في السجن: أعبادةُ آلهةٍ مخلوقة شتى خير أم عبادة الله الواحد القهار؟

قال الطبري:"يقول: أعبادة أرباب شتى متفرقين وآلهة لا تنفع ولا تضر، خيرٌ أم عبادة المعبود الواحد الذي لا ثاني له في قدرته وسلطانه، الذي قهر كل شي فذلله وسخره، فأطاعه طوعًا وكرهًا".

قال مقاتل:"أآلهة شتى تعبدون {خير}، يعني: أفضل أم {الله الواحد القهار} لخلقه، لأن الآلهة مقهورة، كقوله في النمل: {آلله خير أما يشركون} من الآلهة".

قال الزجاج:"فدعاهم إلى توحيد الله بعد أن علمهما أنه يخبرهما بالغيب".

قال مجاهد:"دعاهما إلى الله وإلى الإسلام فقال: {يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار}، أي: خير أن تعبدوا إلها واحدا، أم آلهة متفرقة

=

=

لا تغني عنكم شيئا ما تعبدون من دونه".

قال ابن إسحاق:"ثم دعاهما إلى الله وإلى الإسلام، فقال: {يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار}، أي: خيرٌ أن تعبدوا إلهًا واحدًا، أو آلهة متفرقة لا تغني عنكم شيئا؟".

قال قتادة:"لما عرف نبيُّ الله يوسف أن أحدهما مقتولٌ، دعاهما إلى حظّهما من ربهما، وإلى نصيبهما من آخرتهما".

قال ابن عباس:"كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه على طعامه".

قوله تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ} [يوسف: ٤٠]، أي:"ما تعبدون من دون الله إلا أسماءً لا معاني وراءها، جعلتموها أنتم وآباؤكم أربابًا جهلا منكم وضلالا".

قال الطبري:"وذلك تسميتهم أوثانهم آلهة أربابًا، شركًا منهم، وتشبيهًا لها في أسمائها التي سمَّوها بها بالله، تعالى عن أن يكون له مثل أو شبيه".

قال الزجاج:"أي: أنتم جعلتم هذه الأسماء آلهةً".

قال السمعاني:"يعني: هذه الأصنام أسماء مجردة خالية عن المعنى".

قوله تعالى: {مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [يوسف: ٤٠]، أي:"ما أنزل الله من حجة أو برهان على صحتها".

قال الطبري:"يقول: سموها بأسماء لم يأذن لهم بتسميتها، ولا وضع لهم على أن تلك الأسماء أسماؤها، دلالةً ولا حجةً، ولكنها اختلاق منهم لها وافتراء".

قال السمعاني:"{من سلطان} أي: حجة".

أخرج ابن ابي حاتم بسنده عن ابن عباس، قال:"كل سلطان في القرآن حجة"، قال ابن أبي حاتم:"وروي، عن أبي مالك، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والضحاك، والسدي، والنضر بن عربي مثله".

=

=

قوله تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [يوسف: ٤٠]، أي:"ما الحكم الحق إلا لله تعالى وحده، لا شريك له".

قال السمعاني:"ما الحكم إلا الله".

قال مقاتل: "{إن الحكم} يعني: القضاء {إلا لله} في التوحيد".

قوله تعالى: {أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [يوسف: ٤٠]، أي:"أمر ألا تنقادوا ولا تخضعوا لغيره، وأن تعبدوه وحده".

قال مقاتل: "يقول: أمر اللهُ أن يُوَحَّد، ويعبد وحده، له التوحيد".

قال الطبري:"يقول: وهو الذي أمر ألا تعبدوا أنتم وجميعُ خلقه، إلا الله الذي له الألوهة والعبادة خالصةً دون كل ما سواه من الأشياء".

قال الفخر الرازي: "إنّ كونه تعالى واحدًا يوجب عبادته؛ لأنه لو كان له ثان لم نعلم من الذي خلقنا ورزقنا، ورفع الشرور والآفات عنا، فيقع الشك في أننا هل نعبد هذا أم ذاك؟".

قال أبو العالية:"أَسَّسَ الدين على الإخلاص لله وحده لا شريك له".

قوله تعالى: {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [يوسف: ٤٠]، أي:"وهذا هو الدين القيم الذي لا عوج فيه".

قال الطبري:"يقول: هذا الذي دعوتكما إليه من البراءة من عبادة ما سوى الله من الأوثان، وأن تخلصا العبادة لله الواحد القهار، هو الدِّين القويم الذي لا اعوجاج فيه، والحقُّ الذي لا شك فيه".

قال السمعاني:"{الدِّينُ الْقَيِّمُ}، أي: الطريق المستقيم".

قال ابن عباس:"ذلك القضاء القيم".

وقال مقاتل بن حيان:"ذلك الحساب القيم". وفي رواية أخرى:"الدين القيم: الحساب البين".

=

=

عن السدي قوله: "{ذلك الدين القيم}، قال: المستقيم".

عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله {ذلك الدين القيم} قال: العدل".

وروي عن زيد بن أسلم قوله: "{الدين القيم}، قال: الحمد لله رب العالمين".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٤٠]، أي:"ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك، فلا يعلمون حقيقته".

قال الطبري:"يقول: ولكن أهل الشرك بالله يجهلون ذلك، فلا يعلمون حقيقته".

عن ابن عباس:"{ولكن أكثر الناس لا يعلمون}، يقول: لا يعقلون".

قوله تعالى: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ} [يوسف: ٤١]، أي:"يا صاحبيَّ في السجن، إليكما تفسيرَ رؤياكما: أما الذي رأى أنه يعصر العنب في رؤياه فإنه يخرج من السجن ويكون ساقي الخمر للملك، وأما الآخر الذي رأى أنه يحمل على رأسه خبزًا فإنه يُصْلب ويُتْرك، وتأكل الطير من رأسه".

قال الطبري: يقول: "{أما أحدكما} -هو الذي رأى أنه يعصر خمرا-، فيسقي سيده- وهو ملكهم- {خمرا}، يكون صاحب شرابه، وأما الآخر- وهو الذي رأى أن على رأسه خبزا تأكل الطير منه- {فيصلب فتأكل الطير من رأسه}".

قال السمعاني:"روي أنه قال لصاحب الشراب: أما تأويل رؤياك: فإنك تدعى بعد ثلاثة أيام وترد إلى منزلتك من الملك، وأما أنت يا صاحب الطعام فتدعى بعد ثلاثة أيام وتصلب وتأكل الطير من رأسك".

عن ابن زيد: "{فيسقي ربه خمرا}، قال: سيده".

قال الزجاج:"فكان هذا صاحبَ شَراب الملك، فأعلمه أن تأويل ما رأى هو هذا".

عن مجاهد:"ثم قال لمجلث: أما أنت فتصلب فتأكل الطير من رأسك، وقال لنبو:

=

أما أنت فترد على عملك، يرضى عنك صاحبك، {قضي الأمر الذي فيه تستفتيان}".

عن السدي: "{يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا} فيعاد على مكانه، {وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه}، ففزعا، وقالا: مما عبر؟ والله ما رأينا شيئا، قال يوسف: {قضي الأمر الذي فيه تستفتيان}".

قوله تعالى: {قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} [يوسف: ٤١]، أي:"قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان وفُرغ منه".

قال الطبري:"يقول: فُرغ من الأمر الذي فيه استفتيتما، ووجب حُكم الله عليكما بالذي أخبرتكما به".

قال السمعاني:"يعني: فرغ من الأمر وما قلت كائن؛ رأيتما أو لم ترياه".

قال مقاتل:"يقول رأيتما أو لم تريا فقد وقع بكما ما عبرت لكما".

قال عبد الله:"لما قالا ما قالا أخبرهما، فقالا ما رأينا شيئا! فقال: {قضي الأمر الذي فيه تستفتيان}".

قال السدي:"إن هذا كائن لا بد منه".

وقال عبد الله:"ما رأى صاحبا يوسف شيئًا، إنما كانا تحالما ليجرّبا علمه، فقال أحدهما: إني أراني أعصر عنبًا! وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير منه؟ {نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين}! قال: {يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرًا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه}. فلما عبَّر، قالا ما رأينا شيئًا! قال: {قضي الأمر الذي فيه تستفتيان}، على ما عبَّر يوسف".

وقال أبو مجلز: "الذي قال له: أنا لم أر شيئا هو صاحب الطعام خاصة".

وإن قيل: فكيف قطع بتأويل الرؤيا وهو عنده ظن من طريق الاجتهاد الذي لا يقطع فيه؟ ففيه وجهان:

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢).

{وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ} أَيْقَنَ {أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا} وَهُوَ السَّاقِي {اُذْكُرْنِي عِنْد رَبّك} سَيِّدك فَقُلْ لَهُ إنَّ فِي السِّجْن غُلَامًا مَحْبُوسًا ظُلْمًا فَخَرَجَ {فَأَنْسَاهُ} أَيْ السَّاقِيَ {الشَّيْطَانُ ذِكْرَ} يُوسُف عِنْد {رَبّه فَلَبِثَ} مَكَثَ يُوسُف {فِي السِّجْن بِضْع سِنِينَ} قِيلَ سَبْعًا وَقِيلَ اثْنَتَيْ عَشْرَة(١).

=

أحدهما: يجوز أن يكون قاله عن وحي من الله تعالى.

الثاني: لأنه نبي يقطع بتحقيق ما أنطقه الله تعالى وأجراه على لسانه، بخلاف من ليس بنبي.

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ} [يوسف: ٤٢]، أي:"وقال يوسف للذي علم أنه ناجٍ من صاحبيه: اذكرني عند سيِّدك الملك وأخبره بأني مظلوم محبوس بلا ذنب".

قال السمعاني: معناه:"{وَقَالَ لِلَّذِي} أيقن أنه ناج منهما، {اذكرني} عند سيدك، فروي أنه قال له: قل للملك: إن في السجن رجلا مظلوما قد طال حبسه".

قال الطبري:"قال يوسف للذي علم أنه ناج من صاحبيه اللذين استعبراه الرؤيا: اذكرني عند سيدك، وأخبره بمظلمتي، وأني محبوس بغير جُرْم".

قال الشوكاني: "والمراد بالظن العلم؛ لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابي وهلاك الخباز، هكذا قال جمهور المفسرين".

قال الماوردي:"أي: عند سيدك، يعني: الملك الأكبر الوليد بن الريان تأميلًا للخلاص إن ذكره عنده".

=

=

قال أبو عبيدة:"أي: عند سيدك من بنى آدم ومولاك، وقال:

فإن يك ربّ أذواد بحسمى أصابوا من لقائك ما أصابوا

قال الأعشى:

ربّى كريم لا يكدّر نعمة وإذا تنوشد فى المهارق أنشدا

يعنى النّعمان إذا سئل بالمهارق الكتب، أنشدا: أعطى كقولك: إذا سئل أعطى"

عن ابن إسحاق قال، "قال- يعني لنبو-: {اذكرني عند ربك}: أي: اذكر للملك الأعظم مظلمتي وحبسي في غير شيء، قال: أفعل".

عن مجاهد في قول الله: "{اذكرني عند ربك}، قال للذي نجا من صاحبي السجن، يوسف يقول: اذكرني عند الملك".

عن إبراهيم التيمي: "أنه لما انتهى به إلى باب السجن، قال له صاحبٌ له: حاجتَك أوصني بحاجتك! قال: حاجتي أن تذكرني عند ربك- سوى الربِّ، قال يوسف".

عن قتادة: "{وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك}، وإنما عبارة الرؤيا بالظن، فيحقُّ الله ما يشاءُ ويُبْطِل ما يشاء".

قال الطبري:"وهذا الذي قاله قتادة، من أن عبارة الرؤيا ظن، فإن ذلك كذلك من غير الأنبياء. فأما الأنبياء فغير جائز منها أن تخبر بخبر عن أمر أنه كائنٌ ثم لا يكون، أو أنه غير كائن ثم يكون، مع شهادتها على حقيقة ما أخبرت عنه أنه كائن أو غير كائن، لأن ذلك لو جاز عليها في أخبارها، لم يُؤمَن مثل ذلك في كل أخبارها. وإذا لم يؤمن ذلك في أخبارها، سقطت حُجَّتها على من أرسلت إليه. فإذا كان ذلك كذلك، كان غير جائزٍ عليها أن تخبر بخبرٍ إلا وهو حق وصدق. فمعلومٌ، إذ كان الأمر على ما وصفت، أن يوسف لم يقطعٍ الشهادة على ما أخبر الفتيين اللذين استعبراه أنه كائن، فيقول لأحدهما: {أما أحدكما فيسقي ربه خمرًا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه}، ثم يؤكد ذلك بقوله: {قضي الأمر

=

=

الذي فيه تستفتيان}، عند قولهما: «لم تر شيئا»، إلا وهو على يقين أن ما أخبرهما بحدوثه وكونه، أنه كائن لا محالة لا شك فيه. وليقينه بكون ذلك، قال للناجي منهما: {اذكرني عند ربك}. فبيِّنٌ إذًا بذلك فسادُ القول الذي قاله قتادة في معنى قوله: {وقال للذي ظن أنه ناج منهما}".

قوله تعالى: {فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ} [يوسف: ٤٢]، أي:"فأنسى الشيطان ذلك الرجل أن يذكر للملك حال يوسف".

قال الطبري:"وهذا خبرٌ من الله جل ثناؤه عن غفلة عَرَضت ليوسف من قبل الشيطان، نسي لها ذكر ربه الذي لو به استغاث لأسرع بما هو فيه خلاصه، ولكنه زلَّ بها فأطال من أجلها في السجن حبسَه، وأوجع لها عقوبته".

وفي قوله تعالى: {فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ} [يوسف: ٤٢]، وجهان:

أحدهما: أن الذي نجا منهما أنساه الشيطان ذكر يوسف عند سيده حتى رأى الملك الرؤيا قاله محمد بن إسحاق.

قال محمد بن إسحاق:"لما خرج - يعني الذي ظنّ أنه ناج منهما- رُدّ على ما كان عليه، ورضي عنه صاحبه، فأنساه الشيطان ذكر ذلك للملك الذي أمره يوسف أن يذكره، فلبث يوسف بعد ذلك في السجن بضع سنين. يقول جل ثناؤه: فلبث يوسف في السجن، لقيله للناجي من صاحبي السجن من القيل: «اذكرني عند سيدك»، بضع سنين، عقوبةً له من الله بذلك".

الثاني: أن يوسف أنساه الشياطن ذكر ربه في الاستغاثة به والتعويل عليه. وهذا قول جماعة من المفسرين.

عن مالك بن دينار قال: لما قال يوسف للساقي: {اذكرني عند ربك}، قال: قيل: يا يوسف، اتخذت من دوني وكيلا؟ لأطيلن حبسك! فبكى يوسف وقال: يا ربّ، أنسى قلبي كثرة البلوى، فقلت كلمة، فويل لإخوتي".

=

=

عن ابن عباس قال: "قال النبي ﷺ: لو لم يقل يوسف- يعني الكلمة التي قال – ما لبث في السجن طول ما لبث، يعني: حيث يبتغي الفرج من عند غير الله" ولكنه حديث ضعيف.

عن قتادة قال: "بلغني أن النبي ﷺ قال: لو لم يستعن يوسف على ربّه، ما لبث في السجن طول ما لبث" وهو ضعيف أيضا.

عن مجاهد قال: "قال له: {اذكرني عند ربك}، قال: فلم يذكره حتى رأى الملك الرؤيا، وذلك أن يوسف أنساه الشيطان ذكرَ ربه، وأمره بذكر الملك وابتغاء الفرج من عنده، {فلبث في السجن بضع سنين} بقوله: {اذكرني عند ربك}".

قال مجاهد:"فلبث في السجن بضع سنين، عقوبةً لقوله: {اذكرني عند ربك}".

قوله تعالى: {فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ} [يوسف: ٤٢]، أي:"فمكث يوسف بعد ذلك في السجن عدة سنوات".

قلت الناسي: هو الساقي، وهذا القول هو الصحيح في معنى الآية، وممن اختار هذا القول ابن تيمية، وأبو حيان، وابن كثير، والقاسمي، والسعدي.

– قال ابن كثير: قوله (اذكرني عند ربك) يقول: اذكر قصتي عند ربك –وهو الملك –فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبي الله من السجن.

هذا هو الصواب أن الضمير في قوله (فأنساه الشيطان ذكر ربه) عائد على الناجي، كما قال مجاهد، ومحمد بن إسحاق وغير واحد.... (التفسير).

– قال الخازن:... والقول الثاني: وهو قول أكثر المفسرين أن هاء الكناية ترجع إلى يوسف، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق مثله في دفع الضرر وتلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فإن الاستعانة بالمخلوق في دفع الضرر جائزة إلا أنه لما كان مقام يوسف أعلى

=

=

المقامات ورتبته أشرف المراتب وهي منصب النبوة والرسالة لا جرم صار يوسف مؤاخذا بهذا القدر فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

- وقال القرطبي: قوله تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربه) الضمير في أنساه) فيه قولان:

أحدهما: أنه عائد إلى يوسف، أي: أنساه الشيطان ذكر الله، وذلك لما قال يوسف لساقي الملك (اذكرني عند ربك).نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق فعوقب باللبث.

وقيل: إن الهاء تعود على الناجي، فهو الناسي، أي: أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف لربه.

- قال ابن تيمية مبينا ضعف القول الثاني: قال... قال تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربه).

قيل أنسي يوسف ذكر ربه لما قال (اذكرني عند ربك).

وقيل: بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه وهذا هو الصواب.

فإنه مطابق لقوله (اذكرني عند ربك) قال تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربه).

والضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك.

ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه؛ بل كان ذاكرا لربه. وقد دعاهما قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بربه وقال لهما (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وقال لهما قبل ذلك (لا يأتيكما طعام ترزقانه) أي في الرؤيا (إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) يعني التأويل (ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون

=

=

بالله وهم بالآخرة هم كافرون).

ثم قال: والذين قالوا ذلك القول قالوا: كان الأولى أن يتوكل على الله ولا يقول اذكرني عند ربك. فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين. فيقال:

ليس في قوله (اذكرني عند ربك) ما يناقض التوكل.

بل قد قال يوسف (إن الحكم إلا لله) كما أن قول أبيه (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) لم يناقض توكله؛ بل قال: (وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون).

وأيضا: فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين والمخلص لا يكون مخلصا مع توكله على غير الله.

فإن ذلك شرك ويوسف لم يكن مشركا لا في عبادته ولا توكله بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده.

وقوله (اذكرني عند ربك).... ليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به؛ ليعلم حاله ليتبين الحق ويوسف كان من أثبت الناس. ولهذا بعد أن طلب (وقال الملك ائتوني به) قال (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم) فيوسف يذكر ربه في هذه الحال كما ذكره في تلك فلم يكن في قوله له (اذكرني عند ربك) ترك لواجب ولا فعل لمحرم حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين.

ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه؛ ليتم بذلك صبره وتقواه فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال.

ولهذا قال (أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا

=

=

يضيع أجر المحسنين) ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعا من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى وفاته الأفضل باتفاق الناس. (مجموع الفتاوى).

- وقال أبو حيان:... فالمعنى أن يوسف عليه السلام قال لساقي الملك حين علم أنه سيعود إلى حالته الأولى مع الملك: اذكرني عند الملك أي: بعلمي ومكانتي وما أنا عليه مما آتاني الله، أو اذكرني بمظلمتي وما امتحنت به بغير حق.

وهذا من يوسف على سبيل الاستعانة والتعاون في تفريج كربه، وجعله بإذن الله وتقديره سببا للخلاص كما جاء عن عيسى عليه السلام: (من أنصاري إلى الله) وكما كان الرسول يطلب من يحرسه.

والذي أختاره أن يوسف إنما قال لساقي الملك: اذكرني عند ربك ليتوصل إلى هدايته وإيمانه بالله، كما توصل إلى إيضاح الحق للساقي ورفيقه.

وقال أبو شهبة:... وأغلب الظن عندي: أن هذا من الإسرائيليات، فقد صورت سجن يوسف على أنه عقوبة من الله لأجل الكلمة التي قالها، مع أنه عليه السلام لم يقل هجرا، ولا منكرا، فالأخذ في أسباب النجاة العادية، وفي أسباب إظهار البراءة والحق، لا ينافي قط التوكل على الله تعالى، والبلاء للأنبياء ليس عقوبة، وإنما هو لرفع درجاتهم، وليكونوا أسوة وقدوة لغيرهم، في باب الابتلاء، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أشد الناس بلاء الأنبياء، فالأمثل، فالأمثل).

واختلفوا في معنى «البضع»، على أقوال:

أحدها: أن "البضع": ما بين الثلاث إلى الخمس، حكاه الزجاج.

الثاني: ما بين الثلاث إلى السبع. وهذا قول أبي بكر الصديق، وقطرب، وحكاه البغوي عن مجاهد.

الثالث: ما بين الثلاث إلى التسع. قاله مجاهد، وحكاه البغوي عن قتادة، وحكاه

=

=

الزجاج عن الأصمعي ورجّحه.

قال الزجاج:"واشتقاق «البضع» والبضعة من قطعت الشيء فمعناه القطعة ممن العدد، فجعل لما دون العشرة من الثلاث إلى التسع".

الرابع: أن البضع: من الواحد إلى العشرة. قاله الأخفش.

الخامس: ما دون العشرة. وهذا القول رواه ابن جريج عن ابن عباس ، وبه قال الفراء.

قال الفراء:"ذكروا أنه لبث سبعا بعد خمس، و «البضع» ما دون العشرة".

قال الطبري:"والصواب في «البضع»: من الثلاث إلى التسع، إلى العشر، ولا يكون دون الثلاث. وكذلك ما زاد على العقد إلى المئة، وما زاد على المئة فلا يكون فيه «بضع»".

وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجونًا أقوال:

أحدها: سبع سنين، قاله قتادة ، وابن جريج ، ووهب بن منبه.

الثاني: أنه لبث اثنتي عشرة سنة، قاله ابن عباس.

الثالث: لبث أربعة عشرة سنة، قاله الضحاك ، وطاوس.

قال البغوي:"وأكثر المفسرين على أن «البضع» في هذه الآية: سبع سنين، وكان قد لبث قبله خمس سنين، فجملته اثنتا عشرة سنة".

قال السمعاني:"الأكثرون: على أن بضع سنين هاهنا: سبع سنين وقد كان لبث من قبل خمس سنين؛ فمكث فيه [اثنتي عشرة] سنة".

وقال وهب:"أصاب أيُّوب البلاء سبع سنين، وترك في السجن يوسف سبع سنين، وعذب بختنصر، فحُوِّل في السباع سبع سنين".

قال الكلبي:"حبس سبع سنين بعد الخمس السنين التي قال فيها: {اذكرني عند ربك}".

=

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣).

{وَقَالَ الْمَلِك} مَلِك مِصْر الرَّيَّان بْن الْوَلِيد {إِنِّي أَرَى} أَيْ رَأَيْت {سَبْع بَقَرَات سِمَان يَأْكُلهُنَّ} يَبْتَلِعهُنَّ {سَبْع} مِنْ الْبَقَر {عِجَاف} جَمْع عَجْفَاء {وَسَبْع سُنْبُلَات خُضْر وَأُخَر} أَيْ سَبْع سُنْبُلَات {يَابِسَات} قَدْ الْتَوَتْ عَلَى الْخُضْر وَعَلَتْ عليها {يأيها الْمَلَأ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ} بَيِّنُوا لِي تَعْبِيرهَا {إنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ} فَاعْبُرُوهَا.

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤).

{قالوا} هذه {أضغاث أحلام} أخلاط {وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين}.

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥).

{وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا} أَيْ مِنْ الْفَتَيَيْنِ وَهُوَ السَّاقِي {وَادَّكَرَ} فِيهِ إبْدَال التَّاء فِي الْأَصْل دَالًا وَإِدْغَامهَا فِي الدَّال أَيْ تَذَكَّرَ {بَعْد أُمَّة} حِين حَال يُوسُف {أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بتأويله فأرسلون} فَأَرْسَلُوهُ فَأَتَى يُوسُف فَقَالَ.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦).

يَا {يُوسُف أَيّهَا الصِّدِّيق} الْكَثِير الصِّدْق {أَفْتِنَا في سبع بقرات سمان يأكلهن

=

قلت: ظاهر الآيات لا يدل على أن هناك خمسا قبل ذلك، والله أعلم.

قال المفسرون: "وإنما لبث في السجن بضع سنين، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق جل وعلا".

سبع عجاف وسبع سُنْبُلَات خُضْر وَأُخَر يَابِسَات لَعَلِّي أَرْجِع إلَى النَّاس} أَيْ الْمَلِك وَأَصْحَابه {لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ} تَعْبِيرهَا.

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧).

{قَالَ تَزْرَعُونَ} أَيْ ازْرَعُوا {سَبْع سِنِينَ دَأَبًا} مُتَتَابِعَة وَهِيَ تَأْوِيل السَّبْع السِّمَان {فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ} أَيْ اُتْرُكُوهُ {فِي سُنْبُله} لِئَلَّا يَفْسُد {إلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ} فَادْرُسُوهُ.

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨).

{ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْد ذَلِكَ} أَيْ السَّبْع الْمُخْصِبَات {سَبْع شِدَاد} مُجْدِبَات صِعَاب وَهِيَ تَأْوِيل السَّبْع الْعِجَاف {يَأْكُلْنَ مَا قَدِمْتُمْ لَهُنَّ} مِنْ الْحَبّ الْمَزْرُوع فِي السِّنِينَ الْمُخْصِبَات أَيْ تَأْكُلُونَهُ فِيهِنَّ {إلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ} تَدَّخِرُونَ.

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩).

{ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْد ذَلِكَ} أَيْ السَّبْع الْمُجْدِبَات {عَام فِيهِ يُغَاث النَّاس} بِالْمَطَرِ {وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} الْأَعْنَاب وَغَيْرهَا لِخِصْبِهِ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ} [يوسف: ٤٣]، أي:"وقال الملك: إني رأيت في منامي سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع بقرات نحيلات من الهُزال، ورأيت سبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسات".

قوله «عجاف» جمع عجفاء والعجف- بفتح العين والجيم- ذهاب السمن، يقال: هذا رجل أعجف وامرأة عجفاء، إذا ظهر ضعفهما وهزالهما.

=

=

قال أبو حيان: العجفاء: المهزولة جدا.

والآية شروع في حكاية الرؤيا التي رآها ملك مصر في ذلك الوقت.

قال ابن كثير: هذه الرؤيا من ملك مصر، مما قدر الله تعالى أنها كانت سببا لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززا مكرما، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءها، وقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك.

- وقال السعدي: لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، الذي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به.

تنبيه: كان ابتداء بلاء يوسف عليه السلام بسبب رؤيا رآها فنشرها وأظهرها، وكان سبب نجاته أيضا رؤيا رآها الملك فأظهرها، ليعلم أن الله يفعل ما يريد؛ فكما جعل بلاءه في إظهار رؤيا جعل نجاته في إظهار رؤيا؛ ليعلم الكافة إن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء.

قال الطبري:"وقال ملك مصر: إني أرى في المنام سبع بقرات سمان يأكلهن سبع من البقر عجاف، وأرى سبع سنبلات خضر في منامي، وسبعا أخر من السنبل {يابسات}".

عن ابن إسحاق، قال: "ثم إن الملك الريان بن الوليد رأى رؤياه التي رأى فهالته، وعرف أنها رؤيا واقعة، ولم يدر ما تأويلها، فقال للملأ حوله من أهل مملكته: {إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف}، إلى قوله: {بعالمين}".

عن السدي، قال: "إن الله أرى الملك في منامه رؤيا هالته، فرأى سبع بقرات سمان

=

يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، فجمع السحرة والكهنة والحزاة والقافة، فقصها عليهم، فقالوا: {أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين} ".

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ} [يوسف: ٤٣]، أي:"يا أيها السادة والكبراء أخبروني عن هذه الرؤيا".

قال الطبري:"يقول: يا أيها الأشراف من رجالي وأصحابي {أفتوني في رؤياي}، فاعبروها".

قال القرطبي:"فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر، وأشراف قومه، فقال: {يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ}، فقص عليهم".

قال الزجاج:"«الملأ»: الذين يرجع إليهم في الأمور، ويقتدي بآرائهم".

قال أبو مالك:"{الملأ}، يعني: الأشراف من قومه".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ} [يوسف: ٤٣]، أي:"إن كنتم للرؤيا تُفَسِّرون".

قال الطبري:"يقول: {إن كنتم للرؤيا} عبرة".

عبرت الرؤيا:"إذا فسرتها، والتعبير هو التفسير -هاهنا-".

قال الزجاج:"معنى: «عبرت الرؤيا وعبرتها»: خبرت بآخر ما يؤول إليه أمرها، واشتققته من عبر النهر، وهو شاطئ النهر، فتأويل «عبرت النهر»، أي: بلغت إلى عبره، أي: شاطئه، وهو آخر عرضه".

و"الرؤيا":هو ما يتخيله الإنسان في المنام، وقد قال النبيﷺ في الرؤيا الصادقة: "تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ".

وروي عن النبي أنه قال:"إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب" ، ولهذا

=

الحديث معنيان:

أحدهما: أن تقارب الزمان هو استواء الليل والنهار؛ والطباع عند استواء الليل والنهار أصح؛ فالرؤيا أصدق.

والمعنى الثاني: أن تقارب الزمان هو تقارب الساعة. وقد روي في بدء وحي النبي: "أنه كان إذا رأى الرؤيا جاءت مثل فلق الصبح.

وهذه الرؤيا رآها الملك الأكبر الوليد بن الريان، وفيها لطف من وجهين:

أحدهما: أنها كانت سببًا لخلاص يوسف من سجنه.

الثاني: أنها كانت نذيرًا بجدب أخذوا أهبته وأعدوا له عدته.

قوله تعالى: {قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ} [يوسف: ٤٤]، أي:"قالوا: رؤياك هذه أخلاط أحلام لا تأويل لها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال الملأ الذين سألهم ملك مصر عن تعبير رؤياه: رؤياك هذه {أضغاث أحلام}، يعنون أنها أخلاطٌ، رؤيا كاذبةٌ لا حقيقة لها".

وفي تفسير قوله تعالى: {قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ} [يوسف: ٤٤]، وجوه:

أحدها: ألوان أحلام، قاله الحسن.

الثاني: أهاويل أحلام. رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد.

الثالث: أكاذيب أحلام، قاله ابن عباس-في إحدى الروايات- ، والضحاك.

قال ابن جريج: "قال لي عطاء: إن أضغاث الأحلام: الكاذبة المخطئة من الرؤيا".

وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: "إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعني بها الكاذبة".

الرابع: شبهة أحلام، قاله ابن عباس.

الخامس: أخلاط أحلام. قاله معمر ، وقتادة ، وبه قال الهروي ، وابن قتيبة.

=

قال الثعلبي:"أي: أحلام مختلطة مشتبهة، أهاويل أباطيل، واحدها: ضغث، وأصله: الحزمة من الزرع والحشيش".

قال ابن قتيبة:"مثل «أضغاث النبات» يجمعها الرجل فيكون فيها ضروب مختلفة. والأحلام واحدها حلم".

قال الزجاج:"و «الضغث» في اللغة: الحزمة والباقة من الشيء، كالبقل وما أشبهه، فقالوا له: رؤياك أضغاث أحلام، أي: حزم أخلاط ليست برؤيا بينة".

قال أبو عبيدة {أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ}: واحدها: «ضغث» -مكسور-، وهى ما لا تأويل لها من الرؤيا، أراه جماعات تجمع من الرؤيا كما يجمع الحشيش، فيقال: ضغث، أي: ملء كفّ منه، قال [عوف بن الخرع التّيميّ]:

وأسفل مني نهدة قدر بطنها   وألقيت ضغثا من خلى متطيّب

[أي: تطيبت لها أطايب الحشيش]، وفى آية أخرى: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ} [ص: ٤٤]".

وحكي الواحدي عن بعضهم أنا:"معنى قوله {وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ} لها تأويل يعلمه غيرنا، فالأضغاث على هذا المذهب: الجماعات من الرؤيا التي يجوز أن تصح وأن تبطل، واحتجوا على هذا المذهب، بقول الساقي: {أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ} قالوا: ففي هذا دليل على أن الملأ اعترفوا بالعجز عن الجواب، لأنهم لو كانوا بغير هذا الوصف لم يقل الساقي ما قاله، وعلى هذا؛ الملأ قالوا للملك: ما رأيته جماعات أحلام كثيرة لا علم لنا بتأويلها، واعترفوا بالعجز عنها".

والقول الخامس أرجح، وذلك لعدة اعتبارات:

الأول: أنه قول عامة المفسرين من السلف ومن بعدهم.

الثاني: أنهم وصفوا رؤيا الملك بكونها أضغاث أحلام، أي: لا تأويل لها.

=

الثالث: أنه لا يتصور في هؤلاء الملأ الذين هم أهل مشورته أنهم لا يعرفونها، وأيضًا أنهم سيعترفون بعجزهم عن تأويلها.

والذي يظهر أنهم علموا من تأويلها ما يسوء الملك فأرادوا أن يصرفوه عن تطلب تأويلها فقالوا {أضغاث أحلام..}، فجحدوا على التأويل، وأعرضوا ولم يعترفوا بالعجز، بل وصفوا الأحلام بالاختلاط والاشتباه.

و «الأضغاث»: جمع واحده: ضغث، و «الضغث»: الحزمة من الحشيش المجموع بعضه إلى بعض وقيل هو ملء الكف، ومنه قوله تعالى: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا} [ص: ٤٤]، وقال ابن مقبل:

خَوْدٌ كَأَنَّ فِرَاشَهَا وُضِعَتْ بِهِ أَضْغَاثُ رَيْحَانٍ غَدَاةَ شَمَالِ

ومنه قول الآخر:

يَحْمِي ذِمَارَ جَنِينٍ قَلَّ مَانِعُهُ طَاوٍ كَضِغْثِ الخَلا فِي البَطْنِ مُكْتَمِن

و «الأحلام»: جمع: حُلم، و «الحُلم» الرؤيا في النوم، وأصله الأناة، ومنه الحلم ضد الطيش فقيل لما يرى في النوم حلم لأنها حال أناة وسكون.

قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ} [يوسف: ٤٤]، أي:"وما نحن بتفسير الأحلام بعالمين".

قال الطبري:"يقول: وما نحن بما تئول إليه الأحلام الكاذبة بعالمين".

قال أبو حيان: الظاهر أنهم نفوا عن أنفسهم العلم بتأويل الأحلام أي: لسنا من أهل تعبير الرؤيا.

ويجوز أن تكون الأحلام المنفي علمها أرادوا بها الموصوفة بالتخليط والأباطيل أي: وما نحن بتأويل الأحلام التي هي أضغاث بعالمين أي: لا يتعلق علم لنا بتأويل تلك، لأنه لا تأويل لها إنما التأويل للمنام الصحيح، فلا يكون في ذلك نفي للعلم بتأويل المنام الصحيح، ولا تصور علمهم.

=

=

- قال الشوكاني: قوله تعالى (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) قال الزجاج: المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له، لا مطلق العلم بالتأويل.

وقيل: إنهم نفوا عن أنفسهم علم التعبير مطلقا، ولم يدعوا أنه لا تأويل لهذه الرؤيا.

وقيل: إنهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها، ولم يكن ما ذكروه من نفي العلم حقيقة.

- قال السعدي: قوله تعالى (قالوا أضغاث أحلام) أي أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، بما ليس بعذر، ثم قالوا (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإنا لا نعبرها.

فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا.

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ} [يوسف: ٤٥]، أي:"وقال الذي نجا من القتل من صاحبَي يوسف في السجن وتذكر بعد مدة ما نسي من أمر يوسف: أنا أخبركم بتأويل هذه الرؤيا".

وفي قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ} [يوسف: ٤٥]، وجوه:

أحدها: يعني بعد حين، قاله ابن عباس ، والحسن ، وأبو رزين ، وأبو بكر بن عياش ، ومجاهد ، وابن كثير ، والسدي.

قال ابن عباس:"بعد حين، وهو: الأجل الذي يعلمه الله".

=

=

الثاني: بعد حقبة من الدهر. قاله عكرمة ، ومجاهد.

الثالث: بعد سنين. قاله سعيد بن جبير ، وحكاه ابن جريج عن ابن عباس.

الرابع: بعد نسيان، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وابن عباس ، ومجاهد:

عن ابن عباس:"أنه قرأ «بَعْدَ أَمَةٍ»: ويفسرها، بعد نسيان".

وفيها قراءة ثالثة: «وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمْهٍ»، مجزومة الميم مخففة. هذه قراءة مجاهد.

الخامس: بعد أمة من الناس، قاله الحسن.

قال مالك بن دينار: "وكان الحسن يقرأ هذه الآية: «أنا آتيكم بتأويله»، فقيل له: يا أبا سعيد أنا أنبئكم بتأويله قال: أهو كان نبيهم".

قال الحسن: "ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان في العبوديّة وفي السجن وفي الملك ثمانين سنة، ثم جمع الله ﷻ شمله، وعاش بعد ذلك ثلاثًا وعشرين سنة".

قوله تعالى: (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) أي: قال الساقي للملك وحاشيته: أنا أخبركم بتأويله: بتفسير رؤيا الملك التي خفي تفسيرها على الملأ من قومه.

فأرسلون، أي: فابعثوني إلى من عنده العلم الصحيح الصادق بتفسيرها.

ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه، وهو يوسف عليه السلام لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد حصول تأويله للرؤيا، فيكون ذلك أوقع في قلوبهم، وأسمى لشأن يوسف عليه السلام.

{فَأَرْسِلُونِ} أي:"فابعثوني إلى يوسف لآتيكم بتفسيرها".

قال مقاتل:"إلى يوسف".

قال ابن عباس: "لم يكن السجن في المدينة، فانطلق الساقي إلى يوسف، فقال: {أفتنا في سبع بقرات سمان} الآيات".

=

=

قوله تعالى: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ} [يوسف: ٤٦]، أي:"في الكلام محذوف دل عليه السياق وتقديره: فأرسلوه فانطلق الساقي إلى السجن ودخل على يوسف وقال له: يا يوسف يا أيها الصديق، والصديق مبالغة من الصدق، والصديق: هو الإنسان الذي صار الصدق دأبه وشيمته في كل أحواله، ووصفه بذلك لأنه جرب منه الصدق التام أيام أن كان معه في السجن، وعندما وصل الرجل إلى يوسف قال له: يوسف أيها الصديق فسِّر لنا رؤيا مَن رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات هزيلات، ورأى سبع سنبلات خضر وأخر يابسات".

- قال ابن عاشور: و (الصديق) أصله صفة مبالغة مشتقة من الصدق، كما تقدم عند قوله تعالى (وأمه صديقة).

وغلب استعمال وصف الصديق استعمال اللقب الجامع لمعاني الكمال واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى، لأن تلك المعاني لا تجتمع إلا لمن قوي صدقه في الوفاء بعهد الدين.

وأحسن ما رأيت في هذا المعنى كلمة الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن قال: "الصديقون هم دوين الأنبياء".

وهذا ما يشهد به استعمال القرآن في آيات كثيرة مثل قوله (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين).

وقوله (وأمه صديقة).

ومنه ما لقب النبي ﷺ أبا بكر بالصديق في قوله في حديث رجف جبل أحد (أسكن أحد فإنما عليك نبيء وصديق وشهيدان)

من أجل ذلك أجمع أصحاب رسول الله ومنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجهه على أن أبا بكر - رضي الله عنه - أفضل الأمة بعد النبي ﷺ.

=

=

وقد جمع الله هذا الوصف مع صفة النبوءة في قوله (واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا).

قال ابن كثير:... فعند ذلك ذكر له يوسف، عليه السلام، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك.

(أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) أي: فسر لنا تلك الرؤيا التي رآها الملك، والتي عجز الناس عن تفسيرها، وهي أن الملك رأى في منامه «سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات.

عن قتادة:"قوله: {أفتنا في سبع بقرات سمان}، وهي: السنون المخصبات" ، " يأكلهن سبع عجاف وهن السنون المحول الجدوب" ، {وسبع سنبلات خضر}: وهي السنون المخاصيب تخرج الأرض نباتها وزرعها وثمارها" ، {وأخر يابسات}: المحول الجدوب، فلا تخرج الأرض زرعها ولا ثمارها".

واحتمل تسميته بـ"الصديق"، وجهين:

أحدهما: لصدقه في تأويل رؤياهما.

قال مقاتل:"يعني: أيها الصادق فيما عبرت لي ولصاحبي".

الثاني: لعلمه بنبوته. والفرق بين الصادق والصديق أن الصادق في قوله بلسانه، والصديق من تجاوز صدقه لسانه إلى صدق أفعاله في موافقة حاله لا يختلف سره وجهره، فصار كل صدّيق صادقًا وليس كل صادق صدّيقًا.

قوله تعالى: {لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٤٦]، أي:"لعلي أرجع إلى الملك وأصحابه فأخبرهم؛ ليعلموا تأويل ما سألتك عنه، وليعلموا مكانتك وفضلك".

أي: فسر لنا هذه الرؤيا «لعلى أرجع إلى الناس» وهم الملك وأهل الحل والعقد

=

=

في مملكته، «لعلهم يعلمون» تأويلها، فينتفعون به، وترتفع منزلتك عندهم.
وهنا تجد يوسف عليه السلام لا يكتفى بتأويل الرؤيا تأويلا مجردا بل يؤولها تأويلا صادقا صحيحا، ومعه النصح والإرشاد إلى ما يجب عمله في مثل هذه الأحوال.
- قال الرازي: وإنما قال [لعلي أرجع إلى الناس] لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة، فخاف أن يعجز هو أيضا عنها فلهذا السبب قال لعلي.
قال مقاتل:"ثم قال الساقي: {لعلي أرجع إلى الناس}، يعني: أهل مصر. {لعلهم} يعني: لكي {يعلمون} تعبيرها، يعني: تعبير هذه الرؤيا".
قال الطبري:"يقول: كي أرجع إلى الناس فأخبرهم = (لعلهم يعلمون) يقول: ليعلموا تأويل ما سألتك عنه من الرؤيا".
قال الزجاج:"أي: لعلهم يعلمون تأويل رؤيا الملك، ويجوز أن يكون: لعلهم يعلمون مكانك فيكون ذلك سبب خلاصك من الحبس".
عن السدي: "{لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون}، تأويلها".
قوله تعالى: {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا} [يوسف: ٤٧]، أي:"قال يوسف لسائله عن رؤيا الملك: تفسير هذه الرؤيا أنكم تزرعون سبع سنين متتابعة جادِّين ليَكْثُر العطاء".
قال الطبري:"قال يوسف لسائله عن رؤيا الملك: تزرعون هذه السبع السنين، كما كنتم تزرعون سائر السنين قبلها على عادتكم فيما مضى.
و"الدأب"، العادة، ومن ذلك قول امرئ القيس:

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا   وَجَارَتِها أُمِّ الرَّبَابِ بِمأْسَلِ

يعني كعادتك منها".
قال الزجاج:"«الدأب»: الملازمة للشيء والعادة".
قال المراغي:"أي: قال يوسف للملك وملئه مبينا لهم ما يجب عليهم أن يعملوه
=

=

لتلافى ما تدل عليه الرؤيا من الخطر على البلاد وأهلها قبل وقوع تأويلها، من زراعة القمح سبع سنين متوالية بلا انقطاع".

قوله تعالى: {فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ} [يوسف: ٤٧]، أي:"فما حصدتم منه في كل مرة فادَّخِروه، واتركوه في سنبله؛ ليتمَّ حفظه من التسوُّس، وليكون أبقى".

قال المراغي:"ثم بادخار ما يحصد منه فى كل زرعة فى سنابله على طريق تحفظه من السوس بتسرب الرطوبة إليه حتى يكون القمح لغذاء الناس والتبن للدواب حين الحاجة إليه".

قال الطبري:"وهذا مشورة أشار بها نبي الله ﷺ على القوم، ورأيٌ رآه لهم صلاحًا، يأمرهم باستبقاء طعامهم".

عن السدي: "{قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله}، قال: هو أبقى له".

قال ابن زيد:"فلم يرض أن أفتاهم بالتأويل حتى أمرهم بالرفق، فقال: سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله، لأن الحب إذا كان في سنبله لا يؤكل".

قوله تعالى: {إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ} [يوسف: ٤٧]، أي:"إلا قليلا مما تأكلونه من الحبوب".

قال المراغي:"إلا قليلا من ذلك تأكلونه فى كل سنة مع الاقتصاد والاكتفاء بما يسد الحاجة ويكفى دفع المخمصة، وهذه السنون السبع هى تأويل البقرات السبع السمان. أما السنبلات الخضر فعلى حقيقتها فى كون كل سنبلة تأويلا لزرع سنة".

قال الثعلبي:"وإنما أشار عليهم بذلك؛ ليبقى ولا يفسد".

- قال ابن كثير: أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه في سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، =

=

وليكن قليلا قليلا لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع متواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي يأكلن السمان؛ لأن سنى الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب.

- وفي هذه الجملة إرشاد لهم إلى أن من الواجب عليهم أن يقتصدوا في مأكولاتهم إلى أقصى حد ممكن لأن المصلحة تقتضي ذلك.

- **قال القرطبي**: هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئا منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة ولا خلاف، فإن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ليحصل لهم التمكن من معرفة الله- تعالى- وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله- ﷻ- ورحمة رحم بها عباده.

قال قتادة:"قال لهم نبي الله يوسف- ﷺ-: {تزرعون سبع سنين دأبا} إلى قوله {مما تأكلون}، أراد نبي الله يوسف البقاء".

قال الواحدي:"لأنه أبقى له وأبعد من الفساد، وذلك لأنه إذا ديس ثم طال مكثه فسد، فأشار عليهم بما فيه الصلاح".

واختلفوا في أن جواب يوسف كان من علمه أو بوحي من الله تعالى؟ وفيه قولان:

أحدهما: أن جوابه -غم- مبنيّ على ما علّمه الله من تأويل الرؤيا.

الثاني: أنه كان بوحي الله، واحتجوا على هذه بقوله: {ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ} وهذا العام لم يعلمه إلا بالوحي من أجل أنه لم يدخل في سؤال السائل.

والظاهر: أن الإخبار عن سني الجدب بعد سني الخصب هو من قبيل التعبير لرؤيا الملك، وأما قوله {ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} فهو

=

=

من الوحي الذي آتاه الله دلالة على نبوته وحجة على صدقه. -والله تعالى أعلم-.

قوله تعالى: {ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ} [يوسف: ٤٨]، أي:"ثم يأتي بعد هذه السنين الخِصْبة سبع سنين شديدة الجَدْب".

قال الطبري: "يقول: ثم يجيء من بعد السنين السبع التي تزرعون فيها دأبًا، سنون سبع شداد جدوب قحطة".

قال الواحدي:"يعني سبع سنين مجدبات، والشداد الصعاب التي يشتد على الناس".

قال قتادة: "وهن السنون المحمول، الجدوب".

عن ابن زيد، عن أبيه:"أن يوسف، النبي ﷺ، في زمانه كان يضع لرجل طعام اثنين فيقربه إلى الرجل فيأكل نصفه ويدع نصفه، حتى إذا كان يوما قربه له فأكله كله، فقال يوسف: هذا أول يوم من السبع الشداد".

قوله تعالى: {يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ} [يوسف: ٤٨]، أي:"تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء".

قال الطبري: "يقول: يؤكل فيهنّ ما قدمتم في إعداد ما أعددتم لهن في السنين السبعة الخصبة من الطعام والأقوات".

قال قتادة:"يقول: يأكلن ما كنتم اتخذتم فيهن من القوت".

قال ابن الأنباري: "هذا من المجاز الذي يعني به: يفنين ما قدمتم فيه لهن، فشَبّه الإفناء بالأكل، كما تقول العرب: قد أكل السيرُ لحمَ الناقة، وهم يعنون ذهب به وأفناه. وأنشد لذي الرمة:

وقد أَكَلَ الوجِيفُ بكلّ خَرْق عرائِكَهَا وهُلِّلَت الحُرُومُ".

وقال غيره: إنما قال للسنين (يأكلن) لوقوع الأكل فيها، كما يقال: ليل نائم. وكقوله:

=

=
فنام لَيْلِي تَجَلّى هَمِّي.
ومثله كثير".
قوله تعالى: {إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ} [يوسف: ٤٨]، أي:"إلا القليل الذي تدخرونه وتخبئونه للزراعة".
قال الطبري: "يقول: إلا يسيرًا مما تحرزونه، والإحصان: التصيير في الحصن، وإنما المراد منه الإحراز".
قال أبو عبيدة:"أي: مما تحرزون".
عن ابن عباس: قوله: "{إلا قليلا مما تحصنون}، يقول: تخزنون".
عن قتادة: قوله: "{إلا قليلا مما تحصنون}، أي: مما تدخرون".
قوله تعالى: {ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ} [يوسف: ٤٩]، أي:"ثم يأتي من بعد هذه السنين المجدبة عام يغاث فيه الناس بالمطر، فيرفع الله تعالى عنهم الشدة".
قال ابن عباس:"يقول: يصيبهم فيه غيث".
قال قتادة:"يغاث الناس بالمطر".
قال الطبري: أي:"بالمطر والغيث".
قال ابن كثير:"ثم بشرهم بعد الجَدْب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك {عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ} أي: يأتيهم الغيث، وهو المَطرُ، وتُغل البلاد".
عن قتادة، قوله: "{ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس}، قال: فيه يغاثون بالمطر".
قال ابن عباس:"أخبرهم بشيء لم يسألوه عنه، وكان الله قد علمه إياه، {عام فيه يغاث الناس}، بالمطر".
قوله تعالى: {وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [يوسف: ٤٩]، أي:"ويعصرون فيه الثمار من كثرة
=

=

الخِصْب والنماء".

قال الطبري:"وهذا خبرٌ من يوسف عليه السلام للقوم عما لم يكن في رؤيا ملكهم، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله دلالةً على نبوته وحجة على صدقة".

قال ابن كثير:"ويَعصرُ الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من زيت ونحوه، وسكر ونحوه حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضًا".

قال قتادة:"ثم زاده الله علم سنة لم يسألوه عنها، فقال: {ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون}".

وفي قوله تعالى: {وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [يوسف: ٤٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعصرون العنب والزيتون من خصب الثمار، قاله ابن عباس ، وقتادة.

قال ابن عباس:"يقول: يصيبهم غيث، فيعصرون فيه العنب، ويعصرون فيه الزيت، ويعصرون من كل الثمرات".

وقال مجاهد:"يعصرون أعنابهم".

وعن السدي: "{وفيه يعصرون}، قال: العنب".

وعن الضحاك: "{وفيه يعصرون}، قال: الزيت".

الثاني: أي: فيه يَحْلِبون المواشي من خصب المراعي، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وقرأ «وَفِيهِ تَعْصرُونَ» بالتاء، يعني: تحتلبون.

قال الطبري: وهذا القول" لا معنى له، لأنه خلاف المعروف من كلام العرب، وخلاف ما يعرف من قول ابن عباس".

الثالث: يعصرون السحاب بنزول الغيث وكثرة المطر، من قوله تعالى: {وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجَّاجًا} [النبأ: ١٤]. قاله عيسى بن عمر الثقفي.

وقرئ: «وَفِيهِ يُعْصَرُونَ»، بمعنى: يمطرون.

الرابع: تنجون، مأخوذ من العُصْرة وهي المنجاة، قاله أبو عبيدة ، وذكره الزجاج ،

=

=

ومنه قول الشاعر:

صَادِيًا يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ المَنْجُودِ

أي: المقهور المغلوب، وقال لبيد:

فبات وأسرى القوم آخر ليلهم وما كان وقّافا بغير معصّر

قال الزجاج:"يقال: فلان في عصر وفي عصر، إذا كان في حصن لا يقدر عليه".

واعترض الطبري على هذا الوجه قائلا:"وكان بعض من لا علم له بأقوال السلف من أهل التأويل، ممن يفسر القرآن برأيه على مَذهب كلام العرب، يوجه معنى قوله: {وفيه يعصرون} إلى: وفيه ينجون من الجدب والقحط بالغيث... وذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين".

الخامس: تحسنون وتفضلون. ذكره الماوردي ، ومنه قول الشاعر:

لو كان في أملاكنا ملك يعصر فينا مثل ما تعصر

أي: يحسن.

قال الماوردي:"وهذا القول من يوسف غير متعلق بتأويل الرؤيا وإنما هو استئناف خبر أطلقه الله تعالى عليه من آيات نبوته".

- قال ابن عاشور: قوله تعالى (ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس) فهو بشارة وإدخال المسرة والأمل بعد الكلام المؤيس، وهو من لازم انتهاء مدة الشدة، ومن سنن الله تعالى في حصول اليسر بعد العسر. (التفسير).

وحاصل تفسير يوسف عليه السلام لتلك الرؤيا: أنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضر، بالسنين السبع المخصبة. وفسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بالسنين السبع المجدبة التي تأتي في أعقاب السنين المخصبة وفسر ابتلاع البقرات

=

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠).

{وَقَالَ الْمَلِك} لَمَّا جَاءَهُ الرَّسُول وَأَخْبَرَهُ بِتَأْوِيلِهَا {ائْتُونِي بِهِ} أَيْ بِالَّذِي عَبَّرَهَا {فَلَمَّا جَاءَهُ} أَيْ يُوسُف {الرَّسُول} وَطَلَبَهُ لِلْخُرُوجِ {قَالَ} قَاصِدًا إظْهَار بَرَاءَته {ارْجِعْ إلَى رَبّك فَاسْأَلْهُ} أَنْ يَسْأَل {مَا بَال} حَال {النِّسْوَة اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيهنَّ إنَّ رَبِّي} سَيِّدِي {بِكَيْدِهِنَّ عَلِيم} فَرَجَعَ فَأَخْبَرَ الْمَلِك فَجَمَعَهُنَّ.

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١).

{قَالَ مَا خَطْبكُنَّ} شَأْنكُنَّ {إذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُف عَنْ نَفْسه} هَلْ وَجَدْتُنَّ مِنْهُ مَيْلًا إلَيْكُنَّ {قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوء قَالَتْ امْرَأَة الْعَزِيز الْآن حَصْحَصَ} وَضَحَ {الْحَقّ أَنَا رَاوَدْته عَنْ نَفْسه وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} فِي قَوْله

=

العجاف للبقرات السمان، بأكلهم ما جمع في السنين المخصبة، في السنين المجدبة.

ولقد كان هذا التأويل لرؤيا الملك تأويلا صحيحا صادقا من يوسف عليه السلام بسببه أنقذ الله- تعالى- مصر من مجاعة سبع سنين.

- في تفسير يوسف لرؤيا الملك آدابا:

أولا: عدم تعنيف يوسف للناجي من السجينين لكونه لم يذكر شأن يوسف للملك.

ثانيا: عدم اشتراط يوسف أجرا على تأويل الرؤيا.

ثالثا: عدم اشتراط يوسف الخروج قبل تفسيرها.

{هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي} فَأَخْبَرَ يُوسُف بِذَلِكَ فَقَالَ.

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢).

{ذَلِكَ} أَيْ طَلَب الْبَرَاءَة {لِيَعْلَم} الْعَزِيز {أَنِّي لم أخنه} في أهله {بالغيب} حال {وأن الله لا يهدي كيد الخائنين} ثُمَّ تَوَاضَعَ لِلَّهِ فَقَالَ.

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣).

{وَمَا أُبَرِّئ نَفْسِي} مِنْ الزَّلَل {إِنَّ النَّفْس} الْجِنْس {لَأَمَّارَة} كَثِيرَة الْأَمْر {بِالسُّوءِ إِلَّا مَا} بمعنى من {رحم ربي} فعصمه {إن ربي غفور رحيم}(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ} [يوسف: ٥٠].

يقول تعالى إخبارا عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه، التي كان رآها، بما أعجبه وأينقه، فعرف فضل يوسف ﷺ وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال (ائتوني به) أي: أخرجوه من السجن وأحضروه.

قال الطبري:"وقال الملك: ائتوني بالذي عبر رؤياي هذه".

عن السدي قال: "لما أتى الملك رسوله، قال: {ائتوني به}".

قال ابن إسحاق:"فخرج نبو من عند يوسف بما أفتاهم به من تأويل رؤيا الملك حتى أتى الملك، فأخبره بما قال، فلما أخبره بما في نفسه كمثل النهار، وعرف أن الذي قال كائن كما قال، قال: {ائتوني به}".

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} [يوسف: ٥٠]، أي:"جاءه رسول الملك يدعوه قال يوسف للرسول: ارجع إلى سيدك الملك، واطلب منه أن يسأل النسوة اللاتي جرحن =

=

أيديهن عن حقيقة أمرهن وشأنهن معي".

قال ابن إسحاق:"والمرأة التي سجنت بسبب أمرها، عما كان من ذلك".

قال الطبري:"يقول: فلما جاءه رسول الملك يدعوه إلى الملك، قال يوسف للرسول: ارجع إلى سيدك، وأبى أن يخرج مع الرسول وإجابة الملك، حتى يعرف صحة أمره عندهم مما كانوا قرفوه به من شأن النساء، فقال للرسول: سل الملك ما شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، والمرأة التي سجنت بسببها؟".

قال الواحدي:"معنى الآية: فأسأل الملك أن يتعرف ويسأل ما شأن تلك النسوة وحالهن ليعلم صحة براءتي".

قال الصابوني:"أبى عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تُبرأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة، وأن يعلم الناس جميعًا أنه حُبس بلا جرم".

قال الزجاج:"{قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ}، أي: إلى صاحبك، ورب الشيء: صاحبُه".

- قال الشوكاني: أمره بأن يسأل الملك عن ذلك وتوقف عن الخروج من السجن، ولم يسارع إلى إجابة الملك، ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه، وأنه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلما بينا، ولقد أعطي عليه السلام من الحلم والصبر والأناة ما تضيق الأذهان عن تصوره.

- قال ابن عطية: كان هذا الفعل من يوسف أناة وصبرا، وطلبا لبراءة ساحته، وذلك أنه خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة، ويسكت عن أمر ذنبه، فيراه الناس بتلك العين يقولون هذا الذي راود امرأة العزيز.

- والمراد بالسؤال في قوله «ارجع إلى ربك فاسأله» الحث والتحريض على معرفة حقيقة أمر النسوة اللائي قطعن أيديهن.

- وجعل السؤال عن النسوة اللائي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز، وفاء لحق

=

=

زوجها، واحترازا من مكرها، ولأنهن كن شواهد على إقرارها بأنها قد راودته عن نفسه، فقد قالت أمامهن بكل تبجح وتكشف: فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين.

واكتفى بالسؤال عن تقطيع أيديهن، دون التعرض لكيدهن له، سترا لهن، وتنزها منه عليه السلام عن ذكرهن بما يسوؤهن.

- قال ابن عاشور: وجعل السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز تسهيلا للكشف عن أمرها، لأن ذكرها مع مكانة زوجها من الملك ربما يصرف الملك عن الكشف رعيا للعزيز، ولأن حديث المتكأ شاع بين الناس، وأصبحت قضية يوسف عليه السلام مشهورة بذلك اليوم، كما تقدم عند قوله تعالى (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه)، ولأن النسوة كن شواهد على إقرار امرأة العزيم بأنها راودت يوسف عليه السلام عن نفسه، فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك النسوة منتهى الحكمة في البحث وغاية الإيجاز في الخطاب.

- وقد وردت السنة بمدحه على ذلك- أي على امتناعه من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته من براءة ساحته ونزاهة عرضه-:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال (نحن أحق من إبراهيم إذ قال (رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي) متفق عليه.

عن السدي، قال:"لما أتى الملك رسوله فأخبره، قال: {ائتوني به}، فلما أتاه الرسول ودعاه إلى الملك، أبى يوسف الخروج معه {وقال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن} الآية. قال السدي، قال ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه، ما زالت في نفس العزيز منه حاجة! يقول:

=

=

هذا الذي راود امرأته".

قال ابن جريج:"أراد يوسف العذر قبل أن يخرج من السجن".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يرحم الله يوسف إن كان ذا أناة! لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلي لخرجت سريعا، إن كان لحليما ذا أناة!".

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} [يوسف: ٥٠]، أي:"إن ربي وحده هو العليم بمكرهن بي، وكيدهن لي، وهو سبحانه هو الذي يتولى حسابهن على ذلك".

قال الطبري:"يقول: إن الله تعالى ذكره ذو علم بصنيعهن وأفعالهن التي فعلن، بي ويفعلن بغيري من الناس، لا يخفى عليه ذلك كله، وهو من ورَاء جزائهن على ذلك".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} [يوسف: ٥٠]، وجهان:

أحدهما: معناه إن الله بكيدهن عليم.

الثاني: إن سيدي إطفير العزيز، زوج المرأة التي راودتني عن نفسي، ذو علم ببراءتي مما قرفتني به من السوء.

قوله تعالى: {قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ} [يوسف: ٥١]، أي:"قال الملك للنسوة اللاتي جرحن أيديهن: ما شأنكن حين راودتنَّ يوسف عن نفسه يوم الضيافة؟".

إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطبا لهن كلهن -وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز -: (ما خطبكن) أي: شأنكن وخبركن.

=

=

(إذ راودتن يوسف عن نفسه) يوم الضيافة.

والخطب الأمر الجلل... فكأن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن، وهو المعتاد في مثل هذه الأحوال، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه، فهو يواجههن مقررا الاتهام، ومشيرا إلى أمر لهن جلل.

- قال الخازن: نما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب، والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وحدها وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب.

- وقال الشوكاني: وإنما نسب إليهن المراودة لأن كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدم، ومن جملة من شمله خطاب الملك امرأة العزيز أو أراد بنسبة ذلك إليهن وقوعه منهن في الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشيا عن التصريح منه بنسبة ذلك إليها لكونها امرأة وزيره وهو العزيز.

قال الطبري:"وفي هذا الكلام متروك، قد استغني بدلالة ما ذكر عليه عنه، وهو:"فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن وامرأة العزيز" فقال لهن: {ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه} ... ويعني بقوله: {ما خطبكن)، ما كان أمركن، وما كان شأنكن {إذ راودتن يوسف عن نفسه}".

قال ابن إسحاق:"فلما جاء الرسول الملك من عند يوسف بما أرسله إليه، جمع النسوة وقال: {ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه}؟".

قال ابن زيد: "فأرسل إلى فلانة وفلانة فـ {قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف، عن نفسه}، الآية، فقال: ما أمركن؟ {قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء}".

قوله تعالى: {قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ} [يوسف: ٥١]، أي:"قلن: معاذ الله ما علمنا عليه أدنى شيء يَشينه".

=

=

عن مجاهد، قوله: "{حاش لله}، قال: معاذ الله".

قولـه تعـالى: {قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ} [يوسـف: ٥١]، أي:"ذلك قالت امراة العزيز: الآن ظهر الحق بعد خفائه".

قال الطبري:"تقول: الآن تبين الحق وانكشف فظهر".

قال الزجاج:"أي: برز وتبين، واشتقاقه في اللغة من «الحصة»، أي: بانت حصة الحق وجهته من جهة الباطل".

قال ابن إسحاق:"قالت راعيل امرأة إطفير العزيز: {الآن حصحص الحق}، أي: الآن برز الحق وتبيَّن".

عن ابن عباس: "{الآن حصحص الحق}، قال: تبيّن". وروي عن مجاهد ، الضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد ، مثل ذلك.

قال السدي:"قال الملك: ائتوني بهن! فقال: {ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء}، ولكن امرأة العزيز أخبرتنا أنها راودته عن نفسه، ودخل معها البيت وحلّ سراويله، ثم شدَّه بعد ذلك،، فلا تدري ما بدا له، فقالت امرأة العزيز: {الآن حصحص الحق}".

قوله تعالى: {أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} [يوسف: ٥١]، أي:"، فأنا التي حاولت فتنته بإغرائه فامتنع، وإنه لمن الصادقين في كل ما قاله".

قال ابن إسحاق:"فيما كان قال يوسف مما ادّعَت عليه".

قال القرطبي:"وهذا القول منها- وإن لم يكن سأل عنه- إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته، لأن إقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه، فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار، حتى لا يخامر نفسا ظن، ولا يخالطها شك".

قال المراغي:"والذي دعاها إلى هذا الاعتراف مكافأة يوسف على ما فعله من

=

=

رعاية حقها وتعظيم جانبها وإخفاء أمرها حيث قال: {ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ}، ولم يعرض لشأنها.

وفي هذا الاعتراف شهادة مريحة من امرأة العزيز ببراءة يوسف من كل الذنوب، وطهارته من كل العيوب".

قال الرازي: هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل الذنوب مطهرا عن جميع العيوب، وههنا دقيقة، وهي أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال (ما بال النسوة الاتي قطعن أيديهن) فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة ألبتة فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها وإخفاء للأمر عليها، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها وأن يوسف عليه السلام كان مبرأ عن الكل، ورأيت في بعض الكتب أن امرأة جاءت بزوجها إلى القاضي وادعت عليه المهر، فأمر القاضي بأن يكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من إقامة الشهادة، فقال الزوج: لا حاجة إلى ذلك، فإني مقر بصدقها في دعواها، فقالت المرأة لما أكرمتني إلى هذا الحد فاشهدوا أني أبرأت ذمتك من كل حق لي عليك.

قوله تعالى: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [يوسف: ٥٢].

في قوله تعالى: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [يوسف: ٥٢]، وجهان:

أحدها: أنه قول امرأة العزيز عطفًا على ما تقدم، ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب، يعني الآن في غيبه بالكذب عليه وإضافة السوء إليه لأن الله لا يهدي كيد الخائنين، حكاه ابن عيسى.

الثاني: أنه قول يوسف بعد أن علم بظهور صدقه، وذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب عنه في زوجته، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك،

=

=

والسدي ، وابن إسحاق ، وأبو صالح.
عن مجاهد: "{ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب} ، يوسف يقوله".
قال مجاهد:"يوسف يقوله: لم أخن سيدي".
قال قتادة:"هذا قول يوسف".
قال أبو صالح:"هو يوسف، لم يخن العزيز في امرأته".
قال الضحاك:"هو يوسف يقول: لم أخن الملك بالغيب".
قال السدي:"قال يوسف، وقد جيء به،: ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب في أهله، {وأن الله لا يهدي كيد الخائنين}".
قال ابن عباس:"هو: قول يوسف لمليكه، حين أراد الله عذره، فذكر أنه قد هم بها وهمت به".
قال ابن إسحاق:"ذلك ليعلم أطيفير سيده أني لم أخنه بالغيب أي: لم أكن لأخالف إلى أهله من حيث لا يعلم، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين".
قال الزجاج:"هذا قول يوسف عليه السلام، المعنى: إني أردت التبيين للملك أمر أمرأته والنسوة، ليعلم أني لم أخنه بالغيب".
قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٨): وقوله: {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي} فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن حيث قال تعالى: {وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم} {قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين} {ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين} {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي

=

=

غفور رحيم} فهذا كله كلام امرأة العزيز ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا رآه ؛ ولكن لما ظهرت براءته في غيبته – كما قالت امرأة العزيز: {ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب} أي لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته – فحينئذ: {وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين} وقد قال كثير من المفسرين إن هذا من كلام يوسف ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول وهو قول في غاية الفساد ولا دليل عليه ؛ بل الأدلة تدل على نقيضه وقد بسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضع. اهـ

وقال ابن القيم: فإن قيل فكيف قال وقت ظهور براءته (وما أبرىء نفسى) قيل هذا قد قاله جماعة من المفسرين وخالفهم في ذلك آخرون أجل منهم وقالوا إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف عليه السلام والصواب معهم لوجوه أحدها أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرىء نفسي ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه والقول في مثل هذا لا يحذف لئلا يوقع في اللبس فإن غايته أن يحتمل الأمرين فالكلام الأول أولى به قطعا الثاني أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضرا وقت مقالتها هذه قبل كان في السجن لما تكلمت بقولها الآن حصحص الحق والسياق صريح في ذلك فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن فأرسل إليهم الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته ولم يمكنهن إلا قول الحق فقال النسوة حاش لله ما علمنا عليه من سوء وقالت امرأة العزيز أنا روادته عن نفسه وإنه لمن الصادقين فإن قيل لكن قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد

=

=

الخائنين الأحسن أن يكون من كلام يوسف عليه السلام أي إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ثم إنه قال وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربي إن ربي غفور رحيم وهذا من تمام معرفته بربه ونفسه فإنه لما أظهر براءته ونزاهته مما قذف به أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرئها فإنها أمارة بالسوء لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه فرد الأمر إلى الله بعد أن أظهر برءته قيل هذا وإن كان قد قاله طائفة فالصواب أنه من تمام كلامها فإن الضمائر كلها في نسق واحد يدل عليه وهو قول النسوة ما علمنا عليه من سوء وقول امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر ثم اتصل بها قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب فهذا هو

المذكور أولا بعينه فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه ويضمر فيه قول لا دليل عليه فإن قيل فما معنى قولها ليعلم أني لم أخنه بالغيب قيل هذا من تمام الاعتذار قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت ذلك أي قولي هذا وإقراري ببراءته ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته وإن خنته في وجهه في أول الأمر فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته ثم اعتذرت عن نفسها بقولها وما أبرىء نفسى ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرىء نفسها وهي أن النفس أمارة بالسوء فتأمل ما أعجب أخر هذه المرأة أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها ثم اعتذرت عن نفسها ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظا ومعنى وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك فإن القوم كانوا يقرون بالرب سبحانه وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال واستغفري

=

=

لذنبك إنك كنت من الخاطئين ا.هـ {روضة المحبين صـ ٣٤٢ ـ صـ ٣٤٥}.

– قال الشوكاني: ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة الصارفة لكل منهما إلى ما يليق به، أي: إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي وليعلم العزيز (أني لم أخنه) في زوجته (بالغيب) (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء) وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه.

– قال ابن كثير: والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف، عَلَيْهِ السَّلَامُ، عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

قوله تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي} [يوسف: ٥٣].

وفي قوله تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي} [يوسف: ٥٣]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه قول العزيز، أي: وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف.

الوجه الثاني: أنه قول امرأة العزيز وما أبرئ نفسي إن كنت راودت يوسف عن نفسه لأن النفس باعثة على السوء إذا غلبت الشهوة عليها.

الوجه الثالث: أنه من قول يوسف – عَلَيْهِ السَّلَامُ –. إختاره مقاتل، والطبري.

قال الطبري: "يقول يوسف صلوات الله عليه: وما أبرئ نفسي من الخطأ والزلل فأزكيها".

قال مقاتل: "{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي}، يعني: قلبي من الهم، لقد هممت بها".

وعلى قول أن هذا كلام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اختلف في السبب الذي من اجله قال يوسف: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي} [يوسف: ٥٣]، وفيه وجوه:

أحدها: أن يوسف لما قال: {ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب}، قالت امرأة العزيز:

=

=

ولا حين حللت السراويل؟ فقال: {وما أبريء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء}، قاله السدي.

وروي عن السدي: "{ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب}، قال: قاله يوسف حين جيء به، ليعلم العزيز أنه لم يخنه بالغيب في أهله، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. فقالت امرأة العزيز: يا يوسف، ولا يوم حللت سراويلك؟ فقال يوسف: {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء}".

الثاني: أن يوسف لما قال ذلك غمزه جبريل عليه السلام فقال: ولا حين هممت؟ فقال: {وما أُبريء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء}. قاله ابن عباس، وأبو صالح، وسعيد بن جبير، والحسن.

قال ابن عباس:"لما جمع الملك النسوة فسألهن: هل راودتن يوسف عن نفسه؟ قلن حَاشَ لله، ما علمنا عليه من سوء! قالت امرأة العزيز: {الآن حصحص الحق} الآية. قال يوسف: {ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب}، قال فقال له جبريل: ولا يوم هممت بما هممت! فقال: {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء}".

عن أبي صالح، في قوله: "{ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب}، قال: هذا قول يوسف قال: فقال له جبريل: ولا حين حللت سراويلك؟ قال فقال يوسف: {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء}، الآية".

قال سعيد بن جبير:"لما قال يوسف: {ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب}. قال جبريل، أو مَلَك: ولا يوم هممت بما هممت به؟ فقال: {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء}".

عن الحسن: "{ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب}، قال له جبريل: اذكر همَّك! فقال: (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء}".

الثالث: أن الملك الذي مع يوسف قال له: اذكر ما هممت به، فقال: {وما أبرئ

=

=

نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء} .وهذا قول قتادة.

قال قتادة:"ذُكر لنا أن الملك الذي كان مع يوسف، قال له: اذكر ما هممت به. قال نبي الله: {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء}".

وروي عن عكرمة، قوله: "{ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب}، قال الملك، وطَعَن في جنبه: يا يوسف، ولا حين هممت؟ قال: فقال: {وما أبرئ نفسي}".

الرابع: أن يوسف قال ذلك ابتداءً من قبل نفسه، وذلك لما قال: {ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب}، كره نبي الله أن يكون قد زكى نفسه فقال: {وما أبريء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء}. قاله ابن عباس ، والحسن.

روي عن ابن عباس، قوله: "{ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين}، هو قول يوسف لمليكه، حين أراه الله عذره، فذكر أنه قد همَّ بها وهمت به، فقال يوسف: {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء}، الآية".

قوله تعالى: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [يوسف: ٥٣]، أي:"إن النفس لكثيرة الأمر لصاحبها بعمل المعاصي طلبا لملذاتها".

قال الطبري:"يقول: إن النفوسَ نفوسَ العباد، تأمرهم بما تهواه، وإن كان هواها في غير ما فيه رضا الله".

قال الحسن:"يعني: همته التي هم بها".

قال أبو خزيمة: سمعت عبد العزيز بن عمير، يقول:"إن النفس أمارة بالسوء، فإذا جاء العزم من الله كانت هي التي تدعوك إلى الحياء".

ويحتمل قوله: {لأمارة بالسوء} وجهين:

أحدهما: يعني أنها مائلة إلى الهوى بالأمر بالسوء.

الثاني: أنها تستثقل من عزائم الأمور ما إن لم يصادف حزمًا أفضت إلى السوء.

قوله تعالى: {إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي} [يوسف: ٥٣]، أي:"إلا من رحمه الله بالعصمة".

=

=

قال الطبري:"يقول: إلا أن يرحم ربي من شاء من خلقه، فينجيه من اتباع هواها وطاعتها فيما تأمرُه به من السوء".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} [يوسف: ٥٣].

يغفر الزلات، ويتوب على العاصين، وذلك من رحمته سبحانه وتعالى.

- وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن القسم الأول من حياة يوسف عليه السلام القسم الذي تعرض خلاله لألوان من المحن والآلام، بعضها من إخوته، وبعضها من امرأة العزيز، وبعضها من السجن ومرارته... ثم بدأت بعد ذلك في الحديث عن الجانب الثاني من حياته عليه السلام وهو جانب الرخاء والعز والتمكين في حياته.

قال الطبري:"أن الله ذو صفح عن ذنوب من تاب من ذنوبه، بتركه عقوبته عليها وفضيحته بها، {رحيم}، به بعد توبته، أن يعذبه عليها".

عن عطاء بن دينار، قوله: "{غفور} لما كان منهم قبل التوبة، {رحيم} بهم بعد التوبة".

(تنبيه): هذه الآية دالة على طهارة يوسف عليه السلام من الذنب من وجوه كثيرة:

الأول: أن الملك لما أرسل إلى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متهما بفعل قبيح وقد كان صدر منه ذنب وفحش لاستحال بحسب العرف والعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة، لأنه لو كان قد أقدم على الذنب ثم إنه يطلبه من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعيا منه في فضيحة نفسه وفي تجديد العيوب التي صارت مندرسة مخفية والعاقل لا يفعل ذلك.

والثاني: أن النسوة شهدن في المرة الأولى بطهارته ونزاهته حيث قلن (حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم).

وفي المرة الثانية حيث قلن (حاش لله ما علمنا عليه من سوء).

=

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤).

{وَقَالَ الْمَلِك ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصهُ لِنَفْسِي} أَجْعَلهُ خَالِصًا لِي دُون شَرِيك فَجَاءَهُ الرَّسُول وَقَالَ أَجِبْ الْمَلِك فَقَامَ وَوَدَّعَ أَهْل السِّجْن وَدَعَا لهم ثم اغتسل ولبس ثيابا حسنا وَدَخَلَ عَلَيْهِ {فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ} لَهُ {إِنَّك الْيَوْم لَدَيْنَا مَكِين أَمِين} ذُو مَكَانَة وَأَمَانَة عَلَى أَمْرنَا فَمَاذَا تَرَى أَنْ نَفْعَل قَالَ اجْمَعْ الطَّعَام وَازْرَع زَرْعًا كَثِيرًا فِي هَذِهِ السِّنِينَ الْمُخْصِبَة وَادَّخِرْ الطَّعَام فِي سُنْبُله فَتَأْتِي إلَيْك الْخَلْق لِيَمْتَارُوا مِنْك فَقَالَ وَمَنْ لِي بهذا.

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥).

{قَالَ} يُوسُف {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِن الْأَرْض} أَرْض مِصْر {إِنِّي حَفِيظ عَلِيم} ذُو حِفْظ وَعِلْم بِأَمْرِهَا وَقِيلَ كَاتِب حَاسِب[1].

=

والثالث: أن امرأة العزيز أقرت في المرة الأولى بطهارته حيث قالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) وفي المرة الثانية في هذه الآية.

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} [يوسف: ٥٤].

في الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير: وبعد أن انكشفت للملك براءة يوسف عليه السلام انكشافا تاما، بسبب ما سمعه عنه من النسوة ومن امرأة العزيز، وبعد أن سمع تفسيره للرؤيا وأعجب به، كما أعجب بسمو نفسه وإبائه.. بعد كل ذلك قال الملك لخاصته: ائتوني بيوسف هذا، أجعله من خاصتي وأهل مشورتي.

- قال الرازي: اختلفوا في هذا الملك فمنهم من قال: هو العزيز، ومنهم من قال: بل هو الريان الذي هو الملك الأكبر، وهذا هو الأظهر لوجهين:

الأول: أن قول يوسف (اجعلني على خزائن الأرض) يدل عليه.

=

=

الثاني: أن قوله (أستخلصه لنفسي) يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصا له، وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصا للعزيز، فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الأكبر.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وقال الملك}، يعني ملك مصر الأكبر، وهو فيما ذكر ابن إسحاق: «الوليد بن الرّيان» ، حين تبين عذر يوسف، وعرف أمانته وعلمه، قال لأصحابه: {ائتوني به أستخلصه لنفسي}، يقول: أجعله من خُلصائي دون غيري".

- قال الشوكاني: أجعله خالصا لي دون غيري، وقد كان قبل ذلك خالصا للعزيز، والاستخلاص: طلب خلوص الشيء من شوائب الشركة، قال ذلك لما كان يوسف نفيسا، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم.

- قال ابن عاشور: وقد دل الملك على استحقاق يوسف عليه السلام تقريبه منه ما ظهر من حكمته وعلمه، وصبره على تحمل المشاق، وحسن خلقه، ونزاهته، فكل ذلك أوجب اصطفاءه.

عن قتادة {أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي}،"أتخذه لنفسي".

قال مجاهد: "وأسلم على يده". أي: الملك.

قال ابن عباس:"قال الملك ليوسف: إني أحب أن تخالطني في كل شيء إلا في أهلي، وأنا آنف أن تأكل معي، فغضب يوسف، فقال: أنا أحق أن آنف إن أبي إبراهيم خليل الله وأبي إسحاق ذبيح الله".

عن أبي ميسرة قال: "لما رأى العزيز لبق يوسف، وكيسه وظرفه دعاه فكان يتغدى ويتعشى معه دون غلمانه، فلما كان بينه وبين المرأة ما كان قالت له مرة: فليتغد ويتعشى مع الغلمان فقال له يوسف في وجهه: ترغب أن تأكل معي؟ أو تنكف أن تأكل معي؟ أنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم

=

=

خليل الله".

قولـه تعـالى: {فَلَمَّـا كَلَّمَـهُ قَـالَ إِنَّـكَ الْيَـوْمَ لَـدَيْنَا مَكِـينٌ أَمِـينٌ} [يوسـف: ٥٤]، أي:"فلما أتوا به وكلَّمه يوسف وشاهد الملك فضله، ووفور عقله، وحُسن كلامه قال إنك اليوم عندنا عظيم المكانة، ومؤتمن على كل شيء".

قال الزجاج:"أي: عرفنا أمانتك وبراءتك مما قرفت به".

قال الماوردي:"لأنه استدل بكلامه على عقله، وبعصمته على أمانته فقال: {إنك اليوم لدينا مكين أمين}، وهذه منزلة العاقل العفيف".

- قال الشوكاني: قوله تعالى (فلما كلمه) في الكلام حذف، وتقديره فأتوه به، فلما كلمه، أي: فلما كلم الملك يوسف، ويحتمل أن يكون المعنى: فلما كلم يوسف الملك، قيل: والأول أولى؛ لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم دون من يدخل عليهم، وقيل: الثاني أولى؛ لقول الملك (قال إنك اليوم لدينا مكين أمين).

قال عطاء عن ابن عباس: "يريد مكنتك ملكي، وجعلت سلطانك فيه كسلطاني وائتمنتك فيه".

وفي قوله تعالى: {مَكِينٌ} [يوسف: ٥٤]، وجهان:

أحدهما: وجيه، كقوله تعالى: {ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} [التكوير: ٢٠]. قاله مقاتل.

الثاني: متمكن في المنزلة الرفيعة.

وفي قوله: {أَمِينٌ} [يوسف: ٥٤]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه بمعنى آمن لا تخاف العواقب، قاله ابن شجرة.

الثاني: أنه بمعنى مأمون ثقة، قاله ابن عيسى.

الثالث: حافظ، قاله مقاتل.

=

=

والمعنى: أي: أنت اليوم قريب المنزلة رفيع الرتبة، مؤتمن على كل شيء.
ومكين صفة مشبهة من الفعل مكن- بضم الكاف-، بمعنى صاحب مكانة ومرتبة عظيمة، يقال: مكن فلان مكانة إذا ارتفعت منزلته، ويقال: مكنت فلانا من هذا الشيء إذا جعلت له عليه سلطانا وقدرة.
أمين بزنة فعيل بمعنى مفعول، أي: مأمون على ما نكلفك به، ومحل ثقتنا.
- قال ابن عطية: فلما جاءه وكلمه قال (إنك اليوم لدينا مكين أمين) فدل ذلك على أنه رأى من كلامه وحسن منطقه ما صدق به الخبر أو أربى عليه، إذ المرء مخبوء تحت لسانه؛ ثم لما زاول الأعمال مشى القدمية حتى ولاه خطة العزيز.
- قال الجصاص:... هذا الملك لما كان من أهل العقل والدراية لم يرعه من يوسف منظره الرائع البهج كما راع النساء لقلة عقولهن وضعف أحلامهن، وأنهن إنما نظرن إلى ظاهر حسنه وجماله دون علمه وعقله وأن الملك لم يعبأ بذلك، ولكنه لما كلمه ووقف على كماله ببيانه وعلمه قال (إنك اليوم لدينا مكين أمين) فقال يوسف (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) فوصف نفسه بالعلم، والحفظ.
قوله تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ} [يوسف: ٥٥]، أي:"قال يوسف للملك: اجعلني واليًا على خزائن «مصر»".
قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: قال يوسف للملك: اجعلني على خزائن أرضك... وهذا من يوسف صلوات الله عليه، مسألة منه للملك أن يولّيه أمر طعام بلده وخراجها، والقيام بأسباب بلده، ففعل ذلك الملك به، فيما بلغني".
وفي قوله تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ} [يوسف: ٥٥]، وجهان:
أحدهما: -هو قول بعض المتعمقة- أن "الخزائن" -ها هنا-: الرجال، لأن الأفعال والأقوال مخزونة فيهم فصاروا خزائن لها.

=

=

الثاني: -وهو قول أصحاب الظاهر- أنها خزائن الأموال، وفيها قولان:

أحدهما: أنه سأله جميع الخزائن، وهذا معنى قول ابن زيد ، وشيبة بن النعمان الضبي -في أحدى الروايات.

قال ابن زيد:"كان لفرعون خزائن كثيرة غير الطعام قال: فأسلم سلطانه كُلَّه إليه، وجعل القضاء إليه، أمرُه وقضاؤه نافذٌ".

الثاني: أنه سأله خزائن الطعام، أخرجه الطبري عن شيبة بن نعامة الضبي.

فإن كان المولي ظالمًا، فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين:

أحدهما: جوازها إن عمل بالحق فيما تقلده، لأن يوسف عليه السلام ولي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره.

الثاني: لا يجوز ذلك له لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم وتزكيتهم بتنفيذ أعمالهم.

وأجاب من ذهب إلى هذا القول عن ولايته من قبل فرعون بجوابين:

أحدهما: أن فرعون يوسف كان صالحًا، وإنما الطاغي فرعون موسى.

الثاني: أنه نظر له في أملاكه دون أعماله فزالت عنه التبعة فيه.

والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات فيجوز توليته من جهة الظالمين لأن النص على متسحقيه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التنفيذ.

والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الإجتهاد في مصرفه كأموال الفيء فلا يجوز توليته من جهة الظالم لأنه يتصرف بغير حقٍ ويجتهد فيما لا يستحق.

والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه أهله وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام،

=

=

فعقد التقليد فيه محلول، فإن كان النظر تنفيذًا لحكم بين متراضيين أو توسطًا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز.

قوله تعالى: {إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف: ٥٥]، أي:"فإني خازن أمين، ذو علم وبصيرة بما أتولاه".

وفي قوله تعالى: {إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف: ٥٥]، أربعة وجوه:

أحدها: حافظ لما استودعتني عالم بما وليتني، قاله ابن إسحاق.

قال ابن عباس في رواية عطاء: "يريد لا يضيع من ذلك عندي شيء، عليم بما أفعل ويصلح ملكك".

الثاني: حفيظ بالكتاب، عليم بالحساب، حكاه ابن سراقة ، وأنه أول من كتب في القراطيس.

الثالث: حفيظ بالحساب، عليم بالألسن، قاله سفيان ، والأشجعي.

وقال مقاتل:"{إني حفيظ} لما وكلتني به، {عليم} يعني: عالم بلغة الناس كلها".

الرابع: حفيظ لما وليت، عليم بأمرها. قاله قتادة.

الخامس: حفيظ لما استودعتني، عليم بسنين المجاعة. قاله شيبة الضبي.

قال الطبري:"والصواب، قولُ من قال: معنى ذلك:"إني حافظ لما استودعتني، عالم بما أوليتني"، لأن ذلك عقيب قوله: {اجعلني على خزائن الأرض}، ومسألته الملك استكفاءه خزائن الأرض، فكان إعلامه بأن عنده خبرةً في ذلك وكفايته إياه، أشبه من إعلامه حفظه الحساب، ومعرفته بالألسن".

عن أبي هريرة قال: "استعملني عمر على البحرين ثم نزعني، ثم دعاني بعد إلى العمل، فأبيت فقال: لم؟ وقد سأل يوسف العمل".

روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال: قال رسول الله ﷺ: "رحم الله يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته،

=

=

ولكنه أخر ذلك سنة".

فإن قيل: لِمَ طلب يوسف الإمارة، والنبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة "يا عبد الرحمن لا تسل الإمارة".

والجواب من هذا ما ذكره الزجاج، قال: "وإنماسأله أن يجعله على خزائن الأرض لأن الأنبياء بُعِثُوا في قامة الحق والعدْلِ ووضع الأشياء مواضعَها، فعلم يوسف عليه السلام أنه لا أحد أقوَمُ بذلك منه، ولا أوضَعُ له في مواضعها، فسأل ذلك إرادة للصلاح".

- قال الشوكاني: طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل، ورفع الظلم، ويتوسل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان بالله، وترك عبادة الأوثان.

- قال صاحب الكشاف: وصف يوسف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق، وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدا غيره لا يقومه مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا.

- وقال القرطبي: ودلت الآية أيضا على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا.

فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله ﷺ (يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها).

وقال ﷺ (لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده).

فالجواب: أولا: أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم فرأى أن ذلك فرض

=

=

متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام ، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب؛ لقوله عليه السلام لعبد الرحمن: "لا تسأل الإمارة" (وأيضا) فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله عليه السلام (وكل إليها) ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فر منها، ثم إن ابتلى بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: (أعين عليها).

ثم قال:... الرابع: أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر. (التفسير).

- قال ابن العربي: كيف سأل الإمارة وطلب الولاية، وقد قال ﷺ لسمرة (لا تسأل الإمارة، وإنك إن سألتها وكلت إليها، وإن لم تسألها أعنت عليها) وقد قال النبي ﷺ (إنا لا نولي على عملنا من أراده؟).

وعن ذلك أربعة أجوبة:

الأول: أنه لم يقل: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي ﷺ (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم).

ولا قال: إني مليح جميل، إنما قال: إني حفيظ عليم، سألها بالحفظ والعلم لا بالحسب والجمال.

الثاني: سأل ذلك ليوصل إلى الفقراء حظوظهم لا لحظ نفسه.

الثالث: إنما قال ذلك عند من لا يعرفه، فأراد التعريف بنفسه، وصار ذلك مستثنى

=

=

من قوله (فلا تزكوا أنفسكم).

الرابع: أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره.

- قال الخازن: فإن قلت كيف مدح يوسف نفسه بقوله إني حفيظ عليم والله تعالى يقول فلا تزكوا أنفسكم.

قلت: إنما يكره تزكية النفس إذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوسل به إلى غير ما يحل فهذا القدر المذموم في تزكية النفس.

أما إذا قصد بتزكية النفس ومدحها إيصال الخير والنفع إلى الغير فلا يكره ذلك ولا يحرم بل يجب عليه ذلك، مثاله أن يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به فإنه يجب عليه أن يقول أنا عالم، ولما كان المالك قد علم من يوسف أنه عالم بمصالح الدين ولم يعلم أنه عالم بمصالح الدنيا نبهه يوسف بقوله إني حفيظ عليم على أنه عالم بما يحتاج إليه في مصالح الدنيا أيضا مع كمال علمه بمصالح الدين.

مسألة: طلب يوسف الولاية والوزارة بعدما رأى فساد البلاد وإقبالها على شر أعظم مما هي عليه، وفي هذا جواز طلب الولاية والإمارة إن كانت الحال كتلك الحال.

والأصل: أن طلب الولاية مكروه، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك؛ وذلك لأن طالبها يتشوف إليها، ومن قصد الولاية طمعا في الجاه والمال، لم يتحقق فيه قصد العدل؛ فمثله لا بد أن يظلم في قليل أو كثير، ويسلب عون الله وتوفيقه له في ولايته بمقدار حرصه عليها، وفي "الصحيحين"؛ من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه؛ قال: قال لي النبي ﷺ (يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها؛ وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها".

وكذلك: فإن النفوس تقبل وتتشوف إليها، وتحرص عليها، وعاقبتها على طالبها

=

=

ندامة في آخرها، وإن وجد لذة في أولها، وفي البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: (إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبئست الفاطمة).

* وطلب الإمارة على حالتين:

الحالة الأولى: من طلبها وسألها لحظ نفسه فقط، فيريد منها جاها وسؤددا، فهذا الطلب منه مكروه، وقد يحرم، بحسب ما يفوته حظ نفسه من حظوظ الناس، وتوليته على ذلك ممن يملك حق التولية مكروه، وقد يحرم، بحسب ما سبق، ولم يكن النبي ﷺ يولي من حرص على الولاية وسألها؛ ففي "الصحيحين"، من حديث أبي موسى رضي الله عنه؛ قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: أمرنا يا رسول الله، وقال الآخر مثله، فقال: (إنا لا نولي هذا من سأله، ولا من حرص عليه).

الحالة الثانية: من طلبها وسألها لحظ الناس، فغايته نفع الناس وجلب الخير إليهم، ودفع الضر عنهم، كما فعل يوسف، وهذا الطلب بحسب أحوال الناس وزمانهم: فإن كان الزمن زمن استقرار حال ويقوم بالولاية والعدل فيها من تولاها من سائر الناس، فالأولى عدم طلبها؛ لأنه قد يدركه من الغرم أكثر مما يدركه من الغنم.

وإن كان الناس في زمن شر وفساد وظلم وإقبال على هلاك كما في مصر زمن يوسف، فقد يجب على من علم من نفسه إنقاذ الناس، وغلب على ظنه ألا يحسن أحد إحسانه، ولا يملك من أمور النجاة مثله، وبمقدار كثرة الشر المدفوع يتأكد طلب الولاية، وبمقدار قلته يخف، ودفع الشر أعظم من جلب الخير للناس! لأن جلب الخير يحسنه الكثير، ودفع الشر وإصلاح الفساد والظلم لا يحسنه إلا القليل.

=

=

وبين هاتين الحالتين مراتب ودرجات دقيقة، تتفاوت في مقاصد النفوس من طلب الولاية بين حظ النفس وحظ الناس.

* طلب الولاية في بلد الكفر: لم تكن مصر في زمن يوسف بلد إسلام، وقد بعثه الله إلى قوم مشركين فشكوا في رسالته، ولم يصدقوه في دعوته حتى مات؛ كما قال تعالى في سورة غافر: {ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (٣٤)} [غافر: ٣٤].

وإنما كلام السلف هو في إسلام عزيز مصر وملكها، وقد اختلف في إسلامه:

لقد صح عن مجاهد: أنه أسلم.

وذهب جماعة من العلماء ومن النقلة عن بني إسرائيل: أنه لم يكن مسلما.

وعلى أحسن أحوال ملكه أنه كحال النجاشي؛ مسلم على قوم مشركين، كما في ظاهر الآية أن قومه مشركون، وإذا كان كذلك، فإنه لم يظهر إسلامه كحال النجاشي.

وقد أخذ بعض العلماء جواز تولي المسلم الولاية تحت حكم كافر لإقامة العدل ودفع الظلم، وإذا جاز من النجاشي ومن ملك مصر - إن صح إسلامه - أن يحكم قوما كافرين، ولا يظهرون حكمهم فيهم بحكم الله الظاهر لهم الذي به يعرف الناس إسلامهم، فإن جوازه لمن تولى ولاية صغرى تحته من باب أولى، فلو كان تحت النجاشي وال يكتم إسلامه مثله ولم يعلم أحدهما بالآخر، وتولى ليقوم بالقسط ويدفع الظلم، ويظن أن الملك النجاشي باق على كفره، فإنه لا يصح أن يحكم بكفر من تحت النجاشي ويحكم بإسلام النجاشي نفسه، فإن صح للنجاشي الإسلام وحاله تلك، فإن صحته لمن دونه من باب أولى، بل إن الأمر بيد النجاشي أقوى من يد من دونه من أصحاب الولايات الصغرى.

=

=

وقد تولى بعض الأئمة كصلاح الدين الأيوبي الوزارة في الدولة العبيدية، وتولى جماعة القضاء فحكموا بالعدل في زمن الدولة البويهية والعبيدية، ولم يحكم الأئمة بكفرهم لمجرد كونهم تحت ولاية مشركة، مع سعة الأقطار التي حكمتها تلك الدول، وطول المدة التي تولوا فيها، وإنما هم موكولون إلى عملهم وما قام بأنفسهم، والله يفصل بينهم بما يعملود هم أنفسهم.

وقد كان النبي ﷺ يسمي النجاشي الملك العادل الذي لا يظلم ولا يظلم عنده أحد، وذكر بعض الرواة أنه سماه الملك الصالح؛ وفي هذا: دليل على أن من قام بالعدل على مراد الله حسب طاقته، فهو عادل وإن عجز عن نسبة عمله إلى شريعة الله، فموافقته لها في حكمه كافية في وصفه بالعدل وحاله تلك.

* شروط من يولى على الولايات:

وفي قوله تعالى: {حفيظ عليم} ذكر الله شرطي الولاية:

الأول: الأمانة؛ وهو قوله تعالى: {حفيظ}؛ أي: أمين.

الثاني: القوة، وهو قوله: {عليم}؛ أي: عليم بالأمر خبير به، وليس المراد ذلك قوة البدن فحسب، بل القوة التي يتحصل بها معرفة الحق، سواء كانت عقلية، وهي العلم، أو بدنية، وهي قدرة البدن على التصرف.

وذكر الله لهذين الشرطين نظير قول ابنة صاحب مدين عن موسى: {ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين (٢٦)} [القصص: ٢٦]، وقال عفريت من الجن لسليمان: {أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين} [النمل: ٣٩]، وقد مدح الله جبريل لما جعله عليه من ذلك فقال تعالى: {ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠) مطاع ثم أمين} [التكوير: ٢٠، ٢١].

فمن جمع الشرطين، كان أهلا للولاية، فقوله {حفيظ}؛ أي: أمين، وقوله: {عليم} عالم عارف بما وليت عليه؛ فقد يكون الرجل أمينا في نفسه، صادقا في نيته

=

=

وقصده، ولكنه جاهل فيما يتولاه، فيفسد بجهله، ولا ينتفع الناس بأمانته، وقد يكون الرجل عالما عارفا بما تولاه صاحب خبرة به، ولكنه ضعيف الأمانة والديانة، فيسرق ويخون ويأخذ الرشوة في عمله، فلم ينتفع الناس بعلمه وخبرته.

وتجب الموازنة بين تحصيل القوة والأمانة في صاحب الولاية، وهذا لا بد معه من النظر إلى نوع الولاية:

فمن الولايات ما تحتاج إلى تغليب الأمانة على القوة عند فقد الجمع بين كمال الاثنتين، كولاية المال؛ فلن ينتفع بيت المال ووزارات المال من خبير بالاقتصاد والحساب دقيق به إن كان ضعيف الأمانة؛ فيسرق ويختلس ويرتشي؛ فقد يقع منه من ضياع الأموال ما لو تولى من هو أقل منه خبرة لصلح الحال.

ومن الولايات: ما ينبغي تغليب القوة البدنية والعقلية على الأمانة إن لم يمكن الجمع بين الاثنتين؛ وذلك في القتال وجهاد العدو؛ فإنه يحتاج إلى الخبرة العسكرية أكثر من الأمانة التي يحتاج إليها في الأموال والأعراض أكثر.

وكثيرا ما يلتفت اليوم إلى العلم والخبرة، وينظر في الشهادات، وتولى الولايات لأجل ذلك، ويغفل جانب الأمانة؛ حتى أصبح في أكثر الدول لا اعتبار له، ولا يفرق لين ما يجب أن تغلب فيه الأمانة، وما يجب أن يغلب فيه العلم، وتغليب أحد الوصفين لا يعني جواز انعدام الوصف الآخر، ولكن يقبل ضعفه وقلته.

وإذا خرج الحاكم في الولاية عن هذين الوصفين، واختار من يهواه لمحبة وقرابة وصداقة، ضاع من أمر الأمة بمقدار ما فات من هذين الوصفين؛ فقد روى البيهقي؛ من حديث ابن عباس مرفوعا: (من استعمل عاملا من المسلمين وهو يعلم أن فيهم أولى بذلك منه وأعلم بكتاب الله وسنة نبيه، فقد خان الله ورسوله وجميع المسلمين).

وقد روى إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه

=

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦).

{وَكَذَلِكَ} كَإِنْعَامِنَا عَلَيْهِ بِالْخَلَاصِ مِنْ السِّجْن {مَكَّنَّا لِيُوسُف فِي الْأَرْض} أَرْض مِصْر {يَتَبَوَّأ} يَنْزِل {مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء} بَعْد الضِّيق وَالْحَبْس وَفِي الْقِصَّة أَنَّ الْمَلِك تَوَجَّهَ وَخَتَمَهُ وَوَلَّاهُ مَكَان الْعَزِيز وَعَزَلَهُ وَمَاتَ بَعْد فَزَوَّجَهُ امْرَأَته فَوَجَدَهَا عَذْرَاء وَوَلَدَتْ لَهُ وَلَدَيْنِ وَأَقَامَ الْعَدْل بِمِصْرَ ودانت له الرقاب {نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين}.

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧).

{ولأجر الآخرة خير} من أجر الدنيا {للذين آمنوا وكانوا يتقون} وَدَخَلَتْ سُنُو الْقَحْط وَأَصَابَ أَرْض كَنْعَان وَالشَّام[1].

=

قال: "من استعمل رجلا لمودة أو لقرابة، لا يستعمله إلا لذلك، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين".

ويكثر اختلال هذين الوصفين في الولايات في آخر الزمان عند ضعف الديانة والأمانة، وبأولئك تكثر الفتن ويعظم الظلم، وقد قال ﷺ: (إذا أسند الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة)؛ رواه البخاري. وغير أهله هم الذين فقدوا الوصفين، فولوا وتولوا بالهوى.

(١) قوله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ} [يوسف: ٥٦]، أي:"وهكذا مكنّا ليوسف في أرض مصر، وجعلنا له العزَّ والسلطان بعد الحبس والضيق".

وهذا بيان لسنة الله تعالى في خلقه، من كونه سبحانه لا يضيع أجر الصابرين المحسنين أي: ومثل هذا التمكين العظيم. مكنا ليوسف في أرض مصر، بعد أن مكث في سجنها بضع سنين، لا لذنب اقترفه، وإنما لاستعصامه بأمر الله.

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وهكذا وطَّأنا ليوسف {في} أرض".

قال مقاتل:"المُلْك والسُّلْطان في أرض مِصر".

عن ابن زيد:"{مكنا ليوسف في الأرض}، قال: ملكناه فيها".

قال السدي:"فاستعمله على مصر، فكان صاحب أمرها هو الذي يلي البيع والأمر".

عن ابن إسحاق: "{إني حفيظ عليم}، بما وليتني، قال: قد فعلت. فولاه فيما يذكرون عمل أطيفير، وعزل أطيفير عما كان عليه".

حكي مقاتل عن ابن عباس، قال:"لبث بعد ذلك سنة ونصفا ثم ملك أرض مصر".

فروى مقاتل أن النبي ﷺ قال: لو قال: «إني حفيظ عليم» -إن شاء الله- لملك من يومه ذلك".

قال الماوردي:"ثم مات إظفير فزوّجه الملك بامرأة إظفير راعيل، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء وولدت له ولدين أفرائيم ومنشا ابني يوسف، ومن زعم أنها زليخا قال لم يتزوجها يوسف وأنها لما رأته في موكبه بكت، ثم قالت: الحمد لله الذي جعل الملوك عبيدًا بالمعصية، وجعل العبيد بالطاعة ملوكًا، فضمها إليه فكانت في عياله حتى ماتت عنده ولم يتزوجها".

قوله تعالى: {يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ} [يوسف: ٥٦].

ومثل هذا التمكين العظيم، مكنا ليوسف في أرض مصر، حيث هيأنا له أن ينتقل في أماكنها ومنازلها حيث يشاء له التنقل، دون أن يمنعه مانع من الحلول في أي مكان فيها.

والجملة الكريمة كناية عن قدرته على التصرف والتنقل في جميع أرض مصر، كما يتصرف ويتنقل الرجل في منزله الخاص.

=

=

قال الطبري:"يقول: يتخذ من أرض مصر منزلا حيث يشاء، بعد الحبس والضيق".

قال سعيد بن جبير:"يقول: ينزل منها حيث يشاء".

قال ابن زيد:"يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا يصنع فيها ما يشاء فوضت إليه، قال: ولو يشاء أن يجعل فرعون من تحت يديه، ويجعله من فوق لفعل".

قوله تعالى: {نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ} [يوسف: ٥٦]، أي:"نخص بإِنعامنا وفضلنا من نشاء من عبادنا".

وليعلم أن كل شيء علقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، أي: أنه ليست مشيئة الله مجردة هكذا تأتي عفوا، لا، هي مشيئة مقرونه بالحكمة، والدليل على ذلك، قوله تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما) فلما بين أن مشيئتهم بمشيئة الله، بين أن ذلك مبني عن علم وحكمة.

قال الطبري: أي: "من خلقنا، كما أصبنا يوسف بها، فمكنا له في الأرض بعد العبودة والإسار، وبعد الإلقاء في الجبّ".

قال مقاتل:"يعني: سعتنا من نشاء".

قال ابن عباس: "أتفضل على من أشاء برحمتي".

قوله تعالى: {وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٥٦]، أي:"ولا يضيع أجر مَن أحسن عمله وأطاع ربه".

الذين يتقنون أداء ما كلفهم الله بأدائه، بل نوفيهم أجورهم على إحسانهم في الدنيا قبل الآخرة إذا شئنا ذلك.

فالإحسان: إحسان في عبادة الخالق، وإحسان إلى المخلوق.

في عبادة الله، إخلاصا لله تعالى، ومتابعة للرسول ﷺ، كما قال تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) وقال تعالى (بلى من أسلم وجهه لله

=

=

وهو محسن فله أجره عند ربه).

فالإحسان في عبادة الله: أن تقوم بالعمل متقنا فيه إخلاصا ومتابعة.

والإحسان إلى المخلوق: بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك.

فمن أعظم الإحسان الصبر في ذات الله: لصبره في الجب، وفي الرق، وفي السجن، وصبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة.

قال الطبري: "يقول: ولا نبطل جزاء عمل من أحسن فأطاع ربه، وعمل بما أمره، وانتهى عما نهاه عنه، كما لم نبطل جزاء عمل يوسف إذ أحسن فأطاع الله".

قل الماوردي:"يعني في الآخرة بالجزاء. ومنهم من حملها على الدنيا، ومنهم من حملها على الآخرة، والأصح ما قدمناه".

واختلف فيما أوتيه من هذا الحال على قولين:

أحدهما: ثواب من الله تعالى على ما ابتلاه.

الثاني: أنه أنعم بذلك عليه تفضلًا منه، وثوابه باقٍ على حاله في الآخرة.

قال ابن إسحاق:"فذكروا، والله أعلم، أن أطيفير هلك في تلك الليالي، وأن الملك الريان زوج يوسف امرأة أطيفير، راعيل وأنها حين أدخلت عليه قال: أليس هذا خيرا مما كنت تريدين؟ قال فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة كما ترى امرأة حسناء جملاء ناعمة في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي على ما رأيت فيزعمون أنه وجدها عذراء فأصابها فولدت له رجلين".

قال الفضيل بن عياض: "وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق، حتى مر يوسف فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكا بطاعته وجعل الملوك عبيدا بمعصيته".

قوله تعالى: {وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يوسف: ٥٧]،

=

=

أي:"ولأجر الآخرة وثوابها خير للمؤمنين المتقين من أجر الدنيا".

يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا كما قال تعالى في حق سليمان عليه السلام (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب).

قال الطبري:"ولثواب الله في الآخرة {خير للذين آمنوا} يقول: للذين صدقوا الله ورسوله، مما أعطى يوسف في الدنيا من تمكينه له في أرض مصر، {وكانوا يتقون}، يقول: وكانوا يتقون الله، فيخافون عقابه في خلاف أمره واستحلال محارمه، فيطيعونه في أمره ونهيه".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف، عليه السلام، في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا كما قال تعالى في حق سليمان، عليه السلام: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} [ص: ٣٩، ٤٠]، والغرض أن يوسف، عليه السلام، ولاه مَلك مصر الريانُ بن الوليد الوزارة في بلاد مصر، مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف، عليه السلام".

عن عكرمة: "دار {الآخرة}، يقول: الجنة".

عن مجاهد: "{يتقون}، يطيعونه".

وفي قوله تعالى: {وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يوسف: ٥٧]، وجهان من التفسير:

أحدهما: ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا من أجر الدنيا، لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا منقطع. وهذا معنى قول ابن عباس.

عن ابن عباس: "{ولأجر الآخرة خير}، يقول: باقية".

=

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨).

{وَجَاءَ إِخْوَة يُوسُف} إِلَّا بِنْيَامِين لِيَمْتَارُوا لِمَا بَلَغَهُمْ أَنَّ عَزِيز مِصْر يُعْطِي الطَّعَام بِثَمَنِهِ {فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ} أَنَّهُمْ إِخْوَته {وَهُمْ لَهُ منكرون} لا يعرفونه لِبُعْدِ عَهْدهمْ بِهِ وَظَنّهمْ هَلَاكه فَكَلَّمُوهُ بالعبرانية فَقَالَ كَالْمُنْكِرِ عَلَيْهِمْ مَا أَقْدَمَكُمْ بِلَادِي فَقَالُوا لِلْمِيرَةِ فَقَالَ لَعَلَّكُمْ عُيُون قَالُوا مَعَاذ الله قَالَ فَمِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ قَالُوا مِنْ بِلَاد كَنْعَان وَأَبُونَا يَعْقُوب نَبِيّ الله قَالَ وَلَهُ أَوْلَاد غَيْركُمْ قَالُوا نَعَمْ كُنَّا اثْنَيْ عَشَر فَذَهَبَ أَصْغَرنَا هَلَكَ فِي الْبَرِّيَّة وَكَانَ أَحَبّنَا إِلَيْهِ وَبَقِيَ شَقِيقه فَاحْتَبَسَهُ لِيَتَسَلَّى بِهِ عَنْهُ فَأَمَرَ بِإِنْزَالِهِمْ وَإِكْرَامهمْ.

=

الثاني: ولأجر الآخرة خير ليوسف من التشاغل بملك الدنيا ونعيمها لما فيه من التبعة.

عن مالك بن دينار قال: "سألت الحسن قلت: يا أبا سعيد {ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون}: ما هيه؟ قال: يا مالك: اتقوا المحارم، خمصت بطونهم، المحارم تركوا وهم يشتهونها".

(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون)

- **قال القرطبي**: قوله تعالى (ولأجر الآخرة خير) أي: ما نعطيه في الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه في الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظاهر الآية العموم في كل مؤمن متق.

في الدنيا موت وفي الآخرة لا موت - في الدنيا هموم وغموم وفي الآخرة لا هموم ولا غموم - في الدنيا نعيم منقطع وفي الآخرة نعيم دائم.

وهكذا كافأ الله تعالى يوسف على صبره وتقواه وإحسانه، بما يستحقه من خير وسعادة في الدنيا والآخرة.

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩).

{وَلَمَّا جَهَزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ} وَفَّى لَهُمْ كَيْلهمْ {قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ} أَيْ بِنْيَامِين لِأَعْلَم صِدْقكُمْ فِيمَا قُلْتُمْ {أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أوفي الكيل} أتمه من غير بخس {وأنا خير المنزلين}.

فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠).

{فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْل لَكُمْ عندي} أي ميرة {ولا تقربون} نَهْي أَوْ عَطْف عَلَى مَحَلّ فَلَا كَيْل أَيْ تُحْرَمُوا وَلَا تَقْرَبُوا.

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١).

{قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ} سَنَجْتَهِدُ فِي طَلَبه مِنْهُ {وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ} ذَلِكَ.

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢).

{وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ} وَفِي قِرَاءَة لِفِتْيَانِهِ غِلْمَانه {اجْعَلُوا بِضَاعَتهمْ} الَّتِي أَتَوْا بِهَا ثَمَن الْمِيرَة وَكَانَتْ دَرَاهِم {فِي رِحَالهمْ} أَوْعِيَتهمْ {لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلهمْ} وَفَرَّغُوا أَوْعِيَتهمْ {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} إِلَيْنَا لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِلُّونَ إِمْسَاكهَا.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣).

{فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْل} إنْ لَمْ تُرْسِل أَخَانَا إلَيْهِ {فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ} بِالنُّونِ وَالْيَاء {وإنا له لحافظون}.

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ

أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤).

{قَالَ هَلْ} مَا {آمَنَكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ} يُوسُف {مِنْ قَبْل} وَقَدْ فعلتم به ما فعلتم {فالله خير حفظا} وفي قراءة حافظا تَمْيِيز كَقَوْلِهِمْ لِلَّهِ دَرّه فَارِسًا {وَهُوَ أَرْحَم الرَّاحِمِينَ} فَأَرْجُو أَنْ يَمُنّ بِحِفْظِهِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ} [يوسف: ٥٨]، أي:"وقدِمَ إخوة يوسف إلى «مصر» -بعد أن حلَّ بهم الجدب في أرضهم-؛ ليجلبوا منها الطعام".

قال مقاتل:"من أرض كنعان".

قال البيضاوي:"روي: أنه لما استوزره الملك أقام العدل واجتهد في تكثير الزراعات وضبط الغلات، حتى دخلت السنون المجدبة وعم القحط مصر والشأم ونواحيهما، وتوجه إليه الناس فباعها أولا بالدراهم والدنانير حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعا ثم عرض الأمر على الملك فقال: الرأي رأيك فأعتقهم ورد عليهم أموالهم، وكان قد أصاب كنعان ما أصاب سائر البلاد فأرسل يعقوب بنيه- غير بنيامين- إليه للميرة".

قال ابن عطية: قال السدي وغيره: سبب مجيئهم أن الجماعة التي أنذر بها يوسف أصابت البلاد التي كان بها يعقوب، وروي أنه كان في الغربات من أرض فلسطين بغور الشام. وقيل: كان بالأولاج من ناحية الشعب، وكان صاحب بادية له إبل وشاء، فأصابهم الجوع، وكان أهل مصر قد استعدوا وادخروا من السنين الخصيبة، فكان الناس يمتارون من عند يوسف، وهو في رتبة العزيز المتقدم، وكان لا يعطي الوارد أكثر من حمل بعير، يسوي بين الناس.

وقال القرطبي: قوله تعالى (وجآء إخوة يوسف) أي: جاؤوا إلى مصر لما أصابهم القحط ليمتاروا؛ وهذا من اختصار القرآن المعجز.

=

=

قال ابن عباس وغيره: لما أصاب الناس القحط والشدة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للميرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدة بالناس يجلس (للناس) عند البيع بنفسه، فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وسقا.

- قال ابن عاشور:... وكان مجيء إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر للميرة عند حلول القحط بأرض مصر وما جاورها من بلاد فلسطين منازل آل يوسف عليه السلام، وكان مجيئهم في السنة الثانية من سني القحط.

وإنما جاء إخوته عدا بنيامين لصغره، وإنما رحلوا للميرة كلهم لعل ذلك لأن التزويد من الطعام كان بتقدير يراعى فيه عدد الممتارين، وأيضا ليكونوا جماعة لا يطمع فيهم قطاع الطريق، وكان الذين جاءوا عشرة.

(وجاء إخوة يوسف) جاءوا إليه جميعا -ما عدا «بنيامين» - وهو الشقيق الأصغر ليوسف ليحصلوا منه على أكبر كمية من الطعام على حسب عددهم، وليكون عندهم القدرة على صد العدوان إذا ما تعرض لهم قطاع الطرق الذين يكثرون في أوقات الجدب والجوع.

قوله تعالى: {فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ} [يوسف: ٥٨]، أي:"فدخلوا عليه فعرفهم، ولم يعرفوه لطول المدة وتغيُّر هيئته، ولأنه كان مرتقبا لحضورهم لعلمه بجدب بلادهم وعقد همته بهم، مع كونه يعرف هيئاتهم في لباسهم وغيره، ولم يتغير عليه كبير من حالهم".

قال ابن عاشور: "ودخولهم عليه يدل على أنه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات لأن بها حياة الأمة".

قال مقاتل:"{فَدَخَلُوا عَلَيْهِ}، أي: على يوسف بمصر، {فَعَرَفَهُمْ} يوسف، {وَهُمْ

=

=

لَهُ مُنْكِرُونَ}، يقول: وهم لا يعرفون يوسف".

قال البيضاوي:"أي: عرفهم يوسف ولم يعرفوه لطول العهد ومفارقتهم إياه في سن الحداثة ونسيانهم إياه، وتوهمهم أنه هلك وبعد حاله التي رأوه عليها من حاله حين فارقوه وقلة تأملهم في حلاه من التهيب والاستعظام".

عن قتادة: "{وهم له منكرون}، قال: لا يعرفونه".

قال الزمخشري:"لم يعرفوه لطول العهد ومفارقته إياهم في سن الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقوه عليها طريحا في البئر، مشريا بدراهم معدودة، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم، ولأن الملك مما يبدل الزى ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف. وقيل: رأوه على زى فرعون عليه ثياب الحرير جالسا على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج، فما خطر ببالهم أنه هو. وقيل: ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج، وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال ورأى زيهم قريبا من زيهم إذ ذلك، ولأن همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم، فكان يتأمل ويتفطن".

- قال الماوردي: لأنه فارقوه صغيرا فكبر، وفقيرا فاستغنى، وباعوه عبدا فصار ملكا، فلذلك أنكروه، ولم يتعرف إليهم ليعرفوه.

- **قال القرطبي:** لأنهم خلفوه صبيا، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة، مع طول المدة؛ وهي أربعون سنة.

- ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن المجاعة التي حدثت في السبع السنين الشداد شملت مصر وما جاورها من البلاد- كما سبق أن أشرنا-.

كما يؤخذ منها أن مصر كانت محط أنظار المعسرين من مختلف البلاد بفضل

=

=

حسن تدبير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخذه الأمور بالعدالة والرحمة وسهره على مصالح الناس، ومراقبته لشئون بيع الطعام، وعدم الاعتماد على غيره حتى إن إخوته قد دخلوا عليه وحده، دون غيره من المسئولين في مصر.

وفي قوله تعالى: {فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ} [يوسف: ٥٨]، وجهان:

أحدهما: أنه عرفهم حين دخلوا عليه من غير تعريف، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"إن إخوة يوسف لما دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون قال: جاء بصواع الملك الذي كان يشرب فيه فوضعه على يده فجعل ينقره ويطن وينقره ويطن فقال: إن هذا الجام ليخبرني عنكم خبرا، هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف؟ وكان أبوه يحبه دونكم؟ وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في الجب، وأخبرتم أباكم أن الذئب أكله كله، وجئتم على قميصه بدم كذب؟ قال: فجعل بعضهم ينظر إلى بعض، ويعجبون إن هذا الجام ليخبر خبركم فمن أين يعلم هذا؟".

الثاني: ما عرفهم حتى تعرفوا إليه فعرفهم، قاله الحسن.

عن ابن عون، قال: "قلت للحسن ترى يوسف عرف إخوته؟ قال: لا والله ما عرفهم حتى تعرفوا إليه".

وقيل: بل عرفهم بلسانهم العبراني حين تكلموا به.

قال ابن عباس: "إنما سميت عبرانية لأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عبر بهم فلسطين فنزل من وراء نهر الأردن فسمّوا العبرانية".

قال ابن إسحاق:"لما اطمأن يوسف في ملكه، وخرج من البلاء الذي كان فيه، وخلت السنون المخصبة التي كان أمرهم بالإعداد فيها للسنين التي أخبرهم بها أنها كائنة، جُهد الناس في كل وجه، وضربوا إلى مصر يلتمسون بها الميرة من كل بلدة. وكان يوسف حين رأى ما أصاب الناس من الجهد، قد آسى بينهم، وكان لا

=

=

يحمل للرجل إلا بعيرًا واحدًا، ولا يحمل للرجل الواحد بعيرين، تقسيطًا بين الناس، وتوسيعًا عليهم، فقدم إخوته فيمن قدم عليه من الناس، يلتمسون الميرة من مصر، فعرفهم وهم له منكرون، لما أراد الله أن يبلغ ليوسف عليه السلام فيما أراد".

قال السدي:"أصاب الناس الجوعُ، حتى أصاب بلادَ يعقوب التي هو بها، فبعث بنيه إلى مصر، وأمسك أخا يوسف بنيامين ؛ فلما دخلوا على يوسف عرفهم وهم له منكرون ؛ فلما نظر إليهم، قال: أخبروني ما أمركم، فإني أنكر شأنكم! قالوا: نحن قوم من أرض الشأم. قال: فما جاء بكم قالوا: جئنا نمتار طعامًا. قال: كذبتم، أنتم عيون، كم أنتم؟ قالوا: عشرة. قال: أنتم عشرة آلاف، كل رجل منكم أمير ألف، فأخبروني خبركم. قالوا: إنّا إخوة بنو رجل صِدِّيق، وإنا كنا اثنى عشر، وكان أبونا يحبّ أخًا لنا، وإنه ذهب معنا البرية فهلك منا فيها، وكان أحبَّنا إلى أبينا. قال: فإلى من سكن أبوكم بعده؟ قالوا: إلى أخ لنا أصغر منه. قال: فكيف تخبروني أن أباكم صدِّيق، وهو يحب الصغير منكم دون الكبير؟ ائتوني بأخيكم هذا حتى أنظر إليه {فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون}، قال: فضعُوا بعضكم رهينة حتى ترجعوا. فوضعوا شمعون".

عن ابن أبي الجلد قال: "قال إخوة يوسف ليوسف حين قال لهم إن أمركم ليريبني، وهو يترقب عليهم، كأنكم جواسيس، قالوا أيها العزيز: إن أبانا شيخ صديق وإنا قوم صديقون، وإن الله يحيي بكلام الأنبياء القلوب،

كما يحيي وابل السماء الأرض ويقول لهم وفي يده الإناء وهو يقرعه القرعة، كأن هذا يخبر عنكم بأنكم جواسيس".

قوله تعالى: {وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ} [يوسف: ٥٩]، أي:"ولمّا هيأ لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم".

أصل الجهاز- بفتح الجيم وكسرها قليل-: ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع،

=

=

يقال: جهزت المسافر، أي هيأت له جهازه الذي يحتاج إليه في سفره، ومنه جهاز العروس وهو ما تزف به إلى زوجها، وجهاز الميت وهو ما يحتاج إليه في دفنه.

- قال ابن عطية: و الجهاز ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع وكل ما يحمل، وكذلك جهاز العروس وجهاز الميت.

والمراد: أن يوسف بعد أن دخل عليه إخوته وعرفهم، أكرم وفادتهم. وعاملهم معاملة طيبة جعلتهم يأنسون إليه، وهيأ لهم ما هم في حاجة إليه من الطعام وغيره، ثم استدرجهم بعد ذلك في الكلام حتى عرف منهم على وجه التفصيل أحوالهم.

قال الطبري:"يقول: ولما حمَّل يوسف لإخوته أبا عرهم من الطعام، فأوقر لكل رجل منهم بعيرَه".

قال الزمخشري:"أي: أصلحهم بعدتهم وهي عدة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون وأوقر ركائبهم بما جاءوا من الميرة".

قال محمد بن إسحاق:"لما جهز يوسف فيمن جهَّز من الناس، حَمَل لكل رجل منهم بعيرًا بعدّتهم".

وقرئ: «بجهازهم» بكسر الجيم.

قوله تعالى: {قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ} [يوسف: ٥٩]، أي:"فقال: ائتوني بأخيكم من أبيكم".

وقول يوسف هذا يستلزم: أن حديثا متنوعا نشأ بينه وبينهم، عرف منه يوسف، أن لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم وإلا فلو كان هذا الطلب منه لهم بعد معرفته لهم مباشرة، لشعروا بأنه يعرفهم وهو لا يريد ذلك.

- قال الرازي: واعلم أنه لا بد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سببا لسؤال يوسف عن حال أخيهم، ومن هنا قال المفسرون: إن قوله ائتوني بأخ لكم من أبيكم يقتضى كلاما دار بينه وبينهم نشأ عنه هذا الطلب.

=

=

قال قتادة:"يعني: بنيامين، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه".

قال الطبري:"قال لهم: {ائتوني بأخ لكم من أبيكم}، كيما أحمل لكم بعيرًا آخر، فتزدادوا به حمل بعير آخر".

قال الزمخشري:"لا بد من مقدمة سبقت له معهم، حتى اجتر القول هذه المسألة. روى أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبرونى من أنتم وما شأنكم؟ فإنى أنكركم. قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال، لعلكم جئتم عيونا تنظرون عورة بلادي؟ قالوا: معاذ الله، نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صديق نبى من الأنبياء، اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا كنا اثنى عشر، فهلك منا واحد. قال: فكم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون وأن الذي تقولون حق؟ قالوا: إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا. قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم، وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون- وكان أحسنهم رأيا في يوسف- فخلفوه عنده، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم".

قال الكلبي: "إنما اختار شمعون منهم لأنه يوم الجُبّ كان أجملهم قولًا وأحسنهم رأيًا".

قال محمد بن إسحاق:"ثم قال لهم: {ائتوني بأخ لكم من أبيكم}، أجعل لكم بعيرًا آخر".

قوله تعالى: {أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ} [يوسف: ٥٩].

أي: ألا ترون أنى أكرمت وفادتكم، وأعطيتكم فوق ما تريدون من الطعام، وأنزلتكم ببلدي منزلا كريما... وما دام أمري معكم كذلك، فلا بد من أن تأتوني معكم بأخيكم من أبيكم في المرة القادمة، لكي أزيد في إكرامكم وعطائكم.

=

=

قال الطبري:"فلا أبخسه أحدًا".

قال محمد بن إسحاق:"أي: لا أبخس الناس شيئًا".

قوله تعالى: {وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} [يوسف: ٥٩]، أي:"وأنا خير المضيفين لكم".

قال الطبري:"وأنا خير من أنزل ضيفًا على نفسه من الناس بهذه البلدة، فأنا أضيفكم".

عن مجاهد: "{وأنا خير المنزلين}، يوسف يقوله: أنا خيرُ من يُضيف بمصر".

قال محمد بن إسحاق:"أي: خير لكم من غيري، فإنكم إن أتيتم به أكرمت منزلتكم وأحسنت إليكم، وازددتم به بعيرًا مع عدّتكم، فإني لا أعطي كلّ رجل منكم إلا بعيرًا".

قوله تعالى: {فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي} [يوسف: ٦٠]، أي:"إن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة، رغبهم ثم توعدهم".

قال الطبري:"يقول: فليس لكم عندي طعام أكيله لكم".

- قال الماوردي: يعني فيما بعد لأنه قد وفاهم كيلهم في هذه الحال.

- قال في البحر: والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام كان بوحي من الله والا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكن الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته، ولتتفسر الرؤيا الأولى.

قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُونِ} [يوسف: ٦٠]، أي:"ولا تقربوا بلادي مرة ثانية".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُونِ} [يوسف: ٦٠]، وجهان:

أحدهما: أن يكون داخلا في حكم الجزاء مجزوما، عطفا على محل قوله: {فلا كيل لكم}، كأنه قيل: فإن لم تأتونى به تحرموا ولا تقربوا.

قال الماوردي:"أي: لا أنزلكم عندي منزلة القريب".

والثاني: وأن يكون بمعنى النهى، أي: لا تقربوا بلادي. قاله ابن إسحاق ، واختاره

=

=

الطبري.

قال الثعلبي:"أي: ولا تقربوا بابي وبلادي بعد ذلك، وهو جزم على النهي".

وقال الزجاج:"لفظه لفظ الخبر، ومعناه معنى الأمر".

قال محمد بن إسحاق:"لا تقربوا بلدي".

قوله تعالى: {قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ} [يوسف: ٦١].

أي: قال إخوة يوسف له بعد أن أكد لهم وجوب إحضار أخيهم لأبيهم معهم: (سنراود عنه أباه) أي: سنطلب حضوره معنا من أبيه برفق ولين ومخادعة ومحايلة «وإنا لفاعلون» هذه المراودة باجتهاد لا كلل ولا ملل معه وفاء لحقك علينا.

وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار أخيهم لأبيهم معهم- وهو «بنيامين» الشقيق الأصغر ليوسف-، ليس أمرا سهلا أو ميسورا، وإنما يحتاج إلى جهد كبير مع أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم.

قال الزمخشري: أي:"سنخادعه عنه، وسنجتهد ونحتال حتى تنتزعه من يده".

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ} [يوسف: ٦١]، أي:"وإنّا لفاعلون ذلك".

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ} [يوسف: ٦١]، وجهان:

أحدهما: وإنا لقادرون على ذلك لا نتعايى به.

الثاني: وإنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى.

قال القرطبي: "إن قيل: كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؟ قيل له: عن هذا أربعة أجوبة:

أحدها: يجوز أن يكون الله ﷻ أمره بذلك ابتلاء ليعقوب، ليعظم له الثواب؛ فاتبع أمره فيه.

الثاني: يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام.

=

=

الثالث: لتتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه".

الرابع: ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته؛ لميل كان منه إليه؛ والأول أظهر، والله أعلم.

عن ابن إسحاق: "{قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون}: لنجتهدن".

قوله تعالى: {وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ} [يوسف: ٦٢]، أي:"وقال يوسف لغلمانه: اجعلوا ثمن ما أخذوه في أمتعتهم سرًا".

الفتيان: جمع فتى والمراد بهم هنا من يقومون بخدمته ومساعدته في عمله.

والبضاعة في الأصل: القطعة الوفيرة من الأموال التي تقتنى للتجارة، مأخوذة من البضع بمعنى القطع.

والمراد بها هنا: أثمان الطعام الذي أعطاه لهم يوسف عليه السلام.

والرحال: جمع رحل، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب.

قال الشوكاني: والمراد هنا: الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام.

والمراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام، وكانت نعالا وأدما.

فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلا عليهم. وقيل: فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن. قاله الفراء. وقيل: فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام. وقيل: إنه استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام.

والمعنى: وقال يوسف عليه السلام لفتيانه الذين يقومون بتلبية مطالبه: أعيدوا إلى رحال هؤلاء القوم- وهم إخوته- الأثمان التي دفعوها لنا في مقابل ما أخذوه منا من طعام، وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم، لعل هؤلاء القوم عند ما يعودون إلى بلادهم، ويفتحون أمتعتهم، فيجدون فيها الأثمان التي دفعوها لنا في مقابل ما

=

=

أخذوه من طعام وغيره.

لعلهم حينئذ يرجعون إلينا مرة أخرى، ليدفعوها لنا في مقابل ما أخذوه.

- قال الرازي: اختلفوا في السبب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم على وجوه:

الأول: أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه، علموا أن ذلك كان كرما من يوسف وسخاء محضا فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته.

الثاني: خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى.

الثالث: أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط.

الرابع: رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم.

الخامس: قال الفراء: إنهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد الأنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه، أو رجعوا ليردوا المال إلى مالكه.

السادس: أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة.

قال الزمخشري:"(وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ) أي: لغلمانه الكيالين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقال يوسف لغلمانه: اجعلوا أثمان الطعام التي أخذتموها منهم {في رحالهم}".

عن قتادة: "{وقال لفتيانه}، أي: لغلمانه"، {اجعلوا بضاعتهم في رحالهم}، أي: أوراقهم في رحالهم".

عن السدي، قال: "{وقال لفتيانه} وهو يكيل لهم {اجعلوا بضاعتهم في رحالهم}".

عن محمد بن إسحاق، قال: "ثم أمر ببضاعتهم التي أعطاهم بها من الطعام، فجعلت في رحالهم وهم لا يعلمون".

=

=

وقرئ: «لفتيانه»، وهما جمع «فتى».

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ} [يوسف: ٦٢].

أي: لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم.

(لعلهم يرجعون) أي: لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها، فإنه علم أن دينهم يحملهم على رد الثمن، لأنهم مطهرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه.

قال الزمخشري:"{لعلهم يعرفون} حق ردها وحق التكرم بإعطاء البدلين {إذا انقلبوا إلى أهلهم} وفرغوا ظروفهم".

عن محمد بن إسحاق، قال: "ثم خرجوا حتى قدموا على أبيهم، وكان منزلهم فيما ذكر لي بعض أهل العلم، بالعربات، من أرض فلسطين بغور الشام، وبعض يقول: كان بالأولاج، من ناحية الشعب أسفل من حسمى وكان صاحب بادية له بها شاء وإبل".

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [يوسف: ٦٢]، أي:"لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها".

قال السدي:"لعلهم يرجعون إليّ".

قال الزجاج:"وفي هذا وجهان، أي: إذا رأوا بضاعتهم مردودة عليهم، علموا أن ما كيلَ لهم مِنَ الطعام لم يؤخذ منهم ثمنُه، وأن وضع البضاعة في الرحال لم يكن إلا عن أمْر يُوسُفَ.

ويجوز أن يكون {لعلهم يَرْجِعُونَ}: يَرُّدون البضاعة. لأنها ثمن ما اكتالوه. ولأنهم لا يأخذون شيئًا ألا بثمنه".

قال الزمخشري:"لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، وكانت بضاعتهم النعال والأدم. وقيل: تخوف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون

=

به. وقيل: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمنا. وقيل: علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها. وقيل: معنى لعلهم يرجعون لعلهم يردونها".

قال الصابوني:"فإنه علم أنَّ دينهم يحملهم على رد الثمن لأنهم مطهّرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه".

قوله تعالى: {فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ} [يوسف: ٦٣]، أي:"فلما عادوا إلى أبيهم قالوا له - قبل أن يفتحوا متاعهم - يا أبانا لقد أُنذرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخينا الذي أخبرناه به".

قال الطبري:"يقول: منع منا الكيل فوق الكيل الذي كيل لنا، ولم يكل لكل رجل منا إلا كيل بعير".

قال الزمخشري:"يريدون قول يوسف: {فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندي}، لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل".

قال السدي:"فلما رجع القوم إلى أبيهم، كلموه فقالوا، يا أبانا، إن ملك مصر أكرمنا، لو كان رجلا منا من بني يعقوب ما أكرمنا كرامته، وإنه ارتهن شمعون وقال: ائتوني بأخيكم هذا الذي عطف عليه أبوكم بعد أخيكم الذي هلك حتى أنظر إليه فإن لم تأتوني به، فلا تقربوا بلادي أبدا".

واختلفوا في نزلهم الذي رجعوا إليه إلى أبيهم على قولين:

أحدهما: بالعربات من أرض فلسطين. قاله ابن إسحاق.

الثاني: بالأولاج من ناحية الشعب أسفل من حمس، وكان صاحب بادية له شاءٌ وإبل. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: {فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ} [يوسف: ٦٣]، أي:"فأرسل معنا أخانا بنيامين لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تُكال لنا".

=

قال الطبري:"{فأرسل معنا أخانا}، بنيامين يكتل لنفسه كيل بعير آخر زيادة على كيل أباعرنا".

قال الزجاج:"أي: إن أرسلته معنا اكتلنا، وإلا فقد مُنِعْنَا الكيلَ".

قال الزمخشري:"{نكتل}: نرفع المانع من الكيل، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه".

وقرئ: «يكتل» بمعنى: يكتل أخونا، فينضم اكتياله إلى اكتيالنا. أو يكن سببا للاكتيال فإن امتناعه بسببه.

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [يوسف: ٦٣]، أي:"وإننا نحفظه من أن يناله مكروه".

قال الطبري:"من أن يناله مكروه في سفره".

قوله تعالى: {قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ} [يوسف: ٦٤].

أي: قال لهم يعقوب: كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بيوسف بعد أن ضمنتم لي حفظه، ثم خنتم العهد؟ فأخاف أن تكيدوا له، كما كدتم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله.

قال الطبري:"قال أبوهم يعقوب: هل آمنكم على أخيكم من أبيكم الذي تسألوني أن أرسله معكم إلا كما أمنتكم على أخيه يوسف من قبله".

قال الزمخشري:"يريد أنكم قلتم في يوسف: {وإنا له لحافظون} كما تقولونه في أخيه، ثم خنتم بضمانكم، فما يؤمنني من مثل ذلك".

قال ابن عطية: "قوله (هل) توقيف وتقرير، وتألم يعقوب عليه السلام من فرقة بنيامين، ولم يصرح بمنعهم من حمله لما رأى في ذلك من المصلحة، لكنه أعلمهم بقلة طمأنينته إليهم. وأنه يخاف عليه من كيدهم، ولكن ظاهر أمرهم أنهم كانوا نبئوا

=

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥).

{وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعهمْ وَجَدُوا بِضَاعَتهمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي} مَا

=

وانتقلت حالهم، فلم يخف كمثل ما خاف على يوسف من قبل، لكن أعلم بأن في نفسه شيئا، ثم استسلم لله تعالى، بخلاف عبارته في قصة يوسف".

قال عطاء عن ابن عباس: "يريد قد صنعتم بي هذا من قبل في يوسف فكيف آمنكم علي بنيامين".

قوله تعالى: {فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤]، أي:"حفظ الله خيرٌ من حفظكم، وهو أرحم الراحمين، أرجو أن يرحمني فيحفظه ويرده عليَّ".

قال الطبري:"فالله خيركم حافظا، والله أرحم راحم بخلقه، يرحم ضعفي على كبر سني، ووحدتي بفقد ولدي، فلا يضيعه، ولكنه يحفظه حتى يرده علي لرحمته".

قال الزمخشري:"ثم قال: {فالله خير حافظا}، فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم".

قال محمد بن إسحاق:"قالوا: يا أبانا، قدمنا على خير رجل، أنزلنا فأكرم منزلنا، وكال لنا فأوفانا، ولم يبخسنا، وقد أمرنا أن نأتيه بأخ لنا من أبينا، وقال: إن أنتم لم تفعلوا فلا تقربني ولا تدخلن بلدي فقال لهم يعقوب: {هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين}".

قال الخازن: وظاهر هذا الكلام يدل على أنه أرسله معهم، وإنما أرسله معهم وقد شاهد ما فعلوا بيوسف لأنه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف أو أن يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح لما كبروا فأرسله معهم أو أن شدة القحط وضيق الوقت أحوجه إلى ذلك.

اسْتِفْهَامِيَّة أَيْ أَيّ شَيْء نَطْلُب مِنْ إِكْرَام الْمَلِك أَعْظَم مِنْ هَذَا وَقُرِئَ بالفوقانية خِطَابًا لِيَعْقُوب وكانوا ذكروا له إكرامه لَهُمْ {هَذِهِ بِضَاعَتنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِير أَهْلنَا} نَأْتِي بِالْمِيرَةِ لَهُمْ وَهِيَ الطَّعَام {وَنَحْفَظ أَخَانَا وَنَزْدَاد كَيْل بَعِير} لِأَخِينَا {ذَلِكَ كَيْل يَسِير} سَهْل عَلَى الْمَلِك لِسَخَائِهِ.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦).

{قَالَ لَنْ أُرْسِلهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُون مَوْثِقًا} عَهْدًا {مِنْ الله} بِأَنْ تَحْلِفُوا {لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاط بِكُمْ} بِأَنْ تَمُوتُوا أَوْ تُغْلَبُوا فَلَا تُطِيقُوا الْإِتْيَان بِهِ فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ {فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقهمْ} بِذَلِكَ {قَالَ الله عَلَى مَا نَقُول} نَحْنُ وَأَنْتُمْ {وَكِيل} شَهِيد وأرسله معهم.

وَقَالَ يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧).

{وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا} مِصْر {مِنْ بَاب وَاحِد وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَاب مُتَفَرِّقَة} لِئَلَّا تُصِيبكُمْ الْعَيْن {وَمَا أُغْنِي} أَدْفَع {عَنْكُمْ} بِقَوْلِي ذَلِكَ {مِنْ الله مِنْ} زَائِدَة {شَيْء} قَدَّرَهُ عَلَيْكُمْ وَإِنَّمَا ذَلِكَ شَفَقَة {إنِ} مَا {الْحُكْم إلَّا لِلَّهِ} وَحْده {عَلَيْهِ تَوَكَّلْت} بِهِ وَثِقْت {وعليه فليتوكل المتوكلون.

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨).

قال تعالى {وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ} أَيْ مُتَفَرِّقِينَ {مَا كَانَ يُغْنِي

عَنْهُمْ مِنْ الله} أَيْ قَضَائِهِ {مِنْ} زَائِدَة {شَيْء إلَّا} لَكِنَّ {حَاجَة فِي نَفْس يَعْقُوب قَضَاهَا} وَهِيَ إرَادَة دَفْع الْعَيْن شَفَقَة {وَإِنَّهُ لَذُو عِلْم لِمَا عَلَّمْنَاهُ} لِتَعْلِيمِنَا إيَّاهُ {وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس} وَهُمْ الْكُفَّار {لَا يَعْلَمُونَ} إلْهَام الله لِأَصْفِيَائِهِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ} [يوسف: ٦٥]، أي:"ولما فتحوا أوعيتهم وجدوا ثمن بضاعتهم الذي دفعوه قد رُدَّ إليهم".
قال الطبري:"ولما فتح إخوة يوسف متاعَهم الذي حملوه من مصر من عند يوسف {وجدوا بضاعتهم، -وذلك ثمن الطعام الذي اكتالوه منه- رُدّت إليهم".
قال السدي:"ولما فتحوا متاعهم قال: لما رجعوا إلى أبيهم وفتحوا رحالهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، أتوا أباهم، {قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا}".
قال قتادة:"هذه أوراقنا ردت إلينا".
قوله تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي} [يوسف: ٦٥].
أي: قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا أي: يا أبانا ماذا نطلب من الإحسان والكرم أكثر من هذا الذي فعله معنا عزيز مصر؟ لقد أعطانا الطعام الذي نريده، ثم رد إلينا ثمنه الذي دفعناه له دون أن يخبرنا بذلك.
فما في قوله (ما نبغي) استفهامية، والاستفهام للتعجب من كرم عزيز مصر.
والمراد ببضاعتهم: الثمن الذي دفعوه للعزيز في مقابل ما أخذوه منه من زاد.
أي: كيف لا نعجب وندهش، وهذه بضاعتنا ردت إلينا من حيث لا ندري ومعها الأحمال التي اشتريناها من عزيز مصر لم ينقص منها شيء؟
وفي قوله تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي} [يوسف: ٦٥]، وجهان:
أحدهما: أنه على وجه الاستفهام، بمعنى: ما نبغي بعد هذا الذي قد عاملنا به، قاله قتادة

=

=

قال الطبري:"يعني أنهم قالوا لأبيهم: ماذا نبغي؟ " ..

قال قتادة:"ما نبغي وراء هذا، إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفي لنا الكيل".

قال قتادة:"ما نبغي وراء هذا، إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفي لنا الكيل".

الثاني: معناه ما نبغي بالكذب فيما أخبرناك به عن الملك، حكاه ابن عيسى.

قوله تعالى: {هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا} [يوسف: ٦٥]، أي:"هذا ثمن بضاعتنا ردَّه العزيز إلينا".

قال الطبري:"هذه بضاعتنا ردت إلينا! تطييبًا منهم لنفسه بما صُنع بهم في ردِّ بضاعتهم إليهم".

قال الصابوني:"أي: هذا ثمن الطعام قد ردّ إلينا من حيث لا ندري، فهل هناك مزيدٌ فوق هذا الإِحسان، أوفى لنا الكيل، وردَّ لنا الثمن!! أرادوا بذلك استنزال أبيهم عن رأيه".

قوله تعالى: {وَنَمِيرُ أَهْلَنَا} [يوسف: ٦٥]، أي:"ونأتي بالميرة والطعام لأهلنا".

قال أبو عبيدة:"{وَنَمِيرُ أَهْلَنا}، من: مرت تمير ميرا، وهى الميرة، أي: نأتيهم ونشترى لهم طعومهم، قال أبو ذؤيب:

أتى قرية كانت كثيرا طعامها ... كرفع التراب كلّ شئ يميرها".

قال الطبري:"يقول: ونطلب لأهلنا طعامًا فنشتريه لهم، يقال منه: «مارَ فلانٌ أهلهَ يميرهم مَيْرًا»، ومنه قول الشاعر:

بَعَثْتُكَ مَائِرًا فَمَكَثْتَ حَوْلا ... مَتَى يَأْتِي غِيَاثُكَ مَنْ تُغِيثُ".

قوله تعالى: {وَنَحْفَظُ أَخَانَا} [يوسف: ٦٥]، أي:"ونحفظ أخانا عند سفره معنا من المكاره".

قال الطبري:"الذي ترسله معنا".

قال مقاتل:"بنيامين من الضيعة".

=

=

قوله تعالى: {وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ} [يوسف: ٦٥]، أي:"ونزداد بوجوده معنا عند الدخول على عزيز مصر (كيل بعير) أي: ويعطينا العزيز حمل بعير من الزاد، زيادة على هذه المرة نظرا لوجود أخينا معنا".

ولعل قولهم هذا كان سببه أن يوسف عليه السلام كان يعطى من الطعام على عدد الرءوس، حتى يستطيع أن يوفر القوت للجميع في تلك السنوات الشداد. (لا يعطي الواحد إلا كيل بعير).

قال الطبري:"يقول: ونزداد على أحمالنا من الطعام حمل بعير يكال لنا ما حمل بعير آخر من إبلنا".

عن ابن جريج-من طريق القاسم: "{ونزداد كيل بعير}، قال: كان لكل رجل منهم حمل بعير، فقالوا: أرسل معنا أخانا نزداد حمل بعير".

عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- في قوله: {ولِمَن جاء به حِملُ بعير}، قال: "حِمْل حمارٍ طَعامٌ، وهي لغة".

عن قتادة:"{وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ}، أي: حمل بعير".

قال محمد بن إسحاق:"أي: نزداد بعدته بعيرا مع إبلنا ذلك كيل يسير".

قوله تعالى: {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} [يوسف: ٦٥].

اسم الإشارة في قوله سبحانه (ذلك كيل يسير) يعود إلى الزاد الذي أحضروه من مصر؛ أي: ذلك الطعام الذي أعطانا إياه عزيز مصر طعام يسير، لا يكفينا إلا لمدة قليلة من الزمان، ويجب أن نعود إلى مصر لنأتي بطعام آخر.

- قال الشوكاني: ومعنى (ذلك كيل يسير) أن زيادة كيل بعير لأخينا يسهل على الملك، ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيرا لا يتعاظمه ولا يضايقنا فيه.

وقيل إن المعنى: ذلك المكيل لأجلنا قليل نريد أن ينضاف إليه حمل بعير لأخينا. واختار الزجاج الأول.

=

=

قال أبو الحسن الحوفي:"أي: حمل يسير".

قال الطبري:"يقول: هذا حمل يسير".

قوله تعالى: {قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ} [يوسف: ٦٦].

أي: قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم: والله لن أرسل معكم «بنيامين» إلى مصر، حتى تحلفوا لي بالله، بأن تقولوا: والله لنأتينك به عند عودتنا، ولن نتخلى عن ذلك.

وفي هذه الآية: ضمان إخوة يوسف احضار أخيهم، وفي هذا: دليل على أنه يصح ضمان الحضور، وهي كفالة بدن من عليه دين، وهي صحيحة عند عامة العلماء، فمن ضمن حضور أحد وكفله، وجب عليه ولزمه ذلك، وقد ذهب الشافعي: إلى ضعفها من جهة القياس، وظاهر الكتاب ثبوتها؛ كما في هذه الآية.

قال الطبري:"قال يعقوب لبنيه: لن أرسل أخاكم معكم إلى ملك مصر= (حتى تؤتون موثقا من الله)، يقول: حتى تعطون موثقا من الله-وهو ما يوثق به من يمين وعهد- لتأتنني بأخيكم".

قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ} [يوسف: ٦٦].

أي: إلا أن تغلبوا فلا تقدروا على تخليصه، ولا يبقى لكم طريق أو حيلة إلى ذلك، قال مجاهد: إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذرا عندي.

- قال ابن عطية: قوله تعالى (إلا أن يحاط بكم) لفظ عام لجميع وجوه الغلبة والقسر والمعنى تعمكم الغلبة من جميع الجهات حتى لا تكون لكم حيلة ولا وجه تخلص. وقال مجاهد: المعنى: إلا أن تهلكوا جميعا. وقال قتادة: إلا ألا تطيقوا ذلك.

وهذا يرجحه لفظ الآية. وقد عَلَيْهِ السَّلَامُ قد توثق في هذه القصة، وأشهد الله تعالى، ووصى بنيه، وأخبر بعد ذلك بتوكله، فهذا توكل مع تسبب، وهو توكل جميع

=

=

المؤمنين.

قال مقاتل:"يعني: يحيط بكم الهلاك فتهلكوا جميعا".

عن مجاهد قوله: "{إلا أن يحاط بكم}: إلا أن تهلكوا جميعا".

قال قتادة:"إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك".

قال ابن إسحاق:"إلا أن يصيبكم أمر يذهب بكم جميعا، فيكون ذلك عذرا لكم عندي".

قال أبو الحسن الحوفي:"أي: يحيط بجميعكم مالا تقدرون على أن تؤتوني به، وأصله ضرب السور حول الشيء، ومنه يقال: يعلمه علم إحاطة أي: على التحديد".

قوله تعالى: {فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} [يوسف: ٦٦]، أي:"فلما حلفوا له وأعطوه العهد المؤكد، قال يعقوب: الله شهيد رقيب على ذلك".

قال الطبري:"يقول: فلما أعطوه عهودهم {قال}، يعقوب: {الله على ما نقول}، أنا وأنتم {وكيل}، يقول: هو شهيد علينا بالوفاء بما نقول جميعا".

عن مجاهد: "{فلما آتوه موثقهم}، قال: عهدهم".

قال ابن كثير: "وإنما فعل ذلك، لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها فبعثه معهم".

قوله تعالى: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ} [يوسف: ٦٧].

يقول تعالى، إخبارا عن يعقوب عليه السلام: إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي: إنه

=

=

خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه.

- قال الآلوسي: نهاهم عليه السلام عن ذلك حذرا من إصابة العين فإنهم كانوا ذوي جمال وشارة حسنة وقد اشتهروا بين أهل مصر بالزلفى والكرامة التي لم تكن لغيرهم عند الملك فكانوا مظنة لأن يعانوا إذا دخلوا كوكبة واحدة، وحيث كانوا مجهولين مغمورين بين الناس لم يوصهم بالتفرق في المرة الأولى.

ثم قال: والعين حق، كما صح عن رسول الله ﷺ وصح أيضا بزيادة: ولو كان شيء يسبق القدر سبقته العين.

وقد ورد أيضا: إن العين لتدخل الرجل القبر، والجمل القدر.

- قال الشوكاني: ولم يكتف بقوله (لا تدخلوا من باب واحد) عن قوله (وادخلوا من أبواب متفرقة) لأنهم لو دخلوا من بابين مثلا كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول من باب واحد، ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلا نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين، أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، قيل: وكانت أبواب مصر أربعة.

قال ابن قتيبة:"يريد: إذا دخلتم مصر، فادخلوا من أبواب متفرقة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال يعقوب لبنيه لما أرادُوا الخروج من عنده إلى مصر ليمتاروا الطعام: يا بني لا تدخلوا مصر من طريق واحد، وادخلوا من أبواب متفرقة، وذكر أنه قال ذلك لهم، لأنهم كانوا رجالا لهم جمال وهيأة، فخاف عليهم العينَ إذا دخلوا جماعة من طريق واحدٍ، وهم ولد رجل واحد، فأمرهم أن يفترقوا في الدخول إليها".

وفي قوله تعالى: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ

=

=

مُتَفَرِّقَةٍ} [يوسف: ٦٧]، وجهان:

أحدهما: يعني من باب واحد من أبوابها. {وادخلوا من أبواب متفرقة}، حكاه الماوردي عن الجمهور.

الثاني: من طريق واحد من طرقها، {وادخلوا من أبواب متفرقة}، أي: طرق، قاله السدي، والفراء.

قال السدي:"ورهب عليهم أن تصيبهم العين إن دخلوا مصر، فيقال هؤلاء لرجل واحد، قال {يا بني لا تدخلوا من باب واحد}، يقول: من طريق واحد".

وفيما طلب منهم أن يدخلوا من باب واحد، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوي صور وجمال، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب، والسدي، وابن إسحاق.

قال ابن قتيبة:"يقال: خاف عليهم العين إذا دخلوا جملة".

قال قتادة:"خشي نبيُّ الله ﷺ العينَ على بنيه، كانوا ذوي صُورة وجَمال".

قال السدي:"خاف يعقوب ﷺ على بنيه العين، فقال: {يا بني لا تدخلوا من باب واحد}، فيقال: هؤلاء لرجل واحدٍ! ولكن ادخلوا من أبواب متفرقة".

قال الزجاج:"قد خاف عليهم العين، وأمر العين صحيح -والله أعلم- وقد روي عن النبي ﷺ أنه عَوّذَ الحسَنَ والحسيْنَ فقال في دعوته: وأعيذكما من كل عين لامَّة ".

الثاني: أنه خاف عليهم الملك أن يرى عددهم وقوتهم فيبطش بهم حسدًا أو حذرًا، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين.

الثالث: علم أنه سيلقى إخوته في بعض الأبواب. وهذا قول إبراهيم.

قوله تعالى: {وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ} [يوسف: ٦٧]، أي:"وإني إذ أوصيكم بهذا لا أدفع عنكم شيئًا قضاه الله عليكم".

=

=

أي: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع.

جاء في (التفسير الوسيط) اعتراف منه عليه السلام بأن دخولهم من الأبواب المتفرقة، لن يحول بينهم وبين ما قدره تعالى وأراده لهم، وإنما هو أمرهم بذلك من باب الأخذ بالأسباب المشروعة.

أي: وإني بقولي هذا لكم، لا أدفع عنكم شيئا قدره الله عليكم، ولو كان هذا الشيء قليلا.

(إن الحكم إلا لله) أي: ما الحكم إلا لله جل وعلا وحده لا يشاركه أحد، ولا يمانعه شيء.

(عليه توكلت) عليه وحده توكلت في جميع أموري.

قال الطبري: "يقول: وما أقدر أن أدفع عنكم من قضاء الله الذي قد قضاه عليكم من شيء صغير ولا كبير، لأن قضاءه نافذ في خلقه".

قال ابن الأنباري: "يعني: أن الله إن شاء يهلكهم متفرقين هلكوا وهم متفرقون كما يهلكون وهم مجتمعون".

وقال أهل العلم: "أفاد قوله {لا تدخلوا من باب واحد}، النصيحة لهم والمنع من الأمر الذي يغلب على من أتاه واستعمله سبق العين إليه، وأفاد قوله: {وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ} تفويض الأمر إلى الله تعالى وأنّ الحذر لا ينفع من القدر، وأمر العين حق قد رويت فيه أخبار كثيرة، وكان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين رضي الله عنهما فيقول: "أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة" ويقول: هكذا كان يعوّذ إبراهيم إسماعيل وإسحق، صلوات الله عليهم أجمعين" ".

قوله تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [يوسف: ٦٧]، أي:"فما الحكم إلا لله وحده".

=

=

قال الطبري:"يقول: ما القضاء والحكم إلا لله دون ما سواه من الأشياء، فإنه يحكم في خلقه بما يشاء، فينفذ فيهم حكمه، ويقضي فيهم، ولا يُرَدّ قضاؤه".

قوله تعالى: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} [يوسف: ٦٧]، أي:"عليه اعتمدت ووثقت".

قال الطبري:"يقول: على الله توكلت فوثقت به فيكم وفي حفظكم عليّ، حتى يردكم إليّ وأنتم سالمون معافون، لا على دخولكم مصر إذا دخلتموها من أبواب متفرقة".

والتوكل: "هو الثقة بالله والاعتماد عليه في الأمور".

قوله تعالى: {وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [يوسف: ٦٧]، أي:"وعليه وحده يعتمد المؤمنون".

قال الطبري:"يقول: وإلى الله فليفوِّض أمورَهم المفوِّضون".

قال محمد بن إسحاق: "وعلى الله لا على الناس فليتوكل المؤمنون".

قوله تعالى: {وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ} [يوسف: ٦٨]، أي:"ولما دخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم".

قال مقاتل:"قال مقاتل بن سليمان: {ولَمّا دَخَلُوا} مصر {مِن حَيْثُ أمَرَهُمْ أبُوهُمْ} مِن طُرُقٍ شَتّى؛ أخذ كُلُّ واحدٍ منهم في طريق على حِدَةٍ".

قال الطبري: يقول:"ولما دخل ولد يعقوب {من حيث أمرهم أبوهم {، وذلك دخولهم مصر من أبواب متفرقة".

قوله تعالى: {مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ} [يوسف: ٦٨]، أي:"ما كان دخولهم متفرقين ليدفع عنهم من قضاء الله شيئا".

قال الطبري: يقول:"{ما كان يغني}، دخولهم إياها كذلك {عنهم} من قضاء الله الذي قضاه فيهم فحتمه، (من شيء}".

قال مقاتل:"ثُمَّ {ما كانَ} يعقوبُ {يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ}".

=

=

قال الزجاج:"[إذا] قُدَّرَ أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم مجتمعين. وجائز أن يكون: لايغني مع قضاء الله شيء".

قوله تعالى: {إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا} [يوسف: ٦٨]، أي:"ولكن كان شفقة في نفس يعقوب عليهم أن تصيبهم العين".

قال الطبري: يقول:"إلا أنهم قضوا وطرًا ليعقوب بدخولهم لا من طريق واحد خوفًا من العين عليهم، فاطمأنت نفسه أن يكونوا أوتوا من قبل ذلك أو نالهم من أجله مكروه".

قال الزجاج أي: إلا خوف العين".

قال الماوردي:"وهو حذر المشفق وسكون نفس بالوصية أن يتفرقوا خشية العين".

عن مجاهد: قوله: "{حاجة في نفس يعقوب قضاها}، أي: خيفة العين على بنيه".

قال محمد بن إسحاق:"والحاجة التي كانت في نفس يعقوب ما تخوف على بنيه من أنفس الناس لعدتهم ولهيئتهم".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ} [يوسف: ٦٨]، أي:"وإن يعقوب لذو علمٍ واسع لتعليمنا إياه بطريق الوحي".

قال الطبري:"يقولُ تعالى ذكره: وإن يعقوب لذو علم لتعليمنا إياه".

عن قتادة: "{لما علمناه}، أي: مما علمناه".

قال الزجاج:"أي لذو علم لتعليمنا إياه".

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ} [يوسف: ٦٨]، وجوه:

أحدها: إنه لعامل بما علم، قاله قتادة.

وروي عن سفيان، قال:"من لا يعمل لا يكون عالمًا".

وعن قتادة قوله: "{وإنه لذو علم}، وأعلمه أن خير العلم ما نفع، وأن أفضل

=

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩).

{وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُف آوَى} ضَمَّ {إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوك فَلَا تَبْتَئِس} تَحْزَن {بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} مِنْ الْحَسَد لَنَا وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يُخْبِرهُمْ وَتَوَاطَأَ مَعَهُ عَلَى أَنَّهُ سَيَحْتَالُ عَلَى أَنْ يُبْقِيه عِنْده.

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠).

{فَلَمَّا جَهَزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَة} هِيَ صَاع مِنْ الذَّهَب مُرَصَّع

=

الهدى ما اتبع وأن أغوى الضلالة، الضلالة بعد الهدى، وإنما ينتفع بالعلم من علمه، ثم عمل به ولا ينتفع به من علمه ثم تركه".

الثاني: لمتيقن بوعدنا، وهو معنى قول الضحاك.

الثالث: إنه لحافظ لوصيتنا، وهو معنى قول الكلبي.

الرابع: إنه لذو حفظ لما علمناه. حكاه الفراء.

الخامس: إنه لذو علم لتعليمنا إياه. وهو قول الفراء.

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٦٨]، أي:"ولكن أكثر الناس لا يعلمون عواقب الأمور ودقائق الأشياء، وما يعلمه يعقوب -عليه السلام- من أمر دينه".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: ولكن كثيرًا من الناس غير يعقوب، لا يعلمون ما يعلمه، لأنَّا حَرَمناه ذلك فلم يعلمه".

بِالْجَوْهَرِ {فِي رَحْل أَخِيهِ} بِنْيَامِين {ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّن} نَادَى مُنَادٍ بَعْد انْفِصَالهمْ عَنْ مَجْلِس يُوسُف {أَيَّتهَا الْعِير} الْقَافِلَة {إنكم لسارقون}.

قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١).

{قالوا و} قد {أقبلوا عليهم ماذا} مَا الَّذِي {تَفْقِدُونَ} هُ.

قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢).

{قَالُوا نَفْقِد صُوَاع} صَاع {الْمَلِك وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْل بَعِير} مِنْ الطَّعَام {وَأَنَا بِهِ} بِالْحَمْلِ {زَعِيم} كَفِيل.

قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣).

{قَالُوا تَاللهِ} قَسَم فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّب {لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِد فِي الْأَرْض وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ} مَا سَرَقْنَا قَطُّ.

قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤).

{قَالُوا} أَيْ الْمُؤَذِّن وَأَصْحَابه {فَمَا جَزَاؤُهُ} أَيْ السَّارِق {إنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ} فِي قَوْلكُمْ مَا كُنَّا سَارِقِينَ وَوُجِدَ فِيكُمْ.

قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥).

{قَالُوا جَزَاؤُهُ} مُبْتَدَأ خَبَره {مَنْ وُجِدَ فِي رَحْله} يَسْتَرِق ثُمَّ أُكِّدَ بِقَوْلِهِ {فَهُوَ} أَيْ السَّارِق {جَزَاؤُهُ} أَيْ الْمَسْرُوق لَا غَيْر وَكَانَتْ سُنَّة آل يَعْقُوب {كَذَلِكَ} الْجَزَاء {نَجْزِي الظَّالِمِينَ} بِالسَّرِقَةِ فَصَرَّحُوا لِيُوسُف بِتَفْتِيشِ أَوْعِيَتهمْ(1).

---

(١) قوله تعالى: {وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ} [يوسف: ٦٩]، أي:"ولما دخل إخوة يوسف عليه في منزل ضيافته ومعهم شقيقه، ضم يوسف إليه شقيقه".

=

=

وهذا شروع في بيان ما دار بين يوسف عليه السلام وبين شقيقه «بنيامين» بعد أن حضر مع إخوته.

والمعنى: وحين دخل إخوة يوسف عليه، ما كان منه إلا أن ضم إليه شقيقه وقال له مطمئنا ومواسيا: إني أنا أخوك الشقيق، فلا تحزن بسبب ما فعله إخوتنا معنا من الحسد والأذى، فإن الله تعالى قد عوض صبرنا خيرا، وأعطانا الكثير من خيره وإحسانه.

قال ابن كثير:... واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له وقال: «لا تبتئس» أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان هذا عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرما معظما.

- قال الرازي: قوله (إني أنا أخوك) فيه قولان: قال وهب: لم يرد أنه أخوه من النسب، ولكن أراد به إني أقوم لك مقام أخيك في الإيناس لئلا تستوحش بالتفرد.

والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أنه أراد تعريف النسب، لأن ذلك أقوى في إزالة الوحشة وحصول الأنس، ولأن الأصل في الكلام الحقيقة، فلا وجه لصرفه عنها إلى المجاز من غير ضرورة.

قال الزمخشري:"ضم إليه بنيامين".

قال قتادة:"ضمه إليه وأنزله معه". وفي لفظ:"ضمه إليه، وأنزله، وهو بنيامين".

قال السدي:"ولما دخلوا على يوسف عرف أخاه وأنزلهم منزلا وأجرى عليهم الطعام والشراب فلما كان الليل أتاهم بمثل، قال: لينام كل واحد منكم على مثال حتى بقي الغلام وحده، فقال يوسف: هذا ينام معي، على فراشي، فبات مع يوسف فجعل يشتم ريحه ويضمه إليه حتى أصبح".

عن ابن إسحاق: "فـ {لما دخلوا على يوسف}، قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن

=

=

نأتيك به، وقد جئناك به، فذكر لي أنه قال لهم: قد أحسنتم وأصبتم ستجدون ذلك لكم عندي، أو كما قال: أراكم رجالا وقد أردت أن أكرمكم، ودعا صاحب ضيافته فقال: أنزل كل رجلين على حده، ثم أكرمهما، وأحسن ضيافتهما ثم قال: إني أرى هذا الرجل الذي جئتم به ليس معه ثاني، فسأضمه إلي، فيكون منزله معي فأنزلهم رجلين رجلين في منازل شتى، وأنزل أخاه معه فآواه إليه".

قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [يوسف: ٦٩]، أي:"وقال له سرًا: إني أنا أخوك فلا تحزن، ولا تغتمَّ بما صنعوه بي فيما مضى".

قال البيضاوي: أي:"فلا تحزن بما كانوا يعملون في حقنا فيما مضى".

وفي قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ} [يوسف: ٦٩]، وجهان:

أحدهما: أنه أخبره أنه يوسف أخوه، قاله ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق:"فلما خلا به قال إني أنا أخوك أنا يوسف".

الثاني: أنه قال له: أنا أخوك مكان أخيك الهالك، قاله وهب.

عن وهب بن منبه – وسئل عن قول يوسف: {ولما دخلوا على يوسف آوى الله أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون} –: كيف أصابه حين أخذ بالصواع، وقد كان أخبره أنه أخوه، وأنتم تزعمون أنه لم يزل متنكرا لهم يكايدهم حتى رجعوا؟ فقال: إنه لم يعترف له بالنسبة، ولكنه قال: {أنا أخوك} مكان أخيك الهالك {فلا تبتئس بما كانوا يعملون}، يقول: لا يحزنك مكانه".

وفي قوله تعالى: {فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [يوسف: ٦٩]، وجهان:

أحدهما: فلا تأسف، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

الثاني: فلا تحزن بما كانوا يعملون.

قال قتادة:"أي: لا تحزن ولا تيأس بما كانوا يعملون".

قال السدي:"لا تحزن على ما كانوا يعملون".

=

=

قال وهب:"لا يحزنك مكانه".

قال الفراء:"معناه: لا تستكن من الحزن والبؤس. يقول: لا تحزن".

قال الزجاج:"أي: لا تحزن ولا تستكن".

وفي القول الثاني وجهان ايضا:

أحدهما: بما فعلوه في الماضي بك وبأخيك.

الثاني: باستبدادهم دونك بمال أبيك.

قال الزمخشري:"روى أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة. فبقى بنيامين وحده فبكى وقال: لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه، فقال يوسف: بقي أخوكم وحيدا، فأجلسه مع على مائدته وجعل يؤاكله، قال: أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتا، وهذا لا ثانى له فيكون معى، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح، وسأله عن ولده فقال: لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخا مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام

إليه وعانقه وقال له إني أنا أخوك يوسف، {فلا تبتئس} فلا تحزن {بما كانوا يعملون} بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير، ولا تعلمهم بما أعلمتك".

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ} [يوسف: ٧٠]، أي:"فلما جهَّزهم يوسف، وحمَّل إبلهم بالطعام".

قال الطبري:"يقول: ولما حمل يوسف إبل إخوته ما حملها من الميرة وقضى حاجتهم".

=

=

قال قتادة:"لما قضى لهم حاجتهم ووفاهم كيلهم".

قوله تعالى: {جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ} [يوسف: ٧٠].

أي: وحين أعطى يوسف إخوته ما هم في حاجة إليه من زاد وطعام، أوعز إلى بعض فتيانه أن يدسوا الصواع في متاع أخيه «بنيامين» دون أن يشعر بهم أحد.

- السقاية: إناء كان الملك يشرب فيه، وعادة ما يكون من معدن نفيس ولقد كان يوسف عليه السلام يكتال به في ذلك الوقت نظرا لقلة الطعام وندرته، وهذه السقاية هي التي أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع.

- قال ابن كثير: (السقاية) وهي: إناء من فضة في قول الأكثرين. وقيل: من ذهب - قاله ابن زيد-كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك.

- وقال ابن عطية: (السقاية) الإناء الذي به يشرب الملك وبه كان يكيل الطعام للناس، هكذا نص جمهور المفسرين ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك وابن زيد.

قال الطبري:"يقول: جعل الإناء الذي يكيل به الطعام في متاع أخيه ابن أمه وأبيه وهو بنيامين".

قال الزمخشري:"السقاية مشربة يسقى بها وهي الصواع. قيل: كان يسقى بها الملك، ثم جعلت صاعا يكال به. وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها. وقيل: كانت إناء مستطيلا يشبه المكوك. وقيل: هي المكوك الفارسي الذي يلتقى طرفاه تشرب به الأعاجم. وقيل: كانت من فضة مموهة بالذهب، وقيل كانت من ذهب. وقيل: كانت مرصعة بالجواهر".

عن قتادة: "{جعل السقاية}، قال: مشربة الملك" ، " {في رحل أخيه}، أي: في متاع أخيه".

قال الحسن:"الصواع" و"السقاية"، سواء، هو الإناء الذي يشرب فيه".

=

=

قال مجاهد:"السقاية" و"الصواع"، شيء واحد،، كان يشرب فيه يوسف".

قال قتادة:"وهو إناء الملك الذي كان يشرب فيه".

قال الضحاك:"هو الإناء الذي كان يشرب فيه الملك".

قوله تعالى: {ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} [يوسف: ٧٠]، أي:"ثم نادى مناد على إخوة يوسف عليه السلام وهم يتجهزون للسفر، أو وهم منطلقون إلى بلادهم بقوله: يا أصحاب هذه القافلة توقفوا حتى يفصل في شأنكم فأنتم متهمون بالسرقة.

- والمراد بالمؤذن هنا: المنادى بصوت مرتفع ليعلم الناس ما يريد إعلامهم به. والمراد بالعير هنا: أصحابها.

- قال الماوردي: فإن قيل: كيف استجاز يوسف أن يجعل السقاية في رحل أخيه لسرقهم وهم برآء، وهذه معصية؟

قال الطبري:"يقول: ثم نادى مناد، {أيتها العير} -وهي القافلة فيها الأحمال- {إنكم لسارقون}".

قال الزمخشري:"ثم نادى مناد. يقال: آذنه أعلمه. وأذن: أكثر الإعلام. ومنه المؤذن، لكثرة ذلك منه... و «العير»: الإبل التي عليها الأحمال، لأنها تعير: أى تذهب وتجيء. وقيل: هي قافلة الحمير، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير، كأنها جمع عير، وأصلها فعل كسقف وسقف، فعل به ما فعل ببيض وعيد ، والمراد أصحاب العير كقوله: «يا خيل الله اركبي» ".

قال الثعلبي:"{أيتها العير} : هي القافلة التي فيها الأحمال".

قال ابن قتيبة:"{أيتها العير} : القوم على الإبل".

قال الفراء: "لا يقال «عير» إلا لأصحاب الإبل".

وقال مجاهد:"كانت العير حميرا".

=

=

عن السدي: "{فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه}، والأخ لا يشعر. فلما ارتحلوا أذن مؤذن قبل أن ترتحل العير: {إنكم لسارقون}".

عن ابن إسحاق قال، ثم جهزهم بجهازهم، وأكرمهم وأعطاهم وأوفاهم، وحمل لهم بعيرا بعيرا، وحمل لأخيه بعيرا باسمه كما حمل لهم. ثم أمر بسقاية الملك- وهو"الصواع"، وزعموا أنها كانت من فضة- فجعلت في رحل أخيه بنيامين. ثم أمهلهم حتى إذا انطلقوا وأمعنوا من القرية، أمر بهم فأدركوا، فاحتبسوا، ثم نادى مناد: {أيتها العير إنكم لسارقون}، قفوا. وانتهى إليهم رسوله فقال لهم فيما يذكرون: ألم نكرم ضيافتكم، ونوفكم كيلكم، ونحسن منزلتكم، ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم، وأدخلناكم علينا في بيوتنا ومنازلنا؟ - أو كما قال لهم- قالوا: بلى، وما ذاك؟ قال: سقاية الملك فقدناها، ولا نتهم عليها غيركم. {قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين}".

فإن قيل: كيف استجاز يوسف أن يجعل السقاية في رحل أخيه لسرقهم وهم برآء، وهذه معصية؟

قيل عن هذه أجوبة:

أحدها: أنها معصية فعلها الكيال ولم يأمر بها يوسف.

الثاني: أن المنادي الذي كال حين فقد السقاية ظن أنهم سرقوها ولم يعلم بما فعله يوسف، فلم يكن عاصيًا.

الثالث: أن النداء كان بأمر يوسف، وعنى بذلك سرقتهم ليوسف من أبيه، وذلك صدق.

الرابع: أنها كانت خطيئة من قبل يوسف فعاقبه الله عليها بأن قال القوم: {إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل}، يعنون يوسف.

الخامس: أن معنى قوله: {إنكم لسارقون}، أي: لعاقون لأبيكم في أمر أخيكم

=

=

حيث أخذتموه منه وختنموه فيه. حكاه الماوردي عن بعضهم ، وهو بعيد عن الظاهر الآية.

- قال الآلوسي: والذي يظهر أن ما فعله يوسف، من جعله السقاية في رحل أخيه. ومن اتهامه لإخوته بالسرقة.. إنما كان بوحي من الله تعالى لما علم سبحانه في ذلك من الصلاح، ولما أراد من امتحانهم بذلك. ويؤيده قوله تعالى (كذلك كدنا ليوسف).

- قال ابن عطية:... هذا من الكيد الذي يسره الله ليوسف عليه السلام ، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يستعبد السارق، وكان في دين مصر أن يضرب ويضعف عليه الغرم، فعلم يوسف أن إخوته - لثقتهم ببراءة ساحتهم - سيدعون في السرقة إلى حكمهم؛ فتحيل لذلك، واستسهل الأمر - على ما فيه من رمي أبرياء بالسرقة وإدخال الهم على يعقوب عليه السلام ، وعليهم - لما علم في ذلك من الصلاح في الأجل، وبوحي لا محالة وإرادة من الله محنتهم بذلك، - هذا تأويل قوم، ويقويه. قوله تعالى (كذلك كدنا ليوسف).

وقيل: إنما أوحي إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط، ثم إن حافظها فقدها، فنادى على ما ظهر إليه - ورجحه الطبري؛ وتفتيش الأوعية يرد عليه.

وقيل: إنهم لما كانوا قد باعوا يوسف استجاز أن يقال لهم هذا، وإنه عوقب على ذلك بأن قالوا: "فقد سرق أخ له من قبل".

وقرأ ابن مسعود: «وجعل السقاية»، على حذف جواب «لما»، كأنه قيل: فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه، أمهلهم حتى انطلقوا، ثم أذن مؤذن.

قوله تعالى: {قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١)} [يوسف: ٧١]

أي: قال إخوة يوسف بدهشة وفزع لمن ناداهم وأخبرهم بأنهم سارقون، قالوا

=

=

لهم: ماذا تفقدون- أيها الناس- من أشياء حتى اتهمتمونا بأننا سارقون؟
- قال الخازن:... ليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف وهو الأقرب إلى ظاهر الحال لأنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم وغلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم.
قال الطبري:"قال بنو يعقوب لما نودوا: {أيتها العير إنكم لسارقون}، وأقبلوا على المنادي ومن بحضرتهم يقولون لهم: ما الذي تفقدون؟ فقال لهم القوم: نفقد مشربة الملك".
قال مقاتل:"وأقبلوا على المنادي ثم قالوا: {ماذا تفقدون}".
عن السدي: "{قالوا وأقبلوا عليهم} يقولون: {ماذا تفقدون}".
قال ابن الجوزي: أي: "ما الذي ضل عنكم؟".
عن ابن إسحاق، قال: "قالوا: بلى وما ذاك؟ قالوا: سقاية الملك فقدناها، ولأنتم عليها غيركم، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض".
قال الثعلبي:"فوقفوا، فلما انتهى إليهم الرسول قال لهم: ألم نكرم ضيافتكم ونحسن منزلكم ونوفكم كيلكم ونفعل بكم ما لم نفعله بغيركم؟ قالوا: بلى، وما ذاك؟ قال: سقاية الملك، فقال: إنه لا يتهم عليها غيركم... عطفوا على المؤذن وأصحابه: {ماذا تفقدون}؟ ما الذي ضل منكم؟ فالفقدان ضد الوجود، والمفقد: الطلب".
قال الصابوني:"وفي قولهم {ماذَا تَفْقِدُونَ} بدل «ماذا سرَقْنا» إرشادٌ لهم إلى مراعاة حسن الأدب، وعدم المجازفة بنسبة البريئين إلى تهمة السرقة، ولهذا التزموا الأدب معهم فأجابوهم {قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الملك}".
قوله تعالى: {قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ} [يوسف: ٧٢]، أي:"قال المنادي ومَن بحضرته: نفقد المكيال الذي يكيل الملك به".

=

=

قال مقاتل:"{قالوا} - المنادي ومن معه لإخوة يوسف-: {نفقد صواع الملك}، يعني: إناء الملك وكان يكال به كفعل أهل العساكر".

قال الزجاج:"الصواع: هو الصاع بعينه، وهو يذكر ويؤنث، وكذلك الصاعُ يذكر ويؤنث، وجاء في التفسير أنه إناء مستطيل يشبه المكوك، كان يشرب به الملكُ، وهو السقاية. وقيل إنه كان مصنوعًا من فضة مموَّهًا بذهب. وقيل إنه كان من مِسٍّ، وقيل إنه كان يشبه الطاسَ".

عن الزهري في قول الله: "{نفقد صواغ الملك}، قال: القدح".

قال الضحاك:"إناءه الذي كان يشرب فيه".

عن الضحاك، في قوله: "(صواع الملك)، قال، إناء الملك الذي كان يشرب فيه".

عن مجاهد قال: "الصواع"، كان يشرب فيه يوسف".

عن يحيى بن يعمر:"أنه كان يقرأها: «صواغ الملك»، بالغين، قال: كان صيغ من ذهب أو فضة سقايته التي كان يشرب فيها".

عن عكرمة في قوله: "{قالوا نفقد صواع الملك}، قال: كان من فضة".

وقال ابن عباس:"كان من نحاس".

عن ابن عباس في هذا الحرف: "(صواع الملك)، قال: كهيئة المكوك. قال: وكان للعباس مثله في الجاهلية يشرب فيه". وفي لفظ:"عن ابن عباس في قوله: {صواع الملك}، قال، كان من فضة مثل المكوك. وكان للعباس منها واحد في الجاهلية".

عن سعيد بن جبير: "أنه قرأ: (صواع الملك)، قال وكان إناءه الذي يشرب فيه، وكان إلى الطول ما هو".

عن سعيد بن جبير: "(صواع الملك)، قال، المكوك الفارسي".

قال سعيد بن جبير:"هو المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه، كانت تشرب فيه الأعاجم".

=

=

قوله تعالى: {وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ} [يوسف: ٧٢]، أي:"ومكافأة من يحضره مقدار حِمْل بعير من الطعام".

قال قتادة:"أي: وقد بعير".

عن مجاهد قوله: "{حمل بعير}، قال: حمل طعام وهي لغة".

وروي عن مجاهد أيضا، قال:"{حمل بعير}، يعني: حمار وهي لغة".

قوله تعالى: {وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ} [يوسف: ٧٢]، أي:"وقال المنادي: وأنا بحِمْل البعير من الطعام ضامن وكفيل".

قال الزمخشري:"{وأنا به زعيم}، يقوله المؤذن، يريد: وأنا بحمل البعير كفيل، أؤديه إلى من جاء به، وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله".

قال الضحاك:"الزعيم الكفيل".

قال مجاهد:"الزعيم هو المؤذن الذي قال: أيتها العير".

قوله تعالى: {قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ} [يوسف: ٧٣].

أي: قال إخوة يوسف للمنادى ومن معه الذين اتهموهم بالسرقة: تالله يا قوم، لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا، أننا ما جئنا إلى بلادكم، لكي نفسد فيها أو نرتكب ما لا يليق، وما كنا في يوم من الأيام ونحن في أرضكم لنرتكب هذه الجريمة، لأنها تضرنا ولا تنفعنا، حيث إننا في حاجة إلى التردد على بلادكم لجلب الطعام، والسرقة تحول بيننا وبين ذلك، لأنكم بسببها ستمنعوننا من دخول أرضكم، وهذه خسارة عظيمة بالنسبة لنا.

- قال الماوري: قوله تعالى (قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض) أي: لنسرق، لأن السرقة من الفساد في الأرض، وإنما قالوا ذلك لهم لأنهم قد كانوا عرفوهم بالصلاح والعفاف. وقيل لأنهم ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم، ومن يؤد الأمانة في غائب لا يقدم على سرقة مال حاضر.

=

=

قال الربيع:"يقول: ما جئنا لنعصي في الأرض".

قال الزجاج:"وإنَّمَا قالوا: {لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ}، لأنهم كانوا لا يَنْزِلُونَ على قوم ظلمًا. ولا يرعون زرع أحَدٍ، وجعلوا على أفواه إبلهم الأكفةَ لئلا تعبث في زرع".

ومعنى تَاللهِ: "والله، إلا أن التاء لا يقسسم بها إلا في (الله) لا يجوز تالرحمن ولا تَرَبِّي لأفعلنَّ".

قال الزمخشري:"{تالله}، قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم. وإنما قالوا {لقد علمتم}، فاستشهدوا بعلمهم. لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرتى مجيئهم ومداخلتهم للملك، ولأنهم دخلوا وأفواه رواحلهم مكعومة ، لئلا تتناول زرعا أو طعاما لأحد من أهل السوق، ولأنهم ردوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم".

قال الثعلبي في قوله تعالى: {لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ}: "فإن قيل: من أين علموا ذلك؟

الجواب عنه: قال الكلبي: إن فتى يوسف وهو المؤذن قال لهم: إن الملك ائتمنني بالصاع وأخاف عقوبة الملك، فلي اليوم عنده مقولة حسنة، فإن لم أجده تخوفت أن تسقط منزلتي وأفتضح في مصر، قالوا:... {لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض} إنا منذ قطعنا هذا الطريق لم ننزل عند أحد ولا أفسدنا شيئا وسلوا عنا من مررنا به، هل ضررنا أحدا؟ أو هل أفسدنا شيئا؟ وإنا قد رددنا الدراهم كما وجدنا في رحلنا، فلو كنا سارقين ما رددناها.

قوله تعالى: (قالوا فما جزآؤه إن كنتم كاذبين).

أي: قال المنادى وأعوانه لإخوة يوسف الذين نفوا عن أنفسهم تهمة السرقة نفيا تاما.

=

=

إذا فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك في شريعتكم، إن وجدنا هذا الصواع في حوزتكم، وكنتم كاذبين في دعواكم أنكم ما كنتم سارقين.

قوله تعالى: {قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ} [يوسف: ٧٥]، أي:"قال إخوة يوسف: جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أن يُسترقَّ ويصبح مملوكًا لمن سَرَق منه".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: وقال إخوة يوسف: ثواب السرق من وجد في متاعه السرق {فهو جزاؤه}، يقول: فالذي وجد ذلك في رحله ثوابه بأن يسلم بسَرِقته إلى من سرق منه حتى يستَرِقّه".

قال الثعلبي:"أن يسلم سرقته إلى المسروق منه، ويسترق سنة، وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق".

قال الزجاج:"أي: مِثْلُ هذا الجزاءِ نجزي الظالمين، وكان جزاء السارق عندهم أن يُستَعْبَدَ بسَرِقَتِهِ، يَصيرُ عَبْدًا لأنه سرق.. ويكون قوله {فَهُوَ جَزَاؤُهُ}، زيادةً في الإبانة. كما تقول: جزاء السارق القطع فهو جزاؤه. فهذا جزاؤه، زيادةٌ في الإبانة".

نقل الواحدي عن ابن عباس والمفسرين: "كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته، وكان استعباد السراق لهم يجري مجرى القطع لنا، فلذلك قالوا: جزاؤه في وُجد في رحله، أي: جزاء السَّرَق من وجد السرق في رحله {فَهُوَ جَزَاؤُهُ} أي فالسارق جزاء السرق".

- قال الشوكاني:... جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد في رحله -أي استرقاقه لمدة سنة- وتكون جملة «فهو جزاؤه» لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها. قال الزجاج وقوله «فهو جزاؤه» زيادة في البيان. أي: جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير».

وقالوا «جزاؤه من وجد في رحله» ولم يقولوا جزاء السارق أو جزاء سرقته،

=

=

للإشارة إلى كمال نزاهتهم، وبراءة ساحتهم من السرقة، حتى لكأن ألسنتهم لا تطاوعهم بأن ينطقوا بها في هذا المقام.

(كذلك نجزي الظالمين) أي: مثل هذا الجزاء العادل، وهو الاسترقاق لمدة سنة، نجازي الظالمين الذين يعتدون على أموال غيرهم.

- **قال القرطبي**: أي كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يسترقوا، وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه. وقولهم هذا قول من لم يسترب نفسه، لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفي ما أخذ، قاله الحسن والسدي وغيرهما.

- وقال السمرقندي: وكان الحكم في أرض مصر للسارق: الضرب والتضمين، وكان الحكم بأرض كنعان: أنهم يأخذون السارق ويسترقونه، ففوضوا الحكم إلى بني يعقوب ليحكموا بحكم بلادهم.

قال معمر:"بروا يوسف بما يحكم في بلادهم أنه من سرق أخذ عبدا، فقالوا: {جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه}".

قال ابن زيد:"فعرفوا الحكم، في أحكامهم، فقالوا: من وجد في رحله فهو جزاؤه".

عن السدي قوله: "{قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه}، قالوا: خذوه، فهو لكم". وفي لفظ:"تأخذونه فهو لكم".

عن ابن إسحاق:"{فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه}، أي: سلم به".

قال الزمخشري:"أي: جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة، فلذلك استفتوا في جزائه، وقولهم {فهو جزاؤه}، تقرير للحكم، أي: فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير، كقولك: حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه، فذلك حقه، أي: فهو حقه لتقرر ما ذكرته من استحقاقه

=

=

وتلزمه، ويجوز أن يكون {جزاؤه} مبتدأ، والجملة الشرطية كما هي خبره، على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر. والأصل: «جزاؤه من وجد في رحله فهو هو»، فوضع الجزاء موضع هو، كما تقول لصاحبك: من أخو زيد؟ فيقول لك: أخوه من يقعد إلى جنبه، فهو هو، يرجع الضمير الأول إلى من، والثاني إلى الأخ، ثم تقول «فهو أخوه» مقيما للمظهر مقام المضمر. ويحتمل أن يكون {جزاؤه}: خبر مبتدإ محذوف، أي: المسئول عنه جزاؤه، ثم أفتوا بقولهم: {من وجد في رحله فهو جزاؤه}، كما يقول: من يستفتى في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم، ثم يقول: {وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ} [المائدة: ٩٥]".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [يوسف: ٧٥]، أي:"كذلك نجازي من تعدَّى حدود الله بالسرقة وأمثالها".

قال الطبري:"يقول: كذلك نفعل بمن ظلم ففعل ما ليس له فعله من أخذه مال غيره سَرَقًا".

قال ابن إسحاق:"أي: كذلك نصنع بمن سرق منا".

قال الصابوني:"وهذا القول منهم هو الحكم في شريعة يعقوب وقد نسخ بقطع الأيدي في الشريعة الإسلامية".

مسألة: في هذه الآيات: جواز استعمال الحيلة لدفع الضر وأخذ الحق البين وإعادته إلى صاحبه، فيوسف أحق بأخيه منهم، ولم يقدر أن يأخذ أخاه منهم ببينة، وإنما قدر أن يأخذه بتلك الحيلة فأخذه.

وفي قوله تعالى: {أيتها العير إنكم لسارقون} وصف للجميع وهو يقصد إخوانه، ويحتمل أنه خاطبهم بالسرقة الحادثة وهو يريد سرقتهم القديمة له من أبيه بتحايل عليه؛ فأراد أن يعاملهم بمثل ذلك؛ فالجزاء من جنس العمل.

واستعمال الحيل إنما هو سلوك لطرق خفية غير معتادة ولا يتفطن لها إلا بذكاء؛

=

=

لأخذ الحق ودفع الظلم عند العجز عن ذلك بالطرق المعروفة، وسلوك تلك الطرق الخفية لا يلزم منه كونها محظورة بعينها؛ وإنما المأخذ فيها أنها خفية لا يظن الخصم أنها مقصودة، فيتعامل معها على اعتقاد ظاهر يخالف الباطن.

وقد تكون الحيل مباحة، وقد تكون محرمة؛ وذلك بحسب النظر إلى الغاية ونوع الوسيلة، فبالنظر إلى هاتين الجهتين تعرف مرتبة الحيل بين الحل والحرمة، والوجوب والكراهة والاستحباب.

ولما كانت الحيل أخذا بغير الظاهر، كرهها كثير من السلف، ولم يكونوا يكتبون فيها ولا يعلمونها الناس؛ فليست علما يتخذ أصلا في التعامل وأخذ الحقوق، فمن جعله أصلا في تعامله وخصوماته وقع في المنهي عنه بلا ريب.

وأسوأ الحيل: التي تتخذ للوصول إلى ما حرم الله؛ كالتحايل على أكل الحرام كما فعلت اليهود، وكنكاح التحليل والشغار وغير ذلك.

واستعمال يوسف: من الحيلة المشروعة، التي لا يرتكب فيها وسيلة محظورة ولا الوصول إلى غاية محرمة، بل هي من الوسائل المباحة والغايات المشروعة، وقد جعل الله ذلك من الكيد الذي وفق له يوسف؛ كما في قوله تعالى: {كذلك كدنا ليوسف} [يوسف: ٧٦].

ومن هذا قوله تعالى لأيوب: {وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث} [ص: ٤٤].

ومن ذلك: ما جاء في "الصحيحين"؛ و"السنن"، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن رسول الله ﷺ استعمل رجلا على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال له رسول الله ﷺ (أكل تمر خيبر هكذا؟)، فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله ﷺ: (فلا تفعل، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبا).

=

=

فأراد النبي ﷺ مخرجا للوصول إلى الحلال بوسيلة مباحة، والحيل قد تكون خفية جدا، وقد يكون خفاؤها ليس شديدا؛ كما في حديث التمر الجنيب هذا.

مسألة: لما أعلن في الناس فقد صواع الملك ولم يعرف مكانه منهم، جعل لمن يجده جائزة، وهي حمل البعير، وضمنها لواجدها.

وفي هذا دليل على مشروعية الجعالة، والجعالة: هي ما يكافأ له الإنسان على أمر يفعله، وهي جائزة عند عامة السلف وجماهير الفقهاء خلافا للحنفية، وقد أقر النبي ﷺ الصحابة على أخذهم الجعالة على ما فعلوه؛ كما في "الصحيحين"؛ من حديث أبي سعيد؛ أن رهطا من أصحاب رسول الله ﷺ انطلقوا في سفرة سافروها، حتى نزلوا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين قد نزلوا بكم، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، فسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فهل عند أحد منكم شيء؟ لقال بعضهم: نعم، والله إني لراق، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلا، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق فجعل يتفل ويقرأ: {الحمد لله رب العالمين} [الفاتحة: ٢]، حتى لكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي ما به قلبة، قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله ﷺ، فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له، فقال: (وما يدريك أنها رقية؟ ! أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم بسهم).

ولم يجوزها الحنفية بحجة الجهالة والغرر فيها، وذلك أن النتيجة مظنونة، ولا يشترط تعيين العامل فيها، وهذا لا يقال به مع ثبوت الدليل، والشريعة تراعي

=

=

الحاجات في صور فتجيزها مع اشتراكها ببعض وجوه العلة في المحرمات كما هـو في العرايا، والحنفية لا يجيزون العرايا، كما لا يجيزون الجعالة.

ونقل الطحاوي وغيره حجة الحنفية: أن حديث جواز العرايا هو في الهبة والهدية؛ وهذا لا يوافق ظاهر الحديث، ولا اصطلاح السلف.

والجعالة هي نوع من أنواع الإجارة، ولكن ثمة فروق بينهما:

وذلك أن الإجارة عقد لازم لا يجوز فسخه، بخلاف الجعالة فليست عقدا لازما.

وكـذلك فإنـه في الجعالـة لا يجـوز اشـتراط تعجيـل الأجـر قبـل العمـل الـذي بـه يستحقه، بخلاف الإجارة فيجوز تقديم الأجر.

والجعالة فيها احتمال الغرر والجهالة في العمل، بخلاف الإجارة فـلا بـد أن يكـون العمل فيها معلوما.

والمنفعـة في الجعالـة لا يـستحقها المالـك إلا بعـد تمـام العمـل وإنجـازه، بخـلاف الإجارة فينتفع المستأجر بجزء من العمل.

ولا يلزم في الجعالة حضور المتعاقدين، بخلاف الإجارة فلا بد من معرفة أحدهما للآخر، أو معرفة من يقوم مقامهما، فمـن أحـضر صـواع الملـك ليوسـف، اسـتحق حمل البعير ولو لم يكن معروفا ليوسف ولا خوله يوسف بعينه.

وقولـه تعـالى: {ولمـن جـاء بـه حمـل بعيـر} دليـل علـى وجـوب أن يكـون الجعـل معلوما، فلا يصح أن يكون الجعل مجهولا؛ كمن يقول: من جـاء بكـذا وكـذا، فلـه شيء، لا يسميه.

مسألة: قوله تعالى: {وأنا به زعـيم} الـزعيم هـو الـضامن والكفيـل؛ كقولـه تعـالى: {سلهم أيهم بذلك زعيم (٤٠)} [القلم: ٤٠]، ومنه قوله ﷺ: (أنا زعـيم ببيـت في ربـض الجنـة لمـن تـرك المـراء وإن كـان محقـا، وببيـت في وسـط الجنـة لمـن تـرك الكذب وإن كان مازحـا، وببيـت في أعلـى الجنـة لمـن حسن خلقـه) زعـيم؛ يعنـي:

=

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦).

{فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ} فَفَتَّشَهَا {قَبْل وِعَاء أَخِيهِ} لِئَلَّا يتهم {ثم استخرجها} أي السقاية {من وعاء أخيه} قال تعالى {كَذَلِكَ} الْكَيْد {كِدْنَا لِيُوسُف} عَلَّمْنَاهُ الِاحْتِيَال فِي أَخْذ أَخِيهِ {مَا كَانَ} يُوسُف {لِيَأْخُذ أَخَاهُ} رَقِيقًا عَنْ السَّرِقَة {فِي

=

كفيلا، ومن ضمن الشيء يجب عليه الوفاء به، وتجوز مؤاخذته عند تفريطه، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: (الزعيم غارم)؛ رواه أحمد وأصحاب السنن؛ من حديث أبي أمامة.

وإذا ضمن رجل مالا على أحد، فلم يف صاحب المال الأصلي بما عليه، فالعلماء يتفقون على أن الغريم الأصلي مطالب بكل حال، ولا يسقط الحق عنه بمجرد وجود الضامن، ولكن اختلف العلماء في صاحب الحق: هل يكون مخيرا بالأخذ ممن شاء منهما من الأصلي والضامن؟ على قولين:

ذهب جمهور العلماء: إلى أنه يأخذ ممن شاء منهما حتى يستوفي حقه؟ وهذا قول الأئمة الأربعة، خلافا لمالك في قول له متأخر أنه لا يأخذ من الضامن حتى يعجز عن الأصلي؛ إما لغيابه، أو إفلاسه.

ويصح ضمان الحضور، وهي كفالة بدن من عليه دين، وهي صحيحة عند عامة العلماء؛ فمن ضمن حضور أحد وكفله، وجب عليه ولزمه ذلك، وقد ذهب الشافعي: إلى ضعفها من جهة القياس، وظاهر الكتاب ثبوتها، وذلك في قوله تعالى: {قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل (٦٦)} [يوسف: ٦٦].

دِين الْمَلِك} حُكْم مَلِك مِصْر لِأَنَّ جَزَاءَهُ عِنْده الضَّرْب وَتَغْرِيم مِثْلَيْ الْمَسْرُوق لَا الِاسْتِرْقَاق {إلَّا أَنْ يَشَاء الله} أَخْذه بِحُكْمِ أَبِيهِ أَيْ لَمْ يَتَمَكَّن مِنْ أَخْذه إلَّا بِمَشِيئَةِ الله بِإِلْهَامِهِ سُؤَال إخْوَته وَجَوَابهمْ بِسُنَّتِهِمْ {نَرْفَع دَرَجَات مَنْ نَشَاء} بِالْإِضَافَةِ وَالتَّنْوِين فِي الْعِلْم كَيُوسُف {وَفَوْق كُلّ ذِي عِلْم} مِنْ الْمَخْلُوقِينَ {عَلِيم} أَعْلَم مِنْهُ حَتَّى يَنْتَهِي إلَى الله تَعَالَى(١).

---

(١) قوله تعالى: {فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ} [يوسف: ٧٦].

أي: فبدأ المؤذن بتفتيش أوعيتهم، قبل أن يفتش وعاء «بنيامين» لإزالة التهمة، فلم يجد شيئا بداخل أوعيتهم، فلما وصل إلى وعاء «بنيامين» وقام بتفتيشه وجد السقاية بداخله، فاستخرجها منه على مشهد منهم جميعا.

قال الثعلبي:"فقال الرسول عند ذلك: إنه لا بد من تفتيش أمتعتكم ولستم سارقين حتى أفتشها فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بأوعيتهم لإزالة التهمة قبل وعاء أخيه وكان فتش أمتعتهم واحدا واحدا".

قال الزمخشري:"قيل: قال لهم من وكل بهم: لا بد من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفى التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظن هذا أخذ شيئا، فقالوا: والله لا تتركه حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه".

قال قتادة:"كان لا ينظر في وعاء رجل منهم إلا استغفر، تأثما مما قذفهم به حتى إذا بقي أخوه وهو أصغر القوم: ما أرى هذا أخذ شيئا، قالوا: بلى فاستبرءه، إلا وقد علموا حيث وضعوا سقايتهم، ثم استخرجها من وعاء أخيه".

قال محمد بن إسحاق:"قال لهم الرسول: لستم ببارحين حتى أفتش أمتعتكم، وأعذر في طلبها قالوا: ما نعلمها فينا، ولا معنا فبدأ بأوعيتهم وعاء وعاء، يفتشها وينظر ما فيها، حتى مر على أخيه ففتش فاستخرجها منه فأخذ برقبته فانصرف به =

=

إلى يوسف".

وقرأ الحسن: «وعاء أخيه»، بضم الواو، وهي لغة. وقرأ سعيد ابن جبير: «إعاء أخيه»، بقلب الواو همزة.

قوله تعالى(ثم اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ) [يوسف: ٧٦]، أي:"ثم انتهى بوعاء أخيه، فاستخرج الإناء منه".

قال مقاتل:"يعني: من متاع أخيه وهو أخو يوسف لأبيه وأمه".

قال السدي:"فلما بقي رحل الغلام، قال: ما كان هذا الغلام ليأخذها، قالوا والله لا ترك حتى تنظر في رحله، وتذهب وقد طابت نفسك فأدخل يده في رحله فاستخرجها من رحل أخيه، يقول الله تعالى: {كذلك كدنا ليوسف}".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} [يوسف: ٧٦]، أي:"كذلك يسَّرنا ليوسف هذا التدبير الذي توصَّل به لأخذ أخيه".

أي: مثل هذا التدبير الحكيم دبرنا من أجل يوسف ما يوصله إلى غرضه ومقصده، وهو احتجاز أخيه بنيامين معه، بأن ألهمناه بأن يضع السقاية في رحل أخيه، وبأن يسأل إخوته عن حكم السارق في شريعتهم.. وما كان يوسف ليستطيع أن يحتجز أخاه معه، لو نفذ شريعة ملك مصر، لأن شريعته لا تجيز استرقاق السارق سنة كما هو الحال في شريعة يعقوب، وإنما تعاقب السارق بضربه وتغريمه قيمة ما سرقه.

عن أبي مالك-من طريق السدي-، قوله: "{كذلك}، يعني: هكذا".

قال الطبري:"قول: هكذا صنعنا ليوسف، حتى يخلص أخاه لأبيه وأمه من إخوته لأبيه، بإقرارٍ منهم أن له أن يأخذه منهم ويحتبسه في يديه، ويحول بينه وبينهم. وذلك أنهم قالوا، إذ قيل لهم: {ما جزاؤه إن كنتم كاذبين}: جزاءُ من سرق الصُّواع أن من وجد ذلك في رحله فهو مسترَقٌّ به، وذلك كان حكمهم في دينهم. فكاد الله ليوسف كما وصف لنا حتى أخذ أخاه منهم، فصار عنده بحكمهم وصُنْعٍ

=

الله له".

وفي قوله تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} [يوسف: ٧٦]، وجهان:

أحدهما: صنعنا ليوسف. قاله الضحاك ، والسدي ، وابن جريج.

قال مقاتل:"يعني: هكذا صنعنا ليوسف أن يأخذ أخاه خادما".

والثاني: دبّرنا ليوسف، حكاه الماوردي عن ابن عيسى.

قال البغوي: (الكيد: إرادة مضرة الغير الخفية، وهو من الخلق الحيلة السيئة، ومن الله التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق).

فالكيد يطلق على المكر والحيلة، كما قال تعالى: {فيكيدوا لك كيدا} [يوسف:٥]، وقال سبحانه: {فجمع كيده ثم أتى (٦٠)} [طه:٦٠].

قال الراغب: (الكيد: ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذموما وممدوحا، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر، وكذلك الاستدراج والمكر، ويكون بعض ذلك محمودا).

وقد فسر السلف الكيد في الآية بالكيد المحمود، وهو ما كان في مقابلة الفاعل بمثل فعله أو أشد، وهنا يكون صفة كمال تليق بالله سبحانه.

قال ابن كثير: ({كذلك كدنا ليوسف} [يوسف:٧٦]، وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه؛ لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة).

وقال ابن القيم: (المكر: إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان:

١ - قبيح: وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه.

٢ - وحسن: وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له، فالأول مذموم، والثاني ممدوح، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلا منه وحكمة..).

ولوازم قوله تعالى: {كدنا} في هذه الآية كثيرة، ذكرها العلماء، ومنها:

=

=

الأول / أردنا به وله، وهو تفسير ابن عقيل، وأشار إليه الزركشي.

الثاني / احتلنا له، والكيد: الحيلة، ذكره الجصاص وغيره.

الثالث / صنعنا ليوسف، قاله الطبري، والقرطبي وغيرهما.

الرابع / دبرنا له، ذكره الماوردي، وابن الجوزي.

الخامس / علمناه، كما ذكر الزمخشري وغيره.

ونسبة الكيد إلى الله سبحانه من إطلاق الفعل عليه تعالى، والفعل أوسع من الاسم ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالا لم يتسم منها بأسماء الفاعل، كأراد وشاء ولم يسم بالمريد والشائي، وكذا مكر ويمكر، وأكيد كيدا، ولا يقال الماكر والكائد؛ لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم.

قال ابن تيمية: (وكذلك ما ادعوا أنه مجاز في القرآن كلفظ: المكر والاستهزاء والسخرية المضاف إلى الله، وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز، وليس كذلك؛ بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلما له، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله كانت عدلا، كما قال تعالى: {كذلك كدنا ليوسف} [يوسف:٧٦]، فكاد له كما كادت إخوته لما قال له أبوه: {لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا} [يوسف:٥]، وقال تعالى: {إنهم يكيدون كيدا (١٥) وأكيد كيدا (١٦)} [الطارق:١٥ - ١٦] ...).

وقال أيضا: (وهكذا وصف نفسه بالمكر والكيد، كما وصف عبده بذلك، فقال: {ويمكرون ويمكر الله} [الأنفال:٣٠]، وقال: {إنهم يكيدون كيدا (١٥) وأكيد كيدا (١٦)} [الطارق:١٥ - ١٦]، وليس المكر كالمكر، ولا الكيد كالكيد). والله أعلم.

قوله تعالى: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ} [يوسف: ٧٦].

=

=

وما كان يوسف ليفعل كل ذلك التدبير الحكيم في حال من الأحوال، إلا في حال مشيئة الله ومعونته وإذنه بذلك، فهو سبحانه الذي ألهمه أن يدس السقاية في رحل أخيه، وهو سبحانه الذي ألهمه أن يسأل إخوته عن عقوبة السارق في شريعتهم حتى يطبقها على من يوجد صواع الملك في رحله منهم.

قال الطبري: "يقول: ما كان يوسف ليأخذ أخاه في حكم ملك مصر وقضائه وطاعته منهم، لأنه لم يكن من حكم ذلك الملك وقضائه أن يسترقّ أحد بالسَّرَق، فلم يكن ليوسف أخذ أخيه في حكم ملك أرضه، إلا أن يشاء الله بكيده الذي كاده له، حتى أسلم من وجد في وعائه الصواع إخوتُه ورفقاؤه بحكمهم عليه، وطابت أنفسهم بالتسليم".

قال الزمخشري: "لأنه كان في دين ملك مصر، وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يلزم ويستعبد، {إلا أن يشاء الله}، أى: ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإذنه فيه".

عن مجاهد قوله: "{ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك}، إلا فعلة كادها الله له، فاعتلّ بها يوسف".

عن ابن إسحاق: "{ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك}، أي: بظلم، ولكن الله كاد ليوسف ليضمّ إليه أخاه".

وفي قوله تعالى: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} [يوسف: ٧٦]، وجوه:

أحدها: في سلطان الملك، قاله ابن عباس ، والضحاك.

والثاني: في قضاء الملك وحكمه، أن يستعبد رجلا بسرقة. قاله قتادة.

وقال محمد بن كعب القرظي: "في قضاء الملك".

وقال السدي: "في حكم الملك".

وقال معمر: "كان حكم الملك أن من سَرَق ضوعف عليه الغُرْم".

=

=

والثالث: في عادة الملك. ذكره الماوردي.

قال الطبري:"وهذه الأقوال وإن اختلفت ألفاظ قائليها في معنى "دين الملك"، فمتقاربة المعاني، لأن من أخذه في سلطان الملك عامله بعمله، فبرضاه أخذه إذًا لا بغيره، وذلك منه حكم عليه، وحكمه عليه قضاؤه، وأصل "الدين"، الطاعة".

قال ابن زيد:"ليس في دين الملك أن يؤخذ السارق بسرقته. قال: وكان الحكم عند الأنبياء، يعقوب وبنيه، أن يؤخذ السارق بسرقته عبدًا يسترقّ".

قال الضحاك:"كان في دين ملكهم، إذا أخذت السرقة من السارق، أخذت منه ومثلها من ماله، فدفعت للمسروق".

قال مقاتل:"{ما كان ليأخذ أخاه}، يعنى: ليحبس أخاه {في دين الملك}، يعني: حكم الملك، لأن حكم الملك أن يغرم السارق ضعف ما سرق ثم يترك".

وفي قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [يوسف: ٧٦]، وجهان:

أحدهما: إلا أن يشاء الله أن يُسْتَرَق من سرق.

قال ابن إسحاق:"ولكن الله كاد له ليضم إليه أخاه".

والثاني: إلا أن يشاء الله أن يجعل ليوسف عذرًا فيما فعل. وهذا معنى قول مجاهد.

قال مجاهد:"إلا بعلة كادَها الله، فاعتلَّ بها يوسف".

وعن السدي: "{إلا أن يشاء الله}، ولكن صنعنا له، بأنهم قالوا: {فهو جزاؤه}".

قوله تعالى: {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ} [يوسف: ٧٦]، أي:"نرفع منازل مَن نشاء في الدنيا على غيره كما رفعنا منزلة يوسف".

قال الطبري:"نرفع منازل من نشاء رفع منازله ومراتبه في الدنيا بالعلم على غيره، كما رفعنا مرتبة يوسف في ذلك ومنزلته في الدنيا على منازل إخوته ومراتبهم".

قال مقاتل:"يعني: فضائل يوسف حين أخذ أخاه".

عن ابن جريح قوله: "{نرفع درجات من نشاء}، يوسف وإخوته، أوتوا علمًا،

=

=

فرفعنا يوسف فوقهم في العلم".

قوله تعالى: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [يوسف: ٧٦]، أي:"فوق كل عالمٍ من هو أعلم منه حتى ينتهي إلى ذي العلم البالغ وهو ربُّ العالمين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وفوق كل عالم من هو أعلم منه، حتى ينتهي ذلك إلى الله. وإنما عنى بذلك أنّ يوسف أعلم إخوته، وأنّ فوق يوسف من هو أعلم من يوسف، حتى ينتهي ذلك إلى الله".

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، "أنه حدّث بحديث، فقال رجل عنده: {وفوق كل ذي علم عليم}، فقال ابن عباس: بئسما قلت! إن الله هو عليم، وهو فوق كل عالم".

وفي رواية أخرى:"فقال رجل عنده: الحمد لله، {وفوق كل ذي علم عليم}! فقال ابن عباس: العالم الله، وهو فوق كل عالم".

وروي عن ابن عباس كذلك:"عن ابن عباس: "{وفوق كل ذي علم عليم}، قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم".

عن محمد بن كعب، قال:"سأل رجل عليًّا عن مسألة، فقال فيها، فقال الرجل: ليس هكذا ولكن كذا وكذا. قال عليٌّ: أصبتَ وأخطأتُ، {وفوق كل ذي علم عليم}".

عن عكرمة في قوله: "{وفوق كل ذي علم عليم}، قال: علم الله فوق كل أحد".

عن سعيد بن جبير: "{وفوق كل ذي علم عليم}، قال: الله أعلم من كل أحد".

قال الحسن:"ليس عالمٌ إلا فوقه عالم، حتى ينتهي العلم إلى الله".

عن بشير الهجيمي قال: "سمعت الحسن قرأ هذه الآية يومًا: {وفوق كل ذي علم عليم}، ثم وقف فقال: إنه والله ما أمسى على ظهر الأرض عالم إلا فوقه من هو أعلم منه، حتى يعود العلم إلى الذي علَّمه".

=

=

عن قتادة، قوله:"{وفوق كل ذي علم عليم}، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدئ، وتعلَّمت العلماء، وإليه يعود. في قراءة عبد الله: «وَفَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ عَلِيمٌ»".

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما أذن الله فيه يجب أن يكون حسنا، فمن أى وجه حسن هذا الكيد؟ وما هو إلا بهتان، وتسريق لمن لم يسرق، وتكذيب لمن لم يكذب، وهو قوله: {إنكم لسارقون}، {فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ} [يوسف: ٧٤]؟

قلت: هو في صورة البهتان وليس ببهتان في الحقيقة، لأن قوله: {إنكم لسارقون} تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف. وقيل: كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف، وقوله: {إن كنتم كاذبين} فرض لانتفاء براءتهم. وفرض التكذيب لا يكون تكذيبا، على أنه لو صرح لهم بالتكذيب كما صرح لهم بالتسريق. لكان له وجه، لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: {وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْب} [يوسف: ١٧]، هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا} [ص: ٤٤]، ليتخلص من جلدها ولا يحنث، وكقول إبراهيم عليه السلام: هي أختى، لتسلم من يد الكافر. وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلما وذريعة إليها، فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا".

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧).

{قَالُوا إِنْ يَسْرِق فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْل} أَيْ يُوسُف وَكَانَ سَرَقَ لِأَبِي أُمّه صَنَمًا مِنْ ذَهَب فَكَسَرَهُ لِئَلَّا يَعْبُدهُ {فَأَسَرَّهَا يُوسُف فِي نَفْسه وَلَمْ يُبْدِهَا} يُظْهِرهَا {لهم} والضمير للكلمة التي في قوله {قَالَ} فِي نَفْسه {أَنْتُمْ شَرّ مَكَانًا} مِنْ يُوسُف وَأَخِيهِ لِسَرِقَتِكُمْ أَخَاكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ وَظُلْمكُمْ لَهُ {وَاَللَّه أَعْلَم} عَالِم {بِمَا تَصِفُونَ} تَذْكُرُونَ من أمره.

قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨).

{قالوا يأيها الْعَزِيز إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا} يُحِبّهُ أَكْثَر مِنَّا وَيَتَسَلَّى بِهِ عَنْ وَلَده الْهَالِك وَيُحْزِنهُ فِرَاقه {فَخُذْ أَحَدنَا} اسْتَعْبِدْهُ {مَكَانه} بَدَلًا مِنْهُ {إِنَّا نَرَاك مِنَ الْمُحْسِنِينَ} فِي أَفْعَالك.

قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩).

{قَالَ مَعَاذ الله} نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَر حُذِفَ فِعْله وَأُضِيفَ إِلَى الْمَفْعُول أَيْ نَعُوذ بِاَللهِ مِنْ {أَنْ نَأْخُذ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعنَا عِنْده} لَمْ يَقُلْ مَنْ سَرَقَ تَحَرُّزًا مِنَ الكذب {إنا إذا} إن أخذنا غيره {لظالمون}[1].

(١) قوله تعالى: {قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ} [يوسف: ٧٧].

أي: قال إخوة يوسف عليه السلام بعد هذا الموقف المحرج لهم. إن يسرق بنيامين هذا الصواع الخاص بالملك فقد سرق أخ له من قبل- وهو يوسف- ما يشبه ذلك.

=

=

وقولهم هذا يدل على أن صنيعهم بيوسف وأخيه ما زال متمكنا من نفوسهم.

قال الطبري:"يعنون أخاه لأبيه وأمه، وهو يوسف".

عن مجاهد، قوله: "{إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل}، ليوسف".

قال الزمخشري:"أرادوا يوسف. روى أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء، وأقبلوا عليه وقالوا له: ما الذي صنعت؟ فضحتنا وسودت وجوهنا، يا بنى راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء، ذهبتم بأخى فأهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم".

وفي قوله تعالى: {قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ} [يوسف: ٧٧]، وجهان:

أحدهما: أنه عقوبة ليوسف أجراها الله تعالى على ألسنتهم، رواه عكرمة عن ابن عباس.

الثاني: ليتبرأوا بذلك من فعله لأنه ليس من أمهم وأنه إن سرق فقد جذبه عِرق أخيه السارق لأن في الاشتراك في الأنساب تشاكلًا في الأخلاق.

وفي السرقة التي نسبوا يوسف إليها، أقوال:

أحدها: أنه سرق صنمًا كان لجده إلى أمه من فضة وذهب، وكسره وألقاه في الطريق فعيّروه إخوته بذلك، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة.

قال قتادة:"أرادوا بذلك عيبَ نبيّ الله يوسف. وسرقته التي عابوه بها، صنم كان لجده أبي أمه، فأخذه، إنما أراد نبيُّ الله بذلك الخير، فعابوه".

وقال ابن جريج:"كانت أمّ يوسف أمرت يوسف يسرق صنمًا لخاله يعبده، وكانت مسلمةً".

وقال زيد بن أسلم:"كان يوسف مع أمه عند خال له قال: وكان غلاما، يلعب مع

=

=

الغلمان، فدخلوا كنيسة لهم فوجد تمثالا لهم صغيرا من ذهب فأخذه فذلك قول إخوته: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل".

الثاني: كان بنو يعقوب على طعام، إذْ نظرَ يوسف إلى عَرْق فخبأه أو اجتره، فعيّروه بذلك، وهذا قول إدريس ، وعطية العوفي.

الثالث: أنه كان يسرق من طعام المائدة للمساكين، حكاه ابن عيسى.

وحكي الزمخشري:"أنه كانت في المنزل عناق أو دجاجة فأعطاها السائل".

الرابع: أن عمته بنت إسحاق وكانت كبرى ولد إسحاق، وكانت إليها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكان من أختانها من وليها، كان له سلما لا ينازع فيه يصنع فيه ما شاء، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد كان حضنته عمته فكان معها وإليها، فلم يحب أحد شيئا من الأشياء حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات ووقعت نفس يعقوب عليه أتاها فقال: يا أخية، أسلمي إلي يوسف فو الله ما أقدر أن يغيب عني ساعة قال: وأنا والله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة، قال: فو الله ما أنا بتاركه قالت: دعه عندي أياما حتى أنظر إليه، وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه، أو كما قالت، فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف تحت ثيابها ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها ومن أصابها فالتمست، ثم قالت: كشفوا أهل البيت فكشفوهم، فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه المسلم ما أصنع؟ أصنع فيه ما شئت، قال: وأتاها يعقوب، فأخبرته الخبر، فقال: أنت وذلك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت، فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه: {إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم}، إلى قوله: {والله أعلم بما تصفون}. قاله مجاهد.

=

=

الخامس: أنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه، قاله الحسن.

قال ابن عباس:"عوقب يوسف ثلاث مرات، والثالثة حيث قال: أيتها العير إنكم لسارقون فاستقبل في وجهه، إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل يعنونه".

قوله تعالى: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ} [يوسف: ٧٧]، أي:"فأخفى يوسف تلك القولة في نفسه وكتمها ولم يُظهرها لإخوته تلطفًا معهم".

وفي قوله تعالى: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ} [يوسف: ٧٧]، وجهان:

أحدهما: أنه أسر في نفسه قولهم: {إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل} . قاله ابن شجرة ، وعلي بن عيسى.

الثاني: أسر في نفسه: {أنتُمْ شَرٌّ مكانًا} ، الآية، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن إسحاق.

قوله تعالى: {قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا} [يوسف: ٧٧]، أي:"وحدَّث نفسه قائلا أنتم أسوأ منزلة ممن ذكرتم، حيث دبَّرتم لي ما كان منكم".

قال الطبري:"قال: أنتم شرّ عند الله منزلا ممن وصفتموه بأنه سرق، وأخبث مكانًا بما سلف من أفعالكم".

قال الزمخشري: أي:"أنتم شر منزلة في السرق، لأنكم سارقون بالصحة، لسرقتكم أخاكم من أبيكم".

عن مجاهد قوله: {أنتم شر مكانًا والله أعلم بما تصفون} ، يقولون: يوسف يقوله".

وفي قراءة ابن مسعود: «فأسره»، على التذكير، يريد القول أو الكلام.

قوله تعالى: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ} [يوسف: ٧٧]، أي:"والله أعلم بما تصفون

=

=

من الكذب والافتراء".

قال الطبري:"يقول: والله أعلم بما تكذبون فيما تصفون به أخاه بنيامين... والله عالم بكذبكم، وإن جهله كثيرٌ ممن حضرَ من الناس".

قال الزمخشري: أي:"يعلم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة، وليس الأمر كما تصفون".

وفي قوله تعالى: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ} [يوسف: ٧٧]، وجهان:

أحدهما: بما تقولون، قاله مجاهد.

الثاني: بما تكذبون، قاله قتادة.

قال السدي:"فلما استخرجها يعني: من الوعاء، انقطعت ظهورهم، وهلكوا وقالوا: ما يزال لنا منكم بلاء يا بني راحيل، متى أخذت هذا الصواع؟ قال، بنيامين بنو راحيل الذي لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية وما وضع هذا الصواع في رحلي إلا الذي وضع الدراهم في رحالكم قال: لا تذكر الدراهم، فتؤخذ بها فوقعوا فيه وشتموه فلما أدخلوهم على يوسف دعا الصواع ثم نقر فيه ثم أدناه من أذنه، ثم قال: إن صواعي هذا ليخبرني أنكم كنتم اثنى عشر أخا، وإنكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه فلما سمعها بنيامين قام فسجد ليوسف، وقال: أيها الملك سل صواعك هذا، أحي ذلك أم لا؟ فنقره يوسف، ثم قال: نعم هو حي وسوف تراه، قال: اصنع بي ما شئت فإنه إن علم بي استنقذني، فدخل يوسف فبكى ثم توضأ فنقر فيه، فقال بنيامين: أيها الملك إني أراك تضرب بصواعك فيخبرك الحق، فسله من صاحبه؟ فنقر فيه، ثم قال: إن صواعي هذا غضبان، يقول كيف تسألني من صاحبي وقد رأيت مع من كنت وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا فغضب روبيل، فقام فقال: يا أيها الملك: والله لتتركنا أو لأصيحن صيحة لا تبقى امرأة حامل بمصر إلا طرحت ما في بطنها، وقامت كل شعرة من جسد

=

=

روبيل تخرج من ثيابه فقال يوسف لابنه: مر إلي جنب روبيل فمسه وكان بنوا يعقوب إذا غضب أحدهم فمسه الآخر ذهب غضبه فمر الغلام إلى جانبه فمسه فذهب غضبه، فقال: من هذا؟ إن في هذا البلاد لبزرا من بزر يعقوب، قال يوسف: ومن يعقوب؟ فغضب روبيل فقال: يا أيها الملك: لا تذكرن يعقوب فإنه سري الله بن ذبيح الله بن خليل الله فقال يوسف أنت إذا إن كنت صادقا".

(فائدة): تكلم إخوة يوسف بالسوء في يوسف مع تقادم العهد وبعده، مع ما فعلوه به من تغييب، وما لحقه بعد ذلك من استعباد ومراودة على فتنة، ثم سجنه وطول مكثه فيه، ومع ذلك كله لم ينتصر يوسف لنفسه منهم.

وفي هذا: أنه ينبغي لمن كان عمله لله ويقوم بأمر الله في الناس: أن يغيب انتصاره لنفسه؛ لأنه إن كان الانتصار لنفسه في كل ما فات من حقه، غاب معه العدل، والقائم لله قد باع نفسه له، فلا يليق بمن باع نفسه لله أن ينتصر لها؛ فإنها ليست له.

وهكذا ينبغي لأصحاب الولايات -وخاصة الكبرى- ألا ينتصروا لأنفسهم! لأن من اتسع أمره في الناس وسلطانه، نال الناس منه ووقعوا فيه؛ لكثرة الجهال والظلمة، وربما تكلم فبه بعض الناس بحق، فإن انتصر لنفسه في كل مظلمة من فعل وقول، انشغل بالانتصار لنفسه عن الانتصار لأمته، وعاش لنفسه ولم يعش لأمته، وقد وقع أقوام من الجهلة والمنافقين والظلمة في النبي ﷺ وهم تحت سلطانه، فلم ينتصر لنفسه، كما وقع فيه جماعة من جهلة الأعراب، وذو الخويصرة، وبعض المنافقين كعبد الله بن أبي وغيره.

والوقوع في الحاكم وعرضه ممن تحت سلطانه ليس على حالة واحدة، وإنما هو على حالتين:

الحالة الأولى: إن وقع أحد في شخصه مجردا، فأساء إليه أمامه أو خلفه، فلا ينبغي أن ينتصر الحاكم والسلطان لنفسه؛ وإنما يعفو أو يتغافل! كما كان الأنبياء والنبي

=

=

ﷺ يفعل؛ لأن الانتصار في مثل هذه الأشياء تتسع دائرته؛ لكثرة أشخاص الناس وانفراد الحاكم بشخصه.

الحالة الثانية: أن يكون الوقوع فيه لا لذاته؛ وإنما لما يدعو إليه من دين الله وحكمه وبيان شرعه؛ فإن هذا يتحول من الكلام في نفس الحاكم إلى الكلام في شريعته ودينه وعدله، وقد كان النبي ﷺ يفرق بين من يقع في ذاته وبين من يقع في دينه، وبين من يقع في ذاته وبين من يقع في ذاته وهو يريد دينه، وفي "الصحيح"؛ من حديث عائشة؛ قالت: "والله، ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمات الله، فينتقم لله".

فإن كان الذي وقع في دينه وشريعته وعدل الله الذي يقوم به في الناس -لم يجهر بذلك في الناس، ولم يدع الناس إلى قوله-: فيترك كما ترك النبي ﷺ ذا الخويصرة وجهلة الأعراب حينما قالوا ذلك أمامه.

وإن كان وقوعه في دينه وشريعته وعدل الله الذي يقوم به في الناس -علانية ويدعو الناس إلى قوله-: فذاك يبغي فتنة في دين الناس وإبعادا لهم عن دينهم؛ ومن هذا قتل النبي ﷺ لبعض من وقع فيه ويؤذيه يبغي دينه وشريعته وصد الناس عن اتباعه؛ كما فعل بكعب بن الأشرف وأمثاله.

قوله تعالى: {قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا} [يوسف: ٧٨]، أي:"قالوا مستعطفين ليوفوا بعهد أبيهم: يا أيها العزيز إن له والدًا كبيرًا في السن يحبه ولا يطيق بُعده".

قال ابن كثير:"لما تعين أَخْذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم، فـ {قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا}، يعنون: وهو يحبه حبا شديدا ويتسلى به عن ولده الذي فقده".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قالت إخوه يوسف ليوسف: يا أيها الملك {إن له

=

=

أبًا شيخًا كبيرًا} كلفًا بحبه، يعنون يعقوب".

قوله تعالى: {فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ} [يوسف: ٧٨]، أي:"فخُذْ أحدنا بدلا من «بنيامين»".

قال الطبري:"يعنون فخذ أحدًا منّا بدلا من بنيامين، وخلِّ عنه".

قال ابن كثير:"أي: بدله، يكون عندك عِوَضًا عنه".

قوله تعالى: {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٧٨]، أي:"إنا نراك من المحسنين في معاملتك لنا ولغيرنا".

قال الطبري:"يقول: إنا نراك من المحسنين في أفعالك".

قال ابن كثير:"أي: من العادلين المنصفين القابلين للخير".

عن ابن إسحاق: "{إنا نراك من المحسنين}، إنا نرى ذلك منك إحسانا إن فعلتَ".

القرآن

{قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩)} [يوسف: ٧٩]

التفسير:

قال يوسف: نعتصم بالله ونستجير به أن نأخذ أحدًا غير الذي وجدنا المكيال عنده -كما حكمتم أنتم-، فإننا إن فعلنا ما تطلبون نكون في عداد الظالمين.

قوله تعالى: {قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ} [يوسف: ٧٩]، أي:"قال يوسف: نعتصم بالله ونستجير به أن نأخذ أحدًا غير الذي وجدنا المكيال عنده -كما حكمتم أنتم-".

قال الطبري:"يقول: أستجير بالله من أن نأخذ بريئًا بسقيم".

قال ابن كثير:"أي: كما قلتم واعترفتم".

=

=

قال محمد بن إسحاق:"يقول: إن أخذنا غير الذي وجدنا متاعنا عنده إنَّا إذًا نفعل ما ليس لنا فعله ونجور على الناس".

قوله تعالى: {إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ} [يوسف: ٧٩]، أي:"فإننا إن فعلنا ما تطلبون نكون في عداد الظالمين".

قال ابن كثير:"أي: إن أخذنا بريئا بسقيم".

عن السدي: "{قالوا يا أيها العزيز إن له أبًا شيخًا كبيرًا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذًا لظالمون}، قال يوسف: إذا أتيتم أباكم فأقرئوه السلام، وقولوا له: إن ملك مصر يدعو لك أن لا تموت حتى ترى ابنك يوسف، حتى يعلمَ أنّ في أرض مصر صدِّيقين مثلَه".

(لطيفة): أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢/ ١٤٥ - ١٤٦) قال الهيثم بن عدي قال: جاء رجل إلى الحجاج فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث فضرب على اسمي في الديوان ومنعت العطاء وقد هدمت داري، فقال الحجاج، أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجني عليك وقد ... تعدي الصحاح مبارك الجرب

ولرب مأخوذ بذنب قريبه ... ونجا المقارف صاحب الذنب؟

فقال الرجل: أيها الأمير! إني سمعت الله يقول غير هذا [وقول الله أصدق من هذا] قال: وما قال؟ قال {قالوا ياأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين (٧٨) قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون} [يوسف: ٧٨ - ٧٩] قال: يا غلام أعد اسمه في الديوان وابن داره، وأعطه عطاءه، ومر مناديا ينادي: صدق الله وكذب الشاعر.

وقال الهيثم بن عدي: عن ابن عباس: كتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إلي برأس أسلم بن عبد البكري لما بلغني عنه، فأحضره الحجاج فقال: أيها الأمير

=

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠).

{فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا} يَئِسُوا {مِنْهُ خَلَصُوا} اعْتَزَلُوا {نَجِيًّا} مَصْدَر يَصْلُح لِلْوَاحِدِ وَغَيْره أَيْ يُنَاجِي بَعْضهمْ بَعْضًا {قَالَ كَبِيرهمْ} سِنًّا روبيل أَوْ رَأْيًا يَهُوذَا {أَلَمْ

=

أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب، وقال الله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين} [الحجرات: ٦] وما بلغه باطل، وإني أعول أربعة وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيري وهن بالباب، فأمر الحجاج بإحضارهن، فلما حضرن جعلت هذه تقول: أنا خالته، وهذه أنا عمته، وهذه أنا أخته، وهذه أنا زوجته، وهذه أنا بنته، وتقدمت إليه جارية فوق الثمان ودون العشرة، فقال لها الحجاج: من أنت؟ فقالت: أنا ابنته، ثم قالت: أصلح الله الأمير، وجثت على ركبتيها وقالت:

أحجاج لم تشهد مقام بناته ... وعماته يندبنه الليل أجمعا
أحجاج كم تقتل به إن قتلته ... ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا
أحجاج من هذا يقوم مقامه ... علينا فمهلا إن تزدنا تضعضعا
أحجاج إما أن تجود بنعمة ... علينا وإما أن تقتلنا معا

قال: فبكى الحجاج وقال: والله لا أعنت عليكن ولا زدتكن تضعضعا، ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل، وبما قالت ابنته هذه، فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بإطلاقه وحسن صلته وبالإحسان إلى هذه الجارية وتفقدها في كل وقت.

تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا} عَهْدًا {مِنَ الله} فِي أَخِيكُمْ {ومن قبل ما} زائدة {فرطتم في يوسف} وَقِيلَ مَا مَصْدَرِيَّة مُبْتَدَأ خَبَره مِنْ قَبْل {فَلَنْ أَبْرَح} أُفَارِق {الْأَرْض} أَرْض مِصْر {حَتَّى يَأْذَن لِي أَبِي} بِالْعَوْدِ إلَيْهِ {أَوْ يَحْكُم الله لِي} بِخَلَاصِ أَخِي {وَهُوَ خَيْر الْحَاكِمِينَ} أعدلهم.

ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١).

{ارْجِعُوا إلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إنَّ ابْنك سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا} عَلَيْهِ {إلَّا بِمَا عَلِمْنَا} تَيَقُّنًا مِنْ مُشَاهَدَة الصَّاع فِي رَحْله {وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ} لِمَا غَابَ عَنَّا حِين إعْطَاء الْمَوْثِق {حَافِظِينَ} وَلَوْ عَلِمْنَا أَنَّهُ يَسْرِق لم نأخذه.

وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢).

{وَاسْأَلِ الْقَرْيَة الَّتِي كُنَّا فِيهَا} هِيَ مِصْر أَيْ أَرْسِلْ إلَى أَهْلهَا فَاسْأَلْهُمْ {وَالْعِير} أَصْحَاب الْعِير {الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا} وَهُمْ قَوْم مِنْ كَنْعَان {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} فِي قَوْلنَا فَرَجَعُوا إلَيْهِ وَقَالُوا لَهُ ذَلِكَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ} [يوسف: ٨٠]، أي:"فلما يئسوا من إجابته إياهم لِمَا طلبوه انفردوا عن الناس".

قال مقاتل:"يقول: يئسوا من بنيامين".

قال الطبري:"فلما يئسوا منه من أن يخلى يوسف عن بنيامين، ويأخذ منهم واحدًا مكانه، وأن يجيبهم إلى ما سألوه من ذلك".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن إخوة يوسف: أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين، الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك".

=

=

عن ابن إسحاق: "{فلما استيأسوا منه}، يئسوا منه، ورأوا شدّته في أمره".

وحكي السمعاني عن ابي عبيدة:"{استيأسوا}: استيقنوا أن الأخ لا يرد إليهم، وأنشد:

أَقُولُ لَهُمْ بالشِّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَنِي أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

يعني: ألم تعلموا".

ولم اجد هذا التفسير لأبي عبيدة، وإنما قال:"{اسْتَيْأَسُوا مِنْه}: استفعلوا من يئست "،

وقال في تفسير الآية:"{أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا} مجازه: ألم يعلم ويتبين". ثم استشهد بقول سحيم بن وثيل اليربوعيّ السبق.

قوله تعالى: {خَلَصُوا نَجِيًّا} [يوسف: ٨٠]، أي:"أخذوا يتشاورون فيما بينهم".

قال مقاتل:"يعني خلوا يتناجون بينهم على حدة".

قال أبو عبيدة:"أي: اعتزلوا نجيّا يتناجون".

قال ابن قتيبة:"أي: اعتزلوا الناس ليس معهم غيرهم يتناجون ويتناظرون ويتسارو".

قال الطبري:"يقول بعضهم لبعض يتناجون، لا يختلط بهم غيرهم".

يقول بعضهم لبعض يتناجون، لا يختلط بهم غيرهم".

قال ابن أبي زمنين:"أي: جعلوا يتناجون ويتشاورون فيما بينهم في ذلك".

قال ابن كثير:"{خَلَصُوا}، أي: انفردوا عن الناس، {نَجِيًّا}، يتناجون فيما بينهم".

قال قتادة:"خلصوا وحدهم نجيًّا".

قال ابن إسحاق: "أي: خلا بعضهم ببعض، ثم قالوا: ماذا ترون؟".

قال السدي:"وأخلص لهم شمعون، وقد كان ارتهنه، خَلَوْا بينهم نجيًّا، يتناجون بينهم".

=

=

و «النجيّ»، جماعة القوم المنتجين، يسمى به الواحد والجماعة، كما يقال: رجل عدل، ورجال عدل، وهو مصدر من قول القائل: نجوت فلانا أنجوه نجيًّا، جعل صفة ونعتًا، قال تعالى {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [مريم: ٥٢]، فوصف به الواحد، وقال في هذا الموضع: {خلصوا نجيًّا} فوصف به الجماعة، ويجمع: «أنجية»، كما قال لبيد:

وَشَهِدْتُ أَنْجِيَةَ الأَفَاقَةِ عَالِيًا كَعْبِي وَأَرْدَافُ المُلُوكِ شُهُودُ

وقد يقال للجماعة من الرجال: «نَجْوَى»، كما قال جل ثناؤه: {وإِذْ هُمْ نَجْوَى} [الإسراء: ٤٧]، وقال: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ} [المجادلة: ٧]، وهم القوم الذين يتناجون.

وتكون «النجوى» مصدرا، كما في قوله تعالى: (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ) [سورة المجادلة: ١٠] تقول منه": نجوت أنجو نجوى" فهي في هذا الموضع، المناجاة نفسها، ومنه قول الشاعر:

بُنَيَّ بَدَا خِبُّ نَجْوَى الرِّجَالِ فَكُنْ عِنْدَ سرِّكَ خَبَّ النَّجِيّ

فـ «النجوى» و «النجي»، في هذا البيت بمعنى واحد، وهو المناجاة، وقد جمع بين اللغتين.

قوله تعالى: {قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ} [يوسف: ٨٠]، أي:"قال كبيرهم في السن: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم العهد المؤكد لتردُّنَّ أخاكم إلا أن تُغلبوا".

قال ابن كثير:"{قَالَ كَبِيرُهُمْ} وهو رُوبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما همّوا بقتله، قال لهم: {أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ} لتردنَّه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك".

قال الرازي: "قيل المراد كبيرهم في السن وهو روبيل، وقيل كبيرهم في العقل وهو

=

=

يهودا".

واختلف في المعني بقوله تعالى: {قَالَ كَبِيرُهُمْ} [يوسف: ٨٠]، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عنى كبيرهم في العقل والعلم، وفيه قولان:

أحدهما: أنه شمعون الذي كان قد ارتهن يوسف عنده حين رجع إخوته إلى أبيهم، وأما كبيرهم في الميلاد: روبيل. قاله مجاهد.

والثاني: أنه روبيل، كان كبيرهم في العلم، ولم يكن بأكبرهم سنا. وهذا قول السدي.

وروي عن السدي: "{قال كبيرهم} في العلم {إن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض}، الآية، فأقام روبيل بمصر، وأقبل التسعة إلى يعقوب، فأخبروه الخبرَ، فبكى وقال: يا بنيّ ما تذهبون مرَّة إلا نقصتم واحدًا! ذهبتم مرة فنقصتم يوسف، وذهبتم الثانية فنقصتم شمعون، وذهبتم الآن فنقصتُم روبيل!".

القول الثاني: أنه عنى كبيرهم في السن وهو روبيل ابن خالة يوسف، وهو الذي نهاهم عن قتله. قاله قتادة ، وابن إسحاق.

القول الثالث: يعني: عظيمهم في أنفسهم وأعلمهم، وهو يهوذا، ولم يكن أكبرهم في السن. قاله مقاتل.

وحكي الماوردي عن مجاهد:"أنه عنى كبيرهم في الرأي والتمييز وهو يهوذا".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قول من قال: عنى بقوله: {قال كبيرهم} [يوسف: ٨٠] روبيل لإجماع جميعهم على أنه كان أكبرهم سنا، ولا تفهم العرب في المخاطبة إذا قيل لهم: فلان كبير القوم مطلقا بغير وصل إلا أحد معنيين، إما في الرياسة عليهم والسؤدد، وإما في السن، فأما في العقل فإنهم إذا أرادوا ذلك وصلوه، فقالوا: هو كبيرهم في العقل، فأما إذا أطلق بغير صلته بذلك

=

=

فلا يفهم إلا ما ذكرت وقد قال أهل التأويل: لم يكن لشمعون، وإن كان قد كان من العلم والعقل بالمكان الذي جعله الله به على إخوته رياسة وسؤدد، فيعلم بذلك أنه عنى بقوله: {قال كبيرهم} [يوسف: ٨٠] فإذا كان ذلك كذلك فلم يبق إلا الوجه الآخر، وهو الكبر في السن، وقد قال الذين ذكرنا جميعا: روبيل كان أكبر القوم سنا، فصح بذلك القول الذي اخترناه".

قوله تعالى: {وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ} [يوسف: ٨٠]، أي:"ومن قبل هذا كان تقصيركم في يوسف وغدركم به".

قال ابن كثير:"مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه".

قوله تعالى: {فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي} [يوسف: ٨٠]، أي:"لذلك لن أفارق أرض «مصر» حتى يأذن لي أبي في مفارقتها".

قال الزجاج:"أي لن أبرح أرض مصر، وإلا فالناس كلهم على الأرض".

قال ابن كثير:"أي: لن أفارق هذه البلدة، {حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي} في الرجوع إليه راضيًا عني".

قال ابن إسحاق:"لن أبرح الأرض التي أنا بها حتى يأذن لي أبي أي: بالخروج".

قال السدي:"فأقام روبيل بمصر، وأقبل النفر إلى يعقوب فبكى، وقال: يا بني ما تذهبون من مرة إلا نقصتم واحدا".

قوله تعالى: {أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي} [يوسف: ٨٠]، أي:"أو يقضي لي ربي بالخروج منها وأتمكن مِن أَخْذِ أخي".

قال مقاتل:"فيرد علي بنيامين".

قال الطبري:"أو يقضي لي ربي بالخروج منها وترك أخي بنيامين، وإلا فإني غير خارج".

وفي قوله تعالى: {أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي} [يوسف: ٨٠]، وجوه:

=

=

أحدها: بالسيف. قاله أبو صالح.

قال الطبري:"وكأنَّ أبا صالح وجّه تأويل قوله: {أو يحكم الله لي}، إلى: أو يقضي الله لي بحرب من مَنَعَني من الانصراف بأخي بنيامين إلى أبيه يعقوب، فأحاربه".

الثاني: بأن يمكنني من أخذ أخي. حكاه ابن كثير.

الثالث: بالموت. قاله ابن أبي زمنين.

قوله تعالى: {وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يوسف: ٨٠]، أي:"والله خيرُ مَن حَكَمَ، وأعدل مَن فَصَلَ بين الناس".

قال مقاتل:"يعني: أفضل القاضين".

قال الطبري:"يقول: والله خير من حكم، وأعدل من فصل بين الناس".

قوله تعالى: {ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ} [يوسف: ٨١]، أي:"ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بحقيقة ما جرى وقولوا له إن ابنك بنيامين سَرَق".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قيل روبيل لإخوته، حين أخذ يوسف أخاه بالصواع الذي استخرج من وعائه: ارجعوا، إخوتي، إلى أبيكم يعقوب فقولوا له يا أبانا إن ابنك بنيامين سرق".

قال مقاتل:"يعني: بنيامين".

عن ابن إسحاق: {ارجعوا إلى أبيكم}، فإني ما كنت راجعًا حتى يأتيني أمرُه {فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق...}".

ورُوي عن ابن عباس: «إنَّ ابْنَكَ سُرِّقَ»، بضم السين وتشديد الراء.

قال الرازي: إن قيل: كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة، والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أنهم شاهدوا أن الصواع كان موضوعا في موضع ما كان يدخله أحد

=

=

إلا هم، فلما شاهدوا أنهم أخرجوا الصواع من رحله غلب على ظنونهم أنه هو الذي أخذ الصواع.

والوجه الثاني: في الجواب أن تقدير الكلام (إن ابنك سرق) في قول الملك وأصحابه ومثله كثير في القرآن.

الوجه الثالث: في الجواب أن ابنك ظهر عليه ما يشبه السرقة ومثل هذا الشيء يسمى سرقة فإن إطلاق اسم أحد الشبيهين على الشبيه الآخر جائز في القرآن قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها).

قوله تعالى: {وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا} [يوسف: ٨١]، أي:"ولسنا نشهد إلا بما تيقنا وعلمنا فقد رأينا الصاع في رَحْله".

قال مقاتل:"يعني: رأينا، الصواع حين أخرج من متاعه".

وفي قوله تعالى: {وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا} [يوسف: ٨١]، وجهان:

أحدهما: وما شهدنا عندك بأن ابنك سرق إلا بما علمنا من وجود السرقة في رحله، قاله ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق: "أي: قد وجدت السرقة في رحله، ونحن ننظر".

الثاني: وما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسترقّ إلا بما علمنا من دينك، قاله ابن زيد.

قال الشوكاني: قوله تعالى (وما شهدنا إلا بما علمنا) من استخراج الصواع من وعائه، وقيل المعنى: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك.

- قال في التسهيل: قوله تعالى (وما شهدناَ إلا بما علمنا) أي قولنا لك إن ابنك سرق: إنما هو شهادة بما علمنا من ظاهر ما جرى.

قال ابن زيد:"قال لهم يعقوب عليه السلام: ما يدري هذا الرجل أن السارق يؤخذ

=

=

بسرقته إلا بقولكم! فقالوا: (ما شهدنا إلا بما علمنا)، لم نشهد أن السارق يؤخذ بسرقته إلا وذلك الذي علمنا. قال: وكان الحكم عند الأنبياء، يعقوب وبنيه أن يؤخذ السارق بسرقته عبدًا فيسترقّ".

قال الطبري:"وأولى التأويلين بالصواب عندنا في قوله: {وما شهدنا إلا بما علمنا} قولُ من قال: وما شهدنا بأن ابنك سرق إلا بما علمنا من رؤيتنا للصواع في وعائه، لأنه عَقِيب قوله: {إن ابنك سرق}؛ فهو بأن يكون خبراً عن شهادتهم بذلك، أولى من أن يكون خبراً عما هو منفصل، وذكر أن «الغيب»، في لغة «حمير»، هو الليل بعينه ".

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وحكى - الله تعالى - أن إخوة يوسف، وصفوا أن شهادتهم كما ينبغي لهم، فحكى - الله تعالى - أن كبيرهم قال: {ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين}، قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا يسع شاهدا أن يشهد إلا بما علم، والعلم من ثلاثة وجوه:

١ - منها: ما عاينه الشاهد فيشهد بالمعاينة.

٢ - ومنها: ما سمعه، فيشهد ما أثبت سمعا من المشهود عليه.

٣ - ومنها: ما تظاهرت به الأخبار مما لا يمكن في أكثره العيان وتثبت معرفته في القلوب، فيشهد عليه بهذا الوجه".

قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ} [يوسف: ٨١].

أي: وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق صواع الملك، عند ما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا بأن نأتيك به معنا إلا أن يحاط بنا.

وهو احتراس من تحقق كونه سرق؛ وهو إما لقصد التلطف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة، وإما لأنهم علموا من أمانة أخيهم ما خالجهم به الشك في وقوع السرقة منه.

=

=

قال مقاتل:"يعنى: وما كنا نرى أنه يسرق، ولو علمنا ما ذهبنا به معنا".

قال الطبري:"يقول: وما كنا نرى أن ابنك يسرق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا {ونحفظ أخانا} مما لنا إلى حفظه منه السبيل".

قال ابن إسحاق: "لا علم لنا بالغيب".

عن عكرمة: "{وما كنا للغيب حافظين}، قال: ما كنا نعلم أن ابنك يسرق".

قال قتادة:"ما كنا نرى أنه سيسرق".

وقال مجاهد:"لم نشعر أنه سيسرق".

قوله تعالى: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} [يوسف: ٨٢]، أي:"واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث".

قال الطبري:"يقول: وإن كنتَ مُتَّهِمًا لنا، لا تصدقنا على ما نقول من أن ابنك سرق: {فاسأل القرية التي كنا فيها}، وهي مصر، يقول: سل من فيها من أهلها".

قال ابن عباس:"يعنون مصر".

- قال البيضاوي: أي أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة.

- قال الرازي: والأكثرون اتفقوا على أن المراد من هذه القرية مصر، وقال قوم، بل المراد منه قرية على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش.

- قال في التسهيل: قوله تعالى (وسئل القرية) واسأل أهل القرية، وكذلك أهل العير: يعنون الرفقة، هذا هو قول الجمهور، وقيل: المراد سؤال القرية بنفسها والعير بنفسها ولا يبعد أن تخبره الجمادات لأنه نبي والأول أظهر وأشهر على أنه مجاز، والقرية هنا هي مصر.

- قال الشوكاني: قوله تعالى (واسأل القرية....) هذا من تمام قول كبيرهم لهم أي: قولوا لأبيكم: أسأل القرية التي كنا فيها أي: مصر، والمراد أهلها أي: أسأل أهل القرية؛ وقيل: هي قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها.

=

=

وقيل: المعنى: واسأل القرية نفسها وإن كانت جمادا فإنك نبي الله، والله سبحانه سينطقها فتجيبك.

(والعير التي أقبلنا فيها) معطوف على ما قبله، أي: اسأل أهل القرية التي كنا فيها، واسأل «العير» أي: قوافل التجارة التي كنا فيها عند ذهابنا وإيابنا فإن أصحاب هذه القوافل يعلمون ما حدث من ابنك «بنيامين».

قال ابن إسحاق:"قد عرف رُوبيل في رَجْع قوله لإخوته، أنهم أهلُ تُهمةٍ عند أبيهم، لما كانوا صنعوا في يوسف. وقولهم له: {إسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها}، فقد علموا ما علمنا وشهدوا ما شهدنا، إن كنت لا تصدقنا، {وإنا لصادقون}".

قوله تعالى: {وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا} [يوسف: ٨٢]، أي:"واسأل أيضًا القافلة التي جئنا معهم".

قال الطبري:"وهي القافلة التي كنا فيها، التي أقبلنا منها معها، عن خبر ابنك وحقيقة ما أخبرناك عنه من سَرَقِهِ، فإنك تَخْبُر مصداق ذلك".

قال ابن كثير:"أي: التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا".

وفي قوله تعالى: {وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا} [يوسف: ٨٢]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها القافلة، وقافلة الإبل تسمى: عيرًا على التشبيه.

الثاني: الحمير، قاله مجاهد، والمعنى: أهل العير.

الثالث: أنهم أرادوا من أبيهم يعقوب أن يسأل القرية وإن كانت جمادًا، أو نفس العير وإن كانت حيوانًا بهيمًا لأنه نبي، والأنبياء قد سخر لهم الجماد والحيوان بما يحدث فيهم من المعرفة إعجازًا لأنبيائه، فأحالوه على سؤال القرية والعير ليكون أوضح برهانًا. حكاه الماوردي.

قال الإمام الشافعي:"فهذه الآية في مثل معنى الآيات قبلها، لا تختلف عند أهل

=

=

العلم باللسان، أنهم إنما يخاطبون أباهم بمسألة أهل القرية وأهل العير؛ لأن القرية والعير لا ينبئان عن صدقهم".

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [يوسف: ٨٢]، أي:"صادقون فيما أخبرناك من أمره".

قال ابن كثير: أي:"فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقته".

(تنبيه): قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٧/ ١١٢، ١١٣: (ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز في القرآن: {واسأل القرية} [يوسف:٨٢]، قالوا المراد به: أهلها؛ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فقيل لهم: لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثال هذه الأمور التي فيها الحال والمحال كلاهما داخل في الاسم، ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان، وتارة على المحل وهو المكان، وكذلك في النهر يقال: حفرت النهر وهو المحل، وجرى النهر وهو الماء، ووضعت الميزاب وهو المحل، وجرى الميزاب وهو الماء، وكذلك القرية: قال تعالى: {وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة} [النحل:١١٢]، وقوله: {وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون (٤) فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين (٥)} [الأعراف:٤ – ٥]، وقال في آية أخرى: {أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون (٩٧)} [الأعراف:٩٧] فجعل القرى هم السكان، وقال: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم} [محمد:١٣] وهم السكان، وكذلك قوله تعالى: {وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا (٥٩)} [الكهف:٥٩]، وقال تعالى: {أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها} [البقرة:٢٥٩] فهذا المكان لا السكان).

(وإنا لصادقون) فيما أخبرناك به.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣).

{قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ} زَيَّنَتْ {لَكُمْ أَنْفُسكُمْ أَمْرًا} فَفَعَلْتُمُوهُ اتَّهَمَهُمْ لِمَا سَبَقَ مِنْهُمْ مِنْ أَمْر يُوسُف {فَصَبْر جَمِيل} صَبْرِي {عَسَى الله أَنْ يأتيني بِهِمْ} بِيُوسُف وَأَخَوَيْهِ {جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيم} بِحَالِي {الْحَكِيم} فِي صُنْعه.

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاأَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤).

{وَتَوَلَّى عَنْهُمْ} تَارِكًا خِطَابهمْ {وَقَالَ يَا أَسَفَى} الْأَلِف بَدَل مِنْ يَاء الْإِضَافَة أَيْ يَا حُزْنِي {عَلَى يُوسُف وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ} انْمَحَق سَوَادهمَا وَبُدِّلَ بَيَاضًا مِنْ بُكَائِهِ {مِنْ الْحُزْن} عَلَيْهِ {فَهُوَ كَظِيم} مَغْمُوم مَكْرُوب لَا يُظْهِر كَرْبه.

قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥).

{قَالُوا تَاللهِ} لَا {تَفْتَأ} تَزَال {تَذْكُر يُوسُف حَتَّى تَكُون حَرَضًا} مُشْرِفًا عَلَى الْهَلَاك لِطُولِ مَرَضك وَهُوَ مَصْدَر يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِد وَغَيْره {أَوْ تَكُون مِنَ الْهَالِكِينَ} الْمَوْتَى.

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦).

{قَالَ} لَهُمْ {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي} هُوَ عَظِيم الْحُزْن الَّذِي لَا يَصْبِر عَلَيْهِ حَتَّى يُبَثّ إِلَى النَّاس {وَحُزْنِي إِلَى الله} لَا إِلَى غَيْره فَهُوَ الَّذِي تَنْفَع الشَّكْوَى إِلَيْهِ {وَأَعْلَم مِنَ الله مَا لَا تَعْلَمُونَ} مِنْ أَنَّ رُؤْيَا يُوسُف صِدْق وَهُوَ حَيّ ثُمَّ قَالَ.

يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧).

{يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُف وَأَخِيهِ} اُطْلُبُوا خَبَرهمَا {وَلَا تَيْأَسُوا}

تَقْنَطُوا {مِنْ رَوْح الله} رحمته {إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون} فَانْطَلَقُوا نَحْو مِصْر لِيُوسُف(١).

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا} [يوسف: ٨٣]، أي:"قال لهم: بل زَيَّنَت لكم أنفسكم الأمَّارة بالسوء مكيدة دبَّرتموها كما فعلتم مِن قبل مع يوسف".

قال الطبري:"في الكلام متروك، وهو: فرجع إخوة بنيامين إلى أبيهم، وتخلف روبيل، فأخبروه خبره، فلما أخبروه أنه سرق قال: {بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا}، يقول: بل زينت لكم أنفسكم أمرًا هممتم به وأردتموه".

عن قتادة، قوله: "{بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل}، يقول: زينت".

قال ابن كثير:"قال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتبا على فعلهم الأول، سُحب حكم الأول عليه، وصح قوله: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}".

قال ابن إسحاق:"لما جاءوا بذلك إلى يعقوب، يعني: بقول روبيل لهم، اتَّهمهم وظن أن ذلك كفعلتهم بيوسف، ثم قال: {بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا}، أي: بيوسف وأخيه وروبيل".

قوله تعالى: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} [يوسف: ٨٣]، أي:"فصبري صبر جميل لا جزع فيه ولا شكوى معه".

قال مجاهد:"صبر ليس فيه جزع".

عن الحسن، قال: "الصبر الجميل: الذي ليس فوقه جزع إلا إلى الله".

قال الطبري:"يقول: فصبري على ما نالني من فقد ولدي، صبرٌ جميل لا جزع فيه ولا شكاية".

قوله تعالى: {عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا} [يوسف: ٨٣]، أي:"عسى الله أن =

=

يردَّ إليَّ أبنائي الثلاثة -وهم يوسف وشقيقه وأخوهم الكبير المتخلف من أجل أخيه-".

قال الطبري:"عسى الله أن يأتيني بأولادي جميعًا فيردّهم علي".

قال قتادة وابن إسحاق:"أي: يوسف وأخيه وروبيل".

قال القرطبي: "وقال: بهم؛ لأنهم ثلاثة: يوسف، وأخوه، والمتخلف من أجل أخيه، وهو القائل: (فلن أبرح الأرض)".

وقال ابن كثير: (ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف، وأخاه بنيامين، وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه؛ إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية، ولهذا قال: {عسى الله أن يأتيني بهم جميعا} [يوسف:٨٣]). والله أعلم.

* وهذا القول من يعقوب عليه السلام يدل دلالة واضحة على كمال إيمانه، وحسن صلته بالله تعالى وقوة رجائه في كرمه وعطفه ولطفه سبحانه.

- وقد جاء في الحديث (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى).

فمن أحسن ظنه بالله آتاه الله إياه. لقوله ﷺ (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي) متفق عليه.

وفي المسند قال ﷺ (إن الله ﷻ قال: أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن بي خيرا فله، وإن ظن شرا فله). والمعنى: أعامله على حسب ظنه بي، وأفعل به ما يتوقعه مني من خير أو شر.

وقال عبد الله بن مسعود (والذي لا إله غيره، ما أعطي عبد مؤمن شيئا خيرا من حسن الظن بالله ﷻ، والذي لا إله غيره، لا يحسن عبد بالله ﷻ الظن إلا أعطاه الله ﷻ ظنه، ذلك بأن الخير في يده) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن.

قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [يوسف: ٨٣]، أي:"إنه هو العليم بحالي،

=

=

الحكيم في تدبيره".

قال الطبري:"{إنه هو العليم}، بوحدتي، وبفقدهم وحزني عليهم، وصِدْقِ ما يقولون من كذبه، {الحكيم}، في تدبيره خلقه".

عن محمد بن إسحاق، قوله: "{عليم}، أي: عليم بما تخفون"، "قوله: {حكيم}، في عذره وحجته إلى عباده".

عن أبي العالية في قوله: "{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

قوله تعالى: {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ} [يوسف: ٨٤]، أي:"وأعرض يعقوب عنهم، وقد ضاق صدره بما قالوه".

قال الطبري:"وأعرض عنهم يعقوب".

قال ابن كثير:"أي: أعرض عن بنيه".

قال ابن إسحاق:"أي: أعرض عنهم، وتتام حزنه وبلغ جهوده حين لحق بيوسف أخوه، وهيج عليه حزنه على يوسف".

عن أبي روق قال: لما احتبس يوسف أخاه بسبب السرقة، قال: كتب إليه يعقوب: من يعقوب بن إسحاق، بن إبراهيم خليل الله إلى يوسف عزيز فرعون، أما بعد: فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، إن أبي إبراهيم ألقي في النار فصبر فجعلها الله عليه بردا وسلاما، وإن أبي إسحاق قرب للذبح في الله فصبر، ففداه الله بذبح عظيم، وإن الله كان قد وهب لي قرة عين فسلبنيه لحمي على عظمي، فلا ليلي ليل ولا نهاري نهار والأسير الذي في يديك بما ادعى عليه من السرق أخوه لأمه فكنت إذا ذكرت أسفي عليه قربته مني فسلا عني بعض ما كنت أجد، وقد بلغني أنك حبسته بسبب سرقة فخل سبيله فإني لم ألد سارقا، وليس بسارق، السلام".

قوله تعالى: {وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} [يوسف: ٨٤]، أي:"وقال: يا حسرتا على يوسف".

=

=

قال الطبري:"يعني: يا حَزَنا عليه".

قال ابن كثير:"وقال متذكرا حُزنَ يوسف القديم الأول: {يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} جَدَّد له حزنُ الابنين الحزن الدفين".

- قال الخازن: إنما جدد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة لأن الحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الأول.

- وقال الرازي: واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عليه السلام: (وقال يأبت دخلوا على يوسف) وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

الوجه الأول: أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن.

والوجه الثاني: أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

الوجه الثالث: أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا، وكان الأسف عليه أسفا على الكل.

الرابع: أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها.

وفي قوله تعالى: {وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} [يوسف: ٨٤]، وجوه:

أحدهما: معناه: يا جزعا على يوسف. قاله مجاهد ، ومنه قول كثير:

فيا أسفا للقلب كيف انصرافُه ... وللنفس لما سليت فتسلّتِ

الثاني: يا حزنا على يوسف. قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة.

الثالث: معناه: يا جزعاه، قاله مجاهد.

وروي عن مجاهد:"يا جَزَعاه حزنًا".

=

=

ومنه قول حسان بن ثابت يرثي رسول اللهﷺ:

فيا أسفا ما وارت الأرض واستوت   عليه وما تحت السلام المنضد

وفي هذا القول الثالث، وجهان:

أحدهما: أنه أراد به الشكوى إلى الله تعالى ولم يرد به الشكوى منه رغبًا إلى الله تعالى في كشف بلائه.

الثاني: أنه أراد به الدعاء، أي: يا رب ارحم أسفي على يوسف.

قال سعيد بن جبير:"ما أعطيت أمة مثل ما أعطيت هذه الأمة الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ألم تسمع إلى قول يعقوب: يا أسفى على يوسف ولو أعطيها أحد أعطيها يعقوب".

قوله تعالى: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ} [يوسف: ٨٤].

أي: وابيضت عينا يعقوب من شدة الحزن على يوسف وأخيه حتى ضعف بصره، حيث انقلب سواد عينيه بياضا من كثرة البكاء.

وفي قوله تعالى: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ} [يوسف: ٨٤]، وجهان:

أحدهما: أنه ضعف بصره لبياض حصل فيه من كثرة بكائه.

الثاني: أنه ذهب بصره، قاله مجاهد.

روي عن مجاهد، قال:"ذهب بصره، وقال: له أجر سبعين شهيدا".

(تنبيه): بكى يعقوب وهو نبي على ولده يوسف، وبكى النبي محمد ﷺ على ولده إبراهيم، وبكى عند موت إحدى بناته أثناء دفنها، والحديثان في الصحيح من حديث أنس.

وبكى أيضا ﷺ عند وفاة حفيده ابن إحدى بناته؛ كما في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد.

وقد زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله؛ كما في مسلم؛ من حديث أبي

=

=

هريرة.

وفي هذا: دليل على جواز البكاء على الميت، وعدم الحرج فيما يغلب النفس من الحزن.

وإنما طال حزن يعقوب ولم يطل حزن النبي ﷺ؛ لأن يوسف غائب يرجى في الدنيا، وإبراهيم ميت لا يرجى فيها.

والمقصود من بكاء النبي ﷺ وغيره من الأنبياء: هو ما تغلب النفس عليه من رحمة وشفقة وألم الفقد؛ ولذا قال ﷺ لما بكى ابن بنته وسأله سعد بن عبادة: ما هذا؟ ! قال: (هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء).

قوله تعالى: {فَهُوَ كَظِيمٌ} [يوسف: ٨٤]، أي:"فهو ممتلئ القلب حزنًا، ولكنه شديد الكتمان له".

وفي قوله تعالى: {فَهُوَ كَظِيمٌ} [يوسف: ٨٤]، وجوه:

أحدها: أنه الكمد، قاله الضحاك ، ومجاهد-في إحدى الروايات-.

الثاني: أنه الذي لا يتكلم، بلغ به الحزن حتى كان لا يكلّمهم. قاله ابن زيد.

الثالث: أنه المقهور، قاله ابن عباس ، قال الشاعر:

فإنْ أكُ كَاظِمًا لمُصَابِ شَاس   فإني اليَوْمَ منْطَلِقٌ لِسَاني

وروي عن عطاء الخراساني: "{فهو كظيم}، قال: مكروب".

والرابع: أنه المخفي لحزنه، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدي ، مأخوذ من كظم الغيظ وهو إخفاؤه.

قال قتادة:"أي: سكت، يكظم حزنه ويردده في جوفه".

ومنه قول الشاعر:

فَحَضَضْتُ قومي واحتَسَبْتُ قتالَهم   والقومُ من خوفِ المَنايا كُظَّمُ

=

=

عن عبيد بن عمير؛ قال: "صلى بنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلاة الفجر، فافتتح سورة يوسف فقرأها، حتى إذا بلغ: {وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم}، بكى حتى انقطع، فركع".

وفي رواية: "لما انتهى إلى قوله: {إنما أشكو بثي وحزني إلى الله}، بكى حتى سمع نشيجه من وراء الصفوف".

قوله تعالى: {قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ} [يوسف: ٨٥]، أي:"قال بنوه: تالله ما تزال تتذكر يوسف وتتفجع عليه".

قال ابن عباس:"لا تزال تذكر يوسف".

قال السدي:"أما «تفتؤ»: فتزال".

قال ابن كثير:"أي: لا تفارق تَذَكُّر يوسف".

قوله تعالى: {حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا} [يوسف: ٨٥]، أي:"حتى تكون مريضًا مشرفًا على الهلاك".

قال الطبري:"يقول: حتى تكون دَنِفَ الجسم مخبولَ العقل".

قال ابن كثير:"أي: ضعيف الجسم، ضعيف القوة".

وفي قوله تعالى: {حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا} [يوسف: ٨٥]، وجوه:

أحدها: يعني هرمًا، قاله الحسن.

والثاني: دنفًا من المرض، وهو ما دون الموت، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي.

والثالث: أنه الفاسد العقل، قاله محمد بن إسحاق.

قال أبو الصخر:"أما «الحرض»، فيقولون: لا يعقل ولا ينتفع به".

وقال الضحاك:"«الحرض»: الشيء البالي".

وقال ابن زيد:"«الحرض»: الذي قد رُدَّ إلى أرذل العمر حتى لا يعقل".

=

=

وأصل «الحرض»: فساد الجسم والعقل من مرض أو عشق، قال العرجي:

إنِّي امْرُؤٌ لَجّ بي حُبٌّ فأَحْرَضَني حَتَّى بَلِيتُ وحَتّى شَفَّني السَّقَمُ

قوله تعالى: {أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ} [يوسف: ٨٥]، أي:"أو تهلك أسىً وحسرة وتموت".

قال ابن كثير:"يقولون: وإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف".

عن ابن عباس:"{أو تكون من الهالكين}، قال: من الميتين". وروي عن مجاهد، والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي مثل ذلك.

قال الماوردي:"يعني: ميتًا من الميتين. قاله الجميع".

فإن قيل: فكيف صبر يوسف عن أبيه بعد أن صار ملكًا متمكنًا بمصر، وأبوه بحرّان من أرض الجزيرة؟ وهلاّ عجّل استدعاءه ولم يتعلل بشيء بعد شيء؟

قيل يحتمل أربعة أوجه:

أحدها: أن يكون فعل ذلك عن أمر الله تعالى، ابتلاء له لمصلحة علمها فيه لأنه نبيّ مأمور.

الثاني: أنه بلي بالسجن، فأحب بعد فراقه أن يبلو نفسه بالصبر.

الثالث: أن في مفاجأة السرور خطرًا وأحب أن يروض نفسه بالتدريج.

الرابع: لئلا يتصور الملك الأكبر فاقة أهله بتعجيل استدعائهم حين ملك.

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ} [يوسف: ٨٦]، أي:"قال لهم يعقوب: لستُ أشكو غميّ وحزني إليكم وإنما أشكو ذلك إلى الله فهو الذي تنفع الشكوى إليه".

قال الطبري: اي:"لست إليكم أشكو بثي وحزني، وإنما أشكو ذلك إلى الله".

قال ابن كثير:"أي: همي وما أنا فيه {إِلَى اللهِ} وحده".

قال ابن عباس:"{بثي}، همي".

=

=

عن الحسن: "{إنما أشكو بثي وحزني إلى الله}، قال: حاجتي وحزني إلى الله".
قال ابن إسحاق:"قال يعقوب عَنْ عِلْمٍ بالله: {إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون}، لما رأى من فظاظتهم وغلظتهم وسوء لَفْظهم له: لم أشك ذلك إليكم، {وأعلم من الله ما لا تعلمون}".
قوله تعالى: {وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف: ٨٦]، أي:"أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون أنتم".
قال ابن كثير:"أي: أرجو منه كل خير".
قال ابن عباس:"يقول: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأني سأسجد له".
قال السدي:"لما أخبروه بدعاء الملك، أحسَّت نفسُ يعقوب وقال: ما يكون في الأرض صِدِّيق إلا نبيّ! فطمع قال: لعله يوسف".
قال قتادة:"ذكر لنا أن نبي الله يعقوب لم ينزل به بلاءٌ قط إلا أتى حُسْنَ ظنّه بالله من ورائه".
قال الحسن:"قيل: ما بلغ وجدُ يعقوب على ابنه؟ قال: وجد سبعين ثكلى!. قال: فما كان له من الأجر؟ قال: أجر مئة شهيدٍ. قال: وما ساء ظنه بالله ساعةً من ليل ولا نهار".
عن طلحة بن مصرِّف الإيامي قال:"ثلاثة لا تذْكُرْهنّ واجتنب ذكرهُنّ: لا تشك مَرَضَك، ولا تَشكُّ مصيبتك، ولا تزكِّ نفسك. قال: وأنبئت أنّ يعقوب بن إسحاق دخل عليه جار له، فقال له: يا يعقوب ما لي أراك قد انهشمت وفنيتَ، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ قال: هَشَمني وأفناني ما ابتلاني الله به من همّ يوسف وذكره! فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يا رب خطيئة أخطأتُها، فاغفرها لي! قال: فإني قد غفرت لك. وكان بعد ذلك إذا سئل قال، {إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون}".

=

=

عن حبيب بن أبي ثابت قال:"بلغني أن يعقوب كبر حتى سقط حاجبَاه على وجنتيه، فكان يرفعهما بخِرْقَة، فقال له رجل: ما بلغ بك ما أرى؟ قال: طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى الله إليه: يا يعقوب تشكوني؟ قال: خطيئة فاغفرها".

قال ثور بن يزيد: "دخل يعقوب على فرعون وقد سقط حاجبَاه على عينيه، فقال: ما بلغ بك هذا يا إبراهيم؟ فقالوا: إنّه يعقوب، فقال: ما بلغ بك هذا يا يعقوب؟ قال: طول الزمان وكثرة الأحزان. فقال الله: يا يعقوب أتشكوني؟ فقال: يا رب خطيئة أخطأتها، فاغفرها لي".

قال مجاهد:"حُدّثت أن جبريل أتى يوسف ﷺ وهو بمصر في صورة رجل، فلما رآه يوسف عرَفه، فقام إليه: فقال: أيها الملك الطيبُ ريحه، الطاهرُ ثيابه، الكريم على ربه، هل لك بيعقوب من علم؟ قال: نعم! قال: أيها الملك الطاهر ثيابه، الكريم على ربه، فكيف هو؟ قال: ذهب بصره. قال: أيها الملك الطاهر ثيابه، الكريم على ربه، وما الذي أذهب بصره؟ قال: الحزنُ عليك. قال: أيها الملك الطيب ريحه، الطاهر ثيابه، الكريم على ربه، فما أعطي على ذلك؟ قال: أجر سبعين شهيدًا".

قال أبو شريح: "سمعت من يحدث أن يوسف سأل جبريل: ما بلغ من حزن يعقوب؟ قال: حزن سبعين ثكلى. قال: فما بلغ أجره؟ قال: أجر سبعين شهيدًا".

عن عبيد الله بن أبي جعفر قال:"دخل جبريل على يوسف في البئر أو في السجن، فقال له يوسف: يا جبريل، ما بلغ حزن أبي؟ قال: حزن سبعين ثكلى. قال: فما بلغ أجره من الله؟ قال: أجر مئة شهيدٍ".

وهب بن منبه يقول: أتى جبريل يوسف بالبشرى وهو في السجن. فقال: هل تعرفني أيها الصِّدِّيق؟ قال: أرى صورة طاهرة ورُوحًا طيبة لا تشبه أرواح

=

=

الخاطئين. قال: فإني رسول رب العالمين، وأنا الروح الأمين. قال: فما الذي أدخلك على مُدْخَل المذنبين، وأنت أطيب الطيبين، ورأس المقربين، وأمين رب العالمين؟ قال: ألم تعلم يا يوسف أن الله يطّهر البيوت بطُهْر النبيين، وأن الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأرَضِين، وأن الله قد طهَّر بك السجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن المطهَّرين؟ إنما يتطهر بفضل طهرك وطهر آبائك الصالحين المخلَصِين! قال: كيف لي باسم الصّدِّيقين، وتعدُّني من المخلصين، وقد أدخلت مُدْخَل المذنبين، وسميت في الضالين المفسدين؟ قال: لم يُفْتَتَنْ قلبُك، ولم تطع سيدتك في معصية ربك، ولذلك سمَّاك الله في الصديقين، وعدّك من المخلَصين، وألحقك بآبائك الصالحين. قال: لك علم بيعقوب أيها الروح الأمين؟ قال: نعم، وهبه الله الصبر الجميل، وابتلاه بالحزن عليك، فهو كظيم. قال: فما قَدْرُ حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى. قال: فماذا له من الأجر يا جبريل؟ قال: قدر مئة شهيدٍ".

قال السدي:"أتى جبرئيل يوسف وهو في السجن فسلّم عليه، وجاءه في صورة رجلٍ حسن الوجه طيّب الريح نقيّ الثياب، فقال له يوسف: أيها المَلك الحسن وجهه، الكريم على ربه، الطيب ريحه، حدثني كيف يعقوب؟ قال: حزن عليك حزنًا شديدًا. قال: وما بلغ من حزنه؟ قال: حزن سبعين مُثْكِلة. قال: فما بلغ من أجره؟ قال: أجر سبعين أو مئة شهيدٍ. قال يوسف: فإلى من أوَى بعدي؟ قال: إلى أخيك بنيامين. قال: فتراني ألقاه أبدًا؟ قال: نعم. فبكى يوسف لما لقي أبوه بعده، ثم قال: ما أبالي ما لقيت إنِ اللهُ أرانيه".

عن عبد الرحمن بن زياد، عن مسلم بن يسار يرفعه إلى النبي ﷺ قال: "من بثَّ لم يصبر، ثم قرأ: {إنما أشكو بثي وحزني إلى الله}".

عن هشام، عن الحسن، قال:""كان منذ خرج يوسف من عند يعقوب إلى يوم رجع ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، يبكي حتى ذهبَ بصره. قال الحسن:

=

=

والله ما على الأرض يومئذ خليقةٌ أكرم على الله من يعقوب ﷺ".

قولـه تعـالى: {يَـا بَنِـيَّ اذْهَبُـوا فَتَحَسَّـسُوا مِـنْ يُوسُـفَ وَأَخِيـهِ} [يوسـف: ٨٧]، أي:"قال يعقوب: يا أبنائي عودوا إلى «مصر» فاستقصوا أخبار يوسف وأخيه".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن يعقوب، عليه السلام، إنـه نـدب بنيـه علـى الـذهاب في الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، و «التحسس» يكون في الخير، و «التجسس»: يستعمل في الشر".

عن السدي: "{يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه}، بمصر".

قال مقاتل:"يعني: فابحثوا عن يوسف وأخيه بنيامين".

قال ابن إسحاق:"ثم إن يعقوب قال لبنيه، وهو على حسن ظنه بربـه مـع الـذي هـو فيه من الحزن: {يا بني اذهبوا} إلى البلاد التي منها جئت {فتحسسوا مـن يوسـف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله}، أي من فرجه {إنه لا ييأس مـن روح الله إلا القـوم الكافرون}".

قـال الطبـري:"حين طمـع يعقـوب في يوسـف، قـال لبنيـه: {يـا بنـي اذهبـوا} إلـى الموضع الـذي جئتم منه وخلفتم أخـويكم بـه {فتحسَّسوا مـن يوسـف}، يقـول: التمسوا يوسف وتعرَّفوا من خبره.. {وأخيه}، يعني: بنيامين".

قال الماوردي: {فتحسَّسوا} " أي: استعملوا وتعرّفوا، ومنه قول عديّ بن زيد:

فإنْ حَييتَ فلا أحسسك في بلدي وإن مرضت فلا تحسِسْك عُوّادِي

وأصله: طلب الشيء بالحس".

قوله تعالى: {وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ} [يوسف: ٨٧]، أي:"ولا تقطعـوا رجاءكم من رحمة الله".

قال الطبري:"يقول: ولا تقنطوا من أن يروِّح الله عنا مـا نحـن فيـه مـن الحـزن علـى يوسف وأخيه بفرَجٍ من عنده، فيرينيهما".

=

=

قال ابن كثير:"ونَهّضهم وبشرهم وأمرهم ألا ييأسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ} [يوسف: ٨٧]، وجهان:

أحدهما: من فرج الله، قاله ابن زيد ، ومحمد بن إسحاق.

قال ابن زيد:"من فرج الله، يفرِّج عنكم الغمّ الذي أنتم فيه".

والثاني: من رحمة الله، قاله الضحاك ، وقتادة ، ومقاتل ، وابن قتيبة ، والنحاس ، وفي تسميته بالروح، قولان:

أحدهما: أنه مأخوذ من الريح التي بالنفع. ذكره الماوردي.

الثاني: سماها روحا لأن الروح والراحة يكونان بها. وهذا قول ابن قتيبة.

قال الماوردي:"وإنما قال يعقوب ذلك لأنه تنّبه على يوسف برد البضاعة واحتباس أخيه وإظهار الكرامة ولما حكي أن يعقوب سأل ملك الموت هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا".

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧]، أي:"إنه لا يقطع الرجاء من رحمة الله إلا الجاحدون لقدرته، الكافرون به".

قال ابن إسحاق:"أي: من فرجة الله إلا القوم الكافرون".

قال الطبري:"يقول: لا يقنط من فرجه ورحمته ويقطع رجاءه منه {إلا القوم الكافرون}، يعني: القوم الذين يجحدون قُدرته على ما شاءَ تكوينه".

قال ابن كثير:"فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون".

قال الجصاص:"متى كان للمذنب رجوع إلى الله في فعل الخير وإن كان مقيما على الذنب أنه مرجو الصلاح مأمون خير العاقبة، وقال الله تعالى: {ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون}، فالعبد وإن عظمت ذنوبه فغير جائز له الانصراف عن الخير يائسا من قبول توبته لأن التوبة مقبولة ما

=

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨).

{فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيّهَا الْعَزِيز مَسَّنَا وَأَهْلنَا الضُّرّ} الْجُوع {وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاة} مَدْفُوعَة يَدْفَعهَا كُلّ مَنْ رَآهَا لِرَدَاءَتِهَا وَكَانَتْ دَرَاهِم زُيُوفًا أَوْ غَيْرهَا {فَأَوْفِ} أَتِمَّ {لَنَا الْكَيْل وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا} بِالْمُسَامَحَةِ عَنْ رَدَاءَة بِضَاعَتنَا {إن الله يجزئ الْمُتَصَدِّقِينَ} يُثِيبهُمْ فَرَقَّ لَهُمْ وَأَدْرَكَتْهُ الرَّحْمَة وَرَفَعَ الْحِجَاب بَيْنه وَبَيْنهمْ.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩).

ثُمَّ {قَالَ} لَهُمْ تَوْبِيخًا {هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُف} مِنْ الضَّرْب وَالْبَيْع وَغَيْر ذَلِكَ {وَأَخِيهِ} مِنْ هَضْمكُمْ لَهُ بَعْد فِرَاق أَخِيهِ {إذ أنتم جاهلون} ما يؤول إِلَيْهِ أَمْر يُوسُف.

قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠).

{قَالُوا} بَعْد أَنْ عَرَفُوهُ لِمَا ظَهَرَ مِنْ شمائله متثبتين {أئنك} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ {لَأَنْتَ يُوسُف قَالَ أَنَا يُوسُف وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ} أَنْعَمَ {الله عَلَيْنَا} بِالِاجْتِمَاعِ {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ} يَخَفِ الله {وَيَصْبِر} عَلَى مَا يَنَالهُ {فَإِنَّ الله لَا يُضِيع أَجْر الْمُحْسِنِينَ} فِيهِ وَضْع الظَّاهِر

=

بقي في حال التكليف فأما من عظمت ذنوبه وكثرت مظالمه وموبقاته فأعرض عن فعل الخير والرجوع إلى الله تعالى يائسا من قبول توبته فإنه يوشك أن يكون ممن قال الله ﷻ: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤]".

مَوْضِع الْمُضْمَر.

قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١).

{قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَك} فَضَّلَك {الله عَلَيْنَا} بِالْمُلْكِ وَغَيْره {وَإِنْ} مُخَفَّفَة أَيْ إنَّا {كُنَّا لَخَاطِئِينَ} آثِمِينَ فِي أَمْرك فَأَذْلَلْنَاك.

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢).

{قَالَ لَا تَثْرِيب} عَتْب {عَلَيْكُمْ الْيَوْم} خَصَّهُ بالذكر لأنه مظنه التثريب فغيره أولى {يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين} وَسَأَلَهُمْ عَنْ أَبِيهِ فَقَالُوا ذَهَبَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ[١].

---

(١) قوله تعالى: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ} [يوسف: ٨٨].

قال إخوة يوسف له بأدب واستعطاف، بعد أن دخلوا عليه للمرة الثالثة «يا أيها العزيز» أي: الملك صاحب الجاه والسلطان والسعة في الرزق، «مسنا وأهلنا الضر» أي: أصابنا وأصاب أهلنا معنا الفقر والجدب والهزل من شدة الجوع.

- قال الشوكاني: قوله تعالى (فلما دخلوا عليه) أي: على يوسف، وفي الكلام حذف، والتقدير: فذهبوا كما أمرهم أبوهم إلى مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه، فلما دخلوا على يوسف.

(وجئنا ببضاعة مزجاة) أي: وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة يردها وينصرف عنها كل من يراها من التجار، إهمالا لها، واحتقارا لشأنها.

قال ابن كثير: "يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام".

قوله تعالى: {وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ} [يوسف: ٨٨]، أي: "وجئنا ببضاعة رديئة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا".

=

=

قال ابن كثير:"أي: ومعنا ثمن الطعام الذي تمتاره، وهو ثمن قليل".
قال الطبري: أي:"بدراهم أو ثمن لا يجوز في ثمن الطعام إلا لمن يتجاوز فيها".
قال الشوكاني: "والمعنى: أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار. قال ثعلب: البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة. قال أبو عبيدة: إنما قيل للدراهم الرديئة: مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة، والبضاعة هي القطعة من المال يقصد بها شراء شيء".
وأصل «الإزجاء»: السَوْق بالدفع، وفيه قول الشاعر عدي بن الرقاع:

تزجي أغَنّ كأن إبرَة روقِهِ　　　قلمٌ أصاب من الدواة مدادها

ومنه قول النابغة:

وَهَبّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ ذِي أُرُلٍ　　　تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ مِنْ صَرَّادِهَا صِرَمَا

ومنه قول أعشى بني ثعلبة:

الوَاهِبُ المِئةَ الهِجَانَ وعَبْدَهَا　　　عُوذًا تُزَجِّي خَلْفَها أطْفَالَها

وقول حاتم:

لِبَيْكِ عَلَى مِلْحَانَ ضَيْفٌ مُدَفَّعٌ　　　وَأَرْمَلَةٌ تُزْجِى مَعَ اللَّيلِ أَرْمَلا

يعني: أنها تسوقه بين يديها على ضعف منه عن المشي وعجز ؛ ولذلك قيل: {ببضاعة مزجاة}، لأنها غير نافقة، وإنما تُجَوَّز تجويزًا على وَضعٍ من آخذيها.
وفي بضاعتهم هذه خمسة أقوال:
أحدها: أنها كانت دراهم، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، عكرمة ، وعطية ،والسدي.
قال مجاهد: "الدراهم الرُّذَال، التي لا تجوز إلا بنقصان".
وقال عكرمة: "دراهم فُسُول".
وقال عطية:"دراهم ليست بطائل".

=

=

قال السدي: "دراهم فيها جَوازٌ".

الثاني: متاع الأعراب، صوف وسمن، قاله عبد الله بن الحارث.

الثالث: الصنوبر والحبة الخضراء، قاله أبو صالح.

الرابع: سويق المقل. قاله الضحاك.

الخامس: خلق الحبْل والغرارة والشيء، وهو مروي عن ابن عباس أيضًا.

وفي «المزجاة»، وجوه من التفسير:

أحدها: أنها الرديئة، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة.

قال ابن عباس:"الردِيّة التي لا تنفق حتى يُوضَع منها".

وفي رواية أخرى عن ابن عباس:"الدراهم الرديّة التي لا تجوز إلا بنقصان".

وعن مجاهد قال: "الدراهم الرُّذَال، التي لا تجوز إلا بنقصان".

عن السدي قال: "دراهم فيها جَوازٌ".

والثاني: الكاسدة، قاله الضحاك.

الثالث: الناقصة. قاله سعيد بن جبير ، وعكرمة.

وروي عن سعيد بن جبير قال:"فسول".

الرابع: القليلة، قاله الحسن ، مجاهد ، وقتادة ، وإبراهيم ، وابن زيد ، وابن إسحاق.

قال ابن إسحاق: "أي قليلة، لا تبلغ ما كانوا يتبايعون به، إلا أن يتجاوز لهم فيها، وقد رأوا ما نزل بأبيهم، وتتابعَ البلاء عليه في ولده وبصره، حتى قدموا على يوسف".

وفي رواية اخرى لابن اسحاق:"أي: قليلة لا تبلغ ما كنا نشتري به منك، إلا أن تتجاوز لنا فيها".

وقال أبو عبيدة:"«مُزْجاةٍ»: يسيرة قليلة" ، ثم استشهد بقول الراعي:

=

=

ومرسل برسول غير متّهم وحاجة غير مزجاة من الحاج

أي: غير يسيرة يمكن دفعها وسوقها لقلة الاعتداد بها.

ويسند القول الأخير: قراءة عبد الله:"«وَأَوْقِرْ رِكَابَنا»، يعني: قوله: {مزجاة}".

قال الراغب:"التزجية: دفع الشيء لينساق، كتزجية رديء البعير، وتزجية الريح السحاب، قال: {يزجي سحابا} [النور: ٤٣]، وقال: {ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر} [الإسراء: ٦٦]، ومنه: رجل مزجى، وأزجيت رديء التمر فزجا، ومنه استعير: زجا الخراج يزجو، وخراج زاج".

وقال الكلبي: "هي كلمة من لغة العجم، وقال الهيثمي: من لغة القبط".

قوله تعالى: {فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ} [يوسف: ٨٨]، أي:"أتمم لنا الكيل ولا تنقصْه لرداءة بضاعتنا".

قال الطبري:"وأعطنا بها ما كنت تعطينا قبل بالثمن الجيّد والدراهم الجائزة الوافية التي لا ترد".

وفي قوله تعالى: {فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ} [يوسف: ٨٨]، وجهان:

أحدهما: الكيل الذي كان قد كاله لأخيهم، وهو قول ابن جريج.

الثاني: مثل كيلهم الأول لأن بضاعتهم الثانية أقل، قاله السدي ، وابن إسحاق.

قال السدي:"كما كنت تعطينا بالدراهم الجياد".

قال ابن إسحاق:"أي: أعطنا ما كنت تعطينا قَبْلُ، فإن بضاعتنا مزجاة".

قوله تعالى: {وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا} [يوسف: ٨٨]، أي:"وتسامح معنا فيها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قالوا: وتفضل علينا بما بَيْنَ سعر الجياد والرديّة، فلا تنقصنا من سعر طَعامك لرديٍّ بضاعتنا".

وفي قوله تعالى: {وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا} [يوسف: ٨٨]، أقوال:

أحدها: معناه: تفضل علينا بما بين الجياد والرديئة، قاله سعيد بن جبير ، والسدي

=

=

، والحسن ، وذلك لأن الصدقة تحرم على جميع الأنبياء.

عن عثمان بن الأسود، قال: "سمعت مجاهدًا، وسئل: هل يُكْرَهُ أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدّق عليّ؟ فقال: نعم، إنما الصَّدقة لمن يبغي الثوابَ".

الثاني: تصدق علينا بالزيادة على حقنا، وهذا معنى قول سفيان بن عيينة.

عن سفيان بن عيينة أنه سئل: "هل حرمت الصدقة على أحدٍ من الأنبياء قبل النبيّ ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: {فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين}، قال الحارث: قال القاسم: يذهب ابن عيينة إلى أنهم لم يقولوا ذلك إلا والصدقة لهم حلالٌ، وهم أنبياء، فإن الصدقة إنما حُرِّمت على محمد ﷺ، وعليهم".

قال مجاهد: "ولم تحرم الصدقة إلا على محمد ﷺ وحده".

الثالث: تصدق علينا برد أخينا إلينا، قاله ابن جريج ، وكره للرجل أن يقول في دعائه: اللهم تصدّق عَليّ، لأن الصدقة لمن يبتغي الثواب.

قال الطبري:"وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن جريج، وإن كان قولا له وجه، فليس بالقول المختار في تأويل قوله: {وتصدَّق علينا}، لأن"الصدقة" في متعارف [العرب]، إنما هي إعطاء الرجل ذا حاجةٍ بعض أملاكه ابتغاءَ ثواب الله عليه، وإن كان كلّ معروف صدقةً، فتوجيه تأويل كلام الله إلى الأغلب من معناه في كلام من نزل القرآن بلسانه أولى وأحرى".

الرابع: معناه: تجوّز عنا، قاله ابن شجرة ، وابن زيد ، واستشهد بقول الشاعر:

تصدّق علينا يا ابن عفان واحتسب وأمر علينا الأشعري لياليا

يعنون: أبا موسى الأشعري.

وروي عن قال سعيد بن جبير:"لا تنقصنا من السعر من أجل رديّ دراهمنا".

وقال سعيد بن جبير:"ما سأل نبيٌّ قطُّ الصَّدقَة، ولكنهم قالوا: {جئنا ببضاعة

=

=

مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا}، لا تنقصنا من السعر".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} [يوسف: ٨٨]، أي:"إن الله تعالى يثيب المتفضِّلين على أهل الحاجة بأموالهم".

قال الطبري:"يقول: إن الله يثيب المتفضلين على أهل الحاجة بأموالهم".

حكي القرطبي عن النقاش: قوله: {إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} " يعني: في الآخرة، يقال: هذا من معاريض الكلام، لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم، لذلك لم يقولوا: إن الله يجزيك بصدقتك، فقالوا لفظا يوهمه أنهم أرادوه، وهم يصح لهم إخراجه بالتأويل، قاله النقاش وفي الحديث:"«إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب» ".

قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: "وقف أعرابي على عبد الملك بن مروان، فسلم؛ ثم قال: أي - رحمك الله -؛ إنه مرت بنا سنون ثلاث، فأما إحداها: فأكلت المواشي؛ وأما الثانية: فانضت اللحم؛ وأما الثالثة: فخلصت إلى العظم، فإن يك عندك مال الله؛ فأعطه عباد الله، وإن يك لك: فتصدق علينا {إن الله يجزي المتصدقين} الآية، فأعطاه عشرة آلاف درهم، وقال: لو كان الناس يحسنون أن يسألوا هكذا، ما حرمنا أحدا".

قوله تعالى: {قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)} [يوسف: ٨٩]

أي: فلما سمع مقالتهم رقَّ لهم، وعرَّفهم بنفسه وقال: هل تذكرون الذي فعلتموه بيوسف وأخيه من الأذى في حال جَهْلكم بعاقبة ما تفعلون؟

قال الصابوني:"ولما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار أدركته الرأفة فباح لهم بما كان يكتمه من أمره".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن يوسف، عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه لما ذكر له إخوته ما

=

=

أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء، فتعرف إليهم، يقال: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال: {هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ}؟ يعني: كيف فرقوا بينه وبينه {إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ} أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ} إلى قوله: {إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: ١١٩]، والظاهر -والله أعلم- أن يوسف، عليه السلام، إنما تعرف إليهم بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين، بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فَرَّج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥، ٦]".

قال الطبري:"ذكر أن يوسف صلوات الله عليه لما قال له إخوته: {يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين}، أدركته الرقة وباح لهم بما كان يكتمهم من شأنه".

قال ابن عباس: "كان يعقوب قد كتب إلى يوسف كتابًا برد ابنه عليه لما حبسه عنده بعلة السَّرق، وذكر فيه قصته ومحبتهن، فلما قرأ الكتاب ارتعدت مفاصله، واقشعر جلده، ولسان قلبه، وأرخى عينيه بالبكاء، وعيل صبره، ولم يتمالك نفسه فباح بما كان يكتم".

عن السدي: "{فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر}، الآية، قال: فرحمهم عند ذلك، فقال لهم: {هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون}؟".

=

=

عن ابن إسحاق، قال:"ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام غلبته نفسه، فارفض دمعه باكيا، ثم باح لهم بالذي يكتم منهم، فقال: {هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون}؟ ولم يعن بذكر أخيه ما صنعه هو فيه حين أخذه، ولكن للتفريق بينه وبين أخيه، إذ صنعوا بيوسف ما صنعوا".

قال ابن الأنباري: "هذا الاستفهام يعني به تعظيم القصة، وتلخيصه: ما أعظم ما ارتكبتم من يوسف، وما أسمج ما أتيتم من قطيعة رحمه وتضييع حقه، كما تقول: هل تدري من عصيت؟ هل تعرف من عاديت؟".

وحكي الواحدي: أن "هذه الآية تصديق قوله: {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [يوسف: ١٥]".

قال الواحدي:"وقوله تعالى: {وَأَخِيهِ} يعني: ما فعلوا به من تعريضه للغم وإدخالهم الجزع والحزن عليه بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، ولم يذكر أباه يعقوب مع عظيم ما دخل عليه من الهم بفراقه، كما ذكر أخاه، تعظيمًا للأب ورفعًا من قدره، وعلمًا بأن ذلك كان بلاءً من الله له ليزيد في درجته عنده".

وقوله تعالى: {إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ} قال ابن عباس: آثمون".

قال أبو بكر: "أراد أنتم تعقون أباكم، وتقطعون رحم أخيكم، جهلًا منكم،

وروي عن ابن عباس-أيضا-: "إذ أنتم صبيان".

وعن الحسن: "إذ أنتم شبان ومعكم جهل الشبان". وعلى هذا يعني:"جهالة الصِّبا والشباب".

قوله تعالى: {قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ} [يوسف: ٩٠]، أي:"قالوا: أإنَّك لأنت يوسف؟".

عن ابن إسحاق، قال:"لما قال لهم ذلك- يعني قوله: {هل علمتم ما فعلتم

=

=

بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون} - كشف الغطاء فعرفوه، فقالوا: {أإنك لأنت يوسف}، الآية".

قرأ أبيّ بن كعب: «أو أنت يُوسُفُ»، وقرأ ابن مُحَيْصِن: «إنَّك لأنتَ يُوسُفُ».

قال ابن كثير:"والقراءة المشهورة هي الأولى؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: إنهم تَعجَّبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: {أَئِنَّكَ لأنْتَ يُوسُفُ..}".

وفي القصة: "أنه لما قال هذا القول تبسم فرأوا ثناياه منظوما كاللؤلؤ فعرفوه وقالوا {أئنك لأنت يوسف} وقال بعضهم: قالوا هذا على التوهم ولم يكونوا تيقنوا بعد حتى قال لهم: أنا يوسف".

عن ثابت البناني، قال: "قيل لبني يعقوب: إن بمصر رجلا يطعم المسكين ويملأ حجر اليتيم، قالوا: ينبغي أن يكون هذا منا أهل البيت، فنظروا فإذا هو يوسف بن يعقوب".

عن ابن أبي الجلد، قال: "قال له أخوه: يا أيها العزيز: لقد ذهب لي أخ ما رأيت أشبه به أحد منك لكأنه الشمس، فقال له يوسف: أسأل إله يعقوب أن يرحم صباك وأن يرد إليك أخاك".

قوله تعالى: {قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي} [يوسف: ٩٠]، أي:"نعم أنا يوسف، وهذا شقيقي".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال إخوة يوسف له حين قال لهم ذلك يوسف: {إنك لأنت يوسف}؟، فقال: نعم أنا يوسف، {وهذا أخي..}".

قوله تعالى: {قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا} [يوسف: ٩٠]، أي:"قد تفضَّل الله علينا، فجمع بيننا بعد الفرقة".

=

=

قال الطبري:"بأن جمع بيننا بعد ما فرقتم بيننا".

قال ابن كثير:"أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة".

قوله تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٩٠]، أي:"إنه من يتق الله، ويصبر على المحن، فإن الله لا يذهب ثواب إحسانه، وإنما يجزيه أحسن الجزاء".

قال الطبري:"يقول: إنه من يتق الله فيراقبه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، ويكفّ نفسه، فيحبسها عما حرَّم الله عليه من قول أو عمل عند مصيبةٍ نزلتْ به من الله، فإن الله لا يُبْطل ثواب إحسانه وجزاء طاعته إيَّاه فيما أمره ونهاه".

عن مجاهد، قوله: "{إنه من يتق ويصبر}، يقول: من يتق معصية الله، ويصبر على السجن".

عن الربيع بن أنس، قال: "مكتوب في الكتاب الأول: أن الحاسد لا يضر بحسده وإن المحسود إذا صبر نجاه تصبره، لأن الله يقول: {مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}".

والمعنى: إما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها، وأن يجعلها كالبضاعة الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها، وبهذا قال أكثر المفسرين.

قال بعض العلماء: تصدق علينا برد أخينا بنيامين.

وضعف هذا القول ابن جرير فقال:... وإن كان قولا له وجه، فليس بالقول المختار في تأويل قوله: (وتصدق علينا) لأن الصدقة في المتعارف: إنما هي إعطاء الرجل ذا الحاجة بعض أملاكه ابتغاء ثواب الله عليه، وإن كان كل معروف صدقة، فتوجيه تأويل كلام الله إلى الأغلب من معناه في كلام من نزل القرآن بلسانه أولى وأحرى.

=

=

قوله تعالى: {قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا} [يوسف: ٩١]، أي:"قالوا: تالله لقد فَضَّلك الله علينا وأعزَّك بالعلم والحلم والفضل".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: قال إخوة يوسف له: تالله لقد فضلك الله علينا، وآثرك بالعلم والحلم والفضل".

قال المفسرون: "أي: بالعلم والحلم والعقل والفضل والحسن والملك".

قال الصابوني:"اعترافٌ بالخطيئة وإقرار بالذنب، أي: والله لقد فضَّلك الله علينا بالتقوى والصبر، والعلم والحلم".

قال ابن كثير:"يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق، والسعة والملك، والتصرف والنبوة أيضا - على قول من لم يجعلهم أنبياء -".

عن ابن إسحاق: "{آثرك الله علينا}، أي: فضلك الله علينا".

قال ابن عباس: "لقد فضلك الله علينا".

عن قتادة قوله: "{قالوا تالله لقد آثرك الله علينا}، وذلك بعد ما عرفهم نفسه، لقوا رجلا حليما".

قوله تعالى: {وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ} [يوسف: ٩١]، أي:"وإن كنا لخاطئين بما فعلناه عمدًا بك".

قال ابن عباس: "لمذنبين".

قال مقاتل:"في أمرك، فأقروا بخطيئتهم".

قال الطبري:"يقول: وما كنا في فعلنا الذي فعلنا بك، في تفريقنا بينك وبين أبيك وأخيك وغير ذلك من صنيعنا الذي صنعنا بك، إلا خاطئين، يعنون: مخطئين".

قال ابن كثير:"وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطئوا في حقه".

عن ابن إسحاق: "{وإن كنا لخاطئين}، أي: فيما صنعنا بك".

قوله تعالى: {قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} [يوسف: ٩٢]، أي:"قال لهم يوسف:

=

=

لا تأنيب عليكم اليوم".

قال الطبري:"يقول: لا تعيير عليكم ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحقّ الأخوة، ولكن لكم عندي الصفح والعفو".

قال ابن كثير:"يقول: لا تأنيب عليكم ولا عَتْب عليكم اليوم، ولا أعيد ذنبكم في حقي بعد اليوم".

قال مقاتل:"لم يثرب عليهم بفعلهم القبيح".

قال عطاء الخراساني:"طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ، ألم تر إلى قول يوسف: لا تثريب عليكم اليوم. وقال يعقوب سوف أستغفر لكم ربي".

قال قتادة:"لقوا رجلا حليما لم يبث ولم يثرب عليهم أعمالهم".

عن مجاهد: "{لا تثريب عليكم اليوم}، قال: لا أباء".

قال سفيان:"قال سفيان: لا تعيير عليكم".

قال مقاتل:"يقول لا تعيير عليكم، لم يثرب عليهم بفعلهم القبيح".

قال ابن إسحاق:"أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم".

عن قتادة قوله: "{لا تثريب عليكم}، لم يثرِّب عليهم أعمالهم".

قال السدي:"اعتذروا إلى يوسف فقال: {لا تثريب عليكم اليوم}، يقول: لا أذكر لكم ذنبكم".

وقال الكلبي: "يقول لا أعيركم بعد اليوم بهذا أبدًا".

وروى ابن الأنباري عن أبي العباس: "ثرب فلان على فلان، إذا عَدَّد عليه ذنوبه".

وقال الزجاج:"أي: لا إفساد عليكم".

وقال الماوردي:"لا عقاب عليكم، وقال الشاعر:

فَعَفَوْتُ عنهم عَفْوَ غَيْرِ مُثَرَّبِ وتركْتُهُم لعِقَابِ يومٍ سَرْمدِ"

قال أبو بكر: "إن يوسف لما قدم توبيخهم، وعدَّدَ عليهم قبيح ما فعلوا، وهو يستر

=

=

عنهم نفسه، قال لهم عند تبين أمره لهم: {لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} أي: قد إنقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب، فكان ذكر اليوم دلالة على انقطاع التأنيب، وعلى أن ما بعده من الأيام يجري مجراه، واليوم قد يذكر ويراد به: الحين والزمان، كقول امرئ القيس:

فاليوم أشربْ غيرَ مُسْتَحْقِب إثمًا مِنَ اللهِ ولا واغِلِ

ليس يريد يومًا بعينه".

قوله تعالى: {يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ} [يوسف: ٩٢]، أي:"وأرجو الله- تعالى- أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب".

قال مقاتل أي:"ما فعلتم".

قال الطبري:"وهذا دعاء من يوسف لإخوته بأن يغفر الله لهم ذنبهم فيما أتوا إليه وركبوا منه من الظلم، يقول: عفا الله لكم عن ذنبكم وظلمكم، فستره عليكم".

قال الصابوني:"دعاءٌ لهم بالمغفرة وهذا زيادة تكريم منه لما فرط منهم".

قوله تعالى: {وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٩٢]، أي:"وهو أرحم الراحمين لمن تاب من ذنبه وأناب إلى طاعته".

قال الطبري:"يقول: والله أرحم الراحمين لمن تاب من ذنبه، وأناب إلى طاعته بالتوبة من معصيته".

عن ابن إسحاق: "{يغفر الله وهو أرحم الراحمين}، حين اعترفوا بذنبهم".

قال جعفر: "سمعت ابنا عمران الجوني يقولان: أما والله ما سمعنا بعفو قط مثل عفو يوسف، قال: {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين}".

قال مالك بن دينار:"أرسل رجل إلى عشرة من أهل البصرة أنا فيهم والحسن، فسلمنا عليه ثم إن الحسن حمد الله وأثنى عليه وذكر ما شاء الله أن يذكر، حتى أتى على ذكر يوسف وما ارتكب منه إخوته فعرفهم نفسه، ثم استقبلهم بالعفو عنهم، =

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣).

{اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا} وَهُوَ قَمِيص إبْرَاهِيم الَّذِي لَبِسَهُ حِين أُلْقِيَ فِي النَّار كَانَ فِي عُنُقه فِي الْجُبّ وَهُوَ مِنْ الْجَنَّة أَمَرَهُ جِبْرِيل بِإِرْسَالِهِ وَقَالَ إنَّ فِيهِ رِيحهَا وَلَا يُلْقَى عَلَى مُبْتَلًى إلَّا عُوفِيَ {فَأَلْقُوهُ عَلَى وجه أبي يأت} يصر {بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين}.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤).

{وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِير} خَرَجَتْ مِنْ عَرِيش مِصْر {قَالَ أَبُوهُمْ} لِمَنْ حَضَرَ مِنْ بَنِيهِ وَأَوْلَادهمْ {إنِّي لَأَجِد رِيح يُوسُف} أَوْصَلْته إلَيْهِ الصَّبَا بِإِذْنِهِ تَعَالَى مِنْ مَسِير ثَلَاثَة أَيَّام أَوْ ثَمَانِيَة أَوْ أَكْثَر {لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ} تُسَفِّهُونِ لصدقتموني.

قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥).

{قالوا} له {تالله إنك لفي ضَلَالك} خَطَئِك {الْقَدِيم} مِنْ إفْرَاطك فِي مَحَبَّته وَرَجَاء لِقَائِهِ عَلَى بُعْد الْعَهْد.

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦).

{فَلَمَّا أَنْ} زَائِدَة {جَاءَ الْبَشِير} يَهُوذَا بِالْقَمِيصِ وَكَانَ قَدْ حَمَلَ قَمِيص الدَّم فَأَحَبَّ أَنْ يُفْرِحهُ كَمَا أَحْزَنَهُ {أَلْقَاهُ} طَرَحَ الْقَمِيص {عَلَى وجهه فارتد} رجع {بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون}.

=

لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم. فرضي الله به منه عملا وأثبته في كتابه، ليؤخذ به من بعده، فقال الأمير: لو صار أن أجللكم ببردي هذا ما أصابكم شيء أبدا".

قَالُوا يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧).

{قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين}.

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨).

{قَالَ سَوْفَ أَسَتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُور الرَّحِيم} أَخَّرَ ذَلِكَ إِلَى السَّحَر لِيَكُونَ أَقْرَب إِلَى الْإِجَابَة أَوْ إِلَى لَيْلَة الْجُمُعَة ثُمَّ تَوَجَّهُوا إِلَى مِصْر وَخَرَجَ يُوسُف وَالْأَكَابِر لتلقيهم[1].

---

(١) قوله تعالى: {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا} [يوسف: ٩٣]، أي:"فقال لهم: عودوا إلى أبيكم ومعكم قميصي هذا فاطرحوه على وجه أبي يَعُدْ إليه بصره".

قال الطبري: "ذكر أن يوسف لما عرف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا: ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه، وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك".

قال ابن كثير:"يقول: اذهبوا بهذا القميص، {فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا} وكان قد عَميَ من كثرة البكاء".

وفي قوله تعالى: {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا} [يوسف: ٩٣]، وجوهان:

أحدهما: مستبصرًا بأمري لأنه إذا شم ريح القميص عرفني.

الثاني: بصيرًا من العمى، فذاك من أحد الآيات الثلاث في قميص يوسف بعد الدم الكذب وقدّه من دُبُره.

قال ابن عباس: "يريد بصيرًا ويذهب البياض الذي على عينيه".

وقال الفراء:"يرجع بصيرًا".

قال عامر:"كان في قميص يوسف ثلاث آيات، حين قد قميصه من دبر وحين ألقي =

=

على وجه أبيه فارتد بصيرا".

وقال الماوردي: "وفيه وجه آخر لأنه قميص إبراهيم أنزل عليه من الجنة لما أُلقي في النار، فصار لإسحاق ثم ليعقوب، ثم ليوسف فخلص به من الجب وحازه حتى ألقاه أخوه على وجه أبيه فارتد بصيرًا، ولم يعلم بما سبق من سلامة إبراهيم من النار ويوسف من الجب أن يعقوب يرجع به بصيرًا".

قال السدي:"ثم قال لهم ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: لما فاته بنيامين عمي من الحزن فقال: اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين. وقال يهوذا: أنا ذهبت بالقميص إلى يعقوب وهو متلطخ بالدماء وقلت إن يوسف قد أكله الذئب، أنا اليوم أذهب إليه بالقميص وأخبره أن يوسف حي، فأفرحه كما أحزنته، فهو كان البشير".

قال المطلب بن عبد الله بن حنطب: "لما ألقي إبراهيم في النار كساه الله قميصا من قمص الجنة وكساه إبراهيم إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكساه يعقوب يوسف، فطواه وجعله في قصبة فضة فجعله في عنقه، وكان في عنقه حين ألقي في الجب وحين سجن وحين دخل عليه إخوته، وأخرج القميص من القصبة فقال اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا فشم يعقوب ريح الجنة وهو بأرض كنعان بفلسطين فقال: {إني لأجد ريح يوسف}".

* قال الرازي: قال المحققون: إنما عرف أن إلقاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ولولا الوحي لما عرف ذلك.

- وقال ابن عطية: حكمه بعد الأمر إلقاء القميص على وجه أبيه بأن أباه يأتي بصيرا ويزول عماه دليل على أن هذا كله بوحي وإعلام من الله.

وقال ابن عاشور: وأما كونه يصير بصيرا فحصل ليوسف عليه السلام بالوحي فبشرهم به من ذلك الحين.

=

=

ولعل يوسف عليه السلام نبيء ساعتئذ.

- قال بعض العلماء: وكان الذي حمل قميصه يهوذا، قال ليوسف: أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته، وأنا الذي أحمله الآن لأسره، وليعود إليه بصره، فحمله.

- قال أبو حيان: قيل: هو القميص الذي توارثه يوسف وكان في عنقه، وكان من الجنة، أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإن فيه ريح الجنة، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي.

وقيل: كان لإبراهيم كساه الله إياه من الجنة حين خرج من النار، ثم لإسحاق، ثم ليعقوب، ثم ليوسف.

وقيل: هو القميص الذي قد من دبر، أرسله ليعلم يعقوب أنه عصم من الفاحشة.

والظاهر أنه قميص من ملبوس يوسف بمنزلة قميص كل واحد، قال ذلك: ابن عطية.

وهكذا تتبين الغرابة في أن وجد يعقوب ريحه من بعد، ولو كان من قمص الجنة ما كان في ذلك غرابة ولوجده كل أحد.

- وقال الآلوسي:... وقيل: هو القميص الذي قد من دبر وأرسله ليعلم يعقوب أنه عصم من الفاحشة ولا يخفى بعده.

قال القاسمي: قوله تعالى (الإلقاء على وجهه) بمعنى المبالغة في تقريبه منه، لما ناله من ضعف بصره، فتتراجع إليه قوة بصره، بانتعاش قلبه، بشمه واطمئنانه على سلامته. وللمفرحات تأثير عظيم في صحة الجسم، وتقوية الأعضاء.

- قال في التسهيل: روي أن هذا القميص كان لإبراهيم كساه الله له حين أخرج من النار، وكان من ثياب الجنة، ثم صار لإسحاق، ثم ليعقوب، ثم دفعه يعقوب ليوسف، وهذا يحتاج إلى سند يوثق به، والظاهر أنه كان قميص يوسف الذي

=

=

بمنزلة قميص كل أحد.

- وقال ابن عاشور: قوله (اذهبوا بقميصي هذا) يدل على أنه أعطاهم قميصا، فلعله جعل قميصه علامة لأبيه على حياته، ولعل ذلك كان مصطلحا عليه بينهما.

وكان للعائلات في النظام القديم علامات يصطلحون عليها ويحتفظون بها لتكون وسائل للتعارف بينهم عند الفتن والاغتراب، إذ كانت تعتريهم حوادث الفقد والفراق بالغزو والغارات وقطع الطريق، وتلك العلامات من لباس ومن كلمات يتعارفون بها وهي الشعار، ومن علامات في البدن وشامات.

وفائدة إرساله إلى أبيه القميص أن يثق أبوه بحياته ووجوده في مصر، فلا يظن الدعوة إلى قدومه مكيدة من ملك مصر، ولقصد تعجيل المسرة له.

والأظهر أنه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف عليه السلام بجلبه فإن قمصان الملوك والكبراء تنسج إليهم خصيصا ولا توجد أمثالها عند الناس، وكان الملوك يخلعونها على خاصتهم، فجعل يوسف عليه السلام إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق إخوته أنهم جاءوا من عند يوسف عليه السلام بخبر صدق.

(وأتوني بأهلكم أجمعين) من رجال ونساء وأطفال.

(تنبيه): أمر يوسف إخوته بالرجوع إلى أبيه، ووضع القميص على وجهه والإتيان به، وظاهر الأمر: أن الأصل أن يذهب يوسف بنفسه إلى أبيه؛ لحقه عليه ولطول غيابه عنه، ولكن لما كان يوسف على ولاية عامة تتصل بأسباب بلد كامل بماله ودماء أهله وأعراضهم وأموالهم، كان بقاؤه أولى من ذهابه؛ فإن ذهابه مصلحة خاصة تتحقق بغيره، وبقاؤه مصلحة عامة لا تقوم غالبا إلا به، ثم إن في ذهابه غيابا عن الناس واحتجابا عنهم، وقد قال ﷺ: (من ولاه الله عز وجل شيئا من أمر المسلمين، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم، احتجب الله عنه دون حاجته

=

=

وخلته وفقره)؛ رواه أبو داود.

وفي هذا: أن حق الرعية على الحاكم أولى من حق والديه عليه، وأن احتجابه عن مصالحهم أعظم من احتجابه عن والديه؛ لظاهر تقديم بقاء يوسف في مصر على الذهاب إلى والديه؛ فقد جاء في إضاعة أمر الرعية من التبعة الكبيرة والإثم العظيم قوله ﷺ فيما رواه مسلم: (اللهم، من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم، فارفق به).

وفي "الصحيحين"؛ من حديث معقل بن يسار؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة).

وفي رواية لمسلم؛ قال ﷺ: (ما من أمير يلي أمر المسلمين، ثم لا يجهد لهم وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنة).

قوله تعالى: {وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} [يوسف: ٩٣]، أي:"ثم أحضروا إليَّ جميع أهلكم".

قال ابن كثير:"أي: بجميع بني يعقوب".

قال الكلبي:"وكان أهله نحوًا من سبعين إنسانًا".

قاله مقاتل:"فدخل منهم اثنان وسبعون إنسانا من ذكر وأنثى".

قال مسروق:"دخل أهل يوسف مصر وهم ثلاث مائة وتسعون من بين رجل وامرأة".

قال عبد الله:"كان أهله حين أرسل إليهم وهو بمصر ثلاثة وتسعين إنسانا رجالهم أنبياء ونساؤهم صديقات، والله ما خرجوا مع موسى حتى بلغوا ستمائة ألف، وسبعين ألفا".

قال جعفر بن سليمان: سمعت فرقدا يقول: "لما بعث يوسف بالقميص إلى

=

=

يعقوب، أخذه فشمه ثم وضعه على بصره فرد الله عليه بصره، ثم حملوه إليه فلما دخلوا- ويعقوب متكئ على ابن له يقال له- يهوذا استقبله يوسف في الجنود والناس، فقال يعقوب يا يهوذا هذا فرعون مصر؟ قال: لا يا أبت، ولكن هذا ابنك يوسف قيل له إنك قادم فتلقاك في أهل مملكته والناس، قال: فلما لقيه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمنع ذلك، ليعلم أن يعقوب أكرم على الله منه فاعتنقه وقبله وقال: السلام عليك أيها الذاهب الأحزان".

قوله تعالى: {وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ} [يوسف: ٩٤]، أي:"ولما خرجت القافلة من أرض «مصر» ومعهم القميص".

قال ابن كثير:"أي: خرجت من مصر".

قال ابن عباس:"لما خرجت العير".

عن السدي قال: "{ولما فصلت العير}. من مصر منطلقة إلى الشام".

قوله تعالى: {قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ} [يوسف: ٩٤]، أي:"قال يعقوب لمن حضره: إني لأشمّ رائحة يوسف".

قال ابن كثير:"يعني: يعقوب، عليه السلام، لمن بقي عنده من بنيه: {إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ..}".

قال ابن عباس:"وجد يعقوب ريح قميص يوسف وهو منه على مسيرة ثمان ليال".

وقال ابن عباس ايضا:"وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة ستة أيام".

وفي رواية الضحاك عن ابن عباس، قال:"وجد من مسيرة عشرة أيام".

عن ابن أبي الهذيل قال: "سئل ابن عباس وأنا إلى جنبه، من كم وجد يعقوب ريح القميص؟، عن قول الله إني لأجد ريح يوسف قال: وجده من مسيرة ثمانين فرسخا، قال ابن أبي الهذيل: وهو ما بين البصرة والكوفة".

=

=

قال السدي:"فلما فصلت العير من مصر منطلقة إلى الشام وجد يعقوب ريح يوسف وهو قوله: قال أبوهم لبني بنيه {إني لأجد ريح يوسف}".

قوله تعالى: {لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ} [يوسف: ٩٤].

أي: لولا أن تنسبوني إلى الفند، من الفند وهو ضعف العقل بسبب المرض والتقدم في السن.

والتفنيد: النسبة للفند بفتحتين، وهو اختلال العقل من الخرف.

قال ابن كثير:"تنسبوني إلى الفَنَد والكِبَر".

قال الطبري:"يعني: لولا أن تعنّفوني، وتعجّزوني، وتلوموني، وتكذبوني.

ومنه قول الشاعر:

يَا صَاحِبَيَّ دَعَا لَوْمِي وَتَفْنِيدِي فَلَيْسَ مَا فَاتَ مِنْ أَمْرِي بِمَرْدُودِ

ويقال:"أفند فلانًا الدهر"، وذلك إذا أفسده، ومنه قول ابن مقبل:

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا أَرَادَ فإِنَّهُ إِذا كُلِّفَ الإِفْنَاد بالنَّاسِ أَفْنَدا"

وفي قوله تعالى: {لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ} [يوسف: ٩٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: لولا أن تسفهون، قاله ابن عباس -في إحدى الروايات- ، ومجاهد -في إحدى الروايات- ، وعطاء ، وقتادة ، ومنه قول النابغة الذبياني:

إلا سليمان إذ قال المليكُ له قم في البرية فا جددها عن الفنَد

أي أمنعها من الفساد.

وقال أبو عبيدة:"«لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ»: أي: تسفّهونى وتعجّزونى وتلومونى، قال [هانئ بن شكيم العدوىّ]:

يا صاحبىّ دعا لومى وتفنيدى فليس ما فات من أمر بمردود"

وعن ابن زيد، في قول الله: {لولا أن تفندون}، قال: "الذي ليس له عقل ذلك

=

=

المفند، يقولون لا يعقل، قال: وقال الشاعر:

مهلا فإن من العقول مفندا".

الثاني: معناه لولا أن تكذبون، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، وهو مروي عن ابن عباس ايضا، ومنه قول الشاعر:

هل في افتخار الكريم من أود أم هل لقول الصديق من فند

أي: من كذب.

وقال عطاء:"تسفهون أو تكذبون".

وقال الفراء:"{لولا أن تفندون}، يقول: تكذبون وتعجزون وتضعفون".

الثالث: لولا أن تهرِّمون. قاله الحسن، ومجاهد.

الرابع: لولا أن تضعّفون، قاله ابن إسحاق.

وقال ابن قتيبة:"أي: تعجزون".

والتفنيد: تضعيف الرأي، ذكره الماوردي، واستشهد بقول الشاعر:

يا صاحبي دعا لومي وتفنيدي فليس ما فات من أمري بمردود

وكان قول هذا لأولاد بنيه، لغيبة بنيه عنه، فدل هذا على أن الجدَّ أبٌ.

الخامس: يعني: لولا أن تجهلون. قاله مجاهد أيضا، وبه قال مقاتل.

السادس: لولا أن تلوموني، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

قال الطبري:"أصل «التفنيد»:الإفساد. وإذا كان ذلك كذلك فالضعف والهرم والكذب وذهاب العقل وكل معاني الإفساد تدخل في التفنيد، لأن أصل ذلك كله الفساد والفساد في الجسم: الهرمُ وذهاب العقل والضعف، وفي الفعل: الكذب واللوم بالباطل، ولذلك قال جرير بن عطية:

يا عَاذِليَّ دَعَا المَلامَ وأَقْصِرَا طَالَ الهَوَى وأَطَلْتُما التَّفْنيدا

=

=

يعني: الملامة فقد تبيّن، إذ كان الأمر على ما وصفنا، أنّ الأقوال التي قالها من ذكرنا قولَه في قوله: {لولا أن تفندون} على اختلاف عباراتهم عن تأويله، متقاربةُ المعاني، محتملٌ جميعَها ظاهرُ التنزيل، إذ لم يكن في الآية دليلٌ على أنه معنيٌّ به بعض ذلك دون بعض".

قوله تعالى: {قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [يوسف: ٩٥].

أي: لفي ذهابك عن الصواب المتقدم، في إفراطك في محبة يوسف، ولهجتك بذكره، ورجائك للقائه، وكان عندهم أنه مات أو تشتت، فاستحال الاجتماع به، وجعله فيه لتمكنه ودوامه عليه.

ووصفوا ذلك بالقديم لطول مدته، وكانت مدة غيبة يوسف عن أبيه عليهما السلام اثنتين وعشرين سنة.

وكان خطابهم إياه بهذا مشتملا على شيء من الخشونة إذ لم يكن أدب عشيرته منافيا لذلك في عرفهم.

- لفظ الضلال في القرآن يطلق على ثلاثة إطلاقات:

الأول: إطلاق الضلال على الضلال عن طريق الهدى إلى طريق الزيغ، وعن طريق الجنة إلى طريق النار.

كما قال تعالى (ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون). ومنه قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين).

ومنه قوله تعالى (قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل)، وهذا أغلب استعمال الضلال.

والثاني: هو إطلاق الضلال على الغيبة والاضمحلال.

ومنه قوله تعالى (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أي: غاب واضمحل ولم يبق له أثر.

=

=

ومنه قوله تعالى (وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد) فمعنى (ضللنا في الأرض) أي: اضمحلت عظامهم ولحومهم وجلودهم فيها فأكلتها واختلطت بها.

والثالث: إطلاق الضلال على الذهاب عن علم الشيء، فكل ما لم يهتد إلى علم شيء تقول العرب: ضل.

ومنه قول أولاد يعقوب (إن أبانا لفي ضلال مبين) أي: ذهاب عن علم الحقيقة حيث يفضل يوسف علينا.

وقوله (قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم) أي: ذهابك عن حقيقة العلم بالشيء، لأنك تظن يوسف حيا، ولا يريدون الضلال، لأنهم لو أرادوا الضلال في الدين لكانوا كفرة لتضليلهم نبيا من الأنبياء. (الشنقيطي).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال الذين قال لهم يعقوب من ولده {إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون} : تالله، أيها الرجل، إنك من حبّ يوسف وذكره لفي خطئك وزللك القديم لا تنساه، ولا تتسلى عنه".

قال يحيى بن سلام:"يعني: خسرانك القديم من حبّ يوسف".

وفي قوله تعالى: {قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [يوسف: ٩٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: أي: في خطئك القديم، قاله ابن عباس ، وابن زيد.

الثاني: في جنونك القديم، قاله سعيد بن جبير.

الثالث: في محبتك القديمة، قاله قتادة ، وسفيان ، وابن جريج.

الرابع: أي: إنك لمن ذكر يوسف في الباطل الذي أنت عليه. قاله محمد بن إسحاق.

الخامس: في شقائك القديم، يعني: في شقاء من حب يوسف وذكره فما تنساه وقد

=

=

أتى عليه أربعون سنة. قاله مقاتل ، ومنه قول لبيد:

تمنى أن تلاقي آل سلمى بحطمة والمنى طرف الضِّلال

وفي قائل ذلك قولان:

أحدهما: بنوه، ولم يقصدوا بذلك ذمًا فيأثموا.

والثاني: بنو نبيه وكانوا صغارًا.

وقال قتادة:"أي: من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه. قالوا لوالدهم كلمةً غليظة، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبيّ الله ﷺ".

وعن الحسن، في قول الله:"{تالله إنك لفي ضلالك القديم} . قال: عقوقا". أي: أن قولهم هذا عقوق.

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ} [يوسف: ٩٦]، أي:"فلما أن جاء من يُبشِّر يعقوب بأن يوسف حيٌّ".

قال الطبري:"فلما أن جاء يعقوب البشير من عند ابنه يوسف، وهو المبشر برسالة يوسف، وذلك بريد، فيما ذكر، كان يوسف أبرده إليه".

قال الرازي: "قال جمهور المفسرين البشير هو يهودا".

قال ابن عاشور: "والتبشير: المبادرة بإبلاغ الخبر المسر بقصد إدخال السرور".

قال ابن عباس:"{البشير} : البريد".

عن الضحاك: "{فلما أن جاء البشير} ، قال: البريد". "هو يهوذا بن يعقوب".

قال مجاهد:"وهو يهوذا بن يعقوب".

قال ابن جريج:"يهوذا بن يعقوب، كان البشير".

قال السدي:"قال يهوذا: أنا ذهبت بالقميص، ملطخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب، وأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره أنه حي فأفرحه كما أحزنته. فهو كان البشير".

=

=

قوله تعالى: {أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا} [يوسف: ٩٦]، أي:"طرح قميص يوسف على وجهه فعاد يعقوب مبصرًا".

قال القرطبي:"أي: على عينيه، {فارتد بصيرا}".

قال مقاتل:"يعني: فرجع بصيرا بعد البياض".

قال الصابوني:"لما حدث له من السرور والانتعاش".

وقيل: معناه:"بصيرًا بخبر يوسف".

عن ابن إسحاق: "فلما أن جاء البشير ألقى القميص على وجهه".

قال القرطبي:"وقال الحسن: لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئا يثيبه به، فقال: والله ما أصبت عندنا شيئا، وما خبزنا شيئا منذ سبع ليال، ولكن هون الله عليك سكرات الموت. قلت: وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر".

قوله تعالى: {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف: ٩٦]، أي:"فقال لمن عنده: ألَمْ أخبركم أني أعلم من الله ما لا تعلمونه من فضل الله ورحمته وكرمه؟".

قال السدي:"{فلما أن جاء البشير} وهو يهوذا، ألقى القميص على وجهه {فارتد بصيرا}، قال يعقوب لبنيه: {ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون}".

وفي قوله تعالى: {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف: ٩٦]، ثلاثة وجوه:

أحدها: إني أعلم من صحة رؤيا يوسف ما لا تعلمون.

الثاني: إني أعلم من قول ملك الموت أنه لم يقبض روح يوسف ما لا تعلمون.

الثالث: إني أعلم من بلوى الأنبياء بالمحن ونزول العراج ونيل الثواب ما لا

=

=

تعلمون.

قوله تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} [يوسف: ٩٧]، أي:"قال بنوه: يا أبانا سل لنا ربك أن يعفو عنا ويستر علينا ذنوبنا".

قال الطبري:"قال ولد يعقوب الذين كانوا فرقوا بينه وبين يوسف: يا أبانا سل لنا ربك يعف عنا، ويستر علينا ذنوبنا التي أذنبناها فيك وفي يوسف، فلا يعاقبنا بها في القيامة".

قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} [يوسف: ٩٧]، أي:"إنا كنا خاطئين فيما فعلناه بيوسف".

قال الطبري: أي:"فيما فعلنا به، فقد اعترفنا بذنوبنا".

وقيل: إنما سألوا أباهم ذلك لأمرين:

أحدهما: أنهم أدخلوا عليه من آلام الحزن ما لا يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله.

الثاني: أنه نبيٌّ تجاب دعوته ويعطى مسألته، فروى ابن وهب عن الليث بن سعد:"إن يعقوب، وإخوة يوسف أقاموا عشرين سنة يطلبون المغفرة مما فعل إخوة يوسف بيوسف لا يقبل ذلك منهم حتى لقي جبريل يعقوب ﷺ فعلمه هذا الدعاء: يا رجاء المؤمنين لا تخيب رجائي، ويا غوث المؤمنين أغثني ويا عون المؤمنين أعني، يا حبيب التوابين تب علي، فاستجيب لهم".

فإن قيل قد تقدمت المغفرة لهم بقول يوسف من قبل: {لا تثريب عليكم} الآية، فلمَ سألوا أباهم أن يستغفر لهم؟

فعن ذلك ثلاثة أجوبة:

أحدها: لأن لفظ يوسف عن مستقبل صار وعدًا، ولم يكن عن ماض فيكون خبرًا.

الثاني: أن ما تقدم من يوسف كان مغفرة في حقه، ثم سألوا أباهم أن يستغفر لهم في حق نفسه.

=

=

الثالث: أنهم علموا نبوة أبيهم فوثقوا بإجابته، ولـم يعلمـوا نبـوة أخيهم فلـم يثقـوا بإجابته.

قال القرطبي:"وإنما سألوه المغفرة، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله. قلت: وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له، فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها، وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينفع، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال ربما لم تطب نفس المظلوم في التحلل منها".

قوله تعالى: {قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي} [يوسف: ٩٨]، أي:"قال يعقوب: سوف أسأل ربي أن يغفر لكم ذنوبكم".

قال الطبري:"قال يعقوب: سوف أسأل ربي أن يعفو عنكم ذنوبكم التي أذنبتموها في وفي يوسف".

وفي تأخيره الاستغفار لهم وجهان:

أحدهما: أنه أخره دفعًا عن العجيل ووعدًا من بعد، فلذلك قال عطاء: "طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ، ألم تر إلى قول يوسف: لا تثريب عليكم اليوم. وقال يعقوب سوف أستغفر لكم ربي".

الثاني: أنه أخّره انتظارًا لوقت الإجابة وتوقعًا لزمان الطلب.

وفي تحديد وقت الإجابة ثلاثة أقوال:

أحدها: عند صلاة الليل، قاله عمرو بن قيس.

الثاني: إلى السحَر، قاله ابن مسعود ، وإبراهيم التيميّ ، وإبراهيم النخعي ، وعكرمة ، وأبو جعفر محمد بن علي ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والسدي ، وابن جريج ، وبه قال مقاتل.

عن محارب بن دثار، قال: "كان عمٌّ لي يأتي المسجدَ، فسمع إنسانًا يقول: «اللهم

=

=

دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت، وهذا سَحَرٌ، فاغفر لي»، قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود. فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السحر بقوله: {سوف أستغفر لكم ربي}".

وأخرج الواحدي في الوسيط وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس - رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا - أن النبي ﷺ سئل: "لم أخر يعقوب بنيه في الاستغفار؟ قال: أخرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب" وإسناده ضعيف جدا.

قال الزجاج:"قال ذلك يعقوب إرادة أن يستغفر لهم في وقت وجه السحر، في الوقت الذي هو لإجابة الدعاء لا أنه ضن بالاستغفار وذلك أشبه بأخلاق الأنبياء، أعني: المبالغة في الاستغفار، وتعمد وقت الإجابة".

الثالث: إلى ليلة الجمعة. قاله ابن عباس ورواه عن النبي ﷺ مرفوعًا وفي رفعه نظر.

وإنما سألوه عن الاستغفار لهم وإن كان المستحق في ذنوبهم التوبة منها دون الاستغفار لهم ثلاثة أمور:

أحدها: للتبرك بدعائه واستغفاره.

الثاني: طلبًا لاستعطافه ورضاه.

الثالث: لحذرهم من البلوى والامتحان في الدنيا.

قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يوسف: ٩٨]، أي:"إنه هو الغفور لذنوب عباده التائبين، الرحيم بهم".

قال الطبري:"يقول: إن ربي هو الساتر على ذنوب التائبين إليه من ذنوبهم {الرحيم}، بهم أن يعذبهم بعد توبتهم منها".

قال سعيد بن جبير:"{الغفور}، يعني: غفور الذنوب، {الرحيم} يعني: رحيم بالمؤمنين".

=

=

مسألة: ذكر مسائل الإيمان بالنزول.

اعلم رحمني الله وإياك أن (النزول والهبوط إلى السماء الدنيا) كلاهما صفة فعلية خبرية ثابتة لله ﷻ بالسنة الصحيحة.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «القول في السنة التي أنا عليها ورأيت أصحابنا عليها، أهل الحديث الذين رأيتهم فأخذت عنهم، مثل سفيان [بن عيينة] ومالك وغيرهما: الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.. وأن الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء. وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء».

وقال أبو سعيد الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٧٩) بعد أن ذكر ما يثبت النُّزول من أحاديث رسول الله ﷺ: فهذه الأحاديث قد جاءت كلها وأكثر منها في نزول الرب تبارك وتعالى في هذه المواطن، وعلى تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا، لا ينكرها منهم أحد، ولا يمتنع من روايتها ا.هـ

وقال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ «وأنه سبحانه وتعالى يهبط كل ليلة وينزل إلى السماء الدنيا، لخبر رسول الله ﷺ».

وقال إمام الأئمة محمد بن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٨٩): باب: ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام، رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي ﷺ في نزول الرب جل وعلا إلى السماء الدنيا كل ليلة: نشهد شهادة مقر بلسانه، مصدق بقلبه، مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نُزول الرب، من غير أن نصف الكيفية؛ لأنَّ نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا، وأعلمنا أنه يَنْزل، والله جل وعلا لم يترك ولا نبيه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم؛ فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النُّزول، غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية؛ إذ النبي ﷺ لم يصف لنا كيفية النُّزول. وفي هذه

=

=

الأخبار ما بان وثبت وصح أنَّ الله جل وعلا فوق سماء الدنيا الذي أخبرنا نبينا ﷺ أنه يَنْزِل إليه، إذ محال في لغة العرب أن يقول: نزل من أسفل إلى أعلى، ومفهوم في الخطاب أنَّ النُّزول من أعلى إلى أسفل ا. هـ

وقال أبو العباس السراج رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لم يقر ويؤمن بأن الله تعالى يعجب، ويضحك، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، فيقول: «من يسألني فأعطيه؟» فهو زنديق كافر، يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين».

قال الذهبي معقبا على هذا الأثر: «قلت: إنما يكفر بعد علمه بأن الرسول ﷺ قال ذلك، ثم إنه جحد ذلك ولم يؤمن به».

وقال أبو بكر بن أبي داود محدث بغداد:

تمسك بحبل الله واتبع الهدى ... ولا تك بدعيا لعلك تفلح

ودن بكتاب الله والسنن التي ... أتت عن رسول الله تنجووتربح

وقل: ينزل الجبار في كل ليلة ... بلا كيف، جل الواحد المتمدح

إلى طبق الدنيا يمن بفضله ... فتفرج أبواب السماء وتفتح

يقول: ألا مستغفر يلق غافرا ... ومستمنح خيرا ورزقا فيمنح

روى ذاك قوم لا يرد حديثهم ... ألا خاب قوم كذبوهم وقبحوا.

وقال أبو الحسن الأشعري: «ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، وأن الرب ﷻ يقول: هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافا لما قاله أهل الزيغ والتضليل.

ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا وإجماع المسلمين وما كان في معناه.

=

=

ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن به لنا، ولا نقول على الله ما لا نعلم».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومما يؤكد أن الله عَزَّ وَجَلَّ مستو على عرشه دون الأشياء كلها ما نقله أهل الرواية عن رسول الله ﷺ. وذكر حديث النزول بالسند عن ثلاثة من الصحابة وهم: جبير بن مطعم وأبو هريرة ورفاعة الجهني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ».

وقال ابن أبي زمنين: "ومن قول أهل السنة أن الله ينزل إلى سماء الدنيا ويؤمنون بذلك من غير أن يروا فيه حدًا".

كما نص على إجماع السلف على ذلك الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقد ألف الدارقطني كتابًا سماه "أحاديث النزول" تضمن ستة وتسعين حديثًا وأثرًا في إثبات هذه الصفة، كما ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابًا سماه "شرح حديث النزول" قرر فيه هذه الصفة على ضوء عقيدة السلف ورد على المخالفين.

وقال أبو عمرو الداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن قولهم: إن الله جل جلاله وتقدست أسماؤه: ينزل في كل ليلة إلى السماء الدنيا في الثلث الباقي من الليل، فيقول: «هل من داع يدعوني فأستجيب له، وهل من سائل يسألني فأعطيه، وهل من مستغفر يستغفرني فأغفر له؟» حتى ينفجر الصبح، على ما صحت به الأخبار، وتواترت به الآثار عن رسول الله ﷺ. نزوله تبارك وتعالى كيف شاء، بلا حد، ولا تكييف.

وهذا دين الأمة، وقول أهل السنة في هذه الصفات أن تمر كما جاءت بغير تكييف، ولا تحديد، فمن تجاوز المروي فيها وكيف شيئا منها ومثلها بشيء من جوارحنا وآلتنا فقد ضل واعتدى، وابتدع في الدين ما ليس منه، وخرق إجماع المسلمين، وفارق أئمة الدين».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فمن صحيح ما أتى به الأثر وشاع في الناس قديما وانتشر

=

=

نزول ربنا بلا امتراء في كل ليلة إلى السماء

من غير ما حد ولا تكييف سبحانه من قادر لطيف.

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ تعليقا على حديث النزول: «هذا حديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث في صحته، وفيه دليل على أن الله عَزَّوَجَلَّ في السماء على العرش من فوق سبع سماوات، وعلمه في كل مكان كما قالت الجماعة أهل السنة أهل الفقه والأثر ، ثم ذكر آيات دالة على علو الله تعالى.

قال: وأما قوله ﷺ في هذا الحديث: «ينزل ربنا»، فالذي عليه أهل العلم من أهل السنة والحق الإيمان بمثل هذا وشبهه من القرآن والسنن دون كيفية فيقولون: ينزل ولا يقولون كيف النزول ولا يقولون كيف الاستواء ولا كيف المجيء في قوله عَزَّوَجَلَّ: {وجاء ربك والملك صفا صفا ﴿﴾} [الفجر: ٢٢]، ولا كيف التجلي في قوله: {فلما تجلى ربه للجبل} [الأعراف: ١٤٣]».

وقال الإمام أبو إسماعيل الصابوني رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٤٩هـ) «ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، من غير تشبيه له بنزول المخلوقين، ولا تمثيل ولا تكييف، بل يثبتون ما أثبته رسول الله ﷺ، وينتهون فيه إليه، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره» - إلى أن قال:

«فلما صح خبر النزول عن رسول الله ﷺ، أقر به أهل السنة، وقبلوا الخبر، وأثبتوا النزول على ما قاله رسول الله ﷺ، ولم يعتقدوا تشبيها له بنزول خلقه، ولم يبحثوا عن كيفيته إذ لا سبيل إليها بحال، وعلموا وتحققوا واعتقدوا أن صفات الله سبحانه وتعالى لا تشبه صفات الخلق كما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق، تعالى الله عما يقول المشبهة والمعطلة علوا كبيرا، ولعنهم لعنا كثيرا».

وقال الإمام الإسماعيلي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٦٩هـ): «وأنه عَزَّوَجَلَّ ينزل إلى السماء الدنيا على ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ بلا اعتقاد كيفية».

=

=

وقال الذهبي: "وأحاديث نزول الباري متواترة قد سقت طرقها وتكلمت عليها بما أسأل عنه يوم القيامة".

وقال أبو الخطاب الكلواذاني رَحِمَهُ اللَّهُ (٥١٠هـ) في عقيدته:

قالوا: النزول؟ فقلت: ناقله لنا قوم تمسكهم بشرع محمد

قالوا: فكيف نزول؟ فأجبتهم لم ينقل التكييف لي في مسند.

وقال الشيخ عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ:

والله ينزل كل آخر ليلة لسمائه الدنيا بلا كتمان

فيقول: هل من سائل فأجيبه فأنا القريب أجيب من ناداني

حاشا الإله بأن تكيف ذاته فالكيف والتمثيل منتفيان

والأصل أن الله ليس كمثله شيء تعالى الرب ذو الإحسان.

وقال أبو الطيب: حضرت عند أبي جعفر الترمذي (٢٩٥هـ) فسأله سائل عن حديث نزول الرب، فالنزول كيف هو يبقى فوقه علو؟ فقال: «النزول معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

قال الإمام الذهبي معقبا: «صدق فقيه بغداد وعالمها في زمانه، إذ السؤال عن النزول ما هو؟ عي، لأنه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة في اللغة، وإلا فالنزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جلية واضحة للسامع، فإذا اتصف بها من ليس كمثله شيء، فالصفة تابعة للموصوف، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر».

وقد ذكر ابن القيم تسعة وعشرين صحابيًا رووا أحاديث النزول عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال ابن حجر آل بوطامي: "... والحاصل أن حديث النزول حديث صحيح فقد

=

=

رواه نحو من ثمانية وعشرين صحابيًا عن النبي ﷺ واشتملت عليه كتب الإسلام كالبخاري ومسلم ومسند أحمد وموطأ مالك، ورواه علماء الحجاز والعراق، وأطبق على اعتقاد نزوله بلا كيف جميع علماء الأمصار، كالإمام أبي حنيفة ومالك والسفيانين والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وسائر المحدثين والفقهاء، ولم يخالف في ذلك إلا أهل التعطيل والتأويل هدانا الله وإياهم سواء السبيل".

وقد ذهب الخلف إلى تأويل هذه الصفة قائلين: إن المراد من النزول نزول أمره ورحمته، وقد رد عليهم أعلام السلف في ذلك، قال الدارمي في رده على بشر المريسي: "... وهذا أيضًا من حجج النساء والصبيان ومن ليس عنده بيان، ولا لمذهبه برهان، لأن أمر الله ورحمته ينزل في كل ساعة ووقت وأوان..."؟.

وقد حاول المعطلة الاعتراض على أحاديث النزول من وجه آخر قائلين: إن ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان، فلا يمكن أن يكون النزول في وقت معين، ولقد رد عليهم ابن رجب الحنبلي بعد حكاية قولهم قائلًا: "ومعلوم قبح هذا الاعتراض، وأن الرسول ﷺ أو خلفاءه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه، بل بادروا بعقوبته وإلحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين".

مسألة: هل يخلو العرش منه سبحانه حال نزوله.

قدمنا هذه المسألة في باب الإيمان بالعرش.

مسألة: في وقت النزول.

قال المباركفوري في مرعاة المفاتيح (٤/ ٢٢١): اختلف الروايات في تعيين الوقت على ستة أقوال: الأولى هي حين يبقى ثلث الليل الآخر، قال الترمذي: هذا أصح الروايات في ذلك. وقال العراقي: أصحها ما صححه الترمذي. وقال الحافظ: ويقوي ذلك أن الروايات المخالفة له اختلف فيها على رواتها. والثانية:

=

=

حين يمضي الثلث الأول، وهي عند الترمذي ومسلم. والثالثة: حين يبقى نصف الليل الآخر. وفي لفظ: إذا كان شطر الليل. وفي آخر: إذا مضى شطر الليل. الرابعة: ينزل الله تعالى شطر الليل أو ثلث الليل الآخر على الشك أو التنويع. الخامسة: إذا مضى نصف الليل أو ثلث الليل أي الأول. وفي لفظ: إذا ذهب ثلث الليل أو نصفه. والسادسة: الإطلاق ولا تعارض بين رواية من عين الوقت ومن لم يعين، كما هو ظاهر جلي، فالروايات المطلقة تحمل على المقيدة. وأما من عين الوقت، واختلفت ظواهر رواياتهم، فقد صار بعض العلماء إلى الترجيح كالترمذي على ما تقدم، إلا أنه عبر بالأصح، فلا يقتضي تضعيف غير تلك الرواية، وأما القاضي عياض فعبر في الترجيح بالصحيح، فاقتضى ضعف الرواية الأخرى، ورده النووي بأن مسلما رواها في صحيحه بإسناد لا يطعن فيه عن صحابيين، فكيف يضعفها؟ وإذا أمكن الجمع ولو على وجه فلا يصار إلى التضعيف. قال النووي: ويحتمل أن يكون النبي ﷺ أعلم بأحد الأمرين في وقت فأخبر به، ثم أعلم بالآخر في وقت فأعلم به، وسمع أبوهريرة الخبرين جميعا فنقلهما، وسمع أبوسعيد الخدري خبر الثلث الأول فقط فأخبر به-انتهى. وقال الحافظ: أما الرواية التي بأو، فإن كانت أو للشك فالمجزوم به مقدم على المشكوك فيه، وإن كانت للتردد بين حالين فيجمع بين الروايات بأن ذلك يقع بحسب اختلاف الأحوال، لكون أوقات الليل تختلف في الزمان، وفي الآفاق باختلاف تقدم دخول الليل عند قوم، وتأخره عند قوم. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون النزول يقع في الثلث الأول، والقول يقع في النصف وفي الثلث الثاني. وقيل: يحتمل على أن ذلك يقع في جميع الأوقات التي وردت بها الأخبار، ويحمل على أن النبي ﷺ أعلم بأحد الأمور في وقت فأخبر به، ثم أعلم به في وقت آخر فأخبر به، فنقل الصحابة ذلك عنه-انتهى كلام الحافظ. وقال القاري: لا تنافي بين الروايات، لأنه يحتمل أن يكون النزول في

=

=

بعض الليالي هكذا وفي بعضها هكذا، كذا قاله ابن حبان. وقال ابن حجر: ويحتمل أن يتكرر النزول عند الثلث الأول والنصف والثلث الأخير، واختص بزيادة الفضل لحثه على الاستغفار بالأسحار، ولإتفاق الصحيحين على روايته- انتهى.

وقال العلامة الألباني في تمام المنة (ص١٨٢): قوله -أي السيد سابق-:"... النزول الإلهي هل يدوم إلى انقضاء صلاة الصبح أو إلى طلوع الفجر؟ وقد ورد فيه هذا وهذا".

يعني بـ"النزول الإلهي" قوله ﷺ: "ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له؟". وهو حديث صحيح متواتر جاء عن جمع من الصحابة خرجت قسما طيبا منها في "الإرواء" ٤٥٠ و "صحيح أبي داود" ١١١٨ زاد بعضهم: "حتى ينفجر وفي رواية: يطلع الفجر".وقد كنت قلت في "التعليقات الجياد على زاد المعاد": "لكن معظم الرواة اتفقوا على أنه يدوم إلى طلوع الفجر كما قال الحافظ في "الفتح" ٣ / ٢٤ وأما دوامه إلى صلاة الفجر فلم أجد رواية صريحة تؤيد ذلك نعم في رواية للنسائي من حديث أبي هريرة بلفظ: "حتى ترجل الشمس" فهي تتضمن ما ذكره المصنف أي ابن القيم لكنها رواية شاذة كما قال الحافظ". وأقول الآن: لعل الخطأ فيها من محمد بن إسماعيل بن أبي فديك فإنه عند النسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم ٤٨٦ وابن خزيمة في "التوحيد" ص ٨٦ – ٨٧ من طريقه: حدثني ابن أبي ذئب عن القاسم بن عباس عن نافع ابن جبير عن أبي هريرة فإن ابن أبي فديك وإن كان ثقة محتجا به في "الصحيحين" فقد قال فيه ابن سعد: "كان كثير الحديث وليس بحجة" ومن المحتمل أن يكون الخطأ من شيخه القاسم بن عباس فإنه مع كونه ثقة من رجال مسلم أيضا فقد لينه محمد ابن

=

=

البرقي الحافظ وقال ابن المديني: "مجهول" كما في "الميزان". ولعل هذا هو الأقرب فقد خالفه عمرو بن دينار – وهو الثقة الثبت – إسنادا ومتنا فقال عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه مرفوعا بلفظ: "حتى يطلع الفجر" أخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" ص ٨٨ وأحمد ٤ / ٨١ وغيرهما وهو مخرج في كتابي "ظلال الجنة في تخريج السنة" ٥٠٧. ثم وجدت روايتين أخريين:

الأولى: بلفظ: "حتى تطلع الشمس". أخرجه ابن خزيمة أيضا من طريق إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص رفعه. قلت: وهذا مع كونه مرسلا فهو ضعيف من أجل إبراهيم هذا وهو ابن مسلم. قال الحافظ في "التقريب ": "لين الحديث رفع موقوفات".

والأخرى بلفظ: "حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارئ من صلاة الفجر". أخرجه الدارمي ٣٤٦ – ٣٤٧ وابن خزيمة وأحمد ٢ / ٥٠٤ من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعا به. قلت: وهذا مع كونه قد شك فيه الراوي فهو مما لا قيمة له فكيف ومحمد ابن عمرو فيه كلام من قبل حفظه فكيف وقد خالفه الزهري ويحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بلفظ: "حتى الفجر". بغير شك. رواه مسلم وغيره. وبالجملة فلا يصح في الحديث إلا هذا اللفظ الأخير وعليه كل الروايات الصحيحة فيه. والله سبحانه وتعالى أعلم ا.هـ

وقال شيخ الإسلام في شرح حديث النزول (ص١٠٧): وإذا كان كذلك ـ والنزول المذكور في الحديث النبوي على قائله أفضل الصلاة والسلام الذي اتفق عليه الشيخان: البخاري ومسلم، واتفق علماء الحديث على صحته: هو " إذا بقي ثلث الليل الآخر "وأما رواية "النصف والثلثين" فانفرد بها مسلم في بعض طرقه، وقد قال الترمذي: إن أصح الروايات عن أبي هريرة: "إذا بقي ثلث الليل الآخر". وقد روي عن النبي ﷺ من رواية جماعة كثيرة من الصحابة كما ذكرنا قبل هذا؛ فهو

=

=

حديث متواتر عند أهل العلم بالحديث، والذي لا شك فيه إذا بقي ثلث الليل الآخر.

فإن كان النبي ﷺ قد ذكر [النزول] أيضًا إذا مضى ثلث الليل الأول وإذا انتصف الليل؛ فقوله حق وهو الصادق المصدوق، ويكون النزول أنواعًا ثلاثة: الأول إذا مضى ثلث الليل الأول، ثم إذا انتصف وهو أبلغ، ثم إذا بقي ثلث الليل، وهو أبلغ الأنواع الثلاثة.

ولفظ " الليل والنهار " في كلام الشارع إذا أطلق، فالنهار من طلوع الفجر، كما في قوله سبحانه وتعالى: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ} [هود: ١١٤]، وكما في قوله ﷺ: "صم يومًا وأفطر يومًا " وقوله: "كالذي يصوم النهار ويقوم الليل " ونحو ذلك، فإنما أراد صوم النهار من طلوع الفجر، وكذلك وقت صلاة الفجر، وأول وقت الصيام بالنقل المتواتر المعلوم للخاصة والعامة والإجماع الذي لا ريب فيه بين الأمة، وكذلك في مثل قوله ﷺ: "صلاة الليل مَثْنَى مَثْنَى، فإذا خِفْتَ الصبح فأوتر بركعة". ولهذا قال العلماء ـ كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ـ: إن صلاة الفجر من صلاة النهار.

وأما إذا قال الشارع ﷺ: "نصف النهار " فإنما يعني به النهار المبتدئ من طلوع الشمس، لا يريد قط ـ لا في كلامه ولا في كلام أحد من علماء المسلمين بنصف النهار ـ النهار الذي أوله من طلوع الفجر؛ فإن نصف هذا يكون قبل الزوال؛ ولهذا غلط بعض متأخري الفقهاء ـ لما رأى كلام العلماء أن الصائم المتطوع يجوز له أن ينوي التطوع قبل نصف النهار؛ وهل يجوز له بعده؟ على قولين هما روايتان عن أحمد ـ ظن أن المراد بالنهار هنا نهار الصوم الذي أوله طلوع الفجر. وسبب غلطه في ذلك أنه لم يفرق بين مسمى النهار إذا أطلق، وبين مسمى نصف النهار، فالنهار الذي يضاف إليه نصف في كلام الشارع وعلماء أمته هو من طلوع الشمس،

=

=

والنهار المطلق في وقت الصلاة والصيام من طلوع الفجر.

والنبي ﷺ لما أخبر بالنزول إذا بقي ثلث الليل، فهذا الليل - المضاف إليه الثلث يظهر أنه من جنس النهار المضاف إليه النصف - وهو الذي ينتهي إلى طلوع الشمس، وكذلك لما قال النبي ﷺ: "وقت العشاء إلى نصف الليل " أو " إلى الثلث "، فهو هذا الليل. وكذلك الفقهاء إذا أطلقوا ثلث الليل ونصفه؛ فهو كإطلاقهم نصف النهار. وهكذا أهل الحساب لا يعرفون غير هذا.

وقد يقال: بل هو الليل المنتهي بطلوع الفجر كما في الحديث الصحيح: "أفضل القيام قيام داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه". واليوم المعتاد المشروع إلى طلوع الشمس بل إلى طلوع الفجر. فإن كان المراد بالحديث هذا، وحينئذ فإذا قدر ثلث الليل في أول المشرق يكون قبل طلوع الشمس عليهم بأربع ساعات، وقد قال النبي ﷺ: "ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفرله؟ حتى يطلع الفجر". فقد أخبر بدوامه إلى طلوع الفجر، وفي رواية: (إلى أن ينصرف القارئ من صلاة الفجر). وقد قال تعالى: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: ٧٨] تشهده ملائكة الليل والنهار، وقد قيل: يشهده الله وملائكته.

وإذا كان هذا النزول يدوم نحو سدس عند أولئك، فهكذا هو عند كل قوم إذا مضى ثلثًا ليلهم يدوم عندهم سدس الزمان، وأما النزول الذي في النصف أو الثلثين، فإنه يدوم ربع الزمان أو ثلثه، فهو أكثر دوامًا من ذلك. وإن أريد الليل المنتهي بطلوع الشمس، كان وقت النزول أقل من ذلك فيكون قريبًا من ثمن الزمان وتُسعه، وعلى رواية النصف والثلث يكون قريبًا من سدسه وربعه وأكثر من ذلك.

=

=

ومعلوم أن زمن ثلث ليل البلد الشرقي قبل ثلث ليل البلد الغربي كما قد عرف، والعمارة طولها اثنتا عشرة ساعة، مائة وثمانون درجة، فلو قدر أن لكل مقدار ساعة ـ وهو خمس عشرة درجة من المعمور ـ ثلثا غير ثلث مقدار الساعة الأخرى، لكان المعمور ستة وثلاثين ثلثًا، والنزول يدوم في كل ثلث مقدار سدس الزمان، فيلزم أن يكون النزول يدوم ليلًا ونهارًا، أنه يدوم بقدر الليل والنهار ست مرات، إذا قدر أن لكل طول ساعة من المعمور ثلثًا فكيف النزول الإلهي إلى السماء الدنيا لدعاء عباده الساكنين في الأرض؟

فكل أهل بلد من البلاد يبقي نزوله ودعاؤه لهم: هل من سائل؟ هل من داع؟ هل من مستغفر؟ سدس الزمان، والبلاد من المشرق إلى المغرب كثيرة. والإسلام ـ ولله الحمد ـ قد انتشر من المشرق إلى المغرب، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (زُوِيَتْ لي الأرض، مشارقها ومغاربها، وسَيَبْلُغ مُلْكُ أمتي ما زُوِي لي منها) [وقوله: (زُوِيَتْ): أي جُمِعت]. وإنما ذكرنا هذا؛ لأنه قد يقال: إن هذا [النزول، والدعاء] إنما هو لعباده المؤمنين الذين يعبدونه ويسألونه ويستغفرونه؛ كما أن [نزول عَشِيَّةعَرَفَة] إنما هو لعباده المؤمنين الذين يحجون إليه، وكما أن رمضان إذا دخل فتحت أبواب الجنة لعباده المؤمنين الذين يصومون رمضان، وعنهم تغلق أبواب النار، وتُصَفَّد [أي: تُوثق وتُقيَّد]. شياطينهم، وأما الكفار الذين يستحلون إفطار شهر رمضان ولا يرون له حرمة ومزية فلا تفتح لهم فيه أبواب الجنة ولا تغلق عنهم فيه أبواب النار، ولا تصفد شياطينهم.

وليس المقصود هنا بسط هذا المعنى، بل المقصود أن النزول إن كان خاصًا بالمؤمنين، فهم ـ ولله الحمد ـ من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وإن كان عامًا؛ فهو أبلغ، فعلى كل تقدير لابد أن يدوم النزول الإلهي على أهل كل بلد مقدار سدس الزمان أو أكثر. فإنه إذا قيل: ليل صيفهم قصير، قيل: وليل شتائهم

=

=

طويل، فيعادل هذا هذا، وما نقص من ليل صيفهم زيد في ليل شتائهم؛ ولهذا جاء في الأثر: (الشتاء ربيع المؤمن؛ يصوم نهاره، ويقوم ليله).

وإذا كان كذلك، فلو كان النزول كما يتخيله بعض الجهال من أنه يصير تحت السموات وفوق السماء الدنيا وتحت العرش مقدار ثلث الليل على كل بلد، لم يكن اللازم أنه لا يزال تحت العرش وتحت السموات فقط؛ فإن هذا إنما يكون وحده هو اللازم إذا كان كل سدس من المعمور لهم كلهم ثلث واحد، وكان المجموع ستة أثلاث، فإذا قدر بقاؤه على هؤلاء مقدار ثلث، ثم على هؤلاء الآخرين مقدار ثلث، لزم ألا يزال تحت العرش، أو تحت السموات، أو حيث تخيل الجاهل أن الله محصور فيه، فلا يكون قط فوق العرش.

وأما إذا كان لكل بلد ثلث غير الثلث الآخر، وأن أول كل بلد بعد الثلث الآخر، يقدر ما بينهما، وكذلك آخر ثلث ليل البلد الشرقي ينقضي قبل انقضاء ثلث ليل البلد الغربي، وأيضًا، إن كانت مداخلة، فلابد أن يدوم النزول على كل بلد ثلث ليلهم إلى طلوع فجرهم، فيلزم من ذلك أن يقدر أثلاث بقدر عدد البلاد.

وأيضًا، فكما أن ثلث الليل يختلف بطول البلد، فهو يختلف بعرضها أيضًا. فكلما كان البلد أدخل في الشمال، كان ليله في الشتاء أطول، وفي الصيف أقصر. وما كان قريبًا من خط الاستواء يكون ليله في الشتاء أقصر من ليل ذاك وليله في الصيف أطول من ليل ذاك، فيكون ليلهم ونهارهم أقرب إلى التساوي.

وحينئذ، فالنزول الإلهي لكل قوم هو مقدار ثلث ليلهم، فيختلف مقداره بمقادير الليل في الشمال والجنوب، كما اختلف في المشرق والمغرب. وأيضًا، فإنه إذا صار ثلث الليل عند قوم، فبعده بلحظة ثلث الليل عند ما يقاربهم من البلاد، فيحصل النزول الإلهي الذي أخبر به الصادق المصدق - أيضًا - عند أولئك إذا بقي ثلث ليلهم، وهكذا إلى آخر العمارة.

=

=

فلو كان كما توهمه الجاهل، من أنه يكون تحت العرش، وتكون فوقه السماء وتحته السماء؛ لكان هذا ممتنعًا من وجوه كثيرة:

منها: أنه لا يكون فوق العرش قط بل لا يزال تحته، ومنها: أنه يجب على هذا التقدير أن يكون الزمان بقدر ما هو مرات كثيرة جدًا ليقع كذلك، ومنها: أنه مع دوام نزوله إلى سماء هؤلاء إلى طلوع فجرهم، إن أمكن مع ذلك، أن يكون قد نزل على غيرهم أيضًا، ممن ثلث ليلهم يخالف ثلث هؤلاء في التقديم والتأخير والطول والقصر.

فهذا خلاف ما تخيلوه، فإنهم لا يمكنهم أن يتخيلوا نازلًا كنزول العباد، من يكون نازلا على سماء هؤلاء ثلث ليلهم، وهو ـ أيضًا ـ في تلك الساعة نازلًا على سماء آخرين، مع أنه يجب أن يتقدم على أولئك أو يتأخر عنهم، أو يزيد أو يقصر.

وحكى عن بعض الجهال أنه قيل له: فالسموات كيف حالها عند نزوله؟ قال: يرفعها، ثم يضعها، وهو قادر على ذلك. فهؤلاء الذين يتخيلون ما وصف رسول الله ﷺ به ربه أنه مثل صفات أجسامهم، كلهم ضالون، ثم يصيرون قسمين:

قسم علموا أن ذلك باطل، وظنوا أن هذا ظاهر النص ومدلوله، وأنه لا يفهم منه معنى إلا ذلك، فصاروا: إما أن يتأولوه تأويلًا يحرفون به الكلم عن مواضعه. وإما أن يقولوا: لا يفهم منه شيء، ويزعمون أن هذا مذهب السلف.

ويقولون: إن قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ} [آل عمران: ٧] يدل على أن معنى المتشابه لا يعلمه إلا الله، والحديث منه متشابه ـ كما في القرآن ـ وهذا من متشابه الحديث، فيلزمهم أن يكون الرسول الذي تكلم بحديث النزول لم يَدْرِ هو ما يقول، ولا ما عنى بكلامه ـ وهو المتكلم به ابتداء. فهل يجوز لعاقل أن يظن هذا بأحد من عقلاء بني آدم؟ ! فضلًا عن الأنبياء! فضلا عن أفضل الأولين والآخرين، وأعلم الخلق، وأفصح الخلق، وأنصح الخلق للخلق ﷺ؟ ! وهم مع

=

=

ذلك يدعون أنهم أهل السنة، وإن هذا القول الذي يصفون به الرسول وأمته هو قول أهل السنة.

ولا ريب أنهم لم يتصوروا حقيقة ما قالوه ولوازمه. ولو تصوروا ذلك لعلموا أنه يلزمهم ما هو من أقبح أقوال الكفار في الأنبياء، وهم لا يرتضون مقالة من ينتقص النبي ﷺ، ولو تنقصه أحد لاستحلوا قتله. وهم مصيبون في استحلال قتل من يقدح في الأنبياء عليهم السلام، وقولهم يتضمن أعظم القَدْح؛ لكن لم يعرفوا ذلك. ولازم القول ليس بقول، فإنهم لو عرفوا أن هذا يلزمهم ما التزموه.

وقسم ثان، من الممثلين لله بخلقه، لما رأوا أن قول هؤلاء منكر، وأن قول الرسول ﷺ حق، قالوا مثل تلك الجهالات: من أنه تصير فوقه سماء وتحته سماء، أو أن السموات ترتفع ثم تعود، ونحو ذلك مما يظهر بطلانه لمن له أدنى عقل ولُبٍّ.

وقد سئل علماء اللجنة الدائمة (٣/ ١٨٦): جرى بيني وبين أحد المثقفين في علومهم الحديثة من مدرسي الجامعة أبيدجان ساحل العاج حيث يقول « إن ربكم ينزل إلى السماء الدنيا في آخر كل ليلة » قلت له بلا شك، وقرأت الحديث له، وقال إن ثبت ذلك معناه أن ربكم لم يستقر على العرش كما هو في القرآن {عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ؛ لأن آخر الليل لم تزل على بقعة من الأرض من بقعاتها حسب دورانها حول نفسها بقدرة الله تعالى حتى تقوم الساعة فتوقفت وسكت؟

فأجابوا: لا تعارض بين نزوله تعالى إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من كل ليلة مع اختلاف الأقطار وبين استوائه ﷻ على العرش؛ لأنه سبحانه لا يشبه خلقه في شيء من صفاته، ففي الإمكان أن ينزل كما يشاء نزولا يليق بجلاله في ثلث الليل الأخير بالنسبة إلى كل قطر، ولا ينافي ذلك علوه واستواءه على العرش؛ لأننا في ذلك لا نعلم كيفية النزول ولا كيفية الاستواء، بل ذلك مختص به سبحانه، بخلاف المخلوق فإنه يستحيل في حقه أن ينزل في مكان ويوجد بمكان آخر في

=

=

تلك اللحظة كما هو معلوم إلا الله ﷻ فهو على كل شيء قدير، ولا يقاس ولا يمثل بهم؛ لقوله ﷻ: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} وقوله سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ومما ذكرناه يتضح لك أنه لا تعارض بين نزوله واستوائه، وأن اختلاف الأقطار لا يؤثر في ذلك ا.هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: فضيلة الشيخ! حفظكم الله! حديث نزول ربنا إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخِر، وذلك في كل ليلة؛ ولكن ثلث الليل يختلف من مدينة إلى أخرى، ومن دولة إلى أخرى، حتى قد يكون كل اليوم فيه فترة الثلث هذه، فهل ذلك يقتضي أن يكون دائمًا في النزول؟

فأجاب: أظننا يا أخي لم نقم من مكاننا الذي نهيناكم فيه عن التحدث بمثل هذه الأمور. فإذا كنتَ في بلد وأنت في ثلث الليل الآخر فآمن بأن الله نزل إلى السماء الدنيا، وإذا كنت في بلد في غير هذا الوقت فلا نزول. مثلًا: بالنسبة لنا هنا فنحن في قبيل الظهر، وليس فيه نزول؛ لكن إذا جئنا إلى جهات أخرى وهم في ثلث الليل الآخر نقول: ثبت النزول، والله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ في جميع صفاته. فالسؤال هذا سؤال متنطِّع، يجب على صاحبه أن يؤمن بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة، وفي كل مكان، أما أن تقول: يبقى دائمًا نازلًا فهذا ليس بصحيح. فأرى أن تبقي هذه الإجابة في جيبك وألا تخرجها، فمتى كنتَ في ثلث الليل الآخِر فالرب نازل، ومتى كنتَ في غير هذا الوقت فالرب غير نازل وانتهى الموضوع؛ لأن صفات الله ليست كصفات المخلوق، فالآن نحن نؤمن بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا، ونؤمن بأنه فوق كل شيء، فهل يُتَصَوَّر هذا في المخلوق أن ينزل إلى مكانٍ نازلٍ، وهو فوق كل شيء؟! ومع ذلك نحن نؤمن بأن الله فوق كل شيء، وأنه نازلٌ، وأن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ولا نقول أيضًا: كيف يكون العبد أقرب إلى ربه وهو ساجد، وهو فوق عرشه؟!

=

=

فنقول: هذا إنما يورد إذا ما تصورنا أن صفات الخالق كصفات المخلوقين. فنصيحتي لكم -يا إخواننا- أن لا تتعرضوا لمثل هذه الأشياء؛ لأن الله أعظم وأجل من أن تدركه العقول أو الأبصار، (قل: آمنتُ بالله) وقل: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى:١١] وانتهى الموضوع. فإذا عُرِضَت عليك مثل هذه المسائل؛ لأن هذا يَعْرِض على بعض الناس، فيظن بعقله أن نزول الخالق كنزول المخلوق، فنقول: آمِن بما جاء به النص ولا تتعداه، ولا تورد أسئلة حوله.

مسألة: الرد على الشبهات الواردة على صفة النزول.

قبل البدء بذكر الشبهات الواردة على حديث النزول والرد عليها أذكر كلاما نفيسا يزيل كثيرا من الشبهات في هذا الباب وغيره.

اعلم رحمك الله بأن صفات الله لا يتوهم فيها شيء من خصائص المخلوقين لا في لفظها ولا في ثبوت معناها. فإثباتها للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل تثبت له على وجه لا يماثل فيها خلقه، ولا يشابههم، فمن نفاها عنه لإطلاقها على المخلوق ألحد في أسمائه، وجحد صفات كماله. ومن أثبتها على وجه يماثل فيها خلقه فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أثبتها له على وجه لا يماثل فيها خلقه، بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد برىء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

فما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء والمرض والموت، وكذلك علمه محفوف بنقصين: جهل سابق، ونسيان لاحق؛ وكذلك ما يلزم إرادته عن حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلى ما هو عال عليه وكونه محمولا به مفتقرا إليه محاطا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام -تبارك وتعالى-.

=

=

فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرا وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين، آفة التعطيل وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة، فخلصت من التعطيل ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم فخلصت من التشبيه.

فعليك بمراعاة هذا الأصل والاعتصام به، واجعله جنتك التي ترجع إليها في كل ما يطلق على الرب تعالى وعلى العبد.

وبعد هذا الكلام النفيس نذكر شبهات القوم ونأتي عليها من القواعد بإذن العلي الأعلى الكبير المتعال سبحانه وتعالى.

الشبهة الأولى:

الليل ينتقل من مكان إلى آخر فثلث الليل مثلا في الشرق ينتقل حتى يكون في الغرب، ويختلف الزمن فكيف نوفق بين هذا وبين تقييد نزول الله ﷻ بثلث الليل؟

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض، وأن الرسول ﷺ وخلفاءه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه، بل بادروا إلى عقوبته وإلحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين.

وقال شيخ الإسلام؟: وهذا إنما قالوه لتخيلهم من نزوله ما يتخيلونه من نزول أحدهم، وهذا عين التمثيل، ثم إنهم بعد ذلك جعلوه كالواحد العاجز منهم، الذي لا يمكنه أن يجمع من الأفعال ما يعجز غيره عن جمعه، وقد جاءت الأحاديث بأنه يحاسب خلقه يوم القيامة كل منهم يراه مخليا به يتجلى ويناجيه، لا يرى أنه متخليا لغيره ولا مخاطبا لغيره، وقد قال النبي ﷺ: «إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين يقول الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى علي عبدي».

فكل من الناس يناجيه، والله تعالى يقول لكل منهم ذلك، ولا يشغله شأن عن

=

=

شأن.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: والليل يختلف فيكون ثلثه بالمشرق قبل أن يكون ثلثه بالمغرب، ونزوله الذي أخبر به رسوله ﷺ إلى السماء هؤلاء في ثلث ليلهم، وإلى السماء هؤلاء في ثلث ليلهم، لا يشغله شأن عن شأن، وكذلك قربه من الداعي المتقرب إليه والساجد لكل واحد بحسبه حيث كان وأين كان. والرجلان يسجدان في موضع واحد ولكل واحد قرب يخصه لا يشركه فيه الآخر. والنصوص الواردة فيها الهدى والشفاء، والذي بلغها بلاغا مبينا، هو أعلم الخلق بربه وأنصحهم لخلقه وأحسنهم بيانا، وأعظم بلاغا، فلا يمكن أحد أن يعلم ويقول مثل ما علمه الرسول ﷺ وقاله. وكل من من الله عليه ببصيرة في قلبه تكون معه معرفة بهذا، قال تعالى: {ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴿٦﴾} [سبأ: ٦]. وقال في ضدهم: {والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴿٣٩﴾} [الأنعام: ٣٩].

وقال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: وأورد المتأخرون الذين عرفوا أن الأرض كروية وأن الشمس تدور على الأرض إشكالا؛ قالوا: كيف ينزل في ثلث الليل؟! وثلث الليل إذا انتقل عن المملكة العربية السعودية، ذهب إلى أوروبا وما قاربها؟! أفيكون نازلا دائما؟!.

فنقول: إنه لا إشكال في ذلك بحمد الله تعالى، فإن هذا الحديث من صفات الله تعالى الفعلية، والواجب علينا نحو صفات الله تعالى سواء كانت ذاتية كالوجه واليدين، أم معنوية كالحياة والعلم، أم فعلية كالاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا، فالواجب علينا نحوها ما يلي:

أ - الإيمان بها على ما جاءت به النصوص من المعاني والحقائق اللائقة بالله

=

=

تعالى.

ب - الكف عن محاولة تكييفها تصورا في الذهن، أو تعبيرا في النطق؛ لأن ذلك من القول على الله تعالى بلا علم، وقد حرمه الله تعالى في قوله: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿﴾} [الأعراف: ٣٣]، وفي قوله تعالى: {ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴿﴾} [الإسراء: ٣٦].

ولأن الله تعالى أعظم وأجل من أن يدرك المخلوق كنه صفاته وكيفيتها، ولأن الشيء لا يمكن إدراكه إلا بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو الخبر الصادق عنه، وكل ذلك منتف بالنسبة لكيفية صفات الله تعالى.

ج - الكف عن تمثيلها بصفات المخلوقين سواء كان ذلك تصورا في الذهن أم تعبيرا في النطق، لقوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: ١١].

فإذا علمت هذا الواجب نحو صفات الله تعالى، لم يبق إشكال في حديث النزول، ولا غيره من صفات الله تعالى، وذلك أن النبي ﷺ أخبر أمته أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، مخاطبا بذلك جميع أمته في مشارق الأرض ومغاربها، وخبره هذا من علم الغيب الذي أظهره الله تعالى عليه، والذي أظهره عليه - وهو الله تعالى - عالم بتغير الزمن على الأرض، وأن ثلث الليل عند قوم يكون نصف النهار عند آخرين مثلا.

وإذا كان النبي ﷺ يخاطب الأمة جميعا بهذا الحديث الذي خصص فيه نزول الله تبارك وتعالى بثلث الليل الآخر فإنه يكون عاما لجميع الأمة، فمن كانوا في الثلث الآخر من الليل تحقق عندهم النزول الإلهي، وقلنا لهم: هذا وقت نزول الله تعالى

=

=

بالنسبة إليكم، ومن لم يكونوا في الوقت فليس ثم نزول الله تعالى بالنسبة إليهم، والنبي ﷺ حدد نزول الله تعالى إلى السماء الدنيا بوقت خاص، فمتى كان ذلك الوقت كان النزول ومتى انتهى انتهى النزول، وليس في ذلك أي إشكال، وهذا وإن كان الذهن قد لا يتصوره بالنسبة إلى نزول المخلوق، لكن نزول الله تعالى ليس كنزول خلقه حتى يقاس به ويجعل ما كان مستحيلا بالنسبة إلى المخلوق مستحيلا بالنسبة إلى الخالق.

فمثلا: إذا طلع الفجر بالنسبة إلينا وابتدأ ثلث الليل بالنسبة إلى من كانوا غربا قلنا: إن وقت النزول الإلهي بالنسبة إلينا قد انتهى، وبالنسبة إلى أولئك قد ابتدأ، وهذا في غاية الإمكان بالنسبة إلى صفات الله تعالى، فإن الله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: ١١].

وقال الشيخ محمد بن خليل الهراس رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعطلة يشككون في حديث النزول، ويقولون: إن علم الهيئة أثبت أن الأرض في دورانها حول الشمس - وحول نفسها - تحدث مشارق ومغارب في كل لحظة، ومعنى هذا أنه في كل لحظة يكون هناك ثلث ليل آخر على سطح الأرض، وهذا يقتضي أن يكون الله عَزَّ وَجَلَّ صاعدا نازلا في كل لحظة، ونحن نقول لهؤلاء: إن الخبر قد صح رغم أنوفكم، وكلامكم هذا ليس طعنا في صحة الخبر، ولكنه تجهيل للرسول ﷺ وإلحاد في حديثه».

وهذا القول هو ما يجب أن يكون في نفس كل أحد، وهو أن لا يتشرب بدع المبتدعين وتضليلاتهم، بل يعتصم بالكتاب والسنة، ويؤمن بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ مما صح عنه، وستكون هذه الخيالات والوساوس التي يلقونها، أوهن عنده من بيت العنكبوت، وإن لم يعرف الرد على كلامهم بالتفصيل، ويكون قائلا بلسان حاله ومقاله: آمنت بما جاء عن الله على مراد الله، وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ، وما أجده في عقلي من وساوس أرمي به عرض

=

=

الحائط ولا أبالي. فالله تعالى أعلم بنفسه من غيره، ورسوله أعلم بربه مما سواه، وأخشاهم له، وأفصحهم وأبلغهم وأعظمهم بيانا للمعنى الذي يريد أن يعلمهم إياه. فإذا قلنا: كلامه لا بد من صرفه عن ظاهره لكنا قد طعنا إما في نصحه وحرصه على أمته، وإما في بيانه وفصاحته، وإما في علمه بربه، وكل منها باطل وكاف في الطعن فيه ﷺ، حاشاه من ذلك.

والله تعالى يثبتنا على الحق ويعصمنا من الزيغ والبدع والرد على رسول الله ﷺ إلى أن نلقاه إنه هو البر الرحيم.

الشبهة الثانية: قال الرازي: «إن كان المقصود من النزول من العرش إلى السماء الدنيا أن يسمع نداؤه، فهذا المقصود ما حصل، وإن كان المقصود مجرد النداء، سواء سمعناه أو لم نسمعه، فهذا مما لا حاجة فيه إلى النزول من العرش إلى السماء الدنيا، بل كان يمكنه أن ينادينا وهو على العرش، ومثاله: أن يريد من في المشرق إسماع من في المغرب ومناداته، فيتقدم إلى جهة المغرب بأقدام معدودة، ثم يناديه، وهو يعلم أنه لا يسمعه البتة، فههنا تكون تلك الخطوات عملا باطلا، وعبثا فاسدا، فيكون كفعل المجانين، فعلمنا أن ذلك غير لائق بحكمة الله تعالى».

إن هذا الكلام تلبيس على العوام، وتمويه على الجهال، وكذب ظاهر.

والرد عليه من وجوه.

الوجه الأول:

هذا الكلام يعتبر مصادمة صريحة لقول رسول الله ﷺ واعتراض واضح عليه، فإنه هو الذي قال: «ينزل ربنا – تبارك وتعالى – إلى سماء الدنيا كل ليلة ويقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له».

وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفاء الشيطان وأتباعه فنعوذ بالله من الخذلان، نسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء الذي ما رمي العبد

=

=

بشر منه، وأن يلقى الله بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراك به أسلم له من أن يلقى الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه. وهل طرد الله تعالى إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس ثم قدمه عليه؟ والله يعلم أن شبه عدو الله مع كونها داحضة باطلة أقوى من كثير من شبه المعارضين لنصوص الأنبياء بآرائهم وعقولهم، فالعالم يتدبر سر تكرير الله تعالى لهذه القصة مرة بعد مرة، وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس وهو لا يشعر.

الثاني: قوله: «إن كان المقصود من النزول من العرش إلى السماء الدنيا أن يسمع نداؤه، فهذا المقصود ما حصل».

فيقال: لو كان ذلك هو المقصود لسمعناه، فإنه تعالى على كل شيء قدير؛ وإنما المقصود من النداء حكم عظيمة يعلمها الله - جل وعلا - ونحن وإن لم نسمع كلام الله تعالى هذا بآذاننا، إلا أنا آمنا بذلك حتى لكأن القائم في ذلك الوقت - الثلث الأخير - كأنه يسمع أنه تعالى ينادي بذلك النداء، وذلك لعلمنا أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وهذا الخبر قد تواتر عنه ﷺ، ومن الحكم التي نعلمها من هذا النداء العظيم: هو إقبال العبد بكليته على ربه في هذا الوقت، والإلحاح عليه في الدعاء، والشعور بقربه وفضله، فيجد قائم الليل من حلاوة المناجاة، وطيب الذكر واليقين بإجابة الدعاء ما لا يجده في غير هذا الوقت، يعلم ذلك ضرورة قوام الليل، ولذلك فإن قوام الليل يكثرون من الاستغفار والذكر والدعاء في وقت السحر أشد مما قبله، لعلمهم أن وقت النزول يمتد إلى طلوع الفجر، ولذلك ينتظر عباد الرحمن تلك الساعات القليلة بفارغ الصبر.

الثالث: أنه من عادة الملوك الكرماء، والسادة الرحماء، إذا أرادوا أن يكرموا أهل

=

=

بلد، أن يحلوا عليهم قريبا من بلادهم، أو في ديارهم، ليكرموهم بما يريدون، ويسمعوا حاجاتهم، ويلبوا رغباتهم، ولو عرضنا على العقل ملكين أرادا أن يكرما أهل بلد، أحدهما جاء إلى أهل هذا البلد بنفسه وسمع حاجاتهم، وأكرمهم في بلادهم، ولبى طلباتهم، والآخر أرسل أحد وزرائه أو أرسل رسالة مع أحد جنوده، بما يريد أن يكرمهم به، لقطع العقل بأن الأول أكرم وأجل وأعظم في الإكرام، ومن المعلوم أن كل كمال في المخلوق لا نقص فيه بوجه من الوجوه فالخالق أولى به، وواهب الكمال أحق به، فالرب تعالى، ينزل بنفسه إلى أدنى سماء وهي السماء الدنيا، وهو فوق عرشه، وهي أقرب السموات إلى قوام الليل، ويقول: «لا أسأل عن عبادي أحدا غيري»، فهل هذا إلا عين الكمال، مع أنه تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: ١١].

فما أجهل الإنسان بربه، وبكرمه، وبعظم فضله، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

وبهذا يعلم أن قوله: بل كان يمكنه أن ينادينا وهو على عرشه، سوء أدب مع الله تعالى.

الرابع: أن هؤلاء المعطلة كلهم أنكروا أن يكون لله تعالى كلام بحرف وصوت! فكيف يمكن لهم أن يسمعوا نداء الله تعالى؟! وكيف يقرع صوت الله تعالى أسماعهم؟! لأنهم قائلون ببدعة الكلام النفسي الذي ليس بحرف ولا بصوت فهم أبشع حالا وأشنع بدعة في باب تعطيل صفة الكلام من الجهمية الأولى؛ لأن الجهمية الأولى كانوا يقولون ببدعة خلق القرآن فقط، وأما هؤلاء المعطلة فهم يقولون مع القول ببدعة خلق القرآن، ببدعة القول بالكلام النفسي. فخرقوا بذلك إجماع أهل السنة، وأتوا بما لا يقره عقل صريح، ولا نقل صحيح، ولا لغة، ولا عرف ولا إجماع.

=

=

الخامس:

أن هؤلاء المعطلة لكثير من الصفات ولا سيما صفة النزول، قد أولوا حديث النزول وحرفوه إلى: نزول الملك، فيقولون: إن الله لا ينزل بنفسه، بل ينزل ملك من الملائكة بأمره، فينادي هذا الملك ويقول: «من يدعوني.. ، من يسألني... ، من يستغفرني...".

أقول: إذا كان الأمر كذلك، وأن الملك ينزل وينادي فهل أهل التأويل سمعوا نداء هذا الملك؟!

وهل طرق صوت هذا الملك الذي ينزل وينادي أسماعهم؟!

وإذا لم يسمعوا نداء هذا الملك، فأي فائدة من نزول هذا الملك وندائه؟!

ونحن نقلب كلامهم عليهم ونقول لهم: وإذا كان نزول هذا الملك من السماء الدنيا ليسمعنا نداءه، فهذا الملك لم يسمعنا نداءه وصوته، فأي فائدة من نزوله.

ولقد كان يمكن هذا الملك أن ينادينا وهو في السماء.. ، وهل هذا إلا مثل من يريد - وهو بالمشرق - إسماع شخص في المغرب، فتقدم إلى المغرب بخطوات معدودة، وأخذ يناديه، وهو يعلم أنه لا يسمع نداءه، فيكون نقله الأقدام عملا باطلا، وسعيه نحو المغرب عبثا صرفا، لا فائدة فيه، وكيف يستقر مثل هذا في قلب عاقل؟

وقد سد هؤلاء المؤولة على الناس طريق معرفة ربهم ﷻ، فحرموهم من خير عظيم، بل من أعظم علم في الوجود، فالله الموعد.

الشبهة الثالثة النزول نقلة والنقلة من خصائص الأجسام، فيلزمها لوازم تمتنع في حق الله تعالى.

لا تغتر أيها الناظر بهذه التلفيقات المزوقة، والكلمات المدبجة، والعبارات المبهرجة. فإنها كلمات خالية من التحقيق عارية من التوفيق.

=

=

والرد على الشبهة المذكورة من وجوه:

الوجه الأول: نقول: هذا جدال بالباطل لا يرتضيه من هو عارف بكيفية الاستدلالات، وعالم بمدارك الشرع والمدلولات، «وليس بمانع من القول بحقيقة النزول!!

هل أنتم أعلم بما يستحقه الله ﷻ من أصحاب الرسول ﷺ؟!

فليس إجلالنا لله كإجلال الصحابة ولا قريبا منه.

وليس حرصنا على العلم بصفات الله كحرص الصحابة، وهم ما قالوا هذه الاحتمالات أبدا، قالوا: سمعنا وآمنا وقبلنا وصدقنا.

وأنتم أيها الخالفون المخالفون تأتون الآن وتجادلون بالباطل وتقولون: كيف؟! وكيف؟!»

الوجه الثاني: إن الرسول ﷺ أعلم الخلق بالحق، وأنصح الخلق للخلق، وأفصح الخلق في بيان الحق، وأحرص الخلق على هداية الخلق، فما بينه من أسماء الله وصفاته هو الغاية في هذا الباب «فإذا كان كذلك كان المتحذلق والمنكر عليه من أضل الناس، وأجهلهم وأسوئهم أدبا، بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يصان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة، والاعتقادات الفاسدة»

الوجه الثالث: ليس في القول بلازم النزول محذور البتة، ولا يستلزم ذلك نقصا ولا سلب كمال، بل هو الكمال نفسه. وهذه الأفعال كمال ومدح، فهي حق دال عليه النقل، ولازم الحق حق.

وقولنا: إنه نزول لا محذور فيه، فإنه ليس كانتقال الأجسام من مكان إلى مكان كما قلتم: إن سمعه وبصره وحياته وقدرته وإرادته ليست كصفات الأجسام، فليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ونحن لم نتقدم بين يدي الله ورسوله، بل أثبتنا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله

=

=

ﷺ. فألزمتم أنتم من أثبت ذلك القول بالانتقال، ومعلوم أن هذا الإلزام إنما هو إلزام لله ورسوله، فإنا لم نتعد ما وصف به نفسه، فكأنكم قلتم: من أثبت له نزولا لزمه وصفه بالانتقال، والرسول ﷺ هو الذي أثبت ذلك لله فهو حق بلا ريب.

فكان جوابنا: إن الانتقال إن لزم من إثبات ما أثبته الله تعالى ورسوله ﷺ، فلا بد من إثباته ضرورة، إذ لازم الحق حق، وإن لم يكن ذلك لازما له، فأنتم معترضون على النبي ﷺ كاذبون عليه، متقدمون بين يديه، فبطل إلزامكم.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا نسلم لزومه؛ فإن نزوله ليس كنزول المخلوقين، ولهذا نقل عن جماعة من الأئمة: أنه ينزل، ولا يخلو منه العرش.

وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصواب في حديث النزول ونحوه ما قاله مالك وأقرانه يمر كما جاء بلا كيفية، ولازم الحق حق، ونفي الانتقال وإثباته عبارة محدثة، فإن ثبتت في الأثر رويناها ونطقنا بها، وإن نفيت في الأثر نطقنا بالنفي، وإلا لزمنا السكوت وآمنا بما ثبت في الكتاب والسنة على مقتضاه.

وقال شيخ الاسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص. فالألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة في الإثبات تثبت، والتي جاءت بالنفي تنفى. والألفاظ المجملة كلفظ «الحركة» و «النزول» و «الانتقال» يجب أن يقال فيها: أنه منزه عن مماثلة المخلوقين من كل وجه، لا يماثل المخلوق لا في نزول، ولا في حركة، ولا انتقال ولا زوال، ولا غير ذلك. وهذه سبيل من اعتصم بالعروة الوثقى.

الوجه الرابع: يقال لهم: رب العالمين إما أن يقبل الاتصاف بالإتيان والمجيء والنزول وجنس الحركة، وإما أن لا يقبله؛ فإن لم يقبله كانت الأجسام التي تقبل الحركة ولم تتحرك أكمل منه؛ وإن قبل ذلك ولم يفعله كان ما يتحرك أكمل منه؛ فإن الحركة كمال للمتحرك، ومعلوم أن من يمكنه أن يتحرك بنفسه أكمل ممن لا يمكنه التحرك، وما يقبل الحركة أكمل ممن لا يقبلها.

=

=

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن نزهه عن نزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا، ودنوه عشية عرفة من أهل الموقف، ومجيئه يوم القيامة للقضاء بين عباده، فرارا من تشبيهه بالأجسام، فقد شبهه بالجماد الذي لا يتصرف ولا يفعل ولا يجيء ولا يأتي ولا ينزل».

الوجه الخامس: أن يقال: النزول والصعود والمجيء والإتيان، ونحو ذلك مما هو من أنواع جنس الحركة لا نسلم أنه مخصوص بالجسم الصناعي الذي يتكلم المتكلمون في إثباته ونفيه، بل يوصف به ما هو أعم من ذلك. ثم هنا طريقان:

(أحدهما): إن هذه الأمور توصف بها الأجسام والأعراض فيقال: جاء البرد، وجاء الحر، وجاءت الحمى، وهي أعراض. وبه يعلم أن أنواع جنس الحركة كالنزول ونحوه ليس من خصائص الأجسام، فيجوز أن يوصف بها الله مع أنه ليس بجسم.

(الطريق الثاني): أن يقال: المجيء والإتيان والصعود والنزول توصف به روح الإنسان التي تفارقه بالموت، وتسمى النفس، وتوصف به الملائكة. وليس نزول الروح وصعودها من جنس نزول البدن وصعوده، فإن روح المؤمن تصعد إلى فوق السماوات ثم تهبط إلى الأرض فيما بين قبضها ووضع الميت في قبره. وهذا زمن يسير لا يصعد البدن إلى فوق السماوات ثم ينزل إلى الأرض في مثل هذا الزمان.

وإذا كانت الروح تعرج من النائم إلى السماء مع أنها في البدن كما قال تعالى: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى} [الزمر: ٤٢]، علم أنه ليس عروجها من جنس عروج البدن الذي يمتنع هذا فيه.

وعروج الملائكة ونزولها من جنس عروج الروح ونزولها، لا من جنس عروج

=

=

البدن ونزوله.

و «نزول» الرب ﷻ فوق هذا كله وأجل من هذا كله؛ فإنه تعالى أبعد عن مماثلة كل مخلوق من مماثلة مخلوق بمخلوق.

وإذا عرف هذا: فإن للملائكة من ذلك ما يليق بهم، وأن ما يوصف به الرب تبارك وتعالى: هو أكمل وأعلى وأتم من هذا كله، وأولى بالإمكان، وأبعد عن مماثلة نزول الأجسام، بل نزوله لا يماثل نزول الملائكة وأرواح بني آدم.

ومن ظن أن ما يوصف به الرب ﷻ لا يكون إلا مثل ما توصف به أبدان بني آدم؛ فغلطه أعظم من غلط من ظن أن ما توصف به الروح مثل ما توصف به الأبدان.

وخلاصة هذه الشبهة وما تدور عليه عند جميع من يحتج بها سواء من الجهمية أو من غيرهم «إن النزول نقلة، والنقلة من خصائص الأجسام فيلزمها لوازم تمتنع في حق الله تعالى»، وهذه اللوازم التي يذكرونها تلزم فيمن ليس بإله، ورب للخلق. والله سبحانه وتعالى «منزه أن تكون صفاته مثل صفات الخلق كما كان منزها أن تكون ذاته مثل ذوات الخلق فمجيئه وإتيانه ونزوله على حسب ما يليق بصفاته من غير تشبيه وكيف».

وما أحسن قول الشاعر:

الرب رب وإن تنزل والعبد عبد، وإن ترقى!.

الشبهة الرابعة: قال السقاف: لا يمكن أن ينزل بذاته كما تتخيل المجسمة إلى السماء الدنيا؛ لأن في ذلك حلول الخالق في المخلوق، وهو كفر بواح.

اعلم - سلمك الله من الشبهات والشهوات - بأن «الأوهام الباطلة والعقول الفاسدة لما فهمت من نزول الرب ما يفهم من نزول المخلوق - وهو أن يفرغ مكانا ويشغل مكانا - نفت حقيقة ذلك فوقعت في محذورين: محذور التشبيه ومحذور التعطيل. ولو علمت هذه العقول الضعيفة أن نزوله سبحانه لا يشبه

=

=

نزول المخلوق كما أن سمعه وبصره وعلمه وحياته كذلك. وإذا كان نزولا ليس كمثله نزول فكيف تنفي حقيقته»؟!

والكلمات المذكورة باطلة وعن حلى التحقيق عارية.

وزعم السقاف أن من قال ينزل بذاته أنه مجسم حلولي: قول بلا علم وكذب وافتراء: {إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون} [النحل: ١١٦].

والسقاف وأمثاله لم يفهموا من نزول الخالق إلى السماء الدنيا إلا كما فهموا من نزول المخلوقات، «وهذا عين التمثيل، ثم إنهم بعد ذلك جعلوه كالواحد العاجز منهم الذي لا يمكنه أن يجمع من الأفعال ما يعجز غيره عن جمعه» وكذبوا في هذا الفهم، وضلوا في هذا الظن والوهم الكاسد.

فإن الله سبحانه وتعالى قال: {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون} [الزمر: ٦٧].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟!»

فمن هذه عظمته، كيف يحصره مخلوق من المخلوقات. سماء أو غير سماء؟! حتى يقال: إنه إذا نزل إلى السماء الدنيا صار العرش فوقه، أو يصير شيء من المخلوقات يحصره ويحيط به سبحانه وتعالى

والله – ولله المثل الأعلى – أعظم من أن يظن ذلك به، وإنما يظنه الذين {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون} [الزمر: ٦٧]

قال شيخ الاسلام رحمه الله: العلي الأعلى العظيم، فهو أعلى من كل شيء، وأعظم من كل شيء. فلا يكون نزوله وإتيانه بحيث تكون المخلوقات تحيط به، أو تكون

=

=

أعظم منه وأكبر، وهذا ممتنع.

فالمخلوق إذا نزل من علو إلى سفل زال وصفه بالعلو وتبدل إلى وصفه بالسفول، وصار غيره أعلى منه.

والرب تعالى لا يكون شيء أعلى منه قط، بل هو العلي الأعلى، ولا يزال هو العلي الأعلى مع أنه يقرب إلى عباده ويدنو منهم، وينزل إلى حيث شاء، ويأتي كما شاء. وهو في ذلك العلي الأعلى، الكبير المتعال، علي في دنوه، قريب في علوه.

فهذا وإن لم يتصف به غيره فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا وهذا. كما يعجز أن يكون هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ونزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا سلام مما يضاد علوه، وسلام مما يضاد غناه وكماله، سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه، وسلام من أن يصير تحت شيء أو محصورا في شيء. تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله.

فتبين بهذا الكلام النفيس، بطلان ما ذكره السقاف؛ وأنه مبني على شفا جرف هار من الخيالات والأوهام.

وليتأمل السقاف وأمثاله من أهل الكلام الأثر التالي:

قال محمد بن حاتم المظفري: سمعت عمرو بن محمد يقول: كان أبو معاوية الضرير يحدث هارون الرشيد، فحدثه بحديث أبي هريرة: «احتج آدم وموسى» فقال علي بن جعفر: كيف هذا وبين آدم وموسى ما بينهما؟! قال: فوثب به هارون وقال: يحدثك عن الرسول ﷺ وتعارضه بكيف؟! فما زال يقول حتى سكت عنه.

قال المحدث الصابوني معقبا: هكذا ينبغي للمرء أن يعظم أخبار رسول الله ﷺ ويقابلها بالقبول والتسليم والتصديق، وينكر أشد الإنكار على من يسلك فيها غير هذا الطريق الذي سلكه هارون الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع من اعترض على الخبر الصحيح الذي سمعه بـ «كيف»؟! على طريق الإنكار له، والابتعاد عنه، ولم يتلقه بالقبول

=

=

كما يجب أن يتلقى جميع ما يرد من الرسول ﷺ.

جعلنا الله سبحانه من الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه ويتمسكون في دنياهم مدة حياتهم بالكتاب والسنة، وجنبنا الأهواء المضلة والآراء المضمحلة والأسواء المذلة، فضلا منه ومنة.

وفي ختام الرد على الشبهات الواردة على حديث التنزيل نقول وبالله التوفيق: إن «الحق الحقيق الذي ينبغي عليه التعويل أن نؤمن بما وصل إلينا عن طريق محمد رسول الله ﷺ، بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الآخر من الليل، ويقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟!

ولا يغتر بما فاه به: جمع من أهل الكلام، ورهط من أصحاب الأوهام؛ الناكبون عن الصراط السوي، والمنهج النبوي. الجامدون على سير المنطقيين والمتفلسفين، فإنهم بمعزل عن طريقة السلف الصالحين، وعلى مراحل شاسعة عن منهاج المتقين، الذين يؤمنون بالغيب ومما رزقناهم ينفقون.

فدع عنك نهبا صيح في حجراته وهات حديثا ما حديث الرواحل».

الفهرس

